الحياة الأدبية

في العصر العباسي

تأليف

محمد عبد المنعم خفاجي

نشر

رابطة الأدب الحديث

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

بالقاهرة

١٩٥٤

دار العهد الجديد للطباعة
الخرنفش ٤٦ ب القاهرة

هــــذا الكتاب

من العسير جداً أن يكتب الكاتب بحثا عن الأدب العباسي ، لتعدد مصادره ، وتوزع مراجعه ، وغموض معارفنا عن الأدب وحياته فيه ، وعن الأعلام النابغين من أدبائه وشعرائه وكتابه .

والكتب التي ألفت عن الأدب العباسي قليلة ، موجزة ، لاتشفي غلة الباحث، الظامىء إلى معرفة الحقائق الأدبية من ينابيعها الأولى .

لهذا حبب إلى الكتابة في الأدب العباسي ، والتأليف فيه ، والبحث عن الينابيع التي أمدته بالنمو والازدهار والنهضة .. وكتابي هذا ثمرة مجهود شاق ، وعمل متواصل ، وبحث طويل ، وفيه صور دقيقة عميقة للحياة الأدبية في هـــذا العصر السحيق ، وترجمات وافية لأعلام الكتاب والادباء والنقاد والشعراء ، وإشارة إلى مصادر الادب العباسي التي تعين الباحث والدراس

وأنا أقدمه للقراء ، ليكمل الحلقة التي بدأتها بكتابي : «الحياة الادبية في العصر الجاهلي »، و «الحياة الادبية بعد ظهور الاسلام » ، وبكتابين آخرين اشتركت في تاليفهما مع أساتذة فضلاء ،وهما : الادب العربي بين الجاهلية والاسلام، و «الأدب العربي في ظلال الامويين والعباسيين» ، وبكتبي الاخرى التي نشرت من قبل من أمثال : موقف النقاد من الشعر الجاهلي ، والشعراء الجاهليون ، وأشعار الشعراء الجاهليين ، وبكتابين آخرين اشتركت مع أصدقاء أعزاء لي في نشرها ، وهما : أعلام الشعر الجاهلي ، وأعلام الأدب العربي .

وإني لأعتذر للقراء عما يكون في الكتاب من تقصير ، لأن تأليف مثل هذا الكتاب مع هذا الجهد المضني المرهق ، أمر يعصب مناله إلا على الصابرين العاكفين في محراب العلم ، المؤمنين بالله وفضله وتوفيقه .

وأرجو أن يتيح لي الله من بعد نشر كتب مخطوطة أخرى لي، تكمل هذه السلسلة وهي :أعلام الادب في عصر بني أمية ، وأعلام الادب الحديث، والحياة الأدبية بعد العصر العباسي .

ومن الله التوفيق،وأساله الصواب والسداد ، إنه أكرم مسئول، وأفضل مأمول..
وما توفيقي إلا بالله ، عليه توكلت، وإليه أنيب .. المؤلف

مقدمـــة

كان العصر العباسى (١٣٢ — ٦٥٦ ﻫ = ٧٥٠ — ١٢٥٨ م) حافلا بشتى التيارات الفكرية والعلمية والأدبية ، وهو عصر النهضة والازدهار فى الآداب العربية ، وقد ورث العباسيون بنى أمية بالغلبة والقهر وثلواعرشهم بيد صنائعهم من الأعاجم ، ولكن كان البون شاسعا والفرق بعيدا بين ماهنا وهناك فى شتى المظاهر ، فى نظام الخلافة وأساليب الحكم ومظاهر الحياتين الفكرية والاجتماعية ، وما إلى ذلك كله مما كان أثرا محتوما لسيطرة العنصر الفارسى على أعنة الشئون الداخلية والخارجية صغيرها وكبيرها فى المملكة الاسلامية ، فهذه المداخلة العنيفة نقلت الحكم الاسلامى من طور إلى طور ، وأثرت فى الحياة العربية تأثيرا كسرويا خالصا ، وأورثت العرب من ضروب المدنيات ماهضموه وتمثلوه ، فاضافوا إليه كثيرا من ألوان ومظاهر التجديد. ولقد كان عصر نفوذ الخلفاء العباسيين عصر ازدهار فى النهضة الفكرية والأدبية ، بعامل تشجيع الخلفاء للعلوم والآداب .. وفى عصر اضمحلال نفوذ الخلافة العباسية أخذ العلم والأدب فى الازدهار كذلك ، بسبب تشجيع الدويلات التى انشعبت من المملكة الإسلامية واستقلت ، فقد كان لكل دولة عاصمة تنافس بغداد النفوذ والسلطان والحضارة ، ومالبثت بغداد نفسها ان عادت إلى سيرتها الأولى ، حين سيطر البويهيون عليها ، وبذلك كان فى انقسام الدولة وتقطعها ، قوة للعلم ، ورواج للأدب ، وإن كان فيه ضعفها السياسى . . فقد تعددت مراكز العلم والأدب وكثرت أمام المنتجعين الموارد ، وبعد أن كان لا يذكر فى هذا المقام إلا بغداد ، صار يضارعها فى الذكر القاهرة ، وحلب ، والرى ، وبخارى ، ونيسابور ، وغيرها ، وأخذ ملوك هذه الدول ، وأمراؤها ، ووزراؤها ، يتسابقون إلى اجتذاب العلماء والأدباء ، ويتبارون فى الاحتفال بهم ، وإجزال العطاء لهم ، بدافع ما كان بينهم من تنافس ، وما يستكن فى نفوسهم من حب الشهرة ، وحسن الأحدوثة ، وما فى طبائع أكثرهم من ميل للأدب وتعلق به ، فقد كانوا بين عرب ، ومتعربين هم إلى العروبة أقرب ، وحسبنا أن نذكر الفاطميين والحمدانيين ، والبويهيين ، ففضلهم على الأدب لم يقف عند حد التشجيع والمكافأة ، بل تعداه إلى المشاركة فى ميدانه ، مشاركة جد وسبق ، فعد فى الشعراء تميم بن المعز الفاطمى ، وأبو فراس الحمدانى ، وعضد الدولة البويهى .

وكان من نتائج هذه المنافسة أن كثر عدد الشعراء والكتاب والعلماء كثرة لم نرها

من قبل ، ولم تكن من بعد ، وكان حب العباسيين للعلوم والآداب ، وبذلهم بسخاء في هذا السبيل ، مما جعل عاصمة الخلافة مهبط العلماء من كل فج وصوب ، سواء في ذلك بغداد أوسامرا ، فانتقلت إلى المسلمين علوم الامم القديمة المتمدينة فهضموها وتمثلوها وأجادتها قرائحهم ، وعملوا على تنميتها ، فألف العلماء كتبا كثيرة بعد ذلك ، امتزج فيها العقل الشرقي بالعقل الغربي. فلما اضمحلت الخلافة وقامت دول وإمارات في أطرافها وعلى أنقاضها أخذ ملوكها وسلاطينها يشجعون العلم والمعارف ويكثرون من العلماء لتنافس عواصمهم مدينة بغداد ، وأقيمت المدارس والمكاتب ذوات الاثر البعيد في التهذيب والتثقيف الاسلامي، وتسربت إلى أوربا عن طريق المسلمين في الأندلس الذين نقلوا اليها حضارة الشرق الروحية منها والمادية .

ولم تقف حركة النقل من اليونانية عند هذه الكتب ولا عند هؤلاء المؤلفين، بل امتدت إلى كتب كثيرة في علوم متنوعة في الهندسة والحساب والنجوم والميكانيكيات لإقليدس وأرخميدس وابلونيوس ومنالاوس وبطليموس القلوذي وابرخس ؛ ثم نقلت كتب أخرى من الفارسية مثل كليلة ودمنة ومزدك والتاج في سيرة انوشروان والأدب الكبير والأدب الصغير واليتيمة وسير الملوك ، وكذلك من الهندية كتب في الطب والنجوم والرياضيات والحساب والاسمار والتواريخ : مثل كتب مختصر الهند في العقاقير والعلاجات للهند والتوهم في الامراض والعلل ورأى الهند في احتباس الحيات وسمومها وجوامع الموجود لخواطر الهنود في حساب التنجيم وخيال الكسوفين عند الهند . . بينما كانت الممالك الغربية مغمورة إذ ذاك في بحور من الجهالة والظلمة ، ثم انتقلت هذه الحضارة الاسلامية إلى شتى الاقطار عن طريق مدينة القسطنطينية وسواها .

ولا تزال النهضة الأدبية في العصر العباسي محل بحث الباحثين ، ودرس الدارسين ولم تكشف عقول العلماء حتى اليوم عن أسرارها وأسبابها .

وفي هذه الفصول حديث طويل عن الحياة الأدبية في العصر العباسي ، بشيء من التفصيل ، ولون من التحليل ، مع تراجم واسعة لأعلام الأدباء والكتاب والشعراء والمفكرين ، ومع شرح مظاهر هذه النهضة وألوانها ، والحديث عن صورها وفنونها ، والافاضة في النقد والدراسة والبحث والتحليل، والترجمة لأعلام الأدباء والكتاب والنقاد والعلماء والشعراء والخطباء ، على نمط واسع من التعمق والاستيعاب ، مما سيلمسه القارىء لهذا الكتاب .

الحياة السياسية فى العصر العباسى

تنقسم الفترة الأولى من تاريخ الدولة العباسية (١٣٢ — ٣٣٤هـ) إلى عصرين: العصر العباسى الأول، والعصر العباسى الثانى (١)

وإذا كان العصر العباسى الأول (١٣٢ — ٢٣٢ هـ) يمتاز بقوة الخلافة وعظمة الخلفاء ومجد الدولة، وبنفوذ الفرس فيه. فان العصر الثانى (٢٣٢ (٢) — ٣٣٤هـ) يتسم بضعف الخلافة، وضياع هيبة الخلفاء وفساد شؤون الدولة، وذلك بسبب نفوذ الأتراك الذى بلغ حداً كبيراً فى هذا العصر

وأول من استخدم الأتراك فى الجيش الخليفة المنصور المتوفى عام ١٥٨ هـ، ولكنهم كانوا شرذمة صغيرة لاشأن لها فى الدولة بجانب الفرس والعرب (٣)، وألف المأمون فرقة صغيرة منهم لبسالتهم كانوا بعيدين عن شئون الدولة وسياستها لميل المأمون إلى الفرس أخواله.

وكانت أم المعتصم «ماردة» تركية من السغد، فنشا ومعه كثير من طبائع الأتراك مع الميل اليهم لأنهم أخواله، وشاهد المعتصم جرأة الفرس وتطاولهم على الخلافة بعد قتل الأمين (٤) فصار يخافهم على نفسه وضاعت ثقته بهم، كما ضاعت ثقته بالعرب، فأخذ يتقوى بالأتراك ويتخير منهم الأشداء يبتاعهم بالمال من مواليهم، حتى اجتمع لديه آلاف من قبل أن تفضى اليه الخلافة (٥).

---

(١) يسير على هذا التقسيم كثير من الباحثين (ص ٩ جـ ٢ تاريخ آداب اللغة لزيدان، و ٥ جـ ٤ التمدن الاسلامى، ١ ، ٢ تاريخ الادب العربى للزيات، ص ب جـ ١ ضحى الاسلام). ويجعل بعض الباحثين العصرين عصراً واحداً (٣ آداب اللغة فى العصر العباسى الأسكندرى، ١٦ تاريخ الادب العربى فى العصر العباسى لمحمود مصطفى، ١٦٥ جـ١ المفصل) (٢) ويرى بعض الكتاب أن ابتداءه الفعلى بمقتل المتوكل عام ٢٤٧

(٣) ١٦٧ جـ ٤ التمدن الاسلامى.

(٤) قال طاهر بن الحسين وهو فارسى:

أيسومنى المأمون خطة عاجز ... أو ما رأى بالامس رأس محمد؟

(٥٧ / ١ العقد الفريد) وينسب لدعبل (٢٦٦/٧ مهذب الاغانى، ٥٢ / ٢ آداب اللغة لزيدان، ٣٥٠ الشعر والشعراء) (٥) ١٦٨/٤ التمدن الاسلامى

ولما مات المأمون سنة ٢١٨ هـ كان هوى الحزب الفارسى مع ابنه العباس ونادوا به خليفة ، ولكن العباس بايع لعمه المعتصم فسكن الجند (١) ، فكان ذلك أيضاً مما زاد من تقريب المعتصم للجند وإيثاره لهم ،

وفى عام ٢٢٠ هـ استقدم المعتصم عدداً كبيراً من الأتراك ، اشتراهم وبذل فيهم الأموال ، وبلغت عدتهم ثمانية عشر ألفا (٢) ثم ازداد عددهم فى جيشه حتى بلغوا السبعين ألفا (٣) . ولما ضاقت بهم بغداد ، وكثرت الخصومات بينهم وبين الجمهور، وبينهم وبين الفرس أتى المعتصم سامرا على شاطىء دجلة وعلى مسيرة ثلاثة أيام من بغداد ، فاتخذها معسكراً لجيشه ، وحاضرة لملكه ، منذ عام ٢٢١ (٤) هـ ، وأصبحت مدينة عظيمة فى مدة وجيزة (٥)، وصارت من أجل الحواضر الاسلامية وظلت مقر الخلافة حتى عام ٢٨٩ (٦) هـ .. أسلم الأتراك ، وأخذوا يتعلمون العربية ويتكلمون بها ، وصاروا موضع ثقة الخليفة وإيثاره ، وكان ذلك ضربة قاضية على العرب ونفوذهم فى الدولة ؛ وكتب المعتصم إلى عماله باسقاط من فى دواوينهم من العرب وقطع العطاء عنهم وأنزلهم عما كان لهم من قيادة الجيوش ومنعوا الولايات (٧) :

وانتقلت سياسة الدولة من أيدى الفرس إلى أيدى الاتراك (٨) ، الذين أخذوا ينكلون بالفرس والعرب جميعاً ، وسعوا فى قتلهم ، وموقف الافشين من أبى دلف وأمره بقتله لولا أن أنقذه ابن أبى دؤاد معروف (٩)

ولم يمض غير قليل حتى كان لهم النفوذ والسيطرة على الخلافة والخلفاء ، وخاصة بعد فتح عمورية وقتل بابك عام ٢٢٣ هـ ؛ وصار أكثر الوزراء وجميع قادة الجيش منهم ، واشتهر من بينهم الافشين م ٢٢٦ هـ واشناس م ٢٣٠ هـ ، وإيتاخ م ٢٣٥ هـ وسواهم ، وتغلغل نفوذهم فى جميع مناصب الدولة لكثرتهم وبسالتهم وتاييد الخلفاء لهم ، حتى ان الواثق (٢٢٧ — ٢٣٢ هـ) استخلف عام ٢٢٨ هـ اشناس التركى على السلطنة وألبسه وشاحين وتاجا (١٠) ، وفى عهده نكل بغا الكبير وجيشه بكثير

---

(١) ٣٠٤ / ١٠ الطبرى (٢) ٢٢٣ / ٢ النجوم الزاهرة (٣) ٤ العصر العباسى للسباعى بيومى (٤) ٩ / ٤ ومابعدها مروج الذهب (٥) ٥٢ و٥٣ تاريخ الحضارة لبارتولد (٦) ١٠٠ /١ ظهر الاسلام . (٧) ١٤٤/٤ التمدن ، ١٦٥ حضارة الاسلام فى دار السلام (٨) ١٧٠ جـ ٤ التمدن (٩) ٥٤ الاذكياء لابن الجوزى .

(١٠) ١٣٥ تاريخ الخلفاء .

من العرب (١) .. ولما مات الواثق عام ٢٣٢ هـ ، سعى الاتراك فى ترشيح جعفر المتوكل بن المعتصم للخلافة ، لأن أمه « شجاع » خوارزمية تركية، فتم لهم ما أرادوا ، واستبدوا فى عهده بأمور الدولة وشئون الخلافة، واضطهد الخليفة الشيعة وأكثرهم فارسيون ، وزاد فى رعاية الأتراك وتقديمه لهم ، فزاد طمعهم فى الدولة، وأصبحوا مصدر قلق واضطراب ، فهم يكرهون الفرس والعرب ، وهم كثيرو الدسائس والمؤامرات ، كثيرو الطمع فى الأموال ، والعبث بالأمن .

ندم المتوكل على ما فرط ، وأخذ يعمل على كبح جماح الأتراك ، فحبس إيتاخ حتى مات عام ٢٣٥ هـ ، وأراد عام ٢٤٣ هـ نقل العاصمة من سامرا إلى دمشق ، لكن ذلك لم يتم له ، ثم عزم على قتل وصيف وبغا وغيرهما من قواد الأتراك ووجوههم ، ولكنهم كانوا يحكمون تدبيراً آخر لقتل الخليفة (٢) ؛ وتقدم باغر التركى حارس المتوكل ، ومعه عشرة غلمان من الأتراك ، ينفذ المؤامرة التى دبرها القواد الأتراك ، ومعهم المنتصر الذى كان أبوه المتوكل يكرهه ويوشك أن يعزله من ولاية العهد ؛ ودخلوا على الخليفة فقتلوه فى قصره الجعفرى، وقتلوا معه وزيره الفتح بن خاقان ، وذلك فى أواخر عام ٢٤٧ هـ(٣) .

وكان قتل المتوكل أول حادثة اعتداء على الخلفاء العباسيين وكانت هذه الحادثة مصرع الخلافة ومجد الأتراك .

وفى ذلك يقول البحترى :

أكان ولى العهد أضمر غدرة فمن عجب أن ولى العهد غادره
فلا ملك الباقى تراث الذى مضى ولا حملت ذاك الدعاء منابره

ويقول المهلبى :

لا حزن إلا أراه دون ما أجد وهل لمن فقدت عيناى مفتقد

ومنها : فلو جعلتم على الأحرار نعمتكم حمتكم السادة المذكورة الحشد

ورأى يزيد المهلبى هذا يشبه رأى اسحاق بن ابراهيم المصعبى م ٢٣٥ هـ فى الأتراك حين شكا المعتصم غدر من اصطنعهم من قوادهم مع وفاء من اصطنعهم

(١) ١٢ جـ ١١ الطبرى . (٢) ٦٥ — ٦٧ جـ ٤ مروج الذهب.

(٣) راجع مقتل المتوكل ومراثى الشعراء فيه فى (٢٦٠ — ٢٦٤ جـ ١ زهر الآداب) ، ومرثية يزيد المهلبى فيه فى (٣١١ جـ ٢ وما بعدها من الكامل للمبرد ، ١٨٦ جـ ٢ العقد ، ٢٦٣ جـ ١ زهر الآداب)

أخوه المأمون من الرجال له (١)

ويقول على بن الجهم :

عبيد أمير المؤمنين قتلنه وأعظم آفات الملوك عبيدها

بنى هاشم صبرا لكل مصيبة سيبلى على وجه الزمان جديدها

وإذا كان الشعب يكره الأتراك من بدء اصطناع المعتصم لهم ، فان هذه المأساة المؤلمة كانت سببا فى زيادة كراهية الرأى العام لهم ، ونقمته عليهم .

ازداد عقب ذلك نفوذ الأتراك فى عهد المنتصر (٢٤٧ — ٢٤٨ ه) ، ثم فى عهد المستعين (٢٤٨ — ٢٥٣ ه) ، ثم عادوا فخلعوه من العرش ثم قتلوه وأقاموا مكانه فى الخلافة المعتز بالله ابن المتوكل عام ٢٥٢ ه .

كان المعتز يكره الأتراك ، ويريد أن يثأر منهم لأبيه ، ففى عهده قتل وصيف عام ٢٥٣ ه ، ثم بغا عام ٢٥٤ ه ، وفى مصرعه يقول البحترى من قصيدة مدح بها المعتز بالله : (٢)

أضحى بغاء وأقربوه وحزبه وكأنهم حلم من الاحلام

طاحوا فما بكت العيون عليهم بدموعها ومضوا بغير سلام

وبعد قليل سار الأتراك الى المعتز فوبخوه وطالبوه بالأموال ، ثم عذبوه وضربوه بالدبابيس ، وجروه برجله إلى باب الحجرة ، وأقاموه فى الشمس حافياً ، وكان بعضهم يلطمه وهو يتقى بيده ، فخلع المعتز نفسه عام ٢٥٥ (٣) ه ؛ ثم حبسوه وقتلوه ؛ وولوا مكانه المهتدى بن الواثق ، الذى لم يعجبهم زهده وورعه وحبه للعدالة ، فخلعوه عام ٢٥٦ ه . ومات بعد خلعه بأيام .

وفى عهد المعتمد (٢٥٦ - ٢٧٩ ه) اشتد الخلاف بين فرق الأتراك ، فطلبوا أن يكون القائد الأعلى للجيش أحد إخوة الخليفة ، وألا يرأسهم أحد منهم ، فولى المعتمد أخاه الموفق أمر الجيش والولايات عام ٢٥٧ ه ، وبعد قليل أصبح السلطان الفعلى للموفق لا للمعتمد ، وصارت كلمته هى العليا على الأتراك وقوادهم ، فكبح غير قليل من جماحهم وأثر ذلك فى حسن الأحوال قليلا .

وسار المعتضد بن الموفق فى خلافته (٢٧٩ - ٢٨٩ ه) سيرة أبيه ، فعمل على رفع شأن الخلافة ، والحد من نفوذ الأتراك بقدر ما استطاع ، ولم يحابهم على حساب

---

(١) راجع ٨ ج ١١ الطبرى (٢) راجع ٢٣٤ - ٢٣٦ ج ٢ ديوان البحترى

(٣) ١٦٢ ج ١١ طبرى ، ١٣٠ ج ٢ شذرات الذهب ، ١٢٠ ج ٤ مروج الذهب

القانون والعدالة ، فاقتص من تركى ارتكب معصية (١) ، وقتل قائداً تركيا قتل غلاماً له ومدحه ابن الرومى على ذلك (٢) ، وفى المعتضد يقول ابن المعتز من أرجوزته فى تاريخه :

قام بامر الملك لما ضاعا　　وكان نهباً فى الورى مشاعا
وكل يوم ملك مقتول　　وخائف مروع ذليل
وكل يوم شغب وغصب　　وأنفس مقتولة وحرب
وكم فتاة خرجت من منزل　　فغصبوها نفسها فى المحفل
ويطلبون كل يوم رزقاً　　يرونه ديناً لهم وحقا
كذاك حتى أفقروا الخلافة　　وعودوها الرعب والمخافة

ومات المعتضد ، فسار ابنه المكتفى (٢٨٩ - ٢٩٥ هـ) فى خلافته بسيرة والده من الحزم والعزم والأخذ على يد الأتراك .

وبعد وفاته ولى الأتراك أخاه المقتدر العرش بعده ، وكان طفلا صغيراً ، وأيدوا عرشه ببطشهم وظل خليفة الى عام ٣٢٠ هـ

وهكذا كانت أمور الدولة فى العصر العباسى الثانى تسير فى طريق بعيد عن المالوف وتتجمع كل سلطة ونفوذ فى يد الأتراك ، الذين لم يبالوا بشىء فى سبيل أهوائهم وشهواتهم ، واعتدوا على قدسية الخلافة وجلال الخلفاء . وكانوا كثيراً ما ينهبون الدور ، ويتعرضون للحرم والغلمان ، فكرههم الناس كرهاً شديداً ، وكان نفوذهم فى الدولة جرحاً دامياً يؤلم كل عربى صميم ، حتى هجا دعبل المتوفى ٢٤٦ هـ المعتصم لشدة تعصبه لهم :

لقد ضاع أمر الناس حيث يسوسهم　　وصيف وأشناس وقد عظم الخطب
وهمك تركى عليه مهانة　　فانت له أم وأنت له أب

ويقول العلوى صاحب الزنج م ٢٧٠ هـ :

بنى عمنا وليتم الترك أمرنا　　ونحن قديماً أصلها وعمودها
فما بال عجم الترك تقسم فيئنا　　ونحن لديها فى البلاد شهودها
فاقسم لاذقت القراح وإن أذق　　فبلغة عيش أو يباد عميدها (٣)

وقد قام الشعب بعدة ثورات ، أهمها ثورة عام ٢٤٩ هـ التى اشترك فيها الجند

(١) راجع نشوار المحاضرة جزء ١ ص ١٥٢ (٢) ديوان ابن الرومى ص ٣٠٣
(٣) زهر الآداب جـ ١ ص ٣٣١

الشاكرية ، وقضى عليها الأتراك بعنف وقوة . وقد حاول بعض زعماء الأتراك التخفيف من حدة شعور الرأى العام وبغضه لهم ، وقاموا بدعايات كثيرة ، كان من أبرعها رسالة كتبها الجاحظ بايحاء الفتح بن خاقان وحاول بها إيجاد جو من الثقة والتفاهم والألفة بين الأتراك وجمهور الشعب، وقدقدمها الجاحظ الى الفتح ، والظاهر أنه كتبها فى أيام المعتصم ، ولكنها لم تصل إليه بفعل حاشيته من الفرس والعرب فأعاد كتابتها من جديد فى عهد المتوكل ، ودعا فيها إلى وحدة الأجناس والعناصر وأشاد فيها بالأتراك وبطولتهم الى حد بعيد (١) .وهذه المحاولة وسواها من المحاولات قد فشلت جميعاً فى الوصول الى الغرض المنشود .

وامتاز العصر الثانى بنفوذ الغلمان فيه ، وخاصة فى آخره وفى عهد المقتدر ، الذى كان عنده أحد عشر ألف خادم من الروم والسودان (٢) ، وتولى كثير من الخدم قيادة الجيوش وأهم الأعمال فى الدولة ؛ كبدر غلام المعتضد ؛ الذى تولى قيادة الجند ونقش اسمه على الاعلام ؛ وأبلى فى خدمة مولاه بلاء حسناً ؛ حتى قتل فى سبيله عام ٢٨٩ هـ .

ونشطت النساء ، وكثر نفوذهن أيضاً فى الدولة ، وكان معظم ذلك فى عهد المقتدر لتسلط الخدم والحجاب .

وفى ظلال هذه الفوضى السياسية ، استقلت كثير من البلاد عن خلفاء بغداد، وأهم هذه الدول المستقلة : الدولة الطولونية بمصر (٢٥٤ - ٢٩٢ هـ) وهى تركية والدولة الأخشيدية بمصر (٣٣٢ - ٣٥٣ هـ) ، وهى تركية أيضاً ، والدولة الطاهرية بخراسان (٢٠٥ - ٢٥٩ هـ) وهى فارسية ؛ والدولة السامانية فى ماوراء النهر (٢٦١ - ٣٨٩ هـ) وهى فارسية أيضا ، والدولة الصفارية بفارس (٢٥٤ - ٢٩٠ هـ) والدولة الدلفية بكردستان (٢١٠ - ٢٨٥ هـ) وهى عربية ، والدولة العلوية بطبرستان (٢٥٠ - ٣١٦ هـ)

كما حفل العصر العباسى الثانى بكثرة ثورات العلويين وخروجهم على الخلافة ، مما تجد أخباره ونتائجه فى مقاتل الطالبيين ، وسبب ذلك راجع الى اضطهادهم واضطهاد شيعتهم .

فقد كثر اضطهاد الشيعة فى هذه الفترة الحافلة ، وأسرف فى ذلك المتوكل على الله

---

(١) راجع رسالة الجاحظ فى مناقب الترك وهى فى أول رسائل الجاحظ

(٢) راجع التمدن جـ ٤ ص ١٧٥ ، آداب اللغة لزيدان جـ ٢ ص ١٥٤

فانه لما تولى الخلافة اضطهد الشيعة ، وشدد النكير عليهم ، وصادر أموال العلويين وشيعتهم ، وغالى فى تشريدهم ، وأمر فى عام ٢٣٧ ﻫ بهدم قبر الحسين بكربلاء (١)

وكان الرشيد يقتل أولاد فاطمة وشيعتهم (٢) ، من حيث كان المأمون يرعى العلويين ولا يؤذى أحداً منهم (٣) .

وكان المتوكل يبغض المأمون والمعتصم والواثق لمحبتهم لعلى (٤) ، وكان شديد البغض لعلى وأهل بيته ، وذلك راجع لموضع خؤولته من الترك وسلطان الأتراك فى الدولة ، وتاريخ الأتراك مملوء بكرههم للتشيع والشيعة ، وبالحروب المتصلة بينهم وهم سنيون وبين الفرس وهم شيعة.. وبذهاب الشيعة ونفوذهم من بغداد ذهب نفوذ الفرس منها ، وغلبت السنة على الدولة من ذلك الحين .

وسرت فى الدولة بعد المتوكل موجة اضطهاد العلويين والشيعة ، فالمنتصر كان يقاوم العلويين كأبيه(٥) ، وتذكر بعض المصادر أنه أراد أن يحسن صلته بالبيت العلوى ولكن لم تطل مدته (٦)

ولكن عهد المعتضد كان عهد خير على العلويين ، فانه لم يتعرض فى أيامه لهم ولا آذاهم ولاقتل منهم أحداً (٧) .

وكان البعض يشنع على آل أبى طالب عند المكتفى فنهاهم عنه (٨) . . وعلى الجملة فان أغلب هذا العهد كان عهد محنة واضطهاد للعلويين ومن والاهم .

أما الفترة الثانية من حياة الدولة العباسية فتبدأ من عام ٣٣٤ ﻫ ، وتنتهى عام ٦٥٦ ﻫ ، وتمتاز بنفوذ الامارات الاسلامية فى العالم الاسلامى وقد بدأت هذه الفترة

---

(١) ٢٨٩ ج ٣ محاضرات فى تاريخ الامم الاسلامية للخضرى بك ، ١٩ ج ٧ وما بعدها ابن الاثير

(٢) العقد ج ١ ص ٢٤٩

(٣) راجع مناظرة المأمون للفقهاء فى تفضيل على (٢٧٩ — ٢٨٦ ج ٣ العقد)

(٤) ظهر الاسلام ص ٤١ ج ١

(٥) الادارة الاسلامية لكرد على ط ١٩٣٤ ص ١٧٣

(٦) ظهر الاسلام ص ٤٤ ج ١ (٧) الفرج بعد الشدة ص ١٣٣ ج ١

(٨) الاغانى ص ١٤٣ ج ٩

بدخول البويهيين بغداد سنة ٣٣٤ ﻫ ، حيث سيطروا على الحكم بدل الأتراك ، وهم من الجنس الفارسى، وبذلك عاد الفرس إلى السيادة ، وأقاموا ببغداد يتصرفون باسم الخليفة ، ولكنهم لم يكونوا كأسلافهم ، يرعون للخلفاء حرمتهم ، ويحفظون لهم جلالهم وهيبتهم ، بل حذوا حذو الترك فى التنكيل بهم ، والاستهانة بأقدارهم .

وكانت تضرب أسماء البويهيين على الدينار والدراهم ، ويخطب لهم على المنابر ويفوض إليهم الخلفاء كل ماوكل الله إليهم من شئون الرعية ، وتدبيرها فى جميع جهاتها مما يلى أمره الخليفة ، ولكن هذا لم يقنعهم فضيقوا عليهم فى الرزق وقدروا لهم النفقات ، وصادروهم على أموالهم ، وخلعوهم ، وسملوا عيونهم ، وقد احتاج بهاء الدولة إلى مال ، فدبر خلع الطائع ، فاستأذنه فى الحضور لتجديد العهد، فلما دخل قبل الأرض بين يديه وجلس ،وتقدم بعض الديلم كأنهم يريدون تقبيل يد الخليفة، فلما مدها إليهم ، جذبوه عن سرير الملك ، وهو يستغيث ، ونهبوا داره ، وامتهنوا من كان بحضرته من القضاة والأشراف ، وسلبوهم ثيابهم .

وقد اشتد فى بدء هذه الفترة نفوذ الامارات الاسلامية المستقلة المتباينة ومن اهمها .

١ - الدولة السامانية بفارس وما وراء النهر (٢٦١ - ٣٨٩ ﻫ)

٢ - « الزيارية بجرجان (٣١٦ - ٤٣٤ ﻫ)

٣ - « الحمدانية بحلب والموصل (٣١٧ - ٣٩٤ ﻫ)

٤ - « البويهية بفارس ثم العراق (٣٢٠ - ٤٤٧ ﻫ)

٥ - « الاخشيدية بمصر والشام (٣٢٣ - ٣٥٨ ﻫ)

ولقد كانت حال الخلفاء مع البويهيين مثل ما كانت عليه من قبل ، فظل البويهيون يستبدون بكل شيء ، ويعاملونهم بقسوة وعنف حتى دالت دولتهم ، وتغلب السلاجقة عليهم ، ودخلوا بغداد عام ٤٤٧ ﻫ

ورث السلجيوقيون الامارات الشرقية ، ماعدا مصر والشام ؛ واستولوا على ديوان الخليفة ببغداد حتى اصبح لاحل له ولاعقد ، واستمر ذلك الى زوال الخلافة حيث أغار عليها التتار بقيادة زعيمهم « هولاكو » فاستولوا على بغداد سنة ٦٥٦ ﻫ ١٢٥٨ م ، بمساعدة « مؤيد الدين بن العلقمى » وزير المستعصم آخر خلفاء بغداد وقتلوا الخليفة وأهله ومثلوا بهم . وبموت المستعصم سقطت الخلافة العباسية من بغداد ، وفر بعض الخلفاء الى مصر فى زمن الملك الظاهر بيبرس ، فأنزلهم وخصص

لهم بعض وظائف لمعاشهم ، وبقوا فيها الى أن انتقلت الخلافة الى العثمانيين سنة ٩١٢ هـ-١٥١٧ م

وفى خلال حكم السلجوقيين لم يعد شمل الدولة الاسلامية جميعا كما كان قبل ظهور الأتراك ، بل ظلت مفككة العرى مقطعة الأوصال ومن ضعفت شوكته فى ولايته ، تلقفها منه غيره ، بدل أن تعود إلى حوزة الخليفة بالعراق ، وظهر فى المشرق الاسلامى من الدول غير ما ظهر على أيام الاتراك ومن أشهر هذه الدول :

١ - الدولة الغزنوية فى السند وافغانستان (٣٥١ — ٥٨٢ هـ)
٢ - « الفاطمية « مصر والشام (٣٦٢ — ٥٦٧ هـ)
٣ - « العقيلية « ديار بكر والجزيرة (٣٨٦ — ٤٨٩ هـ)
٤ - « المزيدية من بنى أسد فى الحلة (٤٠٣ — ٥٤٥ هـ)
٥ - « المرداسية « كلاب فى حلب (٤١١ — ٤٧٢ هـ)

هذا غير ما تفرع من الدولة السلجوقية نفسها ، وتوزع منها ، من ممالك وأمارات ، لأحفادهم ، ومماليكهم ، وقوادهم ، كالخوارزمشاهية ، والأرتقية ، والاتابكية ، وسواها . وكذلك غير حلول الأيوبيين محل الفاطميين . . .

وبعد فقد دامت الخلافة العباسية خمسة قرون ، وكان عرش العباسيين فيها ملعباً للأهواء ، وتنقسم التطورات التى مرت بها إلى خمسة أدوار سياسية :

١ - فالدور الأول ، دور القوة المركزية ، أى قوة الخلافة ، يمتد من بدء الدولة إلى أواخر حكم المتوكل ، فيشغل أكثر من قرن من الزمان ٢٣٢ — ٢٤٧ هـ وقد بلغت فيه الخلافة أقصى قوتها وأزهى مظاهر مجدها ، وفى هذا الدور كانت بغداد عاصمة لسلطنة واحدة تمتد مما يقرب من الهند إلى تونس .

٢ - والدور الثانى ، دور الجندية (٢٤٧ - ٣٣٤ هـ) حيث كانت الخلافة تحت سيطرة الجند الأتراك الذين نظمهم المعتصم ، وقد نقل ديوان الخلافة إلى سامرا حيث بقى فيها نحواً من ٥٨ سنة قبل أن يعاد إلى بغداد .

٣ - والدور الثالث أو الدور البويهى (٣٣٤ - ٤٤٧ هـ) وكانت فيه السلطة بيد بنى بويه وكان الخليفة لا يملك من المال إلا راتباً يتقاضاه ، ولو أن البويهيين أبقوا للخلافة نفوذها الأسمى ، وصاروا يحكمون فى الدولة ظاهراً بإمرة الخلفاء .

وبقوا كذلك إلى أن ضعفوا ثم زال ملكهم بقيام السلاجقة . وقد دام هذا الدور أكثر من قرن حتى سنة سبع وأربعين وأربعمائة للهجرة .

والدور الرابع أو الدور السلجوقى (٤٤٧ - ٦٥٦ ﻫ) ، وينقسم إلى عهدين : عهد قوة السلجوقيين وينتهى عام ٥٩٠ ﻫ وفيه كانت السلطة للسلاجقة ، وهم قوم من الأتراك سلكوا مسلك البويهيين فى المحافظة على مظهر الخلافة وإبداء التبجيل لصاحبها

وعهد الاحتضار ويبدأ باحتضار دولة السلاجقة فى بغداد أيام الناصر حتى داهم المغول الخلافة سنة ست وخمسين وستمائة للهجرة ، فنهبوا بغداد وقتلوا آخر خلفائها ومحوا ما كان قائماً من معالمها ... هذا والعصر العباسى عامة يتميز بعدة مظاهر من أهمها :

١ ـ التنافس على السيادة بين العناصر الجنسية وأخصها العربى والفارسى والتركى.

٢ ـ ضعف الخلافة وتجزؤها إلى إمارات مستقلة .

٣ ـ الحركات الهدامة الداخلية .

٤ ـ غارات الروم والإفرنج على أطرافها .

الحياة الاجتماعية

كانت الدولة الاسلامية فى ذلك الحين مؤلفة من عدة عناصر أهمها :

الأتراك : وكان لهم النفوذ السياسى فى الدولة ، وقضوا على نفوذ الفرس والعرب جميعاً ، وتولوا شتى المناصب الرفيعة فى الحكومة . وأخلاقهم الاجتماعية ضعيفة(١) ؛ وكان فيهم عبث بالأخلاق ، وشراهة فى جمع الأموال(٢) ، وكانوا مشهورين بالجمال والنظافة، فكثرت الجوارى الأتراك فى قصور الخلفاء والأثرياء، حتى كان كثير من الخلفاء من أمهات تركيات ؛ وطابع الترك حب الجندية والفروسية والانتصار لمذهب أهل السنة ، والبعد عن الفلسفة والجدل فى الدين ، وحب المال وجمعه من أية سبيل ، مع عدم الرغبة فى الاصلاح .

العنصر الفارسى : كانوا عماد النظام السياسى والادارى للدولة ، ولكن الترك أقصوهم عن منزلتهم فى العصر العباسى الأول ، فأخذوا يدسون الدسائس ، ويدبرون المؤامرات ، ويرمون إلى الاستقلال ببلادهم عن الخلافة ؛ وكانت الدولة تتأثر بهم فى حياتهم العقلية الخصبة ، وعاداتهم وتقاليدهم العامة، وكانوا دعاة الترف

(١) ظهر الاسلام جزء أول صفحة ٣٢ (٢) المرجع نفسه صفحة ٣٤ ، ٣٥

والمجون والحضارة ، وطابعهم حب السيادة والبذخ والقدرة على تنظيم إدارة الدولة وتشجيع العلوم والظهور بمظهر التشيع .

العنصر العربى : أقصى عن النفوذ فى الدولة والخلافة ، وكان للمعتصم فى ذلك أثر معروف ، وكان نفوذ العرب أظهر ما يكون فى الشام والجزيرة حيث كونوا لهم هناك دويلات كثيرة . وطابع العربى الزهو والاعتزاز بالنفس والفضائل والميل إلى الأدب والرغبة فى السيادة .

وهناك عنصران آخران كان لهما أثرهما فى الحياة الاجتماعية فى هذا العصر وهما الزنج والروم : أما الروم فقد كثر أسراهم فى بيوت الخلفاء والأغنياء ، حتى كان بعض الخلفاء من أمهات تركيات . وكانت الجوارى الروميات والغلمان الروم يملأن القصور ، وتعشقهم الشعراء ، فكان للبحترى غلام رومى اسمه نسيم(١) ، وكذلك كان لسواه من الشعراء ، ومن هذا العنصر : ابن الرومى م ٢٨٣ هـ . وأما الزنج أو السود فكانوا يجلبون من سواحل افريقيا الشرقية ، وكانوا يعملون فى الزراعة والصناعة وفى بيوت الطبقات المتوسطة ، وليس أدل على كثرتهم وخطرهم من الثورة التى هددوا بها الدولة (٢٥٥ — ٢٧٠ هـ) ، وكانت حرباً بين الأجناس ، وظلت حتى قضى عليها الموفق عام ٢٧٠هـ .

وكان الفرق بين طبقة الخاصة وطبقة العامة كبيراً(٢) ، والنفوذ والثروة فى يد الخاصة من الناس مما يستلزم الترف واللهو والمغالاة فى البنيان . فقد أنفق المعتصم على بناء « سامرا » أموالا طائلة ، وكذلك فعل المتوكل فى بناء الجعفرى وسواه من المبانى التى أنفق عليها نحو خمسة ملايين من الدنانير . وبنى المعتضد قصر التاج فى الجانب الشرقى من بغداد وأتمه ابنه المكتفى ، وبنى المعتضد على بعد ميلين منه قصر الثريا الذى بلغ طوله ثلاثة فراسخ وأنفق عليه نحو نصف مليون من الدنانير ، ووصله بالقصر الحسنى بسرداب تحت الأرض بلغ طوله ميلين وكانت تمشى فيه جواريه وحرمه(٣). وفى تهنئة المعتضد بقصر الثريا نظم ابن المعتز قصيدته :

(١) معاهد التنصيص ص ١١٠/١ ـ مهذب الأغانى ج ٧ ص ٩٤ .

(٢) راجع الطبقات الاجتماعية وحياتها فى هذا العصر فى التمدن الاسلامى (٢٠ — ٥٩ / ٥ , ١٠١ — ١٢٩ / ٥) .

(٣) التمدن الاسلامى صفحة ٩٣ و ٩٤ ج٥ وظهر الاسلام ج ١ صفحة ٩٩ .

سلمت أمير المؤمنين على الدهر   ولا زلت فينا باقياً واسع العمر
حللت الثريا خير دار ومنزل   فلا زال معموراً وبورك من قصر
فليس له فيها بنى الناس مشبه   ولا ببناء الجن فى سالف الدهر

ويصف فى أرجوزته فى المعتضد قصر الرباب فيقول :

فمن رأى مثل الرباب قصراً   كم حكمة فيـــه تخال سحراً
أبنية فيها جنان الخـــلد   لكل ذى زهد وغير زهد
تخبر عن عز وعن تمكين   وحكمة مقرونة بالدين
ومظهرات قوة الاسلام   على أعاديه من الأنام

وهكذا كان الترف والنعيم حظ عدد قليل ، هم الخاصة من الناس وبعض رجال التجارة والصناعة . حين كان الفقر والبؤس والشقاء للعامة وهم أكثر الناس(١) .

وكان من مظاهر الترف فى هذا العصر ـ كما ذكرنا ـ كثرة الرقيق حتى امتلأت به القصور ، فكثر نسل الجوارى واختلطت الدماء ، وأشاع هؤلاء الجوارى فن الغناء ، كما نشرن اللهو والمجون بين شتى الطبقات .

ولتنوع الحياة الاجتماعية إلى خاصة وعامة وترف وفقر ونسك ولهو ، كانت البلاد معرضاً للنحل ، ومجالا لدعاية الجماعات السرية وأصحاب المذاهب الذين كانوا يمزجون الأغراض الاجتماعية بالمبادىء الدينية ويعالجون الترفيه عن الفقراء بالدعوة إلى المساواة .

فكان فيها التشيع برجالاته ، والاعتزال بطوائفه ، والسنة باختلاف أقوالها ، والفلسفة بمذاهبها ، والعلوم الحديثة بأنواعها ، وطوائف الأديان الأخرى بمبادئهم وآرائهم .

وقد قامت جماعات تكافح الشك فى الدين والمجون فى المجتمع ويدعون إلى الحياة الاسلامية بأخلاقها ومبادئها وسلوكها : ومنهم الحنابلة الذين كانوا يقومون بثورات كثيرة فى بغداد لمحاربة المجون والالحاد .

على أن أساس الحياة الاجتماعية(٢) هى الحالة الاقتصادية ، التى تسيطر على

---

(١) ظهر الاسلام جزء ١ صفحة ٩٧ .

(٢) يراد بالحياة الاجتماعية ما يؤلف بين أفراد الأمة من الصلات والأسباب

الناس من حيث لا يشعرون . والحياة الاقتصادية فى العصر العباسى الثانى كانت شديدة الاضطراب والفوضى إلى حد بعيد .

انتشر نظام إقطاع الأرض مكافأة أو هبة للمقربين لدى الخلفاء والوزراء(١) ، وكان كبار الملاك يستقلون باقطاعياتهم دون اهتمام بتحسين حالة الناس . . وكانت الرشوة منتشرة بين طبقات الموظفين ، حتى الوزراء الذين كانوا يسوغونها أمام ضمائرهم وأمام الخلفاء ، كما فعل سليمان بن وهب أمام المهتدى (٢) . وعمت المصادرة بين طبقات الناس ، وأصبحت بتوالى الأيام المصدر الرئيسى لبيت المال(٣) وأنشىء لها ديوان مخصوص (٤) . . وكانت ضرائب الأطيان أساس دخل الخلافة(٥) ، ويدل على مدى قوة الدولة أن متوسط جبايتها كان فى أواسط القرن الثالث كما ذكر ابن خرداذبة نحو ثلاثمائة مليون درهم (٦) ، بعد أن كان فى عهد الرشيد والمأمون أكثر من ٣٩٠ مليونا (٧) وفى عهد المعتصم ٣٨٨ (٨) .

وكانت نفقات المعتضد سبعة آلاف دينار فى اليوم (٩) ، وذلك نحو مليونين ونصف مليون من الدنانير أو خمسين مليونا من الدراهم فى العام (١٠) ، فالباقى من مجموع الجباية هو الذى يبقى فى بيت المال تحت تصرف الخليفة(١١) .

---

(١) ٥٤ تاريخ الحضارة الاسلامية لبارتولد .

(٢) ١٥٦ / ٧ مهذب الأغانى .

(٣) ١٨٠ / ٤ التمدن الاسلامى ، ١٦٩ الإدارة الإسلامية .

(٤) ٣٥ / ١ ظهر الاسلام ، ١٦٩ الادارة .

(٥) ٥٣ بارتولد ، ٦٩ / ٥ التمدن . (٦) ٦١ / ٢ التمدن .

(٧) ١٧٩ — ١٨١ مقدمة ابن خلدون ، ٥٣ / ٢ التمدن ، ١٥٢ حضارة الاسلام فى دار السلام . (٨) وذلك وفق ما ذكر قدامة فى كتاب الخراج (٥٩ / ٢ التمدن) — ومتوسط الجباية فى العصر الأول كان نحو ٣٦٠ مليونا فى العام ، ينفق منها على مصالح الدولة نحو ٥٠ مليونا والباقى يظل فى بيت المال تحت تصرف الخليفة يصرف منها المرتبات والمكافآت (٦٩ ، ٧٠ / ٥ التمدن)

(٩) ٣٥٣ — ٣٥٥ / ٣ الخضرى بك . (١٠) ٦٦ / ٢ التمدن .

(١١) ٦٧ / ٢ التمدن .

وقد كثرت ثروات الخلفاء والوزراء وسواهم من طبقات الخاصة(١) حتى ترك المنصور أربعة عشر مليونا من الدنانير — أى ٦٠٠ مليون من الدراهم — وترك الرشيد واحدا وعشرين مليونا(٢)، وترك المعتضد فى خزانة الدولة أموالا طائلة فوق ما ترك من ثروة خاصة.

وفى بعض مظاهر هذا الترف والبذخ، يقول على بن الجهم واصفا قصر الجعفرى الذى بناه الخليفة المتوكل على الله:

وما زلت أسمع أن الملو ... ك تبنى على قدر أقدارها
وأعلم أن عقول الرجا ... ل يقضى عليها بآثارها
فلما رأينا بناء الإما ... م رأينا الخلافة فى دارها
بدائع لم ترها فارس ... ولا الروم فى طول أعمارها
وللروم ما شيد الأولو ... ن وللفرس آثار أحرارها
وكنا نحس لها نخوة ... فطامنت نخوة جبارها
وأنشأت تحتج للمسلـ ... ـين على ملحديها وكفارها
صحون تسافر فيها العيو ... ن إذا ما تجلت لأبصارها
وقبة ملك كأن النجو ... م تفضى إليها بأسرارها
نظمن الفسافس نظم الحلى ... لعون النساء وأبكارها
لو ان سليمان أدت له ... شياطينه بعض أخبارها
لأيقن أن بنى هاشم ... تقدمها فضل أخطارها

ولضيق أبواب الرزق على كثير من الناس، وقصور وسائل الكسب عن أن تفى لهم بمطالب الحياة، اتخذ بعضهم تكفف الناس حرفة، وقعدوا للسؤال كل مقعد، وقد أنفذ ملك الروم إلى المنصور رسولا، فاسترعاه من على جسر الرصافة من الزمنى والسؤال، وقال لعمارة بن حمزة — وكان يرافقه من قبل المنصور فى تطوافه ببغداد — إنى أرى عندكم قوما يسألون، وقد كان يجب على صاحبك أن يرحم هؤلاء، ويكفيهم مؤنهم وعيالاتهم، فاعتل له عمارة بوجه، واعتل المنصور بسواه.. فلا غرابة — إذن — أن يكثر أهل الكدية، من الطبقة الدنيا، بل لا غرابة إذا وجد بعض الناس فى التكدية أهنأ سبيل، تدر عليهم فيها أخلاف

(١) ١٠١ / ٥ التمدن (٢) ٣٣ / ٢ التمدن

الرزق ، ويأمنون معها بوائق الغدر ، وهذا ما نراه ، ونرى معه كيف كانت وسائل الكسب على أيام الحريرى ، من قوله فى المقامة الساسانية : سمعت المعايش إمارة ، وتجارة ، وزراعة وصناعة ، فمارست هذه الأربع ، لأنظر أيها أوفق وأنفع ، فما أحمدت منها معيشة ولا استرغدت عيشة ، ولم أر ما هو بارد المغنم ، لذيذ المطعم ، وافى المكسب ، صافى المشرب ، إلا الحرفة التى وضع ساسان أساسها ، ونوع أجناسها ، وأضرم فى الخافقين نارها ، وأوضح لبنى غبراء منارها ، فشهدت وقائعها معلماً ، واخترت سيماها لى ميسما ، إذ كانت المتجر الذى لا يبور ، والمنهل الذى لا يغور ، والمصباح الذى يعشو إليه الجمهور ، ويستصبح به العمى والعور ، وكان أهلها أعز قبيل ، وأسعد جيل ، لا يرهقهم مس حيف ، ولا يقلقهم سل سيف . . . »

الحياة العقلية (١)

فى العصر العباسى الأول (١٣٢ - ٢٣٢ هـ) ازدهرت الحياة العقلية ازدهارا كبيراً ، وتلاقت فى الحواضر الاسلامية شتى الثقافات التى تمثل حضارات الأمم العريقة فى أثرها ، فى العلم والثقافة . . كانت الدولة مزيجاً من شعوب كثيرة ، وكانت عقلية هذا الشعب الجديد يتجلى عليها أثر الثقافات والوراثات .

كان النفوذ فيه للفرس ، وانتشرت ثقافتهم انتشاراً كبيراً على يد الوزراء وكتابهم الفارسيين ، ونقل المثقفون من الفرس الذين أجادوا العربية والعرب الذين أتقنوا الفارسية ـ إلى العربية تراث الفرس القديم فى الحضارة والثقافة ، وانتاج الذين أجادوا اللغتين من هؤلاء كان صادراً عن عقليتين وثقافتين ، وكان رجال العلم فى هذا العصر أكثرهم فارسيون ، حتى قال ابن خلدون : إن حملة العلم فى الاسلام أكثرهم من العجم (٢) ، ودخلت الثقافة اليونانية فى هذا العصر على الفكر الاسلامى بامتزاج الجنسين فى الحياة الاجتماعية وبتشجيع الخلفاء لترجمة كتب الطب والنجوم والفلسفة من اليونانية إلى العربية ، وإذا كان خالد بن يزيد م ٨٩ هـ أول من ترجم ـ أو ترجمت له ـ كتب النجوم والطب والكيمياء (٣) ، فقد عنى المنصور م ١٥٨ هـ بترجمة كتب

---

(١) يراد بالحياة العقلية حركة النفس الانسانية فى جميع أنواع العلوم والفنون والثقافات والآداب . (٢) ٥٤٣ مقدمة ابن خلدون (٣) ٢١٢ / ١ البيان والتبيين للجاحظ ، ٤٩٧ الفهرست لابن النديم .

النجوم والطب والفلسفة وتشجيعها ، وبعث الى امبراطور الدولة الرومانية الشرقية يسأله صلته بما لديه من كتب الفلاسفة واستخار لها مهرة التراجمة وكلفهم بإحكام ترجمتها (١) ، بل كان المنصور أول خليفة قرب المنجمين وترجمت له الكتب من اليونانية والرومية والفهلوية والفارسية والسريانية (٢) ، وكذلك فعل الرشيد ، وأوفد المأمون الرسل إلى ملوك الروم فى استخراج علوم اليونانيين ونسخها بالخط العربى وبعث المترجمين لذلك (٣)

وأنشأ فى بغداد مدرسة لتخريج المترجمين (٤) وهى مكملة لدار الحكمة التى بناها الرشيد للترجمة ، وإذا كانت الدولة قد قبلت التقاليد الايرانية فى أمور الدولة فقد أخذت فى ساحة الحضارة والثقافة أمورا كثيرة من بيزنطة (٥) .

وكذلك اتصلت الثقافة الهندية بالفكر الاسلامى مباشرة وبوساطة الفرس أيضاً ، أما الأتراك فلم يكن لهم مدنية ، وليس لهم ثقافة ، وبعد أن تعلموا العربية لم ينبغ منهم فى الأدب والشعر والعلم إلا القليل ، كأحمد بن طولون والفتح بن خاقان.

وكان للاسلام فوق ذلك كله ثقافة واسعة فى الدين واللغة والأدب والشعر ،كانت هى أهم شىء أثر فى الفكر الإسلامى وكانت المورد الأول للناس جميعاً .

تجمعت هذه الثقافات فى العراق فى العصر العباسى الأول وأحدثت أثرها فى العقول والأفكار ، وكان المتكلمون أكبر عامل فى امتزاج هذه الثقافات (٦) وصلة بين الفلسفة اليونانية والادب فقدموا معانى للأدباء والشعراء لم يكونوا يعرفونها .

وفى العصر العباسى الثانى (٢٣٢ - ٣٣٤ هـ) زاد امتزاج هذه الثقافات واتصالها بتطاول الزمن وتلاقح العقول وظهور آثار حركة الترجمة وتشجيع الخلفاء والوزراء للعلم والعلماء ، فكان هذا العصر أزهى عصور العلم فى البلاد الاسلامية .

وكان العصر العباسى الأول تغلب عليه نزعة الاعتزال التى أيدها المأمون بكل مايستطيع ، ولكن العصر الثانى وهو عصر النفوذ التركى كان مصحوبا بمظاهر

---

(١) ٤٨٠ مقدمة ابن خلدون ، ٥٥ طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ، ٢١ تاريخ الحضارة الاسلامية لبارتولد ، وراجع حركة الترجمة فى(٢٢٩ - ٢٣٣ الأدب العباسى لمحمود مصطفى، ١٧٧ ومابعدها و٢٦٤ و ٢٦٨ - ٢٧٠ / ١ ضحى الاسلام) .

(٢) ٢٤١ / ٤ ومابعدها مروج الذهب (٣) ٤٨٠ و ٤٨١ مقدمة ابن خلدون

(٤) ٢٣٠ الادب العباسى لمحمود مصطفى (٥) ٣٨ تاريخ الحضارة الاسلامية لبارتولد (٦) ٣٨٠ ج ١ ضحى الاسلام .

جديدة أهمها إلغاء سلطان المعتزلة وإعلاء شأن المحدثين ، فأمر المتوكل بترك الجدل فى القرآن ، واضطهد رؤساء المعتزلة ، كمحمد بن أبى الليث فى مصر وأحمد ابن أبى دؤاد فى العراق ، من حيث كرم أحمد بن حنبل وسواه من أئمة المحدثين ؛ وكان هذا الاتجاه يحظى بتأييد الاتراك ويعملون له (١) .

ومراكز الحياة العقلية فى العصر الثانى كانت كثيرة متعددة ، فنشطت الدراسات الدينية واللغوية فى مصر ؛ وتفوقت الشام فى الشعر والآداب واللغة (٢) ، وكان للعراق الصدارة فى العلم والادب والفلسفة ؛ فكانت بغداد والبصرة وحران أهم مراكز العلم والحضارة . فالجاحظ والكندى بصريان ، والبتانى الرياضى الفلكى م ٣١٧ هـ من حران . وكانت بغداد تجذب العلماء اليها من كل أرجاء العالم الاسلامى ، واشتهرت بلخ وخوارزم واصفهان فى ميدان التفكير والثقافة . فنبغ منها أبو زيد البلخى م ٣٢٢ هـ أحد تلاميذ الكندى المشهور وأبو موسى الخوارزمى صاحب المؤلفات القيمة فى الجبر والحساب ، ثم أبو الفرج الاصفهانى مؤلف الاغانى ؛ وسواهم من العلماء

وبعد فالعصر العباسى الثانى كان زاخراً بالعلوم ، قديمها وحديثها ، كما كان حافلا بالعلماء والمفكرين والفلاسفة .. وكانت العلوم المترجمة شرطا فى تكوين ثقافة الكاتب والاديب ، وراج علم النجوم حتى انتشر بين الخاصة وجمهور الناس (٣) والادباء ، وعلى أى حال فلم تكن مناهج التفكير واحدة عند جميع الناس ، وكان الخلاف بين هذه المناهج على أشده فى العراق ؛ ويثور ابن قتيبة فى مقدمة كتابه « أدب الكاتب » على الحالة فى عصره حيث أهمل الناس علوم الدين مع عنايتهم بعلوم الفلسفة والمنطق (٤) ؛ وكانت جماعة الادباء يضجرون من الثقافات المترجمة وعلومها حتى قال ابن المعتز يصف من يؤثره بصداقته :

فإن تطلبه تقتنصه بحانة ... وإلا ببستان وكرم مظلل
ولست تراه سائلا عن خليفة ... ولا قائلا من يعزلون ومن يلى

---

(١) راجع ٤١ / ١ ظهر الاسلام (٢) راجع ٨ / ١ اليتيمة للثعالبى ، ١٧٧ جـ ١ وما بعدها ظهر الاسلام . (٣) — واشتهر على بن جور الفارسى ـ وكان كاتبا مترسلا ذا علم بالنجوم ـ بادخالها فى شعره (٢٩٣ معجم الشعراء) .

(٤) راجع ص٢ وما بعدها أدب الكاتب بهامش المثل السائر . وكان ابن قتيبة من أهل السنة ومن علماء الدين مع واسع ثقافته اليونانية وسواها (راجع ٤٠٢ — ٤٠٦ جـ ١ ضحى الاسلام) .

ولا صائحا كالعيرفى يوم لذة   يناظر فى تفضيل عثمان أو على
ولاحاسبا تقويم شمس وكوكب   ليعرف أخبار العلوم من اسفل
يقوم كحرباء الظهيرة مائلا   يقلب فى اصطرلابه عين أحول
ولكن فيما قد عناه وسره   وعن غير مايعنيه فهو بمعزل

وقد ازدادت الحركة العقلية ازدهارا بعد ذلك ، وظهر أفذاذ من الفلاسفة والمفكرين الذين يعتز بهم العقل الاسلامى ، ومن بينهم ابن سينا المتوفى عام ٤٢٨ ﻫ والغزالى المتوفى عام ٥٠٥ ﻫ والرازى المتوفى عام ٦٠٦ ﻫ وسواهم . .

من أعلام المفكرين فى العصر العباسى

نبغ فى جميع ألوان الثقافة الدينية والأدبيه والفكرية فى العصر العباسى كثير من أئمة العلماء .

أ — فى التشريع الاسلامى نبغ : أحمد بن حنبل م ٢٤٠ ﻫ ، والكرابيسى م ٢٤٥ ﻫ ، والزعفرانى م ٢٦٠ ﻫ ، وداود الظاهرى (٢٠٢ - ٢٧٥ ﻫ) (١) ، واسماعيل ابن إسحاق قاضى بغداد م ٢٨٢ ﻫ ، وعبد الله بن أحمد بن حنبل م ٢٩٠ ﻫ ، والحربى م ٢٨٥ ﻫ ، ويوسف بن يعقوب القاضى (٢٠٨ - ٢٩٧ ﻫ) ، ومحمد بن داود الظاهرى م ٢٩٧ ﻫ (٢) .

ب — وفى التصوف : المحاسبى ٢٤٣ ﻫ والبسطامى م ٢٦١ ﻫ وسهل التسترى م ٢٨٣ ﻫ وأبو سعيد الخزاز م ٢٨٦ ﻫ وهو أول من تكلم فى الفناء والبقاء ، ثم إمام الصوفية الجنيد م ٢٩٧ ﻫ (٣) ، ثم الحلاج وقتل عام ٣٠٩ ببغداد (٤)

ج — وفى علوم اللغة والأدب ، مصعب الزبيرى م ٢٣٦ ﻫ (٥) ، والتوزى م ٢٣٨ ﻫ ، وأبو العميثل م ٢٤٠ ﻫ ، وابن السكيت م ٢٤٤ ﻫ ، ومحمد بن حبيب

---

(١) راجع ترجمته فى ٢٦٥ وما بعدها من كتاب نظرات عامة فى الفقه الاسلامى ، ٢١٣/١ وفيات الأعيان . (٢) راجع ترجمته فى : ٢٧٢-٢٧٣/٢ وفيات الأعيان ، ١٥٩ وما بعدها تزيين الأسواق ، وله كتاب الزهرة ، وهو مخطوط بدار الكتب ومنسوب لداود والده (٣٥٤٨ أدب مخطوط) (٣) ٢٠٨/١ وفيات

(٤) راجع ٩١ و ٢٣١ الكشكول فى مقتل الحلاج .

(٥) وهو شاعر راوية (٤٠٢ معجم الشعراء)

م ٢٤٥ هـ)(١)، والمازنى م ٢٤٩ هـ ، وأبو حاتم السجستانى م ٢٥٥ هـ(٢) ، والزبير ابن بكار م ٢٥٦ (٣) هـ ، والرياشى أبو الفضل العباس بن الفرج م ٢٥٧ هـ (٤) والأشناندانى م ٢٥٧ هـ وعمر بن شبة م ٢٦٢ هـ ، وابنه أحمد م ٢٧٢ هـ(٥)، والطلحى م ٢٧١(٦) هـ ، والسكرى م ٢٧٥ هـ (٧) ، وأبو العباس اليزيدى م ٢٧٨ هـ، وأبو حنيفة الدينورى م ٢٨٢ هـ (٨) ، والمبرد (٢١٠ — ٢٨٥ هـ (٩) ، وثعلب (٢٠٠ — ٢٩١ هـ (١٠)) ، والزجاجى البغدادى النحوى م ٣٠٧ هـ . وابن السراج تلميذ المبرد والمتوفى عام ٣١٦ هـ (١١) ، والزجاج م ٣١١ هـ (١٢) ، والأخفش م ٣١٨ ونفطويه م ٣٢٣ هـ ، وابن دريد (٢٢٣ - ٣٢١هـ (١٣)، ثم ابن الأنبارى والزمخشرى وسواهم .

د ـ وفى علم الكلام ظهر من المعتزلة : بشر بن المعتمر م ٢١٠ هـ ، وثمامة بن أشرس م ٢٢١ هـ ، والنظام(٢٠٠ — ٢٣٥ هـ)،وابن أبى دؤاد (١٦٠ — ٢٤٠هـ)، ويحيى بن أكثم م ٢٤٢ هـ ، والعلاف البصرى م ٢٣٥ هـ ، وابن الراوندى

---

(١) ١٥٥ فهرست ، وكان من علماء بغداد بالأنساب والأخبار واللغة والشعر والقبائل (٢/١٩٣ آداب اللغة لزيدان)

(٢) وله كتاب المعمرين وكتاب الفصاحة (٨٧ الفهرست)

(٣) ١٦٠ الفهرست ، وله كتاب أخبار توبة وليلى (١٦١ فهرست)

(٤) ٨٦ فهرست ، وكان عالما راوية ثقة عارفا بأيام العرب وروى عن الأصمعى وأبى عبيدة وقتل بالبصرة فى فتنة الزنج (٥) كان شاعرا مجيدا راوية (١٦٣ فهرست) (٦) وهو بصرى نادم الموفق وكان راوية أخباريا (١٦٤ الفهرست)

(٧) وهو الذى جمع شعر مزاحم وأبى نواس (١١٧ الفهرست)

(٨) وله كتاب الفصاحة وكتاب الشعر والشعراء (١١٦ فهرست)

(٩) راجع ٣١٤ - ١/٣٢٠ ضحى الاسلام ، ٨٧ وما بعدها من الفهرست ٢/١٨٦ آداب اللغة لزيدان (١٠) راجع ١١٠ وما بعدها من الفهرست .

(١١) ٩٢ وما بعدها من الفهرست (١٢) من تلامذة المبرد وصار مع المعتضد يعلم أولاده وكان أولا يؤدب القاسم بن عبيد الله (٩٠ وما بعدها من الفهرست ، ٢/٢٨١ آداب اللغة لزيدان) (١٣) ولد بالبصرة ونشأ بعمان ثم رحل إلى فارس وورد بغداد عام ٣٠٨ هـ وأقام بها وكان إماما فى اللغة والأنساب والشعر وهو شاعر راوية (٤٦١ معجم الشعراء ، ٢٣٨ جـ١ ظهر ، ٣٧١ الزيات) .

م ٢٤٥ ه، والجاحظ (١٥٠ — ٢٥٥ه) ، وأبو على الجبائى (٢٣٥ — ٣٠٣ه(١)).
ثم ظهر أبو الحسن الأشعرى (٢٧٠ — ٣٣٣ ه)(٢) ؛ وقد استمر المعتزلة فى العراق يعلمون ويدرسون على يد الجبائى وتلميذه فى الاعتزال محمد بن عمر الصيمرى (٣) .

ه ـ ومن المفكرين والفلاسفة وأقطاب العلماء :

ابن ماسويه الطبيب م ٢٤٣ ه ، وابن سهل الطبيب م ٢٥٥ ه ، ومحمد موسى ابن شاكر م ٢٥٩ ه (٤) ، والكندى م ٢٦٠ ه (٥) ، وبنو المنجم ، وأبو موسى الخوارزمى وهو مذيع الحساب الهندى وأرقامه بين العرب، والفارابى م ٣٣٩ ه ، ثم ابن سينا م ٤٢٨ ه ، والغزالى م ٥٠٥ ه ، والرازى المتوفى ٦٠٦ه وسواهم . . . ومن صدور الفلاسفة والمفكرين والرياضيين والمترجمين الذين كان لهم أثر فى الفكر العباسى : حنين بن اسحاق (١٩٤ — ٢٦٠ ه (٦)) ، وأبو معشر

---

(١) معتزلى بصرى وإليه انتهت رياسة البصريين فى زمانه وكان إمام المعتزلة ببغداد وتتلمذ عليه الأشعرى (ص ٦ تكملة الفهرست لابن النديم) .

(٢) تثقف بثقافة المعتزلة ثم عاداهم وأعلن تركه لمبادئهم ، وصار رئيساً لمذهب الأشعريين ، والأشعرى يمثل الموجة الحديثة التى بدأت تهاجم المعتزلة وتنصر المحدثين وأهل السنة منذ عصر المتوكل .

(٣) ٢٢٢ / ١ ظهر الاسلام .

(٤) وهو وإخوته : أحمد والحسن كان لهم مكانة كبيرة فى الفلسفة والميكانيكا (٣٧٨ وما بعدها من الفهرست ، ٦٤ طبقات الأمم) ؛ وكان مطهر بن أحمد بن موسى من ندماء المعتضد (٣٧٩ فهرست) .

(٥) هو يعقوب بن اسحق كان متحققاً بعلوم الأوائل (٥٠٧ معجم الشعراء) ، وهو أول فيلسوف عربى درس الفلسفة اليونانية وشرحها وبنى عليها (راجع ٣٥٧ - ٣٦٠ الفهرست ، ٥٩ وما بعدها طبقات الأمم) ؛ ووشى به إلى المتوكل محمود وأحمد ابنا موسى بن شاكر فضربه وأخذا كتبه بأسرها حتى أكرههما سند بن على أخيراً على ردها إليه (١٩٥ و ١٩٧ المكافأة) .

(٦) أجاد العربية والفارسية والسريانية واليونانية ونقل هو ومدرسته إلى العربية زبدة آثار اليونان وجعلوا الثقافة اليونانية بين أيدى العلماء (٢٨٣ - ٢٨٨ / ١ ضحى الاسلام ، ٤٠٩ وما بعدها الفهرست) ؛ ووشى به بختيشوع بن جبرائيل الطبيب إلى المتوكل فحبسه (راجع ١٣٧ / ٤ وما بعدها التمدن ، ١٩٤ / ١ طبقات الأطباء =

الفلكي م ٢٧٢ هـ(١) ، والبلاذري م ٢٧٩ هـ(٢) ، وابن خرداذبة المتوفى نحو عام ٢٧٨ هـ(٣) ، وأبو حنيفة الدينوري م ٢٨٢ هـ(٤) ، والسرخي م ٢٨٦ هـ (٥) ، وثابت بن قرة (٢٢١ — ٢٨٨ هـ(٦)) ، وإسحاق بن حنين م ٢٩٧ هـ(٧)، والرازي م ٣١١ (٨) هـ ، والبتاني الرياضي الفلكي م ٣١٧ هـ ، وأبو زيد البلخي م ٣٢٢ هـ ، وسواهم من أعلام المفكرين .

= لابن أبي أصيبعة) . (١) ٣٨٦ فهرست ، ٤٧ بارتولد ، ١٩٨ / ١ وما بعدها وفيات الأعيان . (٢) ١٩١ / ٢ آداب اللغة لزيدان ؛ وكان أديباً راوية وهو أحد النقلة من الفارسي إلى العربي (١٢٧ - ١٣٢ / ٢ معجم الأدباء لياقوت ، ٧ / ١ فوات الوفيات . (٣) ونادم المعتمد ، وله كتاب الشراب وكتاب المسالك والممالك (٢١٢ وما بعدها من الفهرست ، ٢٠٢ / ٢ آداب اللغة لزيدان) .

(٤) كانت ثقافته الهندية واليونانية واسعة ، وكان ملماً بعلوم كثيرة ، كما كان يقرن بالجاحظ في بلاغته (٤٠٦ / ١ وما بعدها ضحى الاسلام و ١١٦ فهرست ، ١٩٧ / ٢ آداب اللغة لزيدان) ، وله كتب في النبات وكتاب الأخبار الطوال في التاريخ العام وينتهي بوفاة المعتصم ٢٢٧ هـ . (٥) هو أحمد بن مروان (٣٦٥ فهرست) أو احمد بن الطيب (٢٠٠ / ١ زهر الآداب) السرخسي تلميذ الكندي كان متفنناً في علوم القدماء والعرب ، وكان أستاذاً للمعتضد ثم خص به ، وله كتب كثيرة في الفلسفة وغيرها وقتله المعتضد لأنه أفضى إليه بسر فأفشاه (٣٦٥-٣٦٧ الفهرست ، ٥١ / ٢ معجم الأدباء ، ٦١ طبقات الأمم لصاعد) ، وله كتاب إلى المعتضد في أدب النفس (٢٤٣ الفهرست) (٦) راجع ١٧٧-١٧٩/١ وفيات الاعيان

(٧) ٣٩٧ و ٤١٥ الفهرست ، ١١٦ - ١١٧ / ١ وفيات الأعيان

(٨) ٥٠٣ - ٥٠٥ / ٢ وفيات ، ٦١ طبقات الأمم ، ٤١٥ - ٤٢٠ الفهرست .

الحيـاة الأدبية

— ١ —

إذا كانت آثار الثقافات المترجمة قد صبغت الحياة العقلية والاجتماعية فى العصر العباسى الأول والثانى بأصباغ جديدة ، فقد كان أثرها فى الأدب واللغة متفاوتاً . فظلت مناهج الأداء والأساليب ولغة الكتابة والشعر قريبة مما كانت عليه من قبل، من حيث نضجت معانى الكُتاب وخيالات الشعراء ، وعمقت صياغتهم الذهنية ، وتفكيرهم العقلى ، إلى حد كبير .

وإذا كانت الثقافات الحديثة قد طغت موجتها على كثير من نواحى الحيـاة والتفكير ، فان العربية كانت أعز من أن تحنى رأسها للعواصف الجامحة التى تهدم من صرحها الشاهق ، أو تزعزع من ثقتها القوية بالنفس . وظلت كما هى لغة التفكير والأدب ، وإن سايرت حركة الرقى ، ولم تقف جامدة ضعيفة الاحساس بالحيـاة .

وإذا كانت الفلسفة اليونانية قد وضعت موضع العناية بالترجمة . فان الأدب اليونانى لم يترجم منه شىء ، ولم يتأثر به الأدب والشعر فى نهضتهما الوثابة فى هذا العصر الحافل (١) . لتباين الأذواق ، ولاعتداد العرب بنفسهم ولغتهم وأدبهم ، ولاختلاف حياة العرب واليونان التى يصورها الأدب ويكون أوضح مثال لها . وعلى أى حال فان الثقافة اليونانية قد صبغت عقلية الأدباء والشعراء بآثارها العميقة فى التفكير والخيال والمعانى (٢) وطرافة التقسيم .

وتأثير الثقافة الهندية فى الأدب العربى كذلك كان طفيفاً لا يعدو تلك الأفكار التى كانت تتساقط من علم النجوم أو الرياضة فى الشعر ، وهذه القصص الهندية التى أولع العرب بها ، ونقلوها إلى العربية ككليلة ودمنة الذى نقلوه من الفارسية إلى لغتهم ، وتلك الحكم التى تشبه الأمثال العربية ، وهذه الألفاظ التى عربوها وأدخلوها إلى العربية .

---

(١) ٤٥ بارتولد ، ٦٦ الفن ومذاهبه ، ٢٨٧ التوجيه الأدبى ، ٢٣٥ الأدب العباسى لمحمود مصطفى ، ٢٨٠ جـ ١ ضحى الاسلام ، ٢٤٤ الزيات (٢) وقد أفاد الأدب العربى من القصص والحكم اليونانية التى انتشرت فى الثقافة الاسلامية . وعربت كثير من الألفاظ اليونانية :

[illegible] الفرس فى الأدب العربى كبير ، فهم الذين أشاعوا فيه اللهو والمجون [illegible] الراح ، وأدب الزهد تأثر كثيراً بنزعات الفرس ، وعنهم نقلت آثار كثيرة من الأدب القصصى ككليلة ودمنة وهزار أفسانه ، والتوقيعات كان للفرس فيها أثر كبير ، وقد ترجمت عن الفارسية توقيعات كسرى ، هذا إلى أنه كان للفرس شعر وأمثال وأدب كثير وضع تحت أعين العرب ، وكان للعرب الذين يجيدون الفارسية وللفرس المتعربين مجال كبير فى الأدب كالعتابى وأبى نواس وبشار وسواهم ، فأخرجوا أدباً عربياً فيـــه معانى الفرس وبلاغة العرب ، وكان الشعراء ينظمون ما يتسرب إليهم من الصور الفارسية ، كان كسرى أبو شروان مشغوفاً بالنرجس ، وكان يقول : هو ياقوت أصفر بين در أبيض على زمرد أخضر فقال الشاعر :

وياقوتة صفراء فى رأس درة مركبة فى قائم من زبرجد
كأن بقايا الطل فى جنباتها بقية دمع فوق خد مورد (١)

وكان أردشير بن بابك يصف الورد بأنه در أبيض وياقوت أحمر على كرسى زبرجد أخضر توسطه شذور من ذهب أصفر له رقة الخمر ونفحات العطر ، فقال محمد بن عبد الله بن طاهر (٢) :

كأنهن يواقيت يطيف بها زمرد وسطه شذر من الذهب
فاشرب على منظر مستطرف حسن من خمرة مزة كالجمر فى اللهب

وأخذ ابن الرومى معنى حكمة لبهرام جور (٣) فنظمه شعراً (٤) . وكان من الفرس كبار الكتاب الأوائل الواضعين لأساس صناعة الانشاء (الكتابة الفنية) فى الدواوين ، وكان منهم شعراء أحدثوا آثاراً واسعة فى أغراض الشعر ومعـــانيه وأوزانه وقوافيه ، ونقلوا للخلفاء والامراء والوزراء كثيراً من آداب الفرس وحكمهم وأمثالهم وتاريخهم وقصصهم وأسمارهم ، مما ظهر أثره فى الأدب العربى

---

(١) ٢٣٢ ج ٢ زهر الآداب (٢) وينسب البيت الأول لعلى بن الجهم (٢٣ ج ٢ ديوان المعانى) قال أبو هلال : وهو من قول اردشير : الورد ياقوت أحمر وأصفر ودر أبيض على كرسى زبرجد يتوسطه شذور من الذهب . (٣) فارسى قديم تعلم العربية فى الحيرة وشعر بها ، ويقول شمس الدين الرازى فى كتاب « المعجم » : إنه أول من نظم شعراً فارسياً وأخذه عنه العرب وكان علماء الفرس يستهجنون منه قرض الشعر (٤) ٢٧٨ ج ٢ وما بعدها زهر الآداب .

واضحا . واذا كان الأدب فى عهد بنى أمية عربيا خالصا فى المادة والمعنى ، ولم يكن للفرس إلا مدراسته وحفظه وروايته ، فقد كان فى عهد بنى العباس أثرهم أعمق لافى الاســلوب البيانى ، بل فى التفكير والخيال ، وبتأثيرهم تنوعت الاغراض وظهر التانق فى النثر والشعر ، وطلبت الرقة والدماثة ، مع المحافظة على فصاحة العربية والأخذ باساليبها .

— ٢ —

ويمتاز الأدب فى هذا العصر بظهور آثار الحياة العقلية فيه ، وبصدق تمثيله للحياة الاجتماعية ، وبكثرة الحكم وأخبار الزهد والزهاد فيه ، وبتأليف الكتب الجامعة فى الأدب كالبيان والتبيين وعيون الاخبار والكامل والعقد، وبان الأدب أصبح فى هذا العصر صناعة علمية فى الانشاء والتأليف ، وأظهر ما يتجلى فيه إبداع التصوير واتساع الخيال والمبالغة الشديدة والاكثار من الحكمة والمثل والبراهين العقلية . وقد أصاب الادب كساد وانصرف الناس إلى الفلسفة وعلومها مما يبسطه ابن قتيبة فى مقدمه أدب الكاتب بوضوح .

— ٣ —

وقد ضعفت الخطابة بزوال أسبابها وأعجمية رجال الدولة ، ولأن الدولة قد توطدت دعائمها ، وحكمت بالاستبداد ، وبطلت الخطابة فى الجيوش ، وضعفت الملكات ، كذلك صار فى الكتابة — وقد تنوعت أساليبها وأغراضها — غنى عن الخطابة ، فضعف شأنها ولم يبق لها إلا مظهرها الدينى ، حيث كان الخلفاء يخرجون للصلوات الجامعة ويخطبون الناس ، وكان آخر خليفة خطب على المنبر هو الراضى (٣٢٢ — ٣٢٩ ﻫ) (١) .

وقد بلغت كتابة الرسائل فى هذه العصر مكانة عالية ، وقد كان للانقلاب العباسى أثر عظيم فى الميول والعقول ، ظهر على أقلام الكاتبين ، فاستنبطوا عيون المعانى ، وتخيروا شريف الالفاظ مما لم يكن حوشيا ساقطا سوقيا ، وفتحوا أبواب البديع وبذ الكتاب فحول الشعر فى عظمة الحياة والرياسة ، وتسنموا أرفع المناصب فى الدولة ، واشتهر منهم : محمد بن عبد الملك الزيات ، وآل وهب ، وسواهم ، من

(١) راجع ٢١٣ الزيات ، ٥٤ ومابعدها الأدب العباسى لمحمود مصطفى ، ١٠٤ ومابعدها العصر العباسى للسباعى بيومى .

أعلام الكتابة . كما نبغ فى الأدب والشعر جمهور كبير . ونهض الشعر فى هذا العصر نهضته العظمى .. مما سنتحدث عنه فى الدراسات التالية .

وقد كانت طبقات الأدباء فى صدر الدولة العباسية متعددة ، ومن بينها : طبقة الكتاب الذين لم ير الجاحظ قوما قط أمثل طريقة فى البلاغة منهم ، والذين التمسوا من الالفاظ مالم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا سوقيا (١) ورأى الجاحظ البصر بهذا الجوهر من الكلام فيهم أعم (٢) وحكم مذهبهم فى نقد (٣) البيان، وكان جلهم من عناصر أجنبية من الفرس والروم والسريان والقبط من الذين فهموا لغاتهم وبلاغتها ثم قرأوا البيان والبلاغة العربية وآدابهما وأخذوا يحدثون فى اللغة العربية مذاهب جديدة فى الكتابة والأدب والبيان ويدعون إلى آراء خطيرة تمس الذوق الأدبى وترضى اتجاهات الحضارة والترف العقلى والاجتماعى الذى داخل البيئة العربية منذ بدء القرن الثانى ، كما أخذوا يلقنون مذاهبهم الأدبية العامة لتلاميذهم والمشايعين لهم من شداة الأدب كما ترى فى محاضرة بشر بن المعتمر المعتزلى م سنة ٢٠٥ هـ فى أصول البلاغة التى يقول الجاحظ عنها : إن بشرا مر بابراهيم بن جبلة بن مخرمة وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف بشر ، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة فقال بشر : أضربوا عما قال صفحا واطووا عنه كشحا ، ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه فى أصول البلاغة وعناصر البيان (٤) ، ومن رجالات هذه الطبقة أبو العلاء سالم مولى هشام بن عبد الملك وعبد الحميد الكاتب أو الاكبر كما يقول الجاحظ (٥) ، وعبد الله بن المقفع وسهل بن هارون والحسن بن سهل والفضل بن سهل ويحى بن خالد وجعفر بن يحي وأيوب بن جعفر وأحمد بن يوسف ومحمد بن عبد الملك الزيات وعمرو بن مسعدة وسواهم من كتاب الدولة الذين صعدوا بفنهم وبلاغتهم إلى أرقى المناصب فى الخلافة الاسلامية

وقد ~~استمرت الحياة الأدبية فى النمو والازدهار ، على الرغم~~ من انقسام الخلافة وضعفها .. ويرجع هذا الازدهار إلى تنافس الدول والامارات الاسلامية فى تشجيع الأدباء والشعراء وتمثلهم لبغداد وخلافة بغداد فى العمل على إحاطة عروشهم بالمفكرين وأعلام الشعر والأدب

---

(١) ١٠٥ / ١ (٢) ٣٢٥ / ٣ (٣) ٢٤٠ / ١ (٤) ١٠٤ / ١ (٥) ١٥١ / ١

ولقد كان ظهور الموالى ، وعلو شأنهم (١) مما أحيا فى نفوسهم الشعور القومى ، وذكرهم بما كان لهم من مجد بائد ، وعز قديم ، فعلنت الشعوبية ، تنفس عن غيظها المكظوم طول عهد الأمويين ، وتمجد العجم بإعلان مآثرهم ، وتزرى على العرب بتلمس المثالب لهم ، وتسجل ذلك فى الشعر ، من أمثال بشار ، والمتوكل ، والخريمى ، ومهيار ، وفى الكتب يضعها أمثال أبى عبيدة ، والهيثم بن عدى ، وسعيد بن حميد وعلان الشعوبى ، وانبرى لهؤلاء من الشعراء والعلماء من يرد عليهم ، ويدفع عن العرب ، وينتصر لهم ، أمثال محمد بن يزيد الاموى ، والجاحظ ، وابن قتيبة ، بل لقد حاول الجاحظ أن يهدم العصبية الجنسية بما عالجه فى رسالته مناقب الترك وعامة جند الخلافة ، حين استشرى شرها ، وكاد يوقع الفتنة فى صفوف الجند أيام المعتصم .

وتحيز المال فى جانب الحكام والامراء ، جعل الأدب يستمر اتجاهه القديم إلى ناحيتهم ، ويسير فى ركابهم ، يعلى من شأنهم ، ويتغنى بذكرهم ، وغلب ذلك على أكثر أدب العصر ، وبخاصة نتاج أولئك الذين اتصلت أسبابهم بالقصور ، وذاقوا فى رحابها حلاوة النعيم .

وانغماس الأدباء فى الحضارة ، ومشاركتهم فى لهوها الخليع ، ومجونها السافر ، مكن لهم من تصويرها فى جميع أوضاعها ، فوصفوها فى مظاهرها الرائعة وفى مباذلها الوضيعة ، وملأ شعرهم بالتحريض على متع الحياة وتحسين الخلاعة والمجون ، فى صراحة مكشوفة ، وعرى فاضح ، وابتذال مهين ، ومن شاء فليرجع إلى الأغانى ، أو يتيمة الدهر ، أو دواوين كثير من الشعراء ، ليستطلع طلع ذلك فى شعر بشار ، ومطيع بن إياس ، ووالبة بن الحباب ، ومسلم بن الوليد ، وأبى نواس ، وحسين بن الضحاك ، وابن الحجاج ، وابن سكرة ، وأبى الرقعمق ، وغيرهم من الشعراء .

والزهد ، وهو حركة تقاوم هذه المادية الجارفة ، وتصد عنها بالتنفير من الدنيا والترغيب فى الآخرة ، والتذكير بالموت والحساب : وجد له مجالا فى نتف لبعض الشعراء والعلماء ، وفى كثير من شعر أبى العتاهية ، وفى كل ما صدر عن الزهاد والمتقشفين من أقوال .

---

(١) الأدب العربى للاستاذ أحمد شعراوى

وقسوة الحياة وشقاؤها ، وشظف العيش ، ورنق المشرب ، انعكست صورها فى كتب المقامات ، قصصاً للكادحين ، يحتالون على العيش بالمكر والخداع ، وفى أدب المحرومين ، كابن لنكك البصرى ، وأبى حيان ، سخطاً على الزمان ، وأنينا من البؤس والحرمان .

واضطراب نظام الحكم ، وفساد أداته ، لم يعدم من ينعى عليه ، ويندد به ، مثل أبى العلاء أو من يروم علاجه ، ويحاول إصلاحه كابن المقفع.

ولو رجعنا إلى ماوصفناه من معالم هذا العصر ، نبحث عن أشد الظواهر الاجتماعية تأثيرا فى الحياة ، ماوجدنا أقوى من التحام العرب بالموالى وامتزاجهم على الوجه الذى بيناه ، من ظهور الموالى وقوة نفوذهم ، فهم الذين أثروا فى المجتمع ، ولونوا الحضارة ، بما ورثوه عن دولهم الدائلة ، وحضارتهم الزائلة ، وصبغوا الدولة بصبغتهم ، وأدخلوا فيها نظمهم وتقاليدهم ، وقد تنبه إلى شىء من هذا بعض من عاصر العهد وشهد مجارى الامور فيه ، وهذا أبو حيان التوحيدى يصور ذلك كله فيقول: « ضعف أمر الدين . وتحلل ركنه ، وتداوله الناس بالغلبة والقهر ، فتطاول له ناس من آل الرسول صلى الله عليه وسلم بالعجم ، وبقوتهم ، ونهضتهم وعادتهم فى مساورة الملوك وإزالة الدول ، وتناول العز كيف كان .. ألا ترى أن الحال استحالت عجما كسروية وقيصرية ؟ . هذا الربيع ـ وهو حاجب المنصور ـ يضرب من شمت الخليفة عند العطسة ، فيشكى ذلك إلى أبى جعفر المنصور و فيقول : أصاب الرجل السنة ، واخطأ الأدب ، وهذا هو الجهل ، كأنه لا يعلم أن السنة أشرف من الأدب ، بل الأدب كله فى السنة ، وهى الجامعة للأدب النبوى والأمر الإلهى ، ولكن لما غلبت عليهم العزة ، ودخلت النعرة فى آنافهم ، وظهرت الخنزوانة بينهم ، سموا آيين العجم أدبا ، وقدموه على السنة التى هى ثمرة النبوة » .

النثر الأدبى

كان عبد الحميد الكاتب وابن المقفع من أشهر الكتاب الذين وضعوا أصول النثر الادبى الفنى فى الادب العربى . وكان عبد الحميد من كتاب الدولة الاموية ، وشهد ابن المقفع جانبا من أول عصر الدولة العباسية ، وخلفته طائفة من الكتاب تأثروا به تأثراً واضحا بعيد المدى فى تطور النثر الادبى والكتابة الفنية ، ومنهم يعقوب

ابن داود وزير المهدى ، وأبو الربيع محمد بن الليث الذى كتب للمهدى والهادى والرشيد ، والقاسم بن صبيح ، وسهل بن هرون (١) ويحي بن برمك ، ثم ابناه : جعفر بن يحي (١٤٢ — ١٨٧ هـ) وأخوه الفضل ، والحسن بن سهل (٢) وأخوه الفضل (٣) وأحمد بن يوسف (٤) م ٢١٢ هـ ، وعمرو بن مسعدة ٢١٧ هـ ، والعتابى م ٢٢٠ هـ (٥) ، ومحمد بن يزداد وزير المأمون (٦)

وفى القرن الثالث الهجرى بلغ النثر الفنى منزله سامقة ، وامتاز بسهولة العبارة وانتقاء الألفاظ وجودة الأسلوب ، كما امتاز بجودة المعانى واختراعها ودقة الأخيلة وابتداعها ، وظهور آثار الثقافات الحديثة وخاصة اليونانية فيه ، بل الاحتفال بها والطعن فيما سواها مما شكا منه النقاد (٧) ، ومال الكتاب إلى الإطناب حتى قال ابن قتيبة : « ولو كتب كاتب إلى أهل بلد فى الدعاء إلى الطاعة والتحذير من المعصية كتاب يزيد بن الوليد إلى مروان « أما بعد فانى أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى الخ » لم يعمل هذا الكلام فى أنفسهم عمله فى نفس مروان ، ولكن الصواب أن يطيل ويكرر ويعيد ويبدىء ويحذر وينذر » (٨) والاطناب مذهب فارسى حتى فى الأساطير وكتابة التاريخ ، ويقول ابن الأثير : « والعجم يفضلون العرب فى الاطالة فإن شاعرهم

---

(١) راجع : ٥٥ / ١ البيان ، ٢٨٢ / ٢ زهر ، ٢٦٠ / ٣ زهر الآداب أيضا .

(٢) يشيد به الجاحظ (٨٤ جـ ١ البيان) ، وله كلمة يعرف بها أنواع الآداب ١٩٥ جـ ١ زهر . (٣) تبناه يحي البرمكى وضمه إلى المأمون (٧٤ المكافأة) وأشاد الحصرى ببلاغته (١٦ — ١٩ جـ ٧ زهر) . (٤) له ترجمة فى الأوراق قسم أخبار الشعراء (٢٠٦ - ٢٣٦) وكان عالى الطبقة فى البلاغة ولم يكن فى زمانه أكتب منه ، وله شعر جيد (١٤٨ جـ ٢ زهر) ، وكان ممن نبلوا بالكتابة (١١ جـ ٣ العقد) ، وهو أول من افتتح المكاتبة فى التهانى بالنيروز والمهرجان (٩٥ جـ ١ ديوان المعانى . (٥) راجع ١٧٥ فهرست ابن النديم ، ٣٥٢ معجم الشعراء .

(٦) راجع ٤٢٤ معجم الشعراء . (٧) ص ٢ أدب الكاتب لابن قتيبة بهامش المثل السائر ، ٤٢ و ٤٣ رسائل الجاحظ حيث يقول الجاحظ : والناشىء من الكتاب إذا وطىء مقعد الرياسة يكون أول بدوه الطعن على القرآن فى تأليفه وألا يرتضى من الكتب إلا المنطق الخ ، ومثل ذلك يقول ابن قتيبة ، وهذا ينفى رأى ابن الأثير من أن الكتاب والشعراء لم يتأثروا بثقافة اليونان (٢٠ المثل السائر) .

(٨) راجع مقدمة أدب الكاتب .

يذكر كتاباً من أوله إلى آخره شعراً وهو شرح قصص وأحوال كما فعل الفردوسى فى نظم الشاهنامة وهو فى ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس، وهذا لايوجد فى اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها (١)، ولم يحفل الكتاب فى أوائل العصر العباسى الثانى بالبديع، والتأنق الكثير فى الأسلوب، ويعيب البديع الجاحظ بأن «كلامه بعيد الاشارات قريب العبارات قليل الاستعارات ليس له لفظة مصنوعة الخ» (٢)، كما عابه الباقلانى بقرب كلامه وكثرة الاقتباس فيه (٣)

وكان حامل لواء هذه الطريقة الجديدة امام البيان الجاحظ، واقتدى به كتاب عصره، كالصولى وابن الزيات والحسن وسليمان ابنى وهب وسعيد بن حميد وأحمد ابن اسرائيل والحسن بن مخلد وابن المدبر وسواهم من الكتاب الذين نشأوا فى هذا العصر وجمعوا بين الأدب والنقد والبلاغة العربية والدخيلة وقرأوا كتب الفرس واليونان والهند وظهر أثر ذلك فى تفكيرهم وانتاجهم وآثارهم الأدبية المتعددة الألوان.

آثر الجاحظ الطبع والبعد عن التكلف والتعقيد والحوشية والسوقية، كما آثر الوضوح وظهور الشخصية فيما يكتبه من رسائل أو مؤلفات، واحتال على نشاط القارىء بالفكاهة ومزج الجد بالهزل وبالاستطراد وبراعة الأسلوب وسحره بالرواية والنقد والتمحيص، والاطناب والانتباه العقلى والتغلغل الفكرى ودقة الملاحظة والشرح والتحليل والتعمق.. وشمول الفكرة ونفوذها وإحاطتها بشتى جوانب الحياة أظهر سمات أسلوب الجاحظ، وهو مع ذلك متقد الحماسة للعرب والعربية، يفضل بلاغة العرب على كل بلاغة ويستشهد بكلمة العربى وبيت البدوى كما يستشهد بحكمة الحكيم ورأى المفكر. وفى انشاء الجاحظ كثير من أساليب الخطابة والجدل. وكان من المعجبين بابن المقفع ونوه بذكره

---

(١) ٤ ج ٣ المثل السائر. وقد وجدت رسائل مطولة وكثيرة فى هذا العصر كرسالة الخميس (١٠٧ - ١١١ ج ١٢ — ابن طيفور مخطوط).

(٢) ٨٢ مقامات البديع ـ المقامة الجاحظية ـ، ٢٠٩ ج ٢ زهر.

(٣) راجع ١٩٤ اعجاز القرآن.

ولكنه لم يسلك مسلكه فى الأدب لأنه رأى أفق الأدب أوسع من أن يقصر على الحكم والمواعظ .

حقا لقد كان الجاحظ فى سحر بلاغته (١) وسمو أسلوبه وشخصيته البارزة فى كل فقرة من فقراته وثقافته الواسعة فى شتى آثاره الأدبية نسيج وحده وفريد عصره كما يقولون ، ورسالته « التربيع والتدبير » وكتابه « الحيوان » من مظاهر ثقافته الواسعة العميقة . وإذا كان ابن المقفع إمام المنشئين فى عصر الترجمة ، فالجاحظ إمامهم فى عصر التأليف .

وقد تأثر بأسلوب الجاحظ الادباء الذين آلت إليهم الزعامة الادبية بعده ، كابن المدبر والحسن بن وهب وابن المعتز الخليفة العباسى الشاعر الاديب المشهور. وقد ذاع فى النثر فى هذا العهد ألوان كثيرة : كأدب التهكم والسخرية ، والرسائل الاخوانية ،والرسالةالادبية، والتوقيع ، والمقامة ، والادبالوصفى ، وأدبالطبيعة وأدب القصة ، وسوى ذلك من فنون النثر الادبى فى هذا العصر الزاهر المتعدد الثقافات .

وقد ألفت فى هذا العصر كتب أدبية جامعة : كالبيان والتبيين ، والحيوان للجاحظ وأدب الكاتب وعيون الاخبار لابن قتيبة ، والكامل للمبرد . وكذلك وضعت أصول النقد والموازنة والبيان على يد الجاحظ وابن سلام وابن قتيبة وابن المعتز وقدامة بن جعفر وسواهم . . ولا عجب إذا قلنا إن النثر الادبى قد بلغ غاية نهضته وعنفوان قوته فى هذا العصر الحافل .

ولئن امتاز العصر العباسى الاول بالجاحظ والعصر الثانى بالعديدمن الكتاب ممن ذكرناهم ، فإن العصر الثالث يتميز بظهور ابن العميدوالصاحب بن عباد ، وكان ابن العميد غاية فى علوم الدين واللغة ورواية شعار والفلسفة (١) ، وكان الصاحب من ذيوع الشهرة وانتشار الصيت إلى حد بعيد ، وكان يحتف به من نجوم الأرض وأفراد العصر ، وأبناء الفضل ، وفرسان الشعر ، من أربوا فى العدد على أدباء وشعراء الرشيد . . كما ظهر فيه كذلك البديع والخوارزمى وأبو الفرج الببغاء والبستى والصابى والجرجانى صاحب الوساطة ، والعسكرى صاحب الصناعتين

---

(١) يقول الجاحظ من رسالة له الى ابن الزيات : نحن أعزك الله نسحر بالقول ونموه بالبيان (٣٩١ دلائل الاعجاز)

والاصبهانى صاحب الاغانى والثعالبى والحصرى والميكالى، وعرف إلى جانبهم من فحول الشعراء من تصدوا للكتابة ، كالمتنبى الذى اتهموه بمعارضة القرآن ، وكالشريف الرضى وينسب النقاد إليه كثيراً مما فى نهج البلاغة ، أنشاه بقلمه ، ونحله الامام على كما يقولون .

ويتميز العصر الرابع بظهور أبى محمد القاسم بن على الحريرى المتوفى عام ٥١٦ هـ صاحب المقامات ، وكذلك الزمخشرى ؛ والقاضى الفاضل م ٥٩٦ هـ صاحب الطريقة الادبية المشهورة به ، وعماد الدين الاصفهانى م ٥٩٧ هـ ، وابن الاثير م ٦٣٧ هـ ، والوطواط م ٥٧٣ هـ ، وسواهم .

أعلام الكتاب وعلماء الأدب

نبغ كثير من الكتاب فى هذا العصر ومن أعلامهم: محمد بن عبد الملك الزيات م ٢٣٣ هـ (١) ، وإبراهيم بن العباس الصولى م ٢٤٣ (٢) هـ ، وسعيد بن حميد م ٢٦٠ هـ (٣) ، والحسن بن وهب (٤) م ٢٦٥ هـ (٥) ، وسليمان بن وهب م ٢٧٢ هـ (٦) ، وأبو العباس احمد بن محمد بن ثوابه الكاتب م ٢٧٧ هـ (٧) ، والمرثدى وكان يكتب للموفق (٨) ؛ ونطاحة الكاتب احمد بن اسماعيل بن الخصيب الانبارى كاتب عبيد الله بن عبد الله بن طاهر

(١) راجع : ١٧٧ فهرست ، ٤٢٥ معجم الشعراء ، ٢٧٨ / ٣ ومابعدها عصر المأمون ، ٢٧ / ١١ ومابعدها الطبرى ، ٣٩ / ٤ مسعودى ، ٤٣ الرسالة العذراء

(٢) راجع : ٥٦ / ٤ مسعودى ، ١٧٦ فهرست ، ٢١ / ٩ الاغانى وما بعدها ٢٠٠ / ١ المفصل ، ٢٠٨ الوسيط ، ٤٢ / ٢ ثمرات الاوراق ، ٩٩ خاص الخاص

(٣) راجع : ١٧٩ فهرست ، وفيات الاعيان ٥٤-٥٧ / ٢ طبعة ١٣١٠ ، ١٧٧ جـ ٤ / ١٢٢ ، ٤ / زهر ، ٩١ / ٤ المسعودى ، ٤٢ / ٢ ثمرات الاوراق

(٤) راجع : ١٧٧ فهرست ، ٥٠٦ سمط اللآلى ، ٢٤٨ ابن الرومى للعقاد ، ٤٤ / ٣ زهر ، ٢٢١ - ٢٢٣ / ٣ معجم الادباء .

(٥) وفى معجم الادباء أنه ولد عام ١٨٦ هـ ومات فى آخر خلافة المتوكل .

(٦) راجع : ٢٤٩ ابن الرومى ، ١٧٧ فهرست ، ١٥٤ - ١٦٠ / ٧ مهذب الأغانى ، ٥٠٦ / ١ سمط اللآلى ، ٤٨٥ معجم الشعراء ، ٣٨٦ — ٣٨٨ / ١ وفيات الاعيان ، ٤٦ / ٣ زهر (٧) ١٨٧ و ١٨٨ فهرست ، ٣٦ - ٥١ / ٢ معجم الادباء

(٨) ١٨٧ فهرست ، ١٦٠ أدب الكتاب للصولى .

وكان بينه وبين ابن المعتز مراسلات وجوابات (١) ، ومحمد بن مكرم الكاتب م بعد ٢٨٢ ﻫ (٢) ، وابراهيم بن المدبر م ٢٧٩ ﻫ (٣) ، وابن طيفور (٢٠٤-٢٨٢ﻫ) ، وعلى بن الحسن م بعد ٣١٠ ﻫ وقد جاوزا التسعين (٤) ، وعلى بن العباس النوبختى م٣٢٧ﻫ عن سن عالية (٥) وابن المعتز م٢٩٦ﻫ ، وأبو بكر محمد بن يحيى الصولى م٣٣٦ﻫ (٦) وهو الذى جمع ديوان ابن المعتز (٧) ، وأبو العباس احمد بن عبيد الله بن عمار الكاتب م٣١٤ﻫ (٨) وحميد بن نصر الكاتب م ٣٠٠ ﻫ (٩) ، وابو الحسين جعفر بن محمد بن ثوابة الكاتب وكتب للقاسم (١٠) وابو عبد الله محمد بن احمد بن ثوابة الكاتب وكتب للمعتضد (١١)

واشتهر هذا العصر بأعلام ذائعة فى الأدب العربى والتأليف فيه ، ومنهم :

ا ـ الجاحظ م ٢٥٥ ﻫ وله كثير من المؤلفات الخالدة منها البيان والحيوان .

ب ـ أبو سعيد الحسن السكرى النحوى م ٢٧٥ ﻫ وكان رواية البصريين وجمع أشعار الجاهلية والاسلام .

حـ ـ ابن قتيبة م ٢٧٦ ﻫ (١٢) ، وله عيون الأخبار وأدب الكاتب والشعر والشعراء وكتاب الشراب .

د ـ ابن أبى الدنيا عبد الله بن محمد م ٢٨١ ﻫ وكان مؤدب المكتفى وله كتب كثيرة (١٣) .

---

(١) راجع : ١٨٠ فهرست , ٣٧٧ جـ ١ معجم الادباء ، ويروى عنه الصولى كثيرا جدا فى أدب الكتاب وله كتاب طبقات الكتاب .

(٢) راجع ٤٤٤ معجم الشعراء (٣) ٤٥٢ معجم الشعراء ، ٣٤٩ الموشح

(٤) ٢٩٥ معجم الشعراء (٥) ٢٩٥ معجم الشعراء ١٤٥ جـ ٢ زهر .

(٦) ٤٦٥ معجم الشعراء ، ١٧٤ جـ ٢ زيدان ، ٣٤٣ - ٣٤٥ نزهة الالبا ومقدمة ادب الكتاب (٧) ١٧٥ جـ ٢ زيدان .

(٨) ٢٥٢ جـ ٤ تاريخ بغداد (٩) ٤٦٣ معجم الشعراء .

(١٠) ٤١٧ جـ ٢ معجم الادباء ، ١٨٨ فهرست . (١١) ١٨٨ فهرست .

(١٢) ١١٥ وما بعدها ، فهرست و٤٤٩ - ٤٥٠ /١ وفيات الأعيان ، ١٧٠/٢ وما بعدها زيدان .

(١٣) راجع ١٧٢ /٢ زيدان .

هـ - ابن طيفور أحمد بن أبى طاهر تلميذ الجاحظ (٢٠٤ - ٢٨٠ هـ (١)) ، وله سرقات الشعراء وكتاب بغداد والجامع فى الشعراء واختيار المنظوم والمنثور(٢)

و - ومنهم أبو العيناء محمد بن القاسم بن خلاد (١٩١ — ٢٨٣ هـ (٣)) .

ز - أبو على البصير الفضل بن جعفر بن يونس م ٢٥١ هـ (٤) .

ح - جحظة أبو الحسن أحمد بن جعفر البرمكى (٢٢٤ — ٣٢٦ هـ (٥)) .

ط - ومنهم ابن المعتز م ٢٩٦ هـ ، وأبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحى م ٣٠٥ هـ (٦) ، وقدامة م ٣٣٧ هـ ، والوشاء أبو الطيب محمد بن أحمد م ٣٣١ هـ ، ويموت بن المزرع م بعد ٣٠٠ هـ وهو ابن أخت الجاحظ (٧) . وغيرهم من جلة الأدباء وأئمة علماء الأدب .

ولقد كانت مصادر الثقافة الأدبية فى هذا العصر كثيرة متعددة ومن أهمها :

---

(١) ٢٠٩ — ٢١٠ فهرست ، ١٩٧ طبقات الشعراء لابن المعتز ، و ٣٥١ الموشح ، ٢١١ / ٤ تاريخ بغداد ، ١٥٢ / ١ معجم الأدباء ، ٤٨ و ٩٣ و ٩٤ / ١ ديوان المعانى .

(٢) أربعة عشر جزءاً يوجد منه بدار الكتب ثلاثة أجزاء فى مجلد مخطوط هى : الحادى عشر فى بلاغات النساء وقد طبع منفرداً فى مصر ، والثانى عشر ويجمع قصائد ورسائل لا يوجد لها مثيل ومنها المعلقات ، والثالث عشر ويجمع فصولا من رسائل مختارة .

(٣) ١٨١ فهرست ، ١٧٠ / ٤ مسعودى ، ٤٤٨ معجم الشعراء ، ٣٢١ — ٣٢٤/ ٢ وفيات الأعيان ، ٣١٦ و ٣٢٢ - ٣٣٠ و ٣٣٢/ ١ زهر ، ٢٦٥ - ٢٧٠ نكت الهميان ، ١٧٠ / ٣ تاريخ بغداد ، ١٨٠ / ٢ شذرات الذهب ، ٦١ / ٧ معجم الأدباء ، ١٤٥/٣ سمط اللالى ، ٢١٨ - ٢٢١/١ أمالى المرتضى ، ١٩٦ طبقات الشعر لابن المعتز (٤) ٩٦/٢ زهر ، ٩٢/٤ مسعودى ، ٣١٤ معجم الشعراء ، ١٨٨ طبقات الشعراء لابن المعتز ، ١٧٨ فهرست ، ٢٧٦/١ سمط اللالى

(٥) ٢٠٨ فهرست ، ١٥٧و١٥٨/٢زهر (٦) ١٦٥ فهرست ، ٢٥٣/٣ زهر

(٧) ٥١٠ معجم الشعراء ، ١٣٦ ج٤ مسعودى

ا ـ القرآن والحديث والكتب المؤلفة حولها، مما يتصل بالأدب والدين كمجاز القرآن لأبى عبيدة وإعجاز القرآن للجاحظ والإعجاز لمحمد بن يزيد الواسطى م ٣٠٦ هـ (١)

ب ـ خطب الخطباء وحكم الحكماء ورسائل الأدباء

ج ـ كتب التاريخ التى جمعها أو ألفها المؤرخون فى هذا العصر والذى سبقه، كابن اسحاق وابن هشام والبلاذرى واليعقوبى والطبرى وسواهم

د ـ كتب السياسة التى تأثرت بآثار الفرس أو كانت مترجمة من ثقافتهم ومنها: كليلة ودمنة والأدب الصغير (٢) والأدب الكبير والدرة (٣) اليتيمة ورسالة الصحابة (٤) لابن المقفع وهى تصوير لسياسة الدولة وحاشية السلطان وأعوانه وجنده، ومنها رسالة طاهر بن الحسين فى السياسة وقد أرسلها إلى ابنه عبد الله (٥)، ومشاورة المهدى لأهل بيته فى خراسان (٦)

هـ ـ كتب الأدب الجامعة، كالبيان وعيون الأخبار والكامل

و ـ كتب البيان والنقد والكتابة، ومنها كتاب الفصاحة للسجستانى وللدينورى (٧)، وكتاب البلاغة للمبرد (٨)، وقواعد الشعر للمبرد ولثعلب، وأسرار البلاغة فى الكتابة لقدامة (٩) ونقد الشعر ونقد النثر له أيضا، وكتاب البديع لابن المعتز، وكتاب الصناعة لأبى جعفر أحمد بن محمد النحاس م ٣٣٨ هـ (١٠)

---

(١) ولعبد القاهر الجرجانى شرح عليه (٩٤/١ كشف الظنون)

(٢) تجده فى رسائل البلغاء ١٧-٥٤، وطبع مستقلا عام ١٩١١ (٣) ٥٥-٥٤ المرجع

(٤) تجدها فى رسائل البلغاء ١٢٠ — ١٣١ (٥) تجدها فى ١٥١ — ١٥٤ الادارة الاسلامية، ١٠٨ - ٢/١١٧ تاريخ آداب اللغة لمحمد بك دياب، ١٨٦ وما بعدها من المطالعة التوجيهية (٦) تجدها فى ٩٥ — ١/١٠٧ العقد؛ وقد أمر المهدى محمد بن الليث بحفظ مراجعتهم واثبات مقالتهم فى كتاب (١/٩٥ العقد) وكتبت عام ١٧٠ (١/١٠٧ العقد)

(٧) ٢/١٦٠ كشف الظنون

(٨) ٨٨ فهرست (٩) ١/٤٧٠ كشف (١٠) ٢/١٥٤ كشف

والرسالة العذراء لابن المدبر م ٢٧٩ هـ (١) ؛ ومنها أدب الكتاب للصولى ، ورسائل الأدباء فى النقد كرسالة ابن المعتز فى أبى تمام

ز ـ كتب الشعر ، ومنها مجموعات فى أشعار القبائل والافراد ومنها المفضليات وحماسة أبى تمام وحماسة البحترى ودواوين الشعراء والكتب المؤلفة فى طبقاتهم.

وكذلك كتاب الامالى للقالى م ٣٥٦ هـ ، وكتاب الأغانى لأبى الفرج الأصبهانى م ٣٥٦هـ ، وكتاب العقد الفريد لابن عبد ربه م ٣٢٨هـ ، وكتاب زهر الآداب للحصرى م ٤٥٣ هـ ، ويتيمة الدهر للثعالبى م ٤٢٩هـ ، والمثل السائر لابن الأثير م ٦٣٧ هـ , وسواها من مئات المصادر فى الادب والشعر

الشعر العربى

كان الشعر الجاهلى غنائيا يفيض من القلب ويصور عاطفة الشاعر وشعوره ، وكان ضخم الألفاظ ، قوى الأسلوب ، متعدد الأوزان والقوافى ، معانيه فطرية مستمدة من صحيفة الحياة ومشاهد البيئة .

فلما جاء الاسلام ظل الشعر على حالته ، أسر لفظ ، وجزالة عبارة ، وطريقة أداء ، ولكن أغراضه تغيرت بتأثير الحياة الجديدة ، ومعانيه استحكمت وألفاظه عذبت بتأثير القرآن وبلاغة الرسول .

وبابتداء القرن الثانى بدأ عهد جديد فى الشعر العربى كان له أثره فى شتى نواحيه الفنية . وظهر هذا الأثر على أيدى المخضرمين الذين عاصروا الدولتين الأموية والعباسية ، كما ظهر منذ أواخر القرن الثانى الهجرى على أيدى المحدثين ـ او المولدين ـ الذين نشأوا فى العصر العباسى ، وتأثروا بالحياة الاجتماعية والفكرية التى كانت تسود فيه

سار الشعر بخطوات كبيرة على يد بشار زعيم المحدثين ، وعلى أيدى زعماء مدرسته الأدبية كأبى نواس ومسلم وغيرهما من الشعراء ، وظلت هذه النهضة الفنية تزدهر حتى آتت أكلها فى العصر الثانى .

وقد كان أبو تمام آخر من شهدهم العصر الأول من أمراء القريض ، ولكن

---

(١) تجدها فى ١٧٦ - ١٩٣ رسائل البلغاء ونشرها مستقلة عام ١٩٣٠ زكى مبارك .

مدرسته الشعرية ظلت مسيطرة على دولة الشعر طول العصر الثانى كله ، وهى التى وجهته توجيهاً جديداً يجمع بين فن بشار ومدرسته، والآثار العقلية والاجتماعية والأدبية التى سادت العصر الثانى وذاعت فيه ، مما خلق نهضة فنية لم يشهدها الشعر طول العصور الأدبية جميعها .

حدث تغيير واسع فى تفكير الشاعر العباسى وعقله ، فامتازت معانى الشعر بدقة التصور ، واستنباط الدقيق والجديد من الآراء والافكار ، وبالاكثار من ضرب المثل واستخدام الآراء الفلسفية والبراهين والأقيسة العقلية ، وبتحميص الأفكار وترتيب العناصر . وأخذ المنطق يتغلغل فى الصياغة الذهنية ، حتى لتجد القصيدة عند أبى تمام محكمة الأجزاء والعناصر والترتيب ، وتبعه فى ذلك كثير من الشعراء .. وأكثر الشعراء من الابداع فى التصوير والخيال والاغراق فيه ، وتركيب التشبيهات والاستعارات والأوصاف ، فى جنوح الى المبالغة والاغراق والغلو والاستقصاء والتغلغل فى دقائق الاغراض والخيالات . وانصرف الشعراء عن المعانى البدوية أو الحضرية المتأثرة بالبداوة الى معان حضرية صرفة . وبعد أن كان الشعر مرآة للطبع الخالص ، أصبح فى هذا العصر لايصدر إلا بعد أن يسيطر عليه العقل وآثار التفكير ؛ وندر فى هذا العصر من خلا شعره من آثار الحضارة العقلية ؛ فمن لم تظهر فى شعره المعانى الفلسفية والآراء الطريفة التى سرت إلى المتأدبين من مذاكرة علم الكلام والعلوم المترجمة وخاصة الفلسفية ؛ ظهرت فيه محسنات اللفظ والمعنى ، وتفخيمات الفرس ومبالغاتهم ، ولابدع فى ذلك فأكثر الشعراء فى هذا العصر كانوا رضاع أدبين ونشء حضارتين وولدان جنسيتين ، مما كان له صداه فى أخيلة الشعراء وتصوراتهم وتأديتهم للمعانى ، ولهذا اللقاح من الأثر فى الفكر والعقل ما يعلل لك وفرة المعانى الجديدة ودقة النظر ولطف الأخذ لها ، « فالمحدثون أكثر ابتداعاً للمعانى وألطف مأخذاً وأدق نظراً ، لأنهم عظم الملك الاسلامى فى زمانهم ورأوا مالم يره المتقدمون » (١) . ومعانى الشعر فى هذا العصر : إما معان قديمة تناولها الشعراء فأحسنوا غالباً صوغها وزادوا فيها ، وإما معان جديدة استقل المحدثون بابتداعها ، وإذا كان للمتقدمين متانة التعبير وصحة الأداء والسلامة من قصور الملكة ، فان للمحدثين مزية (٢) المعنى والتحليق فى سماء الخيال واتساق

---

(١) المثل السائر ص ١٣٦

(٢) ويرى ابن جنى أن المولدين يستشهد بهم فى المعانى (٢٢٤/٢ العمدة)

الفكر ، وشاعت فى أشعارهم تلك الحكمة التى اشتهر بها صالح بن عبد القدوس وأبو العتاهية وأبو تمام وسواهم من الشعراء ، وللمروزى أحمد بن محمد مزدوجة ترجم فيها أمثال الفرس (١) . وكان المروزى مولعاً بنقل الأمثال الفارسية إلى العربيه (٢) وللأنبوردى قصيدة ترجم فيها أمثال الفرس (٣) واشتهر على بن جور الفارسى ـ وكان ذا علم بالنجوم ـ بادخالها فى شعره (٤) .. والحكمه اليونانية صاروا يدخلونها فى الشعر .

يقول الشاعر(٥) : والفقر فى أوطاننا غربة والمال فى الغربة أوطان

وهو نظم لحكمة أرسطو : « المال فى الغربة وطن ، والمقل فى أهله غريب(٦) »

وفنون الشعر وأغراضه القديمة من مدح وهجاء وفخر ورثاء ووصف وغزل بالمؤنث وزهد وحكمة ومثل ، نظم فيها الشعراء ولكنهم أكثروا منها وافتنوا فيها وصبغوها بصبغة تكاد تكون جديدة مبتكرة ، فقد جدد التلقيح العقلى نماذج هذه الأغراض الشعرية ، وأحدث ألوانا من ضروب الرقى الفنى غير كثيراً من جوانبها القديمة .

ونظموا مع ذلك فى أغراض جديدة خلقتها البيئة وآثار الحضارة والحياة فى العصر العباسى ، فشاع فيه المجون والغزل بالمذكر (٧) ووصف الخمر وتصوير

---

(١) كان أكثر شعره فى الزهد والامثال (١٢٢ جزء ١ الاغانى ، ٢٣٨ جزء ١ الكامل) (٢) اليتيمة ص ٨٣ جزء ٤ ، والكشكول ص ١٢٣ و ١٢٤

(٢) اليتيمة ص ٨٤ ج ٤ (٣) اليتيمة ص ٨٦ جزء ٤

(٤) معجم الشعراء ص ٢٩٣

(٥) رسالة الغفران ٢٠٣ .

(٦) وهى فى البديع لابن المعتز برواية أخرى منسوبة لمسلمة بن عبد الملك (٧٦ البديع) .

(٧) نشأ هذا الفن على يد حماد ووالبة وأبى نواس والحسين بن الضحاك والبحترى وسواهم من الشعراء وإذا كان أبوا نواس وحده أو مع فئة قليلة قد نظموا فيه فى العصر الأول فقد كان أكثر الشعراء فى العصر الثانى يطرقون هذا الباب ولم يبق شاعر فى بغداد إلا واشتهر بغلام يعشقه ويتغزل به .

الطبيعة ووصف الصيد والطرد ونظم الشعر فى تأديب النفس وتهذيب النشء بنظم القصص كما فعل أبان وسواه من الشعراء ، وضبط قواعد العلوم ونظم التاريخ كما فعل ابن المعتز فى ارجوزته فى المعتضد وسواه من الشعراء ، ونظموه فى وصف المصلوبين وهجاء المغنين والاتهام بالأبنة والذم بالرشوة ووصف شتى ألوان الطعام ، وفى التصوف الذى أكثر منه الزهاد والمتصوفون ، وفى الوعظ والأخلاق وفى شتى الأغراض وجديدها .

وكان للغناء والحضارة والترف أثر فى التجديد فى أوزان الشعر وقوافيه ، فأخذوا يلائمون بين الموضوعات والأوزاز والقوافى(١) وزهدوا فى الأوزان الطويلة وآثروا عليها الأوزان السهلة الخفيفة القصيرة ، بل إنهم جددوا أوزانا لم يسبقهم إليها المتقدمون ، ونظموا على الأوزان التى لم تنظم منها العرب إلا قليلا كالمضارع والمقتضب والمجتث ، وأكثروا من نظم المخمسات والمزدوجات ، ونظم عليها بشار عبثا واستهتاراً بالشعر(٢) وصنع ابن المعتز أرجوزة فى ذم الصبوح وأرجوزة فى سيرة المعتضد ، واشتهر بالتخميس ابن وكيع والأمير تميم(٣) ، ونظموا الدوبيت والسلسلة والمواليا والزجل وقوما وكان وكان ، والموشح ، ويسروا على أنفسهم فى القوافى فاختاروا أيسر الألفاظ وأسهلها وأحبها إلى السمع ، وتجنبوا عيوب القافية ؛ كل ذلك حرصا على مسايرة الشعر للحضارة والغناء ومحاولة لنشره بين شتى الطبقات .

أما فى أسلوب الشعر : فقد حافظ الشعراء على عربيته ، وإن كان بعض الشعراء قد أدخلوا فيه بعض الألفاظ الفارسية دون تعريب أو معربة مصقولة ، كما فعل أبو نواس وابن المعتز وسواهما من الشعراء ومن قبل كان الأعشى وأمية ابن أبى الصلت وكذلك يزيد ابن مفرغ وأسود بن أبى كريمة(٤) . وقد حاولت بعض العناصر الفارسية احياء أدبهم القومى ونظم الشعر بلغتهم الفارسية . ويروى أنه قدمت للمأمون حين دخوله « مرو » قصيدة فارسية نظمها شاعر يدعى عباس ويقول الشاعر فى القصيدة إنه لم ينظم أحد بهذه اللغة قبله وقد يكون هو عباس

---

(١) راجع « الكشف عن مساوىء شعر المتنبى .

(٢) العمدة ج ١ ص ١٥٧ . (٣) العمدة ج ١ ص ١٥٨ .

(٤) البيان والتبيين ص ١٠٩ ج١

ابن طرخان الذى نقل ابن خرداذبة فى كتابة الجغرافيا شعراً فارسيا له ولكن لغة القصيدة تدعو إلى الشك فى نسبتها لذلك العهد(١) ، وكان هناك شاعر آخر هو محمد ابن البعيث كان يكتب أشعاره بالعربية والفارسية(٢) ، وكذلك الأمر فى النثر فقد كان موسى الأسوارى يقص بالفارسية والعربية (٣) .

وقد ظهر أثر الحضارة وسلامة الذوق فى تخير ألفاظ الشعر وأساليبه لاستعمال الروية وقلة الارتجال والأنحاء عليه بالتهذيب والميل به إلى جانب الرقة والسلاسة مع بقاء جزالته وفخامة عبارته فى غير الهزل والمجون وفى الموضوعات التى تتطلبها ، وانتقل ذوق الزخرف والترف من الحياة العامة إلى الحياة الفنية الخاصة فتجلت الدقة فى انتقاء الألفاظ العذبة الممثلة للمعنى أتم تمثيل وظهر التكلف فى صوغ العبارات والأساليب . ودعا النقاد كالجاحظ وسواه إلى إيثار ما لم يكن من الألفاظ ساقطا سوقيا ولا مستكرها وحشيا وإلى هجر الغريب والخشونة وإيثار الجمال الفنى من وضوح العبارة وجمال الابتداء وحسن التخلص والانتهاء . وقد استعملوا بعض الألفاظ الكلامية واقتبسوا فى الشعر من كتاب الله العزيز، وقصدوا البديع وألوان الزخرف الفنى قصداً يوشون به شعرهم . فقل حظ الشعر من اليسر ، وبعد عهده بالبداوة ، وكثر حظه من التكلف الفنى ، وأصبح أثراً من آثار الصناعة بعد أن كان وليد الطبع والفطرة الحرة المطلقة . وبذلك أصبح الشعر فنا حقا يسير الشاعر فيه وراء الترف والجمال ، من حيث لم يكن الشاعر الجاهلى أو الاسلامى عادة صاحب فن ، بل كان الطبع قويا فيه . ومايقال عن زهير والحطيئة وطفيل الغنوى من أنهم كانوا أصحاب روية وأناة ليس معناه الصنعة أو التكلف الذى نراه عند المحدثين(٤) فالمثل الأعلى للشعر عند القدماء ما جرى على السليقة والفطرة وما أوحت به إليهم حياتهم من المعانى . فأما عند المحدثين فى العناية بالزخرف والتنميق(٥) ، فلم تكن

---

(١) الحضارة الاسلامية لبارتولد ص ٦٨ (٢) الحضارة الاسلامية لبارتولد ص ٦٩ (٣) البيان ص ٢٣٤ ج ١

(٤) ويجعل صاحب الأدب الجاهلى مدرسة مسلم وأبى تمام وسواهما من المصنعين امتداداً لمدرسة زهير والحطيئة (٢٨٨ الأدب الجاهلى)

(٥) تاريخ النقد الأدبى عند العرب ص ٩٩ وما بعدها

العرب تعبأ بالتجنيس والمطابقة ولا تحفل بالابداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر ، فلما أفضى الشعر إلى المحدثين ورأوا مواقع تلك الألوان من الغرابة والحسن تكاملوا الاحتذاء عليها وسموها البديع(١) .

وقد حاول بعض المحدثين التجديد فى بناء القصيدة وأغراضها ، فدعوا إلى ترك الأطلال ومساءلتها فى مبادىء القصيد ، كما فعل أبو نواس ومطيع وابن المعتز ، وسواهم من الشعراء ، ويقول أبو نواس :

صفة الطلول بلاغة القـــدم   فاجعل صفاتك لابنة الكرم

ولكن ابن قتيبة لم يرض عن ذلك، ودعا إلى الاحتفاظ بمنهج القصيدة الموروث(٢).
ولكن ابن رشيق لم يرض عن ذلك المنهج والاتجاه ، ورأى أنه « لا معنى لذكر الحضرى الديار إلا مجازاً » (٣)، « لرغبة الناس فى الوقت عن تلك الصفات ، وعلمهم بأن الشاعر إنما يتكلفها ، والأولى فى هذا الوقت صفات الخمر والقيان(٤) . »

أما المذاهب الأدبية العامة فى فن الشعر فى القرن الثالث الهجرى ومابعده فيمكن إرجاعها إلى مذهبين :

فطائفة من الشعراء قد احتذت حذو القدماء ، فهى لا تسير فى سبيل التجديد الفنى فى الشعر إلا بمقدار ما يتلاءم مع الروح العربية ، فظلت على النهج والصياغة القديمة ، ومنهم : أشجع ، ومروان بن أبى حفصة م ١٨٢ هـ ، ودعبل م ٢٤٦ هـ ، وعلى بن الجهم م ٢٤٩ هـ ، والبحترى م ٢٨٤ هـ ، وسواهم .

وطائفة مالت إلى التجديد : كبشار م ١٦٧ هـ ، وأبى نواس ١٤٥ - ١٩٩ هـ ، والعتابى م ٢٢٠ هـ ، ومسلم ٢٠٨ هـ ، وأبى تمام م ٢٣١ هـ ، وابن المعتز .

ويرجع ذلك إلى التفاوت بين الشعراء فى الثقافة والتفكير والعقلية :

فالطائفة الأولى تثقفت بالثقافة العربية وحدها فسارت فى مذاهب الشعر وفنه وأخيلته ومعانيه على المنهج القديم .

والطائفة الثانية تثقفت بالثقافة العربية وبالثقافات الحديثة ودعت إلى أن يكون

---

(١) راجع ٣٨ الوساطة   (٢) راجع ١٤ و ١٥ الشعر والشعراء ، والعمدة ج ١ ص ١٩٧   (٣) العمدة ج ١ ص ١٩٩   (٤) العمدة ج ٢ ص ٢٧٩

الشعر فنا يعبر عن هذه الثقافات جميعا ويوزن أسلوبه بميزان العقل والمنطق الدقيق.

وكان بين الطبقتين نضال أدبي واسع تمثله المعركة الأدبية التي نشبت بين البحتري وعبيد الله بن عبد الله بن طاهر م ٣٠٠ ﻫ والتي نجد أخبارها في المعارضات التي قامت بين الشاعرين(١) ، وفيها يقول البحتري :

كلفتمونا حدود منطقكم في الشعر يغني عن صدقه كذبه
ولم يكن ذو القروح يلهج بالمنطق ما نوعه وما سببه
والشعر لمح تكفي إشارته وليس بالهذر طولت خطبه

وقبل ذلك قال أبو تمام في الحسن بن وهب :

لم يتبع شنع الكلام ولامشى مشى المقيد في حدود المنطق
في هذه خبث الكلام وهذه كالسور مضروبا له والخندق

وكذلك انقسم نقاد الأدب وعلماؤه طبقات :

ا — فطائفة من النقاد تقف إعجابها وتقديرها على الشعر القديم و،وتزري بشعر المحدثين وفنهم لما فيه من إسفاف وإغراق وإحالة ونقص طبع وتفاوت نفس وتباين ملكات ، —وهم علماء الادب واللغة الذين تثقفوا ثقافة أدبية وعربية خالصة ولم يتزودوا بزاد آخر من الثقافات الحديثة .

ومن هؤلاء : أبو عمرو بن العلاء م ١٥٤ ﻫ وكان أعلم الناس بالعربية وجلس إليه الاصمعي عشر سنين فما سمعه يحتج ببيت إسلامي(٢) وكان يقيم الموازنة بين الشعراء على أساس عصورهم ، لا على أساس شعرهم حتى قال : «لو أدرك الاخطل يوما واحدا من الجاهلية ما قدمت عليه أحدا (٣)» ، وكان لا يعد الشعر إلا ما كان للمتقدمين وسئل عن المولدين فقال : ما كان من حسن فقد سبقوا إليه وما كان من قبيح فهو من عندهم (٤) ، وكان كما يقول ابن سلام في طبقات الشعراء : أشد الناس تسليما للعرب .

ومنهم ابن الاعرابي م ٢٣١ ﻫ ، وكان يزري بأشعار المحدثين ويشيد بشعر القدماء(٥) ، فكان يقول في شعر أبي تمام : «إن كان هذا شعراً فكلام العرب باطل» ، وأنشده(٦)

---

(١) راجع هذه المعارضات في ديوان البحتري ٣٢ — ٣٨ /١ (٢) الشعر والشعراء ص ٧ ، البيان والتبين ٢٠٩ /١ ، العمدة ٧٣ ج ١ (٣) تاريخ النقد الأدبي عند العرب ص ١٠٥

(٤) العمدة ٧٣ ج ١ (٥) الموازنة ٨ ، الموشح ٣٠١ ؛ أخبار أبي تمام ٢٤٤

(٦) التصحيف والتحريف ٨٥ ، المثل السائر ٣١٥ ، أخبار أبي تمام ١٧٥ ، ص ٤٥ وما بعدها من الصناعتين ، رسائل ابن المعتز ١٣ ؛ الموازنة ١٠ ، وراجع ٥٠ وما بعدها من الوساطة .

ابن الطوسى أرجوزه لابى تمام على أنها لبعض شعراء هذيل فاستحسنها وكتبها فلما علم أنها لحبيب قال خرقوها ، وكان ابن الاعرابى يعيب شعر أبى نواس فأنشده رجل شعر آله وهو لا يعرف قائله فأعجب به إعجابا شديدا وكتبه فلما علم أنه لابى نواس أنكره (١) ؛ وكان يستشهد فى كتابه النوادر بكثير من أشعار المحدثين ولعله لو علم بذلك مافعله (٢) ؛ وكان يقول : ختم الشعر بابن هرمة (٣) ؛ وكان الاصمعى يقول : ختم الشعر بالرماح (٤) ، وقال: بشار خاتمة الشعراء والله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم (٥) ؛ وكان أبو حاتم يعيب شعر أبى تمام (٦)

ومنهم اسحاق الموصلى الذى كان فى كل أحواله ينصر الأوائل ، وكان شديد العصبية لهم (٧) فتعصب على أبى نواس (٨) ، وطعن على أبى العتاهية (٩) ، وكان لا يعتد ببشار ويقدم مروانا عليه (١٠) ،وسمع أبا تمام ينشد شعراً له فقال : ياهذا لقد شددت على نفسك (١١) ، ومع ذلك فقد كان أنتاجه الادبى لا يرضى طبقة النقاد التى احتذى حذوها وذلك لأنهم يرونه محدثاً كما فعل الاصمعى معه حين استحسن بيتين أنشدهما اسحاق له فلما علم أن اسحاق صاحبهما عابهما (١٢) ، ولم يكن تعصب اسحاق للقدماء فى ألادب وحده بل كان كذلك فى الغناء أيضاً فكان زعيم طائفة تنكر تغيير الغناء القديم وتعظم الاقدام عليه (١٣)

وكان المأمون — رغم ثقافته الواسعة — يتعصب للاوائل من الشعراء ويقول انقضى الشعر مع ملك بنى أمية (١٤) ؛ ودخل عليه أبو تمام فى زى اعرابى فأنشده فجعل المأمون يتعجب من غريب ما يأتى به فلما انتهى إلى قوله :

هن الحمام فان كسرت عيافة من حائهن فانهن حمام

فقال المأمون : الله أكبر كنت يا هذا قد خلطت على الامر منذ اليوم وكنت حسبتك بدوياً ثم تأملت معانى شعرك فاذا هى معانى الحضريين وإذا أنت منهم فغض به ذلك عنده (١٥)

ومثل ذلك التعصب للقديم موجود فى الآداب الأخرى ؛ فقد كان هوراس

---

(١) راجع ٢٨٩ ج ١ زهر (٢) أخبار أبى تمام للصولى ١٧٧ (٣) العمدة ٧٣ ج ١
(٤) البيان ١٩٧ ج ٣ (٥) الاغانى ٢٣ ج ٣ (٦) المرشح ٣٠٤ (٧) أخبار أبى تمام ٢٢١
(٨) راجع ٢٦٣ و ٢٦٤ من الموشح ، الاغانى ٢٨ ج ٣ (٩) موشح ٢٥٨
(١٠) الاغانى ٢٨ ج ٣ (١١) ٨ الموازنة وتروى برواية أخرى (٣٢٧ الموشح)
(١٢) الوساطة ٥٠، الموازنة ١٠ (١٣) الاغانى ٣٥ ج ٩ (١٤) ديوان المعانى ٢٦٢ ج ١
(١٥) ديوان المعانى ١٢٠ ج ٢

الشاعر الرومانى يرى أن شعراء اليونان هم النماذج التى يجب أن تدرس ليلا ونهاراً ، فإن الشعر ينبغى أن ينظم كما كانوا ينظمونه(١) .

واعتذر الباقلانى عنهم بأنهم إنما كانوا يميلون إلى الذى يجمع الغريب والمعانى(٢)، واعتذر ابن رشيق بحاجتهم إلى الشاهد وقلة ثقتهم بما يأتى به المولدون(٣) .

ب ـ وطائفة أخرى من النقاد حكموا الذوق الأدبى وحده فى الشعر وحكموا بالفضل لمن يستحقه جاهلياً كان أو إسلاميا أو محدثا كالجاحظ وابن قتيبة والمبرد وابن رشيق(٤)، ونقد ابن المعتز تعصب العلماء على المحدثين لغير سبب(٥) وفضل، خلف لامية مروان على لامية الأعشى(٦) ، ويشرح الجرجانى والباقلانى مذهبهم فى النقد(٧) .

حـ ـ وطائفة أخرى حكمت الثقافات الحديثة فى النقد كما فعل قدامة فى نقد الشعر ومناهجه ولاسيما بعد اطلاعهم على ترجمة كتاب أرسطو فى نقد الشعر الذى نقله أبو بشر من السريانية إلى العربية (٨) .

ولاختلاف مناهج النقاد فى نقد الشعر كان الشعراء يتشددون فى طلب العدالة الأدبية من النقاد حين يعرضون ما نظموه من شعر عليهم كما فعل ابن مناذرم١٩٨هـ، فقد أنشد أبا عبيدة قصيدته فى رثاء عبد المجيد بن عبد الوهاب الثقفى(٩) :

كل حى لاقى الحمام فمودى ما لحى مؤمل من خلود

وهى التى عارض بها قصيدة أبى(١٠) زبيد الطائى :

إن طول الحياة غير سعود وضلال تأميل طول الخلود

فقال له : احكم بين القصيدتين واتق الله ولا تقل ذاك متقادم الزمان وهذا محدث متأخر ، ولكن انظر إلى الشعرين واحكم لأفصحهما وأجودهما(١١) .

وفى العصر الثانى كف الخلفاء عن شد أزر الشعراء بالصلات ، لغلبة الترك على

(١) قواعد النقد الأدبى ص ١٤٤ وما بعدها (٢) إعجاز القرآن ١٠٠
(٣) العمدة ٧٣ جـ ١ (٤) الحيوان ٤٠ جـ ٣ ، الشعر والشعراء ٧ و ٨ ، الكامل ١٨ جـ ١ ، العمدة ٧٤ جـ ١ (٥) أخبار أبى تمام ١٧٥ وما بعدها ، رسائل ابن المعتز ١٤ (٦) العقد ص ٤٠٢ جـ ٣ (٧) الوساطة ٣٧ ومابعدها ، إعجاز القرآن ١٠٠ (٨) زيدان ١٥٧ جـ ٢ (٩) راجعها فى الكامل للمبرد ٢٨٨ و ٢٩٠ جـ٢، والمبرد شديد الاعجاب بها (٢٨٨ جـ٢ الكامل) (١٠) راجعها فى (٢٨٦ وما بعدها جمهرة أشعار العرب) (١١) ٥١ طبقات الشعراء لابن المعتز

أمور الدولة وضعف الخلفاء واضطراب الحياة السياسية ، ولأن الدعاية السياسية خرجت كلها أو جلها من أيدى الشعراء إلى أيدى الكتاب والدعاة . . ولتوزع العناية بين الشعر والعلوم الحديثة ، ولكثرة الشعر والشعراء ، ولغلبة المنادمة على الشعر مما رجح صفة النديم على صفة الشاعر، ولقلة المبالاة بالمدح والذم حين استبحر العمران وشاعت الاباحة والمجون . . فلم يعد الشعر طريقا إلى الحياة ، ووسيلة للعيش ، كما كان فى العصر الأول ، الذى أغدق فيه الخلفاء والوزراء والأمراء على الشعراء بانفس الجوائز والصلات (١) .

وكان من رواة الشعر العربى طبقة من العلماء من البصريين والكوفيين والبغداديين، الذين كانوا يروونه إشباعا لنهم فطرهم وأذواقهم الأدبية العربية الخالصة، من أمثال: خلف والأصمعى وأبى عبيدة وأبى زيد ويحي بن نجيم وعمرو بن كركرة وابن سلام، وأستاذهم أبو عمرو بن العلاء أعلم الناس بالعرب والعربية (٢) ومن عامة رواة الأدب والبيان الذين لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة والمعانى المنتخبة ، وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السهلة والديباجة الكريمة ، وعلى الطبع المتمكن والسبك الجيد ، وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى المعانى التى إذا صارت فى الصدور عمرتها وفتحت للسان باب البلاغة - كما يقول الجاحظ - دون النحويين الذين ليس لهم غاية إلا كل شعر فيه إعراب ، والأخباريين الذين لا يقفون إلا على كل شعر فيه الشاهد والمثل ، واللغويين الذين لا يروون إلا كل شعر فيه غريب (٣) . وبجوار هذه الطبقة الشعراء الذين طارت شهرتهم فى آفاق الأدب العربى أمثال ابن هرمة وبشار وصالح ابن عبد القدوس وأبى نواس وأبى العتاهية والسيد الحميرى وأبان اللاحقى ومنصور النمرى وسلم الخاسر وابن أبى عيينة ويحي بن نوفل وخلف بن خليفة ومحمد بن بشير والعتابى ومسلم وأبى تمام (٤) ، وغيرهم من رجال الأدب والبيان ، من بيت بنى هاشم وبنى العباس ومن رجال الفرق الأدبية والسياسية والدينية لا سيما المعتزلة وفرق المتكلمين الذين رآهم الجاحظ فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء (٥) .

ومهما كان فإن التجديد الشعرى فى العصر العباسى لم يتعد فى الأغلب صناعة الشعر وأنه منحصر فى الوجدانى منه ، وهو يظهر لنا فى ثلاثة مظاهر : رقة العبارة،

(١) راجع أضداد الملوك على المدح فى ١٥٨ — ١٦١ ج ١ العقد الفريد .

(٢) ١/٢٠٦ البيان (٣) ٣/٢٢٤ البيان (٤) ١/٥٤ البيان (٥) ١/١٠٦

والتفنن فى المعانى ، والتوفر على البديع اللفظى ، وقد يضاف إليها التوسع فى المصطلحات اللفظية .

وقد كان نتاج الشعراء فى العصر العباسى ممتازاً بالدقة ، ومبنياً على دراسة النفس ومعرفة طبائعها وخصائصها ، وفهم حقائق الحياة ، واستشفاف أسرارها ، وقل أن يعرى أديب عباسى من نصيب فى الحكم والأمثال ، ومن أشهرهم فى ذلك بشار بن برد ، وصالح بن عبد القدوس ، وأبو العتاهية ، وأبو الطيب المتنبى ، وأبو العلاء المعرى ، فقد كانوا أوفر من غيرهم حظا ، وأحكم بناء ، وأشعارهم مملوءة بالحكمة ، وهذه أمثلة قليلة منها : قال بشار :

إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن ... برأى نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة ... فإن الخوافى قوة للقوادم
وما خير كف أمسك الغل أختها ... وما خير سيف لم يؤيد بقائم

ويقول صالح بن عبد القدوس :

لا يبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه
والشيخ لا يترك أخلاقه ... حتى يوارى فى ثرى رمسه
إذا ارعوى عاد إلى جهله ... كذى الضنى عاد إلى نكسه
وإن من أدبته فى الصبا ... كالعود يسقى الماء فى غرسه
حتى تراه مورقا ناضراً ... بعد الذى أبصرت من يبسه

وجمع أبو العتاهية نحو أربعة آلاف مثل فى أرجوزة حكمية سماها ذوات الأمثال، ومنها:

حسبك مما تبتغيه القوت ... ما أكثر القوت لمن يموت
الفقر فيما جاوز الكفافا ... من اتقى الله رجا وخافا
هى المقادير فلمنى أو فذر ... إن كنت أخطأت فما أخطا القدر
ما انتفع المرء بمثل عدله ... وخير ذخر المرء حسن فعله
من جعل النمام عينا هلكا ... مبلغك الشر كباغيه لكا
ما عيش من آفته بقاؤه ... نغص عيشاً كله فناؤه
من لك بالمحض وليس محض ... يخبث بعض ويطيب بعض
إن الشباب حجة التصابى ... روائح الجنة فى الشباب

ويروى أن الجاحظ أنشدت أمامه هذه الأرجوزة يوماً ، فلما وصل إلى هذا

البيت ، استوقف المنشد ، ثم قال : انظروا قوله : روائح الجنة فى الشباب ، فإن له معنى كمعنى الطرب ، الذى لا يقدر على معرفته إلا القلوب ، وتعجز عن ترجمته الألسنة ، إلا بعد التطويل وإدامة الفكر ، وخير المعانى ما كان القلب إلى قبوله أسرع من اللسان إلى وصفه .

ويمتاز كذلك الشعر العباسي(١) بكثرة استدلالهم لما يذهبون اليه من رأى أو فكرة ، بالحجج العقلية أو البراهين الشعرية ، وذلك لأنهم أفادوا من دراسة الفلسفة والمنطق ، وأصبحت نفوسهم لا تقنع بالرأي من دون دليل ، ولأنهم فى التعمق وراء المعانى كانوا يصلون فى كثير من الأحيان إلى الحكم على الأشياء بغير المألوف ، ولا بد للحكم حينئذ من برهان يدعمه ، أو قياس يقربه من مألوف الناس. ولذلك كثر فى أدبهم حسن التعليل ، والمذهب الكلامى ، والتذييل المشتمل على التشبيه الضمنى ، وقد مدح أبو تمام أحمد بن المعتصم بقصيدته :

مانى وقوفك ساعة من باس   نقضى حقوق الأربع الأدراس

فلما وصل إلى قوله :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم   فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

قال له الفيلسوف الكندى ـ وكان حاضراً بالمجلس ـ الأمير فوق من وصفت. فاتكأ أبو تمام على ذكائه ، واستنجد بديهته فأنجدته بقوله :

لا تنكروا ضربى له من دونه   مثلا شروداً فى الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره   مثلا من المشكاة والنبراس

وما أنكر الناس(١) تطويل الشعر فى المدح حتى ضاق ابن الرومى بأهل زمانه ، فاستخرج منه معنى بغيضا ، هو تيقن المادح أن الكرم لا يملأ نفس الممدوح ، وأنه غائر تحت طبقات من البخل وكزازة النفس ، فلا بد للوصول اليه من تطويل الأسباب كما يطيل الرشاء من يمتح من بئر بعيدة الماء :

وإذا امرؤ مدح امرأ لنواله   وأطال فيه فقد أطال هجاءه

لو لم يقدر فيه بعد المستقى   عند الورود لما أطال رشاءه

وما كان الناس يأبهون لبكاء الطفل ساعة الميلاد ، ولكن ابن الرومى الذى

---

(١) مذكرة فى الأدب العربى للأستاذ أحمد شعراوى .

كان يتلمس لتشاؤمه العلل ، التفت إليه ، واتخذه دليلا على ما تعج به الحياة من رزايا ، وما ترصده للأحياء من آلام :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها … يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها وإنها … لأوسع مما كان فيه وأرغد
إذا أبصر الدنيا استهل كأنه … بما سوف يلقى من أذاها يهدد

وما دام جمال الشيء أو قبحه بالدليل والبرهان ، فقد تمكنوا من تحسين ما تعارف الناس على هجنته ، وتهجين ما تواضع الناس على استحسانه ، وقد كان البدر أسمى ما يشبه به وجه الحسناء فى البهاء ، ولكن عبد الرحمن بن المنجم يجرى على لسان حبيبته محاجة يكتب لها فيها النصر على البدر حيث يقول :

شبهتها بالبدر فاستضحكت … وقابلت قولى بالنكر
وسفهت قولى وقالت : متى … سمجت حتى صرت كالبدر
البدر لا يرنو بعين كما … أرنو ولا يبسم عن ثغر
ولا يميط المرط عن ناهد … ولا يشد العقد فى نحر
من قاس بالبدر صفاتى فلا … زال أسيراً فى يدى هجرى

وما سمعنا أحداً احتج للحقد قبل هذا العصر ، ولعل أول من حاول ذلك عبد الملك بن صالح بن على بين يدى الرشيد ، وكان يجد عليه ، ويتهمه بالتطلع إلى الخلافة ، فأراد يحيى بن خالد البرمكى أن يضع من قدره تقربا إلى الرشيد ، فقال : يا عبد الملك ، بلغنى أنك حقود ، فقال عبد الملك : إن كان الحقد هو بقاء الخير والشر ، إنهما لباقيان فى قلبى ، فقال الرشيد : تالله ما رأيت أحداً احتج للحقد بأحسن مما احتج به عبد الملك ، وكان قول عبد الملك هذا نواة ، أخذها ابن الرومى ، فاستنبتها ، ونماها ، وأبداها كثيرة الغصون والأفنان فى قوله يزين الحقد أيضاً :

لئن كنت فى حفظى لما أنا مودع … من الخير والشر انتحيت على عرضى
لما عبتنى إلا بفضل إبانة … ورب امرىء يزرى على خلق محض
ولا عيب أن تجزى القروض بمثلها … بل العيب أن تدان ديناً ولا تقضى
وخير سجيات الرجال سجية … توفيك ما تسدى من القرض بالقرض
إذا الأرض أدت ريع ما أنت زارع … من البذر فيها فهى ناهيك من أرض
ولولا الحقود المستكنات لم يكن … لينقض وتراً آخر الدهر ذو نقض

وما الحقد إلا توأم الشكر فى الفتى وبعض السجايا ينتهين إلى بعض
فحيث ترى حقداً على ذى إساءة فثم ترى شكراً على حسن القرض

وقد نقض ابن الرومى ذلك فقال :

يا مادح الحقد محتالا له شبهاً لقد سلكت إليه مسلكا وعثاً
لن يقلب العيب زينا من يزينه حتى يرد كبيراً عاتياً حدثاً
قد أبرم الله أسباب الأمور معاً فلن ترى سبباً منهن منتكثا
يا دافن الحقد فى ضعنى جوانبه ساء الدفين الذى أضحت له جدثاً
الحقد داء دوى لا دواء له يرى الصدور إذا ماجمره حرثا
فاستشف منه بصفح أو معاتبة فإنما يبرأ المصدور ما نفثا
واجعل طلابك بالأوتار ما عظمت ولا تكن لصغير القول مكترثاً
فالعفو أقرب للتقوى وإن جرم من مجرم جرح الأكباد أو فرثا
يكفيك فى العفو أن الله قرظه وحيا إلى خير من صلى ومن بعثا
شهدت أنك لو أذنبت ساءك أن تلقى أخاك حقوداً صدره شرثا
إذن وسرك أن ينسى الذنوب معاً وأن تصادف منه جانباً دمثا
فكيف تمدح أمراً أنت تكرهه فكن ـ هديت ـ تميز كل ما اغتلثا

ومن خصائص الشعر العباسي أيضاً براعة التصوير ، والافتنان فيه ، وسمو الخيال ، واتساع آفاقه ، ولا شك أن لما أطلعتهم عليه الترجمة من آداب الأمم الأخرى مدخلا فى ذلك ، فقد عرفوا مسالك غيرهم فى تصور الأشياء وتصويرها ، ورأوا مسابح للخيال لا تقف عند الجزء أو تجهد فى تصويره ، بل تنظر إلى الكل نظرة شاملة ، تعين على إخراجه فى صورة كاملة مترابطة ، ولعل إفادتهم فى هذه الناحية كانت محدودة لغلبة التأثر بالأدب القديم ، ولكنها على كل حال ؛ تركت آثاراً لا نكاد نلمحها عند السابقين عليهم . والحضارة لها كذلك نصيب . فالشاعر إنما يستمد صوره مما يحيط به ، وقد لام ابن الرومى من قال له لم لا تشبه كتشبيهات ابن المعتز ، وأنت أشعر منه ؟ . فقال ألا تنشدنى شيئاً من قوله الذى استعجزتنى عن مثله ؟ فأنشده قوله فى الهلال .

انظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال له زدنى ، فأنشده قوله فى الآذريون الأصفر ، وهو زهر أصفر ، فى وسطه خمل أسود ، وليس بطيب الرائحة .

كأن آذريونها والشمس فيه كالية
مداهن من ذهب فيها بقايا غالية

فصاح واغوثاه ؟ بالله لا يكلف الله نفساً إلا وسعها ، ذاك إنما يصف ماعون بيته لأنه ابن خليفة ، وأنا أى شىء أصف ؟ ولكن انظر إذا أنا وصفت ما أعرف أين يقع قولى من الناس ؟ هل لأحد قط مثل قولى فى قوس الغمام :

وساق صبيح للصبوح دعوته فقام وفى أجفانه سنة الغمض
يطوف بكاسات العقار كأنجم فمن بين منقض علينا ومنفض
وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفاً على الجو دكنا والحواشى على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأخضر على أحمر فى أصفر إثر مبيض
كأذيال خود أقبلت فى غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض

ومن بديع الخيال قول أبى إسحاق إبراهيم بن موسى ، يصور تلاحظ العاشقين بصورة معركة ، يظفر أحد الطرفين فيها بالنصر ، ويبوء الآخر بالقتل أو الأسر :

غزتنى بجيش من محاسن وجهها فهى لها طرفى ، ليدفع عن قلبى
فلما التقى الجيشان أقبل طرفها يريد اغتصاب القلب قسراً على الحرب
ولما تجارحنا بأسياف لحظنا جعلت فؤادى فى يديها على العضب
وناديت من وقع الأسنة والقنا على كبدى : يا صاح مالى وللحب
فصرت صريعا للهوى وسط عسكر قتيل عيون الغانيات بلا ذنب

وكذلك يقول ابن الرومى :

وقيان كأنها أمهات عاطفات على بنيها حوانى
مطفلات وما حملن جنينا مرضعات ولسن ذات لبان
ملقمات أطفالهن ثديا ناهدات كأحسن الرمان
مفعمات كأنها حافلات وهى صفر من درة الألبان
كل طفل يدعى بأسماء شتى بين عود ومزهر وكران
أمه دهرها تترجم عنه وهو بادى الغنى عن الترجمان

ومن الآثار التى ظهرت فى أدبهم ، طول النفس وامتداده(١) ،واتساع القصيدة لمئات الأبيات ، فقد أقدرتهم مطالعة الفلسفة والعلوم العقلية على التفسير والتحليل، وامتلأت أيديهم بالمعانى والأفكار يبسطونها ، ويقلبونها على جميع وجوهها ، ويضعون الصور الكثيرة لها ، ويحتجون بما وسعهم من الدليل والبرهان ، وبذلك انفسح مجال القول أمامهم ، انفساحاً لم ييسر لمن كانوا قبلهم، بل كان أمام متأخريهم أوسع منه أمام المتقدمين منهم ، لتكامل الاسباب وتوافرها ، ومصداق ذلك فى الرجوع إلى ما قدمناه من الاحتجاج للحقد ، فقد تركز فى قول عبد الملك بن صالح، واتسع عليه وانبسط عند ابن الرومى حتى ملأ الكثير من الابيات ؛ وطول النفس غير الملهلة التى يخلقها العجز والحيرة فى أداء المعنى . أو بعبارة أخرى ، لا نقصد به ذلك الاسهاب العيى الناتج من ضعف الملكات وقصورها عن توضيح المراد إلا فى فضول من اللفظ ، وإنما نقصد به إلى اشباع المعنى،ومعاودته بالتحليل والتفصيل ، ودعمه بالبرهان والدليل ، وعرضه فى معارض مختلفة من الصور الجميلة ، لا فى مباذل من العبارات المتكررة ، والجمل المترادفة .

ومن خصائصه كذلك المبالغة دون تهيب ، ومجاوزة الحد فيما يثبتون من صفات المدح والذم ، فقد أخذوا عن الفرس ما ورثوه من المغالاة فى تعظيم الأكاسرة ، والديانة بالحق الالهى المقدس ؛ وأخذ الخلفاء الأدباء بهذا المبدأ ، وحملوهم على الإغراق فى مدحهم ، فتباروا فى هذا الميدان ، يحاول كل منهم أن يفتح قلب ممدوحه بما يفخمه ويضخم ما هو فيه ، أو بما يختلقه ويدعيه مما ليس فيه ، وبذلك دخلت المبالغة والادعاء جميع أبواب الشعر ، وبخاصة الهجاء ؛ لأنهما مكننا فيه من الإيجاع والايلام . وقد قال منصور النمرى فى مدح الرشيد :

خليفة الله إن الجود أودية … أحلك الله منها حيث تجتمع
إذا رفعت امرأ فالله رافعه … ومن وضعت من الأقوام متضع
من لم يكن بأمين الله معتصما … فليس بالصلوات الخمس ينتفع
إن أخلف القطر لم تخلف مخايله … أو ضاق أمر ذكرناه فيتسع

فلما اجتمع الشعراء بباب المعتصم بعث إليهم وزيره محمد بن عبد الملك الزيات يقول لهم : من يحسن قول النمرى : خليفة الله الخ فليدخل ، وإلا فلينصرف فقام محمد بن وهيب ، وقال : فينا من يقول مثله ، وأنشد قصيدة منها :

---

(١) الادب العربى للاستاذ أحمد شعراوى .

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها شمس الضحى وأبو إسحاق والقمر
فالشمس تحكيه فى الاشراق طالعة إذا تقطع عن إدراكها النظر
والبدر يحكيه فى الظلماء منبلجا إذا استنارت لياليـه به الغرر

ومنها :

فالخلق جسم له رأس يدبره وأنت جارحتاه السمع والبصر

وأبو نواس يهجو الرقاشى بقوله :

رأيت قدور الناس سوداً من الصلى وقدر الرقاشيين زهراء كالبـدر
يبينهـا للمعتفى بفنائهـم ثلاث كنقط الماء من نقط الحبر
إذا ما تنادوا بالرحيل سعى بها أمامهم الحـولى من ولد الذر
ولو جئتها ملأى عبيطاً مجزراً لأخرجت مافيها على طرف الظفر

ويتصل بحديث المبالغة فى المعانى ظاهرتان لم تكونا قبل هذا العصر : إحداهما شيوع الخنوع والضراعة فى مخاطبة الرؤساء ، فقد علوا بهم عن أن يوجهوا الخطاب إليهم ، أو يصلوه بأسمائهم ، واتجهوا إلى الحضرة والسدة وما أشبه ذلك ، إرضاء لكبريائهم ، ومظاهرة لغطرستهم . والأخرى : كثرة الألقاب التى تضاف إلى الأسماء ، رغبة فى التفخيم من شأن أصحابها ، والتهويل بأقدارهم ، وما اتجه الناس قبل هذا العهد إلى أن يضيفوا للخليفة أو من يتصل به فى العمل لقبا يزيد على اسمه ، حتى جاء أول خلفاء العباسيين فلقب نفسه بالسفاح ، ففتح بذلك باب الألقاب للخلفاء ، وكذلك صنع من كانوا يعاونونه ، فقد افتنوا فى اختراع الألقاب الفخمة كالوزير ، والسلطان ، وذى اليمينين أو الرياستين ، أو الوزارتين ، أو الكفايتين ، ورئيس الرؤساء ، وما أشبه ذلك من الألقاب المركبة من إضافة الكلمات الضخمة إلى الدولة ، أو الدين ، والتى كثرت حتى فى عهود الضعف والانحلال ، وأسبغت على من يستحق ومن لايستحق ، وما ألطف ما قال أبو بكر الخوارزمى فى أحد ذوى الألقاب :

ما لى رأيت بنى العباس قد فتحوا من الكنى ومن الألقاب أبوابا
ولقبـوا رجلا لو كان أولهم ماكان يرضى به للحش بوابا
قل الدراهم فى كفى خليفتنا هـذا ، فأنفق فى الأقوام ألقابا

ألوان من صنعة المحدثين فى الشعر

كان الشعراء المحدثون يقصدون الى ألوان خاصة من الاساليب الساحرة التى يتجلى فيها ترف الفن وجمال الصنعة وسحر الاداء ، من استعارة وتشبيه وجناس وتطبيق ومقابلة وحسن تعليل وسوى هذه الألوان ، التى يقصدونها قصدا ويفتنون فيها افتنانا ، ويحرصون على توشية شعرهم وقصائدهم بها وتجميل آثارهم بزخرفها، كان الراعى مقدمة لهذا اللون من الصنعة ، فكان كثير البديع فى شعره (١)

وأول من فتق البديع من المحدثين بشار وابن هرمة (٢) ، ولم يكن فى المولدين أصوب بديعا منهما (٣) ، ثم اتبع بشارا وابن هرمة مقتديا بهما العتابى والنمرى ومسلم وأبو نواس (٤) ، فالعتابى يذهب شعره فى البديع (٥) ، وكان يحتذى حذو بشار فى البديع (٦) ، كان يجمع الخطابة والشعر الجيد والرسائل الفاخرة مع البيان الحسن، وعلى ألفاظه وحذوه ومثاله فى البديع يقول جميع من يتكلف مثل ذلك من المولدين كالنمرى ومسلم وأشباههما (٧) وأستاذه بشار أبو المحدثين وأستاذهم (٨) وكانت تتباين طبقات شعره فيصعد كبيرها ويهبط قليلها بكثيرها وكذلك كان حبيب (٩) ، وكان نواس ثانى بشار فى منزعه لفظا ومعنى وكثيرا ما صب على قوالبه وجرى فى مضماره . حتى قال الجاحظ فيهما: معناهما واحد والعدة اثنان ! . بشار حل من الطبع بحيث لم يتكلف قط قولا ولا تعب من عمل شعر ؛ وأبو نواس حل من الطبع بحيث يصل شعره الى القلب بلا اذن ، وليس بعد بشار مولد أشعر من ابى نواس (١٠) ، وكان أبو نواس يشبه بالنابغة (١١) ، وكان أسير المحدثين شعرا (١٢) .والصنعة واضحة بشكل ملموس فى ميميته:

---

(١) ٢٤٢ / ٣ البيان (٢) ١٢٠ / ١ العمدة (٣) ٥٥ / ١ البيان

(٤) ١١٠ / ١ العمدة (٥) ٢٤٢ / ٣ البيان (٦) ٥٥ / ١ البيان

(٧) ٥٤ / ١ البيان (٨) راجع ٢٠٠ / ٣ الاغانى ، ١١٠ / ١ العمدة ١٣ / ٢ زهر ؛ ٢٥٠ موشح ، ص ٣ طبقات ابن المعتز . وكان الاصمعى يقول هو خاتمة الشعراء (٢٣ / ٣ الاغانى)

(٩) ٢٦٣ رسائل البلغاء من رسالة الانتقاد لابن شرف .

(١٠) ١٦١ العصر العباسى للاسكندرى (١١) ١١٠ / ١ العمدة

(١٢) ١٧٣ / ١ العمدة

وذى رحم قلمت أظفار ضغنه بحلمى عنه وهو ليس له حلم (١)

على أن هذه الصنعة الشعرية لم تصبح ظاهرة فنية مقصودة وتهذيبا أدبيا واسعا للشعر ومذهبا جديدا مأثورا إلا على يد المحدثين عامة (٢) وعلى يد مسلم وأبى تمام على الخصوص ، فمسلم أول من تكلف البديع من المولدين وأخذ نفسه بالصنعة وأكثر منها ولم يكن فى الاشعار المحدثة قبله إلا النبذ اليسيرة وهو زهير المولدين وكان يبطىء فى صنعته ويجيدها (٣) ، بل هو فيما زعموا أول من قال هذا الشعر المعروف بالبديع وهو لقب هذا الجنس البديع واللطيف (٤) ، وأول من أفسد الشعر بالبديع (٥) ، ويشيد به النقاد جميعا فى مذهب الصنعة والبديع منوهين بأثره فى هذا الباب(٦) ، وكان يتخذ الصنعة مذهبا يطبق عليه نماذجه بيتا بيتا فعنى بضروب التصنيع والزخرف المختلفة من جناس وطباق واستعارة ومشاكلة وأقام ألفاظه وتعابيره كما يقيم المثالون تماثيلهم ، وحقا كان مسلم زعيم التصنيع فى عصره فقد استطاع أن يحمله الغاية من صنع نماذجه فالقصيدة عنده لا تعبر عن خواطر وإنما تعبر عن ألوان (٧) .

وعمت موجة التصنيع بعد مسلم ، وعلى نمطه وحذوه سار أبو تمام والبحترى ، فكانا يطلبان الصنعة ويولعان بها ، فأما حبيب فيذهب الى حزونة اللفظ وما يملأ الأسماع منه مع التصنيع المحكم طوعا وكرها يأتى للأشياء من بعد ويطلبها بكلفة ويأخذها بقوة . وأما البحترى فكان أملح الناس صنعة وأحسن مذهبا فى الكلام يسلك منه دماثة وسهولة مع إحكام الصنعة وقرب المأخذ لا يظهر عليه كلفة ولا مشقة(٨) ، كان لأبى تمام مذهب فى المطابق هو كالسابق اليه جميع الشعراء(٩) ، وربما أسرف فى المطابق وفى المجانس ووجوه البديع من الاستعارة وغيرها(١٠) ، ولا تجتمع الاستعارة اجتماعها فيما نظمه(١١) ، وهو أول من شرع البديع وأنبع عيون

---

(١) وهى فى ديوانه ، وتنسب لمعن بن أوس خطأ

(٢) ١/١٧٣ العمدة (٣) ١/١١٠ العمدة (٤) ١/٢٠ معاهد التنصيص

(٥) ٨ الموازنة (٦) ٦٨ المثل السائر ، ١٠٩ طبقات ابن المعتز ، ٣٧٢ معجم الشعراء ، ٢٤٨ رسائل البلغاء ، ١٣٢ / ٤ زهر .

(٧) ٨١ و ٨٣ الفن ومذاهبه (٨) ١/١٠٩ العمدة

(٩) ١٦٨ /٧ مهذب الأغانى (١٠) إعجاز القرآن (١١) ٩٢ رسالة الغفران

التقسيم والتصريع والاستعارة وأرى الناس غرائب أنواع الجناس(١) ، وعلى أى حال فأبو تمام ومسلم هما اللذان طرقا إلى الصنعة ومعرفتها طرقا سابلة وأكثر منها فى أشعارهما تكثيرا سهلها عند الناس، على أن مسلما أسهل شعرا من حبيب وأقل تكلفا (٢) ، كان أبو تمام يستخدم فى صناعة شعره وشى التصنيع الذى عرف عند مسلم من طباق وجناس ومشا كلة وتصوير وأضاف اليها شيئا آخر من الثقافة والفلسفة وعقد فيها تعقيدا فكان يعتمد فى تصويره على صبغ التدبيج وقد استوعب الفلسفة، والثقافة وحولهما إلى فن وشعر، فالطباق والجناس والمشا كلة كل ذلك وسواء تجتمع فى شعره فيجلله الغموض فى كثير من جوانبه وأجزائه وهو الغموض الفنى الذى أخذه به النقاد فهو يبتكر أفكارا وصورا جديدة ولكنه يحس بأن اللغة لا تستطيع أن تؤدى ما يريد، وجانب الغموض والمعانى العويصة فى شعره هو الذى أثار ضجة واسعة حول شعره تشبه تلك الضجة التى شبت فى فرنسا حول مذهب الرمزيين حين تفرع من مذهب البرناسيين ، وكان أبو تمام يستخدم الطباق استخداما معقدا يلونه بأصباغ فلسفية وكان يسميه توافر الأضداد (٣) وهو المقابلة.. وكان البحترى يتشبه بأبى تمام وينحو نحوه ويحذو حذوه فى البديع (٤)

وكان لا يرى فى التجنيس ما يراه أبو تمام(٥) ويقل التصنع له فاذا وقع فى كلامه كان فى الأكثر حسنا رشيقا وتصنعه للمطابقة كثير حسن، وتعمقه فى وجوه الصنعة على وجه طلب السلامة والرغبة فى السلامة (٦) ، والبحترى على أى حال لم يكن متفلسفا ولم يكن من رجال الفكر العميق ،كان بدويا أعرابيا فظلت أدوات الصناعة عنده ساذجة بسيطة(٧) ، كان يتتبع الألفاظ وينقدها نقد شديدا كما يقول الباقلانى ، وكانت ألفاظه كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات وقد

---

(١) ٣٠٥ الريحانة للشهاب من ظلامة أبى تمام التى ذكرها الشهاب الخفاجى فى ريحانته ٣٠٤ — ٣٠٩)، وقد صنفها الخالدى على لسان أبى تمام يشكو فيها الطائى من الواعظ الموصلى الذى كان يغير على شعر أبى تمام فى كلامه وشعره .

(٢) ١١٠/١ العمدة

(٣) راجع ١١٦و١١٥و١٢١و١٢٣و١٢٤ و١٣١ الفن ومذاهبه فى الشعر العربى

(٤) ١٨٣ /٧ مهذب الأغانى

(٥) أى من إسرافه فيه

(٦) ٩٦ إعجاز القرآن

(٧) ٩٠ الفن ومذاهبه

تحلين بأصناف الحلى كما يقول صاحب المثل السائر ، بل كانت كالعسل حلاوة(١) ، أما ابن الرومى فقد كان من الشعراء الذين يؤثرون المعنى على اللفظ فيطلبون صحته ولا يبالون حيث وقع من هجنة اللفظ وخشونته (٢) ، فكان يصنع شعره على طريقة المدرسة المحافظة ولم يستطع أن يخرج إلى المدرسة الحديثة مدرسة التصنيع(٣) ، فهو حديث فى ثقافته ولكنه لا يستطيع أن ينهض فى فنه بألوان التصنيع وزخارفه، وحقا قد شغف بالتصوير ولكن هذا الشغف لايخرجه إلى مجال المصنعين(٤) ، وهو مع ذلك قد يأتى بألوان الزخرف الفنى فى شعره ولكن دون أن يتخذها مذهبا ، وكان يستخدم الطباق والجناس فى شعره وهو يشبه البحترى فى ذلك إلا أن البحترى يكثر من الجناس ، وقد استعار من أبى تمام صبغ التدبيح(٥) .

وانتهى علم البديع والصنعة إلى ابن المعتز وختم به (٦) ؛ وكان ابن المعتز هو الشاعر الذى انتهت إليه الصناعة الشعرية فقد كان يحب الفن للفن وينظم الشعر ليلهو به وكان فى العباسيين كالوليد فى الأمويين وكان متكلفا مجيدا فى تكلفه كما كان الوليد مطبوعا مجيدا فى طبعه ، ويقول عبد القاهر فيه : وطريقة ابن المعتز طريقة أبى تمام ولم يكن من المطبوعين(٧) ، وكان عبد القاهر يؤثر المطبوع وما قاربه من المصنوع ، ويصف ابن رشيق صنعة ابن المعتز فيقول :

وما أعلم شاعراً أكمل ولا أعجب تصنيعاً من ابن المعتز ،فان صنعته خفية لطيفة لا تكاد تظهر فى بعض المواضع إلا البصير بدقائق الشعر وهو عندى ألطف أصحابه

---

(١) ٣٥ طبقات ابن المعتز والآمدى يفضل ابتداءاته (٢٠٥/١ العمدة) وكان مقصرا فى الخروج من النسيب إلى المدح (٤١ إعجاز القرآن) ، ويفضله الجرجانى بجودة الابتداء على حبيب والمتنبى،وفضلهما عليه بالخروج والخاتمة(٢٠٥/١ العمدة)

(٢) ١٠٦/١ العمدة ، وابن الرومى أكثر الشعراء اختراعا المعانى (٢٣٢ ج ١ العمدة ، وأدبه أكثر من عقله وكان يتعاطى علم الفلسفة (١٦١ رسالة الغفران)

(٣) ٩٤ الفن ومذاهبه (٤) ٩٥ المرجع

(٥) وكان يلتزم حركة ماقبل الروى فى أكثر شعره(١٣٣ و ١١ العمدة) وكان يلتزم القافية ١٣٧و ١٣٨ /١ العمدة، وقد يلتزم الجزء وحركته قبل الروى ١٧٢ سر الفصاحة .

(٦) ١١٠ ج ١ العمدة (٧) ٢٦٢ أسرار البلاغة

شعرا وأكثرهم بديعاً وافتنانا وأقربهم قوافى وأوزاناولا أرى وراءه غاية لطالبها فى هذا الباب(١) ؛ ولقد صدق ابن رشيق فى حكمه الأدبى على ابن المعتز وصنعته فان له من رائع الصنعة وسحر البديع وجمال الأداء ولطف الأساليب ودقة المذهب وحلاوة الصياغة فى صناعته ما يروع القارىء ويستبد باعجاب المنصف من النقاد، «كان أبو تمام متكلفا للبديع وكان البحترى وابن المعتز يجريان مع الطبع وكان مسلم ينهج نهجاً وسطا» (٢) ، ولا شك أن ذلك أثر لعصر ابن المعتز وبيئته وحياته ووجدانه وشعوره ، وآية ناطقة بحبه للجمال السارى فى الحيـــاة .

أشهر الشعراء العباسيين

فى صدر العصر العباسى نجد ابن هرمةوبشارا وأبانوس ، والعديد من الشعراء من أمثال مسلم وسلم الخاسر وأبى العتاهية ووالبة ومنصور النمرى وبكر بن النطاح وعلى بن جبلة والعتابى وأبى الشيص .

كما نبغ كذلك الكثير من الشعراء ، نذكر منهم : محمود بن الحسين الوراق ٢٣٠ﻫ وامتاز بالحكمة والامثال (٣) ، وأبا تمام م ٢٣١ ﻫ . وديك الجن (١٦١ - ٢٣٥ﻫ) (٤) ، وعبد الصمد بن المعذل م ٢٤٠ﻫ (٥) ، وعمارة بن عقيل م ٢٤٠ﻫ(٦) وأبا العميثل م ٢٤٠ ﻫ شاعر عبد الله بن طاهر وكاتبه (٧) ، ودعبل (١٤٨ —

---

(١) ١٠٩ و ١١٠ ج ١ : العمدة (٢) ١٧٠ وما بعدها الأسلوب للشايب

(٣) راجع ١٣٨ / ١ أزهر ، ١٧٤ طبقات الشعراء لابن المعتز(٤) هو عبد السلام الحمصى شاعر الشام وكان أبو تمام يحتذيه راجعه (٨٣ / ١ عمدة) وكان ماجنا (٣١٦ / ١ الدميرى) ، وشهد له أبو نواس (٣١٦ / ١ الدميرى ، ٥٢٥ / ١ وفيات الأعيان) ويروى ذلك عن دعبل (١٩٣ / ١ العمدة) وعن أبى تمام (١٥١ حلبة الكميت) وتوفى عن بضع وسبعين سنة (٣٥ الكشكول) (٥) كان شاعر البصرة (٩٣ خاص الخاص ، ٧٤ / ٣ زهر) ، وأخوه أحمد شاعر كذلك (٧٢ / ٣ زهر)

(٦) ٢٤٧ معجم الشعراء ، ١٤٩ - ١٥١ طبقات الشعراء لابن المعتز .

(٧) ١٣٣ / ٢ الدميرى ، ٧٢ و ٧٣ فهرست ، ١٣٥ - ١٣٦ طبقات الشعراء لابن المعتز ، ٤٧٠ / ١ ابن خلكان

٢٤٦ ﻫ) (١) ، وعوف بن محلم الخزاعى م ٢٤٨ ﻫ (٢) ، وعلى بن الجهم م ٢٤٩ ﻫ (٣) والعطوى م نحو ٢٥٠ ﻫ (٤) ، والحسين بن الضحاك الخليع (١٦٢ - ٢٥٠ ﻫ) (٥) وبارق الكريزى وكان شاعر مكة فى أيام المتوكل وكان يتعصب على أبى تمام (٦) ومحمد ابن سلامة بن أبى زرعة الدمشقى وكان هو وديك الجن شاعرا الشام (٧) ، وأبا عيينة عبد الله بن محمد بن أبى عيينة ، المهلب (٨) .

وكذلك الأخيطل محمد بن عبد الله بن شعيب (٩) توفى نحو عام ٢٥٠ ﻫ، ومحمود بن مروان

---

(١) ١٩٣ - ١٩٨ / ٤ معجم الأدباء ، ١٢٤ - ١٢٧ طبقات الشعر لابن المعتز ، ٢٤٨ - ٢٧٢ / ٧ مهذب الأغانى . وله كتاب طبقات الشعراء (٢٢٩ فهرست) وكتاب فى شعراء بغداد (٦٧ المؤتلف) وكان شاعر علماء وعالم شعراء (٢٤٩ رسائل البلغاء من رسالة الانتقاد لابن شرف) ، وكان يؤدب الفضل ابن العباس (٢٥٦ / ٧ مهذب الأغانى) ،

(٢) ٦٩ فهرست ، ١٠١ خاص الخاص ، ١٣٠ / ١ الأمالى .

(٣) ٢٨٦ معجم الشعراء ، ١٥١ ومابعدها طبقات الشعراء لابن المعتز ، ٣٩ - ٤١ / ٢ وفيات الأعيان ، ٦١ / ٤ المسعودى ، ٤٢٣ - ٤٣٠ / ٢ عصر المأمون، ٩٨ خاص الخاص وكان شاعر مفلقا مطبوعا (١٥١ طبقات الشعراء لابن المعتز) وعلمه بالشعر أكبر من شعره (١٦٣ أخبار أبى تمام)، وكان أحسن الناس علما بالشعر (١٠٠ إعجاز القرآن للباقلانى) ومن الفضلاء بالشعر وصناعة له (١٧٠ / ١ عمدة) وراجع فيه (٦١ / ٤ مسعودى ، ١٠٥ / ٩ الأغانى ومابعدها)

(٤) وكان له فن لم يسبق اليه ذهب فيه مذهب أصحاب الكلام (٥٨ / ٢٠ الاغانى) وكان أحد المتكلمين الحذاق (٤٣٢ معجم الشعراء)، وراجع ١٨٧ - ١٨٨ طبقات ابن المعتز ، ٢٣٢ / ٢ الامالى (٥) ١١٣ المؤتلف ، ٣٠ ج ٤ معجم الادباء ، ٢٦٥ - ٢٧٧ / ٣ عصر المأمون ، ١٢٧ - ١٢٨ طبقات ابن المعتز . وهجا المأمون ثم مدحه بقصيدة نالت استحسانه فعفا عنه (٢٠٦ / ٢ ديوان المعانى) (٦) ٤٣٩ معجم الشعراء (٧) ٤٢١ معجم الشعراء (٨) ٢٧٥ - ٢٩٥ / ٧ مهذب الاغانى ، ١٣٦ - ١٣٩ طبقات ابن المعتز ، ٢٦٧ معجم الشعراء .

(٩) يسلك مسلك أبى تمام ويحذو حذوه (٤٣٢ معجم الشعراء) وأنشد أبا تمام شعراً له فقال له : اذهب إذا شئت فليس للناس بعدى غيرك (١٩٥ طبقات ابن المعتز) .

ابن أبي الجنوب بن أبي حفصة مدح المتوكل ولزم المعتز وخص به فقلده اليمامة والبحرين (١) ، ومحمد بن أبي الوليد الكلابي مدحه المتوكل وكان شاعر أوانه(٢) ، ويزيد المهلبي(٣) وتوفى نحو ٢٥٦ هـ ، والحمدوني إسماعيل بن إبراهيم بن حمدويه البصري(٤) ، وتوفى نحو عام ٢٦٠ هـ ، ومحمد بن دكين المتكلم ورثى المعتز وله أشعار يحض فيها على القول بالعدل والتوحيد(٥) توفى بعد عام ٢٥٥ هـ ، ويعقوب التمار وتوفى فى آخر أيام المعتمد(٦) ، والخليع الأصغر محمد بن أحمد م ٢٨٠ هـ (٧) وابن الرومى (٢٢١ — ٢٨٣ هـ) (٨) ، والبحترى م ٢٨٤ ، وأبو الحسين الخزاعى م ٣٨٣ هـ (٩) ، ومحمد بن على بن حمزة العلوى م ٢٨٧ هـ (١٠) ، وأبو العباس عبد الله بن محمد الناشىء الأنبارى م ٢٩٣ هـ (١١) ، وعبيد الله

---

(١) ٥٠٢ معجم الشعراء (٢) ٤٣٩ المرجع . (٣) ٢٩٥/٧ وما بعدها مهذب الأغانى وص ٣٤٣ المرشح (٤) راجع ٢٢٣ و ٢٥٦ — ٢٦٠/٢ زهر وله فى طيلسان ابن حرب أربعون مقطوعة لا تخلو واحدة منها من معنى نادر أومثل سائر (٩٤ خاص الخاص ، ١٧٦ طبقات ابن المعتز) ؛ وله قصيدة لامية جيدة فى المطالب (٣٥ — ٣٧/٢ العقد) (٥) ٤٥١ معجم الشعراء

(٦) ٥٠٧ معجم الشعراء

(٧) ٤٥٢ معجم الشعراء وهو من ولد ابن قيس الرقيات .

(٨) ٣٥٧ وما بعدها موشح ، ٤١ — ٤٤/٣ وفيات الأعيان ، ١٥١—١٥٦ مراجعات للعقاد ، ٣١٣— ٣٤٤ حصاد الهشيم للمازنى ، وابن الرومى للعقاد .

(٩) ٢٩١ معجم الشعراء ،وهامش ١٤٤ ديوان ابن الرومى (١٠) وكان شاعراً راوية عالماً (٤٥٣ معجم الشعراء) (١١) ترجمته فى (٤٧١ — ٤٧٢/١ وفيات الأعيان ، ١٩٨ طبقات ابن المعتز) وهو الناشىء الأكبر وكان فى طبقة ابن الرومى والبحترى وابن المعتز وكان نحوياً عروضيا متكلما أقام ببغداد ثم خرج إلى مصر وأقام بها إلى آخر عمره وكان متبحراً فى عدة علوم منها المنطق ، وله قصيدة فى فنون من العلم تبلغ سبعة آلاف بيت (٤٧١/١ وفيات) ، وله كتابه الموسوم بتفضيل الشعر (١٧٥/١ العمدة) وينقل عنه الحصرى (٤٩ — ٥١/٣ زهر) ، وله منظومة فى الشعر كتبها إلى أبى الصقر (١٠٨/٢ العمدة) ، وله منظومة أخرى فى الشعر (١٠٩ — ١١٠/٢)عمدة ، ٥١/٣ زهر) ، وله كلمة فى تقسيم العلم عند=

ابن عبد الله بن طاهر (٢٢٣ — ٣٠٠ هـ) ، ويحي بن على المنجم (٢٤١ — ٣٠٠هـ) وابن المعتز (٢٤٧ — ٢٩٦ هـ) ، والبسامى على بن بسام م ٣٠٢ هـ (١) ، ونصر ابن أحمد بن نصر الخبز أرزى المتوفى عام ٣١٧ هـ (٢) ، وأبو بكر الحسن بن على ابن أحمد بن بشار المعروف بابن العلاف الشاعر المشهور (٢١٨ — ٣١٨هـ(٣)) وابن طباطبا العلوى الأصبهانى م ٣٢٢ هـ (٤) .

ثم ظهر المتنبي والشريف الرضى ، وأبو فراس الحمدانى وكشاجم والرفاء والوأواء الدمشقى، ومهيار الديلمى ، وأبو طالب المأمونى م ٣٨٣ هـ ، وأبو العلاء المعرى والطغرائى م ٥١٣ هـ ، وابن سنان الخفاجى م ٤٦٦ هـ ، وابن التعاويذى م ٥٣٨ هـ ، والأرجانى م ٥٤٤ هـ ، والأبيوردى م ٥٧٧ هـ ، وابن سناء الملك م ٦٠٨ هـ ، وابن النبيه م ٦١٩ هـ ، وابن الفارض م ٦٣٢ هـ ، وابن مطروح م ٦٤٩ هـ ، والبهاء زهير م ٦٥٦ هـ . وسواهم من عديد الشعراء .

= الفلاسفة (١٢/١ العمدة) ، وهو غير الناشىء الأصغر (٢٧١ — ٣٦٥ هـ) الذى كان من شعراء سيف الدولة (٤٨ وما بعدها /٢ وفيات) (١) يشبه الحطيئة فى الهجاء (١٠٨ وما بعدها خاص الخاص ، ٤٤/٢ وما بعدها وفيات ، ٢٢٦/٤ المسعودى) وهجاه ابن المعتز (٩٠/٣ زهر ، ١٨٠ ديوان ابن المعتز) وأمه أمامة (٢١٤ فهرست) أخت أحمد بن حمدون ابن اسماعيل النديم ، وكان حسن البديهة شاعراً أديباً (٣١٨/٥ معجم الأدباء) وأغلب شعره فى الهجاء (راجع ٢٩٤ معجم الشعراء) ، وكان هو وإخوته يقرأون الشعر على فضل البريدى (١٧١ أدب الكتاب للصولى).

(٢) ٥٥ - ٦٠ / ٣ وفيات . وهو أحد المطبوعين المجودين وكان لا يعدل به أحد فى زمانه (٤٩٨ / ١ سمط) (٣) كان ينادم المعتضد وكان بينه وبين ابن المعتز صحبة أكيدة فلما قتل ابن المعتز رثاه بداليته :

يا هر فارقتنا ولم تعد وكنت عندى بمنزل الولد

وجعلها فى صورة رثاء هر له إخفاء على المقتدر (٢٤٥ - ٢٤٨ / ١ وفيات الاعيان ، ١٣٩ نكت الهميان ، ٣٣٦ و ٣٣٧ ج ٢ الدميرى) وعدد أبيات القصيدة ٦٥ بيتا وهى من أحسن الشعر وأبدعه كما يقول ابن خلكان

(٤) ٤٦٣ معجم الشعراء ، ٢٨٥ / ٦ معجم الادباء ، ١٠٦ خاص الخاص

طبقات الشعراء العباسيين

— ١ —

الطبقة كل جماعة عاشوا متقاربين فى الزمان وجرت عليهم أحكام واحدة من تأثير البيئة وإن لم يتحدوا فى المنزع أو يدخلوا فى مناقضة أو يتزاحموا على باب ملك (١) ، ومعنى الطبقة أنهم نظراء (٢) وأنهم قريبون من بعض فى منزلتهم الأدبية العامة وإن اختلفوا فى اتجاهاتهم الفنية وإنتاجهم الأدبى .. والشعراء أربع طبقات ، جاهليون ومخضرمون وإسلاميون ومولدون وهم الذين فسدت فيهم ملكة اللسان فعالجوها بالصناعة وهم شعراء بنى العباس (٣) ، ويضيف اليهم الشهاب الخفاجى طبقات ، هم المحدثون ثم المتأخرون والعصريون (٤) . . . والشعراء العباسيون ينقسمون إلى طبقات .

فالطبقة الأولى من العباسيين هم مخضرمو الدولتين ، كابن هرمة وأبى دلامة م ١٦١ ﻫ والحسين بن مطير وأبو حية النميرى وسديف بن ميمون ويحى بن زياد وأبو الهندى وابن الخياط المكى (٥) وبشار م ١٦٧ ﻫ وصالح بن عبد القدوس م ١٦٧ ﻫ أيضا (٦) وحماد عجرد م ١٦٨ ﻫ ومطيع م ١٦٩ ﻫ والسيد الحميرى م ١٧٣ ﻫ ومروان بن أبى حفصه (١٠٥ — ١٨١ ﻫ) ، ومن رجازها أبو نخيلة السعدى ورؤبة م ١٤٥ ﻫ .

وقد تأثرت هذه الطبقة ولا سيا بشار بالفرس وحضارتهم تأثرا قويا وكان

---

(١) ٤٠١ الأدب العباسى لمحمود مصطفى

(٢) ٨٤ تاريخ النقد الأدبى عند العرب

(٣) ٤٥ تاريخ الأدب العربى للزيات

(٤) ٣١٠ و ٣١١ الريحانة

(٥) شاعر ظريف ماجن مدح المهدى (١٨/٩٤ الأغانى)

(٦) وفى الدميرى أنه قتل عام ١٩٧ ﻫ (١/٢٧ الدميرى) ولعله تحريف

تأثرهم بعلوم اليونان قليلا بالقياس إلى من بعدهم . . . وزعيم هـذه الطبقة بشار ، وهو أشهرهم وأشعرهم (١) ، فهو أستاذ المحدثين (٢) وتقدمه فى طبقاتهم ورياسته عليهم من غير اختلاف فى ذلك يغنى عن وصفه وإطالة ذكر محله (٣) ، وسمى أبا المحدثين لأنه فتق لهم أكمام المعانى ونهج لهم سبل البديع فاتبعوه (٤) ، وهو أستاذ المحدثين وبدرهم وصدرهم (٥) . . . ويجعل ابن رشيق أبا العتاهية م ٢١١ هـ من هذه الطبقة (٦) . والصواب عده من الطبقة الثانية .

والطبقة الثانية : نشأت فى صـدر الدولة ، ومن شعرائها : والبة م ١٧٥ هـ وسلم م ١٨٦ هـ (٧) . والعباس بن الأحنف م ١٩٢ هـ ، وأشجع م ١٩٥ . هـ ، وأبو الشيص م ١٩٦ هـ (٨) ، وأبو نواس م ١٩٨ هـ (٩) ، والحكم بن قنبر ، والفضل الرقاشى م ٢٠٠ هـ : وأبان م ٢٠٠ هـ (١٠) : ومحمد بن كناسة م ٢٠٧ هـ : وعلى بن جبلة العكوك (١٦٠ — ٢١٣ هـ) ، وبكر بن النطاح ، ومحمد بن بشير الرياشى : وأبو سعيد المخزومى (١١) ؛ والعتابى م ٢٢٠ هـ ، وعمارة بن عقيل م ٢٤٠ هـ ؛ ومنصور النميرى (١٢) ، ومسلم بن الوليد م ٢٠٨ هـ : وأبو العتاهية م ٢١١ هـ ؛

---

(١) ١/٨٣ العمدة (٢) ٢٥٠ المرشح (٣) ٣/٢٠ الأغانى

(٤) ٢/١٣٦ زهر (٥) ٨٤ خاص الخاص (٦) ١/٨٣ العمدة

(٧) ويعده بعض النقاد من الطبقة الأولى (٨٣ / ١ العمدة ، ٢٨٠ العصر العباسى للسباعى بيومى)

(٨) راجع ترجمته فى ٢٤٥ — ٢٤٨ /٧ مهذب الأغانى .

(٩) وفى الدميرى (١/٤٣) أنه توفى عام ١٩٤ هـ

(١٠) ترجمته فى ١ — ٥٢ الأوراق قسم أخبار الشعراء

(١١) تلميذ العتابى وراويته ووصف اسحاق الموصلى شعره وشعر مسلم أمام الفضل بن يحيى وصفا رائعا

(راجع ٦٥ — ١٣/٦٩ تاريخ بغداد)

(١٢) بغدادى كثير الشعر جيده ، ومدح المأمون (١/٥٧٨ سمط اللآلى ، ٢٦٠ معجم الشعراء ، ١٣٩-١٤٠ طبقات ابن المعتز ، وفى الأمالى قصيدة لامية له (١/٢٥٩ الامالى)

ودعبل (١٤٨ - ٢٤٦ هـ) وهو ساقتهم (١) ؛ وعوف بن محلم الخزاعى م ٢٤٨ هـ، والحسين بن الضحاك م ٢٥٠ هـ، وليس فيهم نظير أبى نواس وليس يفضل عليه مولد سوى بشار (٢)، واشتهر منهم أبو العتاهية، وكان شيخ الطبع (٣) ؛ وكان غزير البحر لطيف المعانى سهل الألفاظ كثير الافتنان قليل التكلف إلا أنه كان كثير الساقط المرذول وهو وبشار والسيد أطبع الناس (٤)، ويقول فيه ابن الأعرابى : ما رأيت أجمع ولا أقدر على بيت شعر منه وما أحسب مذهبه إلا ضربا من السحر (٥)، وقال الأصمعى (٦) : شعره كساحة الملوك يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والخزف، وروى أبو حاتم عن أصحابه : لو أن طبع أبى العتاهية بجزالة لفظ لكان أشعر الناس، وشعره كالماء الجارى رقة ألفاظ ولطافة سبك (٨)، والبارد فى شعره كثير (٩) ويقول المبرد فيه : وهو حسن الشعر قريب المأخذ .. وزعيم هذه الطبقة أبو نواس وتجد له من بهجة اللفظ ودقيق المعنى مايتحير فيه (١٠)، ويقول فيه النظام : كأنه جمع له الكلام فاختار أحسنه (١١) ؛ وامتاز بفحش مجونه وتصويره لأخلاقه ولبيئته ووصفه الخمر ؛ وهو ثانى بشار فى منزعه لفظا ومعنى

وبعد هذه الطبقة يختلف النقاد :

١ — ففريق يجعل أبا تمام م ٢٣١ هـ والبحترى م ٢٨٤ هـ وابن الرومى م ٢٨٣ هـ وابن المعتز م ٢٩٦ هـ طبقة واحدة هى الطبقة الثالثة التى خلفت طبقة أبى نواس (١٢) ويقول ابن رشيق طبقة حبيب والبحترى وابن الرومى وابن المعتز طبقة متداركة وتلاحقوا وغطوا على من سواهم حتى نسى معهم بقية من أدرك أبا نواس ولم يذكر من أصحاب ابن الرومى وابن المعتز إلا من ذكر بسببهما فى مكاتبة أو مناقضة (١٣)

٢ — وفريق يقسم هؤلاء ومن عاصرهم طبقتين فيجعل فى الطبقة الثالثة : أبا تمام

---

(١) ويعده بعض الباحثين فى الطبقة الثالثة (٤٠٢ الأدب العباسى لمحمود مصطفى)
(٢) ١/٨٣ العمدة (٣) ١/٨٢ العمدة (٤) ٣/١٢٢ الأغانى
(٥) ٣/١٢٧ الأغانى (٦) ٣/١٤٠ الأغانى (٧) ٣/١٥٢ الأغانى
(٨) ٦٨ المثل السائر (٩) ٥٩ صناعتين
(١٠) ١٧٢ إعجاز القرآن للباقلانى (١١) ٢١٤ /٧ مهذب الأغانى
(١٢) ١/٨٣ العمدة (١٣) ١/٨٣ العمدة

(١٩٠ — ٢٣١ ﻫ) ، وديك الجن (١٦١ — ٢٣٥ ﻫ) ، ومحمود بن الحسين الوراق م ٢٣٠ ﻫ ، وعبد الصمد بن المعذل م ٢٤٠ ﻫ وأخوه احمد ؛ والحمدونى إسماعيل بن ابراهيم بن حمدويه البصرى ، وأبا العميثل كاتب ال طاهر ٢٤٠ م ﻫ ؛ والعطوى وعلى بن الجهم م ٢٤٩ ﻫ ، ويجعل فى الطبقة الرابعة : محمد بن اسحق الصيمرى ، وعلى بن يحيى المنجم م ٢٧٥ ﻫ ، وابن الرومى (٢٢١ — ٢٨٣ ﻫ) ؛ والبحترى (٢٠٥ — ٢٨٤ ﻫ) ؛ وأبا العباس الانبارى م ٢٩٣ ﻫ ؛ وابن المعتزم ٢٩٦ ﻫ ؛والبسامى م ٣٠٢ ﻫ ؛ والخبز أرزى م ٣١٧ ﻫ (١) .

٣ — وفريق يقسمهم ثلاث طبقات : فيجعل فى الثالثة أبا تمام وديك الجن ودعبل وابن الجهم ؛ ويجعل فى الرابعة البحترى و ابن الرومى ؛ وفى الخامسة ابن المعتز والبسامى (٢) ؛

وفى العصر العباسى الثالث والرابع اشتهر من المشارقة السلامى م ٣٣٩ ﻫ ، وابن نباتة السعدى م ٤٠٥ ﻫ ، والشريف الرضى م ٤٠٦ ﻫ ، ومهيار م ٤٢٨ ﻫ ؛ وكانوا فى بغداد. كما اشتهر فى أمصار العراق أبو طالب المأمونى م ٣٨٣ ﻫ، والبستى م ٤٠٠ ﻫ ، وصردر م ٤٦٥ ﻫ ، والباخرزى م ٤٦٧ ﻫ ، والطغرائى م ٥١٣ ﻫ ، وابن التعاويذى م ٥٣٨ ﻫ ، والأرجانى م ٥٤٤ ﻫ ، والابيوردى م ٥٥٧ ﻫ

كما اشتهر من شعراء الشام ومصر: المتنبي م ٣٥٤ ﻫ ، وأبو فراس الحمدانى م ٣٥٧ ﻫ، وكشاجم م ٣٨٠ ﻫ ، والسرى الرفاء م ٣٦٦ ﻫ ، والوأواء الدمشقى م ٣٩٠ ﻫ ، والببغاء م ٣٩٨ ﻫ ، والنامى ٣٩٩ ﻫ ، وأبو بكر محمد الخالدى م ٣٨٠ ﻫ ، وأبو عثمان سعيد الخالدى م ٤٠٠ ﻫ . ثم المعرى م ٤٤٩ ﻫ ؛ وابن سنان الخفاجى م ٤٦٦ ﻫ ؛ وابن حيوس م ٤٧٣ ﻫ ؛ وابن الخياط الدمشقى م ٥١٧ ﻫ ؛ وابن الساعاتى م ٦٠٤ ﻫ وابن قلاقس الاسكندرى م ٥٣٢ ﻫ ، وابن سناء الملك م ٦٠٨ ﻫ ، وابن النبيه م ٦١٩ ﻫ ، وابن الفارض م ٦٣٢ ﻫ ؛ وابن مطروح م ٦٤٩ ﻫ ؛ والبهاء زهير م ٦٥٦ ﻫ

---

(٣) ٤٠٢ الأدب العباسى لمحمود مصطفى ، ٤٣ العصر العباسى الاسكندرى

(٤) ٣٨٠ العصر العباسى للسباعى بيومى

من أئمة الشعر العباسى

كان أبرز شعراء القرن الثالث أبو تمام والبحترى وابن الرومى وابن المعتز ـ وقد علمت مما سبق طبقتهم الشعرية .

كان أبو تمام وابن الرومى يتعمقان فى الثقافة وينزعان إلى التفكير ويؤثران المعانى العميقة والآراء البعيدة فى الشعر ، وكان أبو تمام مع ذلك يتخذ الشعر صناعة فنية دقيقة فهو يختار ألفاظه وأسلوبه اختياراً دقيقاً ، ويصوغه صياغة خاصة مصبوغة بألوان الترف والزخرف وأصباغ البديع المتعددة التى عرفها شعراء القرن الثالث بذوقهم وعقلهم ؛ من حيث كان ابن الرومى قانعا بالغوص على المعانى دون التفات أو إيثار لألوان الجمال فى الأسلوب ؛ أما أبو عبادة البحترى فقد كان قريبا فى أفكاره واضحا فى أسلوبه ، يحب الصنعة ولكنه يؤثر منها ما كان موائما للفطرة العربية السليمة وللذوق الأدبى الخالص الذى لم تفسده آثار الحضارة وألوان الثقافة ومذاهب الصنعة فى الشعر ، وكان شعره صورة لهذا الاتجاه دون ما سواه ؛ أما ابن المعتز فقد شغف بصناعة الشعر شغفا شديداً ، فتأنق فى ألفاظه وفى ألوان البديع وأصباغ الزخرف التى وشى بها شعره ، وعنى بذلك عناية كبيرة ، ومع ذلك فانه لم يغفل نزعات التفكير التى كان يدفعه إليها عقله وبيئته وألوان الثقافات التى امتزجت بالحياة العقلية فى هذا العصر الخصب ، فكان شعره صورة عامة لمدرسة أبى تمام ومدرسة البحترى، ومثلهما أدق تمثيل، مع ظهور شخصيته ووضوح أثره فى الحياة الأدبية وتطور الشعر فى عصره . . ونحن بعد ذلك لا غنى لنا عن عرض آراء النقاد فى أبى تمام والبحترى وابن الرومى عرضا واسعا يوقفنا على اتجاه ومنهج كل شاعر فى التفكير والانتاج .

أما أبو تمام فشاعر مبدع ألقيت إليه زعامة الشعر من جميع الشعراء فى عصره وآثر فى نظم الشعر تجويد المعنى ودقته ، فكان « لطيف الفطنة دقيق المعانى غواصا على ما يستصعب منها(١) » ، وهو « متكلف إلا أنه يصيب، وشغله المطابقة والتجنيس جزل المعانى ،مدحه ورثاؤه لاغزله وهجاؤه، وطارت له أمثال وحفظت له أقوال(٢) » « ولا يتعلق بجيده جيد أمثاله ورديئه مرذول مطروح(٣) »، « وكان صاحب طريقة مبتدعة ومعان كاللؤلؤ متتبعة(٤) » ، « وهو رأس فى الشعر ومبتدىء لمذهب سلكه

(١) ١٦٨/٧ مهذب الأغانى . (٢) ٢٤٩ رسائل البلغاء من رسائل الانتقاد لابن شرف (٣) ٢ الموازنة (٤) ١٦٦ رسالة الغفران

كل محسن بعده فلم يبلغه فيه (١) » ، وقد شغف بجزالة اللفظ ومتانة الأسلوب وبالصنعة وقصد البديع فهو أكثر الشعراء بديعا وافتنانا وصنعة فى شعره إلا أن مصنوعه جيد يشبه أن يكون مطبوعا ولحلاوة شعره ودقة أسلوبه خفيت الصنعة فيه كثيراً ، وهو من « المعروفين بجودة الرثاء(٢) » ، « ولم يكن له حلاوة توجب له حسن التغزل(٣) ، وكان يكره نفسه على العمل حتى يظهر ذلك فى شعره(٤) ، وكان يأتى فى شعره برد الاعجاز على الصدور ولا يأتى به إلا شاعر متصنع كحبيب ونظرائه(٥) ، وقصيدته « متى أنت عن ذهلية الحى ذاهل ؟ محشوة بالصنعة وتكلف فيها ألوان البديع مما عيب هو وأشباهه عليه(٦) ، وشعره مباين للشعر فى عصره مباينة واضحة من حيث تصوره للشعر وشدة أخذه نفسه بتجويد المعنى ووحدة القصيد وفى كلفه بوصف الطبيعة وميله إلى المعانى الفلسفية يضمنها شعره أيا كان الموضوع الذى ينظم فيه ، ويرى بعض المحدثين أنه يجيد فى هذا المعنى وذاك ولكنه لا يعرض عليك العالم كله فى حالة من الحالات(٧) ، ويرى آخر أن أبا تمام لا يعد فى نظر أهل العصر الحاضر مثلا أعلى للشعر لأنه لم ينقل فى شعره كثيراً من صور العواطف التى كانت تجيش بصدر المجتمع فى ذلك الحين ولم يمثل الحياة القومية فى عصره تمثيلا صحيحاً ولم يكن كأبى العلاء حراً فى ابداء ما يختلج بنفسه من المعانى ولا شجاعا فى بيان ما يعتقده حقا(٨) . ومهما يكن فقد كان أبو تمام رأس طبقته، وأخمل هو والبحترى فى زمانهما خمسمائة شاعر كلهم مجيد كما يقولون ، وتتلمذ عليه كثيرون كالبحترى وسواه ،وكان البحترى يقدمه وكذلك ابن الرومى(٩) ، ولم يدركه ابن المعتز وإن كان تتلمذ على أدبه وشعره .

وأما البحترى فتلميذ أبى تمام ، وكان يتشبه به فى شعره ، ويحذو حذوه فى البديع وكان يراه صاحبا وإماما(١٠) ، ترسم خطا أبى تمام ومضى على أثره فى البديع إلا أنه أحسن فى سبك اللفظ على المعنى وأراد أن يشعر فغنى(١١) ، استمد

(١) ٣٧ أخبار أبى تمام للصولى . وراجع رد الآمدى عليه فى ذلك ص ٦ من الموازنة (٢) ٢/٢٤١ العمدة (٣) ٢/١١٣ العمدة (٤) ١/١٨٢ العمدة
(٥) ١/١٨٣ العمدة (٦) راجع ١٩٥ إعجاز القرآن
(٧) راجع مقالة للعقاد فى الرسالة عدد ٤٥٨ (٨) ص ٨ مقدمة مختصر شرح ديوان الحماسة (٩) ٦٥ أخبار أبى تمام (١٠) ٧/١٨٣ مهذب الأغانى
(١١) ٣٠٢ المثل السائر

معانيه من وحي الخيال وجمال الطبيعة لا من آراء العلم وقضايا المنطق والفلسفة، فأعاد للشعر ما ذهب من بهجته ورونقه حتى قال المتنبي فيه « أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحتري » ، ويشيد النقاد بعذوبته وجمال لفظه وأسلوبه(١) ، وهو في عذوبة اللفظ وسهولته يسبق في هذا الميدان ، والكتاب يفضلون كلامه على كل كلام ويقدمون رأيه في البلاغة على ما وصفه :

في نظام من البلاغة ما شك — امرؤ أنه نظام فريد
وبديع كأنه الزهر الضا — حك في رونق الربيع الجديد
حزن مستعمل الكلام اختياراً — وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فأدركن — به غاية المرام البعيد(٢)

وهو من المكثرين في وصف الخيال المجيدين فيه(٣) ، وأحسن الناس طريقا في العتاب(٤) ، وكان بعض النقاد يختم به الشعراء(٥) ونوه به الآمدي في الموازنة أعظم تنويه(٦) ، وكان يذكر أن أجود شعره « أهلا بذلكم الخيال المقبل »(٧) ، وكان ابن المعتز يشيد بشاعريته وبقصيدته في وصف إيوان كسرى وقصيدته في وصف بركة المتوكل واعتذارياته (٨) ، وكان الصاحب يعجب بطريقة شعراء الشام المثلى التي هي طريقة البحتري في الجزاله والعذوبة والفصاحة والسلاسة (٩)

وإنما يوازن شعر البحتري بشعر شاعر من طبقته ومن هو في مضماره أو في منزلته (١٠) ونحن نفضل البحتري بديباجة شعره على ابن الرومي وغيره من أهل زمانه، ونقدمه بحسن عبارته وسلاسة كلامه وعذوبة ألفاظه وقلة تعقيده في قوله(١١)، والكتاب يفضلون البحتري على أهل دهره(١٢) ، ويطيل الآمدي في الموازنة

---

(١) راجع : ٢٤٩ رسائل البلغاء ، ٧٣ أخبار أبي تمام للصولي ، وكان يقال لشعره سلاسل الذهب (١/٣٧٨ كشف الظنون) . وكثر الغناء في شعره استظرافا لما فيه من الحلاوة على طبع البداوة (١/١٢٨ العمدة)

(٢) ١٠٠ إعجاز القرآن (٣) ٩٩ ديوان الصبابة لابن حجلة .

(٤) ٢/١٥٢ العمدة (٥) ٧/١٨٣ مهذب الأغاني (٦) راجع الموازنة ، ١/٢٠٥ العمدة (٧) ١٧٥ إعجاز القرآن (٨) راجع ٣٣ رسائل ابن المعتز

(٩) ١/٩ اليتيمة (١٠) ١٩٠ إعجاز القرآن (١١) ١٩١ المرجع

(١٢) ١٩٢ المرجع

بينه وبين أبي تمام (١) .

وقد ترجم للبحترى ابن المعتز فى كتابه طبقات الشعراء ترجمة موجزة (٢) ، وكان يشيد بشاعريته وبسينيته فى إيوان كسرى وهائيته فى بركة المتوكل (٣) ، وكان ابن المعتز يجتمع به ويجلس معه (٤) .

وأما ابن الرومى فشجرة الاختراع وثمرة الابتداع ، وكان واسع العطن لطيف الفطن (٥) ، وهو أشعر أهل زمانه بعد البحترى وأكثرهم شعرا (٦) ، ويمتاز بطول نفسه فى قصائده (٧) ولم يجعل اللفظ شغلا شاغلا فى صناعته (٨) ، وكان من مختلق معانى الشعر (٩) وهو أولى الناس باسم شاعر (١٠) ، وهو غريب الأخذ (١١) ، ويرى صاحب الوساطة أن قصائده على طولها لا تعثر فيها إلا بالبيت الذى يروق أو البيتين (١٢) وهو على أى حال شاعر مجيد وعلم من أعلام القريض فى القرن الثالث ، ويمتاز ابن الرومى بتفضيله للفظ على المعنى وباستقصائه واختراعه وتوليده فى معانيه

كان ابن الرومى شاعراً مكتهل السن وابن المعتز ما يزال يافعا شابا ، وكان ذلك يضع ابن الرومى موضع الأستاذ لابن المعتز ، ولكن الأمير لم يبال به ولا تأثر تأثرا واضحا بشعره ، لأنه كان بين الشاعرين صلات مقطوعة ، ففضلا عن تفاوت السن كان ابن المعتز سنيا وابن الرومى معتزليا . وكان ابن الرومى يحب المستعين ويكره المعتز ، كما أحب المهتدى وهجا المعتز قبل قتله . وكان لذلك

---

(١) راجع الموازنة وعلى الأخص ص ٢ و ١٨٠ و ١٨١ ويقول الآمدى إن النقاد لم يتفقوا على أيهما أشعر ص٢ الموازنة .

(٢) ١٨٦ و ١٨٧ طبقات الشعراء لابن المعتز وله تراجم فى ٩٦ — ٣/١٠٣ وفيات ، ٧/١٨٣ وما بعدها مهذب الاغانى ، ٣٣٠ الموشح وما بعدها .

(٣) راجع ٣٣ رسائل ابن المعتز (٥) ٦ مقدمة ديوان البحترى

(٤) ٢٤٩ رسائل البلغاء من رسائل الانتقاد لابن شرف .

(٦) ٢٨٩ معجم الشعراء (٧) ٣٠٨ ابن الرومى للعقاد

(٨) ٣١٦ المرجع (٩) ٤/٢١٤ المسعودى (١٠) ١/٢٥٥ العمدة

(١١) ٣/١٠٥ زهر ، وكان يأخذ الحكم الفارسية فينظمها شعرا (راجع ٣/٢٧٨ زهر)

(١٢) ٥٤ الوساطة

ولا شك أثره فى نفس الأمير ، فنقم على ابن الرومى واعتزله، ورفض الاتصال به،ولم يترجم له فى كتابه طبقات الشعراء مع أنه ترجم للبحترى (١) ولأبى تمام (٢) ولأبى العيناء (٣) والناشىء م ٢٩٣ (٤) وسواهم .

وأما ابن المعتز فشاعريته وشعره مفصل فى كتابى «ابن المعتز وتراثه فى الادب والنقد والبيـــان» .

بين أبى تمام والبحترى

١ — بزغت شاعرية أبى تمام فى آفاق الأدب العربى فى مشرق القرن الثالث الهجرى ، فهتف الناس بها ، وأنصتوا إليها ، معجبين بهذا الرجل الذى سار بالشعر العربى فى مضمار جديد ونهج غريب . ترك أبو تمام الحلبة التى جرى فيها الشعراء قبله ، وأخذ يتحدث عن العواطف البشرية والحياة الإنسانية بلغة تباين اللغة التى ألفها الناس وتحدث بها قبله الشعر والشعراء . لم يقف فى المجال الضيق الذى وقف فيه الشعر العربى فترة طويلة قبل بشار وبعده ، بل أضاف إليه ثروة طائلة من شتى الأخيلة الرائعة والمعانى الدقيقة والحكم الإنسانية العليا ، فكان له قدم وطيدة فى المعانى ، وإبداع نادر فيها ، وإغراب فيما يستنبطه منها ، وتجديد فيما يأخذه من مألوفها ، فهو حين يصف الغناء يصفه بلهجة جديدة مبدعة :

ومسمعة تقوت السمع حسنا ولم تصممه لايصمم صداها
مرت أوتارها فشجت وشاقت فلو يسطيع سامعها فداها
ولم أفهم معانيها ولكن ورت كبدى فلم أجهل شجاها

وحين يتحدث عن الغيث يتحدث عنه بنغمة ساحرة آخذة :

ديمة سمحة القياد سكوب مستغيث بها الثرى المكروب
لو سعت بقعة لإعظام أخرى لسعى نحوها المكان الجديب
لذ شؤبوبها وطاب فلو تسـ ـطيع قامت فعانقتها القلوب
كشف الروض رأسه واستسر الـ ـمحل منها كما استسر المريب

وحين يتحدث عن صلات الأدب التى تؤلف بين الأدباء ، يتحدث وكأن معه لسان كل أديب وعاطفة كل شاعر :

---

(١) ١٨٦ طبقات ابن المعتز (٢) ١٣٣ المرجع (٣) ١٩٦ المرجع

(٤) ١٩٨ طبقات الشعراء لابن المعتز

إن يكد مطرف الإخاء فإننا نسرى ونغدو فى إخاء تالد
أو يختلف ماء الوصال فماؤنا عذب تحدر من غمام واحد
أو يفترق نسب ، يؤلف بيننا أدب أقمناه مقام الوالد

وحين يشيد بذكر رجل تشيد معه الدنيا بذكره :

جم التواضع والدنيا بسؤدده تكاد تهتز من أطرافها صلفا

وحين يبكى الراحلين من أحبابه ويصف عصف النوى بنفوسهم ومغانيهم ، يبدع حتى لكأن الناس جميعا تبكيهم معه ، فيقول :

شهدت لقد أقوت مغانيكم بعدى ومحت كما محت وشائع من برد
وأنجدتم من بعد إتهام داركم فيادمع أنجدنى على ساكنى نجد

أو يقول :

غدت تستجير الدمع خوف نوى غد وعاد قتاداً عندها كل مرقد
فأجرى لها الإشفاق دمعا موردا من الدم يجرى فوق خد مورد
هى الشمس يغنيها تودد وجهها إلى كل من لاقت وإن لم تودد

ثم يستمر فى توقيع لحنه الرائع :

ولكننى لم أحو وفرا مجمعا ففزت به إلا بشمل مبدد
ولم تعطنى الأيام نوما مسكنا ألذ به إلا بنوم مشرد

وهو حين يبكى المجد الآفل والبطولة الشهيدة تبكى معه الإنسانية جميعا :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر
توفيت الآمال بعد محمد وأصبح فى شغل عن السفر السفر

وهو بعد ذلك كله رجل مرهف الشعور مشبوب العاطفة قوى الأحساس بالجمال تتجلى هذه الصفات جميعا فى اسلوبه الشعرى ، فهو صاحب صنعة يطلبها ليرضى بها وجدانه ومشاعره وذوقه فتجيئه بعد نصب أحيانا وعفو الخاطر أحيانا أخرى ، وهو فى أكثر ما يأتى به منها مبدع مجيد . ثم هو لا يرضى لمعناه الغريب الساحر ، ولا لصنعته البديعة الآخذة إلا أسلوبا عاليا قويا محكم النسج ، يتأنق فى إختياره وطلبه تأنق المصور الماهر فى اختيار الألوان التى يجرى بها ريشته ، ويبرز فيها لوحته .

ترجع هذه الروح الشعرية القوية التى تجلت فى شعر أبى تمام إلى أسباب بعيدة من الدم والعنصر ، وأسباب قريبة من البيئة والثقافة . فأبو تمام رجل آرى نشافى

بيئة عربية فكان له من العقلية الآرية حظ ومن الخيال السامى نصيب . يؤيد رأى هذا تلك الرواية التى ذاعت عن أبى تمام فى عصره وتناولها علماء الأدب بعدعصره، كالصولى والآمدى وابن خلكان (١) وياقوت وسواهما ، وهى الرواية التى تؤكد لنا أن أبا تمام ولد فى الشام من أب نصرانى اسمه (تدوس) .ولما نشأ فى طىء ادعى نسبه فيهم وحرف اسم والده فصار « أوسا » وإذا نظرنا إلى الشعراء الذين ساءت علاقاتهم بأبى تمام كمخلد بن بكار الموصلى والوليد ، وجدناهم يتهكمون بدعوة أبى تمام تهكما لاذعا ساخرا . ألا تسمع قول مخلد فيه :

أنا ما ذنبى اذا خا　　لفنى فيك الأنام
أنت عندى عربى　　عربى والسلام

أوقوله أيضا: ويحك من دلاك فى نسبة　　قلبك منها الدهر مذعور
إن ذكرت طاء على فرسخ　　أظلم فى ناظرك النور

أو قول الوليد فى التهكم به :

دع الهجاء فان الله حرمه　　واقصد إلى الحق إن الحق متسع
واذكر حبيب بن أوشونا ودعوته　　فان طيا اذا سبو ابه جزعوا

ألا تراه يؤكد ذلك وينبه على أنه يتكلم كلمة حق ؛ وأن فى الحق ميدانا متسعا للنقد والتهكم ، وألا ترى الوليد يظهر لنا طيا فى صورة الجزع الهلوع إذا ماذكرت بدعوة أبى تمام فيهم ! ولا يضيرنا هذا التغاير فى اسم والد أبى تمام وسواء أ كان تدوس أم أوشونا فان الغاية واحدة ؛ والعربى كثيرا ماينطق الاسم الاعجمى نطقا بعيدا عن أصله ومحرفا عن حقيقته . ثم ألا يكون لنا من ذلك دليل ملموس يؤيد مانذهب إليه ؟ على أننا لاننكر أن تخرج الروح العربية السامية شاعرية كشاعرية أبى تمام ، ولكننا نقول : إن عقلية أبى تمام العربية قد أتت بالبدع العجيب ، وسما بها أن لقحت بثقافة أخرى استمدها الشاعر من عناصر الدم والجنس الذى كان له مظاهر نفسية وفكرية فى عقل أبى تمام نخرج فى ذكائه النادروعقليته الناضجة وملكاته الشعرية الخصبة . . . ثم وراء هذا السبب أسباب قريبة تأثرت بها روح أبى تمام وتلونت بألوانها : فنشأته فى طىء وتثقفه بثقافتها العربية ، وسطوع نجم الادب والشعر فى عصره حين كان الادب عامة والشعر خاصة سمر المجالس وحديث الخاصة ووسيلة الثروة والجاه والجد ، ثم إقباله على الادب

(١) ص ٥ — ٣٩ ابن خلكان جـ ٤

والشعر يروى ظمأه وينهمه من مشارعهما العذاب ، كل تلك الأسباب ساعدت على السمو بشاعرية أبي تمام إلى الذروة ، وبلوغها الغاية التي ينشدها الشعراء . ؛ حتى كان لها الأثر البالغ في الأدب والشعر في عهد أبي تمام وبعده ، وحتى شغل بها الناس جميعا على اختلاف طبقاتهم وثقافتهم ومذاهبهم ؛ ولقد بلغ من أثرها أن كان الشعراء لا يستطيعون أخذ جائزة إلا باذنه ، ولا ينالهم خير إلا بسببه ؛ وكان جميع الشعراء في عصره يعترفون بشاعريته ويقرون بأستاذيته ، ويقتفون أثره في صنعته ونهجه الشعرى (١) ، وجرى على وتيرته الشعراء بعده ، فنهلوا من منهله ، وساروا على طريقته ، كابن المعتز (٢) والمتنبي وسواهما .

ب — وشاء القدر أن يظهر في عهد أبي تمام وعلى يديه ومن قبيلته طيء ، شاعر مطبوع : هو أبو عبادة البحترى ، الذى نهج السبيل المعبدة التي نهجها الشعراء قبله، وآثر مذهب العرب الشعرى الموروث على مذاهب المحدثين المبتدعة ، فعنى باستواء النظم ، وصحة السبك ، وحلاوة اللفظ ، أكثر مما عنى بالمعانى والغوص على نافرها البعيد ، فخرج شعره ساحر الرونق ، صحيح الطبع ، قريب المعانى واضحها قربه من مذهب العرب الشعرى وأسلوبهم فيه ، أو كما يقول البحترى نفسه :

ومعان لو فصلتها القوافى ... هجنت شعر جرول ولبيد
حزن مستعمل الكلام اختياراً ... وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فأدركـ ... ـن به غاية المرام البعيد

حتى قال الناس : « نظم البحترى (٣) » واتخذوه مثلا ، وحتى قيل فيه إنه آثر اللفظ (٤) على المعنى وأراد أن يشعر فغنى ، وقيل : « أعرابى الشعر وما فارق عموده » . وقد قال البحترى عن مذهبه هو ومذهب أبي تمام في الشعر : « أبو تمام يغوص على المعانى ، وأنا أقوم بعمود الشعر » . وملك البحترى إمارة الشعر في عهده كما ملكها أبو تمام من قبل ، حتى روى أنه أخمل خمسمائة شاعر (٥) في زمنه ، وذهب بجاه الشعر ومجده دون كثير من الشعراء ، واتبعه في نهجه الشعرى معاصروه ومن بعدهم من الشعراء .

---

(١) ويقول فيه صاحب الوساطة : وأراه قبلة أصحاب المعانى وقدوة أهل البديع . (٢) ٢٦٢ أسرار البلاغة . (٣) اليتيمة . (٤) ابن الأثير ص ٣٠٤ . (٥) ١٣٥ وساطة و ٥ موازنة .

ج — أثر الشاعرين فى النقد الأدبى : ودفعت نقاد الشعر وعلماءه إلى العناية بشعر الطائيين أسباب كثيرة . من اتحاد بيئة الشاعرين وتقارب عصريهما ، وغزارة شعرهما وجودته ، وسمو إلهامهما ، وتباين نهجيهما فيه ، فدرس الأدباء والنقاد شعر الرجلين فى عصرهما وبعد عصرهما ، وعنوا بنقده ، ولجوا فى الموازنة بينهما وتفضيل أحدهما على الآخر ، وتعصب لهذا فريق ولذلك فريق ؛ فأما من تثقف بالثقافة العربية المحضة ، وطبع طبعه على حبها ، واكتسب الأدب بذوقه ، فلم ير الشعر إلا لامرىء القيس والنابغة ، أو لجرير والفرزدق ، أو لبشار وأبى نواس ، وآثر منه ما كان كثير الماء صحيح الطبع قريب المأخذ والمعانى ، مستوى الأسلوب غير مستكره اللفظ ولا معقد التراكيب . كأبى سعيد الضرير الشاعر وأبى العميثل شاعر آل طاهر م ٢٤٠ ﻫ وكالمبرد م ٢٨٥ ﻫ والآمدى م ٣٧١ ﻫ فهؤلاء آثروا البحترى وقدموه ، ودفعوا أبا تمام عن بلوغ غايته ؛ وأما من تزود مع الثقافة العربية بنصيب من الثقافات الأخرى فأقبل عليها يدرسها ويتأثر باتجاهها ومنحاها العقلى ، ومال إلى الفكرة البعيدة والمعانى الغريبة والمثل السائر والحكمة البليغة ، فقد آثر أبا تمام وفضله وتعصب له ، كالصولى وقدامة (١) ، وكعمارة ابن عقيل وسواهم ، على أننا نجد طائفة قد تعصبت على الرجلين معا ، وهم الذين لجوا فى معاداة المحدثين وشعرهم ولم يروا الشعر إلا ما كان قديما جاهليا أو إسلاميا أمويا ، وختموا سجل الشعراء بابن هرمة وبشار ، وهم رواة اللغة والأدب الذين عكفوا على الشعر الجاهلى وما قرب منه جمعا ورواية ودراسة كالأصمعى (٢١٣ ﻫ) وابن الاعرابى ويحيى بن أحمد الشيبانى وسواهم ممن لا يرى لمحدث فضلا ولا يقر له باحسان ، ينهجون فى ذلك نهج أستاذهم أبى عمرو بن العلاء الذى كان لا يحتج بيت إسلامى ، وكان يقول فى شعر جرير والفرزدق : لقد أحسن هذا المولد حتى هممت أن آمر صبياننا بروايته ، وكان لا يعد الشعر إلا ما كان للمتقدمين ، وسئل عن المولدين فقال : ما كان من حسن فقد سبقوا اليه وما كان من قبيح فهو من عندهم — ٧٣ ج ١ عمدة و ٢٠٩ ج ١ بيان — . ألا ترى ابن العربى الاعرابى ينشده الطوسى أرجوزة هى لأبى تمام فيستحسنها ويستجيدها ويأمر بكتابتها وهو لا يعرف أنها له ، فلما أخبره أنها لأبى تمام ذمها وأسقطها وقال : خرق ياغلام !

وهكذا كان المتعصبون على أبى تمام أحد رجلين : رجل لا يدفع فضل المحدثين

---

(١) ألف كتابا فى الرد على ابن المعتز فيما عاب فيه أبا تمام

ولكنه يؤثر اللفظ والأسلوب على المعنى والإغراق فيه والعناية باستنباط لطيفه ؛ ورجل نقم على أبى تمام مكانته فراح يطعن فيه ويتعصب عليه كدعبل ، ولم يعدم المتعصبون على أبى تمام وله حجة يؤيدون بها آراءهم وحكمهم ، وأخذت حركة النقد تستعر ، وأخذ المؤلفون يؤلفون الكتب فى نقد الشاعرين وتفضيل أحدهما ، فألف ابن المعتز (م سنة ٢٩٦ ﻫ) رسالة فى محاسن شعر أبى تمام ومساويه ، وألف أبو العباس القطربلى(١) كتابا فى إحالة أبى تمام وخطئه ، وألف أحمد بن طاهر سنة ٢٨٠ ﻫ واحمد بن عمار فى سرقاته ، كما ألف أبو الضياء بشر بن تميم كتابا فى سرقات البحترى وأبى تمام ، وفى القرن الرابع ألفت كتب كثيرة فى هذا الموضوع أهمها أخبار أبى تمام لأبى بكر بن محمد بن يحيى الصولى م سنة ٣٣٦ ﻫ أشاد فيه بأبى تمام ورفع مكانته وتعصب له وقدمه ، وكتاب الموازنة لأبى القاسم الحسن ابن بشر بن يحيى الآمدى م سنة ٣٧١ عرض فيه شعر الشاعرين على ميزان النقد ، ثم وازن وناقش وحكم ، جانحا الى إيثار البحترى وتفضيله ، ولم تخل أمهات كتب الأدب وأصوله كالأغانى والمرزبانى ومعجم الأدباء وسواها من الكتب من الكلام على الشاعرين وشعرهما وإثارة حركة النقد والموازنة بينهما .

موزانات بين قصائد من الشعر العباسى

وهذه موازنات أدبية جديدة بين هؤلاء الشعراء الأربعة : أبى تمام والبحترى وابن الرومى وابن المعتز ، حيث ندرس كثيرا من الآثار الأدبية التى تجمعها وحدة واضحة فى الغرض أو فى الاتجاه ؛ لنكون من هذه الدراسة رأيا صحيحا فى أحكامنا الأدبية على هؤلاء الشعراء .

١ — قال أبو تمام فى الغيث :

ديمة سمحة القياد سكوب مستغيث بها الثرى المكروب
لو سعت بقعة لإعظام أخرى لسعى نحوها المكان الجديب
لذ شؤبوبها وطاب فلو تسطيع قامت فعانقتها القلوب
فهى ماء يجرى وماء يليه وعزالى(٢) تنشا وأخرى تذوب
كشف الروض رأسه واستسر المحل منها كما استسر المريب

---

(١) ٦٢ موازنة . (٢) جمع عزلاء : مصب الماء من الراوية ونحوها .

فإذا الرى بعد محل وجرجا ... ن لديها يبرين أو ملحوب
أيها الغيث حى أهلا بمغدا ... ك وعند السرى وحين تؤوب

وقال ابن الرومى :

سحائب قيست بالبلاد فألفيت ... غطاء على أغوارها ونجودها
حدتها النعامى مثقلات فأقبلت ... تهادى رويدا سيرها كركودها
غيوث رأى الإمحال فيها حمامه ... فرين حياة الأرض بعد همودها
أظلت فقال الحرث والنسل هذه ... فتوح سماء أقبلت فى سدودها
فأطفأ نيران الغليل مواطر ... مضرجة نيرانها فى وقودها

وقال البحترى :

ذات ارتجاز بحنين الرعد ... مجرورة الذيل صدوق الوعد
مسفوحة الدمع بغير وجد ... لها نسيم كنسيم الورد
جاءت بها ريح الصبا من نجد ... فانتثرت مثل انتثار العقد
فراحت الأرض بعيش رغد ... من وشى أنوار الربا فى برد

وقال ابن المعتز :

وغيث خصيب الترب تندى بقاعه ... بهيم الذرى أثواب قيعانه خضر
رحيب كموج البحر يلتهم الربا ... ويغرق فى أكلائه النعم الدثر
ألحت عليه كل طخياء ديمة ... إذا ما بكت أجفانها ضحك الزهر
فما طلعت شمس النهار ضحية ... ولا أصلا إلا ومن دونها خدر
كأن الرحاب الجون والفجر ساطع ... دخان حريق لايضىء له جمر

وقال أيضا :

وسارية لا تمل البكا ... جرى دمعها فى خدود الثرى
سرت تقدح الصبح فى ليلها ... ببرق كهندية تنتضى
فلما دنت جلجلت فى السما ... ء رعدا أجش كجر الرحا
ضمان عليها ارتداء البقاع ... بأنوارها واعتجار الربا
فما زال مدمعها باكيا ... على الترب حتى اكتسى ما اكتسى
فأضحت سواء وجوه البلاد ... وجن النبات بها والتقى

فتجد لأبى تمام الاسلوب الجيد والتصوير الجيد والاستعارات الرائعة والمعانى

المبتكرة والمبالغة المقبولة والشعور العميق بأثر الغيث فى الارض وحاجة الارض للماء . ونجد ابن الرومى يصف الغيث بالكثافة والإطباق وكثرة الماء وحاجة الارض إليه ، مع تقصير عن أبى تمام فى التصوير والوصف والاسلوب ، ومع اعتماد عليه وأخذ من معانيه كما تراه فى بيته الذى قبل الاخير . وتجد للبحترى أسلوبه الجميل وصياغته الفنية ولكنك لا تحس بأثر لشخصيته فيما وراء الاسلوب من معنى وتصوير وخيال ، بل هو فى ذلك مقلد كسواه من الكثير من الشعراء . ولكنك تجد ابن المعتز قد ازدحمت فى أسلوبه الصياغة الفنية الدقيقة والصور الشعرية الكثيرة التى تغلب عليها روح الإيجاز وجزالة الاسلوب فى قطعته الاولى وعذوبته فى الثانية مع جمال التشبيه والاستعارة والطباق ، وهو فى قطعته الثانية يقف بجانب أبى تمام فى المعانى والتصوير وظهور أثر شخصيته الواضحة فى الاسلوب والتعبير .

٢ — وقال أبو تمام فى ذكرى فراق أحبابه له :

نسائلها أى المواطن حلت ... وأى بلاد أوطنتها وأيت ؟
وماذا عليها لو أشارت فودعت ... الينا بأطراف البنان وأومت
وما كان إلا أن تولت بها النوى ... فولى عزاء القلب لما تولت
فأما عيون العاشقين فأسخنت ... وأما عيون الكاشحين فقرت
ولما دعانى البين وليت إذ دعا ... ولما دعاها طاوعته ولبت
فلم أر مثلى كان أوفى بعهدها ... ولا مثلها لم ترع عهدى وذمتى

ويقول فى موقف الوداع :

أما وقد كتمتهن الخدور ضحى ... فأبعد الله دمعاً بعدها اكتتما
لما استحر الوداع المحض وانصرمت ... أواخر الصبر إلا كاظما وجما
رأيت أحسن مرئى وأقبحه ... مستجمعين لى : التوديع والعنما
فكاد شوقى يتلو الدمع منسجما ... إن كان فى الأرض شوق فاض فانسجما

وقال ابن الرومى :

لست أنسى امتناع صبرك للتو ... ديع والبين مؤذن بشتات
وانحدار الدموع كاللؤلؤ الرطـ ... ـب هوى من مدامع قرحات
والتفاتا نحوى وقد قبضتنى ... عنك أيدى الفراق حال التفاتى
ومقالا جرى وللشوق فى الأحشـ ... ـاء نار أليمة الحرقات

حاطك الله بالكلاءة والصنع ووقاك أعين العائدات

وقال البحترى :

ما أرى البين مخليا من وداع أنفس العاشقين حتى تبينا
وبود القلوب يوم استقلت ظعن الحى أن تكون عيونا
منزل هاج لى الصبابة والشو ق قرينى فيه فساء قرينا
يوم كان المقام فى الدار شكا يبعث الحزن والرحيل يقينا

وقال :

قد أرتك الدموع يوم تولت ظعن الحى ما وراء الدموع
عبرات ملء الجفون مرتها حرق للفراق ملء الضلوع
إن تبت وادع الضمير فعندى نصب من عشية التوديع

وقال ابن المعتز :

لا مثل من يعرف العشاق حبهم بل أنت من بينهم تشقى بمن تمق
نأوا بليل فزموا كل يعملة ويعمل جمل فى أنفه الحلق
إنى وأسماء والحى الذين غدوا بها على الكره من نفسى وما وثقوا
لكالربيط وقد سيقت قرينته ينازع الحبل مشدوداً وينطلق
فطيروا القلب وجدا بين أضلعه وعذبوا النفس حتى ما بها رمق
ما أنس لا أنس إذ قامت تودعنا بمقلة جفنها فى دمعها غرق
تفتر عن مقلة حمراء موقدة تكاد لولا دموع العين تحترق
كأنها حين تبدو من مجاسدها بدر تمزق أركانه الغسق

فتجد أبا تمام يتصرف فى المعانى المعروفة تصرف حسنا ويصوغها صياغة قوية فيها صنعة كثيرة أظهرها المقابلة ، فهو فى البيت الأول يتساءل فى حزن عن الديار التى أمتها محبوبته مع بعض القبح فى تكرير « أى وأيت » إذ لافائدة لهذا التكرار ولا جديد وراءه . وفى البيت الثانى يتحسر لعدم توديع محبوبته له قبل سفرها البعيد ولو باشارة عابرة بأطراف البنان ، ويصور فى الثالث حزنه لفراقها ، وكذلك فى الرابع إلا أنه يضيف فيه إلى ذلك فرح خصومه بهذا الفراق وفى البيتين الأخيرين يصور وفاءه لعهد الحب وخيانتها لهذا العهد المقدس ؛ وكذلك هو فى أبياته الأخرى، معان واضحة معروفة يلم بها الشاعر فى كثير من تعقيده الفنى فى صياغته وصناعته

الشعرية، ولكنك تجد لابن الرومى تصويراً بارعا، ينطق عن شعور صحيح بألم الوداع، وإدراك صادق لأحزان الفراق، وتأثر واضح بهذه الساعات الحافلة بالذكريات، والتى يعز فيها على الأحباب الصبر، فتنحدر الدموع من عيونهم القرحات، ويعزون أنفسهم بتتبع أبصارهم للحبيب الراحل حين رحيله، وبالدعاء له بأن يحوطه الله بالرعاية، وأن يحفظ عليه شبابه وجماله، ويمنع عنه أذى الحاسدين والعائدات، وينزل البحترى عن هذه الدرجة العالية التى بلغها ابن الرومى فى أبياته، فهو لا يشعر إلا بما يشعر به الناس، وإن أوتى عذوبة التعبير وجمال الأداء، بل إنه يخرج على أدب الحب فيعلن سخطه على حبيبه الراحل. وابن المعتز يصل فى أبياته إلى درجة ابن الرومى ولكن يهبط به أنه لم يتناول موقف الوداع وتصويره ببساطة ابن الرومى وصدق تصويره، ولكنه على أى حال فوق أبى تمام والبحترى فى قوة الشعور وتأجج العاطفة وظهور الشخصية ووضوح التصوير الذى يمتزج فيه الفن بالفكرة والشعور، ويتراءى فى ثوب من العذوبة والترف لولا بيته الثانى الذى أضعفه بيعملته ويعمله الجمل كما يقول

٣ — وقال أبو تمام فى الشيب :

لعب الشيب بالمفارق بل جد ... فأبكى تماضراً ولعوبا
خضبت يدها إلى لؤلؤ العقد ... وما أن رأت شواتى خضيبا
كل داء يرجى الدواء له إلا ... الفظيعين : ميتة ومشيبا

وقال :

فلا يؤرقك إيماض القتير به ... فان ذاك ابتسام الرأى والأدب

وقال :

له منظر فى العين أبيض ناصع ... ولكنه فى القلب أسود أسفع

وقال ابن الرومى :

قالوا المشيب نذير، قلت : لا وأبى ... لكن بشير يجلى وجهه الكربا
أليس يخبر من أرسى بساحته ... أن اللحاق بحب النفس قد قربا
ياحسن هاتيك بشرى عند ذى أسف ... على الشبيبة والعيش الذى نضبا
لم يرع حق شباب كان يصحبه ... من لم يحبب اليه فقده العطبا

لو لم يجب حفظه إلا بأن له حق الرضاع على إخوانه وجبا
أخى وإلنى وتربى كان مولدنا معا وربتنى الأيام حيث ربا
يضمنا حجر أم فى رضاعتنا وملعب حين ناغت بيننا اللعبا
ان الشباب لمألوف لصحبته تلك القديمة ، مبكى اذا ذهبا
والشيب مستوحش منه لغربته والشى مستوحش منه اذا غربا

وقال :

لا بدع أن ضحك القتير فبكى لضحكته الكبير

وقال :

قد يشيب الفتى وليس عجيبا أن يرى النور فى القضيب الرطيب

وقال البحترى :

عيرتنى المشيب وهى بدته فى عذارى بالصد والاجتناب
لاتريه عارا فما هو بالشيب ولكنه جلاء الشباب
وبياض البازى أصدق حسنا ان تأملت من سواد الغراب

وقال :

عذلتنا فى عشقها أم عمرو هل سمعتم بالعاذل المعشوق
ورأت لمة ألم بها الشيب فريعت من ظلة فى شروق
ولعمرى لولا الأقاحى لابصر ت أنيق الرياض غير أنيق
أى ليل يبهى بغير نجوم أو سحاب يندى بغير بروق ؟

وقال ابن المعتز :

صدت شرير وأزمعت هجرى وصغت ضمائرها الى الغدر
قالت : كبرت وشبت ، قلت لها هذا غبار وقائع الدهر

وقال : إن شيب الرأس نور الهموم

وقال :

قد أنكرت مشيبا عمر رأسى واستعر
ياهند ماشاب قلبى وإنما شاب الشعر

وقال ::

رات أقحوان الشيب لاح وأذنت ملاحات أيام الصبا بوداع
فقالت: محاك الدهر فى صبغة الصبا وكنت من الفتيان خير متاع

فنجد الصنعة تهجن من أبيات أبى تمام الأولى الثلاثة وتضع من قيمتها ، ثم تخف وطأة هذه الصنعة فى الثلاثة الأخيرة فتعجبك ، وتعجب بها وباحتجاجه للشيب مع شعوره بالحزن منه .

ولكنك تجد عند ابن الرومى عمق شعور بالشباب وحزن عليه ووفاء له ، وعمقا فى تصوير ذلك كله ، يفوق كل جد ، ويبلغ غاية الجمال ، ويملك عاطفتك ويستبد باستحسانك واستجادتك ، مع تعليل للنفس فى بيته الأخير . والبحترى فى أبياته يحاول إقناع حبيبته أم عمرو بالرضا بحالته ومشيبه ، فاحتج بما أسعفه بيانه وتفكيره بالاحتجاج به ، فى أسلوب مألوف ومعان قريبة ، وبيته « وبياض البازى » قريب المعنى ، إلا أنه جميل التصوير صادقه ساذج التفكير سهل الاستنباط . وأما ابن المعتز فينهج نهج أبى تمام والبحترى ولكنه لا يصل إلى مكانة ابن الرومى فى تصوره وتصويره للشباب والمشيب .

٤ — وقال أبو تمام فى الربيع :

رقت حواشى الدهر فهى تمرمر — وغدا الثرى فى حليه يتكسر
يا صاحبى تقصيا نظريكما — تريا وجوه الأرض كيف تصور
تريا نهارا مشمسا قد شابه — زهر الربا فكأنما هو مقمر
دنيا معاش للورى حتى إذا — حل الربيع فإنما هى منظر
من كل زاهرة ترقرق بالندى — فكأنها عين إليك تحدر
حتى غدت وهداتها ونجادها — فئتين فى حلل الربيع تبختر
مصفرة محمرة ، فكأنها — عصب تيمن فى الوغى وتمضر

وقال ابن الرومى :

أصبحت الدنيا تروق من نظر — بمنظر فيه جلاء للبصر
أثنت على الله بآلاء المطر — فالأرض فى روض كأفواف الحبر
نيرة النوار زهراء الزهر — تبرجت بعد حياء وخفر

تبرج الأنثى تصدت للذكر

وقال البحترى :

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكا — من الحسن حتى كاد أن يتكلما
وقد نبه النيروز فى غسق الدجى — أوائل ورد كن بالأمس نوما
يفتقها برد الندى فكأنه — يبث حديثا كان قبل مكتما

فمن شجر رد الربيع لباسه ... عليه كما نشرت وشيا منمنما
أحل فأبدى للعيون بشاشة ... وكان قذى للعين إذ كان محرما
ورق نسيم الريح حتى حسبته ... يجيء بأنفاس الأحبة نعما

وقال ابن المعتز :

أنظر إلى دنيا ربيع أقبلت ... مثل النساء تبرجت لزناة
وإذا تعرى الصبح من كافوره ... نطقت صنوف طيورها بلغات
والورد يضحك من نواظر نرجس ... قذيت وآذن حيها بممات

ويقول :

أتاك الربيع بصوب البكر ... ورف على الجسر برد السحر
ونفرت الأرض عن جوهر ... فمنتظم منـــه ومنتثرا
وقد عدل الدهر ميزانه ... فلا فيه حر ولا فيه قر

فترى فى قطعة أبى تمام شعورا واضحا قويا بجمال الربيع وحياته ومناظره الفاتنة ، وأسلوبا باهرا رائعا قوى التعبير والتصوير . ونجد كذلك عند ابن الرومى شعورا وتصويرا صادقين للربيع والحياة والطبيعة فيه ، ولكنه ينزل عن أبى تمام فى سمو التعبير وجودته وروح الفن التى تشيع فى أبيات أبى تمام .

أما أبيات البحترى فجميلة عذبة ممتازة فى أسلوبها ولكن تنقصها الروح والحياة وقوة الشعور التى تتدفق فى أبيات أبى تمام وابن الرومى ، وتضعف من روح البحترى فيها قيود الصنعة التى تطغى عليه وتضعف من شعوره فيها

وتجد عند ابن المعتز شعورا واضحا بالحياة وأسرار الطبيعة فى الربيع ، إلا أن أسلوبه ضعيف لايبلغ أسلوب أبى تمام ، وأول أبياته مسروق من ابن الرومى

٥ — ويقول أبو تمام فى الفرس :

أو أدهم فيه كمتة أمم ... كأنه قطعة من الغلس
مخلق وجهه على السبق ... تخليق (١) عروس الأبناء للعرس
فهو يسر الرواض بالنزق ... الساكن منه واللين و الشرس
صهصلق (٢) فى الصليل تحسبه ... أشرج (٣) حلقومه على جرس

ويقول ابن المعتز :

(١) التخليق : التلطخ بالطيب (٢) أى شديد الصوت (٣) أى شد

وسابح مساح ذو ميعة ... كأنه حريق نار تلتهب
تراه إن أبصرته مستقبلا ... كأنما يعلو من الأرض حدب
عارى النسا ينتهب التراب له ... حوافر باذلة ما ينتهب
تصافح الترب إذا ما ركضت ... لكنها مع الصخور تصطخب
تحسبه يزهى على فارسه ... وانما يزهى به اذا ركب
أسرع من لحظته إذا ونا ... طوع من عنانه اذا جذب
يبلغ ما تبلغه الريح ولا ... تبلغ ما يبلغه إذا طلب
ذو غرة قد شدخت جبهته ... وأذن مثل السنان المنتصب
وناظر كأنه ذو روعة ... وكفل ململم ضافى الذنب
ومنخر كالكير لم تشق به ... أنفاسه ولم يخنها فى تعب
قد خاض فى يوم الوغى فى حلة ... حمراء تسديها العوالى والقضب

فترى فى أبيات أبى تمام وصفا للفرس تطيف به الحوشية والغرابة لا سيما فى بيته الأخير.

أما أبيات ابن المعتز فتفوق أبيات أبى تمام لكثرة معانيها وقوة تصويرها والجدة فى أساليبها، ولجمال استعارتها وتشبيهاتها الدقيقة مع المبالغة والعذوبة فى ألفاظها وأسلوبها مما يظهر بوضوح أمام النقد العادل النزيه

٦ — وإذا قرأت قطعة ابن الرومى فى وصف الأسد:

فما أسد جهم المحيا شتيمه (١) ... خبعثنة ورد السبال غضنفر

التى جمع فيها كثيرا من المعانى والأوصاف التى تصور خلق الأسد وقوته أوضح تصوير، ثم قرأت قطعة البحترى فى الأسد:

غداة لقيت الليث والليث مخدر ... يحدد نابا للقساء ومخلبا

والتى ألم فيها بطرف مما ذكره بشر بن عوانة فى رائيته فى الإسد (٢)، مع جمال فى الأسلوب وطلاوة فى السبك وجودة فى الصياغة وإن كانت معانيها واضحة محدودة قريبة

---

(١) أى كريهه (٢) رواها البديع فى مقاماته، وأولها:

أفاطم لو شهدت ببطن خبت ... وقد لاقى الهزبر أخاك بشرا
إذا لرأيت ليثا أم ليثا ... هزبرا أغلبا لاقى هزبرا

وهى قصيدة من النمط العالى الذى لم يأت أحد بمثله

ثم قرأت قطعة ابن المعتز فى الاسد :

وما ليث غاب يهدم الجيش خوفه بعشية وثاب على النهى والزجر
يجر إلى أشـبـاله كل ليلة عقيرة وحش أو قتيلا من السفر
يزعزع أحشـاء البلاد زئيره ويبطل أبطال الرجال من الذعر

إلى آخر هذه القطعة الرائعة

وجدت ابن المعتز يربى على البحترى فيها بكثرة ما أتى به من معان ، ولكنه لا يصل إلى ابن الرومى فى قطعته ، ووجدته يحاول أن يعطيك صورة واضحة للأسد فى قوته وفزع الناس والبلاد منه ، ولكنه لا يجيء سابقا بل يسير وراء رائد الركب موفور الإجادة والتصوير

موازنات بين الشعراء العباسيين

قال مسلم بن الوليد ـ وهو معنى سبق إليه ـ :

لا يستطيع « يزيد » من طبيعته عن المروءة والمعروف إحجاما

أخذ أبو تمام المعنى فكشفه وأحسن اللفظ وأجاده فقال :

تعود بسط الكف حتى لو أنه ثناها لقبض لم تطعـه أنامله

وقال أبو تمام يصف مغنية تغنى بالفارسية :

ولم أفهم معانيها ولكن شجت كبدى فلم أجهل شجاها

أخذه من قول الحسين بن الضحاك ـ على ما فى قوله من المناقضة ـ :

وما أفهم ما يعنى مغنينا إذا غنى
سوى أنى من حبى له استحسن المغنى

لأنه قال : ما أفهم ما يعنى ، ثم قال : استحسن المغنى ، وإنما أراد بالمعنى اللحن لا معنى القول ، وأجود من ذلك كله قول حميد بن ثور يصف الحمامة :

ولم أر مثلى شاقه صوت مثلها ولا عربياً شاقه صوت أعجم

وقال الأخطل يصف الخمر :

تدب دبيباً فى العظام كأنها دبيب نمال فى نقاً يتهيل(١)

(١) النقا : كثيب الرمل ، يتهيل : ينهال .

أخذه أبو تمام فأفسد المعنى فقال :

إذا الراح دبت فيه تحسب جسمه　　لما دب فيه قرية من قرى النمل

وقال أبو العتاهية :

كم نعمة لا يستقل بشكرها　　لله فى طى المكاره كامنة

أخذه أبو تمام فقال :

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت　　ويبتلى الله بعض القوم بالنعم

وقد أحسن إذ جاء بالزيادة التى هى عكس المعنى الأول . وقال شاعر :

ما كنت أحسب أن بحراً زاخراً　　عم البرية كلها إرواء

أضحى دفيناً فى ذراع واحد　　من بعد ما ملك الفضاء فضاء(١)

وقال أبو تمام وأبر عليه وعلى كل من ذكر هذا المعنى :

وكيف احتمالى للسحاب صنيعة　　بإسقائها قبراً وفى لحده البحر

وقال مسلم بن الوليد فى معنى بيت أبى العتاهية الأول :

أخ لى يعطينى إذا ما سألته　　ولو لم أعرض بالسؤال ابتدانيا

وأخذ أبو تمام معنى البيت ومعنى بيت أبى العتاهية الأول فقال :

ورأيتنى فسألت نفسك سيبها　　لى ثم جدت وما انتظرت سؤالى(٢)

أو لعله أخذه من قول منصور النمرى يمدح الرشيد :

رأيت المصطفى هرون يعطى　　عطاء ليس ينتظر السؤالا

وأجود من هذا كله قول سلم الخاسر :

أعطاك قبل سؤاله　　فكفاك مكروه السؤال

وأخذ أبو تمام معنى بيت أبى العتاهية الثانى فقال :

كالغيث إن جئته وافاك ريقه　　وإن تحملت عنه لج فى الطلب (٣)

وقال أبو تمام :

كم من يد لك لولا ما أخففها　　به من الشكر لم تحمل ولم تطق

بالله أدفع عنى ثقل فادحها　　فإننى خائف منها على عنقى

---

(١) ضاء : أضاء

(٢) السيب : العطاء　　(٣) ريق كل شىء : أفضله وأوله

وهو من قول أبى نواس ، والمعنيان مختلفان لأن أبا نواس قال :

أنت امرؤ جللتنى نعماً أوهت قوى شكرى فقد ضعفا(١)
لا تسدين إلى عارفة حتى أقوم بشكر ما سلفا

فذكر أن نعم الممدوح قد غلبت الشكر فاستعفاه من نعمة أخرى حتى يقوم بشكر نعمته السالفة ، وأبو تمام قال : لولا ما أخففها به من الشكر لم أطق حملها ، ثم أحسن وألطف فى قوله : فإننى خائف منها على عنق ، ومعنى أبى نواس أجود وأبرع : وقال أبو تمام :

والشيب قد طرد الشباب بياضه كالصبح أحدث للظلام أفولا

أراد قول الفرزدق مع تقصير عن بلوغه شأوه :

والشيب ينهض فى الشباب كأنه ليل يصيح بجانبيه نهار

وقال أبو تمام :

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأول

أخذ المعنى من قول يزيد بن الطثرية إذ يقول :

أتانى هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبا خاليا فتمكنا

وهذا أجود ، لأنه ذكر العلة .

وقال ابن الخياط قصيدة يمدح بها المهدى فأجازه بجائزة ففرقها فى الدار ، فبلغه، فأضعف له الجائزة ، فقال :

لمست بكفى كفه أبتغى الغنى ولم أدر أن الجود من كفه يعدى
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدت، وأعدانى فأتلفت ما عندى(٢)

---

(١) جلله : غطاه ، وجلل المطر الأرض : عمها وطبقا فلم يدع شيئاً إلا غطاه ، أوهت : أضعفت .

(٢) أفدت : استفدت : ونسبة هذين البيتين إلى ابن الخياط رواية كتاب « الموازنة بين أبى تمام والبحترى ، للآمدى ص ٢٩ » وكتاب « الصناعتين لأبى هلال العسكرى ص ١٩١ » والمشهور أنهما لبشار بن برد — انظر الأغانى جزء ٣ ص ٢٦ .

أخذه أبو تمام فقال :

علمنى جودك السماح فما أبقيت شيئا لدى من صلتك

وقول ابن الخياط أبلغ وأجود ، وقال العباس بن الأحنف :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

أخذه أبو تمام فقال :

أآلفة النحيب كم افتراق أظل فكان داعية اجتماع

وبيت عروة بن الورد أجود من بيتيهما ، وهو قوله :

تقول سليمى لو أقمت بأرضنا ولم تدر أنى للمقام أطوف

وأخذ المعنى أبو الطيب فقال :

لعل الله يجعله رحيلا يعين على الإقامة فى ذراكا (١)

وقال توبة بن الحمير :

يقول أناس لا يضيرك نايها بلى ، كل ماشف النفوس يضيرها (٢)

أخذه أبو تمام وزاد فيه فقال :

لا شىء ضائر عاشق ، فاذا نأى عنه الحبيب فكل شىء ضائر

وقال مروان بن أبى حفصة :

ما ضرنى حسد اللئام ولم يزل ذو الفضل يحسد ذوو التقصير

أخذه أبو تمام فقال :

لقد آسف الأعداء مجد ابن يوسف وذو النقص فى الدنيا بذى الفضل مولع

وقال أبو تمام :

لحيوا بالأسنة ثم ثنوا مصافحة بأطراف الرماح

أخذ قوله « لحيوا بالأسنة » من قول مسلم :

أخذ قوله « لحيوا بأطراف القنا وتعانقوا معانقة البغضاء غير التودد

وأخذ قوله « مصافحة بأطراف الرماح » من قول أبى إسحق التغلبى :

دنوت له بأبيض مشرفى كما يدنو المصافح للسلام

وقال أبو تمام :

أمن بعد طى الحادثات محمدا يكون لأثواب الندى أبدا نشر !

---

(١) يقال : أنا فى ذرا فلان أى فى ظله وكنفه (٢) ضاره يضيره : ضره

أخذه من قول أبى نواس :

طوى الموت ما بينى وبين محمــد   وليس لما تطوى المنيــة ناشر

وقال أبو تمام فى مصلوب :

قد قلصت شفتاه من حفيظته   فخيل من شدة التعبيس مبتسما

سبقه عبد السلام بن رغبان فقال :

وإذا شئت أن ترى الموت فى صو   رة ليث فى لبدتى رئبال (١)

فالقــه غــير أنمــا لبــدتاه   أبيض صارم وأسمر عال

تلق ليثا قد قلصت شفتــاه   فيرى ضاحــكا لعبس الصيال

وكذلك قال أبو تمام :

فلم أمدحك تفخيما بشعرى   ولكنى مدحت بك المديحا

أخذه من حسان بن ثابت فى مدحه للنبي صلى الله عليه وسلم حيث قال :

ما إن مدحت محمدا بمقالتى   لكن مدحت مقالتى بمحمد

ولاشك أن أبا بكر رضى الله عنه سمع قول حسان هذا حين استخلف عمر رضى الله عنه فقال له عمر استخلف غيرى فقال أبو بكر ما حبوناك بها وإنما حبوناها بك

وقال عروة بن الورد :

ومن يك مثلى ذا عيال ومقترا   من المال يطرح نفسه كل مطرح

ليبلغ عذراً أو ينــال رغيبة   ومبلغ نفس عذرها مثل منجح

أخذ أبو تمام هذا المعنى فقال :

فتى مات بين الطعن والضرب ميتة   تقــوم مقام النصر إذ فاته النصر

فعروة بن الورد جعل اجتهاده فى طلب الرزق عذرا يقوم مقام النجاح ، وأبو تمام جعل الموت فى الحرب الذى هو غاية اجتهاد المجتهد فى لقاء العدو قائما مقام الانتصار ، وكلا المعنيين واحد غير أن اللفظ مختلف ..

وقال مسلم بن الوليد :

كذلك الغيث يرجى فى تحجبه   حتى يرى مسفرا عن وابل المطر

أخذه أبو تمام فقال :

ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا   إن السماء ترجى حين تحتجب

(١) الرئبال الأسد والذئب ومن تلده أمه وحده ، والأول هو المراد .

وقالت مريم بنت طارق ترثى أخاها فى أبيات :

كنا كأنجم ليـــل بينها قمر يجلو الدجى فهوى من بينها القمر

أخذ أبو تمام اللفظ والمعنى فقال :

كأن بنى نبهان يوم وفاته نجوم سماء خر من بينها البدر

أو أخذه من قول جرير يرثى الوليد بن عبد الملك :

أمسى بنوه وقد جلت مصيبتهم مثل النجوم هوى من بينها القمر

قال الآمدى : ولست أدرى أيهما أخذ من صاحبه . أمريم أخذت من جرير أم جرير أخذ منها ؟ وقال أبو الأسود :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله عار عليك إذا فعلت عظيم

أخذه أبو تمام فقال :

أألوم من بخلت يداه وأغتدى للبخل تربا ، ساء ذاك صنيعا

وهذا من العام الذى جعل خاصا ، ألا ترى أن الأول نهى عن الإتيان بما ينهى عنه مطلقا ، وجاء بالخلق منكرا فجعله شائعا فى بابه ، وأما أبو تمام فإنه خصص ذلك بالبخل وهو خلق واحد من جملة الأخلاق . وقال أبو تمام :

هو الصنع إن يعجل فنفع وإن يرث فللريث فى بعض المواطن أنفع

أخذه أبو الطيب فأوضحه بمثال ضربه له ، وذلك قوله :

ومن الخير بطء سيبك عنى أسرع السحب فى المسير الجهام

وهذا من المبتدع لا من المسروق ، وما أحسن ما أتى بهذا المعنى فى المثال المناسب له ، وكذلك قولهما فى موضع آخر ، قال أبو تمام :

قد قلصت شفتاه من حفيظته فخيل من شدة التعبيس مبتسما

فأخذه أبو الطيب المتنبى فقال :

وجاهل مده فى جهله ضحكى حتى أتتـه يد فراسة وفم
إذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظنن أن الليث مبتسم

ومما ينخرط فى هذا المسلك قول أبى تمام :

وكذاك لم تفرط كآبة عاطل حتى يجاورها الزمان بحالى

أخذه أبو عبادة البحترى فقال :

وقد زادها إفراط حسن جوارها خلائق أصفار من الحسن خيب
وحسن درارى الكواكب أن ترى طوالع فى داج من الليل غيهب

فإنه أتى بالمعنى مضروبا له هذا المثال الذى أوضحه وزاده حسنا .

وقال أبو تمام :

كلف يرب الجد يعلم أنه لم يبتدأ عرف إذا لم يتمم

فقال البحترى :

ومثلك إن أبدا الفعال أعاده وإن صنعا المعروف زاد وتمما

فأبو تمام قال : إن الممدوح يرب صنيعه أى يستديمه ويعلم أنه إذا لم يستدمه فما ابتدأه ، والبحترى قال إنه يستديم صنيعه لاغير ، وذلك بعض ما ذكره أبو تمام :

وقال أمية بن أبى الصلت يمدح عبد الله بن جدعان :

عطاؤك زين لامرىء إن حبوته ببذل وما كل العطاء يزين
وليس بشين لامرىء بذل وجهه إليك كما بعض السؤال يشين

أخذه أبو تمام فقال :

تدعى عطاياه وفرا وهى إن شهرت كانت فخارا لمن يعفوه مؤتنفا
مازلت منتظرا أعجوبة زمنا حتى رأيت سؤالا يجتنى شرفا

فأمية أتى بمعنيين اثنين أحدهما أن عطاءك زين والآخر أن عطاء غيرك شين ، وأما أبو تمام فإنه أتى بالمعنى الأول لاغير

النقد الأدبي في العصر العباسي

— ١ —

بلغ النقد الأدبي فى القرن الثانى مرحلة من مراحل تطوره ، تناسب مابلغه العرب فى هذا العهد من نضج ثقافى وأدبى كبير .

كان الرواة كالأصمعى وخلف وحماد وأبى عبيدة يهتمون برواية الشعر وجمعه وكان لخلف مكانة فى النقد « وكان أبو عمرو بن العلاء وأصحابه لايجرون مع خلف فى حلبة هذه الصناعة — النقد — ولا يشقون له غبارا لنفاذه فيها، وحذقه بها ، وإجادته لها »(١) ، وكان يجمع كثيرا من الآداب(٢)، وكان عالماً بالغريب والنحو والنسب والأخبار شاعرا كثير الشعر جيده(٣)، وأصلح للأصمعى رواية بيت من شعر جرير وقال : اروره كذلك فلقد كانت الرواة قديماً تصلح شعر الأوائل(٤) وأعجب بنقد بشار للشعر(٥) ؛ وعرض عليه مروان لاميته ففضلها على لامية الاعشى(٦) ، وكان أبو عبيدة يرى أن أشعر الناس امرؤ القيس والنابغة وزهير(٧) وأشعر الاسلاميين الفرزدق وجرير والأخطل لانهم أعطوا حظاً فى الشعر لم يعطه أحد فى الاسلام(٨) ، وكان الاصمعى يعجب بشعر بشار لكثرة فنونه وسعة تصرفه ولطبعه ، وكان يشبهه بالاعشى والنابغة، ويشبه مروان بزهير والحطيئة(٩) ، وكان يفضل بشارا على مروان(١٠) ، وكان يقول هو وأبو عبيدة : عدى فى الشعراء بمنزلة سهيل فى النجوم يعارضها ولا يجرى معها(١١) ، وعاب بين يدى الرشيد قول النابغة :

نظرت إليك ، بحاجة لم تقضها   نظر السقيم إلى وجـــوه العود

---

(١) ١/١٩٧ العمدة . (٢) راجع ٣/٢٢٤ البيان . (٣) ٣٠٨ الشعر والشعراء .
(٤) ٢/١٣ زهر . (٥) ٣/٤٣ الاغانى . (٦) ٣/٤٠٢ العقد . (٧) ٤٤ الجمهرة .
(٨) ٤٦ المرجع . (٩) ٣/٢٥ الاغانى . (١٠) ٣/٢٥ الاغانى ، ٢٥١ الموشح .
(١١) ٢/١٧ الاغانى .

لذكره السقيم (١) ؛ وسئل المفضل عن الراعى وذى الرمة : أيهما أشعر فصاح صيحة منكرة ، أى لا يقاس ذو الرمة بالراعى (٢) . وقد سبق رأى هؤلاء النقاد فى مذهب الصنعة والمصنعين

وكذلك كان الأدباء ينقدون الشعر بفطرتهم وذوقهم ؛ وكان بشار أجودهم وأدقهم فى نقد الشعر ومذاهبه ، وكان أبو عبيدة يعجب من « فطنة بشار وصحة قريحته وجودة نقده للشعر »(٣) ، وكان خلف يعجب من نقده للشعر ومذاهبه (٤) وغضب بشار على سلم لسرقته معانيه (٥) ، وكان مروان يعرض شعره عليه (٦) ، وكان أبو العتاهية يعتمد على معانى بشار (٧) ، وكان أشجع يأخذ عنه ويعظمه (٨) وكان ابن الرومى يقدمه ويزعم أنه أشعر من تقدم وتأخر (٩) ، وكان كثير من الشعراء يجارون بشاراً فى هذا الميدان

ولكن جهود علماء اللغة فى النقد كانت أقوى وأظهر فوضعوا الجاهليين فى طبقات ولم يتركوا شاعراً مشهوراً من الجاهليين إلا رأوا فيه رأياً ، ولا فناً من فنون الشعر إلا نقدوه ونوهوا بما فيه من جيد وردىء ، وهم الذين جمعوا أقوال النقاد قبلهم فى الشعر والشعراء ، ووازنوا بين الاسلاميين والمتقدمين ،ونقدوا رواية الشعر وبنيته ومعانيه وغير ذلك من الموضوعات .

— ٢ —

وفى القرن الثالث أخذ النقد يستقل بالبحث والتأليف على أيدى النقاد وعلماء الأدب وسواهم ، كابن سلام م ٢٣١ هـ ، والجاحظ م ٢٥٥ هـ وابن قتيبة م ٢٧٦هـ ، وابن المدبر م ٢٧٩ هـ . والمبرد م ٢٨٥ هـ ، وابن المعتز ٢٩٦ هـ وسواهم من الأدباء وعلماء الأدب واللغة وأصحاب الثقافات الحديثة وغير هؤلاء من الذين خاضوا فى أصول الموازنات والبلاغة وموازين النقد :

---

(١) ٢/٢٧٠ العمدة

(٢) ١٧٩ الموازنة : وكان ذو الرمة راوية للراعى ٢٠٧ طبقات ابن سلام .

(٣)٢/٢٣ الأغانى (٤) راجع ٤٣/١ الأغانى ، ٢١٠ الدلائل ، ٧٥ المفتاح،١٧ الايضاح (٥) ٣/٤٨ الاغانى (٦) ٣/٥٨ الاغانى (٧) ٣/١٣٤الاغانى(٨) ٣/١٣٧ الاغانى (٩) ٢/١٣ زهر الآداب وكان بشار يقدم جريراً على الفرزدق (١٣٩ طبقات ابن سلام) من حيث كان البحترى يفضل الفرزدق (٢٤ صناعتين) ، ونقد بشار قول كثير « ألا إنما ليلى عصا خيزرانة » (٢/٨٠ الكامل) .

١ — فمن الأدباء النقاد : أبو تمام م ٢٣١ هـ ووصيته للبحترى حول الشعر وفنه ومذهب الشاعر فيه مثال واضح من أمثلة النقد الدقيقة وأصل من أصوله الأولى(١) ، وله آراء أخرى فى النقد مفرقة فى شتى المصادر(٢) ، ومنهم ابن المعتز وسواه .

وتميل هذه الطبقة إلى العناية بأدب وشعر المحدثين ونقدهما ، وخاصة شعر أبى تمام والبحترى ، ولعلى بن أحمد المنجم رسالة فى العباس بن الأحنف والعتابى والموازنة بينهما(٣) .

(ب) ومن علماء الأدب ابن سلام والجاحظ وابن قتيبة :

أما ابن سلام فبصرى راوية عالم بالشعر مؤلف فى نقده ، عاش فى النصف الأخير من القرن الثانى الهجرى والثلث الأول من القرن الثالث ، ودرس وتثقف وأحاط باللغة والآداب والأشعار ، واهتم بالنقد مع تأثر بروح عصره فى الاستيعاب والشرح والتحليل ، وله كتاب طبقات الشعراء الجاهليين وكتاب طبقات الشعراء الاسلاميين(٤) ، وقد أدمجا فى بعض وطبعا من عهد قريب باسم « طبقات الشعراء » ، والمقدمة المطبوعة فى أوله هى مقدمة كتاب طبقات الاسلاميين ، يرشد إلى ذلك الكثير من مقدمته كقوله : « ورتبت هذا المؤلف على عشر طبقات كل طبقة تجمع أربعة من فحول شعراء الاسلام(٥) .

وكتابه أول مؤلف فى النقد(٦) كما يقولون ، والصحيح أنه ألف قبله فى موضوع كتابه نفسه كثير من الكتب كما سنذكره بعد قليل ، وبحوث كتابه تشمل ذكر أئمة العربية واتجاهاتهم العلمية ، وتتناول شرح الشعر العربى وأثره ونشأته وتطوره وتنقله فى القبائل وانتحاله ، ثم يذكر طبقات الجاهليين العشر وشعراء المراثى وشعراء القرى العربية ، كما يذكر طبقات الاسلاميين العشر جاعلا فى كل

---

(١) راجع الوصية فى : ١/١٥١ زهر، ٢/٢٠٩ العمدة ، ١٦٠ حديقة الافراح لليمنى ط ١٣٢٠ هـ ، ٢٧ المطالعة التوجيهية . (٢) راجع مثلا ص ١٩٢ طبقات لابن المعتز . (٣) ٩٢—٤/٩٤ زهر ، وهى فى الموشح (٢٩٣ و ٢٩٤) منسوبة لأبى أحمد يحي بن على المنجم م٣٠٠ هـ . (٤) ١٦٥ فهرست . (٥) ص ١٦ طبقات الشعراء لابن سلام . (٥) ٢/١٠٨ زيدان ، ٧٤ تاريخ النقد الأدبى عند العرب .

طبقة أربعة من الشعراء ، مع الدراسة العميقة والتحليل الدقيق والنقد الممتع لرجال هذه الطبقات وحياتهم ومذاهبهم الفنية فى الشعر ، والكتاب بحق من مصادر ثقافتنا الأدبية فى النقد ، ولا يكاد يستغنى عنه باحث أو دارس ، وهو ضرورى فى دراسة النقد وجامع لكثير من الآراء فيه ، وقد رواه عن ابن سلام ابن أخته أبو خليفة الفضل بن الحباب الجمحى م ٣٠٥ هـ والذى يشيد الحصرى بادبه وبلاغته(١) .

وأما الجاحظ فعلم من أعلام الادب والنقد والبيان ، وفى كتابه « البيان » وسواه من مؤلفاته ثروة كبيرة فى النقد الادبى ، فتجده يحلل فى دقة وتفصيل مذهب الطبع والصنعة فى الشعر(٢) ، ويشير إلى سرقات أدبية(٣) ، وموازنات أدبية(٤) ، ويستجيد بعض آثار للشعراء فيقول مثلا : وكان أبو حية أشعر الناس لقوله الخ (٥) ، ويقول : ومن جيد محدث أشعارهم الخ (٦) ، ويقول : ومن جيد الشعر قول جرير(٧)الخ ، ويثنى على أبى نواس وشعره وخمرياته(٨) ، ويرى أنه ليس هناك مولد إلا وبشار أشعر منه ولا مولد أشعر بعد بشار من أبى نواس(٩) وأبو نواس عنده أشعر الناس فى قوله : «كأن ثيابه أطلعن من أزراره قمراً »(١٠) .

ورأى أن بيتى عنترة « وخلا الذباب بها الخ » من المعانى العقم(١١) ؛ ومثله قول أبى نواس « قرارتها كسرى الخ »(١٢) ،وينقد أبا العتاهية ذاهبا إلى(١٣) أن

---

(١) ٢٥٣ جـ ٣ زهر . (٢) ٥٤ و ٥٥ و ١٥٠ جـ ١ و ٢١ — ٢٦ جـ ٢ البيان .
(٣) ٨٩ و ١١٦ و ١٧٩ و ٢٥٥ جـ ١ البيان . (٤) ٢٤٣ جـ ٢ البيان .
(٥) ١٦٦ جـ ٢ و ٢٠٥ و ٢٠٦ جـ ٤ . (٦) ١٧٥ جـ ٣ البيان . (٧) ١٣٣ جـ ٣ البيان ، وتجد شرحا لبيتى جرير اللذين ذكرهما الجاحظ فى هذا الموضع فى ص ٢٠٨ طبقات الشعراء لابن سلام . (٨) ٤٢ جزء ٤ العقد . (٩) ٩١ جـ ١ العمدة . (١٠) ١٨٥ جـ ٣ زهر. (١١) ١٨٤ جـ ٣ البيان . (١٢) ١٦٦ جـ ٣ زهر ، وراجع شرح البيت فى العمدة ٢٧٥ جـ ١ وكذلك ذهب المبرد فى الروضة فى بيت أبى نواس ، ونقدهما ابن الاثير فى ذهابهما إلى أن بيت أبى نواس من المعانى المبتكرة ورأى أنه من المعانى المشاهدة ، وأن فصاحة هذا الشعر هى الموصوفة لا هذا المعنى . (١٢٢ المثل السائر) . (١٣) ٥٢ جـ ٣ زهر .

شعره أملس المتون ليس له عيون أخرى الخ ، ويعجب بقوله « رائح الجنة فى الشباب » إعجابا كبيرا(١) ، ويعجب بجددة أشعار طرفة وعبد يغوث وقت إحاطة الموت بهما(٢) ، ويذكر حوار إبراهيم بن عبد الله لأبيه فى شعر كثير(٣) ، وأن الناس كانوا يستحسنون بيت الأعشى « وبات على النار الندى والمحلق » حتى قال الحطيئة :

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد

فسقط بيت الأعشى(٤) ، وينقد الكميت لقوله فى رسول الله :

لج بتفضيلك اللسان ولو أكثر فيك اللجاج والصخب

كما ينقده لقوله فى رثائه :

لقد غيبوا حزماً وعزماً ونائلا عشية واراه الصفيح المنصب

لأنه يصلح فى عامة الناس(٥) ، وقد دافعوا عنه بأنه إنما اراد فى البيت الأول آل الرسول لا الرسول فورى عنهم يذكر النبي خوفاً من بنى أمية(٦) ، ويذكر مناهج الرواة(٧) وتعصب أبي عمرو بن العلاء على الاسلاميين(٨) ، وأن الرواة كانوا(٩) يحرصون على نسيب العباس بن الأحنف حتى أورد عليهم خلف نسيب الأعراب فعنوا به وزهدوا فى نسيب العباس ، والجاحظ ينكر غلو المتعصبين على الشعراء المحدثين فعلهم ، ويرى أنه لو كان لهم بصر لعرفوا موضع الجيد ممن كان ، وفى أى زمان كان (١٠) إلى غير ذلك من شتى آرائه فى النقد .

وأما ابن قتيبة فهو عالم ملم بالثقافات فى عصره ، مجدد فى التفكير ، ولكنه مع

---

(١) ٣٨ ج ٣ الأغانى ، ٣٦٦ ج ٢ عصر المأمون . (٢) ١٩٣ ج ٢ البيان .
(٣) ١٤٦ ج ٢ البيان . (٤) ٣٦ جزء ٢ البيان . (٥) ١٧٢ و١٧٣ ج ٢ البيان، ١٧٠ ج ٥ الحيوان ط ١٩٤٣ ، ١٤٥ ج ٢ العمدة . (٦) ٢٠ الموازنة ، ١٣٦ ج ٢ العمدة . (٧) ٢٢٤ ج ٣ البيان ، ٤ و٥ الكشف عن مساوىء المتنبي .
(٨) ٢٠٩ ج ١ البيان . (٩) ٢٢٤ ج ٣ البيان . (١٠) ٤٠ ج ٣ الحيوان ، وذلك مما يردده ابن المعتز الذى حكم عدالة الحكومة الأدبية وحتم ألا يدفع إحسان محسن عدوا كان أو صديقا (١٣ و١٤ رسائل ابن المعتز) ، وكذلك رأى ابن قتيبة (٧ و٨ الشعر والشعراء) ، وابن رشيق (٧٤ ج ٢ العمدة) .

ذلك محافظ كل المحافظة فى الأدب ، ينعى على الأدباء انصرافهم إلى المنطق وشغفهم به عما سواه من علوم الدين واللغة(١) ، ويرى وجوب اتباع منهج المتقدمين فى نظم القصيدة(٢) ، ولكنه مع ذلك لايتعصب للقديم ولا للمحدث تعصبا أعمى. ولكن يعطى كلا حقه من العدالة والانصاف ، وكتاب الشعر والشعراء وعلى الأخص مقدمتـــه دراسة عميقة للشعر وأقسامه وعناصره وللطبع والصنعة فيه وللخصومة بين القـدماء والمحدثين ولدواعى الشعر ونظمه وأسباب اختلاف شعر الشاعر .

والكتاب مظهر لثقافة واسعة(٣) واطلاع واسع وذوق سليم ، وفيه عرض لنحو مائة وستين شاعراً من الجاهليين والمخضرمين والاسلاميين وصدور المحدثين ، وقد عنى فى دراسته لهم ببيان مذاهبهم وخصائصهم واتجاهاتهم وذكر آراء النقاد فى شعرهم وسرقاتهم وما يستجاد لهم من حكمة أو تشبيه أو وصف وما سبقوا إليه من معان ، وسرد الشعراء سردا دون ترتيب لطبقاتهم أو لهم بحسب عصورهم بعكس ابن سلام ، وقد اهتم بدراسة لغة الشعراء وأثر البيئة فيها(٤) ، وتكلم على بعض النساء الشاعرات كالخنساء(٥) وليلى الأخيلية(٦) ، وهو حريص على ذكر زلات الشعراء من ناحيـة العقيدة(٧) ، ويعنى بتحقيق نسبة الشعر لقائله عناية كبيرة .

وأما طبقة علماء اللغة فأثرهم فى النقد واضح جليل ، يتجلى فى آرائهم وكتبهم . وكان هؤلاء كلهم أو جلهم يؤثرون الشعر القديم ؛ ومنهم : أبو العميثل المتوفى ٢٤٠ هـ ، وابن السكيت م ٢٤٤ هـ ، وأبو حاتم السجستانى م ٢٥٥ هـ ، وأبو الفضل

---

(١) ص ٢ أدب الكاتب . (٢) ١٤ وما بعدها الشعر والشعراء . (٣) راجع مثلا شرحه للمشكل من شعر أبى نواس (٣١٥ و ٣١٦ و ٣٢٠ و ٣٢٥ الشعر والشعراء) وسوى ذلك . (٤) راجع رأيه فى عدى وأمية بن أبى الصلت وأبى دؤاد (٦٣ و ٦٩ و ١٧٦ الشعر والشعراء ، ١٧ ج ٢ الأغانى مثلا) .

(٥) ١٢٢ الشعر والشعراء . (٦) ١٧٠ المرجع . (٧) راجع مثلا : ٣٢١ و ٣٢٢ المرجع .

الرياشى م ٢٥٧ ﻫ ، والسكرى م ٢٧٥ ﻫ ، والمبرد م ٢٨٥ ﻫ ، وثعلب م ٢٩١ ﻫ . وأظهرهم أثراً فى ذلك المبرد الذى حفظ « الكامل » كثيراً من آرائه فى النقد :

وأهم ما فى الكامل للمبرد دراسته للتشبيه وعرضه لكثير من شواهده (١) ، وهذا الباب كله نقد أدبى جيد ، ويذكر المبرد كثيراً من السرقات الأدبية فى كتابه ، ويذكر من آراء القدامى فى النقد والموازنة ، ويشيد بابن مناذر ومرثيته « كل حى لاقى الحمام فمودى » (٢) ، والمبرد لا يتعصب لقديم على محدث ويرى أنه « ليس لقدم العهد يفضل القائل ولا لحدثان عهده يهتضم المصيب ولكن يعطى كلا ما يستحق » (٣) ، ولذلك ضمن كتابه كثيراً من شعر المحدثين ، وعقد باباً لأشعارهم خاصة (٤) ، ورأى أنها أشكل بالعصر (٥) ، ويروى شعراً لأبى تمام ويقول : « وليس بناقصه حظه من الصواب أنه محدث » (٦) ، وذكر مكانة الخنساء وليلى الأخيلية فى الشعر (٧) ، ونقد قول الشماخ :

إذا بلغتنى وحملت رحلى عرابة فاشرقى بدم الوتين (٨)

وإجماع النقاد على نقد قول نصيب :

أهيم بدعد ما حييت وإن أمت أوكل بدعد من يهيم بها بعدى (٩)

ويذكر مجون آل حسان وأبى حفصة فى الشعر (١٠) ، كما يذكر بعض المعانى الجديدة فى شعر أبى نواس (١١) ، ويعيب (١٢) قوله :

كيف لا يدنيك من أمل من رسول الله من نفره

---

(١) الكامل ص ٣٥ - ١٠١ ج ٢ (٢) الكامل ص ٢٨٨ ج ٢
(٣) الكامل ص ١٨ ج ١ (٤) الكامل ٣٠٧ - ٣١٢ ج ٢ و ص ٢٣٣ - ٢٦١ ج ١ (٥) الكامل ٢٢٣ ج ١ (٦) الكامل ٢٦٠ ج ٢ ، وللمبرد مناقشة أدبية بينه وبين ابن درستويه حول معنى لأبى تمام (زهر الآداب ص ٢٣٩ و ٢٤٠ ج ٢ (٧) الكامل ص ٢٧٩ ج ٢ (٨) الكامل ص ٧٧ ج ١
(٩) المرجع نفسه ص ١٠٦ ج ١ ، ويذكر الجاحظ أن صالح بن سليمان قال : أحمق الشعراء الذى قال : « أهيم بدعد - البيت » (البيان ص ٢١٧ ج ٣)
(١٠) الكامل ص ١٥٤ ج ١ (١١) الكامل ص ٩٤ ج ٢ (١٢) الكامل ص ٢٤٣ و ٢٤٤ ج ١

ويذكر وجهاً لتخريجه:

وعلى أي حال فثقافة اللغويين فى النقد كانت قليلة بالنسبة لأدباء الكتاب وعلماء النقد (١) ؛ وسئل البحترى عن مسلم وأبى نواس أيهما أشعر ، فقال : مسلم لأنه يتصرف فى كل فن ، فقيل له إن ثعلباً لا يوافقك على هذا ، فقال ليس هذا من علم ثعلب وأضرابه ، وإنما يعرف الشعر من دفع إلى مضايقه (٢) ، وقال البحترى لصديق له أراد التوجه لأبى العباس (٣) ليقرأ عليه شيئاً من الشعر : رأيت أبا عباسكم هذا فما رأيته ناقداً للشعر ولا مميزاً له ورأيته يستجيد شيئاً وما هو بأفضل الشعر (٤)

وأما النقاد من ذوى الثقافات الحديثة فى النقد والذين تأثروا بالثقافة اليونانية فأشهرهم قدامة بن جعفر ، (٢٧٦ - ٣٣٧ هـ) (٥) ، وله كتاب « نقد الشعر » الذى فصل فيه مذهبه فى النقد أتم تفصيل مما احتذى فيه حذو أرسطو فى كتاب الخطابة الذى ترجمه إسحاق بن حنين فى النصف الأخير من القرن الثالث الهجرى ، ونجد أثر أرسطو واضحاً عند قدامة فى كلامه على الصفات النفسية التى جعلها أمهات الفضائل وذكر أن المدح الجيد لا يكون إلا بها (٦) ، وفى سوى ذلك من بحوث الكتاب ، ويرى قدامة أن الرثاء كالمديح فى وقوعه بهذه الصفات (٧) ، وأن الهجاء ضد المدح ولا يكون إلا بأضدادها (٨) ، وهذا وغيره من كثير من بحوث الكتاب

---

(١) راجع كلمة للجاحظ فى ذلك فى ص ٤ و ٥ الكشف عن مساوىء شعر المتنبى

(٢) دلائل الاعجاز ص ١٩٥ والكشف ص ٥ وإعجاز القرآن ١٠١ والعمدة ٩٩ ج ٢

(٣) لعله يريد ثعلبا ، وأبو العباس لقب المبرد وثعلب

(٤) الدلائل ص ١٩٥

(٥) أحد البلغاء الفصحاء والفلاسفة الفضلاء وممن يشار إليهم فى علم المنطق وأسلم على يد المكتفى (٢٠٣ — ٢٠٥ ج ٦ معجم الادباء ، ١٨٨ فهرست) ، وله ترجمة مشابهة كذلك فى تاريخ بغداد ، وله تفسير بعض المقالة الاخرى لارسطو (راجع كشف الظنون ص ٣٤ ج ٢) وكثير من المؤلفات

(٦) نقد الشعر ص ٣٩ — ٤١

(٧) نقد الشعر ص ٥٩ ، الصناعتين ص ١٢٦

(٨) نقد الشعر ٥٥ ، ويقول عبد الصمد بن المعذل م ٢٤٠ هـ : الشعر كله فى ثلاث لفظات وليس كل إنسان يحسن تأليفها : فإذا مدحت قلت أنت ، وإذا هجوت قلت لست ، وإذا رثيت قلت كنت (العمدة ص ١٠٣ ج ١) ، وهذا أساس نظرية قدامة ، وأيدها أبو هلال وابن رشيق فى كتابيهما : الصناعتين والعمدة

أثر لثقافة قدامة العقلية التى تزل فى مواضع الذوق والاحساس والشعور فى النقد وفهم الشعر والأدب ، وعناصر الشعر عند قدامة اللفظ والمعنى والوزن والقافية وما تركب منها(١) ، ثم يذكر أسباب الجودة التى تلحق بكل عنصرمن هذه العناصر فى نظم الشعر ، ويرى أن أضداد هذه الأمور هى أسباب الرداءة فى النظم ، ويحتم على الشاعر أن ينظم الشعر متبعاً لاسباب الجودة وحذراً من الرداءة وأسبابها ، والناقد يحكم على ضوء هذا النهج نفسه فيرى مراطن الجمال والعيب فى شعر الشاعر سواء فى ألفاظه وأساليبه أو فى معانيه أو فى أوزانه أو قوافيه أو فى سوى ذلك مما تركب منها ، فيحكم عليه أو له بالرداءة أو الجودة والاحسان ؛ وهذا نهج عقلى واضح ولكنه فى تقييده الشعر بهذه القيود الثقيلة وفى تطبيقه على هذه الاصول التى رسمها فى كتابه يخطىء كثيراً ... وقد ألف الآمدى كتاباً فى «تبيين غلط قدامة فى نقد الشعر» وأهداه لابى الفضل محمد بن الحسين بن العميد وقرأه عليه وكتب خطه عاله ٣٦٥ هـ (٢) ، كما نقده كثير من علماء النقد والادب فى شتى العصور ...

— ٣ —

وقد بلغ النقد الأدبى فى القرن الرابع حدا كبيراً من النضوج والقوة ، شأنه فى ذلك شأن الأدب والبيان وسائر ألوان العلوم والثقافات ، وذلك برغم ما كان يغشى الحياة الإسلامية إبان ذاك من ضعف سياسى بعيد الأثر فى مستقبل العالم الاسلامى ، وحين كانت رقعة الدولة الاسلامية تمزق أديمها الحوادث العاصفة ، وتتداولها أيدى الملوك الغاصبين ، والدول الصغيرة الناشئة : كالأخشيدية والفاطمية والحمدانية والبويهية وغيرها من مختلف الدويلات والعروش ، كان رجال العلم والأدب والفن جادين فى إقامة الحياة الإسلامية على أسس وطيدة من التفكير المثمر والانتاج الصحيح والتجديد المستمر فى شتى ألوان الثقافة ومناحى الحياة ، وكانت رعاية الملوك لهم ، وتعضيد الأمراء وقادة العالم الاسلامى إياهم ، سببا من أسبا استمرار هذه النهضة الفكرية والعلمية والأدبية ، كما كانت حركة البعث العقلى التى غذاها الرشيد والمأمون قد أتت أكلها ، وهضمتها عقول المسلمين ، وأحاتتها

---

(١) راجع نقد الشعر ص ١٣ ، ومثل ذلك فى العمدة ص ٩٩ جـ ١

(٢) معجم الأدباء فى ترجمة الآمدى ص ٥٨ جـ ٣

غذاء عقليا أنتج نتائجه العظيمة فى القرن الرابع الهجرى ، فكان أحفل عهد برجال الفكر والعلم والأدب والنقد والبيان ، وأمجد عصر شهدته العربية وآدابها الرفيعة ، وذاعت فى آفاقه شهرة كثير من الأدباء والكتاب والشعراء وأئمة النقد وفحول البيان ، وظهرت فى خلاله مؤلفات كثيرة ناضجة فى علوم الدين والدنيا ، وفى علوم التفكير والفلسفة ، وفى علوم العربية وآدابها ، سواء فى اللغة أم فى الأدب أم فى النقد أم فى البيان ، وما زالت هذه المؤلفات أعظم المصادر وأجلها فى الثقافة الاسلامية ، وما زلنا ننشد السير على آثارها فى الابتداع والتجديد والانتاج ، ولعل من أظهر خصائص الثقافة الاسلامية فى هذه الحقبة الرائعة بلوغ النقد الأدبى أبعد الغايات ، وكثرة ما ظهر فيه من مؤلفات ، تجمع بين سلامة الذوق ودقة الحكم وتحرى الانصاف وعمق التفكير ، وتحاول جاهدة أن تضع أسس النقد وأصول الموازنة على دعائم ثابتة ، تقوم مقام الحكومة العادلة والحكم المنصف كلما تشعبت الآراء واختلفت الأذواق ، فى شعر شاعر أو منزلة أديب ،

والنقد الأدبى بدأ بحوثه علماء اللغة والأدب ، واتجه أولا — فى عهود كانت فيها الملكات العربية ما تزال على سلامتها وصحتها — إلى البحث عن الاسلوب وسلامته من الخطأ فى اللغة أو الاعراب أو التصريف ، للحفاظ على العربية وكتابها الحكيم ، ودفع عادية الفساد الذى نجم على يد المستعربين من الموالى ، ثم على يد من اختلط بهم من العرب . ولما فرغ النقد من هذه البحوث عاد إلى بحث الأسلوب نفسه ومايتصل به مما يمس صميم البيان والاداء . تلافياً لاخطاء الملكات التى بدأ يدب اليها العى والقصور والعجز بسبب المستعربين والاختلاط بهم ، وأخذ علماء الادب والنقد كابن سلام : م سنة ٢٣١ والجاحظ م سنة ٢٥٥ وابن قتيبة م سنة ٢٧٦ وأضرابهم كأبى عبيدة م سنة ٢٠٦ وسواه . فى عرض المشكلات الأدبية والتعليق عليها وإبداء آرائهم فيها ،

ثم كان القرن الرابع فاتجه علماء الأدب فى مشرقه إلى الكتابة فى الأدب والنقد ، ثم مزجوا بحوث النقد والادب بالبيان . ثم أفادوا من دراسات النقد فائدة جلى انتقلت بهم إلى البحث فى مظاهر البيان ومشكلات البلاغة . فاتجه تاليفهم فى آخر هذا القرن إلى بحوث البيان نفسه .

ونقاد الادب والشعر فى القرن الرابع فريقان : فريق كتب ونقد ووازن وحكم متأثراً بذوقه الادبى وطبعه العربى وثقافته الخالصة من شوائب الثقافات

الاخرى التى جرت جداول إلى يم الثقافة الاسلامية الصميمة المتدفقة ، ومن هؤلاء الحاتمى م سنة ٣٨٣ « صاحب الرسالة الحاتمية » فى نقد شعر المتنبى وبيان سرقاته من حكمة أرسطو الفيلسوف ، والحسن بن بشر الآمدى م سنه ٣٧١ صاحب الموازنة بين الطائيين ، وعلى بن عبد العزيز الجرجانى م سنة ٣٩٢ صاحب الوساطة « بين المتنبى وخصومه » وابن وكيع م سنة ٣٩٢ صاحب « المنصف » فى سرقات المتنبى ، وأبو بكر الباقلانى م سنة ٤٠٢ مؤلف «إعجاز القرآن»، وقبلهم أبو بكر الصولى م ٣٣٦ هـ صاحب « أخبار أبى تمام » وأبو الفرج الاصبهانى م سنة ٣٥٦ مؤلف كتاب « الأغانى » . وفريق آخر كتب بروح أدبى هذبته فكرته ووسعت أفقه الثقافات الاخرى التى هضمها القرن الرابع ، وأسالها غذاء عقليا لكل من توسع فى الدراسة والبحث العميق ، ومن هذا الفريق جعفر بن قدامة سنة ٣١٩ وقدامة بن جعفر م سنة ٣٣٧ صاحب « نقد الشعر » وابن العميد م سنة ٣٦٠ ؛ والصاحب بن عباد م سنة ٣٨٥ صاحب رسالة « الكشف عن مساوىء شعر المتنبى » وأبو هلال العسكرى م سنة ٣٩٥ صاحب « الصناعتين » و « ديوان المعانى » ، وهذا الفريق الاخير يختلف نقده قوة وضعفا بحسب تمكن الطبع العربى من نفوس رجاله وأعلامه . وتتفاوت منازلهم فى الاجادة والاحسان بتفاوتهم فى الذوق الادبى الذى يعتد به فى الحكومات الادبية العادلة . ودعنا ممن نقدوا الادب والشعر بدون تمكن الطبع الأدبى فى نفوسهم ، من : النحويين علماء اللغة ، والمعنويين رجال العقل والفلسفة . الذين جاء حكمهم بعيدا عن الذوق المطبوع والفطرة السليمة ، والذين نقدهم الجرجانى فى « وساطته » نقدا لاذعا . وطرح آراءهم فى النقد والبيان فلم يعتد بها ولم يعرها نصيبا من البحث والمناقشة اللهم إلا حيث أراد أن يبرر موقفه منهم فذكر بعض أخطائهم فى النقد لتكون حجة له فى هذا الاهمال .

ومن الجدير بالالتفات أن كثيراً من نقاد القرن الرابع وجهوا عنايتهم الأولى إلى شعر شاعرين لهما أثرهما وخطرهما فى الشعر العربى ؛ فأبو بكر الصولى وابن بشر الآمدى اتجها إلى أبى تمام وشعره ، فدافع عنه الصولى دفاع المعتد به المعتز بقيمته ، وحشد كل مارآه سبيا لقبول هذه الحكومة من : شعر الشاعر ، ونقد الناقد ، وحكومة من قبله من رجال الأدب والنقد ، ووازن الآمدى بينه وبين البحترى عارضا شعره وماعليه من مؤاخذات ترجع إلى سرقة المعانى أو الخروج عن النهج

العربى فى أساليب التعبير والبيان ، متجها إلى تفضيل البحترى عليه لطبعه وقلة ما أخذ عليه من مؤاخذات ، والحاتمى وابن عباد والجرجانى وابن وكيع كتبوا فى نقد المتنبى وشعره ، فندد به الحاتمى ، وأشاد بمساوىء شعره ابن عباد ، ووقف الجرجانى موقف القاضى النزيه يفهم ويقرر ويحكم وينصف الشاعر من جور المتعصبين عليه ، والمتعصبين له معا . ولا نشك أن أبا تمام والمتنبى كانا جديرين بكل ما دار حول شعريهما من ضجة ، وما كان لهما من دوى فى حياة الشعر العربى ومذاهبه : فأبو تمام صاحب مذهب جديد فى الشعر العربى ، حاول أن يرضى به عقله ، بالغوص على المعانى البعيدة ، والتؤدة فى طلبها ، والتعمق فيها ، كما حاول أن يرضى به ذوقه وطبعه ، بإيثار الألفاظ القوية ، والأساليب الجزلة ، التى تحاكى أساليب العرب الأولى وجزالتهم ونهجهم فى الصياغة والإعراب ، ثم بطلب شتى ألوان الجمال فى الاداء والنظم من استعارة رائعة أو تشبيه بليغ أو حكمة بعيدة أو مثل نادر أو طباق ساحر أو تجنيس جميل . وأبو الطيب المتنبى هو الشاعر الذى عصف فى حياته بخصومه وأقرانه فى مصر والشام والعراق وإيران ، وذهب شعره فى أرجاء العالم العربى إذ ذاك ثائرا مدويا :

فشرق حتى ليس للشرق مشرق وغرب حتى ليس للغرب مغرب

فردده الناس وشدت به الحياة ، وتمثل به الدهر ، وكان أبو الطيب يفرغ من نفسه على شعره روح القوة والحرية والحياة ، مصوراً فيه خلجات نفسه ، وخفقات قلبه فى قوة شخصية ، وقوة تأثير ، راسما الحياة الاسلامية فى عصره ، داعيا إلى مذاهب جديدة فيها عزة النفس وكرامة الفرد وحرية الحياة . ثم لا تكاد تجد شاعراً اختلف النقاد فى منزلته الأدبية ومكانته بين فحول الشعراء كأبى الطيب ، ولا شاعراً كثرت حول شعره الدراسات الادبية كثرتها حول شعر المتنبى . وحسبك أنه قد شرح ديوانه فحول العلماء كابن جنى م سنة ٣٩٢ ومحمد الهروى م سنة ٤١٤ والمعرى م سنة ٤٤٩ وابن الافليلى م سنة ٤٤١ والواحدى م سنة ٤٨١ وعبد القاهر الجرجانى م سنة ٤٧١ والتبريزى م سنة ٥٠٢ والعكبرى م سنة ٦١٦ ، ثم اليازجى والبرقوقى فى عصرنا الحديث . كما نقد شعره كثير من النقاد كالحاتمى وابن عباد والجرجانى وكابن وكيع م سنة ٣٩٣ فى كتابه « المنصف » فى سرقات المتنبى الشعرية والثعالبى م سنة ٤٢٩ فى كتابه « يتيمة الدهر » والعميدى فى كتابه « الابانة عن سرقات المتنبى »

وابن حسنون المصرى فى كتابه « نزهة الاديب فى سرقة المتنبي من حبيب » ، ومحمد ابن أحمد المغربى راوية المتنبي فى كتابيه « الانتصار المنبي عن فضائل المتنبي » و « التنبيه المنبي عن رذائل المتنبي » إلى غير ذلك الكثير من نقد المتنبي وشعره ، وهذا فضلا عمن كتب عن حياة أبي الطيب أو عرض لشعره من الكثير من رجال الادب والنقد والبيان .

هذا هو شأن النقد الأدبي فى القرن الرابع ، ولاشك أن ظهور قدامة فى أول هذا القرن : ورجوعه إلى البيان اليونانى ومافيه من موازين للنقد ومناهج للبيان يلقح بها البيان العربي ويضع بها أسس النقد الأدبي جاعلا لالوان الترف فى الاداء التى تمس الفكرة وتشبع المعنى حظا كبيراً فى النقد ، كان تطوراً جديدا فى بحوث النقد والبيان ، وكان عقل قدامة المنطقى يغلب ذوقة الأدبي ، فزل أحيانا فى نقده من حيث قوم ذوق ابن العميد والصاحب بن عباد وأبي هلال العسكرى أحكام عقولهم فى النقد والحكومة الادبية ، وإن تبعوا منهج قدامة وجروا فى فهم الشعر وتذوقه ونقده مجراه الذى تذوقه فى كتابه نقد الشعر ، والذى يرجع إلى البحث فى عناصر الشعر الاساسية من : اللفظ والوزن والقافية والمعنى .

وجاء الآمدى فرسم منهجا جديدا فى النقد ، فجعل الطبع والسليقة العربية ومذاهب العرب فى البيان هى الحكم فى كل مشكلة ، والفاصل فى كل شبهة ، ونقد قدامة فى كثير من آرائه ، بل ألف كتابا بين فيه أخطاءه فى « نقد الشعر » وأهداه لابن العميد ، وبالرغم من ذلك كله فقد تأثر كرها ببعض آراء قدامة .

وقد استحال النقد إلى علم البلاغة العربية المعروف على أيدى علماء النقد . وقد بدأ التدوين فى البلاغة على يد ابن المعتز الذى ألف كتابه القيم « البديع » (١) وثعلب الذى ألف كتابه « قواعد الشعر » ، وبعد قليل ظهر نقد النثر كما ظهر نقد الشعر لقدامة بن جعفر المتوفى عام ٣٣٧ هـ . ثم كتاب الصناعتين لأبي هلال المتوفى عام ٣٩٥ هـ ، ثم كتاب الموازنة للامدى ، والوساطة للجرجانى ، وإعجاز القرآن للباقلانى ، وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي والعمدة لابن رشيق وهما أكثر الكتب اتصالا بالبلاغة . ثم جاء بعد ذلك أبو بكر عبد القاهر الجرجانى شيخ البلاغة والمتوفى عام ٤٧١ هـ . فألف فى البلاغة كتابين جليلين هما :

---

(١) على نهجه ألف ابن منقذ المتوفى عام ٥٨٤ « البديع » .

١ — أسرار البلاغة ، وفيه دراسات واسعة تتناول بحوث علم البيان من تشبيه ومجاز واستعارة وفيه شرح للسرقات وبعض ألوان البديع .

٢ — دلائل الاعجاز ، وفيه بحوث كثيرة هى أصول علم المعانى . كما أنه تحدث فيه عن الكناية وعن التمثيل والمجاز والاستعارة والسرقات أيضا .

وبعد عصر الجرجانى بحث الزمخشرى فى تفسيره ، والرازى فى كتابه « نهاية الإيجاز » ، وابن الاثير صاحب المثل (١) السائر ، وبدر الدين ابن ابن مالك صاحب المصباح ، والتنوخى صاحب « الأقصى القريب » ، وكثير من العلماء فى البلاغة والفصاحة .

ومن أهم هؤلاء العلماء فى هذا الطور أبو يعقوب السكاكى المتوفى عام ٦٢٦ ﻫ تلميذ الحاتمى ، والذى ألف كتابه « المفتاح » ، وجعله أقساما ، وخص البلاغة بالقسم الثالث ، وقسمها إلى ثلاثة أقسام : المعانى - البيان - البديع . وبذلك تميزت علوم البلاغة ومباحث كل علم منها بالتفصيل . والفلسفة والمنطق يغلبان على السكاكى إلى حد كبير ، من حيث كان يغلب الذوق والطبع على عبد القاهر . . وبذلك تنتهى مراحل التأليف والابتكار فى بحوث البلاغة وتدوينها كاملا .

وجاء الخطيب القزوينى المتوفى عام ٧٣٩ فألف فى البلاغة كتابيه : تلخيص (٢) المفتاح والإيضاح . وقد ألف الإيضاح ليكون كالشرح لتلخيص المفتاح وجمع فيه كثيرا من آراء عبد القاهر والسكاكى فى شىء من التنظيم والشرح .

وعلى متن التلخيص كثرت الشروح والحواشى والتقارير وفى مقدمتها الاطول للعصام ، والمطول (٣) للسعد ، وشروح التلخيص وسواها . . وهذه أهم كتب البلاغة وشروحها فى هذا العهد : قوانين البلاغة لعبد اللطيف البغدادى م ٦٢٩ ﻫ ، والتبيان لابن الزملكانى م ٦٥١ ﻫ ، والمعيار الزنجانى م ٦٥٤ ﻫ ، وبديع القرآن

---

(١) شرحه عز الدين بن أبى الحديد م ٦٦٥ ﻫ فى كتابه « الفلك الدائر على المثل السائر »

(٢) لزكريا الأنصارى م ٩٢٦ ﻫ « مختصر تلخيص المفتاح » : وللعباسى م ٩٦٣ شرح لشواهد التلخيص سماه معاهد التنصيص (٣) عليه كتاب فى شرح شواهده اسمه عقود الدرر فى حل أبيات المطول والمختصر ، وهو مطبوع طبعة حجر عام ١٣٠٧ ﻫ فى ٦٦ صفحة .

لابن أبي الإصبع م ٦٥٤ هـ والفوائد الغيائية للعضد م ٧٥٦ هـ وشرحها الكرمانى م ٧٨٦ هـ ، التبيان لشرف الدين الطيبي م ٧٤٣ هـ ، والطراز ليحي بن حمزة العلوى م ٧٤٩ هـ ، وعروس الأفراح للسبكى م ٧٧٣ هـ ؛ والسمرقندية للسمرقندى وهى رسالة فى الاستعارات ، وتوفى السمرقندى عام ٨٨٠ هـ ، وسواها

نشأة البيان العربى

١ ـ كان للعرب فى حياتهم الأولى ذوق ، وفيهم طبع ، كانوا بهما فى غنى عن الشرح والتحليل والتوجيه والتعليل لأحكام النقد ولأصول البيان العربى ومذاهبه، وكذلك كانت أصول البيان بعيدة عن البحث والدراسة والتقرير .

وفى ظلال الحياة الاسلامية اختلطت العناصر ، وتمازجت الثقافات ، فلقحت العقول ، وأصابت الألسنة آثار من اللكنة واللحن ، وأخذ أئمة العربية يعملون فى صبر وعزيمة فى وضع أصول النحو العربى ، وجمع مواد اللغة الغزيرة . . وصحب ذلك وتلاه دراسات أخرى تتناول البيان العربى وأصوله ومذاهبه بالبحث والتحليل ، وأخذت تتكون من تلك الدراسات النواة الأولى للبيان العربى ، وظل التقدم الفكرى والنضوج الأدبى والعلمى يسير بهذه البحوث والدراسات نحو الكمال المنشود بخطوات كبيرة . . وكانت الثقافة البيانية تنمو حين ذاك بجهود ثلاث طبقات :

(ا) الأولى طبقة رواة وعلماء الأدب من البصريين والكوفيين والبغداديين، من أمثال : خلف والأصمعى وأبى زيد وأبى عبيدة ويحي بن نجم وعمرو بن كركرة ، وأستاذهم أبو عمرو بن العلاء أعلم الناس بالعرب والعربية (١) ، ومن عامة الرواة الذين لا يقفون إلا على البليغ الساحر من الأساليب كما يقول الجاحظ دون النحويين واللغويين والاخباريين الذين لم يتجهوا هذا الاتجاه (٢) . . وبجوار هؤلاء أئمة الشعراء (٣) وغيرهم من الخطباء ورجال الأدب الذين تثقفوا بالثقافة العربيـــة .

---

(١) ١/٢٠٩ البيان . (٢) ٣/٢٢٤ البيان . (٣) ١/٥٤ البيان .

(ب) والثانية طبقة الكتاب الذين لم ير الجاحظ قوما قط أمثل طريقة فى البلاغة منهم والذين التمسوا من الألفاظ مالم يكن وحشيا ولا سوقيا(١)، ورأى الجاحظ البصر بهذا الجوهر من الكلام فيهم أعم (٢)، وحكم مذهبهم فى النقد(٣)؛ ومثلهم المعتزلة وفرق المتكلمين الذين رآهم الجاحظ فوق أكثر الخطباء وأبلغ من كثير من البلغاء(٤) وكان بعضهم من عناصر عربية وتثقفوا بثقافة أجنبية، والآخرون من عناصر أجنبية تثقفت بالثقافة العربية. مما كان له أثره فى أصول البيان وفى توجيه دراسته وبحوثه وفى الدعوة إلى آراء فى الأدب توائم ثقافتهم وعقليتهم، وكان بعضهم يلقن مذاهبه الأدبية العامة للتلاميذ وشداة الادب، كما نرى فى محاضرة بشر بن المعتمر المعتزلى م ٢١٠ هـ فى أصول البلاغة (٥)، والتى يقول الجاحظ عنها إن بشرا مر بإبراهيم بن جبلة بن مخرمة (٦) وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف بشر فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد فقال بشر: اضربوا عما قال صفحا ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه فى أصول البلاغة وعناصر البيان (٧)؛ ومن رجال هذه الطبقة: أبو العلاء سالم مولى هشام وعبد الحميد الكاتب أو الاكبر كما يقول الجاحظ (٨) وابن المقفع وسهل بن هرون (٩) والحسن والفضل (١٠) ابنا سهل ويحي البرمكى وأخوه جعفر (١١) وأيوب بن جعفر وأحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة (١٢) وابن الزيات وسواهم

وكان لهذه الطبقة أثرها فى بحث عناصر البيان وبلاغة الكلام .. ونستطيع أن نعرف آثار هاتين الطبقتين فى دراسات البيان بالرجوع إلى آرائهم المثبتة فى شتى أصول الادب، والتى يمكننا أن نذكر لك هنا طرفا منها، وإن شئت فاقرأ جواب

---

(١) ١٠٥/١ البيان. (٢) ٢٢٥/٣ البيان. (٣) ٢٤٠/١ البيان.
(٤) ١٠٦/١ البيان. (٥) ١٠٤/١ وما بعدها البيان، ٢٢٨ وما بعدها صناعتين.
(٦) يعده الجاحظ من الخطباء الشعراء ٥٥/١ البيان.
(٧) ولبشر كتاب فى نظم كليلة ودمنة. (٨) ١٥١/ البيان.
(٩) كان سهل يقول: سياسة البلاغة أشد من البلاغة (١٤٤/ البيان، ٣٣/٣ العقد). (١٠) ذكر الحصرى كثيرا من بلاغته (١٦ - ١٩ ج ٢ زهر).
(١١) وصف الجاحظ بلاغته وأشاد به (٨٥ و ٩١/١ البيان، ٨١/٢ زهر، وكان يؤثر الايجاز (٨١/١ البيان، ١٧٧/١ الكامل)، ونوه به سهل بن هرون (١١/٢ زهر). (٢) نوه المأمون ببلاغته (٢٦٤/٣ زهر).

صحار لمعاوية حين سأله عن البلاغة (١) ، ويروى قبل هذا بكثير أن عامر بن الظرب سأل حممة بن رافع من أبلغ الناس ؟ . فقال ، من حلى المعنى المزيز باللفظ الوجيز وطبق المفصل قبل التحزيز (٢) واقرأ تحديد المفضل الضبي للايجاز (٣) ، وتفسير ابن المقفع للبلاغة (٤) ، وحوار الشمرى لعمرو بن عبيد فى البلاغة (٥) ، وتعريف الاصمعى للبليغ (٦) ، ورأى ابراهيم ابن محمد فى البلاغه (٧) ، وتعريض جعفر البرمكى للبيان (٨) ، وتعريف العتابى للبلاغه (٩) ، وتفضيل الجاحظ لرأيه (١٠) ، ووصف الرشيد للبلاغة (١١) ، ورأى شبيب بن شيبه فى تفضيل بلاغة جودة القطع أو القافيه على جودة الابتداء (١٢) ووصف ابن المقفع كلام الاعراب (١٣) ؛ الذين أعجب الجاحظ ببلاغتهم (١٤) ووصف الحسن بن وهب بلاغة أبى تمام (١٥) ، وتعريف المأمون للبليغ بأنه من كان كلامه فى مقدار حاجته ولا يجيل الفكرة فى اختلاس ما صعب عليه من الألفاظ ولا يتعمد الغريب الوحشى ولا الساقط السوقى (١٦) ، وقول خالد بن صفوان : أبلغ الكلام مالا يحتاج إلى الكلام (١٧) ، وتعريفه للبلاغة بأنها التقرب من المعنى البعيد ، والتباعد عن خسيس الكلام والدلالة بالكبير على الكثير ، وتعريف ابن عتبة لها : بأنها دنو المأخذ وقرع الحجة والاستغناء بالقليل عن الكثير ، وعرفها الخليل : بأنها ما قرب طرفاه وبعد منتهاه ، وعرفها إبراهيم الامام : بأنها الجزالة والاصابة ، وعرفها ابن المقفع بأنها قلة

---

(١) ١/٨١ البيان ، وراجع ٢/١٨ الكامل .
(٢) ١/٢١٦ العمدة ، ٢/٢٨٠ الأمالى للقالى . (٣) ١/٨١ البيان .
(٤) ٩١/ البيان ، ١/٢١٤ العمدة ، ١٥ - ١٧ صناعتين .
(٥) ١/٩٠ البيان ، ١/١٤٢ زهر ، و ٤٧ الرسالة العذراء .
(٦) ١/٨٦ البيان ، ١/٢٢٠ العمدة . (٧) ١/٧٥ البيان .
(٨) ١/٨٥ البيان ، ٤٢ — ٤٧ صناعتين .
(٩) ١/٩٠ ، و ١/١٥٧ البيان . (١٠) ١/١٢١ البيان .
(١١) ٣/٢٦٤ زهر . (١٢) ١/٨٩ البيان. (١٣) ٢/١١٨ زهر .
(١٤) ١/١١٠ البيان (١٥) ٣/٢٦٣ زهر
(١٦) ٤٢٣ صناعتين (١٧) ٣٥ و ٣٦ الرسالة العذراء

الحصر والجراءة على البشر ، إلى غير ذلك شتى هذه التحديدات (١) ، ويقول أبو دواد الإيادى : رأس الخطابة الطبع وعمودها الدربة وجناحاها رواية الكلام وحليها الاعراب (٢) الخ ، ويقول الخليل : كل ما أدى إلى قضاء الحاجة فهو بلاغة فان استطعت أن يكون لفظك لمعناك طبقا ولتلك الحال وفقا وآخر كلامك لأوله مشابها وموارده لمصادره موازنة فافعل ، واحرص أن تكون لكلامك متهما وإن ظرف (٣) ، ووصية أبى تمام للبحترى تدخل فى هذا الباب (٤) ، ويقول عبد الملك بن صالح م ١٩٩ ه : البلاغة معرفة رتق الكلام وفتقه (٥) ، وقال ابن الرومى : البلاغة حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة عند الأطالة (٦) ، ويقول البحترى : خير الكلام ما قل وجل ودل ولم يمل (٧)، ويقول الثعالبى بعد : خير الكلام ما قل ودل وجل ولم يمل (٨) ، ويقول ابن الأعرابى : البلاغة التقرب من البغية ودلالة قليل على كثير (٩) .

(ج) وأما الطبقة الثالثة فهى طبقة المفكرين والمثقفين الذين تثقفوا بثقافة أجنبية واسعة ، وتأثروا كل التأثر بآداب الأمم الأخرى ، وترجموا آراءهم فى البيان ومناهجه إلى اللغة العربية ، أو ألفوا كتباً تبحث فى هذه الاتجاهات ، وهؤلاء قد عاشوا فى البيئة الإسلامية وأثروا فى النقد والأدب والبيان ودراساته وتطوره تأثيراً واضحا كبيرا ، ويمكننا أن نذكر شيئا عن جهود هذه الطبقة فى خدمة البيان:

أهم عمل علمى قامت به هذه الطبقة : هو ترجمة كتابى الخطابة والشعر لأرسطو إلى العربية ، فأما الخطابة فهو أصل كبير من أصول البلاغة ودراساتها ، وقد « أصيب بنقل قديم ونقله إسحاق بن حنين م ٢٩٨ ه وكذلك نقله إبراهيم بن عبدالله وفسره الفارابى م ٣٣٩ ه » (١٠) ؛ وأما كتاب الشعر فقد اختصره الكندى م ٢٥٣ ه

---

(١) راجع : ٤٤ - ٤٦ الرسالة العذراء ، ١/٧٥ البيان ، ٢ و ٣ و ٢٢ ، ٢٣ /٣ العقد ؛ ١٤٠ — ١/١٥٠ زهر ؛ ٨٧ — ٢/٩١ ديوان المعانى ؛ ١٠٩ و ٢٠٢ إعجاز القرآن ؛ ٢١٣ — ١/٢٢١ العمدة (٢) ١/١٤٧ زهر ؛ ١/٥١ البيان

(٣) ٤٨ الرسالة العذراء (٤) ١/١٥١ زهر

(٥) ٣/٢٦٨ البيان (٦) ٤٥ صناعتين

(٧) ١/٣٦ المستطرف (٨) ١/٢١٨ العمدة

(٩) ١/١٧ العمدة (١٠) ٣٤٩ فهرست

ونقله يحي بن عدى ومتى فى القرن الرابع من السريانية إلى العربية (١) . . . وقد ألفوا فى صناعة الشعر ، وللكندى رسالة فى صناعة الشعر (٢) ، ولأبى زيد البلخى كتاب بعنوان « صناعة الشعر » أيضا (٣) ، وكذلك لأبى هفان (٤) . وهناك آراء كثيرة مأثورة عن هذه الطبقة فى البلاغة وعناصرها وهى متفرقة فى شتى كتب الأدب ومصادره ، وتجد فى البيان والعمدة وسواهما أن صاحب اليونانيين عرف البلاغة بأنها تصحيح الأقسام واختيار الكلام ، وعرفها الرومى بأنها وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الاشارة ، وعرفها الفارسى بأنها معرفة الوصل من الفصل . وعرفها الهندى بأنها البصر بالحجة والمعرفة بمواضع الفرصة الخ : وعرفها أرسطو بأنها حسن الاستعارة ، ويعرفها جالينوس بأنها إيضاح المفصل وفك المشكل ، واقرأ البلاغة كما يراها حكيم الهند (٥) ويقول ، حكيم : البلاغة معرفة السليم من المعتل وفرق ما بين المضمن والمطلق وفصل ما بين المشترك والمفرد (٦) ، ويعرفها سقراط بأنها استكشاف الحقائق (٧) ويقسمها الكندى ثلاثة أنواع : فنوع لا تعرفه العامة ولا تتكلم به ، ونوع بالعكس ، ونوع تعرفه ولا تتكلم به وهو أحمدها (٨) ، ويقول ، يجب للبليغ أن يكون قليل اللفظ كثير المعانى (٩) ، وذكر بزرجمهر فضائل الكلام ورذائله : فقال فضائله أن يكون صدقا وأن يقع موقع الانتفاع به وأن يتكلم

(١) ٣٤٩ و ٣٥٠ فهرست ، ونجد تحليلا كاملا للكتاب فى (٦٤ — ١٣٦ قواعد النقد الأدبى) ، وهو لم يصل إلينا كاملا وليس من شك فى أن للكتاب جزءاً ثانياً قد فقد (٦٨ المرجع) ، ونكاد نجزم أن أرسطو أراد بكتابه هذا أن يكون ردا على أفلاطون فى رأيه الذى ذهب اليه وهو أن الشعر عمل غير جدير بمقام الذكاء البشرى وأنه من أشد بواعث الفساد (٧١ المرجع) ، ويقول أرسطو فى أوله : «سأتكلم هنا عن فن الشعر وأنواعه المختلفة ووظائف كل نوع وفى البناء الصحيح للمنظومة وعدد أجزائها وخصائص كل منها » (٧٩ المرجع ... وترجمه ابن سينا وابن رشد (٢٤ وما بعدها مقدمة نقد النثر)

(٢) ٣٥٩ فهرست (٣) ١٩٨ فهرست (٤) ٢٠٧ فهرست

(٥) ٧٨ و ١/٧٩ البيان ، ٢٠٢ — ٣٨ صناعتين ، ١/١٤٤ زهر »

(٦) ٢/٨٨ البيان والتبيين (٧) أصول النقد الأدبى للشايب

(٨) ٢١٩ / ١ العمدة (٩) ١/٣٥ المستطرف

به فى حينه وأن يحسن تأليفه وأن يستعمل منه مقدار الحاجة ، ورذائله بالضد (١) الخ، وقال أبرويز لكاتبه : الكلام أربعة : سؤالك الشىء وسؤالك عن الشىء وأمرك بالشىء وخبرك عنه ، فاذا طلبت فأسجح وإذا سألت فأوضح وإذا أمرت فاحكم وإذا أخبرت فحقق ، وقال أيضا : واجمع الكثير مما تريد فى القليل (٢) ؛ ولعل ثعلبا حين ذكر فى صدر كتابه « قواعد الشعر » أقسام الشعر وأنها أمر ونهى وخبر واستخبار (٣) قد تأثر بذلك الرأى

وبعد فقد تعاونت هذه الطبقات فى خدمة البيان ، ولها جميعا أثرها فى نشأته وتطوره .

٢ — ومن الكتب الأولى التى ألفت فى دراسات البيان وموضوعاته. مجاز القرآن لأبى عبيدة ، وكتاب البيان لابن السكيت (٤) وكتاب الفصاحة للدينورى (٥) وكتاب التشبيه والتمثيل للفضل بن نوبخت (٦) ، وصناعة الكلام للجاحظ (٧) ؛ وكتاب التمثيل له (٨) ، ونظم القرآن أيضا (٩) وقواعد الشعر وكتاب البلاغة للمبرد (١٠) ؛ وللحرانى كتاب فى البلاغة (١١)، ولثعلب قواعد الشعر، ولابن مقسم تلميذه كتاب المدخل إلى صناعة الشعر (١٢) ، وللمروزى كتاب البلاغة والخطابة (١٣) ولابن الحرون كتاب المطابق والمجانس (١٤) ، ولأبى سعيد الأصفهانى كتاب تهذيب الفصاحة (١٥) ، وللباحث كتاب صنعة البلاغة (١٥) ، ولمحمد بن يزيد الواسطى المعتزلى م ٣٠٦ هـ كتاب إعجاز القرآن فى نظمه وتأليفه ، ولابن الأخشيد (١٦)

---

(١) ١٨٣ الموازنة (٢) ١٠ أدب الكاتب

(٣) ص ١١ قواعد الشعر

(٤) ١/٢٠٨ كشف الظنون . وقد يكون فى هذا الكتاب عرض للادب وألوانه كالبيان والتبيين .

(٥) ١١٦ فهرست (٦) ٣٨٣ فهرست . وهو فارسى خدم المنصور والمهدى

(٧) ٣٨ الجاحظ لمردم (٨) ٤١ المرجع ، ٦/٧٦ معجم الأدباء

(٩) ٤٠ الجاحظ لمردم (١٠) ٨٨ فهرست ، ٧/١٤٤ معجم الأدباء

(١١) ١٧٨ فهرست (١٢) ٢٦ بغية الوعاة

(١٣) ٢١٥ فهرست (١٤) ٢١٢ فهرست

(١٥) ١٩٧ فهرست (١٦) ٥٧ ، ٥٨ فهرست

كتاب نظم القرآن وكذلك لابن أبي داود م ٣١٦ هـ (١) وللحسن بن جعفر كتاب فى الرد على من نفى المجـــاز فى القرآن (٢) .

٣ — وبعد فقد كان البيان العربى فى القرن الثالث مزيجا من ثقافات وآراء مختلفة عربية وغير عربية ، مؤلفة ومترجمة ؛ من حيث كاد فى القرن الثانى أن يكون عربيا خاصا . وهنا سؤالان لابد من الجواب عليهما ،وهما : متى نشأ البيان العربى ، وهل تأثر بثقافة أجنبية ؟

أما نشأة البلاغة والبيان فالآراء فيها كثيرة . فالدكتور طه حسين يرى أن البلاغة نشأت فى عهد متأخر والجاحظ فى رأيه أول من اهتم بها وهو مؤسس البيان العربى حقا (٣) ؛ ويرى آخر أن نشأة البلاغة قديمة قد سبقت القرآن وتطورت بعده (٤) وأكثر الفنون الأدبية أخذت شواهدها من القرآن (٥) ؛ وينقد باحث هذا الرأى (٦) .. ومن الضرورى أن نفرق بين أمرين ، نطق العرب فى آثارهم الأدبية بأساليب لغتهم المختلفة من استعارة وتشبيه وكناية ومجاز وقصر وفصل ووصل وطباق وتجنيس الخ ، ومعرفتهم العلمية بأوضاع هذه الأساليب ونواحيها البلاغية ، فالأول كان موجوداً عند العرب قبل القرآن وفى عصر القرآن وبعده ، والثانى لم يوجد إلا فى القرن الثالث الهجرى كما ذهب إليه أكثر الباحثين ، فقواعد البلاغة قد سنها الفكر أولا ليجرى عليها الأدب، بل إن طبيعة الأدب موجودة من قبل سواء بحثت أم لم تبحث (٧) ، فالأدب وخواصه الأدبية موجودان من قديم وأما معرفة هذه الخصائص ودراستها وبحثها على أنها علم وأصول وقواعد فلم يوجد إلا بعد القرن الثانى الهجرى ، « فعلم البلاغة اسلامى لا عهد للجاهليين به » (٨) ، والبلاغة باعتبارها فنا مدروسا أى التحليل العلمى للاساليب البلاغية ليست من علوم العصر الجاهلى إنما هى دراسة متأخرة فى نشأتها على أنه لا شك كان هناك فى

---

(١) ٣٢٤ فهرست (٢) ٥٢ فهرست

(٣) ٣ و٣٠و٣١ مقدمة نقد النثر (٤) ١/٤٨ النثر الفنى ، ومن قبل رأى الصاحبى أن النحو والعروض نشأ من قديم (٨ وما بعدها الصاحبى)

(٥) ١/٥٦ النثر الفنى (٦) ١٦ / وما بعدها تاريخ البلاغة العربية مخطوط بمكتبة كلية اللغة (٧) ٨ قواعد النقد الأدبى

(٨) ٢٩ تاريخ البلاغة العربية

العصر الجاهلي وصدر الاسلام بعض الخصائص والأساليب البلاغية المتعارف عليها (١) ، وهذا كله مما لا سبيل إلى الشك فيه .

وأما الأمر الثاني وهو هل تأثرت البلاغة العربية فى نشأتها الأولى ببلاغة الأمم الاخرى ؟ فيمكننا بسط الحديث فيه :

يذكر ابن الأثير أن الشعر والخطابة فى الأدب العربى لم يتأثرا بثقافه اليونان البيانيه « فهذا شىء لم يكن ولا علم أبو نواس شيئاً منه ولا مسلم ولا أبو تمام ولا البحترى ولا المتنبي ولا غيرهم وكذلك جرى الحكم فى أهل الكتابة كعبدالحميد وابن العميد » ثم ينفى أن يكون هو تأثر فى رسائله ومكاتباته بما ذكره علماء اليونان فى حصر المعانى، ويذكر أنه اطلع على ما كتبه ابن سينا فى الخطابة والشعر فلم يوافق ذوقه واستجهله ورأى أن ماذكره لغو لا يستفيد به صاحب الكلام العربى شيئاً (٢) ، ويرى باحث محدث أنه كان للبلاغة اليونانية أثر فى علم البلاغه العربى (٣) ، ويرى آخر أن أرسطو المعلم الأول للمسلمين فى علم البيان (٤) ، وأن الكتاب والمتكلمين الذين عاشوا فى القرن الثانى وأثروا فى البيان وتطوره جلهم من الاعاجم (٥) وأن متكلمى المعتزلة كانوا يتضلعهم فى الفلسفة اليونانية من مؤسسى البيان العربى(٦) وأنه حتى منتصف القرن الثالث لم يوجد إلا بيان عربى واحدكان لا يزال فى دور الطفولة وكان خصبا جامعا للروح العربى والفارسى واليونانى ، ثم وجد من ذلك الوقت بيانان : عربى بحت ، ويونانى يجهر بالأخذ عن أرسطو ، على أن البيان العربى الصرف قد تأثر باليونان (٧) . وترجم كتاب الخطابة وفهم منه كل ما يمكن أن ينتفع به وطبقه على الشعر العربى وكان يجهل كتاب الشعر (٨) وقد درس قدامه الفلسفه وخاصه المنطق (٩) ، على أن تشريع الفلسفه للأدب فى رأى الدكتور يظهر أول مرة فى نقد الشعر » (١٠) ثم فى « نقد

---

(١) ص ٤ و ٥ مجلة الأدب والفن نوفمبر سن ١٩٤٥ من مقال للأستاذ جب .

(٢) ٢٠ المثل السائر (٣) ١/١٧٧ ضحى الاسلام

(٤) ٣١ مقدمة نقد النثر (٥) ص ٦ المرجع نفسه

(٦) ٨ المرجع (٧) ١١ وما بعدها المرجع

(٨) ١٧ المرجع (٩) ١٦ المرجع

(١٠) ١٦ وما بعدها مقدمه نقد النثر

النثر ، الذى هو مستمد من آراء أرسطو فى الجدل والقياس والخطابة (١) .

على أننا قد بسطنا القول فى ذلك فيما سبق ورأينا أن المشتغلين بالفلسفة قد اشتركوا مع الجماعات الأخرى فى خدمة البيان العربى وإنشائه والتأليف فيه وكان اتجاههم الأول إلى البيان اليونانى فأخذوا يدأبون على الافادة منه فى بحوث البيان العربى ودراسته وتلقيحه بما يمكن أن يلقح به من عناصر ومناهج علمية سلكها ومهد سبيلها اليونان ، فهم قد استعانوا بطرقهم فى دراسة البيان على فهم وتحليل أصول البيان العربى والتأليف فيه .

وهذه هى أول صحيفة فى البلاغة لبشر بن المعتمر (٢) :

مر بشر بإبراهيم بن جبلة بن مخرمة السكونى الخطيب وهو يعلم الفتيان الخطابة فوقف بشر ، فظن إبراهيم أنه إنما وقف ليستفيد أو ليكون رجلا من النظارة ، فقال بشر : اضربوا عما قال صفحا واطووا عنه كشحا . . ثم دفع إليهم صحيفة من تحبيره وتنميقه ، وكان أول ذلك الكلام :

خذ من نفسك ساعة نشاطك وفراغ بالك وإجابتها إياك ، فان قليل تلك الساعة أكرم جوهرا ، وأشرف حسبا ، وأحسن فى الاسماع . وأحلى فى الصدور وأسلم من فاحش الخطأ ، وأجلب لكل عين وغرة ، من لفظ شريف ومعنى بديع . .

واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطاولة والمجاهدة وبالتكلف والمعاودة . ومهما أخطأك لم يخطئك أن يكون مقبولا قصداً وخفيفا على اللسان سهلا ، وكما خرج من ينبوعه ونجم من معدنه .

وإياك والتوعر ، فان التوعر يسلمك إلى التعقيد ، والتعقيد يستهلك معانيك ويشين ألفاظك ومن أراغ معنى كريما فيلتمس له لفظا كريما ، فان حق المعنى الشريف ، اللفظ الشريف ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما ويهجنهما ، وعما تعود من أجله إلى أن تكون أسوأ حالا منك قبل أن تلتمس إظهارهما وترتهن نفسك بملابستهما وقضاء حقهما .

وكن فى ثلاث منازل : فان أولى الثلاث : أن يكون لفظك رشيقا عذبا وفخما سهلا ، ويكون معناك ظاهرا مكشوفا وقريبا معروفا ، إما عند الخاصة إن كنت

(١) ١٧ وما بعدها المرجع .

(٢) نقلا عن البيان والتبيين للجاحظ

للخاصة قصدت ، وإما عند العامة إن كنت للعامة أردت ، والمعنى ليس يشرف بأن يكون من معانى الخاصة ، وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معانى العامة ، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال وما يجب لكل مقام من المقال . وكذلك اللفظ العامى والخاصى ، فان أمكنك أن تبلغ من بيان لسانك وبلاغه قلمك ولطف مداخلك واقتدارك على نفسك أن تفهم العامة معانى الخاصة وتكسوها الألفاظ الواسطه التى لا تلطف عن الدهماء ولا تجفو عن الأكفاء ، فأنت البليغ التام .

فان كانت المنزلة الأولى لاتواتيك ولا تعتريك ، ولا تسنح لك عند أول نظرك وفى أول تكلفك ، وتجد اللفظة لم تقع موقعها ولم تصر إلى قرارها وإلى حقها من أماكنها المقسومة لها ، والقافية لم تحل فى مركزها وفى نصابها ولم تتصل بشكلها ، وكانت قلقة فى مكانها نافرة من موضعها ، فلا تكرهها على اغتصاب الأماكن والنزول فى غير أوطانها ، فانك إذا لم تتعاط قرض الشعر الموزون , ولم تتكلف اختيار الكلام المنثور ، لم يعبك بترك ذلك أحد ، وإن أنت تكلفتها ولم تكن حاذقا مطبوعا ولا محكما لسانك بصيراً بما عليك أو مالك ، عابك من أنت أقل عيبا منه ، ورأى من هو دونك أنه فوقك . . فان ابتليت بأن تتعاطى الصنعة وتتكلف القول ولم تسمح لك الطباع فى أول وهلة وتعصى عليك بعد إحالة الفكرة فلا تعجل ولا تضجر ودع بياض يومك أو سواد ليلك وعاوده عند نشاطك وفراغ بالك ، فانك لا تعدم الاجابة والمواتاة إن كانت هناك طبيعة أو جريت من الصناعة على عرق .

فان تمنع عليك بعد ذلك من غير حادث شغل عرض ومن غير طول إهمال ، فالمنزلة الثالثة أن تتحول من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك وأخفها عليك فانك لم تشتهه ولم تنازع إليه إلا وبينكما نسب ، والشى لا يحن إلا إلى ما يشاكله ، وإن كانت المشاكلة قد تكون فى طبقات لأن النفوس لا تجود بمكنونها ولا تسمح بمخزونها مع الرهبة كما تجود مع المحبه والشهوة ، فهكذا هذا . قال بشر : فلما قرئت على ابراهيم قال لى : أنا أحوج الى هذا من هؤلاء الفتيان .

تراجم الشعراء

بشار بن برد

المتوفى عام ١٦٧ هـ

حياته :

هو بشار بن برد بن يرجوخ زعيم المحدثين ، جده يرجوخ من طخارستان من سبي المهلب بن أبي صفرة وكان أبوه برد من فى أخيرة القشيرية امرأة المهلب، وكان مقيما لها فى ضيعتها بالبصرة المعروفة (بخيرفان) فوهبت برداً بعد أن زوجته لامرأة من بنى عقيل كانت متصلة بها ، فولدت له امرأته وهو فى ملكها بشاراً فأعتقته ولذلك يقال لبشار العقيلي. وبعد ذلك صار برد طياناً يضرب اللبن حاذقاً بالتطيين وكان يقول ما رأيت مولوداً أعظم بركة من ابنى بشار ولقد ولد لى وما عندى درهم فما حال الحول حتى جمعت مائتى درهم، ولم يمت برد حتى قال بشار الشعر، ومما يحكى عنه أنه كان إذا هجا قوما جاءوا إلى أبيه فشكوه فضربه ضربا شديداً فكانت أمه تقول له كم تضرب هذا الصبي الضرير أما ترحمه ؟ فيقول : بلى والله إنى لأرحمه ولكنه يتعرض للناس فيشكونه إلى ، فسمعه بشار فطمع به وقال : يا أبتى هذا الذى يشكونه منى إليك هو قول الشعر وأنى أن ألممت عليه أغنيتك وسائر أهلى، فان شكونى إليك فقل لهم : أليس الله يقول ليس على الأعمى حرج ؛ فلما عاودوه شكواه قال لهم برد ما قاله بشار فانصرفوا وهم يقولون ؛ فقه برد أغيظ لنا من شعر بشار، وكان لبشار أخوان بشر وبشير ، كانا قصابين ؛ ولما نبغ بشار فى الشعر وصار له مقام بين الناس لم يترك بيت أبيه وكان أخواه يلبسان ثيابه فاذا لبسها أنكر رائحتها فاذا كان فى مجلس فى تلك الثياب فقيل له ما هذا يا معاذ ؟ أجاب: هذه ثمرة معاشرة الأخوان . وحكى صاحب الأغانى قال حدث محمد بن الحجاج قال كنا مع بشار فاتاه رجل فسأل عن منزل رجل ذكره له فجعل يفهمه ولا يفهم فاخذ بيده وقام يقومه إلى منزل الرجل وهو يقول :

أعمى يقود بصيراً لا أبا لكم ... قد ضل من كانت العميان تهديه

حتى صار إلى منزل الرجل ثم قال له هذا هو منزله يا أعمى .

وكان بشار شاعرا ذا ذوق سهل العبارة صحيح اللغة وذلك لأنه نشأ فى البدو بين بنى عقيل، وكثيرا ما يستشهد بشعره. وكان أحسن الشعراء المحدثين ابتداء من ذلك مطلع قصيدته :

أبى طلل بالجزع أن يتكلما　　وماذا عليه لو أجاب متيما
وبالجزع آثار بقين وباللوى　　ملاعب لا يعرفن إلا توهما

وما أظرف قوله :

يا ليلتى تزداد نكرا　　من حب ما أحببت بكرا
حور إذا نظرت إليك　　سقتك بالعين خمرا

وله أخبار واشعار عديدة مع امرأة اسمها عبدة، منها قوله .

يزهدنى فى حب عبدة معشر　　قلوبهم فيها مخالفة قلبى
فقلت دعوا قلبى وما اختار وارتضى　　فبالقلب لا بالعين يبصر ذو الحب
فما تبصر العينان فى موضع الهوى　　ولا تسمع الآذنان إلا من القلب
وما الحسن إلا كل حسن دعا الصبا　　وألف بين العشق والعاشق الصب

وله ميمية بديعة نظمها لأبى مسلم ابراهيم بن عبد الله بن الحسن يحرضه ويشير عليه ، فلما قتل أبو مسلم خاف بشار أن تشتهر ميميته فقلبها وجعل التحريض فيها على أبى مسلم والمديح والمشورة لأبى جعفر المنصور ،ومطلعها :

أبا مسلم ما طيب عيش بدائم　　ولا سالم عما قليل بسالم

وله قصائد عديدة فى مدح المهدى ، وكان المهدى يصله أولا ، ويأمره أن لا يقول الغزل والنسيب، ولكن بشارا لم يسمع له ، وكان سبب موت بشار ما حكاه صاحب الأغانى قال : خرج بشار مرة إلى المهدى ويعقوب بن داود فلم يحفل به يعقوب يعطه شيئا، ومر يعقوب ببشار وهو يريد منزله فصاح به بشار: طال الثواء على رسوم المنزل ، فقال يعقوب: فاذا تشاء أبا معاذ فارحل، فغضب بشار وقال يهجوه :

بنى أمية هبوا طال نومكم　　إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا　　خليفة الله بين الزق والعود

ولما طالت أيام بشار على باب يعقوب دخل عليه وكان من عادة بشار إذا أراد أن ينشد أو يتكلم يتفل عن يمينه وشماله ويصفق بإحدى يديه على الأخرى ففعل ذلك ، وأنشد :

يعقوب قد وفد العفاة عشية متعرضين لسيبك المنتاب
فسقيتهم وحسبتني كمونة نبتت لزارعها بغير شراب
مهلا لديك فانني ريحانة فاشمم بأنفك واسقها بذناب
طال الثواء على تنظر حاجة شمطت لديك ، فمن لها بخضاب؟
تعطى الغزيرة درها فاذا أبت كانت ملامتها على الحلاب

فلم يعطف ذلك يعقوب عليه وحرمه . فانصرف إلى البصرة مغضبا فلما قدم المهدى البصرة أعطى عطايا كثيرة ووصل الشعراء وذلك كله على يدى يعقوب ، ولم يعط بشارا من ذلك ؛ فجاء بشار إلى حلقة يونس النحوى فقال : هل ههنا أحد يحتشم منه ؟ قالوا له : لا ، فأنشأ بيتا يهجو فيه المهدى،فسعى به أهل الحلقة إلى يعقوب فدخل يعقوب على المهدى ، وقال له : يا أمير المؤمنين أن هذا الأعمى قد هجاك . فقال بأى شىء ، فقال بما لا ينطق به لسانى ، فأمر بضربه حتى مات ، ثم ألقى فى زورق ورمى فى البطيحة فحمله الماء فاخرجه إلى دجلة البصرة ، فأخذ وأتى به أهله فدفنوه ، وبعد ذلك ندم المهدى على قتله حين لا ينفع الندم .

لقن اللغة والفصاحة من معاشرة مواليه الذين نشأ فيهم،ومن أئمة البصرة فى اللغة والأدب والكلام ، ومن اختلافه كثيرا إلى الأعراب الذين كانوا ينزلون بادية البصرة ، حتى خرج نابغة زمانه فى الفصاحة والشعر ، قيل له: ليس لأحد من شعراء العرب شعر ، إلا وقد قال فيه شيئا استنكرته العرب من ألفاظهم وشك فيه ، وليس فى شعرك ما يشك فيه ،قال : ومن أين يأتينى الخطأ ؟ ولدت ها هنا ، ونشأت فى حجور ثمانين شيخا من فصحاء بنى عقيل ما فيهم أحد يعرف كلمة من الخطأ ، وإن دخلت إلى نسائهم فنساؤهم أفصح منهم ، وأيفعت فأبديت إلى أن أدركت ، فمن أين يأتينى الخطأ ؟ وكان فوق ذلك متوقد الذكاء صادق الحس لطيف الهداية ، وكان فى صباه وشبابه معتدل الأخلاق مكبا على تحصيل العلم ، مصادقا لواصل بن عطاء رأس المعتزلة وعمرو بن عبيد ، إلا أن ذلك لم يدم طويلا ؛ فصرح بعقائد فاسدة فى حديثه وشعره ، ورأى المجون والخروج على العلماء والمتوقرين يحببانه إلى طبقة الخلعاء والمغنين والقيان فاستهتر بهما . ورأى أن أكثر الناس لا يستدر خيرهم إلا بتهديدهم بالهجاء والتشهير بهم ، فسلك معهم هذه الطريق ، وتمادى فى ذلك فأصبح ولعا بالمجون والعبث بالناس ، قليل المبالاة بشعائر الدين وبالوقيعة فيه ،

متهما بالزندقة ، وأنه يدين بالرجعة ويفضل النار على الأرض ، فيصوب رأى إبليس فى امتناعه من السجود لآدم ، ويرى أن الناس كلهم كفروا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم صار شعوبياً متعصبا على العرب، يعزى الموالى بنبذ ولائهم والانتماء إلى الفرس ، شديد التبرم بالناس ، ثلابا لهم ، نهاشا لأعراضهم ، لم يسلم من عقرة لسانه خليفة ولا سوقة ، حتى أهل بيته . وكان من سعادة الرجل من أهل البصرة ألا يعرف بشاراً ولا يعرفه بشار ، فإنه إن لم يمتحن بلسانه امتحن به فى ماله . فمقته العلماء والمتكلمون وهموا بالوقيعة به ، وإراحة الناس منه وخاصة واصل بن عطاء ، وعمرو بن عبيد ، ففر من البصرة إلى أرض الجزيرة الفراتية واتصل ببعض أمراء بنى أمية وولاتهم فمدحهم وعاش فى معروفهم، وجاءت الدولة العباسية فاضطرب عيشه فيها بادىء الأمر حتى علم بموت عدويه: واصل وعمرو بن عبيد ، فعاد اليها محملا بعقائد جديدة ومنكرات من الأخلاق ، غير أن نبوغه فى الشعر ، وبراعة دعابته شفعت له عند كثير من رؤساء الموالى والمشتهرين بالمجون ، فعاش بقية عمره بالبصرة .

شعره :

وقد قال بشار الشعر ولم يبلغ عشر سنين ، ثم بلغ الحلم وهو مخشى معرة لسانه، وكان يقول : هجوت جريرا فأعرض عنى واستصغرنى ، ولو أجابنى لكنت أشعر الناس .. وكان وهو صغير إذا هجا قوما جاءوا إلى أبيه ، وكان طيانا يعمل اللبن من الطين ، فشكوه اليه ، فيضربه ضربا مبرحا ، فكانت أمه تقول له : كم تضرب هذا الصبى الصغير الضرير ، أما ترحمه ، فيقول بلى والله إنى لأرحمه ، ولكنه يتعرض للناس فيشكونه إلى، فيسمعه بشار فيطمع فيه ، فقال يا أبت إن هذا الذى يشكونه اليك منى هو قولى الشعر ، وإنى إن تممت عليه أغنيتك وسائر أهلى ، فاذا شكونى فقل لهم . أليس الله عز وجل يقول : ليس على الأعمى حرج . فلما أعادوا شكواهم قال لهم ذلك ، فانصرفوا ، وهم يقولون: فقه برد أغيظ لنا من شعر بشار، ويقول أكثر رواة الشعر ونقدته والباحثون فى طبقات الشعراء : إن بشارا رأس المحدثين ومقدمهم ، وأسبقهم إلى معاطاة محسنات البديع وطرق أبواب المجون والخلاعة والغزل الرقيق الحضرى والهجاء المقذع فى الاسلام، وإنه أول من جمع فى شعره بين جزالة العرب ورقة المحدثين ، وفتق عن المعانى الدقيقة والاخيلة اللطيفة

والحق أن له الجيد والردىء ،قال عن نفسه: لى إثناعشر ألف بيت عين ، فقيل له .هذا ما لم يكن أحد يدعيه سواك ، فقال : لى إثنتا عشرة ألف قصيدة لعنها الله ولعن قائلها إن لم يكن فى كل واحدة منها بيت عين . وقصارى القول أن شعر بشار هو الحد الوسط بين الشعر القديم والحديث ، وقد طرق فيه كل باب من أبواب الشعر التى عرفت قبله ، وأربى عليها ، وغلب عليه الهجاء والتشبيب بالنساء والغزل بهن والخروج بذلك عن الحد المألوف عند أهل زمانه ، مما أنكره عليه العلماء والمتألهون لما رأوا من تولع جوارى البصرة وشبانها بشعره ، وحتى قال سوار بن عبد الله الأكبر ومالك بن دينار ماشىء أدعى لأهل هذه المدينة إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى . وما زالا يعظانه ، وكان واصل بن عطاء يقول ، إن من أخدع حبائل الشيطان وأغواها لـكلمات لهذا الأعمى الملحد ، فلما كثر ذلك وانتهى خبره من وجوه كثيرة إلى المهدى وقدم عليه مادحا له استنشده قوله :

قاس الهموم تنـــل بها نجحا والليـــل إن وراءه صبحا
لا يؤيسنك من مخـــدرة قول تغلظه وإن جرحا
عسر النســـاء إلى مياسرة والصعب يمكن بعد ما جمحا

فأنشده إياه ، وكان المهدى غيورا ، فغضب وزجره ، وقال : أتحض الناس على الفجور ، وتقذف المحصنات المخبآت : والله لئن قلت بعد هذا بيتا واحدا فى تشبيب لآتين على روحك ، فكان بشار إذا تاقت نفسه لقول ذلك ذكر أن الخليفة منعه كذا وكذا ، ويذكر من اللهو وحديث النساء ما يريد ، ويقول إنه مطيع له خائف أن يفعل كيت وكيت ، وضمن ذلك بعض قصائد مدح بها الخليفة ، فلم يزد على أن حرمه الجائزة عليها ، من ذلك قوله يتبرأ من التشبيب ويمدح الخليفة :

يا منظرا حسنا رأيتـه من وجه جارية فديتـه
بعثت إلى تســـومنى برد الشباب وقد طويته
أمسكت عنـك وربما عرض البلاء وما ابتغيته
إن الخليفـــة قد أبى وإذا أبى شيئا أبيتـه
ومخضب رخص البنـــان بكى على وما بكيته
ويشـــوقنى بيت الحبيـــب إذا ادكرت ، وأين بيته؟
قام الخليفـــة دونه فصبرت عنه وما قليته
ونهـــانى الملك الهما م عن النساء وما عصيته

لا بل وفيت فلم أضع عهدا ولا رأيا رأيته
وأنا المطل على العدى وإذا غلا الحمد اشتريته
وأميل فى أنس النديـــم من الحياة وما اشتهيته
أصغى الخليل إذا دنا وإذا نأى عنى نأيتـه

ثم أنشده ما مدحه به بلا تشبيب لحرمه ، وبهذا الشعر الرقيق تعرف: كيف كان ولوع شبان البصرة ونسائها وخلعائها بشعره وتغنيهم به ، وكيف كان إغراؤه لهم بالمجون ، وكانت متأدبات القيان لذهاب بصره يحضرن مجلسه ويسمعن شعره ويتناشدنه ويتغنين ويتماتبن به ، فهوى بشار منهن جارية تسمى عبدة ، فشهرها فى شعره ، حتى صار له معها أخبار طائرة وأشعار سائرة : فمن قوله فيها :

يزهدنى فى حب عبدة معشر قلوبهم فيها مخالفة قلبى
فقلت دعوا قلبي وما اختار وارتضى فبالقلب لا بالعين يبصر ذو الحب
فما تبصر العينان فى موضع الهوى ولا تسمع الأذنان إلا من القلب
وما الحسن إلا كل حسن دعا الصبا وألف بين العشق والعاشق الصب

وقوله :

لم يطل ليـلى ولـكن لم أنم ونفى عنى الكرى طيف ألم
وإذا قلت لهـا جودى لنا خرجت بالصمت عن ولا نعم
رفهى يا عبـد عنى واعلمى أننى يا عبد من لحم ودم
إن فى بردى جسما ناحلا لو توكأت عليـه لانهدم

وكان يولع فى شعره بهذا المعنى وشبهه مع أنه كان ضخما كأنه فيل ..ومن ذلك قوله :

يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحيانا
قالوا بمن لا ترى تهذى فقلت لهم الأذن كالعين توفى القلب ما كانا
هل من دواء لمشغوف بجارية يلقى بلقيانهـا روحا وريحانا

وهاجى بشار الشعراء المفلقين فى زمانه : ونصب لهم منهم حماد عجرد ، واحتدم بينهما اللجاج والتقاذف بالأقوال المقذعة ، وظهر حماد عليه فى بعض أهاجيه، مع أن الجيد من هجاء بشار فيه أكثر من جيد هجاء حماد ؛ فهجاء بشار هتك حماداً ، وبعض هجاء حماد آلم بشارا ، وإن لم يسقط منزلته ، قيل إنه لما هاجاه حماد بقوله :

ويا أقبح من قرد إذا ما عمى القرد

قال : لا إله إلا الله ، قد والله كنت أخشى أن يأتى به ، والله لقد وقع لى هذا البيت من أكثر من عشرين سنة فما نطقت به خوفا من أن يسمع ، فأهجى به ، حتى وقع عليه النبطى ، وقيل ، إنه لما سمعه بكى ، فقال له قائل : أتبكى من هجاء حماد ؟ فقال والله ما أبكى من هجائه ، ولكن أبكى لأنه يرانى ولا أراه ، فيصفنى ولا أصفه .. ولبشار من المعانى المبتكرة والأخيلة البديعة فى فنون الشعر المختلفة ماجعل منهجه برزخا بين الشعر القديم والحديث ، ومجازا يعبر عليه الشعر من مرابع البداوة إلى مقاصير الحضارة . وفى ذلك يقول الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين : « كان بشار خطيبا صاحب منثور ومزدوج وسجع ورسائل ، وهو من المطبوعين أصحاب الابداع والاختراع، المتفننين فى الشعر القائلين فى أكثر أجناسه وضروبه » . ومن غرر كلامه فى الحكم والنصائح قوله :

إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن برأى نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فإن الخوافى قوة للقوادم
وما خير كف أمسك الغل أختها وما خير سيف لم يؤيد بقائم
وخل الهوينى للضعيف ولا تكن نؤوما فإن الحر ليس بنائم

وقوله :

إذا كنت فى كل الأمور معاتبا صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه
فعش واحدا أو صل أخاك، فإنه مقارف ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه

وقال أبان بن عبد الحميد : نزل فى ظاهر البصرة قوم من أعراب قيس عيلان ، وكان فيهم بيان وفصاحة ، فكان بشار يأتيهم ، وينشدهم أشعاره التى يمدح بها قيسا ، فيجلونه لذلك ويعظمونه ، وكان نساؤهم يجلسن معه ، ويتحدثن إليه ، وينشدهن أشعاره فى الغزل ، وكنت كثيرا ما آتى فى ذلك الموضع فأسمع منه ومنهم . فأتيتهم يوما فإذا هم قد ارتحلوا ، فجئت إلى بشار ، فقلت : يا أبا معاذ أعلمت أن القوم قد ارتحلوا ؟ قال : لا ، فقلت : فاعلم ، قال : قد علمت لا علمت ! ومضيت . فلما كان بعد ذلك بأيام سمعت الناس ينشدون :

دعا بفراق من تهوى أبان   ففاض الدمع واحترق الجنان
كأن شرارة وقعت بقلبي   لها فى مقلتى ودمى استنان(١)
إذا أنشدت أو نسمت عليها   رياح الصيف هاج لها دخان

فعلمت أنها لبشار ، فأتيته ، فقلت : يا أبا معاذ ، ما ذنبي إليك ؟ قال : ذنب غراب البين ، فقلت : هل ذكرتنى بغير هذا ؟ قال : لا ، فقلت : أنشدك الله ألا تزيد ، فقال : امض لشأنك فقد تركتك ... ومن غرر شعره قوله :

خليلى إن المال ليس بنافع   إذا لم ينل منه أخ وصديق
وكنت إذا ضاقت على محلة   تيممت أخرى ما على مضيق
وما خاب بين الله والناس عامل   له فى التقى أو فى المحامد سوق
وما ضاق فضل الله عن متعفف   ولكن أخلاق الرجال تضيق

وقوله :

طبعت على ما فى غير مخير   هواى ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى وأعطى ولم أرد   وقصر علمى أن أنال المغيبا
فأصرف عن قصدى وعلمى مقصر   وأمسى وما أعقبت إلا التعجبا

ومن قوله فى الوصف والحماسة :

وجيش كجنح الليل يزحف بالحصى   وبالشوك والخطى حمر ثعالبه
غدونا له والشمس فى خدر أمها   تطالعنا والطل لم يجر ذائبه
بضرب يذوق الموت من ذاق طعمه   وتدرك من نجى الفرار مثالبه
كأن مثار النقع فوق رؤسنا   وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه
بعثنا لهم موت الفجاءة إننا   بنو الموت خفاق علينا سبائبه
فراحوا : فريق فى الإسار ومثله   قتيل ومثل لاذ بالبحر هاربه
إذا الملك الجبار صعر خده   مشينا إليه بالسيوف نعاتبه

ومن قوله فى المدح يمدح خالد بن برمك وهو بفارس :

أخالد لم أخبط إليك بذمة   سوى أننى عاف وأنت جواد

---

(١) استن الرجل : مضى على وجهه ، واستن السراب : اضطرب .

أخالد بين الأجر والحمد حاجتى فأيهما تأتى فأنت عماد
فإن تعطنى أفرغ عليك مدائحى وإن تأب لم يضرب على سداد
ركابى على حرف وقلبى مشيع وما لى بأرض الباخلين بلاد
إذا أنكرتنى بلدة أو نكرتها خرجت مع البازى على سواد

وقوله :

لمست بكفى كفه أبتغى الغنى ولم أدر أن الجود من كفه يعدى
فلا أنا منه ما أفاد ذوو الغنى أفدت ، وأعدانى فأتلفت ما عندى

وقوله يمدح عقبة بن سلم بن قتيبة :

إنما لذة الجواد ابن سلم فى عطاء ومركب للقاء
ليس يعطيك للرجاء وللخو ف ولكن يلذ طعم العطاء
تسقط الطير حيث ينتثر الحب ، وتغشى منازل الكرماء

ومن قوله فى الحماسة يفتخر بولائه لمضر :

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو تمطر الدما
إذا ما أعرنا سيدا من قبيلة ذرى منبر صلى علينا وسلما

ومن ابتداءاته البديعة قوله :

أبى طلل بالجزع أن يتكلما وماذا عليه لو أجاب متيما
وبالجزع آثار بقين وباللوى ملاعب لايعرفن إلا توهما

آراء النقاد فى شعره :

يقول فيه أبو الفرج : محل بشار فى الشعر ، وتقدمه فى طبقات المحدثين فيه باجماع الرواة ، ورياسته عليهم من غير اختلاف فى ذلك ، يغنى عن وصفه وإطالة ذكر محله ، وهو من مخضرمى شعراء الدولتين الأموية والعباسية ، وقد شهر فيهما ، ومدح وهجا ، فأخذ سنى الجوائز مع الشعراء (١) ؛ وكان يحيى بن الجون العبدى راوية بشار (٢) ؛ وكان الأصمعى يقول :

بشار خاتمة الشعراء ، والله لولا أن أيامه تأخرت لفضلته على كثير منهم (٣).. وقال أبو عبيدة : سمعت بشاراً يقول وقد أنشدنى فى شعر الأعشى :

---

(١) ٢٠ / ٣ الأغانى (٢) ٢١ / ٣ المرجع (٣) ٢٣ / ٣ .

وأنكرتنى وما كان الذى نكرت   من الحوادث إلا الشيب والصلعا

فأنكره وقال : هذا بيت مصنوع ، مايشبه كلام الأعشى ، فعجبت لذلك ، فلما كان بعد ذلك بعشر سنين كنت جالسا عند يونس ، فقال : حدثنى أبو عمرو ابن العلاء أنه صنع هذا البيت وأدخله فى شعر الأعشى ، فجعلت حينئذ أزداد عجبا من فطنة بشار وصحة قريحته وجودة نقد الشعر (١) ؛ وسئل أبو عبيدة : أمروان عندك أشعر أم بشار ؟ فقال : حكم بشار لنفسه أنه قال ثلاثة عشر ألف بيت جيد ولا يكون عدد الجيد من شعر شعراء الجاهلية والاسلام هذا العدد ، ومروان أمدح الملوك (٢) .

وسئل الأصمعى عن بشار ومروان أيهما أشعر ؟ . فقال : بشار ، فسئل عن السبب فى ذلك ، فقال : لأن مروان سلك طريقا كثر من يسلكه فلم يلحق بمن تقدمه وشركه فيه من كان فى عصره ، وبشار سلك طريقا لم يسلك وتفرد به ، وهو أكثر تصرفا وفنون شعر ، وأغزر وأوسع بديعا ، ومروان لم يتجاوز مذهب الأوائل ؛ وسأله رجل عن مروان بن أبى حفصة فقال : وجدت أهل بغداد وقد ختموا به الشعراء ، وبشار أحق بأن يختموهم به من مروان ، وما كان مروان فى حياة بشار يقول شعرا حتى يصلحه له بشار ويقومه ، وهذا سلم الخاسر من طبقة مروان يزاحمه بين أيدى الخلفاء بالشعر ويساويه فى الجوائز ، وسلم معترف بأنه تبع لبشار .

وقال يحيى بن المنجم : سمعت من لا أحصى من الرواة يقولون : أحسن الناس ابتداء فى الجاهلية امرؤ القيس ، وفى الاسلام القطامى ، ومن المحدثين بشار حيث يقول :

أبى طلل بالجزع أن يتكلما   وماذا عليه لو أجاب متيما (٣)

وكان الأصمعى يعجب بشعر بشار لكثرة فنونه وسعة تصرفه ، ويقول : كان مطبوعا لا يكلف طبعه شيئا ، لا كمن يقول البيت ويحككه أياما ، وكان يشبه بشارا بالأعشى والنابغة ، ويشبه مروان بزهير والحطيئة (٣) ، وسئل أبو زيد عن بشار ومروان فقال : مروان أجد وبشار أهزل ، فحدث الأصمعى بذلك فقال :

---

(١) ٢٣ / ٣   (٢) ٢٤ / ٣ المرجع .

(٣) ٢٥/٣ المرجع .

بشار يصلح للجد والهزل ، ومروان لايصلح إلا لأحدهما (١) وفضله أبو عمرو ابن العلاء (٢) ، وكان إسحاق الموصلى لا يعتد ببشار ويقول : هو كثير التخليط فى شعره ، وأشعاره مختلفة لا يشبه بعضها بعضا . وكان يقدم مروان عليه ويقول: هذا هو أشد استواء شعر منه ، وكلامه ومذهبه أشبه بكلام العرب ومذاهبها ، وكان لا يعد أبا نواس البتة ولا يرى فيه خيرا (٣) .. وقيل لبشار : إنك لتجيء بالشيء الهجين المتفاوت فبينما تقول شعرا يثير النقع وتخلع به قلب الجبان . إذا بك تقول : « ربابة ربة البيت » وأشباه ذلك ؛ فقال : لكل وجه فالقول الأول جد ، وهذا قلته فى ربابة جاريتى فهذا عندها أحسن من « قفا نبك ». وغضب بشار على سلم الخاسر لأنه سرق معانيه فى شعره . وكان يقال: أطبع الناس بشار والسيد وأبو العتاهية وما قدر أحد على جمع شعر هؤلاء الثلاثة لكثرته (٤) ، وكان إسحاق يطعن على شعر بشار ويضع منه ويذكر أن كلامه مختلف لايشبه بعضه بعضا (٥) ✗

أبو نواس الحسن بن هانئ

حياته :

هو أبو على الحسن بن هانىء بن عبد الاول بن الصباح . كنيته الأولى أبو فراس ثم كنى بأبى نواس. كان فارسى الأصل ، أعجمى المحتد ، لذلك أخفى نسبه ونسب أمه الاهوازية الفارسية حتى لا يعرف فيقدح فيه ـ ولما كبر أبو نواس أكثر من دعاويه وخلط فى نسبه ، فادعى أنه بصرى المنشأ ثم ناقض دعوته فى قوله ، من قصيدة يهجو بها عرب البصرة :

فان أك بصريا فان مهاجرى   دمشق ولكن الحديث فنون
مجاور قوم ليس بينى وبينهم   أواصر إلا دعوة وظنون

كما ادعى أنه تيمى النسب فانتسب إلى أولاد عبيد الله بن زياد بن ظبيان العامرى التيمى ، فقيل لأبى نواس كيف تدعى نسبتك إليه وهو لا عقب له، لو انتسبت إلى أولاد أخيه أبان بن زياد لصدقناك فخجل أبو نواس وترك نسبته إلى تيم، ثم ادعى أنه من قبيلة نزار وأنه من أحفاد الفرزدق فانتقده الحكم بن قنبر المازنى وهجاه

---

(١) ٢٥ ج٣ المرجع (٢) ٢٦ ج٣ المرجع (٣) ٢٨ ج٣ (٤) ١٢٢ ج٣ الاغانى
(٥) ٤٦ ج٣ المرجع

فلما هجاه أبو نواس وخندف الاسدى، وأسد بطن من بطون نزار ، تعرض له الحكم وهجاه فترك النزارية ، وادعى أنه من حكم وانتسب إليها مدة حتى زجره يزيد بن منصور الحميرى (خال المهدى) وقال له أنت خوزى من (خوزستان ـ إحدى ولايات فارس) فمالك ولحكم ؟ فرد عليه أبو نواس مضطرا :أنا مولى لهم يا سيدى . وإثرذلك ترك الحكميون أبا نواس وشأنه ولكنه حنق واغتاظ فسب اليمنيين وهجا رجالاتهم، فهجا هاشم بن حديج الكندى أحد أشراف اليمن بقصائد كثيرة ولا نعرف سبب تخصيصه هاشما بهجوه وبالإكثار من هجوه إلا أن يكون هو الذى بدأ بافحامه ليترك دعوتهويهجر نسبته إلى قبيلته، ولكن الحكميين رأوا أن لسان أبى نواس المقذع لا يكف ولا يسكت،فقال بعضهم لبعض دعوا أبا نواس فى دعوته فبهذا الولاء (الولاء لا النسب) يتعصب لنا ويدافععنا ويهجو نزارا ألد أعدائنا، واتفقوا إثر ذلك على أن لا يكذبوه فى نسبته إليهم، فرجع أبو نواس إلى اليمن نادماً على سبه لهم معتذرا لمن هجاهم من رجالاتهم فاعتذر إلى هاشم بن حديج الكندى بقصائد استلت سخيمته واسترجعت رحمته ،ومن اعتذاراته له

أتشتم خير ذى حكم بن سعد   لقد لاقيت داهية تؤادا
سببت ابن الحديج فسب ظلى   لعمر أبيك ما استوفى وزادا

أبلغ اعتزاز العرب بنسبهم فى العصر العباسى هذا المبلغ ؟ إلى حد أن يحاول رجل كأبى نواس الانتساب إلى قبيلة والالتجاء إلى جماعة، وإلى حد أن يعرف أن ذلك المدعى دخيل عنهم مدع عليهم ، وهل العصبية العربية مازالت قائمة لم يضعفها اختلاط الفرس بالعرب؟ذلك مانراه من الاطلاع علىتاريخ أبىنواس، نرى اعتزازاً بالنسب لا يماثله اعتزاز وإكبارا للعصبية لايداخله إنكار ، والاحتفاظ بالانساب لايشابهه احتفاظهم بعاداتهم وأخلاقهم ،غير أنه من المبالغة أن نقول إنتلك العصبية لم تنقص عما كانت عليه فى أيام الجاهلية، فلا بد أن يكون للاختلاط أثره ولكثرة عدد القبيلة فعله ، ولا بد أن تكون هذه العصبية فى الاقاليم البدوية النائية عن الفرس البعيدة عن الاختلاط تخالف العصبية التى توجد لدى الحضريين حيث يكثر مصاهرة العرب للفرس وتجاورهم فىالسكنى فيكثر اختلاط الانساب ويصعب حفظها

اطمأنت نفس أبى نواس إلى هذه الدعوة واستراحت من جهة النسب ولا سيما بعد أنوجد اليمنيين يتفاضلون به ويحلونه منهم مكانا رفيعا ومقاما خطيراً ويعدونه من أشرافهم ويبجلونه كأمرائهم ، ثم جلس أبو فراس الحسن بن هانىء يوما مع

الأمير خلف الأحمر أحد عمال اليمن ، وكان من أعجب الناس بأبى نواس وأميلهم إليه ، فقال له: أنت من أشراف اليمن فتكن بكنيتها ، بأسماء الذوين(الملوك الذين تبتدىء أسماؤهم بذى) وعد له منها : ذا جدن ، وذا يزن وذا نواس . ففضل أبو فراس ذا نواس فكنى بأبى نواس ، وغلبت على كنيته الأولى ... يتضح لنا إذاً أن أبا نواس فارسى الأصل ، أعجمى النجار ، وأنه ليس له نسب بين العرب ، وأن ماشهر عنه من أنه كان حكميا ماهو إلا نسبه ولاء رضى بها الحكميون وأقروه عليها ، لما أن رأوا فيه الشاعر الفذ النابه

ولد أبو نواس سنة ١٤٥ - ٧٦٢ م ، وقيل إنه ولد قبل ذلك التاريخ بأربع سنين . ولكن أين ولد الشاعر ؟ : أفى البصرة التى نشأ وتربى فيها ، كما يقول أبو نواس فى بيته : فإن أك بصرياً فان مهاجرى الخ ؟ أم فى قرية من قرى كورة خوزستان الفارسية تدعى (باستان ماتارد) ثم انتقل إلى البصرة بعد ذلك وترعرع فيها ؟ أم فى دمشق حيث كان والده الجندى معسكراً فيها مع جند مروان بن محمد ؟ كل ذلك لا تلقى عليه الروايات قبساً من نور ، ولا شعاعاً من ضياء ، إلا ما نرى من كثرة الروايات التى تروى عنه أنه ولد فى كورة خوزستان فانتقل بعد ذلك مع أمه إلى البصرة،مما يحملنا على تصديق ذلك الرأى ويجعلنا نشك فى قول أبى نواس : فإن أك بصرياً فان مهاجرى دمشق .. فلعله أخفى مقر ولادته حتى لايعلم أنه فارسى فيكون ذلك داعياً إلى تكذيبه فى انتسابه إلى الحكميين . كان جد أبى نواس من موالى الجراح بن عبد الله الحكمى، كما كان أبوه من جند مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية وكان مقيما بالشام ثم نقل لمرابطة الثغور فى الأهواز ، فتزوج منها بامرأة أهوازية تدعى جلبان ، فرزقت بعدة أولاد ، منهم الشاعر النابه الذكر ، والرفيع القدر ، أبو نواس .

كان أبو نواس كما أسلفنا إذا حكمى الولاء عجمى النجار،يفتخر باليمن ، ويحن إلى العجم، ويذكرهم فى أشعاره ، حنين الابن لأهله والفرع لأصله .

درج الطفل الشاعر على أرض الاهواز،تسير به سفينة الحياة وحيداً إلا من أمه،فقد توفى أبوه الجندى فخرج إلى الحياة يفقد شخصه ولا يجد إلا رسمه ممثلا فى أقارب أمه الذين عطفوا عليه ، وساعدوا إخوته على تكاليف العيش ومتاعب الأيام

حتى إذا فقد المعين ، ونضب المعين،خرجت به أمه من الاهواز إلى البصرة وقد تكامل سنه حولين ، علها تجد فيها ما يقيم أودها ، ويصلح حالها

والبصرة يومئذ منتجع الشارد، ومقصد الوارد وكعبة المتأدب والعالم، فيها أسواق التجارة منتشرة ذائعة، وألوية العلم مرفوعة خافقة، ونوادي الأدب واسعة فسيحة.. كما كانت حلقة الاتصال بين شرق الامبراطورية الاسلامية وغربها، ومقر التمازج بين الثقافتين العربية والفارسية ومقر المزبد خليفة عكاظ

واستقرت أم أبي نواس بالبصرة، وتم لها ما أرادت من حياة بسيطة هادئة فيها شيء من الدعة، ونزر من السعة.

وعرف أبو نواس الوجود مذ رأى البصرة، فحن إلى العلم حين رأى العلماء، وطرب للأدب إذ سمع من الادباء، فخف إلى مكاتب القرآن، ومجالس العلم ونوادي الأدب، فقرأ القرآن على يعقوب الحضرمي الفقيه المقرىء وحذقه، حتى إن شيخه أعجب به فرمى اليه خاتمه وقال اذهب فانت أقرأ أهل البصرة، ودرس النحو على أبي زيد وأبي عبيدة البصريين، وتعلم العربية، وحفظ كثيراً من القصائد والاراجيز

ولكن أمه البائسة الفقيرة كانت فى حاجة إلى ابنها الصغير المهتم بنفسه، العاكف على درسه، ليساعدها على الحياة ويرفهها من البؤس

لذلك اقتطفته من بين مجالس العلم والادب ووضعته فى حانوت لبعض العطارين غير عابئة بحاله ولا مشفقة على آماله، فمكث عنده يعمل معه حين يحضر وقت العمل ويتركه حين تسنح له ساعات الفراغ فيختلف إلى الادباء، ويتعارف بالشعراء، ويتنقل بين المجالس، ثم يعود إلى العطار، فيعمل بيده وجسمه ويفكر بخياله وعقله فى معاناة الشعر، ونظم القريض؛ والترنم بما حفظه من قصائد وأراجيز. كان أبو نواس جميل الصورة، حسن الوجه أبيض اللون، نظيف الهيئة والاشارة

فترك جمال صورته شيئاً فى نفوس معاشريه ووجد من وطأة بؤسه مشجعاً له على الترفيه عن نفسه وأمانيه، وكانت البصرة يومئذ تموج بألوف الموالى الذين تدفعهم بواعث خاصة إلى اللهو والمجون والخلاعة والفسوق، فلا نسب يمسكهم على الحياء، ولا شرف يحفزهم إلى الإباء، ولا قوة تجبرهم على التقوى ولا سيد يكرههم على الحسنى، وقد تأثروا بأخلاق بلادهم وعادات قومهم، فصعب عليهم إبدالها، وإن لم يصعب عليهم إخفاؤها.. وصعب على الانسان تغيير عادة وإن لم يكن صعبا عليه خفاؤها.

وإذا علمنا أن القرية أو المدينة فى العصر العباسى تخالف الحى أو القبيلة فى العصر الجاهلى بكثرة عدد سكانها واختلاف نسب أهليها، وازدياد المترددين عليها

عرفنا مدى الصعوبات التى تلاقى الحاكم فى التعرف بأخـلاق الناس لجزائهم عليها . . هكذا كانت البصرة ، وهكذا كانت بيئتها ميدانا فسيحا للصالح والطالح ، والفضيلة والرذيلة ، والحياء والمجون ؛ وفى هذا الجو عاش أبو نواس وهو مولى من الموالى الظرفاء ،دفعه كما ذكرت دافع من نفسه ، وباعث من شخصه ، إلى الاختلاط بالمجان ، والتقرب من الموالى ، فوق الدوافع المساعدة الحافزة ، فنشأ ماجنا بطبعه ، فكها ، كثير الدعابة حاضر البديهة يخب ويضع فى أماكن اللهو ومشارب الفجور والمجون ، ويستمع وينصت لمعازف القيان وأصوات المغنيات ، ويطرب ويبهج لزجاجات الكرم وكاسات الراح .. استمر أبو نواس فى حانوته ودأب على تردده على مجالس العلم والادب يشبع رغبته فيهما بالحفظ والدراسة كما دأب على اختلافه إلى الاصدقاء والندماء يطفىء غلته بالمداعبة والمنادمة والمعاقرة ، حتى رآه أبو أسامة والبة بن الحباب الاسدى الشاعر الكوفى الماجن فى حانوته فأعجب بذكائه وجماله فتعرف به قصدا وتودد إليه عمدا ، وقال له وقد أراد أن يصاحبه : إنى أرى فيك مخايل أرى أن لا تضيعها وستقول الشعر وتعلو فيه فاصحبنى حتى أخرجك ، فقال : ومن أنت ؟ قال : والبة ؟ قال أبو أسامة ؟ قال نعم ؛ قال : أنا والله فى طلبك وقد أردت الخروج إلى الكوفة وإلى بغداد من أجلك لآخذ عنك ، وأسمع منك شعرك قال ولماذا ؟ قال : شهوة للقائك ولابيات سمعتها لك : قال ، وما هى ؟ فأنشده :

جرحت فؤادى بالهوى ... فالقلب مجروح النواحى
سـل الخليفـة صارما ... هو للفساد وللصلاح
أجداه كف أبي الوليـ ... ـد يدأ مبارية الرياح
ألفى بجانب خصره ... أمضى من الاجل المتاح
وكأنما ذر الهبا ... ء عليه أنفاس الرياح

فسار أبو نواس وهو شاب يافع مع والبة إلى الكوفة حيث مكث معه ومع جلسائه من ماجنيها وخلعائها وهم كثيرون عديدون ؛ ولأستاذه والبة الماجن سابق اتصال بهم ،وماضى ائتلاف بجمعهم ،فازداد عقدهم بأبى نواس تنضيدا ومجلسهم بروحه الفكهة أنسا وتغريداً . تودد اليهم وتوددوا اليه . وحمل عليهم وحملوا عليه . فاجتمعوا على الشراب وتصافوا بالعتاب ، وتفاكهوا بقول الشعر ،وتنادروا

بعذب الفكاهة ، وتسامروا بحلو الدعابة . هكذا كانوا فى الكوفة لهواً ولعباً وفكاهة وسمراً ، يدأبون عليها ويسيرون اليها، فهى لهم الشغل الشاغل ، والمطلب الأسمى.ووجدأبو نواس فى أستاذهوالبة مربياً وخليلا ، ومصاحباًونصيراً،فاطمأن اليه ، وائتلف بعشيرته . حتى قال والبة فيه :

يا شقيق النفس من حكم غبت عن عينى فلم أنم

كانت الاعراب المقيمة بالمدن ترسل أبناءها إلى البادية ، ليتقنوا العربية ويحذقوا اللغة ، حيث جو البادية هادىء صاف فانتهز أبو نواس فرصة سفر وفد من أبناء بنى أسد إلى البادية وطلب من استاذه والبة أن يخرج معهم فيتعلم العربية والغريب ، فأخرجه مع قوم منهم فأقام بالبادية سنة ، صحت فيها لهجته وخلصت فيها عربيته ، ثم رجع بعدها إلى الكوفة ، الى استاذه والبة على ما كان عليه من قبل

تخرج أبو نواس فى الشعر على أستاذه والبة الماجن ، وعلى ندماء أستاذه والبة الخلعاء ، وعلى من لقيهم وجالسهم من الأدباء . ولكنه بذهم جميعاً وفاقهم كافة ، وغطى اسمه على اسمهم فتناقلت الألسنة ذكره ، كما رويت فى مجالس السمر فكاهاته ، وفى نوادى المجون دعاباته . فكانت سلوة البائس وأغرودة الماجن

لا شك فى أن والبة حقد على أبى نواس تلميذه وخليله ، وود لو ينأى عن بلده وإن قام فى قلبه وسكن فى نفسه كما قال

يا شقيق النفس من حكم غبت عن عينى فلم أنم

ولا شك فى أن أبانواس قد ضاق أفق الكوفة عن أمانيه ، فرغب عنه بعد أن رغب فيه .وعزم على خطوة أوسع ليخطو بهانحو مستقبله ، وتسير بها سفينة آماله . وهكذا كان ما أراد،فقد ركب قافلة جده حتى وصل إلى عاصمة الاسلام ودار السلام مدينة بغداد

دخل أبو نواس بغداد ، واتصل بالشعراء والأدباء والعلماء والكتاب والوزراء ، ومدح الرشيد ، وقربه منه الرشيد ، ثم غضب عليه لشعوبيته ووصفه للراح ، فحبسه ثم أطلق سراحه .. ثم مات الرشيد وولى الأمين الخلافة بعده ، ولما قدم الفضل بن الربيع بغداد على محمد الأمين بالأموال والقضيب والخاتم حين مات الرشيد ، وقد اشتد فرح الأمين به فقربه وألطفه وقلده الأمور وفوض اليه ما

وراء بابه فهو الذى يولى ويعزل ويحل ويعقد على محمد الأمين، قال أبو نواس يمدحه:

لعمرك ما غاب الأمين محمد عن الأمر يعنيه إذا شهد الفضل
ولولا مواريث الخلافة إنها له دونه ما كان بينهما فضل
لئن كانت الأجساد فيها تباينت فقولهما قول وفعلهما فعل
أرى الفضل للدنيا وللدين جامعاً كالسهم فيه الريش والفوق والنصل

ومن قوله يصف حراقة ركبها الأمين وكانت على مثال الأسد :

سخر الله للأمين مطايا لم تسخر لصاحب المحراب
فاذا ما ركابه سرن بحراً سار فى الماء راكبا ليث غاب
أسداً باسطاً ذراعيه يعدو أهرت الشدق كالح الأنياب
لا يعانيه باللجام ولا السو ط ولا غمز رجله فى الركاب
عجب الناس إذا رأوك على صو رة ليث تمر مر السحاب
سبحوا إذ رأوك سرت عليه كيف لو أبصروك فوق العقاب؟
ذات زور ومنسر وجناحيـ ـن تشق العباب بعد العباب
تسبق الطير فى السماء إذا ما اسـ ـتعجلوها بجيئة وذهاب
بارك الله للأمين وأبقا ه وأبقى له رداء الشباب
ملك تقصر المدائح عنه هاشمى موفق للصواب

ولما أنشد الأمين قصيدته التى يقول فيها :

أيا دارها بالماء حتى تلينها فلن تكرم الصهباء حتى تهينها
أغالى بها حتى إذا ما ملكتها أهنت لإكرام الخليل مصونها
وصفراء قبل المزج بيضاء بعده كأن شعاع الشمس يلقاك دونها

قال له : ألم أنهك عن شرب الخمر ؟ قال بلى والله يا أمير المؤمنين ، والله ماشربتها مذ نهيتنى عنها ومنعتنى من شربها ، وأنا الذى أقول :

أيها الرائحان باللوم لوما لا أذوق المدام إلا شميما
نالنى بالملام فيها إمام لا أرى لى خلافه مستقيما
فاصرفاها إلى سواى فانى لست إلا على الحديث نديما
كبر حظى منها إذا هى دارت أن أراها وأن أشم النسيما
فكأنى وما أزين منها قعدى يحسن التحكيما
كل عن حمله السلاح إلى الحـــرب فأوصى المقيم ألا يقيما

وأنشده يمدحه :

ألا يا خير من رأت العيون نظيرك لا يحس ولا يكون

ومن جيد شعره قوله لما منعه الأمين من شرب الخمر ، وذلك أن المأمون أمر الخطباء بخراسان أن يعيبوا الأمين بشعر أبى نواس ، ويقولون: هو جليسه ونديمه وينشدون على المنابر شعره فمنعه الأمين ،فقال:

غننا بالطلول كيف بلينا واسقنا نعطك الثناء الثمينا
من سلاف كأنه كل طيب يتمنى مخير أن يكونا
أكل الدهر ما تجشم منها وتبقى لسانها المكنونا
ثم شجت(١)فاستضحكت عن لآل لو تجمن فى يد لاقتنينا
وإذا ما لمستها فهباء (٢) يمنع الكف ما يبيح العيونا
فى كؤوس كأنهن نجوم باديات كأنها أيدينا
طالعات مع السقاة علينا فاذا ما غربن يغربن فينا
لو ترى الشرب حولها من بعيد قلت قوم من قرة (٣) يصطلونا
وغزال يديرها ببنان ناعمات يزيدها العسر لينا
ذاك عيش لو دام لى غير أنى عفته مكرها وخفت الأمينا

وأخيراً أسرف أبو نواس فى مجونه فحبسه الأمين ..

ودخل أبو نواس السجن يندب حظه ويبكى جده، ويذكر أيامه ولياليه ، ويرثى آماله وأمانيه ، تزيده الذكرى جزعاً ويفعمه السجن فرقا وهلعا ، بيد أنه كان يصبر ويتجلد حتى فرغ صبره ونفد جلده وخبا سراج أمله الذاوى وصدأ حسام شبابه الماضى .. فلقد كان يعتمد على حسن ماضيه ورفيع مكانته وأنه فى بطانة الخليفة واحد مفرد ، لا ترب يشغل مكانه ولا نديم يطاوله . ويرتقب لذلك صفح الأمين عليه وعودته ثانيا لديه وتقربه اليه، فبدد هذا الأمل فى فكره أن رسف فى قيود السجن ثلاثة أشهر ، والخليفة عنه معرض ، والدهر مدبر والنجم غارب

---

(١) شجت : مزجت بالماء . ويريد باللآل : الحبب
(٢) الهباء : ما ينبث فى ضوء الشمس كأنه غبار .
(٣) القرة : البرد .

والقيد فى عنقه دائم مقيم ، وأخذ أبو نواس قلمه وكتب للأمين يذكره بعهود له وبقصائده فيه ، ويستشفع بجده وأبيه وكرم محتده وجميل أياديه ، ثم يعد له الأيام التى قضاها فى سجنه ويعرض له بأمره وحالته تعريض المستشفع ، فى مدح يشبه الرجاء، وشعر جياش بالثناء:

تذكر أمين الله والعهد يذكر | مقامى وإنشاديك والناس حضر
ونثرى عليك الدر يادر هاشم | فيامن رأى درا على الدر ينثر
أبوك الذى لم يملك الأرض مثله | وعمك موسى صنوه المتخير
فمن ذا الذى يرمى بسهمك فى الورى ؟ | وعبد مناف والداك وحمير
تحسنت الدنيا بوجه خليفة | هو الصبح إلا أنه الدهر مسفر
يشير إليه الجود من وجناته | وينظر من أعطافه حين ينظر
أيا خير مأمون يرجى: أنا امرؤ | أسير رهين فى سجونك مقبر
مضت لى شهور مذ حبست ثلاثة | كأنى قد أذنبت ما ليس يغفر
فان كنت لم أذنب ففيم سجنتنى ؟ | وإن كنت ذا ذنب فعفوك أكبر

وصلت الرقعة للأمين فطوى كشحه عنها ، لأن نار غضبه لم تخمد، وقبس عفوه لم يوقد.. غير أن السجين المرتقب لم يسكت، فأرسل للخليفة ثانية مستشفعاً فلم يصفح، فبرم أبو نواس بالسجن ، وضاق به ذرعا لا سيما وقد أحس بالشيب ، ووهن الكبر قد سرى فى عظمه ، وضعف السقم بدأ يشعر بألمه ، فطلب السلوة فلم يجدها إلا فى نفسه، والنديم فلم يره إلا فى شعره، فكان ينظم إذا هاجته عواصف الذكرى أو ألمت به أطياف الخيال ، لا فى الخمر والندمان ، ولكن فى الشكوى من الزمان ، والتبرم بالأصحاب والاخوان . عادة المكلوم إذا ماطله الفرج وديدن المحبوس إذا فارقه الصبر .. ولما اشتد به الحال . . . أكثر الشكاية وتمنى أن يقيض له المأمون لينقذه مما هو فيه . . . فأنشد :

يارب إن القوم قد ظلمونى | وبلا اقتراف معطل حبسونى
وإلى الجحود بما عرفت خلاله | ربى اليك - بكذبهم - نسبونى
ما كان إلا الجرى فى ميدانهم | فى كل درب ، والمجانة دينى
لا العذر يقبلها ويفرق شاهدى | منهم ولا يرضون حلف يمينى
أما الأمين فلست أرجو دفعه | عنى ، فمن لى اليوم بالمأمون ؟

يئس إذاً أبو نواس من صفح الأمين . لا بل يئس من دفع ضره، ولم يبق له من رجاء وأمل إلا أن يغلب المأمون أخاه على أمره فينقذه مما هو فيه . . ورضخ لحكم الله مكرهاً ، وسكن لصروف الزمان عاجزاً . حتى ذهب إلى بغداد صديقان من أصدقاء أبي نواس ، وأديبان من أدباء العربية ، هما ابن حبيب، ومؤنس بن عمران، فتذكرا رفيقيهما أبا نواس ، فذهبا يزورانه فى سجنه ، ولما أن عرف أن وجهتهما إلى الفضل بن الربيع ، أعطى لهما رقعة فيها هذه الأبيات :

ما من يد فى الناس واحدة ... كيد أبو العباس مولاها
نام البغاة على مضاجعهم ... وسرى إلى نفسى فاحياها
قد كنت خفتك ثم أمنى ... من أن أخافك خوفك الله
فعفوت عنى عفو مقتدر ... وجبت له نعم فالفاها

ورجا مؤنس أن يسعى فى توصيلها إليه . وأعطاه إياها . ووصلت الرقعة للفضل فلم ينس صاحبها أبا نواس ، ولم ينس قصائده فيه . وغرره التى توجه بها، فسعى عند الأمين . حتى بلغ سعيه الفوز ، فاطلق سراح أبي نواس السجين المعذب. أطلق سرحه ، فخرج من السجن خائر القوى ، سقيم الجسم ، كثير العلل .. فكتب إلى أهله ينبئهم بخبر خروجه من السجن :

إنى أتيتكم من القبر ... والناس يحتسبون للحشر
لولا أبو العباس ما نظرت ... عينى إلى ولدى ولا وفرى
الله ألبسنى به نعمـــا ... شغلت جسامتها يدى شكرى

ويروى أنه لما حبس أبو نواس فى شرب الخمر(١) آلمه الحبس وكان للفضل بن الربيع خال يستعرض أهل السجون ويتعاهدهم ويتفقدهم، ودخل فى حبس الزنادقة فرأى فيه أبا نواس ـ ولم يكن يعرفه ـ فقال : يا شاب ، أنت مع الزنادقة ! قال معاذ الله ! قال : فلعلك ممن يعبد الكبش ؟ قال : أنا آكل الكبش بصوفه ! قال : فلعلك ممن يعبد الشمس ؟ قال : إنى لأتجنب القعود فيها بغضا لها ! قال . فبأى جرم حبست ؟ قال : حبست بتهمة أنا منها برىء ! قال : ليس إلا هذا ! ، والله لقد صدقتك . فجاء إلى الفضل فقال له : يا هذا ، أيحبس الناس بالتهمة ! قال وما ذاك ؟ فأخبره بما ادعى من جرمه ، فتبسم الفضل . ودخل على محمد الأمين فأخبره بذلك ، فدعا

(١) الطبرى ص ٢٢٠ ج ٩

به ، وتقدم اليه أن يجتنب الخمر والسكر : قال نعم ، قيل له : فبعهد الله ! قال : نعم! فأخرج . فبعث إليه فتيان من قريش ، فقال لهم : إنى لا أشرب ، قالوا : وإن لم تشرب فآنسنا بحديثك . فأجاب، فلما دارت الكأس بينهم قالوا : ألم ترتح لها ؟ قال : لا سبيل والله إلى شربها ، وأنشأ يقول :

أيها الرائحان باللوم لوما　　　لا أذوق المدام إلا شميما

إلى آخر هذه القصيدة الرائعة الجميلة .

ذهب أبو نواس إلى أهله ناسيا ماضيه ، تاركا مجون أيامه الاولى، ناظرا إلى الموت نظرة الخائف ، وإلى الحياة بعين اليائس ، وإلى الله بعبرة التائب وزفرة المنيب ، وفى هذه الأثناء كانت جيوش المأمون قد دهمت بغداد بقيادة قائده طاهر بن الحسين وانتهى الأمر بدحر جيش الأمين، والقضاء على ملكه ونفسه معا ... قتل الامين ، ياله من خبر مؤلم حقا وقع فى نفس أبى نواس النديم الوفى المخلص وقوع الصاعقة ، وتذكر أبو نواس أيامه مع الأمين، تلك الايام التى غالبت « الصروف »، وصارعت الحوادث وعصرت عود الزمن وذاق أبو نواس فيها افاويق السعادة ، فانطلق لسانه برثائه يحركه الوفاء على رغم ما كان بينهما آخر المدة من إعراض وفتور ، وفى هذه القطعة يتمثل لك وفاء أبى نواس صورة حية لقلبه وعواطفه الصادقة :

طوى الموت ما بينى وبين (محمد)　　　وليس لما تطوى المنية ناشر
فلا وصل إلا عبرة تستديمها　　　أحاديث نفس ما لها الدهر ذاكر
وكنت عليه أحذر الموت وحده　　　فلم يبق لى شىء عليه أحاذر
لئن عمرت دور بمن لا أوده　　　فقد عمرت ممن أود المقابر

كما رثاه بغير هذه ، من القصائد الناطقة، التى تدل على إخلاص أبى نواس لصاحبه الراحل، الخليفة محمد الامين ـ .

وفنيت لذة الشباب عند أبى نواس وبقيت عبرة المشيب تعظه وتذكره الآخرة ، وتزهده فى الدنيا، فاستنجاب أبى نواس لداعيها فأكثر من الندم على ما فرط فى جنب الله ، والاستغفار على ما قدم من ذنوب ، حتى روى أنه صاغ خاتمين له : نقش فى أحدهما : يشهد ابن هانى ان الله واحد ، وفى الثانى هذا البيت

تعاظمنى ذنبى فلما قرنته　　　بعفوك ربى كان عفوك أعظما

ولم يكتف بالندم والاستغفار بل عف ونسك وزهد ، ونسى عادات الشباب

وأخلاق المجان والعكوف على اللهو والشراب، وتعرف إلى المسجد والجماعة وصار بذلك مغرماً ولوعا ؛ ويبدو أن أبا نواس قد تاب على يد الفضل بن الربيع بعد خروجه من السجن وذلك أقرب إلى العقل، فالمفهوم أن أبا نواس حين أطلق سراحه، بلغ شكره للفضل فى رقعة فيها هذه الأبيات

أصبحت غير مدافع مولاكا والحظ لى أنى أكون كذاكا
لله درك أى رهن منية بالأمس كنت، وهالكا لولاكا
أصبحت معتدا على بنعمة ما كان ينعمها على سواكا

ثم توجه إلى أهله ؛ فأشبع غلة شوقه برؤيتهم. وذهب للفضل يشكره على يده وحسن صنيعه. وطبعا شمل الحديث بينهما ذكر السجن والوشاة، فنصح الفضل له بأن يغير ماضيه الذى كان تكأة للوشاة فى وشيهم، والمفترين ضده فى افترائهم، فوعده أبو نواس بأن يسير كما أشار ، وتاب على يديه توبة نصوحاً . . فذلك أصدق فى نظر العقل، وهو ما تؤيده أقوال أبى نواس فى الفضل. وان شئت فاقرأ :

أنت يا ابن الربيع الزمتنى الفضـ ـل وعودتنيه والخير عاده
فارعوى باطلى، وأقصر حبلى وتبدلت عفة وزهاده
لو ترانى ذكرت بى الحسن البصـ ـرى فى حسن سمته أو قتاده
المسابيح فى ذراعى والمصـ ـحف فى لبتى مكان القلاده
ولقد طال ما شقيت ولكن أدركتنى على يديك السعاده

مضى أبو نواس على سنن الهدى والصلاح، ولكن سراج حياته كان آخذاً فى الانطفاء، ومدد روحه كان وشيك الانتهاء، فدب فيه السقام علواً وسفلا، حتى لكأن أعضاؤه السقيمة تموت متتالية وهو حى يراها. ويأسف شد الأسف أن تذهب أيامه الطويلة فى حاجة نفسه ولا يذكر طاعة الله إلا هزيلا كبيراً مشرفا على الزوال، ويتحسر كل التحسر أن مضت أيام الشباب لهواً ولعباً، ويطلب من الله العفو والصفح، فى أبيات لو لم يكن لأبى نواس غيرها فى ميدان الادب، وميدان العمل الصالح، لكفته ؛

دب فى السقام علواً وسفلا وأرانى أموت عضواً فعضواً
لهف نفسى على ليالى وأيا م تجاوزتهن لعباً ولهواً
قد أسأنا كل الأساءة فاللا هم صفحا عنا، وغفراً وعفواً
ذهبت جدتى بطاعة نفسى وتذكرت طاعة الله نضوا

وبعد قليل انطفأت الشعلة ، وهمد الجسم الدائب، وسكن هذا القلب الخافق، وفاضت روح أبى نواس الشاعر فى بغداد سنة ١٩٩هـ، وصعدت إلى السماء بعد صراع طويل أوله للباطل وآخره للحق . ونزاع كبير بدايته للدنيا ونهايته للآخرة

شعره وأثره فى الأدب :

كان شعر بشار برزخا بين الشعر القديم والحديث ، وجاء بعده شعر أبى نواس فى فنونه وألفاظه ومعانيه مثالا محدثا جامعا لكل ما تصوره المحدثون فى الشعر من جد وهزل وجزالة وسهولة ، فهو رأس المحدثين بعد بشار ، وأشهر من كانت له طريقة فى الجد والهزل والهجاء ، غير أن بشاراً كان لا يزال على بقية من الاحتشام والتوقر ، فلم يهتف بالخمر فى شعره إلا لماما ، ولم يعجبه الغزل بالمذكر ، ولم يسلك مسالك التأنث فى غزله مهما أسف فيه ورقق وسهل . وأبو نواس سلك طريقته فى المجون والهزل ، وركب رأسه فى الاستهتار بالمصارحة بالفسق والفجور ، وجاهر بالدعوة إلى شرب الخمر ووصفها وصفا لم يبلغه قبله شاعر لا فى جاهلية ولا إسلام ، وشذ عن مألوف العرب بصرفه التشبيب والغزل من أوصاف المؤنث إلى أوصاف المذكر وخلع العذار فى هذا الغزل وفى الخمريات، حتى أصبح مثلا لمن نشأ فى عصره أو بعده من الخلعاء والمجان ، وحتى رسخ هذا اللون من الغزل والخمريات بعد حين فى أغراض الشعر .

وكان أبو نواس فى مدائح الخلفاء وأهل الجد والتوقر من الوزراء والولاة والقواد يفخم الألفاظ ويتخيرها ويجيد رصفها ، ويكثر من الغريب فيها ، ويسلك غالباً مسلك القدماء فى تقديم النسيب على طريقة العرب ، ووصف الرحلة إلى الممدوح ،وإن ثار أحيانا على هذه الطريقة ، فدعا إلى افتتاح القصائد بوصف الخمر

وكان فى طردياته أعرابيا فى شملة لا يصدق من يقرؤها أنها صادرة من حضرى خليع مثل أبى نواس

والمشهور عنه فى قصائده البليغة أنه كان يقولها طويلة ثم ينحى عليها بحذف الردىء والمكرر وبالتهذيب والتثقيف حتى تصير كلها عيونا ، فهو من أمثال زهير والحطيئة والأخطل ، ولذلك كانت قصائده الجيدة قصيرة .

وكان إذا مدح أصدقاءه ومن له عليه دالة ،راعى أسلوب الحضريين فى دماثته ولينه ورقة نسجه ، ومهد المديح بذم الديار والأطلال والنوق والجمال ودعا إلى

معاقرة المدام ومبادرة اللذات واستماع الأغانى ومباكرة الرياض ونحو ذلك . وهذه الطريقة ابتدعها أبو نواس أو كاد .

وكذلك كان يرقق القول فى المقطعات والخمريات ، ويسف إلى أن يقارب العامة فى المجونيات ويكثر فيها من الألفاظ المولدة أو الدخيلة .

وجمع أبو نواس فى شعره خلاصة من معانى شعر المتقدمين من الجاهليين والاسلاميين ، وأضاف إليها صورا جديدة من معانيه المبتكرة ومعانى الذين عاش بينهم من المحدثين الحضريين المثقفين بالحضارات والعلوم الموروثة عن أمم شتى وبالحضارة الاسلامية العربية وعلومها وآدابها ، على ما بين هؤلاء المحدثين من تباين فى الجد والهزل ، وأشهر من حاكاه منهم وصب على قوالب معانيه بشار بن برد . وأكثر معانيه المبتكرة هى فى الخمريات والغزل بالمذكر .

ولقد قال أبو نواس الشعر فى كل الأغراض ، وغلب عليه :

الغزل الماجن بالمذكر والمؤنث والتفنن فى وصف الخمر وتشبيهها والدعوة إليها والنشوة بها وذكر سقاتها وندمائها وصبوحها وغبوقها ، وتغلغل فى ذلك ما شاء .

ثم الهجاء ، وكان منه المقبول الذى سلك فيه مسلك التهكم والتنادر على المهجو ، ومنه المقذع الفاحش الذى سلك فيه مسلك العامة فى تسابها ومهاترتها ؛ فهجا الأفراد والجماعات والأمم : هجا مضر وقبائلها ، وفى هجائها حبسه الرشيد ، ثم هجا العرب وأهل باديتها منتسبا إلى كسرى . واستتبع هجوه لمضر خاصة أن افتخر باليمن ، وهجوه للعرب عامة أن افتخر بالعجم ، وانتسب إلى كسرى ، وظهر بمظهر الشعوبية ؛ وهجا نيل مصر لأنه رأى فيه تمساحا التقم رجلا .

ثم الطرد ووصف الصيد من الوحش والطير ، وآلة الصيد من الكلاب والجوارح والخيل ، وله فيه أراجيز تعد غاية فى فصاحة اللغة

ولم يكن المدح والرثاء أهم مقاصده من شعره وإن تكسب بهما ، ولكن مدحه على قلته بالاضافة إلى بقية شعره أبلغ شعره وأجوده وأرصنه ، وله فيه قصائد جاراه فيها فحول الشعراء ، ولا يزالون يعارضونها إلى اليوم .

ومن العجيب أن مثل أبى نواس فى عبثه وتماجنه يفسح للزهديات من شعره بابا واسعاً اشتمل على مقطعات ؛ منها ما هو غاية فى الباب ، وكانت جديرة أن تصدر

عن أبي العتاهية ، والحق أنه لم ينظم هذا النوع إلا مكايدة لأبى العتاهية وتفوقا عليه،وإظهارا لقدرته على النظم فى أى غرض

وأشعار الحسن بن هانىء فى الزهد كثيرة ، منها المقطوعات والقصائد ، ومنها ماجاء خالصا غير مشوب ، ومنها ما انتثر حتى فى قصائد مجونه وخمرياته ، ولقد قال أبو العتاهية : قد قلت فى الزهد عشرين ألف بيت ووددت أن لى مكانها الأبيات الثلاثة التى قالها أبو نواس :

يا نواسى توقـــر وتعـز وتصـبر
إن يكن ساءك دهر إن ما سرك أكثر
يا كبير الذنب عف والله من ذنبك أكبر

ومنها :

أعظم الأشياء من أصغر من عفو الله أصغر
ليس للانسان إلا ما قضى الله وقـــدر
ليس للمخـــلوق تدبـ ـير ، بلى الله المـــدبر

وفى كتاب ابن منظور : « قال أبو مخلد الطائى : جاء أبو العتاهية إلى عندى فقال لى : إن أبا نواس لايخالفك ، وقد أحببت أن تسأله ألا يقول فى الزهد شيئا، فإنى قد تركت له المديح والهجاء والخمر والرقيق وما فيه الشعراء ، وللزهد شوقى . فبعثت إلى أبى نواس فجاء إلى وأخذنا فى شأننا وأبو العتاهية لا يشرب النبيذ معنا، فقلت لأبى نواس : إن أبا إسحق من قد عرفت فى جلاله وتقدمه قد أحب أنك لا تقول فى الزهد شيئا ، فوجم أبو نواس عند ذلك وقال يا أبا مخلد : قطعت على ماكنت أحب أن أبلغه من هذا ، ولقد كنت على عزم أن أقول فيه ما يتوب به كل خليع ، وقد فعلت ، ولا أخالف أبا إسحق فيما ذهب إليه » .

ويروى ابن منظور (١) أن أبا العتاهية كان يقول : سبقنى أبو نواس إلى ثلاثة أبيات وددت أنى سبقته إليها بكل ما قلته فإنه أشعر الناس فيها ، منها قوله :

يا كبير الذنب عفو الله من ذنبـــك أكبر

وقوله :

---

(١) ص ٦٣ .

من لم يكن لله متهما لم يمس محتاجا إلى أحد

وقوله :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو فى ثياب صديق

ومن جد أبى نواس ما قاله يمدح الفضل بن الربيع وزير الرشيد والأمين .

لقد نزلت أبا العباس منزلة ما إن ترى خلفها الأبصار مطرحا
وكلت بالدهر عينا غير غافلة من جود كفك تأسو كل ما جرحا

وقال يمدحه أيضا :

قولا لهرون إمام الهدى عند احتفال المجلس الحاشد
أنت على ما بك من قدرة فلست مثل الفضل بالواجد
ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

وقال فى الموعظة :

ألا كل حى هالك وابن هالك وذو حسب فى الهالكين عريق
فقل لمقيم الدار إنك ظاعن إلى سفر نائى المكان سحيق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو فى ثياب صديق

وقال فى الكبير ينشأ عن الصغير ، وفى الجد يتولد من الهزل ، وفى النافع ينجم عنه ضار :

أية نار قدح القادح وأى جد بلغ المازح
لله در الشيب من واعظ وناصح لو قبل الناصح
يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ومنهج الحق له واضح

وقال فى عزة النفس ولو صدرت عن غيره لكانت به أحرى :

ومستعبد إخوانه بثرائه لبست له كبرا أبر على الكبر
إذا ضمنى يوما وإياه محفل يرى جانبى وعرا يزيد على الوعر
أخالفه فى شكله وأجره على المنطق المنزور والنظر الشزر
وقد زادنى تيها على الناس أننى أرانى أغناهم وإن كنت ذا فقر
فوالله لايبدى لسانى حاجة إلى أحد حتى أغيب فى القبر
فلا يطمعن فى ذاك منى طامع ولا صاحب التاج المحجب فى القصر
فلو لم أرث فخرا لكانت صيانتى عن الناس حسبي من سؤال من الفخر

وكان قوله : « فلا يطمعن — البت» سببا فى غضب الأمين عليه .

ومن هزله قوله فى الخمريات :

دع عنك لومى فإن اللوم إغراء ... وداونى بالتى كانت هى الداء
صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها ... إن مسها حجر مسته سراء

أراء النقاد فى شعره :

كان أبو عبيدة يقول : ذهبت اليمن بجد الشعر وهزله ، امرؤ القيس بجده وأبو نواس بهزله ، وكان يقول : ذهبت اليمن بجد الشعر فى قديمه وحديثه ، امرؤ القيس فى الأوائل وأبو نواس فى المحدثين ، وكان يقول : شعراء اليمن ثلاثة ، امرؤ القيس وحسان بن ثابت وأبو نواس ، وقال أيضا : أبو نواس فى المحدثين مثل امرىء القيس فى المتقدمين ، فتح لهم هذه الفطن ودلهم على المعانى ، وأرشدهم إلى طريق الأدب والتصرف فى فنونه ، وكان يقول : يعجبنى من شعر أبى نواس قوله .

بنينا على كسرى سماء مدامة ... مكللة حافاتها بنجوم
فلو رد فى كسرى بن ساسان روحه ... إذاً لاصطفانى دون كل نديم

وسئل يعقوب بن السكيت عما يختار روايته من أشعار الشعراء ، فقال : إذا أردت من الجاهليين ، فلامرىء القيس والأعشى ، ومن الاسلاميين فلجرير والفرزدق ، ومن المحدثين فلأبى نواس فحسب ، وقيل للعتبى : من أشعر الناس ؟ قال : عند الناس أو عندى ؟ قيل عند الناس ، قال : امرؤ القيس ، قيل : فعندك ؟ قال : أبو نواس . وقال عبد الله بن محمد بن عائشة : من طلب الأدب فلم يرو شعر أبى نواس فليس بتام الأدب ، وسئل : من أشعر المحدثين ؟ فقال الذى يقول :

كأن ثيابه أطلعـ ... ـن من أزراره قمرا
يزيدك وجهه حسنا ... إذا ما زدته نظرا
بعين خالط التفتير(١) ... من أجفانها الحورا

---

(١) التفتير : الفتور .

ووجه سابرى(١) لو تصوب ماؤه قطرا
وقد خطت حواضنه له من عنبر طررا(٢)

وقال ابراهيم بن العباس الطويل: إذا رأيت الرجل يحفظ شعر أبى نواس علمت أن ذلك عنوان أدبه ورائد ظرفه، وكان أبو نواس يقول عن نفسه: سفلت عن طبقة من تقدمنى من الشعراء وعلوت عن طبقة من معى ومن يجىء بعدى، فأنا نسيج وحدى.

وحدث جماعة من الرواة ممن شاهد أبا نواس قالوا: كان أقل ما فى أبى نواس قول الشعر، وكان لخلا راوية عالما. وقال أبو عبيدة: بلغنى أن أبا نواس يتعاطى قرض الشعر، فتلقانى وهو سكران ما طر (٣) شاربه بعد، فقلت له: كيف فلان عندك؟ فقال: ثقيل الظل جامد النسيم، فقلت: زد، فقال: مظلم الهواء منتن الفناء، فقلت زد، فقال: غليظ الطبع بارد الشكل، قلت: زد، فقال: وخم الطلعة عسر القلعة (٤)، قلت: زد، قال: ناتىء الجنبات بارد الحركات، قال: فخففت عنه، فقال: زدنى سؤالا أزدك جوابا، فقلت: كفى من القـــلادة (٥) ما أحاط بالعنق. وقال سليمان بن أبى سهل لأبى نواس: ما الذى استجيد من أجناس شعرك! فقال: أشعارى فى الخمر لم يقل مثلها، وأشعارى فى الغزل فوق أشعار الناس، وهما أجود شعرى إن لم يزاحم غزلى ماقلته فى الطرد(٦). وكان يقول: ما قلت الشعر حتى رويت لستين امرأة من العرب، منهن الخنساء وليلى فما ظنك بالرجال؟ وأنى لأروى سبعمائة أرجوزة ما تعرف. وكان قد استاذن خلفا فى نظم الشعر فقال: لا آذن لك فى عمل الشعر إلا أن تحفظ ألف مقطوع للعرب ما بين أرجوزة وقصيدة ومقطوعة، فغاب عنه مدة وحضر اليه فقال له: قد حفظتها فقال: أنشدها، فأنشده أكثرها فى عدة أيام، ثم سأله أن يأذن له فى نظم الشعر،

---

(١) سابرى منسوب إلى سابور على غير قياس وهى كورة بفارس .. يوصف به الجيد. وتصوب: تسفل. (٢) طرر جمع طرة. والحواضن جمع حاضنة وهى المربية.

(٣) طر: نبت (٤) عسر القلعة: لا يقلع إلا بصعوبة

(٥) القلادة: ما يحيط بالرقبة من الحلى، وهذا مثل

(٦) الطرد من طرد الصياد كفرح زاول الصيد، فالطرد مزاولة الصيد

فقال له : لا آذن لك الا أن تنسى هذه الألف أرجوزة كأنك لم تحفظها ، فقال له: هذا أمر يصعب على فانى قد أتقنت حفظها ، فقال له : لا آذن لك الا أن تنساها ، فذهب إلى بعض الديرة وخلا بنفسه وأقام مدة حتى نسيها ، ثم حضر فقال : قد نسيتها حتى كأن لم أكن قد حفظتها قط ، فقال له : الآن فانظم الشعر. وكان أبو نواس يقول لا أكاد أقول شعرا جيداً حتى تكون نفسى طيبة وأكون فى بستان مونق وعلى حال أرتضيها من صلة أوصل بها أو وعد بصلة ، وقد قلت وأنا على غير هذه الحال أشعاراً لا أرضاها ، كان يعمل القصيدة ثم يتركها أياما ثم يعرضها على نفسه فيسقط كثيرا منها ويترك صافيها ولا يسره كل ما يقذف به خاطره ، وكان يهمه الشعر فى الخمر فلا يعمله إلا فى وقت نشاطه ، ولم يكن فى الشعر لا بالبطىء ولا بالسريع بل كان فى منزلة وسطى . وكان الأصمعى يقول : يعجبنى من شعر الشاعر بيت واحد قد أجاد قائله وهو :

ضعيفة كر الطرف تحسب أنها   قريبة عهد بالافاقة من سقم

وانى لآتى الأمر من حيث يتقى   ويعلم سهمى حين أنزع(١) من أرمى

وقال العتابى لرجلين تناظرا فى شعر أبى نواس. والله لو أدرك الخبيث الجاهلية مافضل عليه أحد. وقال أبو عمرو الشيبانى : أشعر الناس فى وصف الخمر ثلاثة: الأعشى(٢) والأخطل وأبو نواس : قال محمد بن عمر لم يكن شاعر فى عصر أبى نواس إلا وهو يحسده لميل الناس اليه وشهوتهم لمعاشرته وبعد صيته وظرف لسانه : وقال أبو حاتم سئل أبو نواس عن شعره فقال : إذا أردت أن أجد قلت مثل قصيدى : « أيها المنتاب عن عفره »، وإذا أردت العبث قلت مثل قصيدى : طاب الهوى لعميده » ، فأما الذى أنا فيه وحدى وكله جيد فاذا وصفت الخمر . وقال أبو ذكوان كنا عند التوزى فذكرت عنده أبا نواس فوضع منه بعض الحاضرين ، فقال له التوزى : أتقول هذا لرجل يقول :

---

(١) نزع بالسهم كضرب : رمى

(٢) الأعشى : شاعر جاهلى مشهور

يخافه الناس ويرجونه كأنه الجنة والنار

ويقول :

وما فاته جود ولا حل دونه ولكن يصير الجود حيث يصير

ويقول :

فتمشت في مفاصلهم كتمشى البرء في السقم

وقال ابن الأعرابي يوما لجلسائه : ما أشعر ما قال أبو نواس في الخمر؟ فقال بعضهم :

إذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل في داج من الليل كوكبا

وقال آخر :

كأن كبرى وصغرى من فقاقعها حصباء در على أرض من الذهب

وقال آخر :

فكأن الكئوس فينا نجوم دائرت بروجها أيدينا

وقال آخر :

صفراء لا تنزل الأحزان ساحتها لو مسها حجر مسته سراء

فقال ابن الأعرابي : إن هذا كله لشاعر انفرد بالاحسان فيه ، وتقدم من سبقه ومن تأخر عنه ، ولكنه أشعر من هذا كله في قوله :

لا ينزل الليل حيث حلت فدهر شرابها نهار

قال مسلم بن بهرام : لقيت أبا العتاهية فقلت له : من أشعر الناس ! قال: تريد جاهليها أو إسلاميها أو مولدها ؟ قال : كلا أريد ، قال الذى يقول في المديح .

إذا نحن أثنينا عليك بصالح فأنت كما نثنى وفوق الذى نثنى

وإن جرت الألفاظ يوما بمدحة لغيرك إنسانا فأنت الذى نعنى

والذى يقول في الزهد :

ألا رب وجه فى التراب عتيق ويارب حسن فى التراب رقيق
ويارب حزم فى التراب ونجدة ويا رب رأى فى التراب وثيق
فقل لقريب الدار إنك راحل إلى منزل نائى المحل سحيق (١)
وما الناس إلا هالك وابن هالك وذو نسب فى الهالكين عريق
إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو فى ثياب صديق

وكان يقول : سبقنى أبو نواس إلى ثلاثة أبيات وددت أنى سبقته اليها بكل ما قلته فانه أشعر الناس فيها ، منها قوله :

يا كبير الذنب عفو الله من ذنبك أكبر

وقوله :

من لم يكن لله متهما لم يمس محتاجا إلى أحد

وقوله :

إذا امتحن الدنيا لبيب تكشفت له عن عدو فى ثياب صديق

ثم قال : قلت فى الزهد ستة عشر ألف بيت وددت أن أبا نواس له ثلثها بهذه الأبيات. وقال الجاحظ: سمعت النظام يقول ـ وقد أنشد شعرا لأبى نواس ـ كأن هذا الفتى جمع له الكلام فاختار أحسنه . وقال بعضهم : كأن المعانى حبست عليه فأخذ حاجته وفرق الباقى على الناس . وقال أبو حاتم : كانت المعانى مدفونة حتى أثارها أبو نواس. وورد على العتابى بحلب عدة من الكبار من أهل قنسرين (٢) فدخلوا وسلموا وكان فى يده رقعة ينظر إليها ، فقال لهم : لقد سلك صاحب هذه الرقعة واديا ما سلكه أحد قبله ، فنظروا فاذا هو شعر أبى نواس فى جنان وهو قوله :

ربع الكرى بين الجفون محيل (٣) عفى عليه بكى عليك طويل
يا ناظراً ما أقلعت لحظاته حتى تشحط (٤) بينهن قتيل

---

(١) سحيق : بعيد من سحق ككرم وفرح
(٢) كورة بالشام منها حلب . (٣) محيل : أتت عليه أحوال أى سنون .
(٤) تشحط بالدم : تضرج به .

وقال أبو عبد الرحمن الضرير : رأيت مسلم بن الوليد بجرجان وهو يتولاها فسألنى عمن خلفت من الشعراء ، فقلت له : أما من الكوفيين فأبو نواس وهو مقدم عندهم ، فقال : ويحك ! كيف يتقدم وهو يقول : رويدك يا إنسان لا أنت تقفز، أرأيت قوله «تقفز» خرجت من بين فكى شاعر قط ؟ ثم قال : ويلك ! وكيف يكون كذلك وهو يحيل(١) ويتخطى من صفة المخلوق إلى صفة الخالق ؟ فقلت : مثل ماذا من قوله ؟ قال : أما فيما أحال ، فكقوله :

وأخفت أهـــل الشرك حتى إنه لتخافك النطف التى لم تخـــلق

وهذا من الاغراق المستحيل فى العقول ومما ليس على مذهب القوم ، وأما فى تخطيه بصفة المخلوق إلى صفة الخالق فكقوله :

يجل أن تلحق الصفات به فــــكل خلق لخلقه مثل

وكقوله :

برىء من الأشباه ليس له مثل

ومما قيل عن أبى نواس : إن الشعر إنما هو بين المدح والهجاء وأبو نواس لايحسنهما ، وأجود شعره فى الخمر والطرد ، وأحسن ما فيهما مأخوذ ليس له وإنما سرقه ، وحسبك من رجل يريد المعنى ليأخذه فلا يحسن أن يبنى عليه حتى يجىء به قبيحا مثل قوله: ودوانى بالتى كانت هى الداء، أخذه من قول الأعشى: وأخرى تداويت منها بها، والذى أخذه منه أحسن ، ومنها أيضا قوله: إن الشباب مطية الجهل، أخذه من قول النابغة الجعدى : فان مطية الجهل الشباب، وقوله: كطلعة الأشمط من إهابه(٢) أخذه من قول أبى النجم كطلعة الأشمط من كسائه ولكن رزق أبو نواس فى شعره أن سار وحمله الناس وقدمه أهل عصره ، وان له على ذلك لأشياء حسانا لايدفعها ولا يطرحها إلا جاهل بالكلام أو حاسد .

وتوفى أبو نواس عام ١٩٨ هـ أو ١٩٩ هـ عن ٥٩ سنة .

---

(١) يحيل : يأتى بالمحال .

(٢) الإهاب: الجلد

أبو العتاهية

١٣٠ — ٢١٣ هـ

هو أبو اسحاق إسماعيل بن القاسم بن سويد بن كيسان العنزى بالولاء، المعروف بأبي العتاهية الشاعر المشهور، ولد سنة ١٣٠ هـ — ٧٤٨ م بعين التمر؛ قيل لما غزا خالد بن الوليد عين التمر سبي كيسان مع جماعة من صبيان أهلها فوجههم إلى أبي بكر فوصلوا إليه وبحضرته عباد بن رفاعة العنزى فجعل أبو بكر يسأل الصبيان عن أنسابهم حتى أتى على كيسان فذكر له أنه من عنزة فلما سمعه عباد استوهبه من أبي بكر فأوهبه له فاعتقه فتولى عنزة. وكان أبو اسماعيل القاسم حجاماً من أهل درجة ولذلك كان أبو العتاهية يقول لمن عيره فى نسبه :

إلا إنما التقوى هى العز والكرم وحبك للدنيا هو الفقر والعدم
وليس على عبد تقى نقيصة إذا صحح التقوى وإن حاك أو حجم

ونشأ أبو العتاهية بالكوفة وكان هو وأهله يعملون الجرار الخضر ويبيعونها، وقيل بل إن عبيد زيد أخيه كانت تعمل له الخزف والجرار وكان زيد يبيعها ويوردون شهادة على ذلك قول أبي العتاهية : أنا جرار القوافى وأخى جرار التجارة »، وكان على ما يحكى رجلا نظيفاً أبيض اللون أسود الشعر له وفرة وجعدة وهيئة حسنة ولباقة وحصافة ، وكنى بأبي العتاهية لأنه كان يحب الشهوة والمجون والتعته ، قيل إن الخليفة المهدى قال له يوما « أنت متحذلق متعته » ،فاستوت له كنية وسارت له فى الناس . . وشعر أبي العتاهية لطيف المعانى سهل الألفاظ قليل التكلف إلا أنه كثير الساقط والمرذول ، كان الأصمعى يقول : « شعر أبي العتاهية كساحة الملوك فيها الجوهر والذهب والتراب والخزف والنوى » وأكثر شعره فى الزهد والأمثال ، قال المبرد « أبو العتاهية حسن الشعر قريب المأخذ ، لشعره ديباجة ويخرج القول كمخرج النفس قوة وسهولة واقتداراً » ، وكان أبو العتاهية يقول « لو شئت أن أجعل كلامى كله شعراً لفعلت » . وامتدح أبو العتاهية الخليفة

المهدى وكان يحضر ناديه وينال بره وتعرف بجاريته عتبة وأخذ يذكرها فى شعره ، فغضب المهدى لذلك وأمر بحبسه فكتب إليه يستعطفه :

ألا أيها الملك المرجى عليه نواهض الدنيا تحوم
اقلنى ذلة لم أجر منها إلى لوم ولا مثلى ملوم
وخلصنى تخلص يوم بعث إذا للنار برزت الجحيم

فرق له وأمر باطلاق سراحه . ولما بويع الهادى استخفى أبو العتاهية خوفا منه وكان الهادى ينقم عليه لملازمته أخاه هارون ثم أنفذ إليه رقعة فيها :

ألا شافع عند الخليفة يشفع فيدفع عنا شر ما نتوقع
يردعنى موسى على غير عثرة ومالى أرى موسى من العفو أوسع

فأرسل إليه الهادى أماناً وأمر له بمال ولم يزل عنده مكرماً حتى توفى وتولى الأمر هرون الرشيد فدخل عليه وامتدحه بقصيدة غراء :

جرى لك من هارون بالسعد طائره أمام اعتزام لا تخاف بوادره

وكان لا يفارق الرشيد فى سفر ولا حضر وكان الخليفة يجرى عليه فى كل سنة خمسين ألف درهم ولما قدم الرشيد من الرقة لبس أبو العتاهية الصوف وتزهد ، وكان أبو العتاهية شديد البخل ، وحدث ثمامة قال دخلت يوماً إلى أبى العتاهية فإذا هو يأكل خبزاً بلا شىء فقيل له وكيف ذلك فقال رأيت قدامه خبزاً يابساً من رقاق فطير وقدحا فيه لبن حليب فكان يأخذ القطعة من الخبز فيغمسها فى اللبن ويخرجها فلا تتعلق منه بقليل ولا كثير فقلت له كأنك اشتهيت أن تتأدم بلا شىء وما رأيت أحداً قبلك يتأدم بلا شىء . ويحكى عن بخل أبى العتاهية حكايات غريبة غير هذه ولكنه كان يقول فى شعره عكس ما يفعل ومنه :

إذا المرؤ لم يعتق من المال نفسه تملكه المال الذى هو مالكه
ألا إنما مالى الذى أنا منفق وليس لى المال الذى أنا تاركه
إذا كنت ذا مال فبادر به الذى يحق وإلا استهلكته مهالكه

وعاش أبو العتاهية إلى أيام المأمون وامتدحه ثم عاد إلى زهده وانقطع عن أصحابه إلى أن مرض مرضه الذى توفى فيه ، واختلف فى سنة وفاته والراجح أنه مات سنة ٢١٣ هـ ودفن حيال قنطرة الزياتين فى الجانب الغربى ببغداد وكان أمر أن يكتب على قبره :

أذن حى تسمعى   اسمعى ثم عى عى
أنا رهن بمضجعى   فاحذرى مثل مصرعى
عشت تسعين حجة   اسلمتنى لمضجعى
ثم ترى الحى ثابتاً   فى ديار التزعزع
ليس زاد سوى التقى   فخذى منه أو دعى

وقال محمد (١) بن أمية : كنت جالساً بين يدى إبراهيم بن المهدى ، فدخل إليه أبو العتاهية ، وقد تنسك ولبس الصوف ، وترك قول الشعر إلا فى الزهد . فرفعه إبراهيم وسر به ، وأقبل عليه بوجه . فقال له أبو العتاهية : أيها الأمير ؛ بلغنى خبر فتى فى ناحيتك ومن مواليك يعرف بابن أمية ، يقول الشعر ، وأنشدت له شعراً فأعجبنى ، فما فعل ؟ فضحك إبراهيم ، ثم قال : لعله أقرب الحاضرين مجلساً منك . فالتفت إلى فقال : أنت هو ؟ فديتك ! فتشورت (٢) وخجلت ، وقلت له : أنا محمد بن أمية جعلت فداءك ! وأما الشعر فإنما أنا شاب أعبث بالبيت والبيتين والثلاثة كما يعبث الشاب . فقال لى : فديتك ! ذاك والله زمان الشعر وإبانه ، وما قيل فيه فهو غرره وعيونه . وما زال ينشطنى ويؤنسنى حتى رأى أنى قد أنست به ، ثم قال لإبراهيم بن المهدى : إن رأى الأمير — أكرمه الله — أن يأمره بإنشادى ما حضر من الشعر ! فقال إبراهيم : بحياتى يا محمد أنشده ، فأنشدته.

رب وعد منك لا أنساه لى   أوجب الشكر وإن لم تفعل
أقطع الدهر بظن حسن   وأجلى غمرة ما تنجلى
كلما أملت يوما صالحاً   عرض المكروه لى فى أملى
وأرى الأيام لا تدنى الذى   أرتجى منك وتدنى أجلى

فبكى أبو العتاهية حتى جرت دموعه على لحيته ، وجعل يردد البيت الأخير منها وينتحب ، وقام فخرج وهو يردده ويبكى ، حتى خرج إلى الباب !

وقال أبو العتاهية (٣) . حبسنى الرشيد لتركى الشعر ، وغلقت على الأبواب ،

---

(١) الأغانى ص ٣٠ ج ١١ ، وكان محمد بن أمية . كاتبا شاعرا ظريفا ، نديما لإبراهيم بن المهدى . (٢) تشور . فعل ما يستحيا منه فى الأصل ، والمراد هنا الخجل . (٣) الطبرى ص ٩٢ ج ٤ ، بدائع البدائع ص ١٥١ ج ١

فبقيت دهشاً كما يدهش مثلى لتلك الحالى ، فنظرت فإذا رجل جالس فى جانب السجن وهو مقيد ، فجعلت أنظر إليه ساعة ، فتمثل بقوله :

تعودت حسن الصبر حتى ألفته فأسلمنى حسن العزاء إلى الصبر
وصيرنى يأسى من الناس راجيا لحسن صنيع الله من حيث لا يدرى

فقلت له : أعد ـ أعزك الله ـ هذين البيتين ، فقال لى : ويلك يا أبا العتاهية ! ما أسوأ أدبك ! وأقل عقلك ! دخلت على السجن فما سلمت تسليم المسلم على المسلم ، ولا سألت مسألة الحر للحر ، ولا توجعت توجع المبتلى للمبتلى ، حتى إذا سمعت بيتين من الشعر الذى لا فضيلة فيك سواه لم تصبر عن استعادتهما ، ولم تقدم قبل مسألتك عنهما عذراً لنفسك فى طلبهما ! فقلت : يا أخى ، إنى دهشت من هذه الحال فلا تعذلنى واعذرنى متفضلا ، فقال : أنا والله بالدهش والحيرة أولى منك ؛ لأنك حبست على أن تقول الشعر الذى به ارتفعت وبلغت ما بلغت ، وإذا قلته أمنت ، وأنا حبست على أن أدل على ابن رسول الله ليقتل أو أقتل دونه ، ووالله لا أدل عليه أبداً ، والساعة يدعى بى فأقتل ، فأينا أحق بالدهش ؟ فقلت ؛ أنت والله أولى ، سلمك الله وكفاك ، ولو علمت أن هذه حالك ما سألتك ، فقال ؛ إذن لا أبخل عليك ، ثم أعاد على البيتين حتى حفظتهما ، وأجزتهما بقولى :

إذا أنا لم أقبل من الدهر كل ما تكرهت منه طال عتبى على الدهر

ثم سألته عن اسمه ، فقال : أنا أبو حاضرة ، داعية عيسى بن زيد وابنه أحمد . قال : فلم نلبث إلا قليلا حتى سمعنا صوت الأقفال ، فقام ، فسكب عليه ماء من جرة كانت عنده ، ولبس ثوبا نظيفا ، ودخل الحرس ومعهم الشموع ، فأخرجونا جميعا ، وقدم قبلى إلى الرشيد ، فسأله عن أحمد بن عيسى ، فقال : لا تسألنى عنه . وافعل ما بدا لك ، فلو أنه تحت ثوبى ما كشفت عنه ، فامر به فضربت عنقه ، ثم قال لى : أظنك يا أبا إسماعيل ارتعت ، فقلت : دون ما رأيته تسيل منه النفوس ، فقال : ردوه إلى محبسه ، فردونى !

وجلس المهدى للشعراء (١) يوما فاذن لهم ، وفيهم بشار وأشجع ، وكان أشجع يأخذ عن بشار ويعظمه ، وكان فى القوم غير هذين أبو العتاهية ، قال أشجع

---

(١) الأغانى ص ٣٣ ج ٤

فلما سمع بشار كلام أبي العتاهية قال : يا أخا سليم ، أهذا ذلك الكوفى الملقب ؟ قلت : نعم ! قال : لا جزى الله خيراً من جمعنا معه . ثم قال له المهدى : أنشد ، فقال : ويحك ! أو يستنشد أيضا قبلنا ؟ ! فقلت : كما ترى ، فانشد :

ألا ما لسيدتى مالها أدلا فأحمل إدلالها
وإلا ففيم تجنت وما جنيت ! سقى الله أطلالها
ألا إن جارية للاما م قد أسكن الحسن سربالها
مشت بين حور قصار الخطا تجاذب فى المشى أكفالها
وقد أتعب الله نفسى بها وأتعب باللوم عذالها

قال أشجع : فقال لى بشار : ويحك يا أخا سليم ! ما أدرى من أى أمريه أعجب : أمن ضعف شعره ، أم من تشبيبه بجارية الخليفة ، وهو يسمع ذلك باذنه. حتى أتى على قوله :

أتته الخلافة منقادة إليه تجرر أذيالها
فلم تك تصلح إلا له ولم يك يصلح إلا لها

قال اشجع : فقال لى بشار وقد اهتز طربا ، ويحك اترى الخليفة لم يطر عن فراشه

ودخل الفراء على جعفر بن يحي ، فقال له : أزعم أن أبا العتاهية أشعر أهل هذا العصر، فقال : هو والله أشعرهم عندى .وقيل لداود بن زيد الشاعر: من أشعر أهل زمانه ؟ فقال : أبو نواس، قيل له : فما تقول فى أبى العتاهية ؟ قال: هو أشعر الإنس والجن (١) . وقال ابن الأعرابى : والله ما رأيت شاعراً قط أطبع ولا أقدر على بيت من أبى العتاهية ، وما أحسب مذهبه إلا ضرباً من السحر (٢) ويروى أن أبا العتاهية قال : قرأت البارحة «عم يتساءلون» ، ثم قلت قصيدة أحسن منها (٣) ، وكذب أبو العتاهية فما يدرك إنسان بلاغة القرآن الكريم ولو حاول المستحيل ، وقال الأصمعى : شعر أبى العتاهية كساحة الملوك يقع فيها الجوهر والذهب والتراب والخزف والنوى (٤)، وقال أبو حاتم : كان أصحابنا يقولون : لو أن شعر أبى العتاهية بجزالة لفظ لكان أشعر الناس (٥)، وقيل لأبى نواس : والله

(١) ص ٣/١٢٢ الأغانى (٢) ٣/١٢٧ المرجع .
(٣) ٣/١٣٧ الأغانى
(٤) ٣/١٤٠ الأغانى (٥) ٣/١٥٢ المرجع

والله لأنت أشعر من أبى العتاهية ، فقال : والله ما رأيته قط إلا ظننت أنه سماء وأنى أرض (١) ، وقيل لبشار : من أشعر أهل زماننا ؟ فقال مخنث أهل بغداد يعنى أبا العتاهية .

ويروى أن أباالعتاهية وابراهيم الموصلى وأباعمروالشيبانى توفوا فى يوم واحد من خلافة المأمون وذلك سنة ٢١٣ ﻫ (٢) .

أبو دلامة

المتوفى سنة ١٦١ ﻫ

هو زند بن الجون ، شاعر مطبوع من أهل الظرف والدعابة ، أسود اللون ، نشأ فى الكوفة واتصل بالخلفاء من بنى العباس ، فكانوا يستلطفونه ويغدقون عليه صلاتهم ، وله فى ذلك أخبار كثيرة ، وتوفى عام ١٦١ ﻫ .

قال أبو دلامة(٣) : أتى بى إلى المنصور وأنا سكران ؛ فحلف ليخرجنى فى بعث حرب ؛ فأخرجنى مع روح بن حاتم المهلبى لقتال الشراة(٤) . فلما التقى الجمعان ، قلت لروح : أما والله لو أن تحتى فرسك ، ومعى سلاحك ،لأثرت فى عدوك اليوم أثراً ترتضيه . فضحك وقال : لأدفعن ذلك إليك ، ولآخذنك بالوفاء بشرطك ؛ ونزل عن فرسه ، ونزع سلاحه ، ودفعهما إلى ودعا بغيرهما . فلما حصل ذلك فى يدى ، وزالت عنى حلاوة الطمع ، قلت له : أيها الأمير ؛ هذا مقام العائذ بك ، وقد قلت بيتين فاسمعهما ، قال : هات ؛ فأنشدته :

إنى استجرتك أن أقدم فى الوغى ... لتطاعن وتنازل وضراب
فهب السيوف رأيتها مشهورة ... فتركتها ومضيت فى الهراب
ما ذا تقول لما يجىء وما يرى ... من واردات الموت فى النشاب(٥)؟

فقال : دع عنك هذا وستعلم ، وبرز رجل من الخوارج يدعو للمبارزة . فقال : اخرج إليه يا أبا دلامة ! فقلت : أنشدك الله أيها الأمير فى دمى ! قال : والله

---

(١) ٣/١٥٦ (٢) ٣/١٧٥ الأغانى
(٣) الأغانى ص ٢٤٣ ج ١٠ ، نهاية الأرب ص ٤٠ ج ٤ ، معاهد التنصيص ص ٢١٢ ج ٢ (٤) الشراة : هم الخوارج . (٥) النشاب السهم .

لتخرجن . فقلت : أيها الأمير فإنه أول يوم من الآخرة ، وآخر يوم من الدنيا ، وأنا والله جائع ما شبعت منى جارحة من الجوع ، فمر لى بشىء آكله ثم أخرج ! فأمر لى برغيفين ودجاجة ، فأخذت ذلك وبرزت عن الصف . فلما رآنى الشارى أقبل نحوى ، وعليه فرو ، قد أصابه المطر فابتل ، وأصابته الشمس فاقفعل(١) ، وعيناه تقدان ، فأسرع إلى . فقلت له : على رسلك يا هذا كما أنت ! فوقف . فقلت : أتقتل من لا يقاتلك ؟ قال : لا . قلت : أتقتل رجلا على دينك ؟ قال : لا . قلت : أفتستحل ذلك قبل أن تدعو من تقاتله إلى دينك ؟ قال : لا ، فاذهب عنى إلى لعنة الله ! قلت : لا أفعل أو تسمع منى . قال : قل . قلت : هل كانت بيننا قط عداوة أو ترة ؟ أو تعرفنى بحال تحفظك على ! أو تعلم بين أهلى وأهلك وتراً ؟ قال : لا ، والله . قلت : ولا أنا والله لك إلا على جميل الرأى ، وإنى لأهواك ، وأنتحل مذهبك ، وأدين دينك ، وأريد السوء لمن أراده لك . قال : ياهذا جزاك الله خيراً فانصرف . قلت : إن معى زاداً أحب أن آكله معك ، وأحب مواكلتك لتتأكد المودة بيننا ، ويرى أهل العسكر هوانهم علينا . قال : فافعل . فتقدمت إليه حتى اختلفت أعناق دوابنا ، وجمعنا أرجلنا على معارفها ، والناس قد غلبوا ضحكا ! فلما استوفينا ودعنى . ثم قلت له : إن هذا الجاهل — إن أقمت على طلب المبارزة — ندبنى إليك فتتعبنى وتتعب ، فإن رأيت ألا تبرز اليوم فافعل . قال : فعلت . ثم انصرف وانصرفت . فقلت لروح : أما أنا فقد كفيتك قرنى ! فقل لغيرى أن يكفيك قرنه كما كفيتك . فأمسك ! وخرج آخر يدعو إلى البراز فقال لى : اخرج إليه . فقلت :

إنى أعوذ بروح أن يقدمنى	إلى البراز فتخزى بى بنو أسد
إن البراز إلى الأقران أعلمه	مما يفرق بين الروح والجسد
قد حالفتك المنايا إذ صمدت لها	وأصبحت لجميع الخلق بالرصد
إن المهلب حب الموت أورثكم	وما ورثت اختيار الموت عن أحد
لو أن لى مهجة أخرى لجدت بها	لكنها خلقت فرداً فلم أجد

فضحك وأعفانى !

---

(١) اقفعل : تقبض .

ودخل أبو دلامة(١) على المهدى وعنده عيسى بن موسى ، والعباس بن محمد ، وناس من بنى هاشم ، فقال المهدى : يا أبا دلامة . قال : لبيك يا أمير المؤمنين ! قال : اهج من شئت ممن ضمه هذا المجلس ولك الجائزة ، فنظر فى القوم فلم ير إلا شريفا قريبا من المهدى . فقال : أنا أحد من بالمجلس ثم أنشد !

ألا أبلغ إليك أبا دلامه فليس من الكرام ولا كرامه
إذا لبس العمامة كان قرداً وخنزيراً إذا نزع العمامه
جمعت دمامة وجمعت لؤما كذاك اللؤم تتبعه الدمامه
فان تك قد أصبت نعيم دنيا فلا تفرح فقد دنت القيامه

فضحك المهدى ، وسر القوم إذ لم يسىء إلى أحد منهم ، ثم قال له المهدى : تمن . فقال : يا أمير المؤمنين ؛ تأمر لى بكلب صيد . فسبه وقال : ما تصنع به ؟ فقال : الحاجة لى أم لك ؟ فقال : صدقت أعطوه كلبا . فأعطى . فقال : يا أمير المؤمنين ، لا بد لهذا الكلب من كلاب (٢) . فأمر له بغلام مملوك ، فقال : يا أمير المؤمنين ؛ أويتهيأ لى أن أصيد راجلا ؟ فقال : أعطوه دابة . فقال : ومن يسوس الدابة ؟ فقال : أعطوه غلاما سائسا . فقال : ومن ينحر الصيد ويصلحه ؟ فقال : أعطوه طباخا . فقال : ومن يأويهم ؟ فقال : أعطوه داراً فبكى أبو دلامة وقال : ومن يمون هؤلاء كلهم ؟ فقال : يكتب له بمائة جريب(٣) عامرة ، ومائتى جريب غامرة . فقال : وما الغامرة ؟ قال : التى لانبات فيها . قال : فأنا أعطيك مائتى ألف جريب من فيافى بنى أسد ! فضحك وقال : ماتريد ؟ قال : بيت المال . قال : على أن أخرج المال منه . قال : فإذن يصير غامراً ، فاستفرغ ضحكا وقال : اذهب فقد جعلتها لك كلها عامرة ، فقال : ياأمير المؤمنين ، ائذن لى أن أقبل يدك ، قال : أماهذه فدعها ، فقال : والله ماتمنع عيالى شيئاً أهون عليهم منها ! فناوله يده فقبلها .

ويروى أن أبو دلامة (٤) شرب فى بعض الحانات (٥) ؛ فمشى ، وهو يميل ؛

---

(١) ذيل زهر الآداب ص ٨٩ ، مهذب الأغانى ص ٢٠ ج ٩ ، المستطرف ص ٨٦ ج ١ ، المحاسن والمساوىء ص ٢٨٧ طبع ليبزج ، ذيل زهر الآداب ص ٩٠ ، الأغانى ص ٢٥٨ ج ١٠ (٢) الكلاب : صاحب الكلاب . (٣) الجريب : المزروعة

(٤) نهاية الأرب ص ٤٢ ج ٤ ، الأغانى ص ٢٥١ ج ١٠ طبعة دار الكتب.

(٥) الحانات : المواضع التى تباع فيها الخمور

فلقيه العسس فأخذوه ، فقيل له : من أنت ؟ ومادينك ؟ فقال :

دينى على دين بنى العباس ماختم الطين على القرطاس
إذا اصطبحت أربعا بالكاس فقد أدار شربها براسى
فهل بماقلت لكم من باس

فأخذوه وخرقوا ثيابه وساجه (١) ، وأتى به إلى أبى جعفر ، فأمر بحبسه مع الدجاج فى بيت ؛ فلما أفاق جعل ينادى غلامه مرة ، وجاريته أخرى ، فلا يجيبه أحد ؛ وهو مع ذلك يسمع صوت الدجاج وزقاء (٢) الديوك ، فلما أكثر قال له السجان : ماشأنك ؟ قال : ويلك ! من أنت ؟ وأين أنا ؟ قال : فى الحبس وأنا السجان ، قال : ومن حبسنى ؟ قال أمير المؤمنين ، قال : ومن خرق طيلسانى ؟ قال : الحرس ، فطلب أن يأتيه بدواة وقرطاس ، ففعل ، فكتب إلى أبى جعفر المنصور يقول :

أمير المؤمنين فدتك نفسى علام حبستنى وخرقت ساجى
أمن صهباء (٣) صافية المزاج كأن شعاعها لهب السراج
وقد طبخت بنار الله حتى لقد صارت من النطف (٤) النضاج
تهش لها القلوب وتشتهيها إذا برزت ترقرق فى الزجاج
أقاد إلى السجون بغير جرم كأنى بعض عمال الخراج
فلو معهم حبست لكان سهلا ولكنى حبست مع الدجاج
وقد كانت تخبرنى ذنوبى بأنى من عقابك غير ناجى
على أنى ـ وإن لاقيت شرا ـ لخيرك بعد ذاك الشر راجى

فاستدعاه المنصور ، وقال : أين حبست ياأبا دلامة ؟ قال : مع الدجاج ! قال : فما كنت تصنع ؟ قال : أقوقىء (٥) إلى الصباح ، فضحك وخلى سبيله ، وأمر له بجائزة ، فلما خرج قال له الربيع : إنه شرب الخمر يا أمير المؤمنين ! أماسمعت قوله : وقد طبخت بنار الله ـ يعنى الشمس ـ فأمر برده ، ثم قال : ياخبيث ؛ شربت الخمر قال : لا ، قال : أفلم تقل : طبخت بنار الله ـ تعنى الشمس ؟ قال : لا ، والله ماعنيت إلا نار الله الموقدة التى تطلع على فؤاد الربيع ! فضحك المنصور ، وقال : خذها ياربيع ، ولا تعاود التعرض له .

---

(١) الساج : الطيلسان الأخضر أو الأسود (٢) زقاء الديك : صياحه .
(٣) الصهباء : الخمر (٤) النطف : الماء الصافى قل أو كثر (٥) أقوقىء : أصيح

وقال أيوب الموريانى لأبى جعفر (١) وكان يشنأ أبا دلامة : إن أبا دلامة معتكف على الخمر ، فما يحضر صلاة ولا مسجدا ، وقد أفسد فتيان العسكر ، فلو أمرته بالصلاة معك لأجرت فيه وفى غيره من فتيان عسكرك بقطعه عنهم . فلما دخل عليه أبو دلامة قال له ماهذا المجون الذى يبلغنى عنك ؟ فقال ياأمير المؤمنين ، ماأنا والمجون وقد شارفت باب قبرى ! قال دعنى من استكانتك وتضرعك ، وإياك أن تفوتك صلاة الظهر والعصر فى مسجدى ، فلئن فاتتاك لأحسنن أدبك ولأطيلن حبسك ! فوقع فى شر ، ولزم أياما ثم كتب قصته ودفعها إلى المهدى فأوصلها إلى أبيه ، وكان فيها :

ألم تعلما أن الخليفة لزنى (٢)	بمسجده والقصر ، مالى وللقصر !
أصلى به الأولى جميعا وعصرها	فويلى من الأولى وويلى من العصر
أصليهما بالكره فى غير مسجدى	فمالى فى الأولى ولا العصر من أجر
لقد كان فى قومى مساجد جمة	ولم ينشرح يوماً لغشيانها صدرى
يكلفنى من بعد ما شبت خطة	يحط بها عنى الثقيل من الوزر
وما ضره ـ والله يغفر ذنبه ـ	لو أن ذنوب العالمين على ظهرى

فقال قد أعفيناك من هذه الحال على أن تصلى فى مسجد قبيلتك ولكن على ألا تدع القيام معنا فى ليالى شهر رمضان فقد أظل (٣) فقال أفعل قال فإنك إن تأخرت لشرب الخمر علمت ذلك والله لئن فعلت لأحدنك (٤) فقال أبو دلامة : البلية فى شهر أخف منها فى طول الدهر سمعاً وطاعة ! فلما حضر شهر رمضان لزم المسجد وكان المهدى يبعث إليه فى كل ليلة حرسيا يجىء به فشق ذلك عليه وفزع إلى الخيزران وإلى أبى عبيد الله (٥) وكل من يلوذ بالمهدى ليشفعوا له فى الإعفاء من القيام فلم يجبهم، فقال له أبو عبيد الله (٥) الدال على الخير كفاعله فكيف شكرك ؟ قال أتم شكر، قال عليك بريطة (٦)، فانه لايخالفها قال صدقت ثم رفع إليها رقعة ، يقول فيها :

---

(١) مهذب الأغانى ص٣٣ ج ٩ ، الأغانى ص ٢٤٦ ج ١٠ ، ذيل زهر الآداب ص ٩١ (٢) اللز ـ لزوم الشىء بالشىء وإلزامه به

(٣) أظل : قرب وأشرف (٤) حده : أقام عليه الحد (٥) هو أبو عبيد الله معاوية بن عبيد الله ، كان من رجالات المنصور ثم المهدى

(٦) ربطة ، هى ابنة الخليفة أبى العباس وزوج المهدى

أبلغا ريطة أنى　　كنت عبدا لأبيها
فمضى يرحمه الله　　وأوصى بى إليها
وأراها نسيتنى　　مثل نسيان أخيها
جاءشهر الصوم يمشى　　مشية ما أشتهيها
قائداً لى ليلة القد　　ر كأنى أبتغيها
ولقد عشت زمانا　　فى فيافى وجيها
فى ليال من شتاء　　كنت شيخا أصطليها
قاعدا أوقد ناراً　　لضباب(١) أشتويها
وصبوح وغبوق　　فى علاب(٢) أحتسيها
ما أبالى ليلة القد　　ر ولا تسمعنيها
فاطلبى لى فرجا منهـ　　ـا وأجرى لك فيها

فلما قرأت الرقعة ضحكت، وأرسلت إليه: اصطبر حتى تمضى ليلة القدر. فكتب إليها: إنى لم أسألك أن تكلميه فى إعفائى عاما قابلا، وإذا مضت ليلة القدر فقد فنى الشهر وكتب تحتها أبياتا:

خافى إلهك فى نفس قد احتضرت　　قامت قيامتهـا بين المصلينا
ماليلة القدر من همى فأطلبها　　إنى أخاف المنايا قبل عشرينا
ياليلة القدر قد كسرت أرجلنا　　ياليلة القدر حقا ما تمنينا؟
لا بارك الله فى خير أؤمله　　فى ليلة بعد ما قمنا ثلاثينا

فلما قرأت الرقعة ضحكت، ودخلت إلى المهدى، فشفعت له إليه، وأنشدته الأبيات، فضحك حتى استلقى، ودعا به وريطة معه فى الحجلة (٣)، فدخل فأخرج رأسه إليه وقال: قد شفعنا ريطة فيك، وأمرنا لك بسبعة آلاف درهم فقال: أما شفاعة سيدتى فى حتى أعفيتنى فأعفاها الله من النار، وأما السبعة الآلاف فاما أن تتمها بثلاثة آلاف فتصير عشرة، أو تنقص منها ألفين فتصير خمسة آلاف؛ فانى لا أحسن حساب السبعة، فقال: قد جعلتها خمسة، فقال: أعيذك

(١) الضب: دويبة من الحشرات تحرص العرب على صيده وأكله وجمعه ضباب
(٢) جمع علبة، وهى قدح ضخم من جلد الابل أو من خشب يحلب فيها
(٣) الحجلة ـ بيت يزين بالثياب والأسرة والستور

بالله أن تختار أدنى الحالين ، وأنت أنت ! ثم تكلمت فيه ريطة فأتمها له عشرة آلاف درهم .

ابن وهيب

هو محمد بن وهيب الحميرى صليبة ، شاعر من أهل بغداد من شعراء الدولة العباسية وأصله من البصرة ، وله أشعار كثيرة يذكرها فيها ويتشوقها ويصف إيطانه إياها ومنشأه بها

ومن قوله يمدح المعتصم وفيه غناء :

ثلاثة تشرق الدنيا ببهجتها　　شمس الضحى وأبو إسحق والقمر
يحكى أفاعيله فى كل نائبة　　الغيث والليث والصمصامة الذكر

ومن قوله من كلمة يمدح بها الحسن بها رجاء بن الضحاك :

أجارتنا إن التعفف باليأس　　وصبراً على استدرار دنيا بإبساس(١)
حريان ألا يقذيا(٢) بمذلة　　كريماً وألا يحوجاه إلى الناس
أجارتنا إن القداح (٣) كواذب　　وأكثر أسباب النجاح مع اليأس

ودخل محمد بن وهيب على أبى دلف القاسم بن عيسى فأعظمه جداً ، فلما انصرف قال له أخوه معقل : يا أخى فعلت بهذا ما لم يستأهله ، ما هو فى بيت من الشرف ولا فى جمال من الأدب ولا بموضع من السلطان ، فقال : بلى يا أخى إنه لحقيق بذلك، أولا يستحقه ؟ وهو القائل

يدل على أننى عاشق　　من الدمع مستشهد ناطق
ولى مالك أنا عبد له　　مقر بأنى له وامق
إذا ما سموت إلى وصله　　تعرض لى دونه عائق
وحاربنى فيه ريب الزمان　　كأن الزمان له عاشق

(١) أبس الحالب بالناقة : دعاها للحلب　(٢) أقذى عينه ألقى فيها القذى
(٣) جمع قدح بالكسر وهى السهام التى يستقسم بها فيما يهم الانسان به حتى يقدم أو يحجم

ولما قدم المطلب بن عبد الله بن مالك من الحج لقيه محمد بن وهيب مستقبلا مع من تلقاه ودخل إليه مهنئاً بالسلامة بعد استقراره ، وعاد اليه فى الثانية فأنشده قصيدة طويلة مدحه بها يقول فيها

وما زلت أستدعى لك الله غائباً وأظهر إشفاقا عليك وأكتم
وأعلم أن الجود ما غبت غائب وأن الندى فى حيث أنت مخيم
إلى أن زجرت الطير سعدا سوانحاً وحم لقـــاء بالسعود مقـدم
وظل يناجينى بمدحك خاطرى وليلى بمدود الرواقين أدهم
وقالوا طواه الحج فاخشع لفقده ولا عيش حتى يستهل المحرم
سيفخر ماضم الحطيم (١) وزمزم بمطلب لو أنه يتـــكلم
ولو رد مخلوق إلى بدء خلقـه إذاً كنت جسما بينهن تقسم
سما بك منهـا كل خيف فأبطح نما بك منه الجوهر المتقدم
وحن اليك الركن حتى كأنه وقد جئته حل عليك مسلم

فوصله صلة سـنية وأهدى له هدية حسـنة من طرف ما قدم به وحمله ، وكان محمد بن وهيب لما قدم المأمون من خراسان مضاعاً مطرحاً انما يتصدى للعامة وأوساط الـكتاب والقواد بالمديح ويسترفدهم فيحظى باليسير ، فلما هدأت الأمور واستقرت واستوسقت (٢) ، جلس أبو محمد الحسن بن سهل يوماً منفرداً بأهله وخاصته وذوى مودته ومن يقرب من أنسه فتوسل اليه محمد بن وهيب بالحسن بن رجاء حتى أوصله مع الشعراء ، فلما انتهى اليه القول استأذن فى الإنشاد ، فأذن له ، فأنشده القصيدة التى أولها :

ودائع أسرار طوتها السرائر وباحت بمكنوناتهن النواظر
ملـكت لها طى الضمير وتحته شبا لوعة عضب الغرارين (٣) باتر
فأعجم عنها ناطق وهو معرب وأعجبت العجم الجفون المواطر
ألم تقذنى السراء فى رنق (٤) الهوى غريراً بما تجنى على الدوائر
تسالمنى الأيام فى عنفوانه ويكلؤنى (٥) طرف من الدهر ناظر

---

(١) الحطيم : جدار حجر الـكعبة
(٢) استوثق لك الأمر ـ أمكنك (٣) الغرار ـ حد الريح والسيف وعضب قاطع وكذلك باتر (٤) الرنق ـ الـكدر ، والغرير ـ الشاب لاتجربة له ـ وأقذى عينه ـ جعل فيها القذى وأخرجه منها ضد (٥) يكلؤنى يحفظنى

إلى الحسن البانى العلا حين يممت عوالى المنى حيث الحيا المتظاهر
إلى الأمل المبسوط والأجل الذى بأعدائه تكبو الجدود العواثر
ومن أنبعت عين المكارم كفه يقوم مقام القطر والروض داثر
تعصب تاج الملك فى عنفوانه واطت(١) به عصر الشباب المنابر
ولو لم تكن الا بنفسك فاخراً لما انتسبت إلا لليك المفاخر

فطرب أبو محمد حتى نزل عن سريره إلى الأرض وقال: أحسنت والله وأجملت، ولو لم تقل قط ولا تقول فى باقى دهرك غير هذا لما احتجت إلى القول، وأمر له بخمسة آلاف دينار، فأحضرت، واقتطعه الى نفسه فلم يزل فى جنبته أيام ولايته وبعد ذلك إلى أن مات ما تصدى لغيره.

وله فى مدح للمأمون :

ياخير منتسب لمكرمة فى المجد حتى ينتج العدد
فى كل أنملة لراحته نوء يسح وعارض حشد(٢)
واذا القنا رعفت(٣) أسنته علقا وضم كعوبه قصد
فكأن ضوء جبينه قمر وكأنه فى صولة أسد
وكأنه روح تدبرنا حركاته وكأننا جسد

وقد استحسنها المأمون وأمر بأن تعد أبيات قصيدته ويعطى لكل بيت ألف درهم فعدت فكانت خمسين، فأعطاه خمسين ألف درهم، وله فى المأمون والحسن ابن سهل خاصة مدائح شريفة نادرة، من عيونها قوله للمامون :

العذر ان أنصفت متضح وشهيد حبك أدمع سفح
فضحت ضميرك عن ودائعه إن الجفون نواطق فصح
وإذا تكلمت العيون على إعجامها فالسر منفضح
وبما أبيت معانق قمر للحسن فيه مخايل نصح
نشر الجمال على محاسنه بدعا وأذهب همه الفرح

---

(١) أطت : صوتت . (٢) الحشد : الجماعة من الناس .
(٣) رعف الرجل : سال الدم من أنفه وهو هنا على المجاز . والعلق : الدم . والكعوب جمع كعب وهو العقدة من عقد الرمح . والقصد جمع قصدة وهى القطعة مما يكسر .

يختال فى حلل الشباب به ... مرح وداؤك أنه مرح
ما زال يلثمنى مراشفه ... ويعلنى الابريق والقدح
حتى استرد الليل خلعته ... ونشا خلال سواده وضح
وبدا الصباح كأن غرته ... وجه الخليفة حين يمتدح

أبو تمام

١٩٠ — ٢٣١ هـ

هو حبيب بن أوس الطائى ، مولده ومنشؤه منبج (١) بقرية منها يقال لها جاسم . كان كما يقول أبو الفرج شاعرا مطبوعا ، لطيف الفطنة دقيق المعانى ، غواصا على ما يستصعب منها ويعسر متناوله على غيره ، وله مذهب فى المطابق (٢) هو كالسابق إليه جميع الشعراء ، وإن كانوا قد فتحوه قبله وقالوا القليل منه فان له فضل الاكثار فيه والسلوك فى جميع طرقه ؛ والسليم من شعره النادر لا يتعلق به أحد ، وله أشياء متوسطة ورديئة رذلة جدا . وفى عصرنا هذا من يتعصب له فيفرط حتى يفضله على كل سالف وخالف ، وأقوام يتعمدون الردىء من شعره فينشرونه ويطوون محاسنه ويستعملون القحة والمكابرة فى ذلك ليقول الجاهل بهم إنهم لم يبلغوا علم هذا وتمييزه إلا بأدب فاضل وعلم ثاقب . وهذا ما يتكسب به كثير من أهل هذا الدهر ويجعلونه وما جرى مجراه من ثلب الناس وطلب معايبهم سببا للترفع وطلبا للرياسة ، وليست إساءة من أساء فى القليل وأحسن فى الكثير مسقطة إحسانه ، ولو كثرت إساءته أيضا ثم أحسن لم يقل له عند الاحسان أسأت ولا عند الصواب أخطأت ؛ والتوسط فى كل شىء أجمل ، والحق أحق أن يتبع . وقد روى عن بعض الشعراء أن أبا تمام أنشده قصيدة له أحسن فى جميعها إلا فى بيت واحد ، فقال له : يا أبا تمام لو ألقيت هذا البيت ما كان فى قصيدتك عيب ، فقال له : أنا والله أعلم منه مثل ما تعلم ولكن مثل شعر الرجل عنده مثل أولاده فيهم الجميل والقبيح والرشيد والساقط وكلهم حلو فى نفسه ، فهو وإن

(١) منبج : مدينة بين الفرات وحلب ، وجاسم : قرية بينها وبين دمشق ثمانية فراسخ

(٢) المطابق : نوع من البديع .

أحب الفاضل لم يبغض الناقص ، وإن هوى بقاء المتقدم لم يهو موت المتأخر .
واعتذاره بهذا ضد ما وصف به نفسه فى مدحه الواثق حيث يقول :

جاءتك من نظم اللسان قلادة ... سمطان (١) فيها اللؤلؤ المكنون
حذيت حذاء الحضرمية أرهفت ... وأجادها التخصير والتلسين (٢)
إنسية وحشية كثرت بها ... حركات أهل الأرض وهى سكون
ينبوعها خضل وحلى قريضها ... حلى الهدى ونسيجها موضون (٣)
أما المعانى فهى أبكار إذا ... نصت ولكن القوافى عون (٤)
أحذاكها صنع الضمير يمده ... جفر (٥) إذا نضب الكلام معين
ويسىء بالاحسان ظنا لا كمن ... هو بابنه أو شعره مفتون

فلو كان يسىء بالاحسان ظنا ولا يفتتن بشعره كنا فى غنى عن الاعتذار له ، وقد فضل أبا تمام من الرؤساء والكبراء والشعراء من لا يشق الطاعنون عليه غباره ولا يدركون وإن جدوا آثاره ، وما رأى الناس بعده إلى حيث انتهوا له فى جده نظيراً ولا شكلا ، ولولا أن الرواة قد أكثروا فى الاحتجاج له وعليه وأكثر متعصبوه الشرح لجيد شعره ، وأفرط معادوه فى التشهير برديئه والتنبيه على رذله ودنيئه، لذكرت منه طرفا ولكن قد أتى من ذلك ما لا مزيد عليه .

وكان محمد بن عبد الملك الزيات يقول : أشعر الناس طرا الذى يقول :

وما أبالى وخير القول أصدقه ... حقنت (٦) لى ماء وجهى أو حقنت دمى

فقيل له : من أشعر أهل زماننا هذا ؟ فقال الذى يقول :

مطر أبوك أبو أهلة وائل ... ملأ البسيطة عدة وعديدا
نسب كأن عليه من شمس الضحى ... نوراً ومن فلق الصباح عمودا

---

(١) السمط : خيط النظم . (٢) الملسنة من النعال : ما فيها طول ولطافة كهيئة اللسان . والمختصرة منها : مستدقة الخصر ، وأرهفت . رقّقت . والحضرمية . نسبة إلى حضرموت . (٣) موضون . مثنى بعضه على بعض . والخضل . كل شىء ند يترشف نداه . (٤) العوآن من النساء التى لها زوج ، والجمع عون . (٥) الجفر . البئر لم تطو أو طوى بعضها . (٦) حقنت أى صنت .

ورثوا الأبوة فالحظوظ وأصبحوا جمعوا جدوداً (١) فى العلا وجدودا

والناس على أن أبا تمام أشعر أهل زمانه .

وقدم عمارة بن عقيل بغداد ، فاجتمع الناس اليه فكتبوا شعره وشعر أبيه وعرضوا عليه الأشعار ، فقال بعضهم : هاهنا شاعر يزعم أنه أشعر الناس طرا ويزعم غيره ضد ذلك ، فقال : أنشدونى قوله ، فأنشدوه :

غدت تستجير الدمع خوف نوى غـد وعاد قتادا (٢) عندها كل مرقد

وأنقذها من غمرة الموت أنه صدود فراق لا صدود تعمد

فأجرى لها الاشفاق دمعاً موردا من الدم يجرى فوق خد مورد

هى البـدر يغنيها تورد وجهها إلى كل من لاقت وان لم تودد

ثم قطع المنشد ، فقال له عمارة زدنا من هذا ، فوصل نشيده وقال .

ولـكننى لم أحو وفراً مجمعاً ففزت به إلا بشمل مبدد

ولم تعطنى الأيام نوماً مسكناً ألذ به إلا بنـوم مشرد

فقال عمارة : لله دره ! لقد تقدم فى هذا المعنى من سبقه اليه على كثرة القول فيه حتى لقد حبب الاغتراب ، هيه ، فأنشده :

وطول مقام المرء فى الحى مخلق لديباجتيه فاغترب تتجـدد

فانى رأيت الشمس زيدت محبة إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد

فقال عمارة : كمل والله ، لئن كان الشعر بجودة اللفظ وحسن المعانى واطراد المراد واتساق الكلام فان صاحبكم هذا أشعر الناس ، وكان على بن الجهم يصف أبا تمام ويفضله ، فقال رجل : والله لو كان أبو تمام أخاك ما زدت على مدحك هذا ، فقال : ان لم يكن أخاً بالنسب فانه أخ بالأدب والمودة ، أما سمعت ما خاطبنى به حيث يقول :

إن (٣) يكد مطرف الإخاء فاننا نغدو ونسرى فى إخاء تالد

---

(١) الجدود الاولى جمع جد بالفتح وهو أبو الأب ، والثانيـة جمع الجد وهو الحظ .

(٢) القتاد : شجر صلب له شوكة كالابر . (٣) أكدى : وصل الى الـكدية وهى الأرض الغليظة ويكنى بذلك عن ضياع الفائدة . والمطرف : الطريف وهو الحديث وضده التالد .

أو يختلف ماء الوصال فماؤنا عذب تحدر من غمام واحد
أو يفترق نسب يؤلف بيننا أدب أقمناه مقام الوالد

وجرى ذكر أبي تمام فى حلقة دعبل فقال ، كان يتبع معانى فيأخذها ، فقال له رجل فى مجلسه . وأى شيء من ذلك أعزك الله ؟ قال قولى :

وان امرأ أسدى الى بشافع اليه ويرجو الشكر منى لأحمق
شفيعك فاشكر فى الحوائج إنه يصونك عن مكروهها وهو يخلق(١)

فقال الرجل : فكيف قال أبو تمام ؟ فقال: قال :

فلقيت بين يديه حلو عطائه ولقيت بين يدى مر سؤاله
واذا امرؤ أسدى اليك صنيعة من جاهه فكأنها من ماله

فقال الرجل : أحسن والله ، لئن كان أخذه منك لقد أجاد فصار أولى به منك ، وان كنت أخذته منه فما بلغت مبلغه ، فغضب دعبل وانصرف . وكان محمد بن حازم الباهلى يقدم أبا تمام ويفضله ويقول : لو لم يقل إلا مرثيته التى أولها :

أصم بك الناعى وان كان أسمعا وأصبح مغنى الجود بعدك بلقعا

وقوله :

لو يقدرون مشوا على وجناتهم وجباههم فضلا عن الأقدام

لكفاه . وقال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر : كان عمارة بن عقيل عندنا يوما فسمع مؤدباً كان لولد أخى يرويهم قصيدة أبى تمام :

الحق أبلج والسيوف عوار فحذار من أسد العرين حذار

فلما بلغ إلى قوله :

سود اللباس كأنما نسجت لهم أيدى السموم مدارعاً من قار(٢)
بكروا وأسروا فى بطون ضوامر قيدت لهم من مربط النجار
لا يبرحون ومن رآهم خالهم أبداً على سفر من الأسفار

فقال عمارة لله دره ، ما يعتمد معنى إلا أصاب أحسنه كأنه موقوف عليه ، وقال

---

(١) خلق الثوب كفرح : بلى .

(٢) القار : الزفت . والمدارع جمع مدرعة بكسر الميم وهى جبة مشقوقة المقدم ولا تكون إلا من صوف ، وهى هنا مجاز .

ابراهيم بن العباس ما اتكلت فى مكاتبتى قط الا على ما جاش به صدرى إلا أنى قد استحسنت قول أبى تمام :

إذا مارق بالغدر حاول غدرة   فذاك حرى أن تئيم (١) حلائله
فان باشر الاصحار (٢) فالبيض والقـنا قراه وأحواض المنايا مناهله
وان يبن حيطاناً عليه فانما   أولئك عقالاته (٣) لا معاقله
وإلا فأعلمه بأنك ساخط   ودعه فان الخوف لا شك قاتله

فأخذت هذا المعنى فى بعض رسائلى فقلت : ما كان يحرزهم يبرزهم وما كان يعقلهم يعتقلهم ؛ ثم قال : ان أبا تمام اخترم وما استمتع بخاطره ولا نزح ركى (٤) فكره حتى انقطع رشاء عمره ، وقال محمد بن جابر الأزدى — وكان يتعصب لأبى تمام — أنشدت دعبل بن على شعراً لأبى تمام ولم أعلمه أنه له ، وقلت له : كيف تراه ؟ قال . أحسن من عافية بعد يأس ، فقلت : انه لأبى تمام ، فقال ؛ لعله سرقه .

وقال يزيد المهلبى : ما كان أحد من الشعراء يقدر أن يأخذ درهما بالشعر فى حياة أبى تمام فلما مات اقتسم الشعراء ما كان يأخذه ، ولما قدم أبو تمام خراسان اجتمع الشعراء وسألوه أن ينشدهم ، فقال : قد وعدنى الأمير أن أنشده غداً وستسمعوننى ، فلما دخل على عبد الله أنشده :

أهن عوادى يوسف وصواحبه   فعزماً ، فقدماً أدرك السؤل طالبه

فلما بلغ قوله :

وقلقل (٥) نأى من خراسان جأشها   فقلت اطمئنى أنضر الروض عازبه
وركب كأطراف الأسنة عرسوا (٦)   على مثلها والليل تسطو غياهبه
لأمر عليهم أن تتم صدوره   وليس عليهم أن تتم عواقبه

فصاح الشعراء بالأمير أبى العباس : ما يستحق هذا الشعر غير الأمير حفظه الله ،

---

(١) تئيم من آمت المرأة : مات زوجها . (٢) الإصحار : ملاقاة العدو فى الصحراء أى برز لقتاله . (٣) عقالاته جمع عقال وهو داء فى رجل الدابة ، إذا مشى ظلع ساعة ثم انبسط ، ويختص بالفرس . (٤) الركية : البئر ذات الماء . والرشاء : حبل البئر . (٥) قلقل الشيء : حركه . والنأى : البعد ، والجأش : رواع القلب إذا اضطرب عند الفزع . (٦) التعريس : النزول ليلا .

وقال شاعر منهم — يعرف بالرياحى — لى عند الأمير أعزه الله جائزة وعدنى بها وقد جعلتها لهذا الرجل جزاء عن قوله للامير ، فقال : بل نضعفها لك ونقوم له بما يجب علينا ، فلما فرغ من القصيدة نثر عليه ألف دينار فلقطها الغلمان ولم يمس منها شيئا ؛ فوجد عليه عبد الله وقال : يترفع عن برى ويتهاون بما أكرمته ! فلم يبلغ ما أراده منه بعد ذلك ، فقال أبو تمام :

لم يبق للصيف لا رسم ولا طلل ولاقشيب فيستكسى ولاسمل(١)
عدل من الدمع أن يبكى المصيف كما يبكى الشباب ويبكى اللهو والغزل
يمنى الزمان انقضى معروفها وغدت يسراه وهى لباس بعده بدل

فدخل أبو العميثل شاعر آل طاهر الى عبد الله فقال : أيها الأمير أتتهاون بمثل أبى تمام وتجفوه ؟ فوالله لو لم يكن له من النباهة فى قدره والاحسان فى شعره ، والشائع من ذكره ، لكان الخوف من شره والتوقى لذمه يوجب على مثلك رعايته ومراقبته ، فكيف وله بنزوعه اليك من الوطن وفراقه السكن وقد قصدك عاقداً بك أمله ؛ معملا إليك ركابه ؛ متعبا فيك فكره وجسمه ؛ وفى ذلك ما يلزمك قضاء حقه حتى ينصرف راضياً ؛ ولو لم يأت بفائدة ولا سمع فيك منه ما سمع إلا قوله .

يقول فى قومس (٢) صحبى وقد أخذت منا السرى وخطا المهرية القود
أمطلع الشمس تبغى أن تؤم بنا فقلت كلا ولكن مطلع الجود

لكفى ، فقال له عبد الله : نبهت فأحسنت ، وشفعت فلطفت ، وعاتبت فأوجعت ، ولك ولأبى تمام العتبى ، وأمر له بألفى دينار وما يحمله من الظهر وخلع عليه خلعة تامة من ثيابه وأمر ببذرقته (٣) الى آخر عمله .

ومدح أبو تمام أبا دلف ، فقال أبو دلف لقومه : يامعشر ربيعة مامدحتم بمثل

---

(١) السمل : الثوب الخلق وجمعه أسمال . والقشيب هنا : الجديد .

(٢) قومس . كورة كبيرة واسعة فى ذيل جبل طبرستان والقود جمع أقود ، وهو من الخيل والابل . الذلول والمهرية . منسوب الى مهرة وهى بلد أو قبيلة .

(٣) البذرقة الخفارة .

هذا الشعر قط فما عندكم لقائله ؟ فبادروه بمطارفهم(١) يرمون بها اليه ، فقال أبو دلف : قد قبلها منكم وأعاركم لبسها وسأنوب عنكم فى ثوابه ، تمم القصيدة يا أبا تمام ، فتممها ، فأمر له بخمسين ألف درهم وقال : والله ماهى بإزاء استحقاقك وقدرك فاعذرنا ، فشكره وقام ليقبل يده ، فحلف ألا يفعل ، ثم قال له أنشدنى قولك فى محمد بن حميد :

وما مات حتى مات مضرب سيفه ... من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
وقد كان فوت الموت سهلا فرده ... اليه الحفاظ(٢) المر والخلق الوعر
فأثبت فى مستنقع الموت رجله ... وقال لها من تحت أخمصك الحشر
غدا غدوة والحمد نسج ردائه ... فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر
كأن بنى نبهان يوم مصابه ... نجوم سماء خر من بينها البدر
يعزون عن ثاو يعزى به العلا ... ويبكى عليه الجود والبأس والشعر

فأنشده إياه ، فقال . والله لوددت أنها فى ، فقال . بل أفدى الأمير بنفسى وأهلى وأكون المقدم ، فقال : إنه لم يمت من رثى بهذا الشعر أو مثله

وقدم أبو تمام مادحا للحسن بن رجاء ، فاستنشده قصيدته اللامية التى مدحه بها فلما انتهى إلى قوله :

أنا ذو(٣) عرفت فإن عرتك جهالة ... فأنا المقيم قيامة العذال
عطفت ملامتها على ابن ملمة ... كالسيف جأب الصبر(٤) شخت الآل
عادت له أيامه مسودة ... حتى توهم أنهن ليال

فقال له الحسن : والله لا تسود عليك بعد اليوم ، فلما قال :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى ... فالسيل حرب للمكان العالى
وتنظرى خبب الركاب ينصها(٥) ... محيي القريض إلى مميت المال

---

(١) مطارفهم جمع مطرف وهو رداء من خز مربع ذو أعلام وهو على وزن اسم المفعول أو بكسر الميم وفتح الراء . (٢) الحفاظ الأنفة .

(٣) ذو فى لغة طيئ كالذى . (٤) جأب الصبر : غليظه ، وشخت الآل : ضعيف الشخص . (٥) نص ناقته : استحثها واستقصى آخر ماعندها من السير .

قام الحسن على رجليه وقال : والله لا أتممتها إلا وأنا قائم ، فقام أبو تمام لقيامه وقال :

قد قلت وهى تنال من عرض الفلا بملاطس (١) فى الوخد غير أوالى
أحوامل الأثقال إنك فى غد بفناء أحمل منك للأثقال
لما وردنا ساحة الحسن انقضى عنا تعجرف(٢) دولة الإمحال
أحيا الرجاء لنا برغم نوائب كثرت بهن مصارع الآمال
أغلى عذارى الشعر ، إن مهورها عند الكرام وإن رخصن غوالى
ترد الظنون بنا على تصديقها ويحكم الآمال فى الأموال
أضحى سمى أبيك فيك مصدقا بأجل فائدة وأيمن فال
ورأيتنى فسألت نفسك سيبها(٣) لى ثم جدت وما انتظرت سؤالى
كالغيث ليس له ، أريد نواله أو لم يرد ، بد من التهطال

فتعانقا وجلسا ، فقال له الحسن : ما أحسن ما جلوت هذه العروس ! فقال : والله لو كانت من الحور العين لكان قيامك لها أوفى مهورها . وكان دعبل عند الحسن بن رجاء يضع من أبى تمام ، فقال له قائل : يا أبا على اسمع منى ما قاله ، فإن أنت رضيته فذاك ، وإلا وافقتك على ما تذمه منه ، وأعوذ بالله فيك من ألا ترضاه ، ثم أنشده :

أما انه لولا الخليط المودع ومغنى عفا منه مصيف ومربع

فلما بلغ إلى قوله :

هو السيل إن واجهته انقدت طوعه وتقتاده من جانبيه فيتبع
ولم أر نفعا عند من ليس ضائرا ولم أر ضراً عند من ليس ينفع
معاد الورى بعد الممات وسيبه معاد لنا قبل الممات ومرجع

فقال له دعبل : لم ندفع فضل هذا الرجل ، ولكنكم ترفعونه فوق قدره ،

(١) الملاطس : الأخفاف ، والوخد : الاسراع ، وأوال : مقصرات .

(٢) التعجرف : التكبر .

(٣) السيب : العطاء .

وتقدمونه على من يتقدمه ، وتنسبون إليه ما قد سرقه ، فقال له : إحسانه صيرك له عائباً وعليه عاتباً .

وأنشد أبو تمام أبا الحسن محمد بن الهيثم بالجبل(١).

أسقى ديارهم أجش(٢) هزيم وغدت عليهم نضرة ونعيم

فلما فرغ أمر له بألف دينار وخلع عليه خلعة حسنة .

وجاء دعبل إلى الحسن بن وهب فى حاجة بعد وفاة أبى تمام ، فقال له رجل فى المجلس : يا أبا على ، أنت الذى تطعن على من يقول :

شهدت لقد أقوت مغانيكم بعدى ومحت كما محت وشائع (٣) من برد
وأنجدتم من بعد إتهام داركم فيا دمع أنجدنى على ساكنى نجد

فصاح دعبل : أحسن والله ! وجعل يردد : « فيا دمع أنجدنى على ساكنى نجد » ثم قال : رحمه الله ، لو كان ترك لى شيئا من شعره لقلت إنه أشعر الناس ! .

وقال الواثق لأحمد بن أبى دؤاد : بلغنى أنك أعطيت أبا تمام الطائى فى قصيدة مدحك بها ألف دينار ، قال : لم أفعل ذلك يا أمير المؤمنين ولكنى أعطيته خمسمائة دينار للذى قاله للمعتصم :

فاشدد بهارون الخلافة إنه سكن لوحشتها ودار قرار

فتبسم وقال : إنه لحقيق بذلك .

وقال محمد بن موسى بن حماد : كنا عند دعبل أنا والقاسم سنة خمس وثلاثين ومائتين بعد قدومه من الشام ، فذكرنا أبا تمام فتلبه وقال : هو سروق للشعر ، ثم قال لغلامه : يا نفنف ، هات تلك المخلاة ، فجاء بمخلاة فيها دفاتر ، فجعل يمرها على يده حتى أخرج منها دفترا فإذا فيه قال مكنف أبو سلمى من ولد زهير ابن أبى سلمى يرثى ذفافة العبسى :

أبعد أبى العباس يستعتب الدهر وما بعده للدهر عتبى ولا عذر

---

(١) الجبل : اسم للبلاد المعروفة بالعراق العجمى . (٢) الأجش من الرعد ، الغليظ الصوت . والغيث الهزيم : الذى لايستمسك .

(٣) نسج الثوب بالوشيع والوشائع أى بهذا القصب الملفوف عليه .

ثم قال : سرق أبو تمام أكثر هذه القصيدة فأدخلها فى قصيدته :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر   فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

وقال أبو تمام الطائى(١) : خرجت يوما إلى سر من رأى ، حين ولى الواثق ، فلقينى أعرابى وقد قربت منها ، فأردت أن أسأله عن شىء من أخبار الناس بها ، فخاطبته ، فإذا أفصح الناس وأفطنهم . فقلت : ممن الرجل ؟ قال : من بنى عامر ، قلت : كيف علمك بأمير المؤمنين ؟ قال : قتل أرضا عالمها ! قلت : فما تقول فيه ؟ قال : وثق بالله فكفاه ، أشجى العاصية ، وقمع العادية ، وعدل فى الرعية . قلت : فما تقول فى أحمد بن أبى داود ؟ قال : هضبة لا ترام ، وجندلة لا تضام ، تشحذ له المدى ، وتحبل له الأشراك ، وتبغى له الغوائل ، حتى قيل كأن قد ، وثب وثبة الذئب ، وختل ختل الضب . قلت : فما تقول فى محمد بن عبد الملك ؟ قال : وسع الدانى شره ، وقتل البعيد ضره ، له كل يوم صريع لا يرى فيه أثر ناب ولا ندب مخلب(٢) . قلت : فما تقول فى عمرو(٣) بن فرج ؟ قال : ضخم لهم(٤) مستعذب للذم . قلت : فما تقول فى الفضل بن مروان ؟ واستعذبت خطابه . قال : ذاك رجل نشر بعد ما قبر ، فعليه حياة الأحياء وخفتة الموتى . قلت : فما تقول فى أبى الوزير؟ قال : كبش الزنادقة الذى تعرف ؛ ألا ترى أن الخليفة إذا أهمله سنح ورتع ، فإذا هزه أمطر فأمرع . قلت : فابن الخصيب ؟ قال : أكل أكلة نهم ، فذرق ذرقة بشم(٥) . قلت : فما تقول فى إبراهيم أخيه ؟ قال : أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون . قلت : فما تقول فى ابن إسرائيل ؟ قال : لله دره ! أى قلقل(٦) هو ! غرس فى منابت الكرم حتى إذا اهتز لهم حصدوه . قلت : فما تقول فى إبراهيم ابن رباح ؟ قال : أوبقه(٧) كرمه ، وأسلمه حسبه ، وله معروف لا يسلمه ، ورب لا يخذله ، وخليفة لا يظلمه . قلت : فما تقول فى نجاح بن سلمة ؟ قال : لله دره !

---

(١) أخبار أبى تمام للصولى ص ٨٩ .

(٢) الندب : جمع ندبة . وهى أثر الجرح الباقى على الجلد .

(٣) عمرو بن فرج : كان من علية الكتاب . وسخط عليه المتوكل سنة ٢٣٣ هـ

(٤) اللهم : الرغيب الرأى . الجواد : العظيم الكفاية .

(٥) البشم : التخمة .   (٦) القلقل : المعوان السريع التقلقل وهو التحرك .

(٧) أوبقه : ذلله وأهلكه .

أى طالب وتر ومدرك ثأر ، يتلهب كأنه شعلة نار ، له من الخليفة جلسة تزيل نعماً ، وتحل نقماً .

قلت : يا أعرابى ، أين منزلك ؟ قال : اللهم غفراً ، إذا اشتمل الظلام فحيثما أدركنى الرقاد رقدت ! قلت : فكيف رضاك عن أهل العسكر ؟ قال : لا أخلق وجهى بمسألتهم ، أو ما سمعت قول هذا الفتى الطائى ، الذى قد ملأ الدنيا شعره :

وما أبالى وخير القول أصدقه ... حقنت لى ماء وجهى أو حقنت دمى

قلت : فأنا الطائى قائل هذا الشعر ! فدنا مبادراً فعانقنى ، وقال : لله أبوك ! ألست الذى يقول :

ما جود كفك إن جادت وإن بخلت ... من ماء وجهى إذا أخلقته عوض

قلت : نعم ، قال : أنت والله أشعر أهل الزمان فرجعت بالاعرابى معى إلى ابن أبى دؤاد ، وحدثته بحديثه ، فأدخله إلى الواثق ، فسأله عن خبره معى ، فأخبره به ، فأمر له بمال ، وأحسن اليه ، ووهب له أحمد بن أبى دؤاد ، فكان يقول : قد عظم الله بركتك على !

ولما قصد أبو تمام عبد الله بن طاهر بخراسان وامتدحه بقصيدته التى أولها :

أهن عوادى يوسف وصواحبه ... فعزماً فقدماً أدرك السؤل طالبه

أنكر عليه أبو العميثل وقال له : لم لا تقول ما يفهم ؟ فقال له : ولم لا تفهم ما يقال ؟ فاستحسن منه هذا الجواب على البديهة

وامتدح أبو تمام أحمد بن المعتصم بقصيدة سينية فلما انتهى إلى قوله فيها :

إقدام عمرو فى سماحة حاتم ... فى حلم أحنف فى ذكاء إياس

قال له يعقوب الكندى الفيلسوف — وكان حاضراً — : ما صنعت شيئاً ، شبهت ابن أمير المؤمنين وولى عهد المسلمين بصعاليك العرب ، ومن هؤلاء الذين ذكرت ؟ وما قدرهم ؟ فأطرق أبو تمام يسيراً ثم رفع رأسه وأنشد :

لا تنكروا ضربى له من دونه ... مثلا شروداً فى الندى والباس

فالله قد ضرب الأقل لنوره ... مثلا من المشكاة والنبراس

فعجبوا من فطنته وسرعة بديهته .

ونقدوا أبا تمام فى قوله :

تكاد عطاياه يجن جنونها   إذا لم يعوذها بنغمة طالب

قالوا : وما بالها يحوجها إلى الجنون ويلتمس لها العوذ والرقى ، هلا فك أسرها وقدم خلاصها ولم ينتظر بها نغمة الطالب ! ففعل مثل ما قاله أبو الطيب :

وعطاء مال لو عداه طالب   أنفقته فى أن تلاقى طالباً

وقد تداول الناس هذا المعنى فقال مسلم :

أخ لى يعطينى إذا ما سألته   ولو لم أعرض بالسؤال ابتدانيا

وقال أبو العتاهية :

وإنا إذا ما تركنا السؤال   فلم نبغ نائله يبتدينا
وإن نحن لم نبغ معروفه   فمعروفه أبداً يبتغينا

وقال أبو تمام أيضاً :

فأضحت عطاياه نوازع شرداً   تسائل فى الآفاق عن كل سائل

ومما عيب على أبى تمام قوله :

فلويت بالمعروف أعناق الورى   وحطمت بالانجاز ظهر الموعد

فان حطم ظهر الموعد بالانجاز استعارة قبيحة جداً ، والمعنى أيضا فى غاية الرداءة ، فالاخلاف هو الذى يحطم ظهر الموعد لا الانجاز ؛ وكان ينبغى أن يقول وحطمت بالانجاز ظهر المال لا الموعد ، وحينئذ فالموعد كان يصح ويسلم ، ويتلف المال .

وقوله :

تحملت ما لو حمل الدهر شطره   لفكر دهراً أى عبأيه أثقل

فجعل للدهر عقلا وجعله مفكراً فى أى العبأين أثقل ، وليس معنى أبعد من الصواب من هذه الاستعارة ، وكان الأشبه والأليق بهذا المعنى — لما قال « تحملت ما لو حمل الدهر شطره » أن يقول : لتضعضع ، أو : لا نهد أو لأمن الناس صروفه ونوازله ، ونحو هذا .

وقوله :

بيوم كطول الدهر فى عرض مثله   ووجدى من هذا وهاذاك أطول

فجعل للدهر عرضا ، وذلك محض المحال .

وقوله :

كانوا رداء زمانهم فتصدعوا فكأنما لبس الزمان الصوفا

ولغلبة الحكمة عليه قيل إن أبا تمام والمتنبي حكيمان والشاعر البحترى ، ولم يرزق أحد السعادة فى شعره وتناول الناس له نقداً وشرحا واستشهاداً مثل أبى تمام والبحترى والمتنبي ، وقد نال أبو تمام هذه الشهرة الذائعة وأثر عنه هذا الشعر الكثير ولم تنيف سنه على الأربعين ، فكيف به لو عمر ... وأجاد أبو تمام القول فى كل فن من فنون الشعر . وأما مراثيه فلم يعلق بها أحد جاش صدره بشعر

ويعد أبو تمام رأس الطبقة الثالثة من المحدثين ، انتهت إليه معانى المتقدمين والمتأخرين ، وظهر والدنيا قد ملئت بترجمة علوم الأوائل وحكمتها من اليونان والفرس والهند ، لحصف عقله ولطف خياله بالإطلاع عليها ، واستخرج من جملة ذلك طريقته التى آثر بها تجويد المعنى على تسهيل العبارة ، فكان أول من أكثر من الحكم والأمثال والاستدلال بالأدلة العقلية والكنايات الخفية ، ولو أفضى ذلك إلى التعقيد أحيانا . ولما رأى أن قد فاته سلامة اللفظ وحسن ديباجته أراد أن يجبر الكسر بانتحاء طريقة بشار وأبى نواس ومسلم بن الوليد فى الجناس والمطابقة والاستعارة من أنواع البديع ، فسلم له بعضها واعتل عليه بعضها ، فأتى من الجناس بما التاث به شعره ، وصار كالكلف فى صفحة البدر ، ومع هذا سلم له من كلامه جملة لم يحم حولها شاعر سابق ، وعجز عن محاكاتها كل لاحق ، لما حوته من عيون المعانى المبتكرة ، وصيغت فيه من الألفاظ الرائقة ، وضمنته من الأمثال والحكم التى زادت فى ثروة الأدب العربى ، ومهدت لمن خلفه طرقا لم تكن لولاه معبدة ، ومنها سلك أبو الطيب المتنبى وأبو العلاء المعرى وغيرهما إلى حكمهم . ومن مرثيته لمحمد بن حميد الطوسى الطائى المشهورة :

توفيت الآمال بعد محمد وأصبح فى شغل عن السفر السفر
وما كان إلا مال من قل ماله وذخرا لمن أمسى وليس له ذخر
وما كان يدرى مجتدى جود كفه إذا ما استهلت أنه خلق العسر
ألا فى سبيل الله من عطلت له فجاج سبيل الله وانثغر الثغر

فتى كلما فاضت عيون قبيلة ... دماً ضحكت عنه الأحاديث والذكر
فتى دهره شطران فيما ينوبه ... فنى بأسه شطر وفى جوده شطر
فتى مات بين الطعن والضرب ميتة ... تقوم مقام النصر إن فاته النصر
وما مات حتى مات مضرب سيفه ... من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
وقد كان فوت الموت سهلا فرده ... إليه الحفاظ المر والخلق الوعر
ونفس تعاف العار حتى كأنما ... هو الكفر يوم الروع أو دونه الكفر
فأثبت فى مستنقع الموت رجله ... وقال لها من تحت أخمصك الحشر
غدا غدوة والحمد نسج ردائه ... فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر
فتى كان عذب الروح لا من غضاضة ... ولكن كبرا أن يقال به كبر
فتى سلبته الخيل وهو حمى لها ... وبزته نار الحرب وهو لها جمر

وله من قصيدة يمدح بها الحسن بن رجاء :

لا تنكرى عطل الكريم من الغنى ... فالسيل حرب للمكان العالى
وتنظرى خبب الركاب ينصها ... محيي القريض إلى مميت المال

ومن قوله فى الحجاب :

يأيها الملك النائى بغرته ... وجوده لمرجى جوده كثب
ليس الحجاب بمقص عنك لى أملا ... إن السماء ترجى حين تحتجب

ومن أبياته السائرة قوله :

فلو صورت نفسك لم تزدها ... على ما فيك من كرم الطباع

ومن أفخم قصائده قصيدته البائية التى هنأ بها الخليفة المعتصم بفتح عمورية ويسخر فيها بالمنجمين ، وأولها :

السيف أصدق انباء من الكتب ... فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لا سود الصحائف فى ... متونهن جلاء الشك والريب

دعبل الخزاعى

المتوفى سنة ٢٤٦ ﻫ

هو دعبل بن على بن رزين الخزاعى الأزدى يكنى أبا على . شاعر متقدم مطبوع هجاء خبيث اللسان لم يسلم عليه أحد من الخلفاء ولا من وزرائهم ولا أولادهم

ولا ذو نباهة أحسن إليه أم لم يحسن ولا أفلت منه كبير أحد ، وكان شديد التعصب على النزارية (١) للقحطانية . وقال قصيدة يرد فيها على الكميت بن زيد ويناقضه في قصيدته المذهبة التي هجا بها قبائل اليمن : ألا حييت عنا يامدينا . وكان دعبل من الشيعة المشهورين بالميل إلى على صلوات الله عليه ، وقصيدته « مدارس آيات خلت من تلاوة » مشهورة .

وهي من أحسن الشعر وفاخر المدائح المقولة في أهل البيت عليهم السلام. وقصد بها على بن موسى الرضا بخراسان ، فأعطاه عشرة آلاف درهم من الدراهم المضروبة باسمه ، وخلع عليه خلعة من ثيابه أعطاه بها أهل (٢) قم ثلاثين ألف درهم فلم يبعها فقطعوا عليه الطريق فأخذوها . فقال لهم : إنما تراد لله عز وجل وهي محرمة عليكم فدفعوا إليه ثلاثين ألف درهم ، فحلف ألا يبيعها أو يعطوه بعضها ليكون في كفنه فأعطوه فكان من أكفانه . وها هي ذي القصيدة :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات (٣)
لآل رسول الله بالخيف من منى وبالركن والتعريف والجمرات
ديار على والحسين وجعفر وحمزة والسجاد ذي الثفنات
ديار عفاها كل جون (٤) مبادر ولم تعف للأيام والسنوات
قفا نسأل الدار التي خف أهلها متى عهدها بالصوم والصلوات

ودخل دعبل على على بن موسى الرضا فقال له أنشدني شيئا مما أحدثت فأنشده :

مدارس آيات خلت من تلاوة ومنزل وحي مقفر العرصات

حتى انتهى إلى قوله

إذا وتروا مدوا إلى أهل وترهم أكفا عن الأوتار منقبضات

فبكى حتى أغمى عليه . وأومأ إليه خادم كان على رأسه أن اسكت ، فسكت ساعة ثم قال له ـ أعد ـ فاعاد حتى انتهى إلى هذا البيت أيضا فاصابه مثل الذي أصابه في المرة الأولى وأومأ الخادم إليه أن اسكت فسكت ـ فمكث ساعة أخرى ثم قال له : أعد فاعاد ، حتى انتهى إلى آخرها فقال له أحسنت ثلاث مرات ثم أمر له

---

(١) النزارية : ولد نزار بن معد بن عدنان . والقحطانية : ولد قحطان وهم عرب اليمن (٢) قم : مدينة ببلاد الفرس (٣) العرصات جمع عرصة وهي وسط الدار . (٤) يريد بالجون السحاب الأسود المكفهر

بعشرة آلاف درهم مما ضرب باسمه ولم تكن وقعت إلى أحد بعد وأمر له من منزله بحلى كثير أخرجه إليه الخادم فقدم العراق فباع كل درهم منها بعشرة دراهم اشتراها منه الشيعة فحصل له مائة الف درهم فكان أول مال اعتقده

قال دعبل بن على : (١) حججت أنا وأخى رزين ، وأخذنا كتبا إلى المطلب ابن عبد الله بن مالك ، وهو بمصر يتولاها . فصرنا من مكة إلى مصر ، فصحبنا رجل يعرف بأحمد بن السراج ، فما زال يحدثنا ويؤنسنا طول طريقنا ، ويتولى خدمتنا كما يتولاها الرفقاء والاتباع ، ورأيناه حسن الأدب ـ وكان شاعراً ولم نعلم ـ وكتمنا نفسه ، وقد علم ما قصدنا له ، فعرضنا عليه أن نقول فى المطلب قصيدة ننحله إياها ، فقال : إن شئتم ، وأرانا بذلك سروراً وتقبلا له ، فعملنا قصيدة ، وقلنا له تنشدها المطلب وانك تنتفع بها . فقال: نعم . ووردنا مصر به ، فدخلنا إلى المطلب وأوصلنا إليه كتبا كانت معنا ، وأنشدناه فسر بموضعنا ، ووصفنا له أحمد بن السراج هذا ، وذكرنا له أمره ، فأذن له فدخل عليه ، ونحن نظن أنه سينشد القصيدة التى نحلناه إياها ، فلما مثل بين يديه عدل عنها وانشده :

لم آت مطلبا إلا بمطلب وهمة بلغت بى غاية الرتب
أفردته برجاء أن تشاركه فى الوسائل أو ألقاه فى الكتب
رحلت عيسى إلى البيت الحرام على ما كان من وصب فيها ومن نصب
ألقى بها وبوجهى كل هاجرة(٢) تكاد تقدح بين الجلد والعصب
حتى إذا ما قضت نسكى ثنيت لها عطف(٣) الزمام فأمت سيد العرب
فأممتك (٤) وقد ذابت مفاصلها من طول ما تعب لاقت ومن نقب(٥)

فصاح مطلب: لبيك ! لبيك ! ثم قام إليه ، فأخذه بيده وأجلسه معه ، وقال : ياغلام ، البدر (٦) فأحضرت ، ثم قال : الخلع ، فنشرت ، ثم قال : الدواب ، فقيدت ، فأمر له من ذلك بما ملأ عينه وأعيننا وصدورنا ، وحسدناه عليه ؛ وكان حسدنا له بما اتفق له من القبول وجودة الشعر ، وغيظنا بكتمه إيانا نفسه ، واحتياله

---

(١) الأغانى ص ٤٧ ج ١٨
(٢) الهاجرة : إنما تكون فى القيظ نصف النهار .
(٣) عطف الشىء : جانبه (٤) يقال . أمه وأممه بمعنى قصده .
(٥) نقب البعير إذا حفى (٦) البدر جمع بدرة (بفتح الباء) وهى عشرة آلاف درهم

علينا أكثر وأعظم ، فخرج بما أمر له ، وخرجنا صفراً . ومكث دعبل أياما ثم ولاه المطلب أسوان ، ولكن دعبلا كان قد هجاه غيظاً منه فقال

أمطلب أنت مستعذب حمياً (١) الأفاعى ومستقتل
ستأتيك إما وردت العراق صحائف يأثرها دعبل
منمقة بين أثنائها مخاز تحط فلا ترحل
وضعت رجالا فما ضرهم وشرفت قوما فلم ينبلوا
إذا الحرب كنت أميراً لها فحظهم منها أن يقتلوا
شعارك فى الحرب يوم الوغى إذا انهزموا : عجلوا عجلوا
هزائمك الغر مشهورة يقرطس(٢) فيهن من ينضل
فأنت إذا ما التقوا آخر وأنت إذا انهزموا أول

وبلغ المطلب هجاؤه إياه بعد أن ولاه ، فعزله عن أسوان ، وأنفذ إليه كتاب العزل مع مولى له ، وقال : انتظره حتى يصعد المنبر يوم الجمعة ، فإذا علاه فأوصل الكتاب إليه ، وامنعه من الخطبة وأنزله عن المنبر ، واصعد مكانه ؛ فلما أن علا المنبر وتنحنح ليخطب ناوله الكتاب ، فقال له دعبل دعنى أخطب فإذا نزلت قرأته ، قال لا ، قد أمرنى أن أمنعك الخطبة حتى تقرأه فقرأه ، وأنزله عن المنبر معزولا

وقال محمد بن موسى الضبى (٣) ، وكان نديما لعبد الله بن طاهر : بينما نحن عند عبد الله بن طاهر ذات ليلة ، يذاكرنا بالأدب وأهله ، وشعراء الجاهلية إذ بلغ إلى ذكر المحدثين حتى انتهى إلى ذكر دعبل فقال ويحك ياضبى ! إنى أريد أن أحدثك بشىء على أن تستره طول حياتى ، فقلت له أصلحك الله ، أنا عندك فى موضع ظنة؟ قال لا ، ولكن أطيب لنفسى أن توثق لى بالايمان ؛ لأركن إليها ويسكن قلبى عندها ، فأحدثك حينئذ . قال قلت إن كنت عند الأمير فى هذه الحال فلا حاجة به إلى إفشاء سره إلى ، واستعفيته مراراً فلم يعفنى ، فاستحييت مراجعته وقلت فلير الأمير رأيه ، فقال لى ياضبى ، قل : والله ، قلت والله فأمرها على غموساً مؤكدة بالبيعة والطلاق وكل ما يحلف به مسلم . ثم قال : أشعرت أن دعبلا مدخول

(١) الحميا من كل شىء شدته .
(٢) قرطس أصاب القرطاس ، أى الغرض
(٣) الأغانى ص ٥٦ ج ١٧ .

النسب؟ وأمسك ، فقلت أعز الله الأمير ، أفى هذا أخذت العهود والمواثيق ومغلظ الأيمان ! قال : إى والله ، فقلت : ولم ؟ قال : لأنى رجل لى فى نفسى حاجة ودعبل رجل قد حمل نفسه على المهالك وحمل جذعه على عنقه ، فليس يجد من يصلبه عليه . وأخاف إن بلغه أن يقول فى ما يبقى على عاره على الدهر ، وقصاراى إن ظفرت به وأسلمته اليمن — وما أراها تفعل ؛ لأنه اليوم شاعرها والذاب عنها ، والمحامى لها دونها — أن أضربه مائة سوط وأثقله حديداً ؛ وليس فى ذلك عوض على مما سار فى من الهجاء وفى عقبي من بعدى . فقلت : ما أراه يفعل ويقدم عليك . فقال لى : ياعاجز ؛ أتراه أقدم على الرشيد والأمين والمأمون وعلى أبى ولا يقدم على! فقلت : فإذا كان الأمر كذا فقد وفق الأمير فيما أخذه على ، قال : وكان دعبل صديقاً لى . فقلت : هذا شىء قد عرفته ، فمن أين ؟ قال الأمير : إنه مدخول النسب ، وهو فى البيت الرفيع من خزاعة ؟ فقال : اسمع ، إنه كان أيام ترعرع خاملا لايؤبه له وكان ينام هو ومسلم بن الوليد فى إزار واحد لايملكان غيره ، ومسلم أستاذه ،وهو غلامه يخدمه ،ودعبل حينئذ لايقول شعراً يفكر فيه حتى قال :

لاتعجبي ياسلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى

وغنى فيه بعض المغنين وشاع . فغنى به بين يدى الرشيد ، فطرب وسأل عن قائل الشعر فقيل له : دعبل بن على وهو غلام نشأ من خزاعة ،فأمر بإحضار عشرة آلاف درهم وخلعة من ثيابه . فأحضر ذلك فدفعه مع خادم من خاصته وقال له : اذهب بهذا إلى خزاعة فاسأل عن دعبل بن على فإذا دللت عليه فأعطه هذا وقل له : ليحضر إن شاء ، وإن لم يحب ذلك فدعه ، وأمر للمغنى بجائزة.

فسار الغلام إلى دعبل ، وأعطاه الجائزة ، وأشار عليه بالمسير إليه ، فلما دخل عليه وسلم أمر بالجلوس فجلس ؛ واستنشده الشعر فأنشده إياه فاستحسنه ، وأمره بملازمته ، وأجرى عليه رزقا سنيا ، فكان أول من حرضه على قول الشعر ، فوالله مابلغه أن الرشيد مات حتى كافأه ؛ وقال فيه من قصيدة مدح بها أهل البيت وهجا الرشيد :

وليس حى من الأحياء نعلمه من ذى يمان ومن بكر ومن مضر
إلا وهم شركاء فى دمائهم كما تشارك أيسار (١) على جزر

(١) أيسار . جمع ياسر ، وهو الذى يلى قسمة الجزور . نوق تذبح وتقسم أقساماً للمقامرة

قتل وأسر وتحريق ومنهبة ... فعل الغزاة بأرض الروم والخزر(١)
أرى أمية معذورين إن قتلوا ... ولا أرى لبنى العباس من عذر
اربع بطوس (٢) على القبر الزكى إذا ... ما كنت تربع من دين على وطر
قبران فى طوس : خير الناس كلهم ... وقبر شرهم هذا من العبر
ما ينفع الرجس من قرب الزكى ولا ... على الزكى بقرب الرجس من ضرر
هيهات كل امرىء رهن بما كسبت ... له يداه فخذ ما شئت أو فذر

فهذه واحدة ، وأما الثانية فإن المأمون لم يزل يطلبه وهو طائر على وجهه حتى دس إليه قوله :

أنى يكون وليس ذاك بكائن ... يرث الخلافة فاسق عن فاسق
إن كان إبراهيم (٣) مضطلعا بها ... فلتصلحن من بعده لمخارق (٤)

فلما قرأها المأمون ضحك وقال : قد صفحت عن كل ما هجانا به ، إذ قرن إبراهيم بمخارق فى الخلافة ، وولاه عهده ، وكتب إلى أبى أن يكاتبه بالأمان ، ويحمل إليه مالا ، وإن شاء أن يقيم عنده أو يصير إلى حيث شاء فليفعل ، فكتب إليه أبى بذلك ، وكان واثقاً به ، فصار إليه ، فحمله وخلع عليه ، وأجازه وأعطاه المال ، وأشار عليه بقصد المأمون ففعل ، فلما دخل وسلم عليه تبسم فى وجهه ، ثم قال . أنشدنى :

مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحى مقفر (٥) العرصات

فجزع ؛ فقال له : لك الأمان فلا تخف ؛ وقد رويتها ولكنى أحب سماعها من فيك ؛ فأنشده :

مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحى مقفر العرصات
لآل رسول الله بالخيف من منى ... وبالركن والتعريف والجمرات(٦)

---

(١) الخزر : جيل من الترك ، بلادهم شمال فارس (٢) طوس مدينة عظيمة بخراسان تعرف الآن بمشهد ؛ دفن بها الرشيد وعلى بن موسى الرضا. واربع : أقم ؛ والوطر : الحاجة ،

(٣) يريد إبراهيم بن المهدى (٤) مخارق : مغن معروف (٥) المقفر : الخالى من الناس ؛ والعرصات . ساحات الدار (٦) أسماء مواضع بمكة

ديار على والحسين وجعفر وحمزة والسجاد ذى الثفنات (١)
ديار عفاها (٢) كل جون مبادر (٣) ولم تعف للايام والسنوات
قفا نسأل الدار التى خف أهلها : متى عهدها بالصوم والصلوات ؟
وأين الألى شطت بهم غربة النوى أفانين فى الآفاق مفترقات
وما الناس إلا حاسد ومكذب ومضطغن ذو إحنة وترات

ومضى فيها حتى أتى على آخرها . والمأمون يبكى حتى اخضلت لحيته بدمعه ؛ فو الله ماشعرنا به إلا وقد شاعت له أبيات يهجو بها المأمون بعد إحسانه إليه وأنسه به ؛ حتى كان أول داخل وآخر خارج من عنده .

وقال عمرو بن مسعدة (٤) : حضرت أبا دلف عند المأمون — وقد قال له المأمون : أى شىء تروى لأخى خزاعة ؟ فقال . وأى خزاعة يا أمير المؤمنين ! قال : ومن تعرف فيهم شاعراً ؟ فقال : أما من أنفسهم ؛ فأبو الشيص ودعبل وابن أبى الشيص ، وداود ابن أبى رزين ؛ وأما من مواليهم فطاهر وابنه عبد الله فقال : ومن عسى فى هؤلاء أن يسأل عن شعره سوى دعبل ! هات ؛ أى شىء عندك فيه ؟ فقال وأى شىء أقول فى رجل لم يترك أهل بيته حتى هجاهم ، فقرن إحسانهم بالإساءة ، وبذلهم بالمنع ، وجودهم بالبخل ، حتى جعل كل حسنة منهم بازاء سيئة ! قال : حين يقول ماذا ؟ قال : حين يقول فى المطلب بن عبد الله ابن مالك ، وهو أصدق الناس له ، وأقربهم منه ، وقد وفد اليه مصر ، فأعطاه الجزيل وولاه ولم يمنعه ذلك أن قال فيه :

اضرب ندى طلحة الطلحات متئداً بلؤم مطلب فينا وكن حكما
تخرج خزاعة من لؤم ومن كرم فلا تحس لها لؤماً ولا كرماً

فقال المأمون : قاتله الله ! ما أغوصه وألطفه وأدهاه ! وجعل يضحك . ثم دخل عبد الله بن طاهر ، فقال له : أى شىء تحفظ يا عبد الله لدعبل ؟ فقال : أحفظ أبياتاً له فى أهل بيت أمير المؤمنين ؛ قال : هاتها ، ويحك ! فأنشده عبد الله قوله :

---

(١) الثفنة: الركبة ومجتمع الساق والفخذ ؛ والسجاد ذوالثفنات هو على بن الحسين ؛ لأن طول السجود أثر فى ثفناته (٢) عفاها : محاها (٣) الجون المبادر : السحاب الماطر .
(٤) أغانى ص ٤٤ ج ١٨

سقياً ورعياً لأيام الصبابات　　أيام أرفل فى أثواب لذاتى
أيام غصنى رطيب من ليانته　　أصبو إلى غير جاراتى وكناتى (١)
دع عنك ذكر زمان فات مطلبه　　واقذف برحلك عن متن الجهالات
واقصد بكل مديح أنت قائله　　نحو الهداة بنى بيت الكرامات

فقال المأمون : إنه قد وجد والله مقالا فقال ، ونال ببعيد ذكرهم مالا يناله فى وصف غيرهم ، ثم قال : لقد أحسن فى وصف سفر سافره ، فطال ذلك السفر عليه فقال فيه :

ألم يأن (٢) للسفر الذين تحملوا　　إلى وطن قبل الممات رجوع !
فقلت ـ ولم أملك سوابق عبرة　　نطقن بما ضمت عليه ضلوع (٣)
تبين ! فكم دار تفرق شملها　　وشمل (٤) شتيت عاد وهو جميع
كذاك الليالى صرفهن (٥) كما ترى　　لكل أناس جدبة وربيع (٦)

ثم قال : ماسافرت قط إلا كانت هذه الأبيات نصب عينى فى سفرى وهجيراى ومسليتى حتى أعود !

قال أبو خالد الخزاعى لدعبل : ويحك ! قد هجوت الخلفاء والوزراء والقواد ووترت الناس جميعاً ، فأنت دهرك كله شريد طريد هارب خائف ، فلو كففت عن هذا وصرفت هذا الشر عن نفسك ، فقال : ويحك ! إنى تأملت ما تقول فوجدت أكثر الناس لا ينتفع بهم إلا على الرهبة ، ولا يبالى بالشاعر وإن كان مجيداً إذا لم يخف شره ، ولمن يتقيك على عرضه أكثر ممن يرغب اليك فى تشريفه ، وعيوب الناس أكثر من محاسنهم ، وليس كل من شرفته شرف ، ولا كل من وصفته بالجود والمجد والشجاعة ولم يكن ذلك فيه انتفع بقولك ، فاذا رآك أوجعت عرض غيره وفضحته اتقاك وخاف من مثل ماجرى على الآخر ، ويحك

(١) الكنة : امرأة الابن والأخ

(٢) يأن يقرب ويحضر ، والسفر : المسافرون .

(٣) العبرة : الدمعة ، وما ضمت عليه الضلوع : الحزن والشوق إلى الوطن والأهل　(٤) الشمل : ما اجتمع من الأمر أو ما تفرق منه ، والشتيت : المنفرق ، والجميع : المجتمع　(٥) صرف الليالى : أحداثها　(٦) جدبة وربيع : حالتا خير وشر .

يا أبا خالد ! إن الهجاء المقذع (١) آخذ بضبع الشاعر من المديح المضرع (٢) ، فضحك أبو خالد وقال : هذا والله مقال من لا يموت حتف أنفه .

قال دعبل : قال لى أبي رزين ما قلت من الشعر قط إلا هذين البيتين :

خليلى ماذا أرتجى من غد امرىء   طوى الكشح عنى اليوم وهو مكين
وإن امرأ قد ضن منه بمنطق   يسد به فقر امرىء لضنين

وبيتين آخرين وهما :

أقول لما رأيت الموت يطلبنى   ياليتنى درهم فى كيس مياح (٣)
فيااله درهما طالت صيانته   لا هالك ضيعة يوماً ولا ضاح (٤)

وكان سبب خروج دعبل من الكوفة أنه كان يتشطر (٥) ويصحب الشطار فخرج هو ورجل من أشجع فيما بين العشاء والعتمة فجلسا على طريق رجل من الصيارفة ، وكان يروح كل ليلة بكسبه إلى منزله ، فلما طلع مقبلا اليهما وثبا اليه فجرحاه وأخذا ما فى كمه فاذا هى ثلاث رمانات فى خرقة ، ولم يكن كيسه ليلتئذ معه ، ومات الرجل مكانه ، واستتر دعبل وصاحبه ، وجد أولياء الرجل فى طلبهما ، وجد السلطان فى ذلك ، فطال على دعبل الاستتار فاضطر إلى أن هرب من الكوفة فما دخلها حتى لم يبق من أولياء الرجل أحد .

وكان دعبل جالساً بالبصرة وعلى رأسه غلامه نفنف فمر به أعرابى يرفل فى ثياب خز ، فقال لغلامه : أدع لى هذا الاعرابى ، فأومأ اليه الغلام فجاء ، فقال له دعبل : ممن الرجل؟ قال : من بنى كلاب ، قال : من أى ولد كلاب أنت؟ قال : من ولد أبى بكر ، فقال أتعرف القائل :

ونبئت كلبا من كلاب يسبنى   ومحض كلاب يقطع الصلوات
فان أنا لم اعلم كلابا بأنها   كلاب وانى باسل النقمات

---

(١) المقذع من أقذعه : رماه بالفحش وسوء القول وشتمه .

(٢) المضرع : المذل

(٣) المياح : الذى يميح الماء أى يستقيه . (٤) ضاح : ظاهر . (٥) يتشطر يعيش عيشة الشطار ، الشاطر : من أعيا أهله خبثا .

فكان اذاً من قيس عيلان والدى وكانت إذاً امى من الحبطات(١)

وهذا الشعر لدعبل يقوله فى عمرو بن عاصم الكلابى ، فقال الاعرابى : من انت ؟ فكره ان يقول له من خزاعة فيهجوهم ، فقال : انا أنتمى الى القوم الذين يقول فيهم الشاعر :

أناس على الخير منهم وجعفر وحمزة والسجاد ذو الثفنات (٢)
اذا فخروا يوما أتوا بمحمد وجبريل والفرقان والسورات

فوثب الاعرابى وهو يقول : مالى الى محمد وجبريل والفرقان والسورات مرتقى، ومن قول دعبل وفيه غناء :

أين الشباب وأية سلكا لا أين يطلب ضل بل هلكا
لا تعجبى يا سلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى
يا ليت شعرى كيف يومكما يا صاحبى إذا دمى سفكا
لا تأخذا بظلامتى أحداً قلبى وطرفى فى دمى اشتركا

أخذ البيت الثانى من قول مسلم بن الوليد :

مستعبر يبكى على دمنة ورأسه يضحك فيه المشيب

فجاء به أجود من قول مسلم ، فصار احق به منه . وقال الأصمعى : سرقه من قول الحسين بن مطير الأسدى :

أين أهل القباب بالدهناء (٣) أين جيراننا على الأحساء
فارقونا والأرض ملبسة نو ر الأقاحى (٤) تجاك بالأنواء
كل يوم بأقحوان جديد تضحك الأرض من بكاء السماء

وقال البحترى : دعبل بن على أشعر عندى من مسلم بن الوليد لأن كلام

---

(٢) الحبطات : قبيلة من بنى تميم ، وقد تكسر باؤها (٢) الثفنات جمع ثفنة وهى من الانسان الركبة وكان بها آثار من كثرة سجوده .

(٣) الدهناء : واد فى بلاد بنى تميم ببادية البصرة ، والأحساء جمع حسى بكسر فسكون وهو الماء الذى تنشفه الأرض من الرمل فاذا صار إلى صلابة أمسكته وهو علم لمواضع شتى ببلاد العرب .

(٤) الأقاحى : جمع الأقحوان وهو نبات له زهر أبيض فى وسطه كتلة صغيرة صفراء وأوراق زهرة مفلجة صغيرة ، يشبهون به الأسنان .

دعبل أدخل فى كلام العرب من كلام مسلم ومذهبه أشبه بمذاهبهم وكان يتعصب له .

وقال أبو تمام ما زال دعبل مائلا إلى مسلم بن الوليد مقرا باستاذيته حتى ورد عليه بجرجان ، فجفاه مسلم وكان فيه بخل ، فهجره دعبل وكتب إليه :

أبا مخلد كنا عقيدى مودة ... هوانا وقلبانا جميعا معا معا
أحوطك بالغيب الذى أنت حائطى ... وأجزع إشفاقا من ان تتوجعا
فصيرتنى بعد انتكاثك متهما ... لنفسى عليها أرهب الخلق أجمعا
غششت الهوى حتى تداعت أصوله ... بنا وابتذلت الوصل حتى تقطعا
وأنزلت من بين الجوانح والحشى ... ذخيرة ود طالما قد تمنعا
فلا تلحينى ليس لى فيك مطمع ... تحرقت حتى لم أجد لك مرقعا
فهبك يمينى استأكلت فقطعتها ... وجشمت قلبى صبره فتشجعا

ثم تهاجرا فما التقيا بعد ذلك .

وحدث دعبل الشاعر (١) أنه اجتمع هو ومسلم وأبو الشيص وأبو نواس فى مجلس ، فقال لهم أبو نواس : إن مجلسنا هذا قد شهر باجتماعنا فيه ، ولهذا اليوم ما بعده ، فليات كل واحد منكم باحسن ما قال فلينشده ، فانشد أبو الشيص :

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى ... متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة فى هواك لذيذة ... حبا لذكرك فليلمنى اللوم
وأهنتنى فاهنت نفسى صاغراً ... ما من يهون عليك ممن يكرم
أشبهت اعدائى فصرت احبهم ... إذ كان حظى منك حظى منهم

فجعل ابو نواس يعجب من حسن الشعر حتى ما كاد ينقضى عجبه ، ثم انشد مسلم ابياتاً من شعره الذى يقول فيه :

فاقسمت أنسى الداعيات إلى الصبا ... وقد فاجأتها العين والستر واقع
فغطت بايديها ثمار نحورها ... كأيدى الأسارى أثقلتها الجوامع (٢)

قال دعبل : فقال لى ابو نواس : هات ابا على ، وكأنى بك قد جئتنا بأم القلادة ، فانشدته :

اين الشباب ؟ واية (٣) سلكا ؟ ... ام اين يطلب ؟ ضل بل هلكا

---

(١) العقد ص ٤ ج ٢ ، مهذب الأغانى ص ٢٢٤ ج ٧ ، ديوان مسلم ص ٢٠٩ طبعة اوربا . (٢) هى الغل تجمع اليدين إلى العنق .

(٣) أية : أية سبيل .

لا تعجبي ياسـلم من رجل ضحك المشيب برأسه فبكى
ياليت شعرى كيف صـبركما يا صاحبي إذا دمى سفكا ؟
لا تطلبا بظلامتى أحـدا قلبي وطرفي فى دمى اشتركا

ثم سألناه أن ينشد ، فأنشد :

لا تبك هنداً ولا تطرب إلى دعد واشرب على الورد من حمراء كالورد
كأسا إذا انحدرت فى كف شاربها أخذت بحمرتها فى العين والخد
فالخمر ياقوتة ، والكأس لؤلؤة فى كف جارية ممشوقة القد
تسقيك من عينها خمرا ومن يدها خمرا فما لك من سكرين من بد
لى نشوتان وللندمان واحدة شي خصصت به من بينهم وحدى

فقاموا كلهم ، فسجدوا ! فقال : أفعلتموها لا كلمتكم ثلاثا ولا ثلاثا ولا ثلاثا !

يزيد المهلبي

شاعر عباسى بليغ . كان أخص الناس بالمنتصر ، وكان يجالسه قبل مجالسة المتوكل ، فدخل المتوكل يوماً على المنتصر على غفلة فسمع كلامه فاستحسنه ، فاخذه إليه فجعله فى جلسائه . وكان المنتصر يريد منه أن يلازمه كما كان فلم يقدر على ذلك لملازمته أباه ، فعتب عليه لتأخره عنه على ثقة بمودته وأنس به . فلما أفضت إليه الخلافة استاذن عليه ، فحجبه وأمر بان يعتقل فى الدار ، فحبس أكثر يومه ، ثم أذن له فدخل وسلم وقبل الأرض بين يده فامره بالجلوس ثم استاذنه فى الانشاد فاذن ، فانشده :

ألا يا قوم قد برح الخفاء وبان الصبر منى والعزاء
تعجب صاحبي لضياع مثلى وليس لداء محروم دواء
جفانى سيد قد كان برا ولم أذنب فما هذا الجفاء
حللت بداره وعلمت أنى بدار لا يخيب بها الرجاء
فلما شاب رأسى فى ذراه (١) حجبت بعقب ما بعد الرخاء
فان تنأى ستور الاذن عنا فما نأت المحبة والثناء
وإن يك كادنى ظلما عدو فعند البحث ينكشف الغطاء
ألم تر أن بالآفاق منا جماجم حشو أقبرها الوفاء

(١) ذراه : ظله وكنفه

وقد وصف الزمان لنا زياد(١) وقال مقالة فيها شفاء
ألا يارب مغموم سيحظى بدولتنا ومسرور يساء
أمنتصر الخلائف جدت فينا كما جادت على الأرض السماء
وسعت الناس عدلا فاستقاموا بأحكام عليهن الضياء
وليس يفوتنا ما عشت خير كفانا أن يطول لك البقاء

ابن أبى عيينة

هو ابن أبى عيينة بن محمد بن أبى عيينة بن المهلب بن أبى صفرة الأزدى ، شاعر مطبوع ظريف غزل هجاء ، أنفذ أكثر شعره فى هجاء ابن عمه خالد . وكان من شعراء الدولة العباسية من ساكنى البصرة . وأبو عيينة من أطبع الناس وأقربهم مأخذا من غير أدب موصوف ولا رواية كثيرة ، وكان يقرب البعيد ويحذف الفضول ويقل التكلف ،وكان يتعشق فاطمة بنت عمر ويسر عشقها ويلقبها دنيا، كتمانا لأمرها وكانت امرأة جليلة سرية من النساء ، وكان أبوها من أشد الفرسان وشجعانهم ،وقال فى فاطمة هذه :

عيشها حلو وعيشك مر ليس مسرور كمن لا يسر
كديم الحب تسخن فيه عينه أكثر مما تقر
قلت للائم فيها الله عنها لا يقع بينى وبينك أمر
أترانى مقصراً عن هواها ؟ كل مملوك إذا لى حر

ومن قوله فيها :

ألم تنه قلبك أن يعشقا ومالك والعشق لولا الشقا
أمن بعد شربك كأس النهى وشمك ريحان أهل التقى
عشقت فأصبحت فى العالمـ ين أشهر من فرس أبلقا
أدنياى من غمر بحر الهوى خذى بيدى قبل أن أغرقا

ومن مختار ما قاله فى فاطمة :

قل لدنيا بالله لاتقطعينـا واذكرينا فى بعض ما تذكرينا
لاتخونى بالغيب عهد صديق لم تخافيه ساعة أن يخونا

---

(١) يريد قول زياد بن أبى سفيان فى خطبته بالكوفة : رب مسرور بقدومنا سيبتئس ، ومبتئس بقدومنا سيسر .

واذكرى عيشنا وإذ نفض الريـ ح علينا الخيرى(١) والياسمينا
حفظ الله اخوتى حيث كانوا من بلاد سارين أم مدلجينا
فتية نازحون عن كل عيب وهم فى المكارم الاولونا
وهم الاكثرون يعلم ذاك النـ ـاس والاطيبون للاطيبينا
أزعجتنى الاقدار عنهم وقد كنـ ـت بقربى منهم شحيحا ضنينا
وتبدلت خالدا لعنة اللـ ـه عليه ولعنة اللاعنينا
رجل يقهر اليتيم ولا يؤ تى زكاة وينهر المسكينا
ويصون الثياب والعرض بال ويرائى ويمنع الماعونا (٢)

نزع الله منه صالح ما أعـ طاه آمين عاجلا آمينا
فلعمر المبادرين إلى مكة وفداً غادين أو رائحينا
إن أضياف خالد وبنيه ليجوعون فوق ما يشبعونا
وتراهم من غير نسك(٣) يصومو ن ومن غير علة يحتمونا
يابنى خالد دعوه وفروا كم على الجوع ويحكم تصبرونا

وقال الرشيد للفضل بن الربيع: من أهجى المحدثين عندك يافضل فى عصرنا هذا؟ قال الذى يقول فى ابن عمه

لو كما ينقص يزدا د إذاً نال السماء
خالد لولا أبوه كان والكلب سواء
أنا ماعشت عليه أسوأ الناس ثناء
ان من كان مسيئا لحقيق أن يساء

ووفد الى طاهر بن الحسين يسأله أن يعزل أمير البصرة وكان من قبله فعزله وأجزل صلته، فقال:

ياذا اليمينين قد أوقرتنى مننا تترى(٤) هى الغاية القصوى من المنن
ولست أسطيع من شكر أجىء به إلا استطاعة ذى روح وذى بدن
لو كنت أعرف فوق الشكر منزلة أوفى من الشكر عند الله فى الثمن
أخلصتها لك من قلبى مهذبة حذوا على مثل ما أوليت من منن

---

(١) الخيرى: هو المنثور الاصفر (٢) الماعون: المعروف أو كل ما انتفع به
(٣) النسك: العبادة. (٤) تترى: متتابعة

وكان أمير البصرة إسماعيل بن سليمان قد أساء مجاورة ابن أبى عيينة حتى تباعد ما بينهما وقبح ؛ وأظهر اسماعيل تنقصه وعتبه ، فخرج يشكوه الى طاهر ؛ فلما دخل عليه سأله عن حوائجه وأدناه وأمره برفعها ؛ فأنشده :

انى من الله فى مراح غنى ومنتدى واسع وفى نعم
زارتك بى همة منازعة الى العلا من كرائم الهمم
وانى للجميل محتمل فى القدر من منصبى ومن شيمى
وقد تعلقت منك بالذمم الـ ـكبرى التى لاتخيب فى الذمم
فان أنل بغيتى فانت لها فى الحق حق الرجاء والرحم
وان يعق عائق فلست على جميل رأى عندى بمتهم
فى قدر الله ما أحمله تعويق أمرى فى اللوح والقلم
لم يضق الصبر والفجاج على حر كريم بالصبر معتصم

وكان ابن أبى عيينة قد قصد قبيصة بن روح بن حاتم المهلبى واستماحه فلم يجد عنده ما قدره فيه ؛ فانصرف مغاضبا ؛ فوجه اليه داود بن مزيد بن حاتم ، فترضاه وبلغ ما أحبه ورضيه من بره ومعونته . فقال يمدحه ويهجو قبيصة .

أقبيص لست وان جهدت بمدرك سعى ابن عمك ذى العلا داود
شتان بينك ياقبيص وبينه ان المذمم ليس كالمحمود
اختار داود بناء محامد واخترت أكل شبارق (١) وثريد
قد كان مجد أبيك لو أحييته روح أبى خلف كمجد يزيد
لكن جرى داود جرى مبرز (٢) لحوى المدى وجريت جرى بليد
دواد محمود وأنت مذمم عجبا لذاك وأنتما من عود

وولى خالد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب جرجان (٣) فأمر ابن أبى عيينة أن يصحبه ويخرج معه ووعده الاحسان والولاية وأوسع له المواعيد وكان ابن أبى عيينة جنديا فجرد اسمه فى جريدته وأخرج رزقه معه، فلما حصل بجرجان أعطاه رزقه لشهر واحد واقتصر على ذلك وتشاغل عنه وجفاه ؛ فبلغه أنه قد هجاه وطعن عليه وبسط لسانه فيه وذكره بكل قبيح عند أهله ووجوه رعيته ؛ فلم يقدر على معاقبته لموضع أبيه وسنه

(١) الشبارق : ما اقتطع من اللحم صغيراً وطبخ (٢) المبرز ؛ السابق
(٣) جرجان : مدينة عظيمة فى الشمال من بلاد الفرس

ومحله فى أهله ، فدعا به وقال : إنه قد بلغنى أنك تريد أن تهرب فاما ان أقمت لى كفيلا برزقك أورددته، فأتاه بكفيل، فأعنته(١) ولم يقبله ولم يزل يردده حتى ضجر ؛ فجاءه بما قبض من الرزق ، فاخذه ، ولج أبو عيينة فى هجائه وأكثر فيه حتى فضحه فقال فيه :

دنيا دعوتك مسرعا فأجيبى ... وبما اصطفيتك فى الهوى فأثيبى
دومى أدم لك بالصفاء على النوى ... إنى بعهـدك واثق فثقى بى
ومن الدليل على اشتياقى عبرتى ... ومشيب رأسى قبل حين مشيب
أبكى إليك إذا الحمامة طربت(٢) ... يا حسن ذاك إلى من تطريب
تبكى على فنن الغصون حزينة ... حزن الحبيبة من فراق حبيب
وأنا الغريب فلا ألام على البكا ... إن البكا حسن بكل غريب
أفلا ينادى للقتـول برحلة ... تشفى جوى من أنفس وقلوب
مالى اصطفيت على التعسف خالداً ... والله ما أنا بعـدها بأريب
تبا لصحبـة خالد من صحبـة ... ولخالد بن يزيد من مصحوب
يا خالد بن قبيصـة هيجت به ... حرب فدونك فاصطبر لحروبى

البحـــترى

هو الوليد بن عبيد الله بن يحى البحترى الطائى من بحتر بن عتود ثم من طيء ؛ ويكنى أبا عبادة ، وهو كما يقول أبو الفرج : شاعر فاضل حسن المذهب نقى الكلام مطبوع ؛ كان مشايخنا رحمة الله عليهم يختمون به الشعراء ؛ وله تصرف حسن فاضل نقى فى ضروب الشعر سوى الهجاء فإن بضاعته فيه نزرة ؛ وجيده منه قليل . وكان ابنه أبو الغوث يزعم أن السبب فى قلة بضاعته فى هذا الفن أنه لما حضره الموت دعا به وقال له : اجمع كل شيء قلته فى الهجاء ، ففعل ؛ فأمره باحراقه ؛ ثم قال له : يا بنى هذا شيء قلته فى وقت فشفيت به غيظى وكافأت به قبيحاً فعل بى، وقد انقضى أربى فى ذلك ؛ وان بقى روى ؛ وللناس أعقاب يورثونهم العداوة والمودة ؛ وأخشى أن يعود عليك من هذا شيء فى نفسك ومعاشك لا فائدة لك ولا لى منه ؛ قال : فعلت

(١) أعنته : أوقعه فى العنت وهو المشقة .

(٢) طرب صوته : مده ورجعه وحسنه .

أنه قد نصحني وأشفق على فأحرقته . والذي وجدناه وبقي في أيدي الناس من هجائه فأكثره ساقط لا يشاكل طبعه ولا يليق بمذهبه وتنبيء بركاكتها وغثاثة ألفاظها عن قلة حظه في الهجاء. وكان البحتري يتشبه بأبي تمام في شعره ويحذو مذهبه وينحو نحوه في البديع الذي كان أبو تمام يستعمله ؛ ويراه رائداً وإماما ويقدمه على نفسه، ويقول في الفرق بينه وبينه قول منصف : إن جيد أبي تمام خير من جيده ووسطه خير من وسط أبي تمام ورديئه ؛ وكذا حكم هو على نفسه .

وحدث البحتري قال قال أبو تمام : بلغني أن بني حميد أعطوك مالا جليلا فيما مدحتهم به فأنشدني ، فأنشدته بعض ما قلته فيهم . فقال لي : كم أعطوك ؟ فقلت : كذا وكذا ، فقال : ظلموك ، والله ما وفوك حقك ، فلم أستكثر ما دفعوه اليك ، والله لبيت منها خير مما أخذت . ثم قال : لعمري لقد استكثرت واستكثر لك لما مات الناس وذهب الكرام وغاضت المكارم ، فكسدت سوق الأدب ؛ أنت والله يا بني أمير الشعراء غداً بعدي ! فقمت فقبلت رأسه ويديه ورجليه وقلت له : والله لهذا القول أسر لقلبي وأقوى لنفسي مما وصل إلى من القوم .

وكان البحتري من أبغض الناس إنشاداً ، يتشادق ويتزاور في مشيه : مرة جانبا ومرة القهقرى ؛ ويهز برأسه مرة ومنكبيه أخرى ؛ ويشير بكمه ويقف عند كل بيت ويقول :أحسنت والله ! ثم يقبل على المستمعين فيقول : ما لكم لا تقولون أحسنت ؟ هذا والله مالا يحسن أحد أن يقول مثله ! وقال الوليد بن عبيد الله البحتري: كنت في حداثتي أروم الشعر وأرجع فيه إلى طبعي ، ولم أكن أقف على تسهيل مأخذه حتى قصدت أبا تمام ، وانقطعت فيه اليه ، واتكلت في تعريفه عليه . فقال لي : تخير الأوقات وأنت قليل الهموم ، صفر من الغموم ، وأحسن الأوقات لتأليف شيء أو حفظه وقت السحر ، لأن النفس تكون قد أخذت حظها من الراحة ، وقسطها من النوم ، فإن أردت النسيب فاجعل اللفظ رقيقا ، والمعنى رشيقا ، وأكثر فيه من بيان الصبابة ، وتوجع الكآبة ، وقلق الأشواق ، ولوعة الفراق وإذا أخذت في مديح سيد ذي أياد ، فاشهر مناقبه ، وأظهر مناسبه ، وأبن معالمه وشرف مقامه ونضد المعاني ، واحذر المجهول منها . وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الزرية ، وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجسام . وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك ، ولا تعمل إلا وأنت فارغ القلب ، واجعل شهوتك لقول الشعر الذريعة إلى نظمه ، فإن الشهوة نعم المعين ؛ وجملة الحال أن تعتبر

شعرك بما سلف من شعر الماضين ، فما استحسنه العلماء فاقصده ، وما تركو فاجتنبه ، ترشد إن شاء الله .

وقال له أبو تمام يوما وقد سمع شعره وأعجب به :

نعيت والله إلى نفسى ، فقال : أعيذك بالله من هذا القول ، فقال : إن عمرى أن يطول وقد نشا فى طيء مثلك ، أما علمت أن خالد بن صفوان رأى شبيب بن شبا وهو من رهطه يتكلم فقال : يا بنى ؛ لقد نعى إلى نفسى إحسانك فى كلامك ؛ لأنا أهل بيت ما نشأ فينا خطيب قط إلا مات من قبله . فقال : بل يبقيك الله ويجعلنى فداءك ، ومات أبو تمام بعد سنة .

وقال عبد الله بن الحسين بن سعد — وقد أنشد البحترى شعراً لنفسه وقد كان أبو تمام قال فى مثله — : أنت والله أشعر من أبى تمام فى هذا الشعر ، فقال: كلا والله ، إن أبا تمام للرئيس والأستاذ ، والله ما أكلت الخبز إلا به ، فقال له المبرد : لله درك يا أبا الحسن فإنك تأبى إلا شرفا من جميع جوانبك ! وقيل للبحترى : إن الناس يزعمون أنك أشعر من أبى تمام ، فقال : والله ما ينفعنى هذا القول ولا يضر أبا تمام ، والله ما أكلت الخبز إلا به ولوددت أن الأمر كما قالوا ، ولكنى والله تابع له آخذ منه لائذ به ، نسيمى يركد عند هوائه ، وأرضى تنخفض عند سمائه .. وقال البحترى : كان أول امرى فى الشعر ونباهتى ان صرت إلى ابى تمام وهو بحمص ، فعرضت عليه شعرى ، وكان الشعراء يعرضون عليه أشعارهم ، فأقبل علي وترك سائر من حضر . فلما تفرقوا قال لى : أنت أشعر من أنشدنى ، فكيف بالله حالك ؟ فشكوت خلة ، فكتب إلى أهل معرة(١) النعمان وشهد لى بالحذق فى الشعر وشفع لى إليهم ، وقال : امتدحهم ، فصرت إليهم ، فأكرمونى بكتابه ووظفوا لى أربعة آلاف درهم ، فكان أول مال أصبته ، وكانت نسخة كتاب أبى تمام : « يصل كتابى هذا على يد الوليد بن عبادة الطائى وهو على بذاذته(٢) شاعر فأكرموه » .

---

(١) معرة : مدينة بين حلب وحماة ، كان منها أبو العلاء أحمد بن عبد الله المعرى .

(٢) البذاذة : سوء الحال .

قال البحترى : أول ما رأيت أبا تمام أنى دخلت على أبى سعيد محمد بن يوسف وقد مدحته بقصيدتى :

أألاق صب من هوى فأفيقا أم خان عهداً أم أطاع شفيقا

فسر بها أبو سعيد وقال : أحسنت والله يا فتى وأجدت ، وكان فى مجلسه رجل نبيل رفيع المجلس فوق من حضر عنده تكاد تمس ركبته ركبته ، فأقبل على وقال : يا فتى ، أما تستحى منى ؟ هذا شعر لى تنتحله وتنشده بحضرتى ، فقال له أبو سعيد : أحقا تقول ؟ قال : نعم ، وإنما علقه منى فسبقنى به إليك وزاد فيه ، ثم اندفع فانشد أكثر القصيدة حتى شككنى علم الله فى نفسى وبقيت متحيراً ، فاقبل على أبو سعيد فقال : يا فتى ، قد كان فى قرابتك وودك لنا ما يغنيك عن هذا ، فجعلت أحلف له بكل محرجة الأيمان أن الشعر لى ما سبقنى إليه أحد ولا سمعته منه ولا انتحلته ، فلم ينفع ذلك شيئاً ، وأطرق أبو سعيد وقطع بى حتى تمنيت أنى سخت فى الأرض ، فقمت منكسر البال أجر رجلى ، فخرجت ، فما هو إلا أن بلغت الدار حتى خرج الغلمان فردونى ، فاقبل على الرجل فقال : الشعر لك يا بنى ، والله ما قلته ولا سمعته إلا منك ، ولكننى ظننت أنك تهاونت موضعى فاقدمت على الانشاد بحضرتى من غير معرفة كانت بيننا تريد بذلك مضاهاتى وتكاثرنى حتى عرفنى الأمير نسبك وموضعك ، ولوددت ألا تلد أبدا طائية إلا مثلك ؛ وجعل أبو سعيد يضحك ، ودعانى أبو تمام وضمنى إليه وعانقنى وأقبل يقرظنى ولزمته بعد ذلك وأخذت عنه واقتديت به ، ثم حظى البحترى بابى سعيد وكان مداحا له طول أيامه ولابنه بعده ورثاهما بعد مقتلهما فاجاد ، ومراثيه فيهما اجود من مدائحه ؛ وروى انه قيل له فى ذلك ، فقال : من تمام الوفاء ان تفضل المراثى المدائح ، لا كما قال الآخر ، وقد سئل عن ضعف مراثيه ، فقال : كنا نعمل للرجاء ونحن اليوم نعمل للوفاء وبينهما بعد . وكان البحترى من اوسخ خلق الله ثوباً وآلة وأبخلهم على كل شىء ، وكان له اخ وغلام معه فى داره ، فكان يقتلهما جوعا فاذا بلغ منهما الجوع أتياه يبكيان ، فيرمى إليهما بثمن اقواتهما مضيقا مقترا ويقول : كلا أجاع الله أكبادكما ، وأطال إجهادكما .

وقد توارد البحترى والشريف الرضى على ذكر الذئب فى قصيدة للبحترى دالية اولها :

سلام عليكم لا وفاء ولا عهد اما لكم من هجر أحبابكم بد

ومقطوعة للشريف الرضى أولها :

وعارى الشوى والمنكبين من الطوى اتيح له بالليل عارى الأشاجع

وقد أجاد البحترى فى وصف حاله مع الذئب ، وأجاد الشريف فى وصف الذئب نفسه .

وقصيدة البحترى طويلة ومنها :

وأطلس ملء العين يحمل زوره وأضلاعه من جانبيه شوى نهد
له ذنب مثـــل الرشاء يجره ومتن كمتن القوس أعوج منأد
طواه الطوى حتى استمر مريره فما فيه إلا العظم والروح والجلد
يقضقض عصلا فى أسرتها الردى كقضقضة المقرور أرعده البرد
سما لى وبى من شدة الجوع ما به ببيداء لم تعرف بها عيشة رغد
كلانا بها ذئب يحدث نفسه بصاحبه والجد يتعسه الجد
عوى ثم أقعى فارتجزت فهجته فأقبل مثل البرق يتبعه الرعد
فأوجرته خرقاء تحسب ريشها على كوكب ينقض والليل مسود
فما ازداد إلا جرأة وصرامة وأيقنت أن الأمر منه هو الجد
فأتبعتها أخرى فأضللت نصلها بحيث يكون اللب والرعب والحقد
فخر وقد أوردته منهل الردى على ظمأ لو أنه عذب الورد
وقمت فجمعت الحصى فاشتويته عليه وللرمضاء من تحته وقد
ونلت خسيسا منه ثم تركته وأقلعت عنه وهو منعفر فرد

أما قصيدة الشريف الرضى فى وصف الذئب ، فهى :

وعارى الشوى والمنكبين من الطوى أتيح له بالليل عارى الأشاجع
أغبر مقطوع من الليل ثوبه أنيس باطراف البلاد البلاقع
إذا جن ليل طارد النوم طرفه ونص هدى ألحاظه بالمطامع
يراوح بين الناظرين إذا التقت على النوم أطباق العيون الهواجع
له خطفة حذاء من كل ثلة كنشطة أقنى ينفض الطل واقع
ألم وقد كاد الظلام تقضيا يشرد فراط النجوم الطوالع
طوى نفسه وانساب فى شملة الدجى وكل امرىء ينقاد طوع المطامع
إذا فات شىء سمعه دل أنفه وإن فات عينيه رأى بالمسامع

تظالع حتى حك بالأرض زوره ... وراغ وقد روعته غير ظالع
إذا غالبت إحدى الفرائس خطمه ... تداركها مستنجدا بالأكارع
جرىء يسوم النفس كل عظيمة ... ويمضى إذا لم يمض من لم يدافع
إذا حافظ الراعى على الضان غره ... خفى السرى لا يتقى بالطلائع
يخادعه مستهزئا بلحاظه ... خداع ابن ظلماء كثير الوقائع
ولما عوى والرمل بينى وبينه ... تيقن صحبى أنه غير راجع
تأوب والظلماء تضرب وجهه ... إلينا بأذيال الرياح الزعازع
له الويل من مستطعم عاد طعمة ... لقوم عجال بالقسى النوازع

ويكاد يكون من المجمع عليه أنه لم يأت بعد البحترى من هو أطبع منه على الشعر ولا أبدع للخيال الشعرى . قال له يوماً أبو تمام أنت والله يابنى أمير الشعراء غداً بعدى ، وسئل هو عن أبى تمام فقال : جيده خير من جيدى ورديئى خير من رديئه. وسئل المعرى عن أبى تمام وأبى الطيب فقال المتنبى وأبو تمام حكيمان ، وإنما الشاعر البحترى . وقد نشأ البحترى فى بلاد أشبه بالبدو منها بالحضر ينزلها كثير من بطون طى وقضاعة وتغلب ، ولم تكن ألسنتهم فسدت بعد فتخرج عليهم مطبوعاً على فصاحتهم وسهولة أساليبهم ، ولم يؤثر عنه أنه جلس إلى درس العلماء ولازم المتفلسفة ، فابتعد بذلك عن مذاهب الحضريين وتعمقهم وفلسفتهم فكان شعره كله حسن الديباجة ، صقيل اللفظ ، سلس الأسلوب ، ينحدر إلى الاسماع انحدار السيل إلى القاع ، وقلت فيه المعانى المعقدة العويصة التى تنشأ عن تزاحم العلوم العقلية فى ذهن المعبر عنها ، كما كان يقع من أبى تمام والمتنبى والمعرى ، فسهل فهم شعره على جميع طبقات الناس من الخاصة والعامة ، وتغنى به الغلمان والجوارى والقيان .

وبذلك الشعر كان البحترى محبوبا للناس قليل الخصوم منهم عامة حياته واتفق أن خالف طريقته السمحة فى قصيدة يقول فيها يصف الدنيا :

أخى متى خاصمت نفسك فاحتشد ... لها ومتى حدثت نفسك فاصدق
أرى علل الأشياء شتى ولا أرى التـ ... ـجمع إلا علة للتفرق
أرى العيش ظلا توشك الشمس نقله ... فكس فى ابتغاء الرزق كيسك أو مق
أرى الدهر غولا للنفوس وإنما ... يقى الله فى بعض المواطن من يقى
فلا تتبع الماضى سؤالك لم مضى ... وعرج على الباقى فسائله لم بقى
ولم أر كالدنيا حليلة صاحب ... محب متى تحسن بعينيه تطلق
تراها عيانا وهى صنعة واحد ... فتحسبها صنعى لطيف وأخرق

فأوهم بيته الأخير المناقضة فى أفعال الخالق الحكيم المنزه عن الحكمة حتى ليحسب الناظر فى أحوال الدنيا أنها من خلق اثنين أحدهما حكيم يؤثر الخير والأصلح فى صنعه والآخر أخرق يؤثر الفساد والشر ، وهذا مايشبه عقيدة المجوس القائلين بالهين للعالم إله خير وإله شر ، فأول حساده البيت بهذا المعنى ، فأشاعوه فى العامة من الحنابلة وكانت غالبة على بغداد فخاف على نفسه وقال لابنه أبى الغوث قم يابنى حتى نطفىء هذه النائرة بخرجة نلم فيها ببلدنا ونعود ، فخرج ولم يعد

وللبحترى تصرف حسن فاضل نقى فى صنوف الشعر سوى الهجاء ، فان بضاعته فيه نزرة، وجيده فيه قليل ، وأهم مااشتهر به البحترى من الأغراض النسيب والمدح والوصف .. ومن شعره فى الغزل قوله

حبيبى حبيب يكتم الناس أنه ... لنا — حين تلقانا العيون — حبيب
يباعدنى فى الملتقى ، وفؤاده ... — وإن هو أبدى لى البعاد — قريب
ويعرض عنى والهوى منه مقبل ... إذا خاف عينا أو أشار رقيب
فتنطق منا أعين حين نلتقى ... وتخرس منا ألسن وقلوب

وقال فى المدح

دنوت تواضعا وعلوت مجدا ... فشأناك انحدار وارتفاع
كذاك الشمس تبعد أن تسامى ... ويدنو الضوء منها والشعاع

وقوله فى الحكمة

إذا ما نسبت الحادثات وجدتها ... بنات زمان أرصدت لبنيه
متى أرت الدنيا نباهة خامل ... فلا ترتقب الا خمول نبيه

ابن الرومى

٢٢١ - ٢٨٣ هـ - ٨٣٥ - ٨٩٦ م

حياته وشاعريته :

ابن الرومى شاعر مجيد ، وعلم من أعلام القريض فى القرن الثالث الهجرى ، ويعد فى الطبقة الثالثة من شعراء المحدثين ، وهى الطبقة التى كان من أبطالها أبو تمام والبحترى وابن المعتز ، وورثت مجد الشعر بعد طبقة أبى نواس ، وكان لها منهجها الأدبى الخاص ، الذى يقوم على العناية بالصناعة الشعرية ، وعلى توليد المعانى وعمق الخيال (؟) ولد أبو الحسن على بن العباس بن جريج الرومى عام ٢٢١ هـ

من أبوين مختلفى الأرومة ، فأمه تنحدر من عنصر فارسي ، وأبوه ينحدر من عنصر رومى كان يحتفظ بطبيعته الشاعرية ويعتز به طول حياته ، كان مولى لحفيد من أحفاد الخليفة أبى جعفر المنصور ، وولد فى بغداد فى دار بازاء قصر مولاه ، ومات والده فى طفولة الشاعر ، فنشأ ابن الرومى فى ظلال والدته وأخيه الأكبر يعيش هو وأسرته على مال ضئيل خلفه لهم أبوه ، وأخذ يتزود بقسط من ثقافة عصره ، فلم يلبث أن أحاط بكل ما يمكن أن يحاط به من العلوم والآداب ، ونبغ فى الشعر ونظم القريض وطارت شهرته فى سماء بغداد ، ولكن هذه الشهرة لم تنفعه ، كان فقيرا يريد أن يعيش ، وجائعا يريد أن يأكل ، وظمآن يريد أن يروى ، وخلق الثياب يبحث عما يلبسه ، وقصد بشعره رجالات الدولة فى عصره مادحاً فحرموه العطاء ، فعاش ساخطا على الحياة والأحياء

فى دولتى أنا مغصوب وفى زمنى عودى ظمىء بلا رى ولا بلل

كان شاباً جميلا قوى الملكات ، مزودا بشتى ألوان الثقافة ، فلم يغنه ذلك شيئا فى حياته ، وكان يسمع ويرى حياة الترف التى يحياها فى عصره كثير من الناس ، فتمنى لنفسه حظا من النعمة ، فلم يحظ بطائل ، وهو الشاب الذى ذاق ألم اليتم والشاعر المرهف الاحساس فاشتد سخطه على الناس ، وأمطرهم وابلا من أهاجيه التى بغضته الى الناس ، وزادت من آلامه فى الحياة .

كان أبو الحسن على بن العباس إذن مزيجا من الدم الفارسى والرومى يعتز بانتمائه للروم اعتزازه بانتسابه الى الفرس :

كيف أغضى على الدنية والفر س خؤولى والروم هم أعمامى

نزح أجداد الشاعر الى بغداد عاصمة الدولة العباسية إبان نشأتها ، فأقاموا بها مع مواليهم بنى العباس ، وكان ابن الرومى كأجداده وآبائه مولى من موالى العباسيين له بهذا الولاء اعتزاز :

مولاهم وغذى نعمتهم والروم حين تنصنى أصلى

ونشأ فى كنف أخيه محمد بن العباس ، وفى ظلال مواليه ؛ لم يكن محمد بن العباس صاحب ثروة ؛ ولا ذا جاه ؛ إنما كان أديباً يكتب لولاة بنى العباس وقوادهم ، فعاش ابن الرومى اليتيم يرفل فى عطفه وبره ونعمته .. ثم دار الزمن دورته ، فاذا الطفل شاب عريض الخيال ؛ طويل الآمال ؛ لكن اليتم قد هاض جناحه ، وراض جماحه ، فاعتصم الشاب الصغير بالأمانى العذاب ، وأقبل على حلقات العلم ومجامع

الأدب ، يطفىء بهما غلته ، ويرضى بالإقبال عليهما همته ، ويجد فيهما قبسا من الأمل الباسم والمستقبل المرموق ، وجميل السلوى والعزاء . . . الدولة دولة العباسيين وأصفيائهم من الموالى ، الذين صعدوا بالعلم والأدب إلى ذروة المجد والجاه ، وهذا ابن الرومى يتسلح بالعلم والأدب ، ليدرك بهما ما أدرك أفذاذ الموالى من عزة ورفعة ، وعكف الشاب الطموح على الدرس والتحصيل ، فغذى عقله وروحه بالثقافات العربية والفارسية واليونانية ، وقرأ ما ترجم من لغة الفرس واليونان ، وما ألف فى شتى العلوم والمعارف ، حتى برع فى كل فن ونبغ فى كل علم ، وبذ أترابه فى ميدان اللغة وأدبها ، كما حصل علوم الفلسفة والفلك والكلام . وكما كان شاعراً كان كاتبا صاحب رسائل ، ومفكراً ينفذ فكره إلى كل شيء ، وعالما يشار له فى علوم اللغة والأدب بالبنان .

وظل ابن الرومى ينهل من معين الثقافة العذب شاباً ورجلا وكهلا ، تساعده على ذلك ذاكرة قوية وذهن خصب وعبقرية نادرة ، وإحساس عميق . وأخذت شهرة ابن الرومى الأدبية تطغى على جوانب شخصيته الأخرى ، وأصبح اسم ابن الرومى الشاعر يردد فى حلقات الأدب ببغداد ، فيلتفت الناقد ، ويغضب الحاسد ، ويرتفع الشاعر فى رأى المنصف إلى قمة المجد والنبوغ . . ولكن الأحداث لم تهادن الشاعر ، فرزىء وهو فى الثلاثين بوفاة أخيه ، فحزن عليه ورثاه بشعره ، ثم رزىء بوفاة أولاده واحداً بعد واحد ، فجزع عليهم ورثاهم . ثم توفيت زوجه بعدهم ، فأمضه الحزن ، وبعد ذلك ماتت أمه ، فذابت نفسه حسرات ، وفاضت عينه عبرات :

رجعنا وأفردناك غير فريدة ... من البر والمعروف والخير والكرم
فلا تعدمى أنس المحل فطالما ... عكفت فآنست المحاريب فى الظلم
نبا ناظرى يا أم عن كل منظر ... وسمعى عن الأصوات بعدك والنغم
وأصبحت الآمال مذ بنت والمنى ... غوادر عندى غير وافية الذمم

وقضى ابن الرومى أيامه فى بغداد ، ظاهر البؤس ، كثير الألم والشكوى ، يطلب الحياة فلا تلبى نداءه الحياة ، ولا تذوب لشكاته نفوس أهل المروءة والأريحية . ولما نبا به حظه فى بغداد هجرها ، وطاف ببعض المدن ينشد فيها الأمل الضائع ، بيد أنه لم يعثر فيها على أمانيه المنشودة ، فعاد إلى بغداد مشوقا إليها ، مشوقة اليه :

بلد صحبت به الشبيبة والصبا ولبست ثوب العمر وهو جديد
فإذا تمثل فى الضمير رأيته وعليه أغصان الشباب تميد

وقنع برزقه الضيق ، وحياته الشقية ، كارها الغربة والسفر :

أذاقتنى الأسفار ماكره الغنى إلى وأغرانى برفض المطالب
فأصبحت فى الإثراء أزهد زاهد وإن كنت فى الإثراء أرغب راغب
لقيت من البر التباريح بعدما لقيت من البحر ابيضاض الذوائب

ومدح آل وهب وآل طاهر ينشد الثراء والجاه ، ولكنه لم ينل منالا ، حتى إذا وهن عظمه وناء بأحداث الزمن الجائر ، أخذ يذكر الشباب فى لوعة وأسى :

وعزاك عن ليل الشباب معاشر فقالوا: نهار الشيب أهدى وأرشد
أأيام لهوى هل مواضيك عود وهل لشباب ضل بالأمس منشد؟

ولكن هيهات أن يعود الشباب .. وأخيراً مات الشاعر ، سمه أحد أتباع القاسم بن عبد الله بن سليمان بن وهب وزير المعتضد ، فسكنت النفس الشاعرة ، وصمتت العبقرية الصادحة ، وأوى شهيد الآمال إلى جدث أوت إليه معه العبقرية ورفت عليه العظمة وجلال الذكريات .

هذا هو ابن الرومى : يتيما حائراً ، وشابا معذبا ، ورجلا طامحا شقيا بطموحه وشيخا خاصمته الأيام ، وحالفته الآلام . وذلك هو الشاعر : متعلما يقبل على الدرس والتحصيل ، وعالما متعمقا فى فروع الثقافة والمعرفة ، وشاعرا ذاع صيته فى بغداد ، وكاتبا يبذ الكتاب والأدباء .

وقد عاصر ابن الرومى المعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتضد وتوفى فى عهد المعتضد عام ٢٨٣ ه ... واشتهر ابن الرومى فى عصره بالتشاؤم والطيرة ، وتروى له فى طيرته قصص كثيرة . وينطق شعره بتشاؤمه فى الحياة ، وأفرط الشاعر فى تشاؤمه ففتح ذلك بابا لطيرته لم يسده عليه إلا الموت ، فتطير من كل شىء ، حتى من الأسماء ، ومن ركوب الماء ، بل حتى من شربه :

وأخشى الردى منه على كل شارب فكيف بأمنيه على نفس راكب

وليس بدعا من ابن الرومى هذه الطيرة ، فقد نزلت به خطوب فادحة ، أضلت صوابه ، فسكن إلى هواجس النفس ، ووساوس الشعور . .

وكان ابن الرومى حاد المزاج ، مرهف الشعور ، كثير الطيرة ..

روى على بن ابراهيم قال : كنت بدارى جالسا (١) فاذا حجارة سقطت بالقرب منى فبادرت هاربا ، وأمرت الغلام بالصعود إلى السطح ، والنظر إلى كل ناحية من أين تأتينا الحجارة ؟ فرجع إلى وقال لى : امرأة من دار ابن الرومى الشاعر ! قد تشوفت (٢) ، وقالت : اتقوا الله فينا ، واسقونا جرة من ماء ! وإلا هلكنا ، فقد مات من عندنا عطشا ! فتقدمت إلى امرأة عندنا ذات عقل ومعرفة أن تصعد إليها وتخاطبها ، ففعلت وبادرت بالجرة ، واتبعتها شيئا من الطعام ، ثم عادت إلى فقالت : ذكرت المرأة أن الباب عليها مقفل منذ ثلاثة أيام بسبب تطير ابن الرومى ، وذلك انه يلبس ثيابه كل يوم ويتعوذ . ثم يصير إلى الباب ، والمفتاح معه ، فيضع عينه على ثقب فى خشب الباب ، فتقع على جار له كان نازلا بازائه ؛ وكان أحدب يقعد كل يوم على بابه ، فاذا نظر اليه رجع ، وخلع ثيابه ، وقال : لا يفتح أحد الباب !

فعجبت لحديثها وبعثت بخادم لى كان يعرفه ، فأمرته أن يجلس بإزائه ـ وكانت العين تميل إليه — وتقدمت إلى بعض أعوانى أن يدعو الجار الأحدب ، فلما حضر عندى أرسلت وراء غلامى لينهض إلى ابن الرومى ويستدعيه ، فإنى لجالس ومعى الأحدب ، إذ وافى أبو حذيفة الطرسوسى ومعه برذعة الموسوس ، صاحب المعتضد ، ودخل ابن الرومى ؛ فلما تخطى عتبة باب الصحن عثر فانقطع شسع (٣) نعله ، فدخل مذعورا ! وكان إذا فاجأه الناظر رأى منه منظراً يدل على تغير حاله ، فدخل وهو لا يرى جاره المتطير منه ، فقلت له : يا أبا الحسن . أيكون شىء فى خروجك أحسن من مخاطبتك للخادم ونظرك إلى وجهه الجميل ؟ فقال : قد لحقنى مارأيت من العثرة لأنى فكرت أن به عاهة ! وهى قطع أنثييه (٤) . قال برذعة : وشيخنا يتطير ؟ قلت : نعم ويفرط ! قال : ومن هو ؟ قلت : على بن العباس (٥) . قال الشاعر ؟ قلت : نعم ! فأقبل عليه وأنشده:

---

(١) زهر الآداب ص١٧٧ ج ٢ ـ ذيل زهر الآداب ص٢٤٣ ـ معجم الأدباء ص ٢٩٦ ج ١٣ . (٢) تشوفت : نظرت وتطاولت .

(٣) الشسع . أحد سيور النعل وهو الذى يدخل بين الأصبعين ويدخل طرفه فى الثقب الذى فى صدر النعل المشدود فى الزمام (٤) يعنى أنه مجبوب .

(٥) هو اسم ابن الرومى

ولما رأيت الدهر يؤذن صرفه ... بتفريق ما بيني وبين الحبائب(١)
رجعت إلى نفسي فوطنتها على ... ركوب جميل الصبر عند النوائب
ومن صحب الدنيا على جور حكمها ... فأيامه محفوفة بالمصائب
فخذ خلسة من كل يوم تعيشه ... وكن حذرا من كامنات العواقب
ودع عنك ذكر الفأل والزجر واطـ ... ـرح تطير جار أو تفاؤل صاحب!

فبقى ابن الرومى باهتاً ينظر إليه! ولم أدر أنه قد شغل قلبه بحفظ ما أنشده، ثم نهض أبو حذيفة وبرذعة معه.

فحلف ابن الرومى لا يتطير أبداً من هذا ولا من غيره، وعجب من جودة الشعر ومعناه، وحسن مأتاه، فقلت له: ليتنا كتبناه؟! قال: اكتبه فقد حفظته وأملاه على.

شاعريته وخصائصها:

كان للدم الرومى وأثر الوراثة ولحياة الشاعر وبؤسه ولثقافته وبيئته ولمشاعره المرهفة ووجدانه الرقيق، كان لذلك كله أثره البعيد فى شاعرية الشاعر وفنه الأدبى الذى كان صورة مكبرة لكل ألوان هذه الحياة. اجتمعت له دقة الملاحظة والاحساس وعمق الشعور بالمتناقضات فى نفسه وفى زمنه، فولدت فى نفسه روح السخرية، وأشاعت فى فنه هذا اللون الجيد من ألوان الشعر والشعور، وهو فن الهجاء الذى امتاز به الشاعر وأجاده حتى حين يهجو من لم يؤذه بشىء، كما يقول يهجو مغنياً من قصيدة طويلة:

ومسمع لا عدمت فرقته ... فإنها نعمة من النعم
مجلسه مأتم اللذاذات والقصف ... وعرس الهموم والسدم
وكأننى من طول ما أشاهده ... أشرب كأسى ممزوجة بدمى
إذا الندامى دعوه آونة ... تنادموا كأسهم على الندم

وكان لبؤسه فى الحياة وفقده كثيراً من الأعزاء أثر واضح فى إجادته فن الرثاء وداليته فى رثاء ابنيه من أجود قصائد الرثاء ومطلعها:

بكاؤكما يشفى وإن كان لا يجدى ... فجودا فقد أودى نظيركما عندى

(١) الحبائب: مفرده حبيبة.

وكذلك جيميته فى رثاء يحى العلوى الذى قتل عام ٢٥٠ هـ ، وميميته فى رثاء البصرة حين ضربها الزنج عام ٢٥٧ هـ (١) .. وشغف قلب ابن الرومى بالحياة ، وتطلعه إلى متعها ولذاذاتها ، وحياته فى مظاهر الحضارة التى كانت تغمر عصره ، وأثر الوراثة فى نفسه ، كل ذلك جعله من أعظم الوصافين فى الشعر العربى ، وقصيدته فى وحيد المغنية مثل من أمثلة هذه الإجادة ويقول منها :

يا خليلى تيمتنى وحيد ... ففؤادى بها معنى عميد
غادة زانها من الغصن قد ... ومن الظبى مقلتان وجيد
تتجلى للناظرين إليها ... فشقى بحسنها وسعيد
تتغنى كأنها لا تغنى ... من سكون الأوصال وهى تميد
مد فى شأو صوتها نفس كاف ... كأنفاس عاشقيها مديد
فتراه يموت طورا ويحيا ... مستلذ بسيطه والنشيد
خلقت فتنة غناء وحسنا ... مالها فيهما جميعاً نديد
هى شىء لا تسأم العين منه ... ولها كل ساعة تجديد
منظر مسمع معان من اللهو ... عتاد لما يحب عتيد

ومن وصفه كذلك :

وقيان كأنها أمهات ... عاطفات على بنيها حوانى
مطفلات وما حملن جنينا ... مرضعات ولسن ذات لبان
كل عود يدعى بأسماء شتى ... بين عود ومزهر وكران
أمه دهرها تترجم عنه ... وهو بادى الغنى عن الترجمان

إلى غير ذلك من روائع قصائده فى الوصف والتصوير ، كما أجاد فى وصف الخمر ، وفى وصف الأخلاق والعواطف ، ويبلغ فى العتاب الغاية فى الجودة ، كما فى قصيدته فى عتاب أبى القاسم الشطرنجى ، التى مطلعها :

يا أخى أين عهد ذاك اللقاء ... أين ما كان بيننا من صفاء

وله آيات فى المدح تحوز الإحسان والإجادة ، ومنها نونيته فى أبى الصقر ، ومطلعها :

أجنت لك الوجد أغصان وكثبان ... فيهن نوعان تفاح ورمان

---

(١) ذاد عن مقلتى لذيذ المنام ... شغلها عنه بالدموع السجام

،إمامك فانظر أى نهجيك تنهج ... طريقان شتى : مستقيم وأعوج

ويقول فيها :

قالوا أبو الصقر من شيبان قلت لهم   كلا لعمرى ولكن منه شيبان

وكم أب قد علا بابن ذرى شرف   كما علت برسول الله عدنان

ويمتاز ابن الرومى بتفضيله المعنى على اللفظ كما كان المتنبي ، فهو يطلب صحة المعنى ولا يبالى حيث وقع من هجونة اللفظ وخشونته ، كما يقول ابن رشيق(١) .. كان بديع المعانى بعيدها ، كثير الاختراع والتوليد فيها ، والاستقصاء لها لا يترك فيها بقية لغيره ، والقدرة التامة فى تشقيق المعانى وتفصيلها هى أخص خصائص شاعرية ابن الرومى، ويقول ابن رشيق فيه : « إنه أكثر الشعراء اختراعا للمعانى » :أما أسلوبه فجمع بين الجيد والردىء وروح الصنعة ظاهرة فيه ، وإن كانت فى شعره أقل منها فى شعر ابن المعتز ، لم يكن ابن الرومى يعنى بتهذيب شعره وتنقيحه ، ولو أسقط رديئه لكان فى ذلك أجود الشعراء ؛ وفى الغالب أن شعراء المعانى كابن الرومى وأبى تمام قلما تنهض ألفاظهم بأداء معانيهم ، وقد كان ابن الرومى لا يحفل باللفظ إلا بقدر اداء المعنى . وتمتاز قصائده بطول النفس مما لا يجاريه فيه إلا ابن هانىء الأندلسى ، وقد ساعده على الإطالة أسلوبه الخاص فى تناول كل معنى من معانيه بالإفاضة والشرح ، وتقليبه على كل نواحيه؛ كما تمتاز قصائده بالانسجام والوحدة فى تأليفها ، حتى لكأنها قطعة واحدة مؤلفة تأليفا منطقيا لا عوج فيها ولا ضعف ولا استطراد، وخياله خياله يقظ ، حسى فى غالب شعره ؛ يترك الحس إلى عالم العقل احيانا ، أوتى ملكة التصوير ولطف التخيل ، وبراعة اللعب بالمعانى والأشكال .

ولا تكاد تجد شاعرا اختلف النقاد فى منزلته الأدبية مثل ابن الرومى ؛ أهمله صاحب الأغانى إهمالا يعلله بعض بالخصومات الأدبية التى كانت بين الرومى والأخفش أستاذ أبى الفرج ، ويعلله آخر بأن ابن الرومى كان شعوبيا وأبا الفرج كان أمويا ؛ وقال آخرون : إن روح السخط على ابن الرومى كانت لا تزال متأججة اللهب ؛ لأهاجيه فى رجالات الدولة . وأعلله أن أبا الفرج لم يرتض مذهب ابن الرومى فى الشعر ، ونهجه فى نظم القريض . ويقول القاضى الجرجانى عنه فى وساطته : « وقد نجد كثيرا ينتحل تفضيل ابن الرومى ، ويغلو فى تقديمه ، ونحن نقرأ القصيدة الواحدة من شعره ، وهى قد تناهز المائة أو تزيد ، فلا نعثر فيها إلا بالبيت الذى يروق أو البيتين ، ثم قد تنسلخ قصائده منه ، وهى واقفة تحت ظلها جارية على

---

(١) العمدة ١/٨٢

رسلها (١) ، لا يحصل منها السامع إلا على عدد القوافى ، وانتظار الفراغ منها(٢) » ويقول ابن رشيق فى عمدته : « وأما ابن الرومى فأولى الناس باسم شاعر ، لكثرة اختراعه ، وحسن افتنانه ، وقد غلب عليه الهجاء (٣) » . ويقول ابن شرف القيروانى فيه : « وابن الرومى شجرة الاختراع ، وثمرة الابتداع ، وله فى الهجاء ، ما ليس له فى الإطراء . ولقد كان واسع العطن ، لطيف الفطن (٤) » . ويقول المعرى عنه فى رسالة الغفران : « وابن الرومى أحد من يقال إن أدبه أكثر من عقله ، وكان يتعاطى علم الفلسفة (٥) » . ويقول فيه ابن خلكان : « هو صاحب النظم العجيب ، والتوليد الغريب ، يغوص على المعانى النادرة فيستخرجها من مكانها ، ويبرزها فى أحسن صورها ، ولا يترك المعنى حتى يستوعبه إلى آخره ، ولا يبقى فيه بقية » . ويقول المسعودى فيه : «كان من مختلق معانى الشعر ؛ والمجودين فى القصير والطويل ، وكان الشعر أقل أدواته » ، وقد أشاد به أدباء العصر الحديث ، وعدوه شاعر الفن والتصوير فى الشعر العربى ؛ ويقول ناقد من المحدثين : إنما جنى عليه وغربه عند أهل عصره ، وفى أذواقهم ، تفرده ، ووحدة ذوقه وبعده عن أذواق الناس ، فلم يألفوه ولم يطربوا له ، طربهم لأشباهه الذين ينظرون إلى الحياة بأعينهم ، ويتناولون المعانى على طريقتهم (٦) ، وقد صور ابن الرومى رأيه فى شعره فى قصيدة يقول فيها :

قولا لمن عاب شعر مادحه ... أما ترى كيف ركب الشجر
ركب فيه اللحاء (٧) والخشب ... اليابس والشوك دونه الثمر
وكان أولى بأن يهذب ما يخلق ... رب الأرباب لا البشر
فليعذر الناس من أساء ومن ... قصر فى الشعر إنه بشر

---

(١) الرسل : التؤدة
(٢) ٥٤ وساطة
(٣) ١/٢٥٥ العمدة
(٤) رسائل الانتقاد
(٥) ١٦١ — ١٦٤ رسالة الغفران
(٦) مقدمة ديوان ابن الرومى للعقاد
(٧) قشر الشجر

وشعر ابن الرومى صورة لثقافته الواسعة المتعددة الألوان والعناصر ، فهو طويل النفس فى قصائده ، بديع المعانى ، كثير التحليل والتوليد والاختراع فيها ، جميل التنسيق والاستقصاء ، جزل الأسلوب ، متين الأداء ، سلس الألفاظ ، بعيد عن زلات اللسان وسقطات البيان وأخطاء اللغة . وكذلك ترى شعره صورة صادقة لنفسه وحياته ، ترى فيه الغث والسمين ، لأنه لم يكن يكز عليه بالتجويد والتهذيب ، كما كان يفعل سواه من الشعراء ، ومعانيه أكثرها مبتكر مبتدع ، وقل أن ترى له معنى أخذه من غيره ، أو سرقة عمد إليها كما يفعل سواه من الشعراء ، وكان إذا تناول معنى قديما أفاض عليه من شاعريته أثوابا من التجديد والبيان ، قال أبو تمام :

غربته العلى على كثرة الأهـ ـل ، فأضحى فى الأقربين جنيبا

أخذه ابن الرومى فزاد فيه وأبدع فى قوله :

غربته الخلائق الزهر فى النا س ، وما أوحشته بالتغريب

وقد شهر ابن الرومى بالهجاء والإقذاع فى السخرية ، يسخر من بخيل فيقول :

يقتر عيسى على نفسه وليس بباق ولا خالد

فلو يستطيع لتقتيره تنفس من منخر واحد

ويقول فى أصلع :

فوجهه يأخذ من رأسه أخذ نهار الصيف من ليله

وهذه المقدرة البارعة فى الهجاء والسخرية نشأت من سخطه على المجتمع والناس ، بيد أنك تلمح فى هجائه العفة والشرف والنبل .

ويمتاز ابن الرومى بدقة الوصف دقة متناهية ، حتى لتلمح فيه قدرة الشاعر وبراعته وقوة شاعريته ، فإذا وصف جلى لك صورة ما يصف حتى لتراها أمامك فى تمثال من الصور والتعابير .

صور فنية من شعره :

قال ابن الرومى فى امرأة ورقيبها :

ما بالها قد حسنت ورقيبها أبدا قبيح ، قبح الرقباء

ما ذاك إلا أنها شمس الضحى أبدا يكون رقيبها الحرباء

وهى صورة شعرية غنية بنفسها عن الأعجاب والشرح ؛

وأجود ماقيل فى الريق قوله :

يارب ريق بات بدر الدجى   يمجه بين ثناياكا
يروى ولا ينهاك عن شربه   والماء يروى وينهاكا

فليس لهذا البيت نظير فى معناه

وقال فى الخمر والنرجس :

وريحانهم ذهب على درر   وشرابهم درر على ذهب

فأجاد وأبدع فى إخراج هذه الصورة الساخرة .

وقال فى خبو الشمس حين غروبها :

كأن خبو الشمس ثم غروبها   وقد جعلت فى مجنح الليل تمرض
تخاوص عين بين أجفانها الكرى   يرنق (١) فيها النوم ثم تغمض

وهى صورة جيدة الشبه للشمس عند الغروب

ومن جيد تشبيهات أبى نواس وقد نبه نديما للصبوح قوله :

فقام والليل يجلوه الصباح كما   جلا التبسم عن غر الثنيات

ولابن الرومى التقدم عليه بقوله فى الراح ، وقد أخذ أصل المعنى ونقله إلى وصفها فقال :

يفتر ذاك السواد عن يقق   من ثغرها كاللآلىء النسق
كأنها والمزاج يضحكها   ليل تعرى دجاه عن فلق

وقال أبو نواس :

تبكى فتذرى الدر من نرجس   وتلطم الورد بعناب

أخذه سعيد بن حميد فقال .

وكانما أثر الدموع بخدها   طل تساقط فوق ورد يانع

وقال البحترى فى هذا المعنى :

شقائق يحملن الندى فكأنه   دموع التصابى فى خدود الخرائد

وقال ابن الرومى فى دموع المحبين وقت الوداع :

كأن تلك الدموع قطر ندى   تقطر من نرجس على ورد

فأجاد وأبدع باختصار اللفظ وحسن السبك

ومن الابيات الجامعة فى المدح قول ابن الرومى :

هو الغرة البيضاء من آل هاشم   وهم بعده التحجيل والناس أدهم

ومن أجود ماقيل فى الثريا قول بعض الشعراء :

(١) رنقه : كدره

ولاحت لساريها الثريا كأنها على الافق الغربى قرط مسلسل

أخذه ابن الرومى فقال :

طيب طعمه إذا ذقت فاه والثريا فى جانب الغرب قرط

ومن أحسن ماقيل فى شروق الكأس قول ابن الرومى ، وأتى بشيء لم يسبق إليه ، وهو تشبيه الحباب بفلق اللؤلؤ ، فقال :

لها صريح كأنه ذهب ورغوة كاللآلىء الفلق (١)

وقال ابن الرومى :

وقبلت أفواها عذابا كأنها ينابيع خمر خضبت لؤلؤ البحر

قال ابو هلال فى ديوان المعانى (١) : البحر زيادة لايحتاج إليها لأن اللؤلؤ لايكون إلافى البحر ، فلو كان فى غير البحر لؤلؤ فليس لنسبته إليه فائدة .. وأخيرا فلابن الرومى القدرة الفائقة على تهجين ما أجمع الناس على استحسانه ، كما فعل فى الورد من تهجينه وتفضيل النرجس عليهفى صورة جميلة مؤثرة (٢)

وقال امرؤ القيس :

وتعطو برخص غيرشثن كأنه أساريع ظبى أو مساويك إسحل

وحول هذا المعنى يقول أبو نواس:

تعاطيكها كف كأن بنانها إذا اعترضتها العين صف مدارى

ويقول ابن الرومى :

أشار بقضبان من الدر رقعت يواقيت حمرا ، فاستباح فؤادى

ويقول ابن المعتز :

أشرن على خوف بأغصان فضة مقومة أثمارهن عقيق

وقال ابن الرومى :

أعانقه والنفس بعد مشوقة اليه ، وهل بعد العناق تدان؟

---

(١) الفلق : الصبح

(١) ٢٣٩ / ١ (٢) وذلك فى قطعة شعرية طويلة أولها:

خجلت خدود الورد من تفضيله خجلا توردها عليه شاهد

وقدحللها عبدالقاهر وبين منزلتها فى البيان وفى جودة التخييل وحسن التعليل، حتى قال فيها : إنه جاء بحسن وإحسان لاتكاد تجد مثله إلا له (٢٤٨ أسرار)

كأن فؤادى ليس يشفى غليله سوى أن يرى الروحين يمتزجان

وفى هذا المعنى يقول ابن المعتز :

يا رب إخوان صحبتهمو لا يملكون لسلوة قلباً
لو تستطيع قلوبهم فقدت أجسادها وتعانقت حباً

وقال أبو نواس فى الراح :

إذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل فى داج من الليل كوكبا

أخذه ابن الضحاك وأحسن :

كأنما نصب كاسه قمر يكرع فى بعض أنجم الفلك

وقال ابن الرومى فيه ، وكان أحسن منهما :

فكأنها وكأن شاربها قمر يقبل عارض الشمس

وقال ابن المعتز فزاد عليهم جميعاً :

وكأنه وكأن الكاس فى فمه هلال أول شهر غاب فى شفق

وهو أحسن ما وصف به كأس على فم ...

ومن أحسن ما قيل فى وصف مغن قول ابن المعتز :

ومغن ملحق كل نفس بهواها ، وهو للسكر عذر

وأجمع من ذلك قول ابن الرومى :

تتغنى كأنها لا تغنى من سكون الأوصال وهى تميد
ولها الدهر لائم مستزيد ولها الدهر سامع مستجيد

وقال ابن الرومى :

كأن نسيمها أرج الخزامى ولاها بعد وسمى ولى
إذا أنفاسها نسمت سحيراً تنفس ـ كالشجى ـ لها الخلى

وحول هذا المعنى يقول ابن المعتز :

وما ريح قاع عازب طله الندى وروض من الريحان ذرت سحائبه
فجاءت سحيرا بين يوم وليلة كما جر فى ذيل الغلالة ساحبه

وقال ابن الرومى من قصيدة فى وصف مجلس الراح :

شمس من الحسن فى معصفرة ضاهت بلون لها معصفرها
فى وجنات تحمر من خجل كأن ورد الربيع حمرها
يسعى اليها بكأسه رشأ أنثه الله وذكرها

في كفه كالشهاب لاح على ظلماء ليل دجت فنورها
إن برزت للهواء غيرها أو قرعت بالمزاج كدرها

ويقول ابن المعتز فى مجلس الراح أيضا من قصيدة :

ومجلس جل أن نشبهه جن به مزهر ومزمار
وزانه من بنى العباد رشا بالجيد والمقلتين سحار
قد ركبت كفه مشعشعة إبريقها فى الكأس هدار
يلمع فيها من كل ناحية كوكب نوره اليك نظار
فظلت فى يوم لذة عجب وافى به للسعود مقدار
وقابل الشمس فيه بدر دجى يأخذ من نورها ويمتار

١ — ففى هاتين القطعتين وصف للساقى والراح ، وفى قطعة ابن الرومى زيادة وصف للقينة التى تغنى فى مجلس الراح .

٢ — ووصف ابن الرومى الساقى بالأنوثة ، ووصفه ابن المعتز بالسحر .

٣ — شبه ابن الرومى نور الراح فى الكأس ، بالشهاب فى ظلام الليل .. أما ابن المعتز فقد شبه الكأس بالبدر ، والراح بالشمس . وجعل الكأس يأخذ من نورها ويمتار

٤ — ووصف ابن الرومى الراح بأنها أصفى من الماء وألطف من الهواء، ووصفها ابن المعتز بكوكب نور متوقد .

٥ — وألفاظ ابن المعتز موسيقية ، وأعذب من ألفاظ ابن الرومى .

٦ — وابن الرومى فى جملة الأمر يركب الصور ويمزج التشبيهات ولكن ابن المعتز يقف عند حدود التصوير لا يعمد لمزج تلك الأصباغ بعضها ببعض بل يزجيها مجتمعة دون اتحاد أو امتزاج .

٧ — وابن الرومى يفوته أحيانا ما هو أبلغ فى الوصف ، وأروع فى أداء الغرض ، من حيث لايفوت ذلك ابن المعتز ، كما رأينا فى وصف ابن الرومى للساقى بالأنوثة ، ووصف ابن المعتز له بالسحر

وروى صاحب العمدة والبغدادى فى خزانة الأدب والعباسى فى معاهد التنصيص أن لائما لام ابن الرومى ، وقال له : لم لا تشبه تشبيهات ابن المعتز وأنت

أشعر منه ، فقال : ألا تنشدنى شيئا من قوله ؟ الذى استعجزتنى عن مثله ، فانشده قوله فى الهلال :

انظر إليه كزورق من فضة قد أثقلته حمولة من عنبر

فقال له : زدنى ، فانشده قوله فى الآذريون (وهو زهر أصفر فى وسطه خمل أسود وليس بطيب الرائحة) :

كأن آذريونها والشمس فيها كالية
مداهن من ذهب فيها بقايا غالية

فصاح : واغوثاه لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، ذاك إنما يصف ماعون بيته . لأنه ابن خليفة ، وأنا أى شيء أصف ؟ ولكن انظر إذا وصفت ما أعرف ، أين يقع قولى من الناس ،هل لأحد قط مثل قولى فى الغمام :

وساق صبيح للصبوح دعوته فقامْ وفى أجفانه سنة الغمض
يطوف بكاسات العقار كأنجم فمن بين منقض علينا ومنفض
وقد نشرت أيدى الجنوب مطارفا على الجو دكنا والحواشى على الأرض
يطرزها قوس السحاب باخضر على أحمر فى أصفر إثر مبيض
كأذيال خود أقبلت فى غلائل مصبغة والبعض أقصر من بعض

وقولى فى صانع الرقاق :

ما أنس لا أنس خبازا مررت به يدحو الرقاقة مثل اللمح بالبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كرة وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة فى لجة الماء يلقى فيه بالحجر

نماذج من شعره :

أأيام لهوى هل مواضيك عود وهل لشباب ضل بالأمس منشد ؟(١)
أقول وقد شابت شواتى ، وقوست قناتى ، وأضحت كدنتى تتمدد(٢)
ولذت أحاديثى الرجال ، وأعرضت سليمى وريا عن حديثى ومهدد(٣)

---

(١) منشد : مكان أنشده فيه وأطلبه .

(٢) الشواة : جلدة الرأس ، والمراد شاب شعرها والقناة هنا صلبه . الكدنة الشحم واللحم يريد أن سمنته أضحت تهزل .

(٣) أى أصبحت أحاديثى تلذ الرجال بعد ما أعرض عنى الغوانى لشيبى وكان حديثى لذيذاً لديهن .

وبدل إعجاب الغوانى تعجباً ، فهن روان يعتبرن وصدد(١)
لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وإلا فما يبكيه منها ، وإنها لأفسح مما كان فيه وأرغد ؟
إذا أبصر الدنيـــا استهل كأنه بما سوف يلقى من أذاها يهدد(٢)
وللنفس أحوال تظل كأنها تشاهد فيها كل غيب سيشهد(٣)

وقال يرثى ابنه محمداً :

بكاؤكما يشفى وإن كان لا يجدى فجودا فقد أودى نظيركما عندى(٤)
ألا قاتل الله المنـــايا ورميها من القوم حبات القلوب على عمد
توخى حمام الموت أوسط صبيتى فلله كيف اختار واسطة العقد(٥)
على حين شمت الخير من لمحاته وآنست من أفعاله آية الرشد(٦)
طواه الردى عنى فأضحى مزاره بعيداً على قرب قريباً على بعد(٧)
لقد أنجزت فيه المنايا وعيدها وأخلفت الآمال ما كان من وعد
لقد قل بين المهد واللحد لبثه فلم ينس عهد المهد إذ ضم فى اللحد
ألح عليـــــه النزف حتى أحاله إلى صفرة الجادى عن حمرة الورد(٨)
وظل على الأيدى تساقط نفسه ويذوى كما يذوى القضيب من الرند(٩)
فيالك من نفس تساقط أنفساً تساقط در من نظام بلا عقـــــد
عجبت لقلبى كيف لم ينفطر له ولو أنه أقسى من الحجر الصلد
وما سرنى أن بعتـــــه بثوابه ولو أنه التخليد فى جنة الخلد

---

(١) الاعجاب بالشيء : السرور منه . والتعجب : الاستغراب والانكار روان: دائمات النظر بسكون الطرف . صدد : معرضات .
(٢) استهل الصبي : رفع صوته بالبكاء .
(٣) يورد هذا البيت تاكيداً لحسن تعليله .
(٤) بكاؤكما : الخطاب لعينيه . ولا يجدى : لاينفع . وأودى : هلك .
(٥) توخى : تحرى . (٦) شمت الخير : توقعته .
(٧) يريد بالقرب قرب المكان وبالبعد بعد اللقاء .
(٨) الجادى : الزعفران وهو أصفر .
(٩) الرند : الغار وقد يسمى به الآس وهو نوع من الريحان .

ولا بعته طوعا ولكن غصبته ... وليس على ظلم الحوادث من معد(١)
وإنى وإن متعت بابنى بعده ... لذا كره ما حنت النيب فى نجد(٢)
وأولادنا مثل الجوارح أيها ... فقدناه كان الفاجع البين الفقد(٣)
لكل مكان لا يسد اختلاله ... مكان أخيه من جزوع ولا جلد
هل العين بعد السمع تكفى مكانه ... أم السمع بعد العين يهدى كما تهدى ؟
لعمرى لقد حالت بى الحال بعده ... فيا ليت شعرى كيف حالت به بعدى ؟

ثكلت سرورى كله إذ ثكلته ... وأصبحت فى لذات عيشى أخا زهد
أريحانة العينين والأنف والحشا ... ألا ليت شعرى هل تغيرت عن عهدى ؟
سأسقيك ماء العين ما أسعدت به ... وإن كانت السقيا من الدمع لا تجدى(٤)
أعينى جوداً لى فقد جدت للثرى ... بأنفس مما تسألان من الرفد(٥)
كأنى ما استمتعت منك بضمة ... ولا شمة فى ملعب لك أو مهد
ألام لما أبدى عليك من الأسى ... وإنى لأخفى منك أضعاف ما أبدى
محمد ما شىء توهم سلوة ... لقلبى إلا زاد قلبى من الوجد
أرى أخويك الباقيين كليهما ... يكونان للأحزان أورى من الزند
إذا لعبا فى ملعب لك لذعا ... فؤادى بمثل النار عن غير ما قصد
فما فيهما لى سلوة بل حزازة ... يهيجانها دونى وأشقى بها وحدى
وأنت وإن أفردت فى دار وحشة ... فإنى بدار الأنس فى وحشة الفرد
عليك سلام الله منى تحية ... ومن كل غيث صادق البرق والرعد

وقال يعاتب أبا القاسم التوزى الشطرنجى ويمدحه :

يا أخى أين عهد ذاك الإخاء ... أين ما كان بيننا من صفاء ؟
كشفت منك حاجتى هنوات ... غطيت برهة بحسن اللقاء(٦)
تركتنى ولم أكن سىء الظن ... أسيىء الظنون بالأصدقاء
يا أخى هبك لم تهب لى من سعـ ... ـيك حظاً كسائر البخلاء
أفلا كان منك رد جميل ... فيه للنفس راحة من عناء

---

(١) معد من أعدى بمعنى نصر وأعان (٢) النيب : جمع ناب ، وهو الناقة المسنة . (٣) الجوارح : أعضاء الانسان (٤) أسعدت العين بالبكاء : أعانت : (٥) الرفد : العطاء والصلة .
(٦) الهنوات : جمع هنة ، وهى الشىء الصغير .

أجزاء الصديق إيطاؤه العشـ ـوة حتى يظل كالعشواء(١)
تاركا سعيه اتكالا على سعـ ـيك دون الصحاب والشفعاء
كالذى غره السراب بما خيـ ـل حتى هراق ما فى السقاء
يا أبا القاسم الذى كنت أرجو ه لدهرى قطعت متن الرجاء
لا أجازيك عن غرورك إيا ى غروراً وقيت سوء الجزاء
بل أرى صدقك الحديث وماذا ك لبخل عليـــك بالإغضاء
أنت عينى وليس من حق عينى غض أجفانها على الأقـــذاء
ما بأمثال ما أتيت من الأمـ ـر يحـــل الفتى ذرا العلياء
بذل الوعد للأخـــلاء سمحا وأبى بعـــد ذاك بذل العطاء
فغدا كالخـــلاف يورق للعيـ ـن ويأبى الإثمار كل الاباء
ليس يرضى الصديق منك ببشر تحت مخبـــوره دفين جفاء

ولقد هجا ابن الرومى البحترى الشاعر هجاء مقذعاً

ومن قوله فى هجائه :

قدقلت ـ إذ تحلوه الشعر ـ : « حاش له إن البروك به أولى من الخبب »
« وحسبه من حباء القوم أن يهبوا له قفاه ـ إذا ما مر ـ بالعصب(٢) »
« الحظ أعمى ؛ ولولا ذاك لم تره للبحترى بلا عقل ولا أدب . »
قبحا لأشياء يأتى البحترى بها من شعره الغث بعد الكد والتعب
كأنها ـ حين يصغى السامعون لها ممن يميز بين النبع والغرب
رقى العقارب أو هذر البناة إذا أضحوا على شعف الجدران فى صخب
وقد يجىء بخلط : فالنحاس له وللأوائل ما فيه من الذهب
سمين ما تحلوه من هنا وهنا ، والغث منهم صريح غير مجتلب
يسىء عفا ، فإن اكدت وسائله أجاد لصا شديد البأس والكلب
عبد يغير على الموتى فيسلبهم حر الكلام بجيش غير ذى لجب
ما إن تزال تراه لابسا حللا أسلاب قوم مضوا فى سالف الحقب
شعر يغير عليه باســلا بطلا وينشد الناس إياه على رقب

---

(١) العشوة النار ، وأوطاه العشوة : كناية عن أنه أضله ولم يهده ، والعشواء الناقة لاتبصر أمامها .

(٢) جماعات الناس .

كما هجا ابن الرومى الأخفش بقصيدة منها :

« قلت لمن قال لى « عرضت على الأخـ   ـفش ما قلته فما حمده » »
قصرت بالشعر حين تعرضه   على مبين العمى إذا انتقده
ما قال شعراً ولا رواه ، فلا   ثعلبه كان ، لا ولا أسده
فإن يقل « إننى رويت » فكالدفـ   ـتر جهلا بكل ما اعتقده
أرمت زينى بأن تعرضنى   لمدحه فالذليل من عضده
أم رمت شينى بأن تعرضنى   لثلبه ؟ فالسليم من قصده »

إلى أن قال :

« شعرى شعر ، إذا تأمله الإنـ   ـسان ذو الفهم والحجا ، عبده
لكنه ليس منطقا بعث اللـ   ـه به آية لمن جحده
ولا أنا المفهم البهائم والطيـ   ـر ، سليمان قاهر المرده
ما بلغت بى الخطوب رتبة من   تفهم عنه الكلاب والقرده »
لا رحم الله أم أخفشكم   ولا سقى قبر والد ولده
ماذا عليه وقد رأى ولداً   أعور جم العوار ـ لو وأده ،
سأسمع الناس ذمه أبداً   ما سمع الله حمد من حمده »

وقال من قصيدة أخرى :

لا يأمنن السفيه بادرتى   فإننى عارض لمن عرضا
عندى له السوط إن تلوم فى السيـ   ـر وعندى اللجام إن ركضا »
« أضحى مغيظا على أن غضب اللـ   ـه عليه ونلت منه رضا
فولا له ينطح الجدار إذا أعيـ   ـا ، وصم الصفا إذا امتعضا
ولا يحمل ضعيف منته   حربى ، فما مثله بها نهضا »
« أقسمت بالله لا غفرت له   إن واحد من عروقه نبضا »

ابن المعتز شاعر الحب والجمال

٢٤٧ — ٢٩٦ ﻫ

أديب ساحر ، وشاعر ملهم ، وشخصية بارزة بين الشخصيات التى نبغت فى القرن الثالث الهجرى ، وهو أمير التشبيه فى الشعر العربى : القديم والحديث .

يعد فى الطبقة الثالثة من المحدثين ، وهى الطبقة التى خلفت طبقة أبى نواس ، وطبقة بشار زعيم المحدثين. ويعدون معه فى طبقته أبا تمام والبحترى وابن الرومى، وإن كان بعض النقاد يجعل أبا تمام والبحترى طبقة وحدهما ، ويجعل ابن الرومى وابن المعتز طبقة رابعة من طبقات المحدثين . ويقول ابن رشيق : طبقة حبيب والبحترى وابن المعتز وابن الرومى طبقة متداركة ، وتلاحقوا ، وغطوا على من سواهم من الشعراء(١) » . ويقول : « وليس فى المولدين أشهر اسما من أبى نواس، ثم حبيب والبحترى ، ثم تبعهما فى الاشتهار ابن الرومى وابن المعتز ، فطار اسم ابن المعتز حتى صار كأبى نواس فى المحدثين ، وامرؤ القيس فى القدماء (٢) » .

ولد أبو العباس عبد الله ابن المعتز فى شعبان سنة ٢٤٧ ، أو ٢٤٩ كما يقول ابن خلكان ، فى بيت الخلافة ، وولى والده المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن الرشيد العرش عام ٢٥٢ هـ ، ومكث فيه ثلاث سنين قتل بعدها بيد الأتراك ، الذين كان فى يدهم جميع أمور الدولة إبان هذه الفترة الحافلة ، وكان لنكبة والده أثر عميق فى حياته ونفسيته . وقد تلقى ثقافته فى الدين واللغة والأدب على شيوخ العربية وأئمتها ، الذين حفل بهم هذا العصر الزاخر بألوان العلوم والثقافات والآداب ،

وكان من أساتذته المبرد م سنة ٢٨٥ هـ ، وثعلب م سنة ٢٩١ هـ وسواهما من فحول العلماء . وظهرت شاعريته فى أول عهده بالشباب ، فامتلأت بها حياته ، كما انصرف عن مؤامرات السياسة إلى حياة العلم والأدب ، فكان البليغ الساحر، والشاعر المجيد ، والناقد الواقف على خصائص الأدب والبيان ، وله مؤلفات كثيرة جيدة ، منها : كتاب البديع ، وفصول التماثيل ، وطبقات الشعراء ، وديوانه مطبوع فى جزئين فى مصر والشام .

عاصر ابن المعتز بعد وفاة والده أربعة من الخلفاء العباسيين هم : المهتدى (٢٥٥ — ٢٥٦) ، والمعتمد (٢٥٦ — ٢٧٩) ، والمعتضد (٢٧٩ — ٢٨٩) ، والمكتفى (٢٨٩ — ٢٩٥) ؛ وعاش بينهم معتزا بشخصيته ؛ نبيل النفس ؛ عظيم الخلق ؛ يظهر انصرافه عن الخلافة وهو فى نفسه ناقم على الحياة التى ملكت سواه مقاليدها ؛ وقبض عليه عدة مرات أطلق فيها سراحه ، ووضع موضع المراقبة ، وكان يقول فى شعره :

---

(١) ١/٨٣ العمدة .

(٢) ١/٨٣ العمدة .

من يشترى حسبى بأمن خمول   من يشترى أدبى بحظ جهول ؟

ولما مات المكتفى عام ٢٩٥ ﻫ ولى الأتراك ابنه المقتدر العرش بعده ، وكان طفلا ، فثار الناس فى بغداد ، وانتهت هذه الثورة المسالمة بخلع المقتدر ، وتولية ابن المعتز الخلافة عام ٢٩٦ ﻫ ، ومكث فيها ليلة واحدة . حيث قاوم حزب المقتدر هذه الثورة ، تؤيده القوة الحربية فى الدولة ، وقبض على ابن المعتز ، ووزيره محمد بن داود بن الجراح ، وقتلا عام ٢٩٦ ﻫ و وبذلك انتهت حياة شاعر كبير من شعراء العربية المعدودين .

وقد عاش ابن المعتز فى بغداد وسر من رأى ، فى البيئة العامة التى امتاز بها القرن الثالث ، والتى حفلت بألوان الحضارة ، وشتى فنون العلوم والثقافات والآداب ، كما عاش فى بيئته الخاصة الحافلة بألوان الترف والنعيم والمجد فى قصور الخلفاء والأمراء . وكان لذلك كله أثره الواضح فى شخصيته وشاعريته .

ولقد أرهفت نفسية ابن المعتز وحياته وبيئته وثقافته مشاعره ووجدانه وإحساسه ، فنشأ شاعراً بطبعه ملهم الشاعرية قوى الملكات .

ونظم الشعر يرضى به عواطفه ، ويصور فيه مشاعره وما يختلج فى صدره من آمال وآلام ، وما تزخر به حياته من مظاهر الترف والحضارة ، فشعره إذاً صورة لحياته الخاصة أولا ، ولحياة الطبقة المترفة ثانيا ، وللاتجاهات العليا فى السياسة والاجتماع والآداب أخيرا . وهو فوق ذلك صورة صادقة للفن الخالص ، الذى يؤمن بالفن للفن لا لأغراض الحياة وحاجاتها ، لأنه كان يحيا حياة فنية خالصة ، فلم يكن ينظم الشعر لمجد أو لمال ، أو لرضاء خليفة ، إنما كان ينظمه لنفسه ليرضى به نفسه ووجدانه وذوقه. أجاد فى الشعر السياسى ، كما أجاد فى الفخر ، والأخوانيات ، والغزل . وخمرياته فيها دقة معان ورقة تصوير ، وكثرة تشبيهات ، وكذلك كان فى الصيد والطرد مجيداً مبدعا ، يقتفى فيه آثار امرىء القيس وأبى نواس . والعتاب والشكوى من الفنون الشعرية التى تفوق فيها ، وكذلك بلغ ابن المعتز فى الوصف حد الجودة والابداع ورسم صورا صادقة لكل ما وقعت عليه عينه من مناظر الطبيعة ومظاهر الحضارة ، ووصفه وصف وجدانى ، له موسيقى عذبة وفيه رقة وسلاسة ، وروح وطبع ، ودقة وعمق وابتداع فى الأسلوب وتجديد فى التشبيه والاستعارة ، وقد نمى ملكته فى نفسه دقة حسه ولطف شعوره ، وامتلاء ذهنه

بمشاهد الجمال وروائع الخيال ، ورونق الحضارة ، وأنه يقول الشعر إرضاء لنفسه وتصويرا لحسه ، مما صرفه إلى وصف الطبيعة ومجالس الأنس ، ومطارد الصيد . أما المدح والهجاء والرثاء والزهد ، فكان نصيب ابن المعتز منها قليلا . ترك الزهد لأبي العتاهية ، والرثاء لأبي تمام ، والهجاء لابن الرومي ، والمدح للبحتري . وعاش هو شاعر الترف والفن والجمال ، وهو مشهور بجودة قطعه الشعرية كما يقول ابن رشيق (١) . ومعاني ابن المعتز تتصل بنفسه وحسه وحياته وهو فيها دقيق الفكرة بعيد المنزع ، محكم التصوير مجدد مبتكر حينا ومقلد أحيانا اخرى . وخياله الشعري خيال واقعي يستمد من صور الوجود وحقائقه وألوان الحياة الحسية ومظاهرها ما ينطق به من معنى ووصف وتصوير ، وخياله النشط يعنى بمحسات الأمور ومرئياتها المشاهدة دون أن يكلف نفسه الجري وراء عالم المثل والمعنويات. ويمتاز أسلوبه : بكثرة التشبيه وروعته ، وجودة التصوير ودقته وبالرونق والعذوبة في جزالة تشيع في أعطافه حينا وسهولة ورقة يفيض بها شعره أحيانا ، ومع جمال في ترف البيان وألوان البديع محتذيا فيه حذو بشار ومسلم وأبي تمام ، وتشيع في أسلوبه الصياغة الفنية المتمثلة روحا وحياة وموسيقى ووضوحا في دقة تصوير وقرب مأخذ وجودة قريحة في بعد فكرة وحدة خيال كما يقول :

والصبا يمتلىء حاجة وأملا

والمدرسة الأدبية التي يمثلها ابن المعتز هي مدرسة المحدثين التي قاد زمامها أبو تمام والبحتري ، والتي امتازت بميزتين :

الأولى هي التعمق في المعاني واستنباطها ، مما يتجلى لك في شعر أبي تمام وابن الرومي واضحا ملموساً .

والثانية هي الصناعة الشعرية المتأنقة التي تطلب ألوان الجمال في الأداء وتعتمد على الترف البياني في الأسلوب : من جناس وطباق وتشبيه واستعارة وتمثيل . وكانت العرب — كما يقول ابن رشيق — « لاتنظر في أعطاف شعرها ، بأن تجنس أو تطابق أو تقابل أو تترك لفظة للفظة أو معنى لمعنى كما فعل المحدثون ، ولكن كان نظرها في فصاحة الكلام وجزالته وبسط المعنى وإبرازه ، وإتقان بنية الشعر ، وما وقع فيه من هذا النوع فمن غير قصد ولا تعمد ، مما عرفوا وجه اختياره على غيره حتى صنع زهير الحوليات على وجه التثقيف . وأول من فتق البديع للمحدثين

(١) ١٦٣/١ العمدة .

بشار وابن هرمة ، ثم قلدهما فيه مسلم والعتابى والنمرى وأبو نواس . واتبع هؤلاء أبو تمام والبحترى وابن المعتز . فانتهى علم البديع والصنعة إليه وختم به (١) . فابن المعتز إذا هو الشاعر الذى انتهت إليه الصناعة الشعرية المتعمدة المتكلفة . فقد كان يحب الفن للفن ، وينظم الشعر ليلهو به ، وكان فى العباسيين كالوليد فى الأمويين ، وكان متكلفاً مجيدا فى تكلفه بقدر ما كان الوليد مطبوعا مجيدا فى طبعه . ويصف ابن رشيق صنعته فيقول : « وما أعلم شاعرا أكمل ولا أعجب تصنيعاً من ابن المعتز فإن صنعته خفية لطيفة ، لا تكاد تظهر فى بعض المواضع إلا للبصير بدقائق الشعر ، وهو عندى ألطف أصحابه شعراً وأكثرهم بديعاً وافتنانا ، وأقربهم أوزانا وقوافى . ولا أرى وراءه غاية لطالبها فى هذا الباب (٢) . ويقول الجرجانى فيه : وطريقة ابن المعتز طريقة أبى تمام ، ولم يكن من المطبوعين (٣) . وكان الجرجانى يؤثر المطبوع وما قاربه من المصنوع . ويقول أبو الفرج فى وصف شعره وخصائصه : هو وإن كان فيه رقة الملوكية وغزل الظرفاء وهلهلة المحدثين فإن فيه أشياء كثيرة تجرى فى أسلوب المجيدين ، ولا تقصر عن مدى السابقين . وليس بمكن واصفاً لصبوح فى مجالس اللهو بين ندامى وقيان وعلى ميادين من النور والبنفسج والرياحين إلى غير ذلك أن يعدل بذلك عما يشبهه من الكلام البسيط الرقيق ، الذى يفهمه كل من حضر ، إلى جيد الكلام ووحشيه ، وإلى وصف البيد والمهامه ، والظبى والظليم ، والناقة والجمل ، والديار والقفار » . والأصفهانى يشير بذلك إن أن أسلوب ابن المعتز فيه جيد جزل كثير وإلى أن رقة أسلوبه غالبا ترجع إلى حياة الملك التى تستلزم الترف ، وإلى وصفه لألوان اللهو التى تستدعى رقة الأسلوب ، وإلى بعد نفسية الشاعر غالبا عن أغراض الشعر البدوى ، فرقة شعر ودقة تشبيهاته إذا أثر من آثار البيئة فيه .

ولابن المعتز منزلة كبيرة فى البيان العربى فقد ألف فيه كتابه « البديع » ، الذى عدد فيه شتى أساليب البديع ومحاسن الشعر كما عرفها ابن المعتز وعصره ، وهذا الكتاب ليس قاصر على البديع بالمعنى الضيق المحدود ، لأن ابن المعتز يذكر فيه الكناية والاستعارة والتشبيه وهى من صميم البيان العربى ، ويذكر فيه الكناية ولكنه يريد بها معناها اللغوى وهو أعم من المعنى الاصطلاحى المعروف ، فاذا قلنا إن ابن المعتز ألف فى البيان فقد سرنا مع الحق والتفكير السليم ، وإذا قلنا إنه ألف البديع فقد ضيقنا دائرة البحث بغير مبرر ، وإن كان البديع فى

---

(١) ١٠٨ — ١/١١٠ العمدة . (٢) ١/١٠٩ العمدة . (٣) ٢٢٢ أسرار البلاغة .

الاصطلاح المتأخر جزءا من البيان ، وإن كان البديع بالمعنى القديم المعروف عند بعض علماء البلاغة يرداف كلمة البيان او البلاغة . فابن المعتز إذا ذو أثر كبير فى البديع ، وعلى وجه الدقة له أثره فى البيان العربى ودراساته، وذلك ما سنتناوله الآن بالتحليل . كان ابن المعتز من أئمة البيان فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى ، وله فيه آراء عظيمة الأهمية ناضجة التفكير (١) ؛ وقد اهتم بنوع خاص من انواع البيان ، هو أساليب البديع والوان الترف فى الأداء .

كان ابن المعتز يحتذى حذو ابى تمام فى صنعة البديع ، ويوشى شعره بشتى ألوانه، يقصدها قصدا ويتعمدها تعمدا ، ويصوغ شعره فنا تغلب روح الصناعة فيه ملكات الطبع والفطرة ، وكان مع ذلك « يتحقق بعلم البديع تحققا ينصر دعواه فيه لسان مذاكرته » (٢) ، والف فيه عام ٢٧٤ هـ كتابة « البديع » (٣) وسنه إذ ذاك سبعة وعشرين عاما ، مما يدلنا على ان ابن المعتز لم يتمش فى العقد الثالث من عمره حتى كان قد قتل الشعر العربى حفظا ورواية ودرسا وفهما . وكان لكتابه البديع دوى فى المجامع الأدبية ؛ ثم شاع وذاع وتلقفته الأيدى ، وعكف العلماء والأدباء عليه وصار مصدرا ممتازا من مصادر الدراسات البيانية بعد عصر ابن المعتز ، ثم فقدت نسخ الكتاب الخطية وقل تداوله ولم يبق له اثر إلا ما نقرأ عنه فى شتى كتب البيان والبديع ، ولكن العناية شاءت ان تحفظ من الكتاب نسخة خطية واحدة فى الاسكوريال نشرها كراتشقو فسكى عام ١٩٣٥ . وقد قمت بشرح هذا الكتاب والتعليق عليه وتصحيحه ونشرته عام ١٩٤٥ . فكان ذلك إحياء لكتاب ابن المعتز ، وخدمة للثقافة البلاغية ، وسعيا لتداول أهم مصدر ألف فى البديع . والكتاب أول مؤلف فى البديع وصنعة الشعر كما أجمع على ذلك جميع

---

(١) راجع وصفه لبلاغة القرآن (٦٣ رسائل ابن المعتز) . وتعريفه للبلاغة بأنها بلوغ المعنى ولم يطل سفر الكلام (٦٤ رسائل ابن المعتز ، ١/١٥٧ زهر ، ١/٤٦٢ وفيات ، ١/٢١٧ العمدة ، ٢/٢٢٣ شذرات ، ٢٩٦ الأوراق ، ١/١٢٨ حاشية السبكى على التلخيص) ، وله كلمة فى الحكمة والبلاغة (٦٣ رسائل ابن المعتز ، ١/١٤٩ زهر) . (٢) ١٠ رسائل ابن المعتز ، ٤/١٢٣ زهر .

(٣) راجع ١٠٦ البديع .

الباحثين (١) . وهو أهم كتب ابن المعتز بالنظر إلى اختصاصه فى هذا الفن (٢) ويعد فتحا جديدا (٣) ، ويقول ابن المعتز نفسه : وما جمع فنون البديع ولا سبقنى إليه أحد (٤) .

ولقب البديع ليس لقباً مستحدثا فى عهد ابن المعتز ولكنه اسم لهذه الألوان الساحرة فى الأسلوب ، ولهذا الترف البيانى فى الأداء : من تشبيه واستعارة وتجنيس وتطبيق وسوى ذلك ، سماه به مسلم بن الوليد الشاعر م ٢٠٨ هـ ، وكان يعرف قبل ذلك باللطيف(٥) ، ودرج على هذا اللقب من بعده من العلماء والأدباء وفى الأغانى أن الأصمعى م ٢١٦ هـ كان يفضل بشارا لأنه أكثر تصرفا وفنون شعر وأغزر وأوسع بديعا(٦) ، وذكر الجاحظ البديع وبعض المشهورين به من الشعراء وأنه مقصور على العرب ومن أجله فاقت لغتهم على كل لغة(٧) ، وذكر كثيرا من الشعراء الذين أكثروا منه فى شعرهم ورأى أن لم يكن فى المولدين أصوب بديعا من بشار وابن هرمة(٨) . ويقول ابن المعتز : البديع اسم موضوع لفنون من الشعر يذكرها الشعراء ونقاد المتأدبين منهم ، فاما العلماء بالشعر القديم فلا يعرفون هذا الاسم ولا يدرون ما هو(٩) ،والبديع ونشأته فى اللغة العربية موضوع عناية الباحثين المحدثين ، فرأى مسيو مرسيه أن الزخرف الفنى وألوان البديع قد وصلت إلى العرب من اليونان(١٠) ، ورأى باحث أنه عنصر أصيل فى اللغة العربية وإن شاركتها فى ذلك بعض اللغات(١١) . وشاهد ذلك القرآن

---

(١) ١/٢٣٥ العمدة . ١/١٤٦ معاهد التنصيص . ٢٧٦ الزيات . ٤٥ جـ ٢ أدب اللغة لمحمد بك دياب ط ١٩٠٠ ، ١/١٤٨ كشف الظنون ، ١/٦٩٣ البستانى ، ١٩١ الاسكندرى ، ١٠٥ أدب اللغة للظواهرى . (٢) ٢/١٦٣ زيدان .

(٣) ٢٨٠ المجلد الأول من دائرة المعارف الاسلامية ، وراجع فى الاشادة به ٩٢ — ١٠١ الصبغ البديعى فى اللغة العربية للاستاذ أحمد موسى ، ١٠٣ — ١٠٧ تاريخ البلاغة العربية للاستاذ الشمراوى ، وهما مخطوطان بمكتبة كلية اللغة .

(٤) ١٠٦ البديع .

(٥) ١٠ جـ ٢ معاهد التنصيص . (٦) ٢٥ جـ ٣ الأغانى .

(٧) ٣/٢٤٢ البيان . (٨) ٥٤ و ١/٥٥ البيان .

(٩) ١٠٦ البديع (١٠) ١/٤٤ النثر الفنى (١١) ١/٤٥ وما بعدها النثر الفنى

الكريم فهو أثر عربي صرف وهو مع ذلك يشتمل على ألوان من البديع ، والخواص الفنية الموجودة فى القرآن توجد كذلك فى الشعر الجاهلى كما أثبته صاحب جمهرة أشعار العرب فى مقدمتها ، وهى موجودة كذلك فى الآثار الأدبية التى عاصرت القرآن كالحديث وخطب الخلفاء والولاة الذين شهدوا عصر النبوة(١). والحق أن البديع أصباغ عربية خالصة كثرت ألوانه وتطورت زمنا بعد زمن ، وزادت قوة هذا التطور بتأثير الفرس واليونان ، فالاستعارة والتشبيه وكثير من هذه الأساليب تشترك فيها سائر اللغات(٢) ولقد عرف البديع فنا منذ نشأ الأدب العربى ، وأما معرفته علميا فابتدأ من عصر بشار وابى نواس ومسلم ، ثم عرف بصورة أوضح فى عهد ابى تمام والبحترى وابن المعتز ، وبما كتبه عنه الجاحظ مؤلف البيان .

وموضوع كتاب البديع ذكر لألوان البديع وشواهدها فى الأدب العربى شعرا ونثرا ، يذكر مؤلفه ما أثر للون البديعى من شاهد فى كتاب الله ثم فى حديث رسوله ثم فى كلام الصحابة الأعراب وبلغاء الكتاب ثم فى الشعر الجاهلى فالاسلامى فشعر المحدثين ، ويختم كل لون بذكر ما عيب من شواهده المتكلفة السقيمة ، والكتاب حافل بشتى النصوص التى جمعها ابن المعتز وساقها فى عرض جميل ونظام محكم . وكان الباعث لابن المعتز على تأليفه هذا الكتاب أن يعلم كما يقول : « أن بشارا ومسلما وأبا نواس ومن تقيلهم وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفن — البديع — ، ولكنه كثر فى أشعارهم فعرف فى زمانهم حتى سمى بهذا الاسم فأعرب عنه ودل عليه ، ثم إن حبيب بن أوس الطائى شغف به حتى غلب عليه وأكثر منه فأحسن فى بعض وأساء فى البعض الآخر، وإنما كان يقول الشاعر من ذلك الفن البيت والبيتين فى القصيدة، وربما قرئت من شعر أحدهم قصائد من غير أن يوجد فيها بيت بديع(٣)، فالغرض الأول منه « تعريف الناس أن المحدثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شىء من أبواب البديع(٤) » . ولقد نشأ ابن المعتز فى عصر لم يخل من آثار التعصب للتراث الأدبى القديم ، ومن المنكرين لمذاهب المحدثين فى البيان والناعين عليهم ما افتنوا فيه من ألوان البديع ، التى أكثر منها بشار ومدرسته ، ثم مسلم وأبو تمام ومن جاء بعدهما ، فكان لابد لابن المعتز أن يدافع

---

(١) ١/٤٧ النثر الفنى (٢) راجع : نقد النثر ، مراجعات للعقاد
(٣) ١٥ و١٦ البديع و٧ و٨ الموازنة . (٤) ١٨ البديع .

ويناضل هؤلاء المتعصبين ، نعم لقد وقف ابن المعتز بين مذهبين فى البيان متناقضين : مذهب المحدثين الذى يؤثره ويسير عليه فى الشعر وفهمه ونظمه ، ومذهب القدماء المتعصبين للقديم الذين كانوا يزدرون نهج المحدثين وقصدهم وتكلفهم للبديع ، ولكنه انتصر بفطرته وذوقه للمذهب الأول الذى أحبه وشغف به ، فأخذ يدافع عنه ، وألف فى ذلك كتابه البديع الذى أثبت فيه أن ألوان البديع كانت معروفة عند الشعراء القدامى والاسلاميين ، وألموا بها فى شعرهم كما ألم بها المحدثون ، فهى ليست غريبة على الشعر الجاهلى والاسلامى وليست جديدة على أساليب البيان فى شعر المحدثين ، وليست بدعا جديدا فى الأدب والشعر كما ذهب إليه من تعصبوا للأدب القديم واعتزوا بفحولة الشعر الجاهلى وجزالته ، وأنكروا مذاهب المحدثين فى صناعة الشعر وسهولته وتكلف البديع فيه .

وكان دفاع ابن المعتز رائعاً قويا موفقا استحق عليه تقدير المنصفين من النقاد ، ولون الثقافة الشائعة فى الكتاب هى الثقافة العربية العميقة الخالصة عن شوائب الثقافات الأخرى ، فقد ألفه ابن المعتز وهو فى سن الشباب قبل أن يطلع ويلم ويتعمق فى دراسة آثار الثقافات الأخرى . وإذا ما وازنا بين البديع لابن المعتز وفصول التماثيل أحد مؤلفاته فى أواخر حياته ، وجدنا الأول عربيا خالصا فى ثقافته من حيث كان الثانى مظهرا لثقافة منوعة مختلفة الأصباغ والألوان .

وألوان البديع عند ابن المعتز خمسة :ـ الاستعارة ـ التجنيس ـ المطابقة ـ رد العجز على الصدر ـ المذهب الكلامى . ويجعل ماعدا ذلك من محاسن الكلام والشعر ، ويقول أنها كثيرة ولا يرى حرجاً فى إضافة هذه المحاسن أوغيرها إلى البديع(١) ، وذكر من المحاسن : الالتفات . الاعتراض . الرجوع . حسن الخروج . تأكيد المدح بما يشبه الذم . تجاهل العارف . الهزل الذى يراد به الجد . حسن التضمين . التعريض والكناية . الافراط فى الصفة . حسن التشبيه . لزوم ما لا يلزم . حسن الابتداء ـ فابن المعتز جمع من ألوان البديع ثمانية عشر لوناً ، ولقد عاصره قدامة ابن جعفر الكاتب الذى جمع منها عشرين نوعا ، اشترك مع ابن المعتز فى سبعة منها وهى: الغلو أو الافراط ـ التشبيه ـ الاستعارة ـ الكناية ويسميها قدامة الإرداف مريدا بها المعنى الاصطلاحى للكناية فى حين أن ابن المعتز يريد بها المعنى اللغوى ـ

---

(١) ١٠٦ البديع

التكافؤ وهو عند ابن المعتز المطابقة - المطابق والمجانس وهو عنده باب التجنيس- الالتفات ..وانفرد قدامة بثلاثة عشرهى: التصريع - المقابلة - المساواة - الإيغال- الاستطراف. صحة التقسيم . صحة التفسير . المبالغة وهى غير الغلو عند قدامة . الاشارة(الايجاز)ـ التمثيل-التتميم - الترصيع وهو أن تكون أجزاء البيت مسجوعة -التوشيح(١)...وهذه هى الأنواع الثلاثة عشر التى استقل بها قدامة إذا أضيفت إلى السبعة عشر نوعا التى جمعها ابن المعتز يكون البديع قد وصل فى عهد قدامة إلى ثلاثين نوعا ، ثم تتبع الناس هذه الألوان ، فجمع أبو هلال منها فى الصناعتين سبعة وثلاثين نوعا : منها ٢٩ ذكرها أبو هلال فى باب أنواع البديع (٢)،ومنها التشبيه الذى ذكره فى باب مستقل (٣) غير الباب الذى عقده للبديع وإن كان لا يشير إلى أنه من البديع فيكون الجميع ثلاثين نوعا يضاف إليها سبعة من زياداته (٤) وهى:التشطير والمجاورة والاستشهاد والمضاعفة (التورية) والتطريز والتلطف والمشتق...ثم جمع ابن رشيق من ألوان البديع مثل ماجمع أبو هلال وأضاف إليها فى عمدته خمسة وستين بابا فى بحث الشعر ، وتلاه شرف الدين الشاشي فبلغ بها أكثر من ذلك ، ثم تكلم فيها ابن أبى الأصبع المصرى م عام ٦٥٤ هـ فأوصلها إلى التسعين فى كتابه الجيد « تحرير التحبير فى علم البديع »، ثم صنف ابن منقذ كتابه التفريع فى البديع جمع فيه خمسة وتسعين نوعا ،ثم جاء صفى الدين الحلى م ٧٥٠ هـ فجمع ١٤٠ نوعا فى بديعيته فى مدح الرسول التى سماها « الكافية البديعية » وشرحها بنفسه ،ثم حذا الناس حذوه ونظموا كثيرا من البديعيات . وأما السكاكى فذكر تسعة وعشرين نوعا من البديع ، وقد ذكر صاحب التلخيص من البديع المعنوى ثلاثين نوعا ومن اللفظى سبعة ، وقد ألم بتطور البديع فى اختصار كثير من الباحثين (٥)

والكتاب البديع أهمية كبيرة فى فهم نشأة البديع وتطوره فى البيان العربى على مر عصورنا الأدبية ، وهو ينحو فى دراسة ألوان البديع إلى الدراسة التطبيقية الواسعة التى لها

---

(١) سماه على بن هارون المنجم تسهيما ،وسماه ابن وكيع المطمع وسماه المتأخرون إرصادا وهو أن يدل صدر البيت على قافيته (٢) ٢٥٨ صناعتين وما بعدها

(٣) ٢١٦ - ٢٤٩ صناعتين (٤) ٢٩٩ - ٤١٧ صناعتين

(٥) راجع ٩٢ عقود الجمان للسيوطى : ٤/٤٦٧ وما بعدها حاشية السبكى على التلخيص، ٢/٤٥ تاريخ آداب اللغة لمحمد دياب

أثرها فى تكوين الملكة والذوق ودعم الفكرة والرأى فى نفس القارىء ، ويشتمل الكتاب على ٣١٢ شاهدا من عيون الشعر العربى تبلغ نحو ٤٢٥ بيتاً أو تزيد، فوق ما اشتمل عليه من بليغ النصوص والشواهد من الذكر الحكيم وحديث رسول الله وكلام الصحابة والأعراب وبلغاء الكتاب، والكتاب مع ذلك خلو من الاصطلاحات العلمية الدقيقة وتحديدات المنطقيين العميقة ؛ وهو يكتفى فى توقيفك على مدلول اللون البديعى بشرح أدبى موجز حينا وبما تدل عليه الشواهد حينا آخر، وبأسلوب يفيض بلاغة وسهولة ، مما يدل على ذوق سليم وفطرة عربية مطبوعة ، وأهم سمة يمتاز بها الكتاب بعد ذلك كله هو النظام الدقيق فى العرض مما يتجلى فى جميع أبواب الكتاب، مع حصافة الذوق وسعة الاطلاع وحسن الاختيار فى جميع شواهد الكتاب ، وهو فوق ذلك أظهر خطوة علمية موفقة فى للتأليف فى البديع والبيان ، وإذا أغمضنا النظر عن الخطوة الأولى التى خطاها ثعلب فى كتابه « قواعد الشعر » كان عمل ابن المعتز جديدا مبتكرا من كل نواحيه

نماذج من شعر ابن المعتز :

ومن شعره فى وصف سحابة :

وسارية لا تمل البكا ... جرى دمعها فى خدود الثرى (١)
سرت تقدح الصبح فى ليلها ... ببرق كهندية تنتضى (٢)
فلما دنت جلجلت فى السما ... رعدا أجش كجرس الرحا (٣)
ضمان عليها ارتداع اليفاع ... بأنوارها واعتجار الربا (٤)
فما زال مدمعها باكيا ... على الترب حتى اكتسى ما اكتسى (٥)
فأضحت سواء وجوه البلاد ... وجن النبات بها والتقى (٦)

---

(١) السارية : السحابة تسرى ليلا . ويريد بالبكاء الأمطار . الثرى : الأرض
(٢) تقدح : تبرق . والأصل قدح بالزند : أى حاول إخراج النار منه . هندية سيوف منسوبة إلى الهند ، لأنها كانت تجيد طبعها . تنتضى : تسل . يقول: إن برقها يلمع فى الليل كأنه صباح .
(٣) جلجلت : رعدت . أجش : غليظا . الجرس : الصوت .
(٤) الارتداع : الصبغ . اليفاع : ما ارتفع من الأرض . الاعتجار : لف العمامة . الربا جمع ربوة : الأرض المرتفعة . الأنوار جمع نور بفتح النون : الزهر
(٥) اكتسى ما اكتسى : أى اكتسى رداء جميلا .
(٦) وجوه البلاد : جوانبها ونواحيها . جن النبات : زكا وطال .

وقال يصف سيفه :

ولى صارم فيه المنايا كوامن ‏ ‏ فما ينتضى إلا لسفك دماء (١)
ترى فوق متنيه الفرند كأنه ‏ ‏ بقية غيم رق دون سماء (٢)

وقال يصف غديراً :

غدير ترجرج أمواجـه ‏ ‏ هبوب الرياح ومر الصبا (٣)
إذا الشمس من فوقه أشرقت ‏ ‏ توهمته جوشنا مذهبا (٤)

وقال يحذر الطالبيين من طلب الخلافة ويتوعدهم:

أبى الله إلا ما ترون فما لكم ‏ ‏ عتاب على الأقدار يا آل طالب (٥)
تركنا كم حينا فهلا أخذتم ‏ ‏ تراث النبى بالقنا والقواضب (٦)
زمان بنو حرب ومروان ممسكو ‏ ‏ أعنة ملك جائر الحكم غاصب (٧)
ألا رب يوم قد كسوكم عمائما ‏ ‏ من الضرب فى الهامات حمر الذوائب (٧)
فلما أراقوا بالسيوف دماءكم ‏ ‏ أبينا ولم نملك حنين الأقارب
فحين أخذنا ثأركم من عدوكم ‏ ‏ قعدتم لنا تورون نار الحباحب (٩)
وحزنا التى أعيتكم قد علمتم ‏ ‏ فما ذنبنا ؟ هل قاتل مثل سالب ؟
عطية ملك قد حبانا بفضله ‏ ‏ وقدرة رب جزيل المواهب

---

(١) الصارم : السيف القاطع . المنايا جمع منية : الموت . كوامن : ساكنة

(٢) فرند السيف : وشيه وجوهره . دون : أسفل . والفرند للسيف : كالغيم للسماء (٣) الصبا : ريح شرقية .

(٤) الجوشن : الدرع . مذهب : مموه بالذهب .

(٥) يريد أن الله أبى عليكم أن يوليكم أمر المسلمين ويجعل الخلافة فيكم .

(٦) التراث : الميراث . والقنا : الرماح . والقواضب : السيوف .

(٧) زمان : مضاف إلى الجملة الاسمية بعده . ويريد ببنى حرب ومروان دولة بنى أمية .

(٨) الهامات : الرؤوس . والذوائب : جمع ذؤابة وهى هنا طرف العمامة .

(٩) الحباحب : ذباب يطير بالليل له شعاع فى ذنبه وما اقتدح من شرر النار فى الهواء من تصادم الحجارة ونحوها ، وأورى نار الحباحب كناية عن الفتن لا تفيد شيئاً .

وليس يريد الناس أن تملكوهم فلا تثبوا فيهم وثوب الجنادب (١)
وإياكم إياكم وحذار من ضراغمة فى الغاب حمر المخالب (٢)
ألا إنها الحرب التى قد علمتم وجربتم والعلم عند التجارب

وقال فى الطرد : (٣)

لما تفرى الأفق بالضياء مثل ابتسام الشفة اللمياء (٤)
وشمطت ذوائب الظلماء وهم نجم الليل بالإغفاء (٥)
قدنا لعين الوحش والظباء داهيــة محذورة اللقــاء (٦)
شائلة كالعقرب السمراء مرهفة مطلقة الأحشــاء (٧)
كمدة من قلم ســوداء أو هدبة من طرف الرداء (٨)
تحملها أجنحــة الهواء تستلب الخطو بلا إبطاء
ومخطفا موثق الأعضـــاء خالفها بجــلدة بيضــاء (٩)
كأثر الشهـاب فى السماء ويعرف الزجر من الدعاء
بأذن ساقطة الأرجاء كوردة السوسنة الشهلاء (١٠)
ذا برثن كمثقب الحــذاء ومقلة قليــلة الأقذاء (١١)
صافيــة كقطرة من ماء ينساب بين أكم الصحراء

---

(١) الجنادب : جمع جندب : حيوان كالجراد كثير القفز .

(٢) الضراغمة : الأسود . والغاب : مأوى الأسد . والمخالب : الأظفار . ويريد بالضراغمة العباسيين وجنودهم .

(٣) الطرد بفتحتين : مزاولة الصيد .

(٤) تفرى : تشقق ، والشفة اللمياء المشربة سمرة فى حسن .

(٥) شمطت : اختلط سوادها ببياضها .

(٦) العين : جمع أعين وهو ثور بقر الوحش ، ويريد بالداهية كلبة الصيد .

(٧) شائلة : مرتفعة الذنب . ومرهفة : مدببة .

(٨) المدة : الواحدة من المداد . والهدبة : الطرف .

(٩) المخطف : الضامر ، وهو عطف على داهية السابقة .

(١٠) الأرجاء : الأنحاء . والسوسن : الزنبق .

(١١) البرثن : المخلب . والحذاء : الإسكاف .

مثل انسياب حية رقطاء   آنس بين السفح والفضاء (١)
سرب ظباء رتع الأطلاء   فى عازب منورة خلاء (٢)
أحوى كبطن الحية الخضراء   فيه كنقش الحية الرقشاء (٣)
كأنها ضفائر الشمطاء   يصطاد قبل الأين والعناء (٤)
خمسين لا تنقص فى الإحصاء

أبو الطيب المتنبى

المتوفى سنة ٣٥٤ ﻫ

هو أبو الطيب احمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الكندي الجعفي الكوفي المعروف بالمتنبي. ولد أبو الطيب سنة ٣٠٣ ﻫ-٩١٥م بالكوفة فى محلة تسمى كندة فنسب اليها، وليس هو من قبيلة كندة المشهورة، بل هو جعفى القبيلة، وقيل له المتنبي لأنه ادعى النبوة فى بادية السماوة وتبعه خلق كثير من بنى كلب وغيرهم فخرج عليه لؤلؤ أمير حمص نائب الامراء الاخشيدية فاسره وفرق اصحابه وحبسه، ثم استتابه واطلقه. وعاش ابو الطيب فى ضيق عيش الى ان لحق بالامير سيف الدولة ابن حمدان صاحب حلب سنة ٩٤٨ م. فصار يمتدحه ويسير فى صحبته. وله فيه القصائد العديدة، وكان لسيف الدولة مجلس يحضره العلماء فيتكلمون بحضرته فوقع مرة بين ابى الطيب وابن خالويه النحوى كلام فوثب ابن خالويه على المتنبي وضرب وجهه بمفتاح كان معه فشجه وخرج ودمه يسيل على ثيابه ولم ينتصر سيف الدولة لابى الطيب، فغضب وفارقه، ودخل مصر سنة ٩٥١، ومدح كافورا الاخشيدى وكان كافور صاحب مصر، فاكرم ابا الطيب وانعم عليه بصلات جزيلة ووعده بولاية بعض اعماله، ولكن لما رأى كافور تفاخر ابى الطيب بشعره وسموه بنفسه خافه ولم يعطه ولاية، ولما لم يرضه هجاه، وفارقه سنة ٩٦١ م.. ولما عوتب كافور فى ابى الطيب قال: «ياقوم من ادعى النبوة مع محمد أما يدعى المملكة مع كافور فحسبكم»، ووجه كافور خلفه رواحل الى جهات شتى فلم تلحقه، وقصد أبو الطيب بلاد فارس

(١و٢) السفح: عرض الجبل. وآنس: أبصر. والفاعل ضمير يعود على المخطف. وسرب ظباء فى البيت بعده مفعوله.. عازب أى مرعى خصيب مزهر.

(٣) الأحوى: شديد الخضرة فى سواد وهو وصف للعازب قبله.

(٤) الأين: التعب

ومدح عضد الدولة بن بويه الديلمي ، فأجزل جائزته ورجع من عنده قاصداً بغداد ثم الى الكوفة ، فعرض له فى طريقه فاتك بن ابى جهل الاسدي فى عدة من اصحابه، وكان مع ابى الطيب ايضاً جماعة من اصحابه فقاتلوهم، قيل لما رأى أبو الطيب أن الغلبة عليه اراد يفر فقال له غلامه مفلح : لا يتحدث عنك الناس بالفرار ابداً وانت القائل :

(فالخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم)

فكر راجعاً حتى قتل ، وكان ذلك فى شهر رمضان سنة ٩٦٥ م . وقد اشتغل أبو الطيب بفنون الادب ومهر فيها . وكان من المطلعين على غريب اللغة وحواشيها، وقد عاش فى صباه مدة طويلة بين اهل البدو فاكتسب الحرية وشرف النفس، وترى ذلك فى كثير من اشعاره، ومما يدل على ذلك انه لم يلتحق بسيف الدولة حتى شرط عليه أن لا يقبل الأرض بين يديه حين يدخل عليه وأن لا يقول الشعر الا جالساً ، وكان أبو الطيب يقف بين يدي كافور وفى رجله خفان وفى وسطه سيف ومنطقة، وكان يحب الصدق والعفاف ويعاب عليه التكبر وحب الذات والبخل... أما شعره فهو فى غاية البلاغة حتى انه يعد فى درجة امرىء القيس ، وكان ينتقد شعره قبل ان يقول، واشتهر فى وصف وقائع الحرب والمدح والشجاعة وفى الحكم، وحكمه أشهر من ان تذكر، وقد اعتنى العلماء بديوانه فشرحوه ويقال إنه يوجد اكثر من اربعين شرحا لديوانه ـ ولى دراسة مفصلة عنه فى كتابى : «قصص من التاريخ»

شعر المتنبي :

صاغ أبو الطيب شعره صياغة فنية تتجلى فيها روح القوة والحرية والحياة ، وقوة التعبير سمة من سمات شعر أبي الطيب نجدها فى ألفاظه وأساليبه ، كما نجدها فى معانيه ، وقد أفاضت روح القوة فى نفس الشاعر على شعره وفنه هذه السمة الواضحة ، وكذلك حرية التعبير من أهم خصائص المتنبي الفنية ، فقد كان مع إحاطته التامة باللغة وأساليبها يطلق نفسه وفنه من كل قيد لا يتلاءم مع شعوره وإلهامه الشعرى وذوقه الفنى الحساس، ويختار من الصيغ اللفظية أو البيانية ما يوائم شعوره ، ويعبر عن عواطفه ، ويطرد مع روحه وشخصيته وأمانيه ، يرسل القصيدة إرسالا لا يبالى بنقد النقاد :

أنام ملء جفونى عن شوازدها ويسهر الخلق جراها ويختصم

وهو فى ذلك نظير الفرزدق وأبى تمام اللذين كانا ينهجان هذا الأسلوب ، ولقد هب النقاد فى عصر المتنبي وبعد عصره يؤاخذونه على ما أسرف فيه من استكراه لفظ ، وتعقيد معنى ، وخروج على قواعد اللغة ، أو على الوزن الشعرى ، ومن استعماله الوحشى النابى ، وهبوطه أحيانا إلى مستوى الركاكة والسفسفة ، ومن إفراطه فى المبالغة والأغراق ، وخروجه على المنهج العربى ، وذلك ما أخذه عليه الثعالبى فى اليتيمة ، فقد لاحظ شدة التفاوت فى شعره وأنه يجمع بين البديع النادر والضعيف الساقط ، هذا إلى تعسفه فى اللغة والتراكيب وقبح المطلع أحيانا . . غير أن هذه الحرية كشفت لنا عن نفس الشاعر وآرائه وآماله فى أسلوبه ، ولم تستطع قيود البيان والشعر أن تحد من نزعاته ، وتقيد من حريته ، أو تخفى فى ثناياها اتجاهاته وأفكاره ، لا ولم تستطع هذه القيود أن تطمس روح الشاعر فى شعره ، أو تضعف شخصيته فى أسلوبه ، بل تستطيع أن تقرأ أية قصيدة من قصائده ، أو بيت من أبياته ، فسترى فيما تقرأ روح الشاعر تطل عليك . وتتحدث إليك ، وتتناجى بآمالها وآلامها لديك ، فتهز من عواطفك ، وتدعك مؤمنا بما آمنت به من : نزوع إلى المثل العليا ، وثورة صاخبة على الحياة ، ثم تحفز همتك إلى السير فى النهج الذى يريده الشاعر الثائر الداعية .

وفى شعر أبى الطيب تظهر سمة أخرى لها خطرها وأثرها ، فالشاعر لا يترك هذا المذهب الفنى الذى رفع لواءه من قبل أبو تمام ، إذ يؤثر تجويد المعنى على تسهيل العبارة ، فهو من شعراء المعانى ، وشعره امتداد لمذهب أبى تمام الشعرى ، والخصائص الفنية البارزة تتجلى بوضوح فى شعر الشاعرين ، لا سيما فى روعة التعليل ، وسمو التخييل ، ودقة الطباق ، وجمال الجناس ، وسحر الاستعارة والكناية والتشبيه ، وبلاغة التقسيم والمقابلة والتفسير ، والتورية والتوجيه ، ونحو ذلك .

وهو كأبى تمام فى كثرة الحكم والأمثال حتى قيل : « أبو تمام والمتنبى حكيمان والشاعر البحترى » ، غير أن أبا الطيب كما قلنا خرج على أساليب العرب المعروفة فى اللغة والتراكيب فى بعض شعره ، وأطلق الشعر من بعض القيود التى قيده بها أبو تمام ، ومن ثم أطلق عليه زعيم الطريقة الابتداعية فى الشعر العربى لخروجه على هذه الأساليب وقلة كلفه بالقيود الصناعية .

على أن فى شعر المتنبى روح العمق والقوة التى لا تظهر على أسلوبه سمات التكلف ، وإن كان بيته يضيق أحيانا بمعناه فيعسر فهمه . ولقد سئل أبو الطيب عن صلته بأبى تمام فقال (١) :

« أولا يجوز للاديب أن يعرف شعر أبى تمام ، وهو أستاذ كل من قال الشعر ، ويقول ابن الأثير : « إن أبا الطيب أراد أن يسلك مسلك أبى تمام فقصرت عنه خطاه ، ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه ، وكان المتنبى ينشد بدائع أبى تمام ويروى جميع شعره » ، ولقد امتاز أبو الطيب كما أسلفنا بعمق الفكرة الشعرية ، ويقظة العقل الأدبى ، الذى وعى التراث الشعرى ، للقدامى والمحدثين ، فهضمه وأخرجه أدبا حيا جديدا ، رائعا فى فكرته وحكمته ، روعته فى مادته وصياغته ، قويا فى دعواته ومراميه ، قوته فى أسلوبه ومعانيه .

وبذلك الطبع وفى هذه الأساليب نظم أبو الطيب روائع فنه وإلهامه ، داعيا إلى حياة اجتماعية وقومية قوية ، تتحرر فيها نفوس بنى قومه من أغلال الذل والاستعباد ، وتتطلع إلى حياة العزة والكرامة ، لتسترد الروح العربية نفوذها ومجدها ، ويستعيد أبناء الشعوب العربية تراثهم المفقود ، ومجدهم المنشود .

وكان شعره مثالا رائعا للحياة القوميـــة فى عصره ، وصورة بارزة للحياة الفكرية والأدبية ، ثم كان فيه تصوير للنزاع بين المثل العليا والحقائق الواقعية ، ونضال بين الألم والأمل ، وبين اليأس والرجاء ، والسخط والرضاء ، والحب والبغض ، وفيه صورة زاهية لثورته النفسية المتشائمة ، ودعوته الاجتماعية النظرية الداعية إلى القوة والطموح التى دعى إليها « نتشه » فى العصر الحديث ، ولقد حارب أبو الطيب الضعف الانسانى فى جميع مظاهره كما حاربه « نتشه » ، ودعى إلى الثقة بالنفس والعمل للحياة بأقصى ما يمكن من قوة وإقدام كما دعى إلى ذلك « نتشه » . وأصل الفضائل جميعها عند الرجلين هو إرادة القوة والسعى إليها والظفر بها فى شتى صورها ، وذلك هو السعادة المنشودة المرتجاة ، وبين أرائهما كثير من ألوان الاتفاق تراها فى « مطالعات » للعقاد (١٥٧ — ١٦٣) . وشعر المتنبى يتحدث كثيرا عن منازع الحياة البشرية ويصف الطباع الانسانية وصف المحيط بها الذى أكلها تجربة وبحثاً ، وقد امتاز شعره بسمو الحكمة الانسانية ودقة تغلغلها فى صميم

---

(١) ٨٠ صبح .

الحياة وإدراكها لبواطن الأمور وتمشيها مع ثمرات التجربة والواقع .

وشعره فوق ذلك تصوير بارع لحياة الشاعر نفسه ، بما كان يختلج فى صدره من طموح إلى المجد وثورة على نظم السياسة والاجتماع ، ودعوة إلى القضاء على مظاهر الضعف فيها بظبا السيف أو بشباة اليراع . . . وأبو الطيب رائع فى رثائه كما هو رائع فى مدحه وفخره وهجائه ووصفه وحكمته .

وعلى رثائه مسحة من الفلسفة الحائرة التى يستمدها الشاعر من ثقافته وحياته ، ويضمنها فلسفة الحياة والموت والفناء والخلود . كما يودعها فلسفة الحزن والبكاء والصبر والعزاء . . ومدحه ليس تفانياً فى شخصيات ممدوحيه ، إنما هو اعتزاز بشخصيته ونفسيته ، والشاعر يتخذه سلماً يصعد عليه إلى ذروة المجد والسلطان .

وتشيع فى أعطاف هجائه روح التهكم والسخرية والاقذاع ، وفلسفة السخرية نشدها المتنبى فى ثورات غضبه وسخطه فأجاد الحديث فيها فى دقة وخفاء ، ولكنها عند ابن الرومى نزعة طبيعية فى نفسه ظهرت فى شعره ، فكان أبعد الشعراء منزعا فى تصويرها ، وإبعاد مرماها ، وإصماء وقعها . وترى روح السخرية عند المتنبى فى أهاجيه لكافور ، وفى مدائحه التى كان يثنى بها عليه وكان يطوى فيها المدح على الهجاء حذقاً منه بصنعة الشعر كما يقول ابن جنى (١) .. ويمكننا أن نرجع روح الشاعرية عند المتنبى إلى بعد آماله ، وطول إخفاقه فيها ، وسخطه على الناس والحياة ، وإلى روح العظمة وشذوذ العبقرية فى نفسه ، وإلى نهمه فى الانتقام ممن يتعرض له بشر ، أو يحول بينه وبين غاياته ، وهى فى وضوحها وغلبتها على شعره لا يعادلها إلا دعواته الساخطـــة وآراؤه المتشائمة الناقمة على الحياة والأحياء ؛ وأبو العلاء يستمد من أبى الطيب هذا الاتجاه ، وإن كان يخالفه فى بواعثه وفى نتائجه ، فسخط أبى العلاء وتشاؤمه يقوم على شعور وثيق ببعد الإنسانية عن حياتها المثلى ، أما تشاؤم أبى الطيب فراجع إلى إخفاقه فى آماله ؛ وسخط أبى الطيب ينتهى به إلى خوض غمار الحياة دون مبالاة بالحياة ، وسخط أبى العلاء ينتهى به إلى الزهد فيها والانصراف عنها .

وقد كان هجاء أبى الطيب معولا هدم به صروح المجد التى أقامها من هجاهم ، فإذا هم صورة مشوهة هى سخرية الأجيال وحديث القرون .

---

(١) ٣٧٩ جـ ١ العكبرى .

ويبلغ وصفه مبلغ الروعة والقوة حين يصف به معارك القتال وحومات الوغى ، وروح البطولة واضحة من قصائد المتنبي لاسيما فى الفترة التى قضاها فى بلاط سيف الدولة حيث الصراع الدائم والكفاح الطويل بين سيف الدولة وأعدائه .

وفخره حديث عن عصاميته واعتزاز بشخصيته وكرامته وتصوير لآماله وغاياته . والمتنبي نسيب ولكنه متكلف مصنوع ضئيل فى معانيه ، بعيد عن روح الغزل فى أسلوبه ، لأنه لم يكن بين الغوانى وقلب أبى الطيب صلة ، فهو طالب مجد وداعى قوة وشاعر سيف ورمح ورسول فضيلة ومثل ، فماله وللغوانى والنسيب بهن ؟ والنسيب إنما هو وحى الحب الصادق والروح الوادعة والعواطف المتيمة حين يقع القلب فى أسر الهوى ، وما أبعد المتنبي عن ذلك ، وهل عرف الحب من يقول :

وما العشق إلا غرة وطماعة — يعرض قلب نفسه فيصاب
وغير فؤادى للغوانى رمية — وغير بنانى للرخاخ ركاب

وهو الذى يدعو على الغوانى مثل هذا الدعاء الجاف :

أياخدد الله ورد الخدود — وقد قدود الحسان الغيد

وليس لنسيب المتنبي خطر فى روحه ، إنما أثره فى فنه وأسلوبه كقوله :

سقاك وحيانا بك الله إنما — على العيش نور والخدود كمائمه

وقوله :

نزلنا عن الأكوار نمشى كرامة — لمن بان عنه أن نلم به ركبا
نذم الحسان الغر فى فعلها به — ونعرض عنه كلما طلعت عتبا
ذكرت به وصلا كأن لم أفز به — وعيشاً كأنى كنت أقطعه وثبا

ونسيبه على العموم تقليدى بحت ، ولم يكن المتنبي ممن شغفوا بجمال الطبيعة وأسرارها ، ولا ممن تأصلت فى نفوسهم روح المرح والفكاهة ، ولكنه جاد أقبل بجملته على جهاد الحياة ، وشعره صورة لما يختلج فى النفوس المجاهدة من آمال ، وروح الخيال عنده كما هو عند أبى العلاء ضعيف ، إذ كانا رجلا حقيقة وتفكير لاخيال وتصوير .

شهرته :

وشهرة المتنبي الأدبية الذائعة ترجع إلى خصائص فنه الأدبى كما ترجع إلى عوامل أخرى سياسية واجتماعية .

لحياة أبى الطيب فى قصور ملوك الشرق وأمرائه : الحمدانيين والأخشيديين والبويهيين ، وفى عواصم العالم الإسلامى إذ ذاك : حلب ودمشق ومصر والكوفة وبغداد وشيراز ، وتعرفه برجالاتها وزعماء النهضات الثقافية والفكرية والأدبية والاجتماعية والسياسية فيها، مما أذاع فى العالم الاسلامى شهرته ، ثم هذه الخصومات العنيفة التى منى بها المتنبى فى كل بلد حل فيه ، وتضاؤل الشعراء عن مجاراته أو تحديه فى سحر القريض ، ثم ذلك التجاوب بين عواطفه وشتى العواطف الانسانية ، وهذا التساوق بين آرائه وتجاربه وحكمة الحياة ، والتمازج بين مشاعره ومشاعره خاصة الأدباء والمفكرين ، وهذا السمو بنفسه وبالفن الذى يؤدى رسالته، كل ذلك كان من عوامل إذاعة شهرته الخالدة .

وقد تأثر بشعره الكتاب والشعراء والأدباء فى عصره وبعد عصره ، فالصابى والصاحب وسواهما من الكتاب المعاصرين له اقتبسوا من شعره فى رسائلهم ، وكذلك نسج الشعراء على منواله وحاكوه فى شتى العصور ، لاسيما فى حركة الأحياء الأدبى فى العصر الحديث ، وعصبية شاعر كأبى العلاء له هى عصبية للفن والأدب قامت برغم بعد الزمن وانتفاء المؤثرات بينهما .

المتنبى والنقد الأدبى :

ولا نكاد نجد شاعراً اختلفت الناس فى منزلته الأدبية ومكانته بين فحول الشعراء، فى عهده وبعد عهده ، مثل المتنبى ، فقد افترق النقاد فيه فرقاً ثلاثاً :

فطائفة بالغت فى التعصب له ورفعته إلى منزلة كبيرة فى الأدب وعلى عرش القريض

وطائفة بالغت فى التحامل عليه والوضع من شأنه وشعره . فوضعته فى مكانة دون مكانته ، ومنزلة دون منزلته لخصومة خاصة بينهم وبين الشاعر وحده ، أو لخصومة عامة بينهم وبين المحدثين جميعاً ، وأغلب هذه الخصومات نشأت بتأثير عواطف شخصية ومنافسات أدبية وأغراض سياسية ، والقليل الأقل منها كان بريئاً من الغايات، لم تدفعه إلا يد النقد الأدبى النزيه .

وطائفة أخرى جعلت تعصبها للأدب ، لاله فعرضت ووازنت ونقدت وحكمت على ضوء العدالة الأدبية ، وكانت هذه الخصومات سبباً فى كثرة الدراسات الأدبية التى تدور حول شعره ، وكان فيها ثروة كبيرة للنقد الأدبى خاصة وللأدب والشعر والبيان عامة ، وحسبك أن المتنبى شرح شعره وعلق عليه وألف فى نقده وكتب عن شعره فحول الأدباء والنقاد والعلماء ، من الشرقيين والمستشرقين ... كتب عن

المتنبى الثعالبى م ٤٢٩ فى الجزء الاول من اليتيمة كتابة فيها دراسة لحياته و نقد لشعره ، وترجم له ياقوت م ٦٢٦ هجرية(١) ، وابن خلكان م ٦٨١ هجرية(٢)، وألف البديعى م ١٠٧٣ هجرية فى حياته وشعره كتابه « الصبح المنبى » وكذلك فعل كثير من الكتاب والأدباء فى العصر الحديث نخص منهم المرحوم السيد محمد توفيق البكرى فى كتابه « أخبار أبى الطيب المتنبى » ،« والمتنبى » للأستاذ جبرى ، و « مع المتنبى » فى جزأين للدكتور طه حسين ، و « ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام » للدكتور عبد الوهاب عزام ، و « المتنبى » للأستاذ محمود محمد شاكر وقد نشرته مجلة المقتطف فى عدد خاص ، ومجلة الهلال العدد العاشر عام ١٩٣٥ الخاص بالمتنبى، وصحيفة دار العلوم، وسواها من الدراسات للمؤلف، وكان العيد الالفى لذكرى أبى الطيب عام ١٩٣٥ هو المثير لهذه الدراسات فامتلأت الصحف والمجلات بالحديث عن حياته وشعره وظهرت المؤلفات الحافلة بالبحوث الادبية فيه ، وفى « مطالعات » للعقاد و « حصاد الهشيم المازنى دراسة واسعة للمتنبي وفنه ، وقد شرح ديوانه شرح دراسة وتحليل ونقد : ابن جنى م ٣٩٢ هجرية فى ثلاثة مجلدات وله كتاب فى « معانى أبياته » . ولابن فورجة : « التجنى فى الرد على ابن جنى » و « الفتح فى الرد على أبى الفتح » ، ورد على ابن جنى كذلك على بن عيسى الربعى المتوفى سنة ٤٣٥ ه فى كتابه « التنبيه » وشرح ديوانه كذلك ابن الافليلى م ٤٤١ وأبو العلاء م ٤٤٩ فى كتابه « اللامع الغريزى فى معجز أحمد » ، والواحدى م ٤٨١ ه ، وعبد القاهر الجرجانى م ٤٧١ ه ، والتبريزى م ٥٠٢ ه ، والعكبرى م ٦١٦ ه ، [illegible] والبرقوقى فى عصرنا الحديث .

ونقد شعره كثير من النقاد فى مختلف العصور ، فللصاحب م ٣٨٥ ه فى نقد شعره رسالته « الكشف عن مساوى شعر المتنبى » ، وللخوارزمى م ٣٨٣ ه كتاب مفقود(٣) ، ولابى الحسن الجرجانى م ٣٩٢ ه كتابه الممتع « الوساطة بين المتنبى وخصومه» ، وللحاتمى م ٣٨٣ ه « رسالته الحاتمية » وكتابه « جبهة الادب »، تحدث فى الاولى عن مناظرته للمتنبى ، وفى الآخر عن سرقاته من أرسطو(٤) ، ولمحمد ابن وكيع المصرى الشاعر م ٣٩٣ ه كتابه « المنصف » فصل فيه سرقات المتنبى(٥)

---

(١) ٣٦٦ ج ١ طبقات الادباء . (٢) ٣٦ ج ١ ابن خلكان .

(٣) ١٦١ صبح ، ٢٦١ ج ٢ النثر الفنى .

(٤) ١١١ - ١١٩ ج ٢ المرجع . (٥) ١٥٨ و ١٦١ صبح

وللعميدى كتابه « الأبانة » وقد نقل عنه البديعى كثيراً من نقده وناقشه(١)، ولابن حسنون المصرى كتابه « نزهة الأديب فى سرقات المتنبى من حبيب » ، وألف أديب آخر كتاب « المآخذ الكندية من المعانى الطائية » أى سرقات المتنبى من أبى تمام ، وغير ذلك من كتب النقد التى تدور حول شعر المتنبى .

وقد أبدى علماء الادب فى شتى العصور رأيهم فى المتنبى وشعره: كالشريف الرضى م ٤٠٥ ﻫ(٢) ، وابن رشيق له ٤٥٦ ﻫ فى « عمدته » ، وابن خلدون م ٨٠٨ ﻫ فى « مقدمته عن الشعر »(٣)، وسيف الدولة الحمدانى م ٣٥٦ ﻫ(٤) وابن العميد م ٧٦٠ ﻫ وأبو فراس الحمدانى م ٣٥٧ ﻫ (٥) وابن خالويه النحوى (٦) وسيبويه المصرى (٧) والحاتمى (٨) . وقد عرض الكيلانى فى كتابه « صورة جديدة من الادب العربى » مناظرة الحاتمى لابى الطيب ، وغير هؤلاء من الباحثين ، ونقده كثير من الكتاب المحدثين ، وكثير من المستشرقين مثل : وايسكى . دى ساسى ، بولمين ، بركلمان ، نيكلسون ، عامر، ديتريشى ، وكتب المستشرق الانجليزى هندلى فى تاريخ حياة أبى الطيب بحوثاً قيمة نشرها فى القرن التاسع عشر .

بين المتنبى وابن هانىء شاعر المعز

— ١ —

عاش المتنبى (٣٠٣ — ٣٥٤) فى العصر الذى عاش فيه ابن هانىء الشاعر (٣٢٠ — ٣٦٢) ﻫ . ولقد كان أبو الطيب المتنبى شاعراً ، ولكنه أراد أن يكون ملكا على عرش من العروش ، أو أميراً على ولاية من الولايات ، فأخفق ؛ أراد أن يترك الشعر إلى السياسة ، فردته الأيام عن السياسة إلى الشعر ، فبرم أبو الطيب بحياته التى لم يدرك فيها آماله وأحلامه ، فملأ شعره سخطا على الناس ، وغضباً على المجتمع ، وبرما بالحياة ، بعد أن كان يذيعه أنغاماً حية من الطموح والأمل والأقدام ، وأخذ يدعو إلى مذاهب جديدة متشائمة ، أوحى بها إليه

---

(١) ١١١٤ - ٥٩ صبح | (٢) ١٠٣ صبح
(٣) ٤٣ صبح | (٤) ٤٦ - ٤٨ صبح
(٥) ٤٥ و ٩٠ - ١٠٣ صبح | (٦) ٦٣ صبح
(٧) ٧١ - ٨٠ صبح ، ١٠٦ - ١٣٧ صور جديدة لكيلانى .

سخطه وغضبه ، وآرائه وتجاربه ، وآماله وآلامه ، بعد أن كان يدعو إلى القوة والطموح والتفاؤل ، وظل كذلك حتى خر صريعا مضرجاً بالدماء .

وأخطأ أبو الطيب من حيث أصاب القدر ، فهذا المجد السياسى الفانى الذى طلبه المتنبي فى حياته ما قيمته وما جدواه وما شاوه أمام هذا المجد الأدبى الخالد ، الذى كتبته له الأيام بعد وفاته ، وقلدته عروشه الباقية الخالدة .

فالمتنبي كشاعر هو هو ، هو الذى عصف فى حياته بخصومه وأقرانه فى مصر والشام والعراق وإيران، وذهب شعره فى أرجاء العالم الإسلامى إذ ذاك ثائراً مدويا :

فشرق حتى ليس للشرق مشرق　　　وغرب حتى ليس للغرب مغرب

يردده الناس ، وتشدو به الحياة :

وما الدهر إلا من رواة قصائدى　　　إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً

وهو الذى فتن بشعره ، فتنة الفنان بفنه ، حتى رأى أنه يتبوأ فى الشعر العربى عروش الامارة ، من حيث حرمها هو :

إن هذا الشعر فى الشعر ملك　　　سار فهو الشمس والدنيا فلك

ورأى أهل الجاهلية تقصر عن مداه :

ما نال أهل الجاهلية كلهم　　　شعرى ولا سمعت بسحرى بابل

ثم كان أبو الطيب الشاعر الذي نال بعد حياته من المجد الأدبى ما لم ينله شاعر من الشعراء ، فشدت الأجيال بشعره ، وهتفت القرون بذكره ، وعكف كثير من فحول الأدب والبيان فى كل عصر وجيل على تراثه الأدبى بحثا ودراسة ونقدا ، وعدوه شاعر العربية فى عصره ، بل جعله كثير من النقاد شاعر العربية الفذ فى شتى عصورها الأدبية ، وأحاطوا ذكره بهالة من التقدير والاعجاب، وجلال الذكر وعظمة الفن، تشبه الهالة التى يحيط بها الأوربيون ذكرى شكسبير وجوته وهوجو وليوباردى من أدباء الغرب الخالدين .

— ٢ —

ومن الغريب فى البحث الأدبى حقا أن نرى بين أبى الطيب المتنبي وابن هانى الشاعر وجوها كثيرة من التشابه فى العقيدة وفى الشخصية وفى الشاعرية وفى المنزلة الأدبية فى عصر الشاعرين :

لحياة ابن هانىء تشبه حياة المتنبى فى كثير من مظاهرها والعقيدة الفاطمية التى كان يؤمن بها ابن هانىء شبيهة بالعقيدة الاسماعلية التى آمن بها أبو الطيب ! وطموح ابن هانىء لا يعدله إلا طموح المتنبى ، ومكانة ابن هانىء عند الأمراء والملوك فى عصره هى مكانة أبى الطيب فى بلاط سيف الدلة وكانور وعضد الدولة ، وتتويج ابن هانىء أميراً على إمارة القريض فى دولة المعز هو ما حدث لأبى الطيب من إمارته على الشعر فى المشرق ؛ وشاعرية الشاعرين تتشابه من وجوه كثيرة ، فالمدح وأوصاف الحروب تكادان تتعادلان فى شعر الشاعرين ، ولكن ابن هانىء لم يصل إلى مكانة المتنبى فى الحكمة وضرب المثل وفى الرثاء وفى بعض أغراض الشعر الأخرى، كما أنه لم يصل إلى مكانته فى دقة المعانى وبعدها وعمق الثقافة العقلية وتنوعها ، وإن كان ابن هانىء يجارى أبا الطيب فى هذا الميدان إلى حد ما ، وروح الشاعرية فى الشاعرين تتشابه من وجوه كثيرة ؛ تتشابه من حيث قوة الأسلوب وفحولته وجزالته وطبعه ، ومن حيث البعد عن الألفاظ المترفة ؛ والألمام بكثير من الغريب ، وتتشابه فى كثير من السمات الفنية الخاصة التى تراها فى شعر الشاعرين ، وفى تراث الشاعريتين ، وفى إنتاج هاتين الشخصيتين :

— ٣ —

ويشبه النقاد وعلماء الأدب ابن هانىء بالمتنبى ، ويلقبونه بمتنبى المغرب ، ويسلمون له زعامة الشعراء فى المغرب والأندلس ، ثم حاولوا أن يقارنوا بينه وبين المتنبى ؛ ولكن المقارنة ـ مع اتحاد العصر وتوافق البيئة والمؤثرات العامة وتوافق الشاعريتين فى كثير من مميزاتهما ـ غير ممكنة ، لأن لكل شاعر طابعه الخاص ، وروحه الفنية المستقلة ، ونزعاته الأدبية المقصورة عليه ؛ وإن كان ابن هانىء أقرب الشعراء إلى المتنبى ، وأقربهم منه مكانة فى عصر الشاعرين ، ويكاد المجد الأدبى الذى لاقاه ابن هانىء فى حياته يضارع الشقاء الذى لاقاه أبو الطيب فى عصره ، كما يكاد الذكر الأدبى السائر الذى ناله المتنبى بعد حياته يضارع الخمول الأدبى الذى لازم اسم ابن هانىء بعد وفاته .

— ٤ —

ولقد كان ابن هانىء بطبيعة سنه تلميذا أو كالتلميذ لأبى الطيب ، قرأ ديوان

المتنبي وتأثر به فى كثير من معانيه وأساليبه وخيالاته ، وفى كثير من قصائده فقداستعار ابن هانىء ديوان أبي الطيب بعد وفاته ، أى بعد عام ٣٥٤ ه ، من أديب أساء بعد فى طلبه منه ، فنظم فى ذلك الشاعر قصيدته :

تنبــأ المتنبي فبكم عصرا ولو رأى رأيكم فى شعره كفرا
مهلا فلا المتنبي بالنبى ولا أعد أمثاله وشعره السورا
تهتم علينـــا بمرآه وعاـكم لم تدركوا منه لاعينا ولا أثرا

وابن هانىء فى قصيدته هذه يحاول أن يخفف من غلواء المتعصبين للمتنبي ، ثم يحاول أن ينكر فضله ، فيقول :

ويله شاعـــراً أخملتموه ولم نعلم له عندنا قدرا ولا خطرا

ثم يصف جناية القوم على شعره ، وتصحيفهم إياه ، ويتهكم بهم ، إلى أن يقول:

أريتمونى مثالا من رواتـكم كالأعجمى أتى لايفصح الخبرا
أصم أعمى ، ولـكنى سهرت له حتى رددت إليـه السمع والبصرا
كانت معانيــه ليلا فامتعضت له حتى إذا ما بهرن الشمس والقمـرا
ضجرتم وأتانا من ملامتـــكم ومن معارضيكم مايشبه الضجرا
ولو حرصتم على إحياء مهجته كما حرصـتم على ديوانه نشرا

وظاهر من هذا أن الديوان الذى كتبه هذا الأديب واستعاره منه ابن هانىء كان كثير التصحيف والخطأ ، وأن ابن هانىء صححه وكتب منه نسخة أخرى ، فاختلفت رواية هذا الأديب وأمثاله ، فأكثروا من الضجر من ابن هانىء ، وقول ابن هانىء « فلو حرصتم على إحياء مهجته » ـ أى المتنبي ـ دليل على أن ذلك كان بعد وفاة المتنبى .

وابن هانىء : فى أول قراءته لديوان المتنبى لم يعترف له ـ كما يقول ـ بقدر ولاخطر ، ولـكنه بعد ذلك عكف على احتذاء أبي الطيب وتقليده لاسيما فى أمثاله وحكمته ، وفى شعر ابن هانىء قصائد وأبيات كلها تسير على روح قصائد وأبيات المتنبى ، ولذلك كانت الحـكمة فى شعر ابن هانىء متأخرة جدا فى حياته لم تواته إلا وهو فى نهاية عصر رجولته ، وكذلك أيضا تجد بين ابن هانىء وأبى الطيب تشابها كثيرا فى كثير من الأساليب والمعانى ، مما يطول بنا الحديث لو حاولنا تفصيل ذلك والالمام بنواحيه .

— ٥ —

وهناك أسطورة أدبية رواها البديعى م ١٠٩٣ فى « الصبح المنبى عن حيثية المتنبى » ، تحدثنا بأن أبا الطيب عزم وهو فى مصر على أن يهاجر إلى المغرب، فلقيه ابن هانىء فى الطريق ، فأنشده أبو الطيب شعراً له ، ثم أنشده ابن هانىء من شعره ، فقفل راجعا إلى مصر ، تاركا المغرب لابن هانىء شاعره .

وهى أسطورة أدبية حافلة بالبواعث التى دعت إلى اختلاقها ، وفيها إشادة بابن هانىء وبفنه وشاعريته .

بين المتنبى والنقاد

— ١ —

هذه مثل لما دار بين النقادمن آراء فى النقد ، ومناقشات فى الحكم على الشعراء.

انكر النقاد على المتنبى قوله :

جللا كما بى فليك التبريح   أغذاء ذا الرشأ الأغن الشيح

فقال رجال الاعراب: حذف النون من يكن خطأ ما دام قد وليها اللام ، ورد عليهم الجرجانى بأن ضرورة الشعر تجيز ذلك الحذف.. وقال أصحاب المعانى: قطع المصراع الثانى عن الأول فى اللفظ والمعنى ، فقال لهم الجرجانى فى وساطته : إنما يسوغ الانكار لو قطعهما عن بعض قبل تمام المعنى ، فأما أن يستوفى مراده ثم ينتقل إلى غيره فليس بعيب ، والمصراعان فى هذا كالبيتين ؛ يجوز استقلال كل بمعناه . وقال البعض : قد يفعل الشاعر مثل ذلك فى النسيب خاصة ليرى أنه مشغول عن تقويم خطابه بالحب الذى غلبه ، والشوق الذى تمكن منه ، وقال غيره إن بين المصراعين اتصالا لطيفاً ، فلما أخبر عن عظم تبريحه وشدة أسفه بين أن الذى أورثه ذلك هو الأغن الذى شككه غلبة شبه الغزلان عليه فى غذائه .

٢ — وأنكروا عليه قوله :

أمط عنك تشبيهى بما وكأنه   فلا أحد فوقى ولا أحد مثلى

لأن ما ليست للتشبيه ، وقد سئل أبو الطيب عن هذا فذكر أن ما تأتى لتحقيق التشبيه، تقول : هو الأسد وما هو إلا الأسد وإلا كالأسد.فقال الجرجانى راداًعلى أبى الطيب رأيه : إن التشبيه بما محال . وإنما يقع التشبيه فى هذه المواضع بحرفه ، وما لم تتعد موضعها من النفى ، ولكنه لما كانت ما وإلا تأتى لتحقيق المعنى الذى

يفيده أصل التركيب كالتشبيه فى مثل ما هو إلا الأسد ، صح أن ينسب التشبيه تجوزا إلى ما ،إذ كان لها هذا الأثر ، وباب الشعر أوسع من أن يضيق عن مثله .

٣ — وينكر النقاد على أبى الطيب جمعه بوقا على بوقات فى قوله :

إذا كان بعض الناس سيفا لدولة ... فنى الناس بوقات لها وطبول

وإنما الصحيح جمعه على أبواق ، فقال لهم الجرجانى : إن أصل الجمع التأنيث ، فمن جمع اسما لم يجد عن العرب جمعا له فأجراه على الأصل لم يسغ الرد عليه ، أو أن ينسب إلى الخطأ لأجله ، وإن كان لأبى الطيب عن مثل هذا مندوحة .

٤ — ومما أنكره النقاد على أبى الطيب قوله :

وإنى لمن قوم كأن نفوسنا ... بها أنف أن تسكن اللحم والعظما

وكان الأسلوب يفرض عليه أن يقول : نفوسهم ، ولكنه قطع قبل استيفاء الكلام واتمام الخبر ، وقد رد عليهم بعض النقاد بأن الكلام جرى على أسلوب الالتفات بحمله على المعنى وصرف الضمير عن وجهه ، وهو أسلوب تنطق به العرب كثيراً فى بلاغاتها وبيانها ، ولكن الجرجانى لايقبل ذلك الرأى لما فى هذا الأسلوب إذا سير عليه دائماً من تداخل الضمائر والتباس المعانى ، وهو أسلوب له مواضع تختص بالجواز ، وأخرى تبعد عنه . ويرى القاضى أن بيت ابى الطيب غير مستكره فيما يجوز من أسلوب الالتفات ، ولكنه غير معذور بتركه باب الصحة إلى المشكل الواهى الضعيف .

— ٢ —

ولقد كان فى المتنبي كبر وزهو ، وكان يعتد كل الاعتداد بنفسه وفنه حتى رأى شعره يتبوأ فى الشعر العربى عروش الامارة التى نشدها لنفسه فأخفق وحرم منها :

إن هذا الشعر فى الشعر ملك ... سار فهو الشمس والدنيا فلك

ورأى أهل الجاهلية من الشعراء تقصر عن مداه :

ما نال أهل الجاهلية كلهم ... شعرى ولاسمعت بسحرى بابل

وبعد أن بلغ من المجد الأدبى منتهاه ،كان أبلغ شحيح بشعره على رجالات العالم الاسلامى وشخصياته البارزين : فلم يمدح أحداً إلا فى القليل النادر من الذين تربطهم بالشاعر صلات خاصة ، أو ممن كان يسعى لديهم فى سبيل تحقيق مطامحه فى الإمارة .

وفى عام ٣٥٣ هـ كان المتنبي فى بغداد فأخذ يفاوضه رجالاتها كالصابى م سنة ٣٨٣

والمهلبي الوزير فى أن يقلدهم مدحة من مدائحه فاعتذر . وانتظر معز الدولة الملك والخليفة العباسي أن يشيد أبو الطيب بدولتهم فلم يفعل ، فأثار وجود المتنبي مشكلات سياسية وأدبية ، خرج من مأزقها أبو الطيب ، فيمم وجهه شطر شيراز حيث عضد الدولة ينشد منه ولاية يتقلدها أو عرشاً يتبوؤه . وطمع الصاحب بن عباد فى زيارته له بأصفهان ، فكتب إليه يرحب بقدومه ويعلن استعداده لأن يشاطره ماله ، ولكن أبا الطيب أبى أن يقلد شعره شابا ليس فى يده تحقيق آماله البعيدة ومطامحه الواسعة ، فرفض عرض الصاحب شاخصاً إلى عضد الدولة لنفس غاياته ، لا رغبة فى إشباع شهواته :

ول السلاطين من تولاها والجأ اليه تكن حدياها

وكان رفض المتنبي اليد التى مدها الصاحب اليه باعثا على عداوة « ابن عباد » له ، ونقده إياه ، وحمله الأدباء والكتاب على ثلبه ومهاجمته بسلاح عنيف من أسلحة النقد الأدبى الجائر ، وألف بباعث العصبية والخصومة رسالته الصغيرة الحجم الكبيرة المغزى والقيمة : « الكشف عن مساوىء المتنبي فى شعره » ، ينقد فيها شعره سواء فى اللفظ والمعنى أم الوزن والقافية أم الأسلوب والخيال أم الفكرة والاتجاه ، وكان الصاحب لاذعا عنيفا فى نقده للمتنبي ، وتهكمه بشعره ، غير آبه لجانب الاحسان والروعة فى شعره . ولقد تجاهل الصاحب — عصبية منه على المتنبي — نفسية الشاعر وطبعه ومؤثرات الدم والروح والبيئة والآمال والاتجاه فيه ، وأخذ يحكم عليه أحكاما قاسية لاهوادة فيها ولا رحمة ، وهو فى هذا الاتجاه يناقض الجرجاني ، الذى فهم النقد على أنه البحث فى هدى العدالة والانصاف عن مكانة الشاعر الأدبية على ضوء خصائص فنه ومميزات شعره ، ووزن مازل فيه الشاعر وما أجاد فيه بقسطاس مستقيم عادل . ونهج الصاحب فى نقده صورة لاتجاه أستاذه ابن العميد فيه ، مما عبر عنه الصاحب فى رسالته بقوله : « وكان ابن العميد يتجاوز نقد الابيات إلى نقد الحروف والكلمات ولا يرضى بتهذيب المعنى حتى يطالب بتخير القافية والوزن (١) » ، فهو نقد لمعانى الشاعر ، وطبعه الأدبى ، وذوقه الاجتماعى ، ونقد لاسلوبه فى صياغته ، واختيار ألفاظه ، وحروفه ، وقافيته ، وموسيقاه .

وذكر أن المتنبي يضؤل أمام أبى تمام والبحترى فى صياغته ما كان يقتبس منهما من معان ، كما يضؤل بجانب الفرزدق فى الفخر .. وكانت غاية الصاحب من وراء

---

(١) ٢ الكشف .

ذلك كله هدم مجد المتنبي الادبي ، وتشويه سمعته كشاعر ممتاز من شعراء العربية ،وان كان الصاحب وصل الى بعض ماأراد فى حياة أبى الطيب فان مجده قد عصف بكل ماأراده خصومه ؛ فوهب ذيوع الشهرة ومجد الخلود .

وقد نقد ابن رشيق فى عمدته فى مواضع مفرقة منها آراء الصاحب فى نقده ، فرد عليه مثلا نقده لبيت المتنبي :

صلاة الله خالقنا حنوط على الوجه المكفن بالجمال (١)

والانصاف يلزمنا أن نقول: إن نقد الصاحب كله لم يكن مدفوعا ببواعث الهوى أو بمنأى عن العدالة والانصاف ، وان كان الصاحب يتجاهل لغاية فى نفسه شخصية الشاعر وروحه وأثرهما فى فنه ؛ فنراه مثلا ينقد بيت أبى الطيب :

لو استطعت ركبت الناس كلهم الى سعيد بن عبد الله بعرانا

نقدا لاذعا (٢) . وللنقاد حق السخط على هذا البيت فى بادى الرأى ؛ ولكن النظرة الحصيفة تدعنا نرفع عن الشاعر فى بيته هذا إصر كل مؤاخذة ، فهذه هى روح الشاعر المتهكمة الساخرة بالناس الساخطة على المجتمع الذى لم ينل فيه آماله ، المعتزة بنفسها وشخصيتها — تتجلى فى البيت فى صورة واضحة رائعة وهل أبلغ فى السخرية وأمعن فى التهكم ، من اتخاذ الناس مطايا يركبها الشاعر إن استطاع ليصل عليها الى ممدوحه ؟ إن من الغريب حقا أن يكون فن شاعر كأبى الطيب رائعا كل الروعة ، بالغا نهاية القوة والسحر ، حين ينظر اليه كله كأثر أدبى حافل ، فيحكم على قصيدة من قصائده ؛ أو على مجموعة منها أو عليها كلها ، حينئذ يرتفع أبو الطيب الى الذروة وينتهى شعره الى الغاية . أما اذا قطعت أوصاله فنظرت الى بعضه كحرف فى كلمة من كلماته ، أو لفظ فى بيت فى قصيدة من قصائده ، أوخذ الشاعر وحوسب حسابا غير يسير . لقد تعمد الصاحب أن ينظر الى فن أبى الطيب هذا النظر الجزئى ، مخفيا وراء نقده ما فى نفسه له من اعجاب وتقدير . وقد شاء الجرجانى فى وساطته ألا يترك هذه الناحية أو يغفلها ، فطالب بالحكم على فن أبى الطيب كله أو جله أو كثير منه ، لا على جزئياته الضئيلة التى لاتحط زلاته فيها من مكانته ومنزلته ، وعرض كثيرا من روائعه ، طالبا الانصاف فى الحكومة والعدالة فى الرأى .

---

(١) ٢٤٧ جـ ٢ العمدة . (٢) ٢٦ الكشف .

— ٣ —

رســالة الحاتمى فى نقد المتنبى*:

قال أبو على الحاتمى (١) : كان أبو الطيب المتنبي عند وروده مدينة السلام، التحف رداء الكبر ، وأذال (٢) ذيول التيه ، وصعر خده ، ونأى بجانبه ؛ وكان لا يلقى أحدا إلا نافضا (٣) مذرويه ، رافلا من التيه فى برديه ؛ يخيل إليه أن العلم مقصور عليه ، وأن الشعر بحر لم يغترف نمير مائه غيره ، وروض لم يرع نواره سواه ، فدل بذلك مديدة أجرته رسن (٤) الجهل فيها ، فظل يمرح فى تثنيه ، حتى إذا تخيل أنه القريع (٥) الذى لا يقارع ، والنزيع(٦) الذى لا يجارى ولا ينازع ، وأنه رب الغلب ومالك القصب ، وثقلت وطأته على أهل الأدب بمدينة السلام !. فطأطأ كثير منهم رأسه ، وخفض جناحه ، وطامن على التسليم له جأشه (٧) ، وتخيل أبو محمد المهلبي ، أن أحدا لا يقدر على مساجلته ومجاراته ، ولا يقوم لتتبعه بشيء من مطاعنه ؛ وساء معز الدولة أن يرد عن حضرة عدوه رجل ، فلا يكون فى مملكته أحد يماثله فى صناعته ، ويساويه فى منزلته !

فنهدت (٨) حينئذ متتبعا عواره ، ومتعقبا آثاره ، ومطفيا ناره ، ومهتكا أستاره ، ومقلماً أظفاره ، وناشرا مطاويه ، وممزقا جلباب مساويه ، متحينا أن تجمعنا دار ، فأجرى أنا وهو فى مضمار ، يعرف فيه السابق من المسبوق . حتى إذا لم أجد ذلك قصدت موضعه الذى كان يحله فى ربض (٩) حميد .

فوافق مصيرى إليه حضور جماعة تقرأ شيئا من شعره عليه ؛ فحين أوذن بحضورى ، واستؤذن عليه لدخولى، نهض عن مجلسه مسرعا ، ووارى شخصه عنى

---

* معجم الأدباء ص ١٥٩ جـ ١٨ .

(١) هو محمد بن الحسن بن المظفر الحاتمى من أهل اللغة والأدب . مات سنة ثمان وثمانين وثلثمائة (٢) أذال : تبختر وجر ذيله على الأرض تيهاً .

(٣) نافضا : محركا ، والمذروان : ناحيتا الرأس (٤) الرسن : الحبل

(٥) القريع الذى يقارعك ، والمقارعة : المضاربة بالسيوف (٦) النزيع: الشريف من القوم الذى نزع إلى عرق كريم (٧) الجأش : النفس وقيل القلب .

(٨) نهد: نهض ، وعواره : عيبه (٩) الربض :المسكن

مستخفيا ؛ فنزلت عن بغلة كانت تحتى ، وهو يرانى نازلا عنها ، لانتهائى بها إلى أن حاذيته ، فجلست فى موضعه ، وإذا تحته قطعة من زيلو (١) مخلقة ، قد أكلتها الأيام ، وتعاورتها السنون ، فهى رسوم خافية. وسلوك (٢) بادية، حتى إذا خرج إلى نهضت إليه فوفيته حق السلام . غير مشاح (٣) له فى القيام . لأنه إنما اعتمد بنهوضه ألا ينهض لى عند موافاتى . وإذا هو قد لبس سبعة أقبية كل قباء (٤) منها لون ، وكان الوقت آخر أيام الصيف ، وأخلقها بتخفيف اللبس . فجلست وجلس وأعرض عنى ساعة لا يعيرنى فيها طرفه ، ولا يسألنى عما قصدت له ، وقد كدت أتميز (٥) غيظا ، وأقبلت أسخف رأيى فى قصده ، وأفند نفسى فى التوجه نحو مثله ولوى عذاره عنى مقبلا على تلك الزعنفة (٦) التى بين يديه ، كل واحد يومى إليه ، ويوحى بطرفه ، ويشير إلى مكانى بيده ، ويوقظه من سنة جهله ،وهو يأبى إلا ازورارا ونفارا ، وجريا على شاكلة خلقه المشكلة .

ثم رأى أن يثنى رأسه إلى ، فوالله ما زادنى على أن قال : أى شىء خبرك ؟ قلت أنا بخير ! لولا ما جنيت على نفسى من قصدك ، وكلفت قدمى فى المصير إلى مثلك ! ثم تحدرت عليه تحدر السيل إلى القرار ، وقلت له : أبن لى ـ عافاك الله ـ مم تيهك وخيلاؤك وعجبك؟ وما الذى يوجب ما أنت عليه من التجبر والتنمر(٧)؟ أنسب فرعت سماء المجد به ! أم علم أصبحت علما يقع الايماء إليك فيه ؟ هل أنت إلا وتد بقاع (٨) فى شر البقاع ؟ وجفاء (٩) سيل دفاع ؟ يالله ! استنت الفصال حتى القرعى (١٠) ! وإنى لأسمع جعجعة (١١) ولا أرى طحنا ! فامتقع لونه عند سماع كلامى ، وعصب (١٢) ريقه وجحظت عيناه. وسقط فى يده . وجعل يلين فى الاعتذار

---

(١) زيلو : معناها الحاف بالفارسية (٢) السلوك : جمع جمع سلكة ، وهى الخيط الذى يخاط به الثوب (٣) منازع (٤) القباء : ثوب يلبس فوق الثياب (٥) أتميز : أتقطع (٦) الزعنفة : الطائفة من القبيلة تنفرد أو تنضم إلى غيرها ، وكل جماعة ليس أصلهم واحدا . (٧) التنمر : التشبه بالنمر ، والنمر لا يلقى إلا متنكرا غضبان (٨) القاع : أرض سهلة مطمئنة (٩) ما نفاه السيل من الزبد (١٠) يضرب مثلا للرجل يدخل نفسه فى قوم ليس منهم ، والقرعى من الفصال : الذى أصابها قرع وهو بثر ، والاستنان : النشاط (١١) مثل يضرب للذى يكثر الكلام ولا يعمل ، وللذى يعد ولا يفى ، والجعجعة : صوت الرحى ونحوها ، والطحن: الدقيق (١٢) عصب : جف

لتينا . كاد يعطف عليه عطف صفحى عنه . ثم قلت : ياهذا ! إن جاءك رجل شريف فى نسبه ، أو عظيم فى أدبه ، صغرت أدبه ، أو متقدم عند سلطانه لم تعرف موضعه، فهل العز تراث لك دون غيرك ؟ كلا والله ! لكنك مددت الكبر ستراعلى نقصك، وضربته رواقاً دون جهلك ، فعاد إلى الاعتذار ، وأخذت الجماعة فى تليين جانبى ، والرغبة إلى فى قبول عذره ، واعتماد مياسرته ، وأنا آبى إلا استشراء (١) واجتراء، وهو يؤكد الأقسام ويواصلها أنه لم يعرفنى ، فأقول له : ياهذا ألم يستأذن لى عليك باسمى ونسبى ؟ أما فى هذه العصابة من يعرفك بى لو كنت جهلتنى ؟ وهب ذلك كذلك ، ألم ترنى ممتطيا بغلة رائعة يعلوها مركب ثقيل ، وبين يدى عدة من الغلمان؟ أما شاهدت لباسى؟ أما شممت نشر عطرى؟ أما راعك شىء من أمرى، أتميز به فى نفسك عن غيرى؟ وهو فى أثناء ما أكلمه يقول : خفض عليك ! أرفق ! استأن (٢)؛ فأصحب(٣)جانبى بعض الاصحاب ، ولان شماسى (٤) بعض الليان ،وأقبل على وأقبلت عليه ساعة . ثم قلت : أشياء تختلج فى صدرى من شعرك أحب أن أراجعك فيها ! قال: وما هى؟ قلت: خبرنى عن قولك :

فان كان بعض الناس سيفاً لدولة ففى النـــاس بوقات لها وطبول

أهكذا يمدح الملوك ؟ ! وعن قولك:

ولا من فى جنازتها تجارٌ يكون وداعها نفض النعال

أهكذا تؤبن أخوات الملوك(٥)؟ والله لو كان هذا فى أدنى عبيدها لكان قبيحا ! وأخبرنى عن قولك :

خف الله واستر ذا الجمال ببرقع فإن لحت ذابت فى الخدور العواتق(٦)

أهكذا تنسب بالمحبوبين ؟ وعن قولك :

وإذا أشار محدثا فكأنه قرد يقهقه أو عجوز تلطم

أما كان لك فى أفانين الهجاء التى تصرفت فيها الشعراء مندوحة عن هذا الكلام الرذل ينفر عنه كل طبع ، ويمجه كل سمع ؟ وعن قولك :

وضاقت الأرض حتى كان هاربهم إذا رأى غير شىء ظنه رجلا

---

(١) استشراء : لجاجة وعنادا (٢) استأن : لا تعجل (٣) أصحب جانبى : انقاد
(٤) شماسى : امتناعى وإبائى (٥) المعروف أن هذا البيت من قصيدة المتنبى فى رثاء والدة سيف الدولة وأولها : نعد المشرفية والعوالى
(٦) العواتق : جمع عاتقة : الجارية أول ما أدركت . والخدور : الستور

أفتعلم مرئيا يتناوله النظر لا يقع عليه اسم شيء ؟ وما أراك نظرت إلا إلى قول جرير :

مازلت تحسب كل شيء بعدهم خيلا تكر عليهم ورجالا

فأحلت المعنى عن جهته ، وعبرت عنه بغير عبارته ، وعن قولك :

أليس عجيبا أن وصفك معجزا وأن ظنونى فى معاليك تظلع (١)

فاستعرت الظلع لظنونك ، وهى استعارة قبيحة ! وتعجبت من غير متعجب ؛ لأن من أعجز وصفه لم يستنكر قصور الظنون وتحيرها فى معاليه ، وإنما نقلته وأنشدته من قول أبى تمام :

ترقت مناه طود عز لو ارتقت به الريح فترا (٢) لانثنت وهى ظالع

وعن قولك تمدح كافورا :

فإن نلت ما أملت منك فربما شربت بماء يعجز الطير ورده

إنها مدح أو ذم ؟ قال : مدح ! قلت : إنك جعلته بخيلا لا يوصلك إلى خيره من جهته ، وشبهت نفسك فى وصولك إلى ماوصلت إليه منه بشربك من ماء يعجز الطير ورده، لبعده وترامى موضعه !

وأخبرنى أيضا عن قولك فى صفة كلب وظبى :

وصار مافى جلده فى المرجل فلم يضرنا معه فقد الأجدل (٣)

فأى شيء أعجبك من هذا الوصف ؟ أعذوبة عبارته ؟ أم لطف معناه ؟ أما قرأت رجز (٤) ابن هانىء وطرد (٥) ابن المعتز ؟ أما كان هناك من المعانى التى ابتدعها هذان الشاعران وغرر المعانى التى اقتضباها ماتتشاغل به عن بنيات صدرك هذه ؟ وإلا اقتصرت على مافى أرجوزتك هذه من الكلام السليم ، ولم تسف إلى هذه الألفاظ القلقة والأوصاف المختلفة ؟ فأقبل على، ثم قال: أين أنت من قولى :

كأن الهام (٦) فى الهيجا عيون وقد طبعت سيوفك من رقاد

---

(١) الظلع : الغمز فى المشى (٢) الفتر : مابين طرف الابهام وطرف المشيرة .

(٣) الضمير فى جلده للظبى ، والمرجل : القدر من النحاس ، والضمير فى معه للكلب ، والاجدل : الصقر (٤) الرجز : ضرب من الشعر ووزنه مستفعلن ست مرات (٥) الطرد : مزاولة الصيد ، وهو يريد ما قيل فيه من الشعر

(٦) الهام : جمع هامة ، والهيجاء من أسماء الحرب وطبع السيف طرقه

وقد صفت الأسنة من هموم ... فما يخطرن إلا فى الفؤاد

وأين أنت من قولى فى صفة جيش :

فى فيلق (١) من حديد لو رميت به ... صرف الزمان لما دارت دوائره

وأين أنت من قولى :

لو تعقل الشجر التى قابلتها ... مدت محيية إليك الأغصنا

وأين أنت من قولى :

أيقدح (٢) فى الخيمة العذل ... وتشمل من دهرها يشمل
وما اعتمد الله تقويضها (٣) ... ولكن أشار بما تفعل

وفيها أصف كتيبة :

وملمومة (٤) زرد ثوبها ... ولكنه بالقنا مخمل

وأين أنت عن قولى :

الناس مالم يروك أشباه ... والدهر لفظ وأنت معناه
والجود عين وأنت ناظرها ... والبأس باع وأنت يمناه

أما يلهيك إحسانى فى هذه عن إساءتى فى تلك ؟

قلت ما أعرف لك إحسانا فى جميع ما ذكرته ! إنما أنت سارق متبع ! وآخذ مقصر ، وفيما تقدم من هذه المعانى التى ابتكرها أصحابها مندوحة عن التشاغل بقولك ! فأما قولك :

كأن الهام فى الهيجا عيون ... وقد طبعت سيوفك من رقاد

فهو منقول من بيت منصور النميرى :

فكأنما وقع الحسام بهامه ... خدر المنية أو نعاس الهاجع

---

(١) الفيلق : الجيش . وجعله من حديد لكثرة ما عليه من الدروع ، وصرف الزمان : حدثانه .

(٢) ضربت خيمة لسيف الدولة فسقطت من ريح هبت .

(٣) تقويضها : هدمها ، واعتمد الأمر : قصده . (٤) ملمومة مجموعة مضمومة والمخمل ما جعل له خمل ، وهو هدب القطيفة ونحوها .

وأما قولك :

فى فيلق من حديد لو رميت به صرف الزمان لما دارت دوائره

فنقلته نقلا لم تحسن فيه ، من قول الناجم :

ولى فى حامد أمل بعيد ومدح قد مدحت به طريف
مديح لو مدحت به الليالى لما دارت على لها صروف

والناجم إنما نظمه من قول أرسطاليس : قد تكلمت بكلام لو مدحت به الدهر لما دارت على صروفه .

وأما قولك :

لو تعقل الشجر التى قابلتها مدت محيية اليك الأغصنا

فهذا معنى متداول ؛ تساجلته (١) الشعراء ، وأكثرت فيه ، فمن ذلك قول الفرزدق :

يكاد يمسكه عرفان راحته ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم

ثم تكرر فى أفواه الشعراء ، إلى أن قال أبو تمام :

لو سعت بقعة لاعظام أخرى لسعى نحوها المكان الجديب

وأخذه البحترى فقال :

لو أن مشتاقا تكلف فوق ما فى وسعه لمشى إليك المنبر

وأما قولك :

وما اعتمد الله تقويضها ولكن أشار بما تفعل

فقد نظرت فيه إلى قول رجل مدح بعض الأمراء بالموصل ، وقد كان عزم على السير فاندق لواؤه ، فقال :

ما كان مندق اللواء لريبة تخشى ولا أمر يكون مزيلا (٢)
لكن لأن العود ضعف متنه صغر الولاية فاستقل الموصلا

وأما قولك :

وملمومة زرد ثوبها ولكنه بالقنا مخمل

---

(١) تساجلته : تبارت فيه . (٢) زيله : فرقه .

فمن قول أبى نواس :

أمام خميس (١) أرجوان كأنه قميص محوك من قنا وجياد (٢)

وأما قولك :

النـاس مالم يروك أشباه والدهر لفـظ وأنت معناه

فمن قول على بن نصر بسام فى عبيد الله بن سليمان يرثيه ؛ (ويروى لابن المعتز) :

قد استوى الناس ومات الكمال وصاح صرف الدهر : أين الرجال؟

هذا أبو القـاسم فى نعشـه قوموا انظروا كيف تزول الجبال

فقوله : قد استوى الناس ، ومات الكمال . . . . هو قولك : الناس مالم يروك أشباه !

فقال بعض الحاضرين . ما أحسن قوله : قوموا أنظروا كيف تزول الجبال ؟

فقال أبو الطيب : اسكت ! ما فيه من حسن ، ألم يسرقه من قول النابغة الذبيانى :

يقولون حصن ثم تأبى نفوسهم وكيف بحصن والجبال جنوح ؟

قال الحاتمى، فقلت : قد سرقه النابغة من أوس حين قال :

ألم تكسف الشمس شمس النهار والبـدر للقمر الواجب (٣)

لفقد فضالة لا يستوى الفـ قود ولا خلة الذاهب

ثم قلت : والله لئن كان أخذه فقد أحسن ، وأخفى الأخذ فقال الرجل . أجل ، فقال المتنبى : يا محسد خذ بيده ، وأخرجه — يريد بمحسد ابنه — فرجعت إلى أن تركه ، ثم قلت له . وأما قولك : والدهر لفظ وأنت معناه .. فمنقول من قول الأخطل — إن كان البيت له — فى عبد الملك ابن مروان :

وإن أمير المؤمنين وفعله لـكالدهر لا عار بما فعل الدهر

وقد قال جرير حين قال الفرزدق :

فإنى أنا الموت الذى هو نازل بنفسك فانظر كيف أنت تحاوله

وقال جرير :

أنا الدهر يفنى الموت والدهر خالد فجئنى بمثل الدهر شيئاً يطاوله

---

(١) الخميس الجيش (٢) جمع جيد : المدرعة الصغيرة (٣) الواجب: الغائب

ثم قلت له : أترى أن جريراً أخذ قوله « يفنى الموت » من أحد ؟ وأن أحداً شركه فى إفناء الموت ؟ ففكر طويلا ، ثم قال : لا ! قلت : بلى ! عمران بن حطان حيث يقول :

لن يعجز الموت شىء دون خالقه والموت فان إذا ما ناله الأجل
وكل كرب أمام الموت متضع بالموت ، والموت فيما بعده جلل

فأمات الموت ، وأحياه ، وما سبقه إلى ذلك أحد ثم قلت له : أترى أن البيت المتقدم ، الذى يقول فيه :

وإن أمير المؤمنين وفعله لكالدهر لا عار بما فعل الدهر

مأخوذ من أحد ؟ فأطرق هنيهة ، ثم قال : وما تصنع بهذا ؟ قلت : يستدل على موضعك ، ومواضع أمثالك من سرقة الشعر ! فقال : الله المستعان ، أساء سمعاً فأساء إجابة ! ما أردت ما ذهبت اليه ، قلت : فانه أخذه من قول النابغة ، وهو أول من ابتكره :

وعيرتنى بنو ذبيان خشيته وما على بأن أخشاك من عار

ثم أخذه أبو تمام فأحسن بقوله :

خشعوا لصولتك التى هى فيهم كالموت يأتى ليس فيه يعار

قال : ومن أبو تمام ؟ قلت : الذى سرقت شعره ، فأنشدته . قال : هذه خلائق السفهاء ، لا خلائق العلماء . قلت : أجل ! أنت سفهت رأيي ولم يكن سفيها ، ألست القائل :

ذى المعالى فليعلون من تعالى هكذا هكذا وإلا فلالا
شرف ينطح الثريا بروقيـ(١) ـه وفخر يقلقل الأجبالا

قال : بلى ! قلت : فإنك أخذت البيت الأول من بيت بكر بن النطاح :

يتلقى الندى بوجه حيى وصدور القنى بوجه وقاح
هكذا هكذا تكون المعالى طرق الجد غير طرق المزاح

وأخذت البيت الثانى فأنشدته من قول أبى تمام :

همة تنطح الثريا وجد آلف للحضيض فهو حضيض

قال : وبأى شىء أفسدته ؟ قلت : بأن جعلت للشرف قرناً . قال : وأنى لك

---

(١) الروقان : القرنان .

بذلك ؟ قلت : ألم تقل : ينطح السماء بروقيه ؟ والروقان : القرنان ؟ قال : أجل ! إنما هى استعارة . قلت : نعم ! هى استعارة خبيثة .

قال : أقسمت غير محرج فى قسمى أننى لم أقرأ شعراً قط لأبى تمامكم هذا ! فقلت : هذه سوءة لو سترتها كان أولى ! قال : السوءة قراءة شعر مثله . أليس هو القائل :

خشنت عليه أخت بنى خشين وأنجح فيك قول العادلين

والذى يقول :

لعمرى لقد حررت يوم لقيته لو أن القضاء وحده لم يبرد

والذى يقول :

تكاد عطاياه يجن جنونها إذا لم يعوذها(١) بنغمة طالب

والذى يقول :

تسعون ألفاً كآساد الشرى(٢) نضجت أعمارهم قبل نضج التين والعنب

والذى يقول :

ولى ولم يظلم وهل ظلم امرؤ حث النجاء(٣) وخلفه التنين

والذى يقول :

كانوا رداء زمانهم فتصدعوا فكأنما لبس الزمان الصوفا

والذى يقول :

أقول لقرحان من البين لم يصب رسيس(٤) الهوى بين الحشا والترائب

ما قرحان البين ؟ أخرس الله لسانه ! فأحفظنى(٥) ذلك وقلت : يا هذا من أدل الدليل على أنك قرأت شعر هذا الرجل تتبعك مساويه ؛ فهل فى الدلالة على اختلاقك إنكاره أوضح مما ذكرته ؟ وهل يصم أبا تمام أو يسمه بميسم النقيصة ما عددته من سقطاته ، وتخونته(٦) من أبياته ، وهو الذى يقول فى النونية :

نوالك رد حسادى فلولا وأصلح بين أيامى وبينى

(١) يعوذها : يحفظها .
(٢) الشرى : مأسدة جانب الفرات يضرب بها المثل .
(٣) النجاء : السرعة فى المشى . (٤) رسيس الهوى : بقيته وأسره .
(٥) فأحفظنى : فأغضبنى . (٦) تخونته : تنقصته .

فهلا اغتفرت الأول لهذا البيت الذى لايستطيع أحد أن يأتى بمثله ، وأماقوله:

تسعون ألفاً كآسادالشرى نضجت　　أعمارهم قبل نضج التين والعنب(١)

فلهذا البيت خبر لو استقريت صحفه لأقصرت عما تناولته بالطعن فيه . ثم قصصت الخبر ، وقلت : فى هذه القصيدة ما لا يستطيع أحد من متقدمى الشعراء وأمراء الكلام وأرباب الصناعة أن يأتى بمثله. قال : وما هو؟قلت: لو قال قائل : إن أحداً لم يبتدىء بأوجز ولا أحسن ولا أخصر من قوله :

السيف أصدق انباء من الكتب　　فى حدة الحد بين الجد واللعب

لما عنف فى ذلك ، وفيها يقول :

رمى بك الله برجيها فهدمها　　ولو رمى بك غير الله لم يصب

وفيها يقول :

فتح تفتح أبواب السماء له　　وتبرز الارض فى أثوابها القشب

وفيها يقول :

بكر فما افترعتها كف حادثة　　ولا ترقت إليها همة النوب

وفيها يقول :

غادرت فيها بهيم الليل وهو ضحى　　يشله (٢) وسطها صبح من اللهب

حتى كان جلابيب الدجى رغبت　　عن لونها وكأن الشمس لم تغب

وفيها يقول :

أجبته معلناً بالسيف منصلتاً　　ولو أجبت بغير السيف لم تجب

وأما قوله : أقول لقرحان من البين . . فإنه يريد رجلا لم يقطعه أحبابه ولم يبينوا عنه قبل ذلك ، إذا كانت حاله كذلك كان موقع البين أشد عليه وأفت فى عضده، والأصل فى هذا : أن القرحان الذى لم يجدر (٣) قط ، وقد قال جرير :

وكنت من زفرات البين قرحانا

وفى هذه القصيدة من المعانى الرائعة والتشبيهات الواقعة والاستعارات البارعة ما يغتفر معه هذا البيت وأمثاله .على أنا أبنا عن صحة معناه وعن أمثاله .فمن ذلك :

---

(١) أى أن جيش العدو كان تسعين ألفاً حل أجلهم قبل أن ينضج التين والعنب وفى هذا تهكم بالمنجمين .　(٢) أى يطرده　(٣) أى لم يصب بالجدرى

إذا العيس لاقت بى أبا دلف فقد　　تقطع ما بينى وبين النوائب
يرى أقبح الأشياء أوبة آمل　　كسته يد المأمول حلة خائب
وأحسن من نور يفتحه الندى　　بياض العطايا فى سواد المطالب
ولو كان يفنى الشعر أفناه ما قرت(١)　　حياضك منه فى العصور الذواهب
ولكنه فيض العقول إذا انجلت　　سحائب جود أعقبت بسحائب

فبهره ما أوردته مما قصر عنان عبارته ، وحبس بنيات صدره ، وعقل عن الإجابة لسانه ، وكاد يشغب (٢) لولا ما تخوفه من عاقبة شغبه ، ما عرفه من مكانى فى تلك الأيام ، وأن ذلك لايتم له ، فما زاد على أن قال : قد أكثرت من أبى تمام ، لا قدس الله أبا تمام وذويه ! قلت : ولا قدس السارق منه والواقع فيه . ثم قلت له : ما ما الفرق — فى كلام العرب — بين التقديس والقداس والقدّاس والقادس؟ فقال : وأى شىء غرضك فى هذا ؟ فقلت : المذاكرة ! فقال : بل المهاترة (٣) ! ثم قال : التقديس : التطهير فى كلام العرب ؛ ولذلك سمى القدس قدساً لأنه يشتمل على الذى به الطهور ، وكل هذه الأحرف تؤول إليه ، فقلت : ما أحسبك أنعمت النظر فى شىء من علوم العرب ، ولو تقدمت منك مطالعة لها لما استجزت أن تجمع بين معانى هذه الكلمات مع تباينها ، وذلك لأن القداس بتشديد الدال : حجر يلقى فى البئر ليعلم به غزارة مائها من قلته ، حكى ذلك ابن الاعرابى . والقداس : الجمان حكى ذلك الخليل ، والقادس : السفينة ، قال الشاعر يصف ناقة:

وتهفو بهاد لها متلع (٤)　　كما اقتحم القادس الاردمونا (٥)

فلما علوته بالكلام قال : يا هذا مسلمة إليك اللغة ! قلت : وكيف تسلمها وأنت أبو عذرها (٦) وأولى الناس بالتحقق بها والتوسع فى اشتقاقها والكلام على أفانينها ؟ وما أحد أولى بأن يسأل عن لغته منك . فشرعت الجماعة الحاضرة فى إعفائه وقبول عذره والتواطؤ (٧) له ، وقال : كل منهم : أنت أولى بالمراجعة والمياسرة

---

(١) ماقرت : ماجمعت (٢) يشغب : يهيج الشر (٣) المهاترة : المسابة بالقبيح من القول
(٤) من أتلع فلان : مد عنقه متطاولا (٥) الاردمون . جمع أردم : وهو الملاح الحاذق (٦) أبو عذرها : يريد ممهد سبيلها (٧) أى موافقته .

لمثل هذا الرجل من كل أحد . وكنت قد بلغت شفاء نفسى ، وعلمت أن الزيادة على الحد الذى انتهيت إليه ضرب من البغى، لا أراه فى مذهبى، ورأيت له حق القدمة(١) فى صناعته ، فطأطأت له كتفى ، واستأنفت جميلا من وصفه ونهضت .

فنهض لى مشيعاً إلى الباب حتى ركبت وأقسمت عليه أن يعود إلى مكانه ، وتشاغلت بقية يومى بشغل عن لى، تأخرت معه عن حضرة المهلب ، وانتهى إليه الخبر ، وأتتنى رسله ليلا فأتيته فأخبرته بالقصة ، فكان سروره وابتهاجه بما جري بما بعثه على مباكرة معز الدولة قائلا له : أعلمت ما كان من فلان والمتنبى ؟ قال : نعم ! قد شفى منه صدورنا !

— ٤ —

وهذه سرقات شعرية نفاضل من ثناياها بين الشعراء ، قال النابغة :

إذا ماغزا بالجيش حلق فوقه   عصائب طير تهتدى بعصائب
جوانح قد أيقن أن قبيله   إذا ما التقوا لجمان أول غالب

وهذا المعنى قــد توارد عليه الشعراء قديما وحديثا ، وأوردوه بضرب من العبارات ، فقال أبو نواس :

تتمنى الطير غزوته   ثقة باللحم من جزره

وقال مسلم بن الوليد :

قد عود الطير عادات وثقن بها   فهن يتبعنه فى كل مرتحل

وقال أبو تمام :

وقد ظللت أعناق أعلامه ضحى   بعقبان طير فى الدماء نواهل
أقامت مع الرايات حتى كأنها   من الجيش إلا انها لم تقاتل

وقد ذكر هذا المعنى غير هؤلاء إلا أنهم جاءوا بشىء واحد لا تفاضل بينهم فيه إلا من جهة حسن السبك، أومن جهة الإيجاز فىاللفظ ، ولم نر أحدا أغرب فى هذا المعنى فسلك هذه الطريق مع اختلاف مقصده إليها إلا مسلم بن الوليد فقال :

أشربت أرواح العدا وقلوبها   خوفا فأنفسها إليك تطير
لو حاكمتك فطالبتك بذحلها   شهدت عليك ثعالب ونسور

فهذا من المليح البديع الذى فضل به مسلم غيره فى هذا المعنى ، وكذلك فعل أبو الطيب فإنه لما انتهى الأمر اليه سلك هذه الطريق التى سلكها من تقدمه

---

(١) القدمة : التقدم

إلا أنه خرج فيها إلى غير المقصد الذى قصدوه فأغرب وأبدع وحاز الاحسان بجملته ، وصار كأنه مبتدع لهذا المعنى دون غيره ، فما جاء منه قوله له :

تفدى أتم الطير عمراً سلاحه   نسور الملا أحداثها والقشاعم
وما ضرها خلق بغير مخالب   وقد خلقت أسيافه والقوائم

ثم أراد هذا المعنى فى موضع آخر من شعره فقال :

سحاب من العقبان ترجف تحتها   سحاب إذا استسقت سقتها صوارمه

وهذا معنى قد حوى طرفى الاغراب والاعجاب ، وقال فى موضع آخر :

وذى لجب لاذو الجناح أمامه   بناج ولا الوحش المثار بسالم
تمر عليه الشمس وهى ضعيفة   تطالعه من بين ريش القشاعم
إذا ضوؤها لاقى من الطير فرجة   تدور فوق البيض مثل الدراهم

وهذا من إعجاز أبى الطيب المشهور ، ولو لم يكن له من الاحسان فى شعره إلا هذه الأبيات ، لاستحق بها فضيلة التقدم .

وقال أبو تمام :

فتى لايرى أن الفريصة مقتل   ولكن يرى أن العيوب مقاتل(١)

وقال أبو الطيب المتنبى :

يرى أن ما مابان منك لضارب   بأقتل مما بان منك لعائب

فهو وإن لم يشوه المعنى فقد شوه الصورة ، ومثاله فى ذلك كمن أودع الوشى شملا ، وأعطى الورد جعلا ، وهذا من أرذل السرقات ، وعلى نحو منه جاء قول عبد السلام بن رغبان(٢) :

نحن نعزيك ومنك الهدى   مستخرج والصبر مستقبل
نقول بالعقل وأنت الذى   نأوى إليه وبه نعقل
إذا عفا عنك وأودى بنا الد   هر فذاك المحسن المجمل

أخذه أبو الطيب فقلب أعلاه أسفله فقال :

---

(١) الفريصة واحدة الفرائص : أوداج العنق ، أو هى اللحمة بين الجنب والكتف لا تزال ترعد ، وعلى كلا المعنيين فهى من المقاتل .

(٢) المعروف بديك الجن .

إن يكن صبر ذى الرزية فضلا تكن الأفضل الأعز الأجلا
أنت يا فوق أن تعزى عن الأحباب فوق الذى يعزيك عقلا
وبألفاظك اهتدى فإذا عز اك قال الذى له قلت قبلا

والبيت الأخير من هذه الأبيات هو الآخر قدرا وهو المخصوص بالمسخ، أما قلب الصورة القبيحة إلى صورة حسنة ، فإن هذا لايسمى سرقة بل يسمى إصلاحا وتهذيبا ، فمن ذلك قول أبى الطيب المتنبى :

لو كان ما تعطيهم من قبل أن تعطيهم لم يعرفوا التأميلا

وقول ابن نباتة السعدى :

لم يبق جودك لى شيئا أؤمله تركتنى أصحب الدنيا بلا أمل

وعلى هذا النحو ورد قول أبى نواس فى أرجوزة يصف فيها اللعب بالكرة والصولجان فقال من جملتها :

جن على جن وإن كانوا بشر كأنما خيطوا عليها بالإبر

ثم جاء المتنبى فقال :

فكأنها نتجت قياما تحتهم وكأنهم ولدوا على صهواتها

وبين القولين كما بين السماء والأرض ، فإنه يقال ليس للأرض إلى السماء نسبة محسوسة وكذلك يقال ها هنا أيضا ، فإنه بقدر ما فى قول أبى نواس من النزول والضعف ، فكذلك فى قول أبى الطيب من العلو والقوة.

مع الشعراء المحدثين

١ — مدح رؤبة بن العجاج (١) عقبة بن مسلم بأرجوزة من أراجيزه وبشار حاضر يسمعه ، فاستحسن ذلك من رؤبة ، فقال له رؤبة : هذا طراز لاتحسنه أنت يا أبا معاذ ، وكان رجزهم فى ذلك الوقت يتأثر بطريقتهم البدوية إلى غايتها

---

(١) فى كتاب الشعر والشعراء عقبة بن رؤبة .

فى إيثار الغريب ، فتأثر بشار من ذلك ، وأنشأ أرجوزة فى مدح عقبة بن مسلم يعارض بها أرجوزة رؤبة ، وهى :

يا طل الحى بذات الصمد بالله خبر كيف كنت بعدى
أحسنت من دعد وترب دعد سقيا لأسماء ابنة الأشد
قامت ترائى إذ رأتنى وحدى كالشمس تحت الزبرج المنقد

إلى أن قال فى مدح عقبة :

اسلم وحييت أبا الملد مفتاح باب الحدث المنسد
مشترك النيل ورى الزند أغر لباس ثياب الحمد
لله أيامك فى معد وفى بنى قحطان غير عد
كل امرىء رهن بما يؤدى ورب ذى تاج كريم الجد
كآل كسرى وكآل برد أنكب جاف عن سبيل القصد
فصلته عن ماله والولد

٢ — وروى عن الأصمعى أنه قال : كان أبو عمرو بن العلاء وخلف الأحمر يأتيان بشارا فيسلمان عليه بغاية الاعظام ، ثم يقولان : يا أبا معاذ ما أحدثت ؟ فيخبرهما وينشدهما ويكتبان عنه متواضعين له حتى يأتى وقت الزوال ، ثم ينصرفان ، فأتياه يوما فقالا : ما هذه القصيدة التى أحدثتها فى ابن قتيبة ؟ قال هى التى بلغتكما ، قالا بلغنا أنك أكثرت فيها من الغريب ، قال : نعم ، إن ابن قتيبة يتباصر بالغريب ، فأحببت أن أورد عليه ما لا يعرف ، قالا فأنشدناها يا أبا معاذ فأنشدهما :

بكرا صاحبى قبل الهجير إن ذاك النجاح فى التبكير

حتى فرغ منها، فقال له خلف : يا أبا معاذ لو قلت مكان « إن ذاك النجاح » « بكرا فالنجاح » كان أحسن ، فقال بشار : إنما بنيتها أعرابية وحشية ، فقلت « إن ذاك النجاح » كما يقول الأعراب البدويون ، ولو قلت « بكرا فالنجاح » كان هذا من كلام المولدين ، ولا يشبه ذلك الكلام ، ولا يدخل فى معنى القصيدة ، فقام خلف فقبل بين عينيه .

٣ — وحدث هارون بن سعدان قال : كنت مع أبى نواس فى بعض طرق بغداد ، وجعل الناس يمرون به وهو ممدود الرجل ، بين بنى هاشم وفتيانهم ، والقواد وأبنائهم ، ووجوه أهل بغداد ، فكل يسلم عليه فلا يقوم إلى أحد منهم ،

ولا يقبض رجله إليه ، إذ أقبـــل شيخ راكبا على حمار ، وعليه ثوبان ديبقيان : قميص ورداء ، قد تقنع ورده على أذنيه ، فوثب إليه أبو نواس ، وأمسك الشيخ عليه حماره ، واعتنقا ، وجعل أبو نواس يحادثه وهو قائم على رجليه فمكثا بذلك مليا ، حتى رأيت أبا نواس يرفع إحدى رجليه ويضعها على الأخرى ، مستريحا من الاعياء ، ثم انصرف الشيخ ، وأقبل أبو نواس فجلس فى مكانه ، فقال له بعض من بالحضرة : من هذا الشيخ الذى رأيتك تعظمه هذا الاعظام ؟ وتجله هذا الاجلال ، فقال : هذا اسماعيل ابن القاسم أبو العتاهية ، فقال له السائل : لم أجللته هذا الاجـلال ؟ وساعة منك عند الناس أكثر منه ، قال : ويحك لا تفعل ، فوالله ما رأيته قط إلا توهمت أنه سماوى ، وأنا أرضى .

٤ — قال سلم الخاسر : صار إلى أبو العتاهية ، فقال : جئتك زائرا ، فقلت : مقبول منك ، ومشكور أنت عليه ، فأقم ، فقال : إن هذا مما يشتد على ، قلت : ولم يشتد عليك ما يسهل على أهل الأدب ؟ فقال : لمعرفتى بضيق صدرك ، فقلت له وأنا أضحك وأعجب من مكابرته: « رمتنى بدائها وانسلت »، فقال : دعنى من هذا واسمع منى أبياتا ،فقلت هات ، فأنشدنى :

نغص الموت كل لذة عيش	يا لقومى للموت ما أوحاه
عجبا إنه إذا مات ميت	صـد عنه حبيبه وجفاه
حيثما وجه امرؤ ليفوت الـ	ـموت فالموت واقف بحذاه
إنما الشيب لابن آدم ناع	قام فى عارضيه ثم نعاه
من تمنى المنى فأغرق فيهـا	مات من قبل أن ينال مناه
ما أذل المقل فى أعين النـا	س لإقلاله وما أقماه
إنما تنظر العيون من النا	س إلى من ترجوه أو تخشاه

ثم قال لى : كيف رأيتها ؟ فقلت له : لقد جودتها لو لم تكن سوقية ، فقال : والله ما يرغبنى فيها إلا الذى زهدك فيها .

٥ — وذكر ابن رشيق أباالعتاهية فيمن كان يذهب إلىسهولة اللفظ ، ويعنى بها مع الاجادة وملاحة القصد ، وأنه اجتمع يوما مع أبى نواس والحسين بن الضحاك الخليع ، فقال أبو نواس : لينشد كل واحد منكم قصيدة لنفسه فى مراده ، من غير مدح ولا هجاء ، فأنشد أبو العتاهية :

يا إخوتى إن الهــوى قاتلى فسيروا الأكفان من عاجل
ولا تلوموا فى اتباع الهوى فإننى فى شغــل شاغل
عينى على عتبة منهــلة بدمعها المنسكب السائل
يا من رأى قبلى قتيلا بكى من شدة الوجد على القاتل
بسطت كفى نحوكم سائلا ماذا تردون على السائل
إن لم تنيلوه فقولوا له قولا جميــلا بدل النائل
أو كنتم العام على عسرة منه فمنــوه إلى قابل

فسلما له وامتنعا من الانشاد بعده ، وقالا له : أما مع سهولة هذه الألفاظ ، وملاحة هذا القصد ، وحسن هذه الاشارات ، فلا ننشد شيئا . قال ابن رشيق وذلك فى بابه من الغزل جيد أيضاً ، لا يفضله غيره .

٦ — وحدث عبد الله بن الحسن قال : جاءنى أبو العتاهية وأنا فى الديوان ، فجلس إلى فقلت : يا أبا إسحاق أما يصعب عليك شيء من الألفاظ ، فتحتاج فيه إلى استعمال الغريب ، كما يحتاج إليه سائر من يقول الشعر ، أو إلى ألفاظ مستكرهة قال : لا ، فقلت له : إنى لأحسب ذلك من كثرة ركوبك القوافى السهلة ؛ قال : فاعرض على ما شئت من القوافى الصعبة ، فقلت : قل أبياتاً على مثل البلاغ ، فقال من ساعته :

أى عيش يكون أبلغ من عيـ ش كفاف قوت بقدر البلاغ
صاحب البغى ليس يسلم منه وعلى نفسه بغى كل باغ
رب ذى نعمة تعرض منها حائـل بينـه وبـين المسـاغ
أبلـغ الدهـر فى مواعظـه بـل زاد فيهن لى عن الابلاغ
غيبتنى الأيام عقلى ومالى وشبـابى وصحـتى وفراغـى

٧ — وقال مسعود المازنى : لقيت ابن مناذر بمكة ، فقلت له : من أشعر أهل الاسلام ؟ فقال : أترى من إذا شئت هزل ، وإذا شئت جد ؟ قلت من ! قال : مثل جرير حين يقول فى النسيب :

غيضن من عبراتهن وقلن لى ماذا لقيت من الهوى ولقينا

ثم قال حين جد :

إن الذى حرم المكارم تغلباً جعل النبوة والخلافة فينـــا

مضر أبي وأبوك الملوك فهل لكم ... يا آل تغلب من أب كأبينـــا
هـذا ابن عمى فى دمشق خليفة ... لو شئت ساقكم إلى قطينا

ومن المحدثين هذا الخبيث الذى يتناول الشعر من كمه ، فقلت من ؟ قال أبو العتاهية ، قلت فيماذا ؟ قال قوله :

الله بينى وبين مولاتى ... أبدت لى الصد والملالات
لا تغفر الذنب إن أسأت ولا ... تقبل عذرى ولا مواتاتى
منحتهـا مهجتى وخالصتى ... فكان هجرانهـا مـكافاتى
أقلقنى حبهـا وصـيرنى ... أحدوثة فى جميع جاراتى

ثم قال حين جد :

ومهمـه قد قطعت طامسة ... قفر على الهول والمحاماة
بحرة جسرة عـذافرة ... خوصاء عـيرانة علنداة
تبادر الشمس كلما طلعت ... بالسير تبغى بذاك مرضاتى
يا ناق خبى بنـا ولا تعدى ... نفسك مما ترين راحات
حتى تناخى بنـا إلى ملك ... توجـه الله بالمهـابات
عليـه تاجان فوق مفرقـه ... تاج جلال وتاج إخبات
يقول للريح كلما عصفت ... هل لك يا ريح فى مباراتى
من مثل من عمه الرسول ومن ... أخواله أكرم الخئولات

ويوجد كثير غير ابن مناذر يشاركه هذا الرأى فى أبى العتاهية ، ومن ذلك بشار بن برد ، وقد سئل من أشعر أهل زمانه ؟ فقال : مخنث أهل بغداد ، يعنى أبا العتاهية .

٨ — وقال بعض الأدباء : شهدت أبا العتاهية وأبا نواس فى مجلس ، فكان أبو العتاهية أسرع الرجلين جوابا عند البديهة ، وكان أبو نواس أسرعهما فى قول الشعر ، فإذا تعاطيا جميعا السرعة فضله أبو العتاهيـة ، وإذا توقفا وتمهلا فضله أبو نواس .

٩ — وروى عن ابن أبى الأبيض أنه قال : أتيت أبا العتاهية فقلت له : إنى رجل أقول الشعر فى الزهد ، ولى فيه أشعار كثيرة ، وهو مذهب أستحسنه ، لأنى أرجو ألا آثم فيه ، وسمعت شعرك فى هذا المعنى ، فأحببت أن استزيد منه ، فأحب

أن تنشدنى من جيد ما قلت ، فقال : اعلم أن ما قلته ردىء ، قلت وكيف ؟ قال : لأن الشعر ينبغى أن يكون مثل أشعار الفحول المتقدمين ، أو مثل شعر بشار وابن هرمة ، فان لم يكن كذلك فالصواب لقائله أن تكون ألفاظه مما لا تخفى على جمهور الناس مثل شعرى ، ولا سيما الأشعار التى فى الزهد ، فان الزهد ليس من مذاهب الملوك ، ولا من مذاهب رواة الشعر ، ولا طلاب الغريب ، وهو مذهب أشغف الناس به الزهاد وأصحاب الحديث والفقهاء وأصحاب الرياء والعامة، وأعجب الأشياء ما فهموه ، فقلت صدقت ، ثم أنشدنى قصيدته :

لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى تباب
أيا موت لم أر منك بدأ أتيت وما تحيف وما تحابى
كأنك قد هجمت على مشيبى كما هجم المشيب على شبابى

فعلم أبو نواس فقال : والله ما أحسب فى شعره مثل ما أنشدك بيتا آخر، فصرت إليه فأخبرته بقول أبى نواس فأنشدنى قصيدته التى يقول فيها :

طول التعاشر بين الناس مملول ما لابن آدم إن فتشت معقول
يا راعى الشاة لا تغفل رعايتها فأنت عن كل ما استرعيت مسئول
إنى لفى منزل مازلت أعمره على يقين بأنى عنه منقول
وليس من موضع يأتيه ذو نفس إلا وللموت سيف فيه مسلول
لم يشغل الموت عنا مذ أعد لنا وكلنا عنه باللذات مشغول
ومن يمت فهو مقطوع ومجتنب والحى ماعاش مغشى وموصول
كل ما بدا لك فالآكال فانية وكل ذى أكل لا بد مأكول

قال : ثم أنشدنى عدة قصائد ما هى بدون هذه . فصرت إلى أبى نواس فأخبرته ، فتغير لونه ، وقال : لم أخبرته بما قلت ؟ قد والله أجاد ، ولم يقل فيه سوءا .

١٠ — اجتمع مسلم بن الوليد وأبو نواس وأبو الشيص ودعبل فى مجلس فقالوا : لينشد كل واحد منكم أجود ما قاله من الشعر فاندفع رجل منهم كان معهم فقال : اسمعوا منى أخبركم بما ينشد كل واحد منكم قبل أن ينشد ، قالوا : هات ، فقال لمسلم : أما أنت يا أبا الوليد فكأنى بك قد أنشدت :

إذا ماعلت منا ذؤابة واحد وإن كان ذا حلم دعته إلى الجهل
هل العيش إلا أن تروح مع الصبا وتغدو صريع الكأس والأعين النجل

فقال له مسلم : صدقت ، ثم أقبل على أبي نواس فقال له : كأنى بك يا أبا على قد أنشدت :

لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هند　　واشرب على الورد من حمراء كالورد
تسقيك من عينها خمراً ومن يدها　　خمراً فما لك من سكرين من بد

فقال له : صدقت ، ثم أقبل على دعبل فقال : يا أبا على فكأنى بك تنشد قولك :

أين الشباب وأية سلكا ؟　　لا أين يطلب ، ضل بل هلكا
لا تعجبي يا سلم من رجل　　ضحك المشيب برأسه فبكى

قال : صدقت، ثم أقبل على أبي الشيص فقال له : وأنت يا أبا جعفر كأنى بك تنشد :

لا تنكرى صدى ولا إعراضى　　ليس المقل عن الزمان براض

فقال : لا ، ما هذا أردت ولا هذا بأجود شيء قلته ، قالوا : فأنشدنا ما بدا لك ، فأنشدهم قوله :

وقف الهوى بي حيث أنت فليس لى　　متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامة فى هواك لذيذة　　حباً لذكرك فليلمنى اللوم
أشبهت أعدائى فصرت أحبهم　　إذ كان حظى منك حظى منهم
وأهنتنى فأهنت نفسى صاغرا　　ما من يهون عليك ممن يكرم

وقال أبو خالد العامرى لابن المعتز : من أخبرك أنه كان فى الدنيا أشعر من أبي الشيص فكذلك ، والله لكان الشعر عليه أهون من شرب الماء على العطشان، وكان من أوصف الناس للشراب وأمدحهم للملوك ، وليس توجد هذه الصفات كما ذكر فى ديوان شعره ولا هو ساقط، ولكن هذا سرف شديد .

١١٥ — وقد أكثر أبو نواس من الثورة فى شعره على منهج العرب فى القصيدة، وعاب عليهم بدءها بمساءلة الأطلال فقال :

صفة الطلول بلاغة القدم　　فاجعل صفاتك لابنة الكرم

وقال :

لا تبك ليلى ولا تطرب إلى هند　　واشرب على الورد من حمراء كالورد

وقال :

سقيا لغير العلياء فالسند وغير أطلال مى بالجرد

وقال :

يا ربع شغلك إنى عنك فى شغل لا ناقتى فيك لو تدرى ولا جملى

وقال :

تبكى على طلل الماضين من أسد لا در درك قل لى من بنو أسد
لا جف دمع الذى يبكى على حجر ولا صفا قلب من يصبو إلى وتد

١٢ — وقال بشار فى تأييد إبراهيم بن عبد الله بن حسن حينما خرج على المنصور . نعى فيها على المنصور استبداده فى الرعية ، ونصح إبراهيم أن يقيم حكمه على أساس الشورى :

أبا جعفر ما طول عيش بدائم ولا سالم عما قليل بسالم
على الملك الجبار يقتحم الردى ويصرعه فى المأزق المتلاحم
كأنك لم تسمع بقتل متوج عظيم ولم تسمع بفتك الأعاجم
تقسم كسرى رهطه بسيوفهم وأمسى أبو العباس أحلام نائم
ومروان قد دارت على رأسه الرحى وكان لما أجرمت نزر الجرائم
فأصبحت تجرى سادراً فى طريقهم ولا تتقى أشباه تلك النقائم
تجردت للإسلام تعفو سبيله وتعرى مطاه لليوث الضراغم
فما زلت حتى استنصر الدين أهله فعادوا عليك بالسيوف الصوارم

ثم التفت إلى إبراهيم فقال :

أقول لبسام عليه جلالة غدا أريحيا عاشقا للمكارم
إذا بلغ الرأى المشورة فاستعن برأى نصيح أو نصيحة حازم
ولا تجعل الشورى عليك غضاضة فإن الخوافى قوة للقوادم
وما خير كف أمسك الغل أختها وما خير سيف لم يؤيد بقائم
وخل الهوينى للضعيف ولا تكن نئوما فإن الحر ليس بنائم

١٣ — ومن روائع المحدثين فى الحكمة أرجوزة أبى العتاهية المزدوجة التى سماها ذوات الأمثال ، وتبلغ فى الطول ما لم يبلغه شعر قبلها ، ويقال إن فيها أربعة آلاف مثل ، وقد قال أبو دلف محمد بن هاشم الخزاعى : تذاكروا يوما شعر أبى العتاهية

بحضرة الجاحظ ، إلى أن جرى ذكر أرجوزته المزدوجة التى سماها ذوات الأمثال ؛ فأخذ بعض من حضر ينشدها ، حتى أتى على قوله :

يا للشباب المرح التصابى روائح الجنة فى الشباب

فقال الجاحظ للمنشد : قف ؛ ثم قال انظروا إلى قوله : « روائح الجنة فى الشباب » ، فإن له معنى كمعنى الطرب الذى لايقدر على معرفته إلا القلوب ، وتعجز عن ترجمته الألسنة إلا بعد التطويل وإدامة التفكير ، وخير المعانى ماكان القلب إلى قبوله أسرع من اللسان إلى وصفه ، وقد ذكر أبو الفرج الأصفهانى هذه الأبيات :

حسبك مما تبتغيه القوت ما أكثر القوت لمن يموت
الفقر فيما جاوز الكفافا من اتقى الله رجا وخافا
هى المقادير فلمنى أو فذر إن كنت أخطأت فما أخطا القدر
لكل ما يؤذى وإن قل ألم ما أطول الليل على من لم ينم
ما انتفع المرء بمثل عقله وخير ذخر المرء حسن فعله
إن الفساد ضده الصلاح ورب جد جره المزاح
من جعل النمام عيناً هلكا مبلغك الشر كباغيه لكا
إن الشباب والفراغ والجده مفسدة للمرء أى مفسده
يغنيك من كل قبيح تركه يرتهن الرأى الأصيل شكه
ما عيش من آفته بقاؤه نغص عيشاً كله فناؤه
يارب من أسخطنا بجهده قد سرنا الله بغير حمده
ما تطلع الشمس ولا تغيب إلا لأمر شأنه عجيب
لكل شىء معدن وجوهر وأوسط وأصغر وأكبر
من لك بالمحض وكل ممتزج وساوس والصدر منه تعتلج
وكل شىء لاحق بجوهره أصغره متصل بأكبره
ما زالت الدنيا لنا دار أذى ممزوجة الصفو بألوان القذى
الخير والشر بها أزواج لذا نتاج ولذا نتاج
من لك بالمحض وليس محض يخبث بعض ويطيب بعض
لكل انسان طبيعتان خير وشر وهما ضدان
إنك لو تستنشق الشحيحا وجدته أنتن شىء ريحا

والخير والشر إذا ما عدا بينهما بون بعيد جدا
عجبت حتى غمنى السكوت صرت كأنى حائر مبهوت
كذا قضى الله فكيف أصنع الصمت إن ضاق الكلام أوسع

موازنات أدبية بين أعلام الشعراء

— ١ —

يقول صاحب المثل السائر ، إنما تقع فيه المفاضلة أن يسلك الشاعران طريقا واحدة فتخرج بهما إلى موردين أو روضتين ؛ وهناك يتبين فضل أحدهما على الآخر

١ — فما جاء من ذلك قول أبى تمام فى مرثيته لولدين صغيرين :

مجد تأوب طارقاً حتى إذا قلنا أقام الدهر أصبح راحلا (١)
نجمان شاء الله ألا يطلعا إلا ارتداد الطرف حتى يأفلا
إن الفجيعة بالرياض نواضرا لأجل منها بالرياض ذوابلا
لهفى على تلك الشواهد فيهما لو أخرت حتى تكون شمائلا
إن الهلال إذا رأيت نموه أيقنت أن سيكون بدراً كاملا
قل للأمير وإن لقيت موقراً منه بريب الحادثات حلاحلا (٢)
إن ترز فى طرفى نهار واحد رزأين هاجا لوعة وبلابلا (٣)
فالثقل ليس مضاعفاً لمطية إلا إذا ما كان وهماً بازلا (٤)
لا غرو إن فننان من عيدانه لقيا حماماً للبرية آكلا
إن الأشاء إذا أصاب مشذب منه اتمهل ذرا وأث أسافلا (٥)

---

(١) تأوب آتى ليلا : والطارق الذى يأتى ليلا .

(٢) « لقيت موقراً منه » تجريد ، وبريب الحادثات يشككها ؛ والحلاحل السيد الشجاع .

(٣) ترز : سهلت همزته بالقلب ألفا ثم حذفت للجازم ، والبلابل الوساوس .

(٤) الوهم الجمل الذلول فى ضخامة وقوة ؛ والبازل الذى طلع نابه وذلك فى التاسعة من سنيه .

(٥) أشاء النخل صغاره واحدته أشاءه ؛ والمشذب مصلح الشجر بالقطع ، اتمهل اعتدل وارتفع ، وأث كثر والتف .

شمخت خلالك أن يواسيك امرؤ أو أن تذكر ناسيا أو غافلا
إلا مواعظ قادها لك سمحة إسجاح لبك سامعاً أو قائلا (١)
هل تكلف الأيدى بهز مهند إلا إذا كان الحسام القاصلا (٢)

وقال أبو الطيب فى مرثية لطفل صغير (٣) :

فان تك فى قبر فانك فى الحشا وإن تك طفلا فالأسى ليس بالطفل
ومثلك لا يبكى على قدر سنه ولكن على قدر الفراسة والأصل
ألست من القوم الذى رماحهم نداهم ومن قتلاهم مهجة البخل
بمولودهم صمت اللسان كغيره ولكن فى أعطافه منطق الفصل
تسليهم علياؤهم عن مصابهم ويشغلهم كسب الثناء عن الشغل
عزاؤك سيف الدولة المقتدى به فانك نصل والشدائد للنصل
تخون المنايا عهده فى سليله وتنصره بين الفوارس والرجل
بنفسى وليد عاد من بعد حمله إلى بطن أم لا تطرق بالحمل (٤)
بدا وله وعد السحابة بالروى وصد وفينا غلة البلد المحل (٥)
وقد مدت الخيل العتاق عيونها إلى وقت تبديل الركاب من النعل
وريع له جيش العدو ومامشى وجاشت له الحرب الضروس وما تغلى

فتأمل أيها الناظر إلى ما صنع هذان الشاعران فى هذا المقصد الواحد وكيف هام كل واحد منهما فى واد منه مع اتفاقهما فى بعض معانيه ، وسأبين ما اتفقا فيه وما اختلفا ، وأذكر الفاضل من المفضول فأقول . أما الذى اتفقا فيه فان أبا تمام قال :

لهفى على تلك الشواهد فيهما لو أخرت حتى تكون شمائلا

وأما أبو الطيب فانه قال :

بمولودهم صمت اللسان كغيره ولكن فى أعطافه منطق الفصل

فأتى بالمعنى الذى أتى به أبو تمام وزاد عليه بالصناعة اللفظية وهى المطابقة فى

---

(١) الإسجاح السماحة واللين . (٢) القاصل القاطع .
(٣) ابن لسيف الدولة يسمى عبد الله ويكنى أبا الهيجاء .
(٤) يريد بالأم هنا الأرض ومعنى لا تطرق بالحمل لا تخرج الولد من بطنها .
(٥) الروى الماء الكثير يروى وينقع ، والغلة العطش .

قوله صمت اللسان ، ومنطق الفصل » . وقال أبو تمام :

نجمان شاء الله ألا يطلعا إلا ارتداد الطرف حتى يأفلا

وقال أبو الطيب :

بدا وله وعد السحابة بالروى وصد وفينا غلة البلد المحل

فوافقه فى المعنى وزاد عليه بقوله « وصد وفينا غلة البلد المحل » ، لأنه بين قدر حاجاتهم إلى وجوده وانتفاعهم بحياته . وأما ما اختلفا فيه فان أبا الطيب أشعر فيه من أبى تمام أيضا ، وذاك أن معناه أمتن من معناه ومبناه أحكم من مبناه ، وربما أكبر هذا القول جماعة من المقلدين الذين يقفون مع شبهة الزمان وتقدمه ، وأبو تمام وإن كان أشعر عندى من أبى الطيب فان أبا الطيب أشعر منه فى هذا الموضع ، وبيان ذلك أنه قد تقدم القول على ما اتفقا فيه فان أبا الطيب قال :

عزاؤك سيف الدولة المقتدى به فانك نصل والشدائد للنصل

وهذا البيت بمفرده خير من بيتى أبى تمام اللذين هما :

إن ترز فى طرفى نهار واحد رزأين هاجـا لوعـة وبلابلا

فالثقل ليس مضاعفا لمطية إلا إذا ما كان وهما بازلا

فان قول أبى الطيب « والشدائد للنصل » أكرم لفظا ومعنى من قول أبى تمام : إن الثقل إنما يضاعف للبازل من المطايا ، وقوله أيضا :

تخون المنايا عهده فى سليله وتنصره بين الفوارس والرجل

وهذا أشرف من بيتى أبى تمام اللذين هما :

لا غرو إن فننان من عيدانه لقيا حماما للبرية آكلا

إن الأشاء إذا أصاب مشذب منه اتمهل ذرا وأث أسافلا

وكذلك قال أبو الطيب :

ألست من القوم الذى من رماحهم نداهم ومن قتـــلاهم مهجة البخل

تسليهم علياؤهم عن مصابهم ويشغلهم كسب الثناء عن الشغل

وهذان البيتان خير من بيتى أبى تمام اللذين هما

شمخت خلالك أن يواسيك امرؤ أو أن تذكر ناسيا أو غافلا

إلا مواعظ قادها لك سمحة إسجاح لبك سامعا أو قائلا

٢ — ومما ينتظم بهذا النوع ما توارد عليه أبو عبادة البحترى وأبو الطيب

المتنبي . فى وصف الأسد ، وقصيدتاهما مشهورتان فأول إحداهما (١) :

أجدك ما ينفك يسرى لزينبا خيال إذا آب الظلام تأوبا

وأول الأخرى (٢) :

فى الخد إن عزم الخليط رحيلا مطر تزيد به الخدود محولا

أما البحترى فانه ألم بطرف مما ذكر بشر بن عوانة فى أبياته الرائية التى أولها

أفاطم لو شهدت ببطن خبت وقد لاقى الهزبر أخاك بشراً (٣)

وهذه الأبيات من النمط العالى الذى لم يأت أحد بمثله ، وكل الشعراء لم تسم قرائحهم إلى استخراج معنى ليس بمذكور فيها ، ولولا خوف الإطالة لأوردتها بجملتها ، لكن الغرض إنما هو المفاضلة بين البحترى وأبى الطيب فيما أورداه من المعانى فى هذا المقصد المشار إليه .

فما جاء للبحترى من قصيدته :

وما نقم الحساد إلا أصالة لديك وفعلا أريحيا مهذبا
وقد جربوا بالأمس منك عزيمة فضلت بها السيف الحسام المجربا
غداة لقيت الليث والليث مخدر يحدد ناباً للقاء ومخلبا
إذا شاء غادى عانة أو غدا على عقائل سرب أو تقنص ربربا (٤)
شهدت لقد أنصفته يوم تنبرى له مصلتاً عضباً من البيض مقضباً
فلم أر ضرغامين أصدق منكما عراكا إذا الهيابة النكس كذبا (٥)
هزبراً مشى يبغى هزبراً ، وأغلبا من القوم يغشى باسل الوجه أغلبا

---

(١) هى للبحترى يمدح بها الفتح بن خاقان ويصف مبارزته الأسد .

(٢) هى للمتنبي فى بدر بن عمار وكان قد هاج أسداً عن بقرة افترسها فوثب الأسد على كفل فرسه فأعجله بضربة من سوطه ودار به الجيش فقتل الأسد

(٣) ذكر البديع قصة بشر هذا فى الملح التى اختتم بها مقاماته وأثبت فيها القصيدة كاملة .

(٤) العانة الأتان والقطيع من حمر الوحش . والسرب القطيع من الظباء والربرب القطيع من بقر الوحش .

(٥) الهيابة الشديد الخوف ، والنكس بالكسر الضعيف .

أدل بشغب ثم هالتـه صولة رآك لها أمضى جنانا وأشغبا (١)
فأحجم لما لم يجـد فيك مطمعاً وأقـدم لما لم يجد عنك مهربا
فـلم يغنه أن كر نحوك مقبلا ولم ينجـه أن حاد عنك منكبا
حملت عليه السيف ،لاعزمك انثنى ولا يدك ارتدت ، ولا حده نبا

ومما جاء لأبى الطيب المتنبى فى قصيدته :

أمعفر الليث الهزبر بسوطه لمن ادخرت الصارم المصقولا (٢)
ورد إذا ورد البحيرة شارباً ورد الفرات زئيره والنيـلا (٣)
متخضب بدم الفوارس لابس فى غيـله من لبدتيه غيـلا
ما قوبلت عينـاه إلا ظنتـا تحت الدجى نار الفريق حلولا (٤)
فى وحـدة الرهبان إلا أنه لا يعرف التحريم والتحليـلا
يطأ الثرى مترفقـا من تيهـه فكأنه آس يجس عليـلا (٥)
ويرد غفرته إلى يافوخه حتى تصير لرأسه إكليـلا (٦)
قصرت مخافته الخطا فكأنما ركب الكمى جواده مشكولا (٧)
ألقى فريستـه وزمجر دونهـا وقربت قربا خاله تطفيـلا
فتشابه القربان فى إقدامـه وتخالفا فى بذلك المأكولا
أسد يرى عضويه فيك كليهما متنا أزل وساعدا مفتولا (٨)

---

(١) الشغب بالفتح ويحرك تهييج الشر .

(٢) يقال عفره إذا رماه فى العفر بالتحريك وهو التراب والهزبر السيء الخلق .

(٣) الورد الجرىء والبحيرة التى يعنيها هنا بحيرة طبرية ، والفرات والنيل معروفان ،وأولها يقع إلى الشرق منها والثانى إلى الغرب .

(٤) الفريق الجماعة : أكثر من الفرقة، وحلولا : حالين .

(٥) الآسى الطبيب .

(٦) الغفرة شعر العنق . واليافوخ أعلى الرأس .

(٧) الكمى الشجاع المستتر فى سلاحه ، وشكل الجواد ربطه بالشكال .

(٨) فسر فى العجز العضوين اللذين أرادهما فى الصدر ، والأزل الممسوح القليل اللحم .

ما زال يجمع نفسه فى زوره حتى حسبت العرض منه الطولا (١)
وكأنما غرته عين فادنى لا يبصر الخطب الجليل جليلا
أنف الكريم من الدنية تارك فى عينه العدد الكثير قليلا
والعار مضاض وليس بخائف من حتفه من خاف مما قيلا
خذلته قوته وقد كافحته فاستنصر التسليم والتجديلا (٢)
سمع ابن عمته به وبحاله فمضى يهرول أمس منك مهولا
وأمر مما فر منه فراره وكقتله ألا يموت قتيلا
تلف الذى اتخذ الجراءة خلة وعظ الذى اتخذ الفرار خليلا

فمعانى أبى الطيب أكثر عددا وأسد مقصدا ، ألا ترى أن البحترى قد قصر مجموع قصيدته على وصف شجاعة الممدوح فى تشبيهه بالأسد مرة وتفضيله عليه أخرى ، ولم يأت بشىء سوى ذلك ..وأما أبو الطيب فإنه أتى بذلك فى بيت واحد وهو قوله :

أمعفر الليث الهزبر بسوطه لمن ادخرت الصارم المصقولا

ثم إنه تفنن فى ذكر الأسد فوصف صورته وهيئته ، ووصف أحواله فى انفراده فى جنسه ، وفى هيئة مشيه واختياله ، ووصف خلق بخله مع شجاعته ، وشبه الممدوح به فى الشجاعة وفضله عليه بالسخاء ، ثم إنه عطف بعد ذلك على ذكر الأنفة والحمية ، التى بعثت الأسد على قتل نفسه بلقاء الممدوح ، وأخرج ذلك فى أحسن مخرج وأبرزه فى أشرف معنى ، وإذا تأمل العارف بهذه الصناعة أبيات الرجلين ، عرف ببديهة النظر ما أشرت إليه . والبحترى وإن كان أفضل من المتنبى فى صوغ الألفاظ وطلاوة السبك ، فالمتنبى أفضل منه فى الغوص على المعانى ، ومما يدلك على ذلك ، أنه لم يعرض لما ذكره بشر فى أبياته الرائية ، لعلمه أن بشرا قد ملك رقاب تلك المعانى واستحوذ عليها ، ولم يترك لغيره شيئا يقوله فيها ؛ ولفطانة أبى الطيب لم يقع فيما وقع فيه البحترى من الانسحاب على ذيل بشر لأنه قصر عنه تقصيرا كبيرا ، ولما كان الأمر كذلك عدل أبو الطيب عن سلوك هذه الطريق وسلك غيرها فجاء فيما أورد مبرزا .

---

(١) الزور عظم الصدر .
(٢) التجديل الانطراح على الأرض .

٣ — واعلم أن من أبين البيان فى المفاضلة بين أرباب النظم والنثر أن يتوارد اثنان منهما على مقصد من المقاصد ، يشتمل على عدة معان كتوارد البحترى والمتنبى ها هنا على وصف الأسد ، وهذا أبين فى المفاضلة من التوارد على معنى واحد يصوغه هذا فى بيت من الشعر أو فى بيتين ، ويصوغه الآخر فى مثل ذلك ، فإن بعد المدى يظهر ما فى السوابق من الجواهر ، وعنده يتبين ربح الرابح وخسر الخاسر . فإذا شئت أن تعلم فضل ما بين هذين الرجلين فانظر إلى قصيدتيهما فى مراثى النساء التى مفتتح إحداهما :

يا أخت خير أخ يا بنت خير أب ‏ ‏ ‏ كناية بهما عن أشرف النسب

وهى لأبى الطيب، ومفتتح الأخرى :

غروب دمع من الأجفان ينهمل ‏ ‏ ‏ وحرقة بغليل الحزن تشتعل

وهى للبحترى فإن أبا الطيب انفرد بابتداع ما أتى به فى معانى قصيدته والبحترى أتى بما أكثره غث بارد ، والمتوسط منه لا فرق فيه بين رثاء امرأة أو رجل ، ومن الواجب أنه إذا سلك الناظم أو الناثر مسلكا فى غرض من الأغراض ألا يخرج عنه ، كالذى سلكه هذان الرجلان فى الرثاء بامرأة ، فان حذاقة الصنعة أن يذكر هنا ما يليق بالمرأة دون الرجل ، وهذا الموضع لم يأت فيه أحد بما يثبت على المحك إلا أبو الطيب وحده ، وأما غيره من مفلقى الشعراء قديما وحديثا فانهم قصروا عنه . وله فى هذا المعنى قصيدة أخرى مفتتحها :

نعد المشرفية والعوالى ‏ ‏ ‏ وتقتلنا المنون بلا قتال (١)

وكفى بهما شاهداً على ماذكرته من انفراده بالإبداع فيما أتى به . وأبو الطيب أنفذ فى المضيق وأعرف باستخراج المعنى الدقيق ، وأما البحترى فإنه أعرف بصوغ الألفاظ وحوك ديباجتها . والحكم بين الشاعرين فى اتفاقهما فى المعنى أبين من الحكم بينهما فيما اختلفا فيه ، لأنهما مع الاتفاق فى المعنى يتبين قولاهما ويظهران ظهورا يعلم ببديهة النظر، ويتسارع إليه فهم من ليس بثاقب الفهم ؛ وأما اختلافهما فى المعنى فانه يحتاج فى الحكم بينهما فيه إلى كلام طويل يعز فهمه ولا يتفطن له إلا بعض الناس دون بعض ، لا بل لا يتفطن له إلا الفذ الواحد من النـاس .

(١) قالها فى رثاء والدة سيف الدولة ، وقد توفيت بميافارقين سنة ٣٣٩ وجاءه الخبر بحلب .

— ٢ —

ويقول صاحب المثل السائر عن الشعر فى باب السرقات : وكان ختامه على يد الثلاثة المتأخرين ، وهم أبو تمام والبحترى والمتنبي .. ويعد من باب المعانى الجديدة قول المتنبي فى عضد الدولة وولديه :

وأنت الشمس تبهر كل عين ... فكيف وقد بدت معها اثنتان
فعاشا عيشة القمرين يحيا ... بضوئهما ولا يتحاسدان
ولاملكا سوى ملك الأعادى ... ولا ورثا سوى من يقتلان
وكان ابنا عدو كاثراه ... له ياءى حروف أنيسيان

وهذا معنى لأبى الطيب وهو الذى ابتدعه ، أى أن زيادة أولاد عدوك كزيادة التصغير فإنها زيادة نقص ، ومايبنغى أن يقال إن ابن الرومى ابتدع هذا المعنى الذى هو :

يشكى المحب ويلفى الدهر شاكيه ... كالقوس تصمى الرمايا وهى مرنان

فإن علماء البيان يزعمون أن هذا المعنى مبتدع لابن الرومى ، وليس كذلك ، ولكنه مأخوذ من المثل المضروب وهو قولهم « يلدغ ويصى » ويضرب ذلك لمن يبتدىء بالأذى ثم يشكو ، وإنما ابن الرومى قد ابتدع معانى أخر غير ماذكرته ، وليس الغرض أن يؤتى على جميع ماجاء به هو وغيره من المعانى المبتدعة ، بل الغرض أن يبين المعنى المبتدع من غيره.. ومن شعر ابن الخياط بيت فى قصيدة أولها :

خذا من صبا نجد أمانا لقلبه ... فقد كاد رياها يطير بلبه

ويزعمون أنه من المعانى الغريبة وهو :

أغار إذا آنست فى الحى أنة ... حذاراً عليه أن تكون لحبه

وهذا البيت مأخوذ من شعر أبى الطيب المتنبي فى قوله :

لو قلت للدنف المشوق فديته ... مما به لأغرته بفدائه

وقول أبى الطيب أدق معنى وإن كان قول ابن الخياط أرق لفظا.. ولعمارة اليمنى:

فهل درى البيت أنى بعد فرقته ... ماسرت من حرم إلا إلى حرم

وهذا البيت مأخوذ من شعر أبى تمام فى قوله مادحا لبعض الخلفاء ، فى حجة حجها ، وذلك بيت من جملة أبيات حسنة :

يامن رأى حرما يسرى إلى حرم ... طوبى لمستلم يأتى وملتزم

ثم يقول ابن الأثير : «ولقد وقفت من الشعر على كل ديوان ومجموع ، وأنفذت شطراً من العمر فى المحفوظ منه والمسموع ، فألفيته بحراً لا يوقف على ساحله ، وكيف ينتهى إلى إحصاء قول لم تحص أسماء قائله ؟، فعند ذلك اقتصرت منه على ماتكثر فوائده وتتشعب مقاصده : ولم أكن ممن أخذ بالتقليد والتسليم ، فى اتباع من قصر نظره على الشعر القديم ، إذ المراد من الشعر إنما هو إيداع المعنى الشريف فى اللفظ الجزل اللطيف ، فمتى وجد ذلك فكل مكان خيمت فهو بابل . وقد اكتفيت فى هذا بشعر أبى تمام حبيب بن أوس وأبى عبادة الوليد وأبى الطيب المتنبى ، وهؤلاء الثلاثة لات الشعر وعزاه ومناته ، الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومستحسناته . وقد حوت أشعارهم غرابة المحدثين إلى فصاحة القدماء ، وجمعت بين الأمثال السائرة وحكمة الحكماء . . أما أبو تمام فإنه رب معان ، وصيقل ألباب وأذهان ، وقد شهد له بكل معنى مبتكر ، لم يمش فيه على أثر ، فهو غير مدافع عن مقام الاغراب ، برز فيه على الأضراب ، ولقد مارست من الشعر كل أول وأخير ، ولم أقل ما أقول فيه إلا عن تنقيب وتنقير ، فمن حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضه وراض فكره برائضه ، أطاعته أعنة الكلام ، وكان قوله فى البلاغة ما قالت حذام (١) . فخذ منى فى ذلك قول حكيم ، ففوق كل ذى علم عليم . وأما أبو عبادة البحترى فانه أحسن فى سبك اللفظ على المعنى ، وأراد أن يشعر فغنى ، ولقد حاز طرفى الرقة والجزالة على الاطلاق ، فبينا يكون فى شظف نجد ، إذ تشبث بريف العراق ، وسئل أبو الطيب المتنبى عنه وعن أبى تمام وعن نفسه فقال : « أنا وأبو تمام حكيمان والشاعر البحترى » ، ولعمرى إنه أنصف فى حكمه ، وأعرب بقوله هذا عن متانة علمه ، فان أبا عبادة أتى فى شعره بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء ، فى اللفظ المصوغ من سلاسة الماء ، فأدرك بذلك بعد المرام ، مع قربه إلى الأفهام ، وما أقول إلا أنه أتى فى معانيه بأخلاط الغالية ، ورقى فى ديباجة لفظه إلى الدرجة العالية .

وأما أبو الطيب المتنبى فانه أراد أن يسلك مسلك أبى تمام ، فقصرت عنه خطاه ، ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه ، لكنه حظى فى شعره بالحكم والأمثال ، واختص بالابداع فى وصف مواقف القتال ، وأنا أقول قولا لست فيه متأثما ، ولا منه ملثما ، وذاك أنه إذا خاض فى وصف معركة ، كان لسانه أمضى من نصالها ، وأشجع من أبطالها ، وقامت أقواله لك مقام أفعالها ، حتى تظن الفريقين قد تقابلا ،

---

(١) امرأة من العرب عرفت بالصدق فيهم حتى ضرب بها المثل .

والسلاحين قد تواصلا ، فطريقه فى ذلك تضل بسالكه ، وتقوم بعذر تاركه . ولاشك أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة بن حمدان ، فيصف لسانه ماأدى إليه عيانه ومع هذا فانى رأيت الناس عادلين فيه عن سنن التوسط ،فاما مفرط فى وصفه وإما مفرط ، وهو وإن انفرد بطريق صار أباعذرته، فان سعادة الرجل كانت أكبر من شعره ، وعلى الحقيقة فانه خاتم الشعراء ، ومهما وصف به فهوفوق الوصف وفوق الاطراء ، ولقد صدق فى قوله من أبيات يمدح بها سيف الدولة :

لا تطلبن كريما بعد رؤيته إن الكرام بأسخاهم يدا ختموا

ولا تبل بشعر بعد شاعره قد أفسد القول حتى أحمد الصمم

ولما تأملت شعره بعين المعدلة البعيدة عن الهوى ، وعين المعرفة التى ما ضل صاحبها وما غوى ، وجدته أقساما خمسة ، خمس فى الغاية التى انفرد بها دون غيره ، وخمس من جيدالشعر الذى يساويه فيه غيره ، وخمس من متوسط الشعر ، وخمس دون ذلك ، وخمس فى الغاية المتقهقرة التى لا يعبأ بها ؛ وعدمها خير من وجودها ، ولو لم يقلها أبو الطيب لوقاه الله شرها ، فانها هى التى ألبسته لباس الملام ، وجعلت عرضه شارة لسهام الأقوال . وهؤلاء الشعراء الثلاثة لم أعدل إليهم إتفاقا ، وإنما عدلت إليهم نظراً واجتهاداً ، وذلك أنى وقفت على أشعار الشعراء قديمها وحديثها ، حتى لم أترك ديوانا لشاعر مفلق يثبت شعره على المحك ، إلا عرضته على نظرى ، فلم أجد أجمع من ديوان أبى تمام وأبى الطيب للمعانى الدقيقة ، ولا أكثر استخراجا منهما للطيف الأغراض والمقاصد ، ولم أجد أحسن تهذيبا للألفاظ من أبى عبادة ولا أنقش ديباجة ولا أبهج سبكا منه ، فاخترت حينئذ دواوينهم ، لاشتمالها على محاسن الطرفين من المعانى والألفاظ ، ولما حفظتها ألغيت ماسواها ، مع ما بقى على خاطرى من غيرها .

أبو العلاء المعرى

٣٦٣ - ٤٤٩ ﻫ — ٩٧٣ - ١٠٥٧ م

أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان بن احمد سليمان بن داود، ينتهى نسبه إلى النعمان بن عدى . وهو حكيم العربية وشاعرها الكبير ،كان جده لأبيه سليمان بن داود يلى قضاء المعرة وحمص ومات سنة ٢٩٠ ﻫ ، فولى بعده أبو بكر محمد بن سليمان عم

(١) لقب النعمان بساطع الجمال ونسبه الأعلى إلى تيم الله إلى قضاعة إلى قحطان

أبى العلاء ، فلما مات ولى القضاء بعده أخوه عبد الله بن سليمان والد أبى العلاء ، فمات سنة ٣٧٧ هـ ، وترك أبا العلاء وأبا المجد محمد بن عبد الله وأبا الهيثم عبد الواحد بن عبد الله ، وكانوا جميعا من الشعراء . . وأم أبى العلاء من أسرة بحلب شهرت بالكرم والعلم ، وهم « آل سبيكة » .

ولد أبو العلاء فى يوم الجمعة ٢٨ ربيع الأول عام ٣٦٣ هـ - ٩٧٣ م بمعرة النعمان، وكف بصره عام ٣٦٧ هـ على إثر جدرى أصابته ذهبت بيسرى عينيه جملة ، وغشيت يمناهما ببياض ففقدت ما فيها من قوة الإبصار .

درس على أبيه علوم اللغة والنحو والأدب، ثم رحل إلى حلب حاضرة الحمدانيين، ثم إلى إنطاكية وطرابلس الشام حيث أقام فيها عند أخواله . وبدأ يقرض الشعر وهو فى الحادية عشرة من عمره ، وعرف فى اللاذقية من الرهبان بعضا من الفلسفة وعلوم الأوائل وقواعد الأديان . وعاد إلى المعرة بعد أن قضى دراسته فى طرابلس ، وتوفى أبوه وهو فى السابعة عشرة من عمره ، فرثاه بشعره ، وعاش بعده على غلة وقف لأسرته ، كان يدر عليه فى السنة ثلاثين دينارا ، دون أن يتكسب بشعره كشعراء عصره ، ثم رحل إلى بغداد سنة ٣٩٨ طلبا للعلم والثقافة ، ومكث بها إلى رمضان عام ٤٠٠ هـ ، وقدم أول قدومه إلى أبى حامد قصيدة يصف فيها متاعب رحلته ، ويستعين به على ضيق يده ، ومنها :

وبالعراق رجال قربهم شرف ⁂ هاجرت فى حبهم رهطى وأشياعى

وقد بهر المعرى الذين اتصل بهم ببغداد بعلمه وكان يسعى إلى دروس العلماء، ويزور مكتباتها العامة والخاصة ، ويتصل بمجامعها العلمية والأدبية والفكرية .

ولكن حقد الحاقدين وحسد الحاسدين جعله يرحل من بغداد ، وكذلك ضيق يده ، وشقاؤه النفسى ، كل ذلك ألجأه الى العودة للمعرة ، مودعا من أهل بغداد أجمل وداع ، وبلغه نعى أمه وهو فى طريقه الى المعرة ، فحزن أشد الحزن ،

واعتزل بعد عودته الناس ، وأقام فى داره ، وسمى نفسه رهين المحبسين ، ولكنه فشل فى طلب العزلة ، فقد سعى إليه بالمعرة الأمراء والعلماء والأدباء والشعراء والمتكلمون ، وراسله الخلفاء والكبراء فذاعت شهرته فى الآفاق ، وهجر أبو العلاء أكل الحيوان والزواج فاتهم بالزندقة ، وظل يعيش فى ظلال الهرم والشيوخة ، حتى توفى فى ١٣ ربيع الأول عام ٤٤٩ هـ - ١٠٥٨ .

وكان المعرى شاعرا حكيما من أقدر الشعراء الذين أخضعوا الشعر للفلسفة ، وقد

أضفى التاريخ على اسم ابى العلاء جلالا ومجداكان بهما جديرا ، فهو علم من أعلام الأدب ، وشاعر من أنبه الشعراء ، ومؤلف من أكبر المؤلفين . وقد ألف « رسالة الغفران » عام ٤٢٤ ﻫ فى أسلوب قصصى خيالى ، ردا على رسالة ابن القارح التى بعث بها إلى أبى العلاء ، وموضوع رسالة الغفران زيارة خيالية للجنة والنار وحوار طريف بين الأدباء والشعراء والمفكرين وتضمنت الرسالة كثيرا من فلسفة أبى العلاء فى الاخلاق والثقافة والأدب ، وفى الدين والاجتماع ، وفى الشعراء وشعرهم ، ويشابهها فى ذلك « الكوميديا الالهية » لدانتى شاعر عصر الإحياء فى ايطاليا

Dante

أما ابن القارح فهو أبو الحسن على بن منصور الحلبى ، وتلميذ ابن خالويه وابى على الفارسى ، أقام فى حلب ثم رحل الى بغداد ومصر ، ورسالته التى ارسل بها من مصر الى أبى العلاء فيها شىء من الهزل والدعابة ، وصور فيها آراءه فى الشعراء والأدباء والعلماء والمفكرين ، كما صور فيها حياته . وطلب من المعرى أن يجيبه عليها ، وكان جواب المعرى عليها هو رسالته الخالدة « رسالة الغفران » التى ناقش فيها آراء ابن القارح فى رسالته فى أسلوب جميل من الحوار مع أهل الجنة وأهل النار ، وهو أسلوب جديد فى اللغة العربية .

وللمعرى ديوانه « اللزوميات » ، وديوان « سقط الزند » ، وبعض المؤلفات الأخرى .

أما مسألة : هل سرق دانتى رسالة المعرى ؟

فهى مسألة طال حولها الحوار والجدل ، ولم نر دليلا ماديا على السرقة أو على البراءة منها ، ولكن قوما يردونها . . قال الأستاذ محمد كرد على : أن أعمى المعرة كان معلما لنابغة إيطاليا فى الشعر والخيال . وبعض الباحثين من المستشرقين فى أوروبا على أن دانتى فى روايته الالهية قد اقتبسها — ولا سيما الجحيم — من رسالة الغفران للمعرى . وقال جورجى زيدان : إن المعرى توفى سنة ٤٤٩ ﻫ ودانتى توفى سنة ٧٢٠ ﻫ ، وملتن الانجليزى توفى سنة ١٠٨٤ ﻫ ، فلا بدع إذا قلنا باقتباس هذا الفكر عنه . . وأقدمهما (دانتى) لم يظهر إلا بعد احتكاك الافرنج بالمسلمين والإيطاليون أسبق الافرنج إلى ذلك . . ذلك هو رأى جورجى زيدان توسع فيه حتى أدخل ملتن أيضا فى الاقتباس من المعرى وحجته تأخر الزمن بدانتى وملتن واحتكاك الافرنج بالمسلمين ، وذلك كله لاينهض دليلا على اقتباس الفكرة ،

ولا يكفى برهانا على الأخذ ؟ والمسألة لا تعدو الحدس والظن . وإنا لنرى البراهين تنحاز ناحية دانتى فتبعده عن الأخذ وعن الاقتباس . فقد بدأ حياته يتعلم الدين ، يكمل ثقافته على يد القديس فرانشسكو ، ولقد كان عصره عهد قوة سلطان البابوات والكهنة ، ولن يقوم لهؤلاء سلطان إلا بقوة النزعة الدينية ، وإبان ذلك تتكاثر صور الجنة والنار واردة فى أخيلة الناس وأذهانهم .. أوليس فى نشأته الدينية . وفى عهده الملىء بالتعصب الدينى ما يكفى فى أن ترد الجنة والنار فى خياله ؟ على أن فكرة الجنة والنار والنعيم والجحيم تدور برؤوس الناس منبلج الصباح وأفول الشمس فى كل يوم ، فهى حق شائع لجميعهم لا يعده الأدباء أخذا ، ولو أنهم عدوه لكان كل شعرائنا وأدبائنا سراقا ، ولكان امرؤ القيس سارقا لأنه بكى الديار كما بكاها ابن حذام من قبله ، إذ يقول امرؤ القيس :

عوجا على الطل المحيل لعلنا　　　نبكى الديار كما بكى ابن حذام

وإنما الذى يعده الأدباء سرقة هو أخذ الفكرة النادرة التى ينفرد واحد بها . أوالترتيب الذى لا يستطيعه إلا الشواذ والأفذاذ، فهل سرق دانتى الترتيب من رسالة الغفران ؟ اللهم لا . فحراس الجحيم فى خيال المعرى ملائكة ، وفى خيال دانتى شياطين ، وأشخاص الرواية عند المعرى شعراء ورواة ، وعند دانتى رجال دين وعصاة ومذنبون ، والجنة عند دانتى تسعة أقسام لكل قسم طائفة عملوا الخيرات كل على حسب عمله . وعند المعرى ثلاثة أقسام: « جنة الجن » وجنة (الرجاز) والجنة الأصلية ، وقد بلغ المعرى أسمى خياله لدى وصفه الفردوس ، كما كان أخصب النواحى خيالا عند دانتى وصف الجحيم .

على أنه إن كان لا بد من أن نتهم الشاعر الطليانى بالاقتباس . فأولى أن نعتقد أخذه من فرجيليو الذى كان دليله فى رحلته وهاديه فى ظلمات الجحيم . ولفرجليو هو الآخر رحلة فى أعماق الجحيم هى أقرب لخيال دانتى من رسالة الغفران ، ولقد كانت لدانتى أحلام فيها ملائكة وفيها موتى ، هى إرهاص ومقدمة لرسالته العتيدة ، فقد رأى فى حلم من الأحلام أنه ضل فى غابة موحشة فأطلت عليه محبوبته بياتريشى فى سحابة من الملائكة وعليها لهب قرمزى كأنه اللهب المتأجج ، وخيل إليه أنه يتغلغل فى عالم الأموات . كما تحدث فى بعض أشعاره قائلا : ها أنذا جالس فى مكانى أذكرها وأذكر أيامها السعيدة، فيلوح لى كأن ملائكة من السماء تهبط من عل، وتأخذ أماكنها على المقاعد الموجودة حولى .

فإذا ضممنا لذلك كله أن حبه ألهمه خيال الجنة ليستمتع بمن أحب ، وأن بغضه لمن حاربوه ونفوه وشردوه يوحى إليه أن يتخيلهم فى دركات الجحيم ، وأن تلك طبيعة النفس تشره لنيل آمالها ولو عن طريق الخيال ، عرفنا براءته من السرقة .

وكان أبو العلاء مفرطا فى الذكاء والفطنة ، ومن ذكاء المعرى ما يروى من أنه دخل عليه أبو نصر المنذرى(١) المعرى فى جماعة من أهل الأدب ، فأنشد كل واحد منهم من شعره ما تيسر ، وأنشده أبو نصر :

وقانا لفحة الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه(٢) فحنا علينا حنو الوالدات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا(٣) ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم
يروع(٥) حصاه حالية(٦) العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

فقال أبو العلاء : أنت أشعر من بالشام . ثم رحل أبو العلاء إلى بغداد ، وأبو العلاء لا يعرف منهم أحداً ، فأنشد كل واحد منهم ما حضره من شعره حتى جاءت نوبة المنذرى فأنشد :

لقد عرض الحمام لنا بسجع إذا أصغى له ركب تلاحى(٧)
شجى(٨) قلب الخلى فقيل : غنى وبرح(٩) بالشجى(١٠) فقيل: ناحا
وكم للشوق فى أحشاء صب إذا اندملت أجد لها جراحا
ضعيف الصبر عنك وإن تقاوى وسكران الفؤاد وإن تصاحى
بذاك بنو الهوى سكرى صحاة كأحداق المها مرضى صحاحا

فقال أبو العلاء : ومن بالعراق ـ عطفا على قوله : من بالشام ـ ! ولكن الشعر الأول يروى لغير المنذرى كما يعلم شداة الأدب ودارسوه .

(١) المستطرف ص ٤٦ ج ١ ـ والأبيات مشهورة لحمدونة الأندلسية
(٢) الدوح : جمع دوحة : الشجرة العظيمة من أى شجر كان .
(٣) ماء زلال : عذب (٤) المدامة : الخمر (٥) يروع : يفزع
(٦) حليت المرأة : صارت ذات حلى فهى حلية وحالية
(٧) تلاحى : تنازع (٨) شجاه : أطربه
(٩) برح به الأمر : جهده (١٠) الشجى : الحزين

الأمير الشاعر ابن سنان الخفاجي

٤٢٢ — ٤٦٦

— ١ —

عاش ابن سنان فى حلب ، وتنقل بين ربوع الشام وأمبراطورية الروم ، وورث النزعات الأدبية عن أسرته العربية الصميمة ، وعن البيئة الأدبية الخصبة التى عاش فيها . فحلب كانت عاصمة سيف الدولة الحمدانى (٣٠٣ — ٣٥٦ ﻫ)، وعاصمة دولة الحمدانيين عامة ، وكانت تموج فى عهدهم بالعلماء والفلاسفة والأدباء والكتاب والشعراء والخطباء . عاش فيها المتنبى حقبة من الزمن ، ونشأ وعاش فيها أبو فراس الحمدانى الشاعر م ٣٥٧ ﻫ ، وأبو عبد الله الحسين بن خالويه م ٣٧٠ وأصله من همذان واستوطن حلبا .. كما أقام فيها حينا أبو الفتح عثمان بن جنى م ٣٩٢ ﻫ ، والفارابى الفيلسوف م ٣٣٩ ﻫ . ومن شعرائها : النامى ، والناشىء الأصغر ، وأبو القاسم الزاهى ، وأبو الفرج الببغاء ، وكثير من أمراء العرب من بنى حمدان وبنى عامر وبنى عقيل وخفاجة .

وبجوار حلب فى معرة النعمان ولد ونشأ وعاش المعرى الشاعر الفيلسوف م ٤٤٩ ﻫ وهو الذى تتلمذ عليه ابن سنان . هذا فضلا عن بيئة الشام الأدبية عامة ، ومن حفلت بهم من أعلام الأدب والشعر والخطابة : كأبى طالب الرقى والخليع الشامى ، وأبى الفرج الوأواء الدمشقى ، وعبد المحسن الصورى ، وأبى الرقعمق ، وسواهم من الشعراء والأدباء . . . وكان عبد الرحيم بن نباتة م ٤٠٥ ﻫ خطيب جيوش سيف الدولة المفوه .

فلا عجب أن تبعث هذه البيئة الأدبية فى نفس ابن سنان حب الأدب وتذوقه والاجادة فى نظمه . أما الذى ربى فى نفس ابن سنان حب النقد والبلاغة وملكة التأليف فيها فهو اتصاله بأستاذه المعرى ، وعكوفه على كتب الأدب القديمة قراءة وفهما وتذوقاً : كالبيان والتبيين للجاحظ ونقد النثر والموازنة للآمدى ، والوساطة للقاضى الجرجانى ، والبلاغة وإعجاز القرآن للرمانى ، والصناعتين لأبى هلال العسكرى ، وإعجاز القرآن للباقلانى . فوق تأثره ببحوث المتكلمين فى إعجاز القرآن الكريم وفصاحته . فلا بدع أن يكون ابن سنان بعد ذلك كله أديباً ملهماً وشاعراً مطبوعاً ، وناقداً موهوباً ، وعلماً من الأعلام فى النقد والبلاغة والبيان .

— ٢ —

وابن سنان كما يدل عليه كتابه سر الفصاحة ناقد ممتاز ، تشهد بذلك آراؤه وأحكامه الأدبية فى هذا الكتاب ، وإذا ذكرنا الموازنة والوساطة والصناعتين فلا بد أن نذكر معها سر الفصاحة لابن سنان ، وله فوق ذلك منزلة كبيرة فى البلاغة ، فإذا كان ابن المعتز قد ألف كتابه البديع ، وقدامة قد ألف نقد الشعر ، وأبو هلال قد ألف الصناعتين ، وابن رشيق قد ألف « العمدة » ، فحسبنا أن نذكر ابن سنان ومؤلفه القيم « سر الفصاحة » ، فإنه حلقة بين هذه الكتب وبين كتب عبد القاهر والسكاكى ومدرسته ، فابن سنان كعبد القاهر : كلاهما بنى البلاغة العربية صرحا شاهقاً تعتز به وتفخر ، وكلاهما أقام بحوثه للبلاغة على نهج جديد ، كان أساساً لبحوث البلاغيين من بعد ، وإذا كانت الفكرة الأولى عند عبد القاهر حين ألف فى البلاغة هى الوصول إلى أسرار إعجاز القرآن الكريم وحقيقته فإنها كذلك هى الفكرة التى كانت تسيطر على عقل ابن سنان وتفكيره ، وكلا الرجلين ابتدأ بقضية الاعجاز ، وخرج منها صفر اليدين ، لم يهتد إلى أمنيته المنشودة ولكن ابن سنان يرى أن سر الاعجاز هو صرف الله الناس عن الاتيان بمثل القرآن الكريم ، وعبد القاهر يرى أن سره هو دقائق ولطائف فى نظم القرآن الكريم أعجزت القائلين وأسكتت صوت المتحدين ، أو قل إن سر الاعجاز الدفين عنده هو بلاغة القرآن الكريم بكل ما تحتوى عليه هذه الكلمات من معان

— ٣ —

وقد ترجم له صاحب فوات الوفيات ، فقال : عبد الله بن محمد بن سعيد بن سنان ، أبو محمد الخفاجى الشاعر الأديب ، كان يرى رأى الشيعة ، وكان قد عصى بقلعة عزاز من أعمال حلب ، وكان بينه وبين أبى نصر محمد بن الحسن بن النحاس الوزير لمحمود بن صالح مودة مؤكدة ، فأمر محمود أبا نصر بن النحاس أن يكتب إلى الخفاجى كتاباً يستعطفه ويؤنسه ، وقال لا يأمن إلا إليك ، ولا يثق إلا بك ، فكتب إليه كتاباً ، فلما فرغ منه وكتب إن شاء الله تعالى شدد النون من إن ، فلما قرأه الخفاجى خرج من عزاز قاصداً حلب ، فلما كان فى الطريق أعاد النظر فى الكتاب ، فلما رأى التشديد على النون أمسك رأس فرسه ، وفكر فى نفسه ، وقال : إن ابن النحاس لم يكتب هذا عبثاً ، فلاح له أنه أراد « إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك » ، فعاد إلى عزاز ،

وكتب الجواب : أنا الخادم المعترف بإنعام ، وكسر الألف من أنا وشدد النون وفتحها ، فلما وقف أبو نصر على ذلك سر وعلم أنه قصد به « إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها » ، وكتب الجواب يستصوب رأيه ، فكتب إليه الخفاجي :

خف من أمنت ولا تركن إلى أحد فما نصحتك إلا بعد تجريب
إن كانت الترك فيهم غير وافية فما تزيد على غدر الأعاريب
تمسكوا بوصايا اللؤم بينهم وكاد أن يدرسوها فى المحاريب

واستدعى محمود أبا نصر بن النحاس ، وقال : أنت أشرت على بتولية الخفاجى وما أعرفه إلا منك ، ومتى لم يفرغ بالى منه قتلتك ، وألحقت بك جميع من بينك وبينه صلة وحرمة ، فقال له : مرنى بأمر أمتثله ، قال : تمضى إليه وفى صحبتك ثلاثون فارساً ، فإذا قاربته عرفه بحضورك ، فإنه يلتقيك ، فإذا حضر سألك النزول عنده والأكل معه ، فامتنع ؟ وقل له : إنى حلفتك أن لا تأكل زاده ، ولا تحضر مجلسه حتى يطيعك فى الحضور عندى ، وطاوله فى الحديث وأخرج هذه الخشكانجتين فكل أنت هذه ،وأطعمه هذه ، فإذا استوفى أكلها عجل الحضور إلى ، فإن منيته فيها ، ففعل ما أمره به ، ولما أكلها الخفاجى رجع أبو نصر إلى حلب ورجع الخفاجى إلى عزاز ، ولما استقر بها وجد مغصا شديداً ، ورعدة شديدة ، فقال : قتلنى والله يا أخى أبو نصر ، ثم أمر بالركوب خلفه ورده ، ففاتهم ، ووصل إلى حلب. وصبح من الغد محمود ، فجاءه من عزاز(١) من أخبره أن الخفاجى فى الرمق الأخير ، ومات . وكانت وفاته فى سنة ٤٦٦ هـ ، وحمل إلى حلب(٢) .

---

(١) بلدة فيها قلعة ولها رستاق شمالى حلب . بينهما يوم ، وهى طيبة الهواء عذبة الماء صحيحة لا يوجد فيها عقرب وليس بها شىء من الهوام (٦/١٦٧ معجم البلدان لياقوت ط ١٩٠٦) . وجاء فى معجم البلدان لياقوت عند ذكر حلب من رسالة لابن بطلان كتبها سنة ٤٤٠ هـ ما نصه : وفيها حدث يعرف بأبى محمد بن سنان قد ناهز العشرين ، وعلا فى الشعر طبقة المحنكين ، فمن قوله :

إذا هجوتكم لم أخش صولتكم وإن مدحت فكيف الرى باللهب
فحين لم ألق لاخوفاً ولا طمعاً رغبت فى الهجو إشفاقا من الكذب

(٣١٣ جـ ٣ معجم البلدان لياقوت ط ١٩٠٦)

(٢) ٢٩٧ — ١/٣٠٠ فوات الوفيات لابن شاكر ط ١٢٨٢ هـ — وراجع ترجمة ابن سنان بإفاضة فى كتابى « بنو خفاجة وتاريخهم السياسى والأدبى »

— ٤ —

وثقافة ابن سنان ثقافة واسعة متنوعة . فهو أديب ملم بالأدب متذوق له، وهو علم من أعلام النقد الأدبي كما يتجلى ذلك من كتابه سر الفصاحة ، وهو شاعر مبدع ملهم تتجلى في شعره سمات الشاعرية المجددة الساحرة ، وهو فوق ذلك كله عالم ملم بشتى العقائد والفلسفات والمذاهب العقلية والدينية كما يتجلى ذلك في كتابه «سر الفصاحة» وفي كثير من شعره ، وكان ينتصر للرأي القائل بأن سبب إعجاز القرآن هو أن الله عز وجل صرف العرب وسواهم عن معارضته وقد أيد هذا الرأي في كتابه سر الفصاحة وألف فيه كتابا سماه الصرفة (١) ..وهو فوق ذلك العلم الفذ في البلاغة ، وكتابه يعد أول تأليف مفصل في علوم البلاغة والبيان وأجمع دراسة لشتى ألوان البلاغة وفنونها وصورها وجميع أسبابها من اللفظ والمعنى والتأليف والنظم ، وكل هذه الثقافات تدل على عقلية واسعة عميقة ولا شك أن نماها فيه تلمذته على أستاذه أبي العلاء وسواه من علماء العربية وأدبائها، فوق عكوفه على المطالعة والقراءة والبحث والتأليف ، وفي أستاذه المعري يقول من قصيدة رثى بها جماعة من أهله وأصدقائه :

ومقيما على المعرة تطويه الليالي وذكره منشور (٢)

وقد ألف ابن سنان الكتب الآتية :

١ — سر الفصاحة .

٢ — كتاب الصرفة ذكر فيه قضية إعجاز القرآن وأن سبب الاعجاز هو صرف الله العرب عن معارضته (٣) .

ومذهب الصرفة ينسب إلى ابراهيم بن سيار النظام المعتزلي وقد جرى الكلام به على ألسنة قوم قبله من أشهرهم عيسى بن صبيح المزدار المعتزلي البغدادي. وكان الجعد ابن درهم مؤدب مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين يقول قولا قريبا من ذلك . وقد رجح هذا المذهب ابن سنان في كتابه .

٣ — وله ديوان شعر صغير، إلى غير ذلك من كتبه المفقودة .

— ٥ —

وابن سـنان شاعر مشهور وله ديوان شعر يقع في ست عشرة ومائة صفحة.

---

(١) راجع ١٣٩ جـ ٣ معجم الأدباء وقد نقل عنه ياقوت .

(٢) ص ٣٥ من الديوان . (٣) ١٣٩ جـ ٣ معجم الأدباء

ويمتاز شعره بامتلائه بالمعانى والأفكار العقلية وبقوته وجمال العاطفة فيه وظهور شخصية الشاعر وغلبتها عليه ، وسندرسه دراسة واسعة فى كتاب مستقل إذا وفق الله. ونشير فى هذا المقام إلى أن البارودي قد جعل فى مختاراته ابن سنان من الشعراء الذين نقل عنهم من شعرهم . وكان من الشعراء الذين عاصروا ابن سنان فى حلب : أبو الفتح بن أبى حصينة المتوفى عام ٤٥٦ (راجع ١٨٨ ج ٤ أعلام النبلاء) ،ومنهم أبو العباس الملقب بالمشكور (راجع ٣٣٣ و ٣٣٤ ج ١ أعلام النبلاء) وسواهما من الشعراء . ومن ديوانه نسخة خطية بدار الكتب وطبع الديوان ببيروت فى ١١٦ صفحة . وشعر ابن سنان الخفاجى كله مختار جيد لا سيما ما نظمه من بعد عصر صباه وهو مظهر لشخصيته فى يأسه وامله وفقره وغناه وظفره وفشله وفى فضائله الخلقية الكريمة وفى طموحه البعيد الوثاب وفى نظراته الفلسفية التى استمدها من أستاذه أبى العلاء . وهو فى رثائه وفى عتابه وفى غزله وفى مدحه وفى وصفه وفى التعبير عن وجدانه وعواطفه ، رائع بالغ حدود الجمال الفنى والعاطفى. ولا مانع من أن نعرض هنا عدة نماذج لشعر ابن سنان . قال الخفاجى :

أيها النوام ويحكم   قد حملنا عنكم السهرا
نحن فى ظلماء داجية   ما لها صبح فينتظر
فجرها والصبر بعدهم   ما سمعنا عنهما خبرا

وقال من قصيدة يرثى بها جماعة من أهله وأصدقائه :

طلب الأمن فى الزمان عسير   وحديث المنى خداع وزور
لا تظن الفقيد أفرده البين   فقد أعجل المقيم المسير
إن فى جانب المقطم مهجورا   ومن أجله تزار القبور
ومقيما على المعرة (١) تطويه   الليالى وذكره منشور
وضريحين بالعواصم مبذولين   والصبر عنهما محظور
وغريبا بالدير بان له العيش   وغاض الندى ومات السرور
صارم فلت النوائب حديه   وغصن تحت الثرى مهجور
أيها الظاعنون لا زال   للغيث رواح عليكم وبكور
لست أرضى بالدمع فيكم فهل   يملك رى البحور إلا البحور
قد رأينا دياركم وعليها   أثر من عفاتكم مهجور

(١) هو أستاذه المعرى الفيلسوف الشاعر م ٤٤٩ ه

وسألنا أطلالها فأجابت ومن الصمت واعظ ونذير
عرصات كأنهن ليال فارقتها عند الكمال البدور
ياديار الأحباب غيرك الدهر فكانت بعد الأمور أمور
أين أيامنا بظلك والشمل جميع والعيش غض نضير
نشوة أعقبت خماراً من الهم ولكن قد يفرق المخمور
يانجوم العلى غربتم وما فى الليل من بعدكم نجوم تغور
حال عما عهدتموه ولم يجر على رسمه الصباح المنير
وعفا الجود فالكريم بخيل فى الملمات والغنى فقير
لا يجاوركم الصعيد بسوء فهو للنازلين بئس المجير
وسقاكم من السحاب صناع الكف يسدى فى روضكم وينير
ما أرى الشعر كافياً فى مراثيكم ولكن قد ينفث المصدور

وقال :

يا خجلتى للطيف لما سرى فى خطر الليل إلى ساهر
زيارة ضاعت ولكنها جناية الشوق على الزائر

وقال :

لى راحة يفرق منها الغنى لأن ما ينزلها يستباح
لا بد أن أعمرها بالقنا فطالما أقفرتها بالسماح

وقال :

تجاهلت حتى أنكرتنى خفاجة وقالت : وهل ضل الأعز المشيع ؟

وقال فى صباه :

وحى من خفاجة رحت فيه على جرداء حالية الأديم
أباح الخمر فيه حمى هموى فأشربها وتفتك بالنديم

وقال فى مقامه بديار بكر من قصيدة طويلة :

سقى الهضبة الأدماء من أرض جوشن سحائب تسدى روضه وتنير
وحل عقود المزن فى حجراته نسيم بأدواء القلوب خبير
فما ذكرته النفس إلا تبادرت مدامع لا يخفى بهن ضمير

وقال ابن سنان :

هل تسمعون شكاية من عاتب ... أو تقبلون إنابة من تائب
أم كل ما يتلو الصديق عليكم ... فى جانب وقلوبكم فى جانب
أما الوشاة فقد أصابوا عندكم ... سوقا تنفق كل قول كاذب
فمللتم من صابر ، ورقدتم ... عن ساهر وزهدتم فى راغب

وقال على مذهب لزوم ما لا يلزم :

مضى الصبا وأناس فى الصبا غرقوا ... أستودع الله إطرابى وأترابى
ولو عقلت لما عنيت بعدهم ... نفسى وأتعبت آرابى بآرابى
وكنت فى جانب الغبراء معتزلا ... عزى قنوعى وحصنى ظل محرابى
لا أطلب الرزق من سيف ومن قلم ... ولا أفكر فى روم وأعراب
أقول حقاً ولكنى أخالفه ... ولو عقلت لكان الصمت أحرى به

وقال :

من مبلغ اللوام أن مطامعى ... صارت حديثا بينهم وقصائدا
ركضت على أعراضهم وهى التى ... تطوى البلاد شواردا ورواكدا
ما لى أجاذب كل وقت معرضا ... منهم وأصلح كل يوم فاسدا
وأقيم سوق المجد فى ناديهم ... حتى أنفق فيه فضلا كاسدا
أرأيت أضيع من كريم راغب ... يدعو لخلته لئيما زاهدا
ومعرس بركابه فى منزل ... يلقى الصديق به عدواً حاسدا
عكس الأنام فإن سمعت بناقص ... فاعلم بأن لديه حظا زائدا
وتفاوت الأرزاق أوجب فيهم ... أن يجعلوه مصالحا ومفاسدا
ومعدد فى الفخر طارف ماله ... حتى تلوت عليه مجدا تالدا
طوقته بأوابد ولطالما ... أهديت أغلالا بها وقلائدا
مهلا فإنك ما تعد « مباركا » ... خالا ولا تحصى « سنانا » والدا
بيت له النسب الجلى ، وغيره ... دعوى تريد أدلة وشواهدا

وقال :

أستغفر الله لا فخر ولا شرف ... ولا وفاء ولا دين ولا أدب
كأنما نحن فى ظلماء داجية ... فليس ترفع عن أبصارنا السجف

تزيد بالبحث جهلا إن طلبت هدى   وهل يضىء لعين المدلج السدف
وفى الفلاسفة الماضين معتبر   فطالما قصدوا فيها وما عسفوا
وقد أتوك بمين من حديثهم   يكاد يضحك منه الحبر والصحف
ظن بعيد وأقوال ملفقة   تخفى على الغمر أحيانا وتنكشف
الأمر أكبر من فكر يحيط به   والعمر أقصر أن يلقى له طرف
أعظم بدائك إن حاولت واضحة   ومت به فعلى هذا مضى السلف
جاءت أحاديث عن قوم أظنهم   عاشوا طويلا وقالوا بعدما خرفوا
يدين قوم بأن الشهب خالدة   وعند قوم لها وقت ومنصرف
وما رضيت بعقلى فى جدالهم   ولا توهمت إلا غير ماوصفوا
ورب قوم أضاعونى وقد فهموا   قدرى فما أنكروا فضلى ولا اعترفوا

وقال على طريق الشعر المعروف باستغفر واستغفرى :

استغفر الله القديم وعذ به   من شر عاو فى الحطام منافس
وافعل جميلا لا يضع لك صنعه   واسمح بقوتك للضعيف البائس
واقنع ففى عيش القناعة نعمة   لا تتقى كفى الزمان الخالس
لا تركنن إلى المراء فإنه   سبب لكل تنافر وتشاوس
عاذت بنو حواء من إبليس فى الد   نيا وكم فيهم فنـون أبالس
درسوا العلوم ليملأوا بجدالهم   فيها صدور مراتب ومجالس
وتزهدوا حتى أصابوا فرصة   فى أخذ مال مساجد وكنائس (١)
إيوان كسرى صار مرتع ثلة   ودياره باتت مناخ عرائس
والحيرة البيضاء بدل أنسها   قدر أطاعته مدائن فارس
يا عقل مالك فى اللطائف منهج   فإذا عثرت فلا لعا للناعس
عندى لقد ذهب الذين تفكروا   فيها وما ظفروا بغير وساوس
ما قول بطليموس عنها حجة   عندى ولا المروى من رسطالس
جار الأنام فلا دلالة ناظر   تشفى العقول ولا إمارة قابس
لا تحفلن بما حوته صحائف   لهم وإن وجدت بخط دارس

---

(١) وينسب هذا البيت والذى قبله لابن خفاجة الأندلسى (راجع ديوان ابن خفاجة شاعر الأندلس م ٥٣٣ طبعة سنة ١٢٦٦ بمصر ص ٧٨) .

عجبا لهمام ينازع خصمه في آل يربوع وأسرة حابس
هيهات ماشرف الأصول بنافع حتى يكون ذوائب كمغارس
لا تفخرن وإن فضلت فبالتقى ناضل ، وفي بذل المكارم نافس

أسامة بن منقذ

ولد اسامة في يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ٤٨٨ هـ - يوليه سنة ١٠٩٥ م،من أسرة توارثت إمارة «شيزر» وهي مدينة في الشمال الغربي لحماة تبعد عنها خمسة عشر ميلا ، وتقع على هضبة يحيط بها نهر العاصي من جهات ثلاث، وتنهض فيها قلعة شامخة حصينة ، وكان لهذه القلعة قيمتها في عصر الحروب الصليبية لمركزها الحربي الحصين ، ومكانها بين الولايات السورية ، فكانت مطمح الطامعين من أمراء المسلمين والصليبيين . ولد أسامة لأب صالح ، يقضي وقته بين تلاوة القرآن ، والصيد في النهار ، ونسخ كتاب الله في الليل ، ووالدة شهرت بالشجاعة ، والنخوة ، والاقدام ، وقد مركه والده منذ صغره يقتحم الأخطار ، ويركب الصعب من الأمور ، فلا ينهاه عن أن يمضي إلى عمل يريده أو عقبة يقتحمها وهو ثابت رابط الجأش ، ولا يحول بينه وبين مصارعة الأسود بشيزر ، وقتل ما يصرعه منها . . وهكذا شب جريئا لا يهاب . ومما ساعده على ذلك أنه كان يشترك مع أبيه في رياضته المفضلة عنده ، وهي الصيد .

ومع هذه النشأة التي تعد للحرب والنضال تلقى أسامة الثقافة التي كان يتلقاها الأمراء في ذلك العصر ، فدرس الحديث والأدب والفقه والنحو واللغة وحفظ الكثير من الشعر ، وأخذ من ذلك بنصيب واف يشهد له به كتبه وما ضمنت من أحاديث كثيرة منوعة الأغراض

كان أسامة أثيرا لدى عمه أبي العساكر سلطان حاكم « شيزر » ولما لم يكن له عقب اتخذ أسامة أبناله ، وكان يرى فيه أمير المستقبل لشيزر ، ووارث الملك من بعده فكان يكلفه من الأمور مايتطلب شجاعة وجرأة . واشترك أسامة في المعارك التي دارت بين أسرته وبين الصليبيين دفاعا عن مدينتهم شيزر . وعاش أسامة في تلك المدينة بين حب والده وعطف عمه ، غير أن هذا لم يلبث بعد أن رزق أولادا في آخر أمره ، أن دب الوهن والفتور إلى العلاقة التي تربطه بأسامة بدلا من حبه وعطفه عليه ، وبدأ الحسد والحقد يأخذان مكانهما من قلبه خوفا على أولاده من

مكانة أسامة ، وحذرا أن يئول الملك إليه دونهم ، فمضى أسامة إلى الموصل لدى عماد الدين زنكى الذى صار أكبر أبطال الحروب الصليبية فى وقته وأول خطر حقيقى داهم للصليبيين ، فانتظم أسامة فى جنده وحارب تحت قيادته فى عدة معارك ، ولكنه لم ينس وطنه الأول شيزر عند ما هاجمه الفرنج والروم سنة ٥٣٢ هـ ١١٣٨ م ، فقد مضى إليه وأبلى بلاء حسنا فى الدفاع عنه . وربما كان قد عزم على البقاء فى شيزر بين أهله الذين فقدوا والده سنة ٥٣١ هـ ، غير أن عمه أبا العساكر لم يرض عن مقام أسامة بشيزر فقد أيقن أنه أصبح خطرا على ملكه وأن ليس لأبنائه سلامة إذا ظل أسامة فى شيزر ، فأمره وإخوته بالرحيل فتشتتوا فى البلاد ، وكان فى ذلك الخير لهم ، فإنهم نجوا من الزلازل التى هدمت شيزر وقضت على بنى منقذ بأسرهم وذهبت بملكهم سنة ٥٥٢ هـ .

مضى أسامة يوم أخرج من شيزر إلى دمشق ، واتصل بحاكمها معين الدين ، واعتمد هذا الحاكم على أسامة فى تصريف أمور رعيته بدمشق . ثم سافر إلى القاهرة عام ٥٣٩ هـ ، وبعد حين عاد لدمشق ، وتوفى بها عام ٥٧٨ هـ - ١١٨٨ م

وقد ترك أسامة عدة كتب منها :

١ — كتاب الاعتبار .

٢ — كتاب لباب الآداب .

٣ — كتاب العصا ، وقد أورد فيه شواهد نثرية وشعرية تتحدث عن العصا منذ عرفت فى التاريخ ، وأثبت فيه أيضاً كثيراً من شعره .

٤ — كتاب البديع ، وقد جمع فيه ما تفرق فى كتب العلماء المتقدمين ، المصنفة فى نقد الشعر ، وذكر محاسنه وعيوبه ، وقد انتقد هذا الكتاب ابن أبى الإصبع فى كتاب بدائع القرآن ، ومن الكتاب نسخة خطية بدار الكتب .

٥ — كتاب المنازل والديار ، قالت عنه دائرة المعارف الاسلامية : إنه ترجمة كتبها عن نفسه عام ٥٦٨ هـ - ١١٧٢ م فى أثناء إقامته فى حصن كيفا ، والدافع له على كتابته زلزال أغسطس سنة ١١٥٧ م ، وهو يتضمن شواهد شعرية كثيرة عن المنازل والديار والأطلال والربوع والدمن والرسوم وغيرها ، وبالمتحف الآسيوى بلننغراد نسخة منه .

٦ — مختصر مناقب عمر بن الخطاب لابن الجوزى .

٧ — مختصر مناقب عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى أيضا .. والكتابان مخطوطان بدار الكتب .

٨ — تاريخ القلاع والحصون .
٩ — أخبار النساء .
١٠ — التاريخ البدرى ، وقد جمع فيه أسماء من شهد بدراً من الفريقين .
١١ — التجائر المربحة والمساعى المنجحة .
١٢ — النوم والأحلام .
١٣ — الشيب والشباب .
١٤ — التأسى والتسلى .
١٥ — ذيل يتيمة الدهر .
١٦ — أخبار النساء .
١٧ — نصيحة الرعاة .

ومن شعر أسامة :

أشكو زماناً قضى بالجور فى ، ولم   يزل يجور على مثلى ويعتسف
وقد دعوتك مظلوما ومرتجيا   وفى يديك الغنى والعدل والخلف

ومنه :

والندى طبعك الكريم ، فما أهـ   ـنى نوالا تنيـــله وتثيب
جاءنى والبعـاد دونى كما جا   بت فيافى البلاد ريح هبوب
وعجيب أن المواهب تسرى   ويقيم المسترفد الموهوب

ومن شعره أيضا :

لما رأيت صروف هـ   ـذا الدهر تلعب بالبرايا
يعلو بها هذا ، ويهبط   ذا ، وقصرهم المنايا
ورأيته مسترجعا   نزر المواهب والعطايا
متغاير الأحوال مخـ   ـتلف الضرائب والسجايا
لانعمـة فيـه تدو   م . ولا تدوم به البلايا
لم أغتبط فيه بفا   ئدة ، ولم أخش الرزايا

وقال :

إذ ماعدا خطب من الدهر فاصطبر فإن الليالى بالخطوب حوامل
فكل الذى يأتى به الدهر زائل سريعا ، فلا تجزع لما هو زائل

وقال :

والذى أوهم عينى أن فى النوم قذاها
يا ملولا قلما استر عى عهودا ، فرعاها
يا ظلوما كلما استعطفته ، صد وتاها
زدت فى تيهك والشىء إذا زاد تناهى
تنقضى دولة الحسن ، وإن طال مداها
راحتى لو سمع الشكوى إليه ، ووعاها
غير أن الصم لا تسمع دعوى من دعاها
وهو لو نادى عظامى رمة لبى صداها

تراجم الأدباء والكتاب والنقـــاد

الأصمعي النـــاقد الراوية

هو الامام أبو سعيد عبد الملك بن قريب (١٢٢ — ٢١٦ هـ) ، ينتهي نسبه إلى مضر بن نزار ، وكان راوية اللغة والأدب ، ذواقة للشعر ، وإماما في الأخبار والنوادر والملح والغرائب ، وكان كثير الحفظ حتى قيل إنه كان يحفظ ستة عشر ألف ارجوزة ، وأنه لم يكن يدعي شيئا من العلوم إلا وله به معرفة تامة . . وكان حسن العبارة والرواية . . وهو من أهل البصرة ، قدم بغداد في أيام الرشيد ، وكان المأمون يجله ويكبره ، وطلبه أن يأتي اليه فلم يفعل ، واحتج بكبره وضعفه فكان المأمون يجمع المشكل من المسائل ويرسل به اليه ليجيب عنه . وتوفي بالبصرة وقيل بمرو .

وينسب الأصمعي إلى جده أصمع ، وهو من قيس .. ونشأ بالبصرة وتأدب على علمائها وأئمتها ، وكان يقول : « أحفظ ستة عشر ألف أرجوزة » ، وكان الرشيد يسميه شيطان الشعر .. وقد امتاز بطلاوة الأسلوب وجمال الحديث وحلاوة التعبير ، حتى قال الشافعي فيه : « ما عبر أحد عن العرب بأحسن من عبارة الأصمعي » . . وسئل أبو نواس عنه وعن أبي عبيدة (١) فقال : أما أبو عبيدة فاذا أمكنوه قرأ عليهم أخبار الأولين والآخرين ، وأما الأصمعي فبلبل يطربهم بنغماته » . . وكان ثقة في روايته وأثنى عليه الشافعي وأحمد بن حنبل ووصفوه بالصدق ، وكان يفضل خلفا (٢) في علم الشعر ونقده ، وكان مقصراً في العروض . . وكان إسحاق الموصلي يعظمه ويأخذ عنه ويتتلمذ له .

---

(١) هو معمر بن المثنى التيمي بالولاء (١١٤ — ٢٠٨ هـ) ، أخذ عن يونس وأبي عمرو بن العلاء وأخذ عنه كثير من الأعلام . . وكان من أعلم الناس باللغة وأخبار العرب وأنسابها ، وهو أول من صنف في غريب الحديث ، وكان أعلم الناس بالانساب والأيام ، وكان أبو نواس يتتلمذ عليه ، قدم بغداد من البصرة في عهد الرشيد .. وله مصنفات كثيرة .

(٢) هو خلف الأحمر المتوفى عام ١٨٢ هـ الراوية الأديب الناقد المشهور .

وقد تتلمذ الأصمعى على أشياخ عصره ، من مثل عبد الله بن عون وشعبة بن الحجاج وحماد بن سلمة وحماد بن زيد والخليل بن أحمد . . وتتلمذ عليه جمهور كثير من الرواة ، وفى مقدمتهم ابن أخيه عبد الرحمن بن عبد الله وأبو عبيد بن القاسم بن سلام وأبو حاتم السجستانى وأبو الفضل الرياشى وأحمد بن محمد اليزيدى ونصر بن على الجهضمى ، والتوزى وسواهم .

وللأصمعى مؤلفات كثيرة بعضها لايزال مخطوطا ، ومنها كتاب معانى الشعر (٣) وكتاب الأجناس ، وكتاب الأنواء وكتاب ، الصفات ، وكتاب الميسر والقداح وكتاب جزيرة العرب ، وكتاب الغريب وهو مخطوط فى الاسكوريال ، وكتاب رجز العجاج وهو مخطوط بدار الكتب المصرية . . ومما طبع من آثار الأصمعى هذه الكتب :

١ — كتاب النخل والكرم — طبع ببيروت عام ١٩٠٢

٢ — كتاب النبات والشجر — طبع ببيروت مع مجموعة من كتبه

٣ — كتاب الفرق — وهو مطبوع بفينا

٤ — كتاب الدارات — مطبوع ببيروت فى مجموعة من كتبه

٥ — كتاب الشاء مطبوع عام ١٨٩٦م

٦ — كتاب الخيل — مطبوع بفينا

٧ — كتاب خلق الإنسان وهو مطبوع ببيروت مع مجموعة من كتبه .

٨ — كتاب الابل — مطبوع فى بيروت

٩ — كتاب أسماء الوحوش — مطبوع

١٠ — كتاب الأصمعيات وهو مجموع مختارات من الشعر ، طبعت فى لبسك سنة ١٩٠٢ .

ولما توفى الأصمعى رثاه بعض الشعراء بهذه الابيات :

أسفت لفقد الاصمعى لقد مضى … حميدا له فى كل صالحة سهم
تقضت بشاشات المجالس بعده … وودعنا إذ ودع الانس والعلم
وقد كان نجم العلم فينا حياته … فلما انقضت أيامه أفل النجم

ويقول فيه الشريشى شارح المقامات : « كان الأصمعى حافظا عالما فطنا بارعا بأشعار العرب وأخبارها ، كثير التطوف بالبوادى لاقتباس علومها ، وتلقى

---

(١) ٨٣ الفرست لابن النديم :

أخبارها ، فهو صاحب غرائب الأشعار وعجائب الأخبار ، وقدوة الفضلاء وقبلة الأدباء ، قد استولى على الغايات فى حفظ اللغات ، وضبط العلوم الأدبيات ، صاحب دين متين ، وعقل رصين ، وكان خاصا بالرشيد ، آخذا لصلاته » .

وللأصمعى كتاب « فحولة الشعراء » وهو كتاب فريد فى بابه وموضوعه ، وهو أساس لكتب النقد التى ألفت بعد عصر الأصمعى ... وقد عثرنا على نسخة خطية من الكتاب فى مكتبة الأزهر ضمن مجموعة محفوظة برقم ١١٨١ مجاميع أباظة ٦٣٢٣ ، كما عثرنا على نسخة خطية أخرى من الكتاب فى المكتبة التيمورية بدار الكتب المصرية ، وقد نسخت عام ١٣٣٩ هـ عن نسخة مكتبة الأزهر غالبا ، لأنها النسخة الوحيدة القديمة المخطوطة فى مكتبات مصر ، والذى نسخها هو محمد أبو العينين عطية ، وخطها خط النسخ الواسع الجيد ، وقد توليت أنا وزميلى الاستاذ طه محمد الزينى نشر الكتاب عام ١٩٥٣ لأول مرة .

وهو ثابت النسبة للأصمعى ، وقد نقل المرزبانى عنه بعض دراساته وآرائه النقدية ، وذلك فى كتابه المشهور « الموشح » .

والكتاب برواية الامام الجليل الراوية أبى حاتم السجستانى العالم اللغوى الثقة ، المتوفى عام ٢٥٥ هـ عن الامام الأصمعى .

وطريقه طريق الحوار والمساءلة ، يسأل أبو حاتم الأصمعى عن أحد الشعراء هل هو فحل أو لا ؟ أو هل هو من الفحول ؟ فيجيبه الأصمعى ويرشده إلى ما يرى ، مستدلا على رأيه ببعض ما يؤثر للشاعر من قصائد أو أبيات جيدة تسلكه فى عداد الفحول ، وينبه على الشاعر الذى لم يبلغ منزلة الفحول ، مبينا تقصيره وحاجته إلى الزيادة على ما قال حتى يصير فحلا ، وفى بعض الأحيان يتهكم الأصمعى على بعض الشعراء تهكما لاذعا كما فعل مع زهير الشاعر الجاهلى المشهور ، الذى قال فيه إنه لا يصلح أن يكون أجيراً للنابغة ، وقد يبالغ الأصمعى فى تقدير ما يروقه من آثار أدبية شعرية فيرفعه إلى أعلى منزلة ، ويقول : ليس فى الدنيا مثل هذا البيت ، أو ليس فى الدنيا مثل هذه القصيدة . والكتاب على العموم صورة واضحة لنفس الأصمعى وعلمه بالأدب والشعر والنقد .

وموضوع الكتاب ، كما علمنا ، فحولة الشعراء أو فحولهم . ويجمع الفحل على فحول وفحولة ، وفحول الشعراء — كما فى اللسان — هم الذين غلبوا على من

هاجاهم مثل جرير والفرزدق وأشباههما ، وكذلك كل من عارض شاعرا فغلب عليه مثل علقمة بن عبدة ، وكان يسمى فحلا لأنه عارض امرأ القيس فى قصيدته البائية المشهورة التى يقول فيها « خليلى مرا بى على أم جندب » ، وذلك حيث يقول فى قصيدته : « ذهبت من الهجران فى غير مذهب » . والفحول أيضا كما فى اللسان الرواة ، الواحد فحل . ويريد الأصمعى بالفحل ما كان له مزية على غيره من الشعراء كمزية الفحل على سواه. والكتاب أثر ادبى ونقدى نفيس ، وقيمته فى تراثنا الأدبى ثمينة للغاية ، بل إنه أصل نادر ، وكتاب خصب ، وكانت المكتبة العربية فى مسيس الحاجة إليه ، خاصة وأنه أقدم الكتب التى ألفت فى النقد ودراسة الشعراء فى مطلع العصر العباسى .

وللأصمعى روايات كثيرة مدونة فى مصادر الأدب وأصوله ، وهى تدور حول الأدب والشعر والنقد واللغة وأخبار العرب وأيامهم، ولا بأس أن نذكر بعضا منها :

قال الأصمعى(١): قصدت فى بعض الأيام رجلا كنت أغشاه لكرمه ، فوجدت على بابه بواباً ، فمنعنى من الدخول إليه ، ثم قال : والله يا أصمعى ما أوقفنى على بابه لأمنع مثلك إلا لرقة حاله ، وقصور يده ، فكتبت رقعة فيها :

إذا كان الكريم له حجاب فما فضل الكريم على اللئيم ؟

ثم قلت له : أوصل رقعتى إليه ، ففعل وعاد بالرقعة ، وقد وقع على ظهرها :

إذا كان الكريم قليل مال تحجب بالحجاب عن الغريم

ومع الرقعة صرة فيها خمسمائة دينار . فقلت : والله لأتحفن المأمون بهذا الخبر ، فلما رآنى قال : من أين يا أصمعى ؟ قلت : من عند رجل من أكرم الأحياء ، حاشا أمير المؤمنين . قال : ومن هو ؟ فدفعت إليه الورقة والصرة ، وأعدت عليه الخبر . فلما رأى الصرة قال : هذا من بيت مالى ، ولا بد لى من الرجل ! فقلت : والله يا أمير المؤمنين إنى أستحيي أن تروعه(٢) برسلك ، فقال لبعض خاصته : امض مع الأصمعى ، فاذا أراك الرجل ، فقل له : أجب أمير المؤمنين من غير إزعاج ! فلما حضر الرجل بين يدى المأمون قال له : أنت الذى رفعت لنا بالأمس وشكوت رقة الحال ، وأن الزمان قد أناخ عليك بكلكله(٣) ، فدفعنا إليك هذه

---

(١) ثمرات الأوراق للحموى ص ٢٣٢ ج ١

(٢) روعه : أفزعه (٣) الكلكل : الصدر

الصرة لتصلح بها حالك ؟ فقصدك الأصمعى ببيت واحد ، فدفعتها اليه ! فقال : نعم يا أمير المؤمنين ! والله ما كذبت فيما شكوت لأمير المؤمنين من رقة الحال ، لكنى استحييت من الله تعالى أن أعيد قاصدى إلا كما أعادنى أمير المؤمنين، فقال له المأمون: لله أنت ؟ فما ولدت العرب أكرم منك !

وروى (١) الأصمعى قال : لقيت أعرابيا بالبادية فاسترشدته إلى مكان فأرشدنى وأنشدنى :

ليس العمى طول السؤال وإنما ... تمام العمى طول السكوت على الجهل
فكن سائلا عما عناك فإنما ... خلقت أخا عقل لتسأل بالعقل

ثم رجعت إلى البصرة فمكثت بها حينا ، ثم قدمت البادية ، فإذا الاعرابى جالس بين ظهرانى قوم وهو يقضى بينهم ، فما رأيت قضية أخطات قضية الصالحين من أقضيته ، ثم جلست اليه وقلت : يرحمك الله أما من رشوة أما من هدية ! أما من صلة ! فقال : إذا جاء هذا ذهب التوفيق ، فشكوت اليه ما ألقى من عذل حليلة لى إياى فى طلب المعيشة ، فقال : لست فيها بأوحد وإنى لشريكك ، ولقد قلت فى ذلك شعراً ، قلت : أنشدنيه فأنشدنى :

باتت تعيرنى الاقتار والعدما ... لما رأت لأخيها المال والخدما
عنف لرأيك ما الأرزاق من جلد ... ولا من العجز بل مقسومة قسما
يا أمة الله إنى لم أدع طلباً ... للرزق قد تعلمين الشرق والشأماً

وكان الأصمعى كثير العناية بالرواية ، يذهب إلى البادية ، وإلى كل الجهات ، ليسمع خبراً ، أو يرى أثراً ، أو ينصت للهجة ، أو يحادث عجوزاً ، أو يتحدث مع رجل ؛ وكان يتخذ من ذلك مادة لسمره فى مجالس الخلفاء ، وقصور الأمراء .

قال الأصمعى(٢) : دخلت بعض مقابر الأعراب، ومعى صاحب لى، فإذا جارية على قبر كأنها تمثال ، وعليها من الحلى والحلل مالم أر مثله ، وهى تبكى بعين غزيرة وصوت شجى ! فالتفت إلى صاحبى فقلت : هل رأيت أعجب من هذه ؟ قال : لا والله

---

(١) أمالى المرتضى ص ١٤٠ جـ ٢ .

(٢) العقد الفريد ص ٢٦ جـ ١

ولا أحسبنى أراه ، ثم قلت لها : يا هذه إنى أراك حزينة وما عليك زى الحزن ! فأنشأت تقول :

فان تسألانى فيم حزنى فاننى رهينة هـــذا القبر يافتيان
وإنى لأستحييه والترب بيننا كما كنت أستحييه حين يرانى

ثم اندفعت فى البكاء وجعلت تقول :

يا صاحب القبر يامن كان ينعم بى بالا ويكثر فى الدنيا مواساتى
قد زرت قبرك فى حلىِ وفى حللى كأننى لست من أهل المصيبات
أردت آتيك فيما كنت أعرفه أن قد تسر به من بعض هيئاتى
فمن رآنى رأى عبرى مولهة عجيبة الزى تبكى بين أموات !

وقال الأصمعى(١) : دفعت يوما فى تلسّى بالبادية إلى واد خلاء ، لا أنيس به إلا بيت معتنز(٢) ، بفنائه أعنز ، وقدظمئت ، فيممته فسلمت ، فاذا عجوز قد برزت كأنها نعامة راخم(٣)، فقلت هل من ماء ؟ فقالت : أو لبن ؟ فقالت: ماكان بغيتى إلا الماء فاذا يسر الله اللبن فانى إليه فقير

فقامت إلى قعب فأفرغت فيه ماء ونظفت غسله ثم جاءت إلى الأعنز فتغبرتهن(٤)، حتى احتلبت قراب(٥) ملء القعب ثم أفرغت عليه ماء حتى رغا وطفت ثمالته(٦) كأنها غمامة بيضاء، ثم ناولتنى إياه فشربت حتى تحببت(٧) ريا واطمأننت

فقلت : إنى أراك معتنزة فى هذا الوادى الموحش والحلة(٨)منك قريب، فلو انضممت إلى جنابهم(٩) فأنست بهم ، فقالت : يا ابن أخى ! إنى لآنس بالوحشة وأستريح إلى الوحدة ويطمئن قلبي إلى هذا الوادى الموحش ، فأتذكر من عهدت، فكأنى أخاطب أعيانهم وأتراءى أشباحهم ، وتتخيل لى أندية رجالهم وملاعب ولدانهم ومندى أموالهم

---

(١) الأمالى ص ٧ ج ٢ (٢) معتنز : منفرد (٣) الراخم : التى تحضن بيضها (٤) تغبرتهن : احتلبت الغبر وهو بقية اللبن فى الضرع (٥) قراب : قريب (٦) الثمالة : الرغوة (٧) تحببت : امتلأت (٨) الحلة : وجمعها حلال : بيوت الناس (٩) الجناب : فناء الدار

والله يابن أخى ، لقد رأيت هذا الوادى بشع(١) اللديدين(٢) بأهل أدواح(٣) وقباب ، ونعم (٤) كالهضاب ، وخيل كالذئاب ، وفتيان كالرماح ، يبارون الرياح ، ويحمون الصباح ، فأحال عليهم الجلاء قما (٥) بغرقة ، فأصبحت الآثار دارسة ، والمحال طامسة ، وكذلك سيرة الدهر فيمن وثق به .

ثم قالت : ارم بعينيك فى هذا الملا (٦) المتباطن (٧) ، فنظرت فاذا قبور نحو أربعين أو خمسين . فقالت : ألا ترى تلك الأجداث ؟ قلت : نعم . قالت : ما انطوت إلا على أخ أو ابن أخ ، أو ابن عم ، فأصبحوا قد ألمأت (٨) عليهم الأرض ، وأنا أترقب ما غالهم . انصرف راشداً رحمك الله !

وقال الأصمعى(٩): سرت فى تطوافى فى العرب بجبلى طيء : فدفعت إلى قوم منهم يحتلبون اللبن ، ثم يصيحون : الضيف الضيف ! فان جاء من يضيفهم وإلا أراقوه فلا يذوقون منه شيئا دون الضيف ، إلا أن يجهدهم الجوع . ثم دفعت إلى رجل من ولد حاتم بن عبد الله ، فسألته القرى فقال : القرى والله كثير ولكن لا سبيل إليه ، فقلت : ما أحسب عندك شيئا ، فأمر بالجفان ، فأخرجت مكرمة بالثريد ، عليها وذر (١٠) اللحم ، وإذا هو جاد فى المنع ، فقلت : والله ما أشبهت أباك حيث يقول :

وأبرز قدرى بالفناء قليلها يرى غير مضنون به وكثيرها

فقال : إلا أشبهه فى هذا ، فقد أشبهته فى قوله :

أماوى إما مانع فمبين وإما عطاء لا ينهنهه(١١) الزجر

فأنا والله مانع مبين . فرحلت عنه . ودفعت إلى امرأة من ولد ابن هرمة فسألتها القرى ، فقالت : إنى والله مرملة مسنتة (١٢) ، ما عندى شيء ، فقلت : أما عندك جزور ؟ فقالت : والله ولا شاة ولا دجاجة ولا بيضة ! فقلت : أما ابن هرمة أبوك ؟ فقالت : بلى والله ! قلت : قاتل الله أباك ! ما كان أكذبه حيث يقول :

---

(١) بشع : ملآن (٢) اللديدان : الجانبان (٣) الأدواح : الأشجار العظيمة (٤) الهضاب : الجبال الصغار (٥) قما : كنسا (٦) الملا : مااتسع من الأرض (٧) المتباطن : المتطامن (٨) ألمأت : احتوت .

(٩) ذيل الأمالى ص ١١١ — الطبعة الأميرية .

(١٠) الوذرة من اللحم : القطعة الصغيرة لا عظم فيها (١١) ينهنهه : يكفه

(١٢) أسنتت : أصابتها السنة وهى الجدب .

لا أمتع العوذ (١) بالفصال ولا أبتاع إلا قريبة الأجل
إنى إذا ما البخيل آمنها باتت ضموزاً (٢) منى على وجل

ووليت، فنادت: أربع أيها الراكب. فعله والله ذلك أقله عندنا، فقلت: إلا تكونى أوسعتنا قرى، فقد أوسعتنا جواباً!

ابن المقفع

هو أبو محمد عبد الله بن المقفع أحد بلغاء الكتاب الأولين والمترجمين المتأدبين وهو من سلالة فارسية من أهل خوزستان التى سمتها العرب الأهواز، وهى ولاية فارسية شرقى البصرة. وكان أبوه المقفع مجوسيا يسمى داذويه، وسبب تلقيبه بالمقفع أنه كان يعمل فى جباية الخراج لولاة العراق زمن بنى أمية، فاختان بعض مال الخراج فضربه الوالى ضربا تقفعت منه يده، وولد له ابنه هذا حوالى سنة ١٠٦ هـ، وسماه روزبه، فنشأ بالبصرة وهى يومئذ تعج بفصحاء العرب وخطبائها ونحاتها وشعرائها وبالوافدين عليها من فصحاء أعراب البادية، وأخذ ثقافته عن كل هؤلاء وتعلم على أبيه صناعة الكتابة واللغة الفارسية وآدابها، حتى بذ شبان عصره، فاستكتبه داود بن يوسف بن عمر بن هبيرة أحد ولاة بنى أمية على العراق، ثم اتخذه فى عصر الدولة العباسية عم الخليفة أبى جعفر المنصور كاتبا له أيام ولايته على كرمان من بلاد فارس وعلى يديه أسلم، وتسمى عبد الله وتكنى أبا محمد، ثم ألزمه أخوه إسماعيل بعض أولاده ليؤدبهم

ثم خدم آخر حياته أخاهما سليمان بن على والى البصرة. واتصل بأبى جعفر المنصور وهو فى خدمة أعمامه، فكلفه ترجمة كثير من كتب الأدب والفلسفة اليونانية المنقولة قديما إلى الفارسية، واغتاله خفية سفيان بن معاوية والى البصرة بعد عزل سليمان، لضغينة عليه ولاتهامه بالزندقة والكيد للإسلام وذلك سنة ١٤٢ هـ.

وكان ابن المقفع نادرة فى الذكاء والإحاطة بعلوم اليونان وأدب الفرس، وكان أمة فى البلاغة، مع الإحكام ورصانة القول وشرف المعانى، وعبارته فى كليلة ودمنة ليس لها نظير فى السهولة ورشاقة الأسلوب مع بيان غرض وصحة مبنى، وقد مضى على كتابتها نحو مائتى سنة وألف، ولا يزال شبان مدارسنا يقرؤونها ويفهمونها معجبين بها كأنما كتبت لأطفال هذا العصر خاصة، ولا توصف بلاغته بأحسن مما وصف هو البلاغة حيث يقول: «البلاغة هى التى إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها»، ولكن عبارته

(١) العوذ: الحديثات النتاج (٢) ضمز البعير: أمسك جرته فى فيه ولم يجتر

فى الحكمة المنقولة من اليونان أوالفرس لا تخلو من تصعب ، ولعل لحرصه على المحافظة على المعنى الأصلى أثرا فى جعل عبارته فيها ليست ناصعة البيان . وطبع له فى مصر كليلة ودمنة وكتاب الأدب الكبير وكتاب الأدب الصغير ، وله غيرهما رسائل وكتب وضعها أو ترجمها .. ولابن المقفع رسائل بليغة منها الطوال ، ومنها القصار .

أحمد بن يوسف

هو أبو جعفر أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح أحد فحول كتاب الرسائل فى دولة بنى العباس . وآل صبيح هم أهل بيت اشتهر بالكتابة والأدب والعمل الرفيع فى دواوين الخلفاء أكثر من قرن ، وكان جدهم صبيح مولى قبطيا لبنى عجل أقام بالكوفة ونشأبها ابنه القاسم عربى اللسان بليغ الكتابة .وخدم فى دواوين بنى أمية ، وخلفه فى صناعته ابنه يوسف ،حتى جاءت الدولة العباسية فخدم بها ونشأ له ابنه أحمدأبلغ آل بيته،إذ تخرج على أيدى الرؤساء من البرامكة،وتقلبت به الأحوال حتى صار كاتبا للفضل بن سهل وزير المأمون ، ثم اتخذه المأمون رئيس ديوان رسائله ، فصدرت عنه أبلغ الكتب والتوقيعات،حتى غضب عليه المأمون غضبة مات فى أثرها سنة ٢١٣...وكان أحمد بن يوسف أحد الذين يضرب بهم المثل فى البلاغة ، وأحد الذين ملكوا ناصية الكتابة فى الايجاز والاطناب فى جزالة لفظ وسلاسة أسلوب وجودة معنى . ومن أشهر رسائله الرسالة التى كانت سبب رقيه فى دولة المأمون،وقد كتبها على لسان طاهر بن الحسين إلى المأمون يخبره بقتل الأمين وهى: «أما بعد فان المخلوع وإن كان قسيم أمير المؤمنين فى النسب واللحمة،فقد فرق حكم الكتاب بينه فى الولاية والحرمة،لمفارقته عصمة الدين،وخروجه عن إجماع المسلمين. قال الله عز وجل لنوح عليه السلام فى ابنه : « يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح » . ولا صلة لأحد فى معصية الله ولا قطيعة ما كانت فى ذات الله . وكتبت إلى أمير المؤمنين ، وقد قتل الله المخلوع وأحصد لأمير المؤمنين أمره ، وأنجز له وعده ، فالأرض بأكنافها أوطأ مهاد لطاعته ، وأتبع شىء لمشيئته ».

عمرو بن مسعدة

هو أبو الفضل عمرو بن مسعدة بن سعيد بن صول أبلغ كتاب الايجاز . وهو ابن عم إبراهيم بن العباس الصولى . وجدهما صول تركى من أشراف جرجان ، أسلم

على يديزيد بن المهلب بن أبى صفرة فى أثناء فتوحه بخراسان ، وخـــدم أحفاده فى دواوين الدولة العباسية ، فكان عمرو هذا كاتب التوقيعات بين يدى الوزير جعفر البرمكى وزير الرشيد ، وظهرت له نجابته وهو صغير ، قال عن نفسه : كنت أوقع بين يدى جعفر ، فرفع اليه غلمانه ورقة يستزيدونه فى رواتبهم فرمى بها إلى وقال : أجب عنها فكتبت : « قليل دائم خير من كثير منقطع » ،فضرب بيده على ظهرى وقال : أى وزير فى جلدك .. وصدقت الأيام فيه ظن جعفر فصار بعد أحدوزراء المأمون الثقات عنده ، وكان يعجبه بلاغته فى إيجازه .

وتوفى فى غزوة من الغزوات التى غزاها المأمون ببلاد الروم ببلدة ادنة سنة ٢١٧ .. ومن رسائله الموجزة: ماكتب به على لسان المأمون إلى أحد عماله وصية بشخص : « كتابى اليك كتاب واثق بمن كتب اليه، معنى بمن كتب له ، ولن يضيع حامله بين الثقة والعناية » .. وكتب مرة وهوعلى رأس جيش نفدت أرزاقه رسالة إلى الخليفة المأمون يستمده بالمال وأرزاق الجند لأنهم هموا بعصيان أوامره :

« كتابى إلى أمير المؤمنين ومن قبلى من قواده وسائر أجناده فى الانقيـاد والطاعة على أحسن ما تكون عليه طاعة جند تأخرت أرزاقهم واختلت لذلك أحوالهم » .. فأعجب المأمون ببلاغته وإيجازه، وأمر للجند قبله بعطائهم لسبعة أشهر .

وحدث أحمد بن أبى خالد الأحول : أنه سمع المأمون يوماً — وعنده على ابن هشام ، وأخواه — قد ذكر عمرو بن مسعدة (١) فاستبطأه ، وقال : أيحسب عمرو أنى لا أعرف أخباره ، وما يجبى إليه ، وما يعامل به الناس ! بلى والله ! ونهض وانصرفنا . فقصدت عمراً من ساعتى ، فخبرته بما جرى ، وأنسيت أن أستحله من حكايته عنى ؛ فراح عمرو إلى المـأمون ، فظن المـأمون أنه لم يحضر إلا لأمر مهم ، لموقعه من الرسائل والمظالم والوزارة، فأذن له .

فلما دخل عليـه وضع سيفه بين يديه ، وقال : يا أمير المؤمنين ، أنا عائذ بالله من سخطه ، ثم عائذ بك من سخطك . يا أمير المؤمنين ، أنا أقل من أن يشـكونى أمير المؤمنين إلى أحد ، أو يسر على ضغنا يبعثه بعض الـكلام على إظهاره ما يظهر منه ! فقال : وما ذاك ؟ قال عمرو : فخبرته بما بلغنى ولم أسم له مخبرى ، فقال لى : لم يكن الأمر كما بلغك ، وإنما كانت جملة من تفصيل كنت على أن أخبرك به ، وإنما

---

(١) وزير المأمون وأحد الـكتاب البلغاء توفى سنة ٢١٧ هـ .

أخرج منى ما خرج معنى تجاريناه . وليس لك عندى إلا ما تحب ، فليفرخ روعك، وليحسن ظنك ، فأعدت الكلام ، فما زال يسكن منى ، ويطيب من نفسى ، حتى تحلل بعض ما كان فى قلبى ، ثم بدأ فضمنى إلى نفسه : وقبلت يده ، فأهوى ليعانقنى، فشكرته ، وتبينت فى وجهه الحياء والخجل مما تأدى إلى . قال أحمد : فلما غدوت على المأمون ، قال لى : يا أحمد ، أما لمجلسى حرمة ؟ فقلت : يا أمير المؤمنين ، وهل الحرم إلا لما فضل عن مجلسك ! قال : ما أراكم ترضون بهذه المعاملة فيما بينكم ! قلت : وأية معاملة يا أمير المؤمنين ؟ هذا كلام لا أعرفه ، قال : بلى ، أما سمعت ما كنت فيه أمس من ذكر عمرو ! ذهب بعض من حضر من بنى هاشم فخبره به ، فراح إلى عمرو مظهراً منه ما وجب عليه أن يظهره ، فدفعت منه ما أمكن دفعه ، وجعلت أعتذر إليه منه بعذر قد تبين فى الخجل منه ! وكيف يكون اعتذار إنسان من كلام قد تكلم به ! ألا يتبين فى عينيه وشفتيه ووجهه ، ولقد أعطيته ما كان يقنع منى بأقل منه ، وما حدانى عليه إلا ما دخلنى من الخساسة ، وإنما كان نطق به اللسان من غير روية ولا احتمال مكروه به .

فقلت : يا أمير المؤمنين ، أنا أخبرت عمراً به لا أحد من ولد هاشم ، فقال : أنت ! قلت : أنا ! فقال : ما حملك على ما فعلت ؟ فقلت : الشكر لك والنصح ، والمحبة لأن تتم نعمتك على أوليائك وخدمك ، أنا أعلم أن أمير المؤمنين يحب أن يصلح له الأعداء والبعداء ، فكيف الأولياء والأقرباء ، ولا سيما مثل عمرو فى دنوه من الخدمة وموقعه من العمل ، ومكانه من رأى امير المؤمنين ، أطال الله بقاءه ! سمعت أمير المؤمنين أنكر منه شيئا فخبرته به ليصلحه ، ويقوم من نفسه أودها لسيده ومولاه ، ويتلافى ما فرط منه ، ولا يفسده مثله ، وإنما يكون ما فعلت عيباً لو أشعت سرا فيه قدح فى السلطان ، أو نقض تدبير قد استتب ، فأما مثل هذا فما حسبته يبلغ أن يكون ذنبا على .

فنظر إلى مليا ، ثم قال : كيف قلت ؟ فأعدت عليه ، ثم قال : أعد فأعدت ، فقال : أحسنت والله يا أحمد ! لما خبرتنى به أحب إلى من ألف ألف ، وألف ألف ، وألف ألف .

وعقد خنصره وبنصره والوسطى ، ثم قال : أما ألف ألف فلنفيك عنى سوء الظن ، وأطلق وسطاه ، وأما ألف ألف فلصدقك إياى عن نفسك . وأطلق البنصر ، وأما ألف ألف فلحسن جوابك ، وأطلق الخنصر ، وأمر لى بمال !

الجاحظ شيخ الكتاب والنقاد

— ١ —

كان الجاحظ أستاذ الثقافة الاسلامية فى النصف الأول من القرن الثالث ، وكان مجده الأدبى الذائع يعصف بمجد كل أديب ، ويدوى فى كل أفق ، ويرن صداه فى سمع كل كاتب وشاعر وخطيب .

وعاش الناس فى عصره وبعد عصره عيالا عليه فى البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة ، كما يقول ابن العميد ، وعدوا التلمذة عليه شرفا لا يعدله شرف ومجدا يدنيهم من بلاط الملوك ، وتعصب له كثير من رجالات الثقافة الاسلامية فى شتى عصورها ، فألفوا الكتب فى الاشادة به — كما فعل أبو حيان التوحيدى فى كتابه تقريظ الجاحظ — ، وبالغوا فى الاشادة به والثناء عليه حتى حسد ثابت بن قرة الأمة العربية عليه ، وحتى كان الخلفاء يهشون عند ذكره ونهج كبار الكتاب نهجه فى الثقافة والبيان ، وكان فخر الرجل فى أن يلقب بلقبه ، وأقبلوا على كتبه وأدبه يتثقفون بثقافتها ويرونها تعلم العقل اولا والأدب ثانيا ، وبلغ من اهتمام خاصة رجال الفكر الاسلامى بها أن كانوا يسألون الناس عن المفقود منها فى البيت الحرام وعرفات ، وكان معاصروه يحذرون خصومته حتى لا يسمهم بميسم الخزى والهوان إلى الأبد ، ومن ساء جده منهم فكان هدفا لسخريته اللاذعة ، سار على الأجيال صورة مشوهة وإساءة لا يغفرها الزمن ، كما فعل الجاحظ مع أحمد بن عبد الوهاب بطل رسالته الساخرة المتهكمة « التربيع والتدوير » . . وحسبك أن المأمون كان يقرأ تآليف الجاحظ ويثنى عليها ويستجيدها (١) .

ومجدالجاحظ الأدبى مجد خالص من شوائب العصبية وتمويه السياسة، وهو مجد بوأه صرحه الخالد : كفاءته الممتازة وثقافته النادرة وآثاره الفكرية والأدبية الممتعة ، فقد عاش الجاحظ محروما من كل شىء إلا من مجد الأدب ، وشهرة العلم ، ولم تبوئه مواهبه مقاعد الوزارة التى كان يصعد إليها فى عهده كثير من الكتاب ، ولم تنله كفايته الأدبية منزلة فى ديوان رسائل الدولة ، ولما صدر فيه أيام المأمون لم يبق فيه غير ثلاثة أيام استقال بعدها منه ، أو قل إنه حورب فيها

(١) ٢١١ ج ٣ البيان نشر السندوبى ط ١٩٢٧ .

من أجله ، حذرا من أن يأفل به نجم الكتاب كما كان يرى سهل بن هارون ، وهذا الاخفاق فى الحياة العامة الذى منى به الجاحظ فى عصره كان مما نعاه ابن شهيد عليه فى رسالته « الزوابع والتوابع » ، ومما جعله يخطىء من يذهب إلى تقديم الجاحظ على سهل بن هرون ، وإن كان تحكيم التوفيق فى الحياة فى وزن الشخصيات وتقديرها ضلالا وغبنا .

ولكن ما سر هذا الاخفاق مع هذه الشهرة البعيدة والمجد الذائع ؟ رأى ابن شهيد من قبل أن حرمان الجاحظ من شرف المنزلة بشرف الصنعة ، مع تقدم ابن الزيات وإبراهيم بن العباس : إما لأنه كان مقصرا فى الكتابة بجميع أدواتها ، أو لأنه كان ساقط الهمة ، أو لأن دمامته وإفراط جحوظ عينيه قعد به عن الغايات المنشودة ، ورأى أن نقص أدوات الكتابة عند الجاحظ شىء قد يكون غريبا ، فذهب إلى أن أول أدوات الكتابة العقل وقد تجد عالما غير عاقل .

أما أن الجاحظ ينقصه أداة — أيا كانت هذه الأداة — من أدوات الكتابة ، فذلك ما ترده الحقيقة المقررة ، فعقل الجاحظ وفنه الأدبى وطبعه الموهوب أعظم من أن يتطرق إليه فيها شك وريب . وأما أن الجاحظ كان قريب الأمل غير بعيد الطموح ، لا يتطلع إلى مجد ينشده أو جاه سلطان يناله ، فذلك بعيد عن الجاحظ وحياته وروحه الوثاب الطموح . وأما أن دمامة الجاحظ كان لها أثر فى هذا الاخفاق فذلك أحد ما نراه من أسبابه الكثيرة ، حتى انه ذكر للمتوكل لتأديب بعض ولده فلما رآه واستبشع منظره صرفه ، وأمر له بعشرة آلاف درهم .

الحق أن الجاحظ كان عربيا فى روحه ودمه وحياته ؛ وكان يتعصب للعرب فى كل شىء حتى فى الثقافة والأدب فى عصر كان النفوذ والسلطان فى الدولة فيه للعناصر الأجنبية لا سيما الفرس ؛ وكثيرا ما كان ينسى أولو الثقافة والكفايات من العرب ، إلا من اتصل منهم بحبل وزير أو أمير ، والجاحظ مع صداقته الوثيقة لمحمد بن عبد الملك الزيات الوزير م سنة ٢٣٣ ﻫ ، والذى أهدى له كتابه « الحيوان » ، وكافأه عليه بخمسة آلاف دينار ، كان يتخلل هذه الصداقة الشك والجفاء ، ولم يستطع أو لم يتسن له ، أن يستفيد شيئا من وراء هذه الصداقة ، وقتل محمد بن عبد الملك وجاء بعده عدوه اللدود أحمد بن أبى دؤاد الذى سيق إليه الجاحظ مغلولا لأنه كان من أصحاب محمد بن عبد الملك ؛ ثم فك قيوده وطلب حديثه وبيانه ، وثوقا منه بظرفه وأدبه لا بإخلاصه وولائه .

ثم لا ننس أن مواهب الجاحظ مواهب عالم وأديب، لامواهب رجل من رجال المجتمع والسياسة والحياة العامة ، وقد رفعته مواهبه العقلية والعلمية والأدبية مكانا عليا، ماكان ينتظر أن ترفعه إليه السياسة مهماحاق فى أجوائها ، وكان إخلاص الجاحظ للفكر والثقافة أعظم من إخلاصه للحياة نفسها ، وكان خوضه فى معامع الثقافة والعلم يشغله عن الخوض فى ميادين السياسة والاجتماع ، وكانت لذته فى الدراسة والبحث والتأليف أكثر من لذته فى مجد السياسة وسلطانها ؛ فالجاحظ أولا وقبل كل شىء هو رجل الثقافة والأدب ، وهو المعتزلى الذى تتلمذ على النظام، ثم عاف تقليد غيره فى العقيدة فكان صاحب مذهب ورئيس فرقة من فرق المعتزليين ، وهو المتكلم الساحر والكاتب البليغ والخطيب المفوه والعالم الفذ والمؤلف النابه، وشيخ العربية الذى وعى الثقافة العربية وما خالطها من الثقافات فى شتى علوم الدين والدنيا ؛ وهضمها وعاصرها زهاء قرن (١٥٠ - ٢٥٥هـ) ، وكان له فى صدر شبابه فخر التلمذة على شيوخها فى اللغة والأدب وفى علوم الدين والكلام والتفكير والمنطق، كما كان له فخر صداقة رجال الفكر والسياسة فى الدولة ؛ وقد استفاد من وراء هذا وذاك نضوجا كبيرا فى عقليته وثقافته، هيأه لأن يكون محور الثقافة الإسلامية فى عصره ، لا بطلا من أبطال السياسة والدولة والاجتماع .

ولا يضير الجاحظ أن يكون كما قال بديع الزمان الهمذانى : فيه من أحد شقى البلاغة يقطف وفى الآخر يقف(١) ، فقد يجيد الرجل فى باب من أبواب الأدب دون باب ، ولا يغض ذلك من إحسانه فيما أحسن فيه ؛ ولكن البديع أراد الفخر بنفسه على حساب الجاحظ ، وليته وقف عند هذا الحد فلم يرم الجاحظ بأن كلامه بعيد الاشارات، قليل الاستعارات قريب العبارات، وأنه منقاد لعريان الكلام يستعمله ، نفور من معتاصه يهمله ، وأنه ليس له لفظة مصنوعة ، أو كلمة غير مسموعة(٢) . وإنما أراد البديع أنه فوق الجاحظ أدبا وبيانا ، وهيهات !

وثقافة الجاحظ ثقافة واسعة منوعة تحيط بسائر ألوان الثقافات المختلفة التى مازجت الثقافة الاسلامية فى عصره ، فهو عالم من علماء الدين ، ومتكلم من الطراز

---

(١) ص ٢٨ مقامات البديع - المقامة الجاحظية .

(٢) ص ٨٢ و٨٣ المرجع .

الأول للمتكلمين وعالم يحيط باللغة وبيانها وادابها إحاطة لا تقف عند غاية ؛ وقد خاض الجاحظ فى جداول الثقافات الآخرى، التى سرت فى تيار الثقافة العربية منذ مشرق القرن الثانى الهجرى ، وعقلية الجاحظ البعيدة التفكير لا نشك أنها أفادت ذلك من أستاذه النظام ومن علوم الفلسفة والمنطق التى شاعت فى البيئة الاسلامية فى عصر الجاحظ . ولا شك أن عصر الجاحظ ، وعقليته وشغفه بالدراسة والبحث وعكوفه على القراءة ، ونشأته بالبصرة ، وتلقيه اللغة عن عن الأعراب فى المربد والعلماء فى حلقات البصرة ومجامعها العلمية ، وتلمذته على كثير من أساتذة الثقافة العربية فى شتى مناحيها ، كأبى يوسف القاضى والنظام والأصمعى والأخفش وابن الأعرابى وأبى عبيدة وأبى زيد الأنصارى ، كان له أثره فى ثقافة الجاحظ الواسعة الجوانب ، المتعددة الألوان .

وشخصية الجاحظ تطالعك فى أدبه وكتبه من كل جانب وناحية ؛ وهى شخصية رجل الفكر الواثق بشخصيته وعقليته وثقافته ، المؤمن بها ، الحريص على كرامته ، المعتز بنفسه . يخاطب الوزراء والعظماء ويراسلهم ، فلا يفنى شخصيته فى شخصياتهم ، بل يراهم إخوانه ، ويرى له عليهم حق الصداقة ودالة الأخوة ، ولا يجبن عن توجيه العتاب واللوم إليهم . وأنت حين تقرأ فى كتب الجاحظ ومؤلفاته تغيب فى جو بعيد تطل عليك فيه شخصية الرجل ، بسعة ثقافتها وبعد مكانتها ، وبتوجيهها الساحر لعقل القارىء وفكره وشعوره ، حتى ليكاد ينسى أمامها نفسه ، ويشعر شعورا صادقا أنه قد نقل من جوه هو إلى جو آخر تشيع فيه روح قوية ساحرة ، تملك عقلك وعاطفتك ، وتروعك بكثرة حفظها وروايتها ، كما تروعك بروعة فكرها وجلال بيانها ، وتتركك صريعا فى معارك فكرية ، ترى الجاحظ فارسها المعلم ، وترى قلمه البليغ عصا الساحر المتحدى تسترعى السمع والبصر ، وتبهت الفكر والعقل ، وتلهب العاطفة والشعور .

والعجيب أن سعة ثقافة الجاحظ وكثرة روايته فى تآليفه جعلت كثيرا ممن لا يفهمون الجاحظ يرونه كاتبا لا شخصية له ، تطمس شخصيات من يروى لهم وينقل عنهم كل أثر لشخصيته ، فتقرأ الجاحظ وأنت تقرأ لسواه ، وتبدو أمام عينيك صور شتى لرجال لا ترى الجاحظ فيهم ، ولا تلمس آثاره بينهم.

ومنشأ ذلك أن الجاحظ رجل من الخاصة فى فكره وفى كتابته وأسلوبه ، وفى

بحثه وتأليفه ، فإذا فكر فبعقل الخاصة ، وإذا كتب أو ألف فبأسلوبهم، ولمن يفكر فى مجال تفكيرهم ، وليس ذلك لأن الجاحظ « يستمسك بفائدته ويضن بما عنده ،غيرة على العلم، وشحا بثمرة الفهم،ولذلك كان كتاب « البيان » موقوفا على أهله ، ومن كرع فى حوضه، أما الجاهل والمبتدىء فلا نفع له من كتابه » كما يقول ابن شهيد ، إنما ذلك لأنه كما أرى لا يستطيع إلا أن يفكر تفكير الخاصة ، ويكتب بعقلهم وأسلوبهم ، ولأنه رجل يكتب لنفسه قبل كل شىء ، ويرضى شهوته فى تدوين عناصر الثقافة الأدبية والعلمية على طريقة كتابة الموسوعات . كما يرى بعض الباحثين المعاصرين(١) ؛ وما دام الجاحظ كذلك فلن يستطيع أن يفهمه إلا رجل مثله ، ولن يتسنى لكثير أن يفهموا الجاحظ وأن يؤمنوا بشخصيته فى كتبه ومؤلفاته ، ما داموا لا يستطيعون مجاراته فى نواحى ثقافته العقلية والأدبية . وحسب الجاحظ مجدا وخلود ذكر أن يكون له كتاب مثل كتاب : البيان والتبيين .

— ٢ —

ألف الجاحظ كتابه « الحيوان »، وأهداه إلى صديقه محمد بن عبد الملك الزيات ، فكافأه عليه بخمسة آلاف دينار . ثم ألف بعده كتاب « البيان » وأهداه إلى أحمد ابن أبى دؤاد فأعطاه عليه خمسة آلاف دينار ، والجاحظ يشير فى مواضع متعددة من البيان إلى كتاب الحيوان ، وكان لظهور « البيان والتبيين » ضجة كبيرة فى الأدب والبيان ، حتى إنه حمل إلى الأندلس فيما حمل إليها من نفائس المؤلفات .

وكتاب « البيان » ألفه الجاحظ على نمط طريف فى التأليف ، من كثرة الرواية التى قصد الجاحظ من ورائها أن ينال بكتابه الشهرة والاعجاب كما يقول الجاحظ نفسه فى كتابه ، وينال كتابه الذكر والذيوع ، ومن كثرة الاستطراد الذى يستدر به الجاحظ نشاط القارىء وإعجابه كما يقول الجاحظ فى تعليله له ، والجاحظ حين يعلل عدم ترتيبه للخطباء الذين ذكرهم فى كتابه ترتيبا يتمشى مع التاريخ بعجزه عن تنسيق ذلك يجب أن يقابل بتحفظ كبير ، فالجاحظ لو أراد لما أعجزه شىء ، إنما هو مذهبه فى الاستطراد والانتقال .

ويبدو من أسلوب الكتاب أن الجاحظ كان يكتب أصوله — أو كثيرا

---

(١) ٢/٤٩ النثر الفنى .

منها — محاضرات يلقيها على تلاميذه وطلابه وقد يسبغ عليها أحيانا روحا توائم بين هذه المحاضرات وبين ما يجب لمن أهدى إليه كتابه من تقدير وإجلال ، وأسلوب الكتاب الاستطرادى جعل الجاحظ يعدنا فى كتابه بأنه سيذكر الشىء ثم لا يذكره ولا يفى بوعده ، وهذا الأسلوب الاستطرادى أيضا جعل الجاحظ ينقد نفسه فى ترتيب فصول كتابه ،وجعله يرسم منهجه فى أجزاء كتابه فى آخر الجزء الأول منه ، وجعله يضع فى أماكن متعددة من كتابه عناوين مختلفة تقابل من القارىء بمزيد الابتسام ، فهو يعنون فصولا بباب البيان ، وأخرى يسميها باب الصمت ، وأخرى باب اللحن أو باب الزهد ، إلى آخر هذه الألقاب ،التى نعلم أن الجاحظ لم يرد شيئا منها ولم يضعها إلا للتغرير بالقارىء ، واكتساب نشاطه وامتحان ملكاته . وكتاب « البيان » ، يجمع بين دفتيه الكثير من بلاغة العرب وسحرهم فى البيان كما يجمع آراء كثيرة فى أصول النقد الأدبى وقوانين البلاغة العربية ، وقد نهج فيه الجاحظ منهجه الساحر ، وكتبه بأسلوبه العميق المحكم ، ورسم فيه صورا صادقة لروح الأدب والبلاغة إلى عهده ؛ والكتاب سجل للأدباء والشعراء والخطباء حتى عصره .

ولكتاب البيان كذلك أثره فى النقد الأدبى ،فهو سجل حافل للاراء المختلفة فى النقد مما لا يزال إلى الآن موضع البحث والإعجاب . والجاحظ الذى نقد مذاهب أصحاب الصنعة من الشعراء،وآثر مذهب المطبوعين، كان يضع بذلك أساسا كبيرا لعلم النقد وتطوره الأدبى . وعصرنا الحديث يؤمن كل الإيمان برأى الجاحظ ويسير فى تياره الفكرى والأدبى ، كما يسير على ضوئه فى البيان العربى وبلاغته .

وكتاب البيان ثمرة من ثمرات الرجولة المكتملة ، التى أحاطت بالجاحظ بعد أن ودع شبابه واستقبل عهد المشيب ؛ وهو لذلك آية من آيات الطبع المتمكن والذوق السليم والاحاطة التامة بالبيان وبلاغته ؛ وليس ذلك بكثير على الجاحظ شيخ العربية الفذ وبطلها الكبير . وأثر « البيان » وقيمته مما يعسر على الباحث تفصيله وإيفاؤه فيها حقه من التقدير والانصاف ودقة الحكم : فالكتاب أصل من أصول الأدب،وهو فى أسلوبه وفى نهجه وفى رواياته وفى آرائه الأدبية خير معين لطلاب العربية والمتخصصين فى أدبها . وقيمته فى البيان العربى خطيرة لما أودع فيه من شتى البحوث والآراء فى البلاغة وعناصرها، اتجاهاتها ومذاهبها وألوانها وغايتها وآثرها .

والبيان أول كتاب ظهر فى الأدب جامعا لفنون كثيرة من ضروبه ، ويشيد به أبو هلال (١) ؛ ويعده ابن خلدون من أركان الأدب (٢) ؛ والكتاب يبحث فى فنون الأدب والبلاغة ، ويتناول النقد واللغة ، ويأتى على ذكر الخطباء والأدباء والشعراء والمنشئين وآثارهم الادبية، وهو من أجل وثائق الادب فى الجاهلية والاسلام (٣)، ويذكر ابن رشيق أنه لايبلغ جودة وفضلا (٤)، ويذكر أبو أحمد العسكرى مثلا من تصحيف الجاحظ فيه (٥) . وينقد ابن شهيد الكتاب (٦) ورد عليه بعض المعاصرين (٧) . والكتاب يجمع آراء كثيرة فى أصول النقد الأدبى وقوانين البلاغة العربية وأنواعها وعناصرها ومذاهبها واتجاهاتها وآثرها ، سواء كانت هذه الآراء من جميع الجاحظ وروايته أم من رأيه وتفكيره ، وحسبك أن تقرأ فيه البلاغة كما تتحدث عنها صحيفة هندية مكتوبة (٨) ، أو كما يصورها بشر ابن المعتمر (٩) ، أو كما يراها ابن المقفع (١٠) ، ولهذه النصوص قيمة كبيرة ، وقد عد بعض الباحثين الجاحظ مؤسس البيان العربى لما جمعه من النصوص التى توضح لنا كيف كان العرب إلى منتصف القرن الثالث يتصورون البيان العربى ، وتعطينا صورة مجملة لنشأته (١١) .

وفى الكتاب كثير من بحوث البلاغة ، فهو يعرف الاستعارة (١٢) ، ويتكلم على السجع (١٣) ،ويشير إلى التفصيل والتقسيم (١٤) ، والاستطراد ، والكتابة (١٥) ، والأمثال (١٦) ،والاحتراس (١٧) والقلب (١٨)، والاسلوب الحكيم (١٩) ،

---

(١) ٦ و ٧ الصناعتين . (٢) ٥٥٣ مقدمة ابن خلدون . (٣) ٣٥ الجاحظ لمردم . (٤) ٢٢٧ / ١ العمدة . (٥) ٥٣ و ٥٤ التصحيف والتحريف (٦) ١٩٨ / ١ ذخيرة . (٧) ٥٠ / ٢ النثر الفنى . (٨) ٧٩ / ١ البيان . (٩) ٤ / ١ وما بعدها البيان . (١٠) ٩١ / ١ البيان . (١١) ٣ مقدمة نقد النثر . (١٢) ١١٦ / ١ البيان .

(١٣) ١٩٤ / ١ البيان . (١٤) ١٧٠ / ١ و ٩١ / ٢ البيان ، وهو باب من أبواب البديع عند كثير من علماء البلاغة راجع ٧٨ نقد الشعر ، ٣٣٢ صناعتين .

(١٥) ١٨٠ / ١ و ١ و ٢٩ و ٣١ و ٣٥ / ٣ البيان . (١٦) ٨٦ و ٨٨ و ١١٤ و ١٨٣ / ١ و ٢٢٤ / ٢ البيان . (١٧) ١٦١ / ١ وما بعدها البيان . (١٨) ١٨٠ / ١ البيان . (١٩) ٢٠١ و ٢٠٢ ج ٢ البيان . ويقرب من الاسلوب الحكيم ما يسميه الجاحظ « اللغز فى الجواب » (١١٦ / ٢ البيان

والجاحظ فوق ذلك هو أول من لقب المذهب الكلامى بهذا الاصطلاح (١)، ويرى الجاحظ أن البلاغة فى النظم لا فى المعانى قال : والمعانى مطروحه فى الطريق يعرفها العجمى والعربى والبدوى والقروى، وإنما الشأن فى إقامة الوزن وتخير اللفظ وسهولة المخرج وفى صحة الطبع وجود السبك (٢) ، وهو ماذهب إليه ابن خلدون (٣) ويقول شيلر : فى الفن الشكل هو كل شىء والمعنى ليس شيئا مذكورا . وفى البيان نصوص كثيرة استغلها علماء البيان والبديع فى اختيار شواهد أساليب البلاغة منها، مما لا داعى إلى ذكره هنا خوفا من كثرة الأسهاب ..والجاحظ يشيد بالايجاز ويدعو إليه كثيرا فى بيانه (٤) ، وبعد فاللجاحظ وكتابه البيانى أثر فى نشأة البيان العربى وأى أثر ، ويعد ابن خلدون الجاحظ من السابقين فى التأليف فى البيان (٥)

خدم الجاحظ البيان العربى خدمة لا تقدر بالكتابة — فى كتبه — فى شتى بحوثه، وجمع مختلف الآراء والمذاهب فى عناصره وألوانه ، ولم نعلم أن باحثا أفراد البيان العربى بتأليف قبل الجاحظ ، إنما كان كل ما هنالك آراء مبثوثة متفرقة لكثير من رجال البيان والأدب ، وكانت خسارة البيان فى عدم تدوينها تكاد تكون فادحه بالغة منتهاها ، ومانجده فى الكتاب لسيبويه ومجازات القرآن لأبى عبيدة والشعر والشعراء لابن سلام فانما هو قليل من كثير إذا قيس بما جمعه الجاحظ فى كتبه ومؤلفاته ، نعم لا يمكن لأى باحث أن ينكر حقيقتين هامتين :

أولاهما أن الجاحظ أظهر من أفراد البيان بمعناه العام بالتأليف فى كتابه الكبير (البيان والتبيين) ، وثانيتهما أن له فضل جمع مختلف الآراء والمذاهب فيه، والجمع والاحصاء أول خطوات البحث والابتكار والتجديد ، ومنزلة العالم فى الجمع لا يمكن الغض منها أو الاستهانة بها ، وإذا قرأت كتب الجاحظ لا سيما «الحيوان» و « البيان » عرفت منزلة الجاحظ فى هذا السبيل . ومن الغريب أن نرى شخصية الجاحظ واضحة فيما يجمعه وضوحها فيما يبتكره من آراء ومذاهب ، بعكس كثير من العلماء والباحثين. والجاحظ فوق أثره الكبير فى جمع آراء رجال البيان والبلاغة فى مذاهبهما وعناصرهما فى كتابه «البيان» على الخصوص ، له وراء ذلك فضل خاص

---

(١) ١٠١ البديع ، ٧٦/ ٢ العمدة (٢) ٤٠/ ٣ الحيوان (٣) ٥٧٧ مقدمة ابن خلدون (٤) ٨٠ و ٨٦ و ١١٤ و ١٥٢ و ١٨٧ و ١٩٨ / ٢ البيان (٥) ٥٥١ مقدمة ابن خلدون

وجهد مستقل ، فقد استقل ببحوث جديدة صبغها بشخصيته واستمدها من عقليته وثقافته ، وعرفت له وحده دون سواه من الباحثين فى البيان العربى وقواعده

وقد ظهر الجاحظ فى عصر شاع فيه اتجاهان أدبيان مختلفان : اتجاه يرمى إلى الظهور بمظهر البداوة التقليدى فى الأداء والتعبير فيؤثر الغريب من الألفاظ والعنجهى من الأساليب متناسيا روح العصر وذوقه ، واتجاه آخر تأثر بالحياة السياسية والاجتماعية وبألوان الحضارة فى العيش والتفكير ، فمال إلى رقة الأسلوب وسهولته ، مع حرص على ارضاء الطبع والذوق ، وشاهد الجاحظ هذه التيارات الفكرية والأدبية المنوعة وعاصرها ولكنه مال بطبعه وذوقه إلى الاتجاه الأخير وكتابه البيان كله دعوة إلى هذا الرأى .

والجاحظ إمام الكتاب وشيخ البيان وعلم من أعلام الأدب والنقد ، وهو من أئمة المعتزلة ، تتلمذ على النظام وسواه من فحول عصره، فخرج واسع الثقافة عميق التفكير ، كثير الاحاطة والاطلاع على شتى المؤلفات والتراجم المنقولة من جميع اللغات إلى العربية.

اتصل الجاحظ باليونان وثقافتهم من كتبهم المترجمة ، وعن طريق المتكلمين، وبمجالسته لكثير من المثقفين باليونانية (١) . كما أنه حذق الثقافة الفارسية من كتب ابن المقفع وسواه ، وتوسع فى الثقافات كلها بما كان يقرؤه من الكتب (٢)، وتأثر بخطابة أرسطو إلى حد بعيد ، ومن المشابهة بينه وبين أصحاب الخطابة فى الأسلوب استعماله القياس المضمر وهو المذهب الكلامى عند البديعيين (٣) ، ونقد الجاحظ التراجم والمترجمين من اليونانية، وخاصة كتاب المنطق، بأنه فى أسلوب سقيم، فالجاحظ ولا شك قد تأثر « بالخطابة » لأرسطو (٤) . وأنكر باحث آخر

---

(١) ٤٠١/١ ضحى الإسلام (٢) ٣٨٧/١ المراجع .

(٣) ٦٢٠و٦٢١ الرسالة عدد ١٩٦ من محاضرة الاستاذ حمودة فى أسبوع الجاحظ ، وإذا كان الجاحظ ينكر أن يكون لليونانيين خطابة (١٥/٣ البيان)، فليس ذلك إلا فى مقام الرد على الشعوبيين ، وقد يكون الجاحظ لم يطلع على نصوص خطابية لليونان . (٤) راجع ٦٢١ الرسالة عدد ١٩٦ .

أن يكون كتاب البيان متأثراً بخطابة أرسطو أو صدى له، لأن الجاحظ لم يره (١) وذلك ما يؤيده الدكتور طه حسين (٢) .

ومن البدهى أن الجاحظ ألم بالثقافة الفارسية المترجمة إلماما واسعا ، ويبدو لى أنه كان يعرف اللغة الفارسية ، فنى البخلاء يحكى الجاحظ كلام بخيل من أهل مرو تجاهل رجلا زاره من أهل العراق . لو خرجت من جلدك لم أعرفك ، قال الجاحظ وترجمة هذا الكلام بالفارسية « كراز بوستت بارون بيانى نشناسيم (٣) .. وأثر ثقافته الفارسية واضح فى كتبه وفى مؤلفه « البيان » .. أما أثر ثقافته اليونانية فواضح أيضا فى الحيوان وفى كتابه البيان ، قرأ الجاحظ من كتب أرسطو المترجمة كتاب الحيوان واستدل برأى لأرسطو فيه (٤) وكان مصدرا كبيرا له فى كتابه «الحيوان» ، والجاحظ يذكر تعريف صاحب المنطق للانسان كثيراً (٥)، ويذكر صاحب المنطق وأنه كان بكىء اللسان مع علمه بتمييز الكلام وتفضيله ومعانيه وبخصائصه (٦)، ويذكر تعاريف البلاغة عند الأمم المختلفة ومنها اليونان (٧) ويذكر كتب اليونان فى المنطق ، وأن الحكماء جعلتها معياراً للتفكير (٨) ، ويذكر نوادر ريسموس اليونانى (٩) ويرى أن لليونان فلسفة وصناعة منطق وليس لفلاسفتهم فى الخطابة ذكر (١٠)..وأقسام الدلالة عند الجاحظ(١١) هى من تفكير أرسطو ، ويذكر أن للفرس رسائلها وخطبها وألفاظها ومعانيها، ولليونان رسائلها وخطبها وعللها وحكمها وكتبها فى المنطق، وللهند حكمها وسيرها وعللها ، ويرى أنها لا توازن بما للعرب من بيان وبلاغة وصناعة وخطابة (١٢) . وللجاحظ رسالة فى نقد الكندى (١٣) .

---

(١) ٢٦٢ المرجع السابق . (٢) ٣ مقدمة نقد النثر .

(٣) ص ١٩ البخلاء . (٤) ١/٦١ البيان . (٥) ٦٩ و ١/١٢٨ البيان .

(٦) ٣/١٥ البيان . (٧) ١/٧٥ البيان . (٨) ٣/٧ البيان .

(٩) ١٦٥ جـ ٢ البيان . (١٠) ٣/١٥البيان ، والظاهر أن الجاحظ لم يطلع على شىء من خطابتهم .

(١١) ١/٦٩ البيان ، وهى فى ٤٠ الرسالة العذراء ، ٩ نقد النثر .

(١٢) ٣/٧ البيان . (١٣) ٤٢ الجاحظ لمردم .

ويذكر الجاحظ فى البيان « صناعة الكلام » ، ويعنى بها حيناً علم الكلام(١) ، وحينا آخر البيان(٢) ؛ ويذكر اصطلاحات أخرى: كصناعة المنطق(٣)، وصناعة الخطابة ، ويذكر احيانا « أصحاب الخطابة والبلاغة »(٤) .

ومهما يكن فالجاحظ فيما ذكره من أصول البلاغة العربية قريب من روح أرسطو ، فدعوته إلى ترك الوحشى والسوقى(٥) له نظير عند أرسطو الذى دعا إلى هجر الألفاظ الخسيسة التى لا يستعملها إلا العامة »(٦)، وقال « ينبغى ألا تكون الألفاظ سفسافة ولا مجاوزة الحد فى المتانة مبلغ الأمر الذى يدل عليه فلا تبلغ درجة العامية ولا تحوج إلى الكلفة المشنوءة » ، ودعوة الجاحظ إلى الوضوح(٧) لها نظير عند أرسطو حيث يذكر « حسن الدلالة ووضوح العبارة وأن الأغراب مستكره وأنه يجب ألا تمعن فى الاغرابات، بل يجب أن تكون العبارة بحيث يفهمها الأماثل دون أسقاط الجمهور » .. واللحن وخروجه عن حد البلاغة(٨) موجود فى خطابة أرسطو ، حيث يوجب أن « يكون اللفظ فصيحا لا لحن فيه » ، ويذكر الجاحظ استعمال المبسوط فى مواضعه والمقصور ـ المحذوف الموجز ـ فى مواضعه(٩) والإيجاز يوم الايجاز والاطناب يوم الاطناب(١٠)، وأرسطو أول من أشار إلى ذلك كله فذكر الايجاز والاسهاب وأشار إلى أن لكل منهما مقاما . وعلى أى حال فمرجع هذا التشابه فى الأفكار أرجح أن سببه نقل الجاحظ كثيراً عن الذين ألموا بثقافة اليونان وكتب أرسطو فى النقد، وعلى الأخص الخطابة والشعر . ومع ذلك فالجاحظ يجهل كثيراً من النظريات التى شرحها أرسطو فى كتابيه ، فأنواع البيان والأساليب البلاغية الأنيقة التى ألم بها أرسطو(١١) لا يشير إليها الجاحظ فى بيانه،

---

(١) ١/٦٩ البيان (٢) ١/١٠٨ البيان . ويشيد الجاحظ بصناعة الكلام (٣ جـ ٤ زهر) (٣) ١/٧٩ البيان (٤) ١/١٨٣ البيان (٥) ١٠٥ و ١١٠ و ١/١٧٦ البيان (٦) نقلا من الشفاء لابن سينا (٧) ٦٨ و ١١٠ و ١٧٦ جـ ١ البيان (٨) ١/١٢١ البيان . (٩) ١/٥١ البيان ويشير إلى ذلك فى مواضع أخرى من كتابه (١٤١ و ١٤٧ و ١٦١ و ١/١٨٠ البيان) .

(١٠) ١٢٠ رسائل الجاحظ وتبعه ابن قتيبة فذكر أن للإيجاز مواضعه وللإطالة مواضعها (مقدمة ادب الكاتب)

(١١) كدراسته الاستعارة، وللرباطات (حروف العطف)، وأنها تجعل الكلام الكثير كالواحد ، وللجناس وسواه ، ونظرية أرسطو فى الوصل هى التى يفيض =

وهو على العموم لم يطلع على كتابى أرسطو، ولا نشك فى أنه أفاد من أستاذه النظام ومن علوم الفلسفة والمنطق التى شاعت فى عصره كثيراً، ونقل عمن اطلعوا على خطابة أرسطو ... ويكفينا ذلك التحقيق فى هذا المقام .

عبد الله بن طاهر

كان بمحل من علو المنزلة وعظم القدر ولطف مكان من الخلفاء، يستغنى به عن التقريظ له، والدلالة عليه، وأمره فى ذلك مشهور عند الخاصة والعامة، وله فى الأدب مع ذلك المحل الذى لا يدفع، وفى السماحة والشجاعة مالا يقاربه فيه أحد ... ولد سنة ١٨٢ وتوفى عام ٢٣٠ هـ.. أعطاه المأمون مال مصر لسنة خراجها وضياعها فوهبه كله وفرقه فى الناس، ورجع صفراً من ذلك، فغاظ المأمون فعله، فدخل إليه يوم مقدمه، فأنشده أبياتا قالها فى هذا المعنى وهى :

نفسى فداؤك والأعناق خاضعة ... للنائبات أبيـــا غير مهتضم
إليك أقبلت من أرض أقمت بها ... حولين بعدك فى شوق وفى ألم
أقفو(١) مساعيك اللاتى خصصت بها ... حذو الشراك على مثل من الأدم
فكان فضلى فيهـــا أنى تبع ... لما سننت من الانعام والنعم
ولو وكلت إلى نفسى عنيت بها ... لـكن بدأت فلم أعجـــز ولم ألم

فضحك المأمون، وقال : والله ما نفست عليك مكرمة نلتها، ولا أحدوثة حسن عندك ذكرها، ولكن هذا شىء إذا عودته نفسك افتقرت، ولم تقدر على لم شعثك(٢) واصلاح حالك، وزال ما كان فى نفسه . ولما فتح عبد الله مصر وأعطاه المأمون خراجها صعد المنبر فلم ينزل حتى أجاز بها كلها ثلاثة آلاف ألف دينار أو نحوها فأتاه معلى الطائى(٣) وقد أعلموه ما صنع بالناس فى الجوائز وكان عليه واجداً

= عبد القاهر فى شرحها فى الدلائل .. ونصيب فى نقده للكميت فى قوله « تكامل فيها الانس والشنب » لأنه باعد فى القول (١٣٤/ الأغانى ، ١/٣٥٥ الكامل) لاينم ذلك عن معرفته بأسرار هذه الدراسات البيانية .

(١) أقفو : أتبع ..الشراك : سير النعل على ظهر القدم .

(٢) الشعث : من شعث أمر فلان كفرح : انتشر

(٣) معلى الطائى : شاعر مصرى كثيراً ما يذكر فى شعره حوادث مصر

فوقف بين يديه تحت المنبر ،فقال : أصلح الله الأمير ، أنا معلى الطائى، وقد بلغ منى ما كان منك من جفاء وغلظ، فلا يغاظن على قلبك، ولا يستخفنك الذى بلغك، أنا الذى أقول :

يا أعظم الناس عفواً عند مقدرة   وأظلم الناس عند الجود للمال
لو أصبح النيل يجرى ماؤه ذهبا   لما أشرت إلى خزن بمثقال
تغلى(١) بما فيه رق الحمد تملكه   وليس شىء أعاض الحمد بالغالى
تفك باليسر كف العسر من زمن   إذا استطال على قوم بإقلال
لم تخل كفك من جود لمختبط(٢)   ومرهف قاتل فى رأس قتال
وما بثثت رعيل(٣) الخيل فى بلد   إلا عصفن بأرزاق وآجال
ان كنت منك على بال منئت به   فان شكرك من قلبى على بال
ما زال مقتضبا لولا مجاهرة   من ألسن خضن فى صدرى بأقوال

فضحك عبد الله وسر بما كان منه وقال : يا أبا السمراء أقرضنى عشرة آلاف دينار ، فما أمسيت أملكها فأقرضه ، فدفعها إليه

ولعبد الله ألحان صاغها ، ومن مختارها وصدورها ومقدمها لحنه فى شعر أخته عاصية ، فانه صوت نادر جيد ،صحيح العمل ،مزدوج النغم ، بين لين وشدة ،على رسم الحذاق من القدماء، وهو :

هلا سقيتم بنى سهم أسيركم   نفسى فداؤك من ذى غلة صادى(٤)
الطاعن الطعنة النجلاء يتبعها   مضرج بعد ما جادت بإزباد(٥)

ومن غنائه أيضا :

راح صحبى وعاود القلب داء   من حبيب طلابه لى عناء
حسن الرأى والمواعيد لا يلـ   ـفى لشىء مما يقول وفاء
من تعزى عمن يحب فانى   ليس لى ما حييت عنه عزاء

---

(١) أغلى الشىء : جعله غاليا (٢) المختبط : سائل المعروف ، والمرهف : السيف
(٣) الرعيل : القطعة من الخيل .

(٤) الصادى : العطشان (٥) الإزباد : الاتيان بالزبد كما يفعل البعير إذا هدر . والمضرج : المدمى . والنجلاء : الواسعة

ولما شخص (١) أبو تمام إلى عبد الله بن طاهر ، وهو بخراسان ، أقبل الشتاء وهو هناك ، فاستثقل البلد ، وقد كان عبد الله وجد(٢) عليه ، وأبطأ بجائزته ؛ لأنه نثر عليه ألف دينار فلم يمسسها بيده ترفعا عنها فقال: يحتقر فعلي ، ويترفع علي، فكان يبعث إليه بالشيء بعد الشيء ، كالقوت . فقال أبو تمام :

لم يبق للصيف رسم ولا طلل ولا قشيب فيستكسى ولا سمل (٣)
عدل من الدمع أن يبكي المصيف كما يبكى الشباب ويبكى اللهو والغزل
يمنى الزمان انقضى معروفها وغدت يسراه وهي لنا من بعدها بدل

فبلغت الأبيات أبا العميثل شاعر آل طاهر ، فأتى أبا تمام واعتذر إليه لعبد الله ابن طاهر . ثم دخل إلى عبد الله فقال : أيها الأمير . أتتهاون بمثل أبي تمام ، وتجفوه ؟ فوالله لو لم يكن له ما له من النباهة في قدره ، والإحسان في شعره ، والشائع من ذكره ، لكان الخوف من شره ، والتوقي لذمه، يوجب على مثلك رعايته ومراقبته ، فكيف وله بنزوعه إليك من الوطن ، وفراقه السكن ، وقد قصدك عاقدا بك أمله ، معملا إليك ركابه ، متعبا فيك فكره وجسمه ، وفي ذلك ما يلزمك قضاء حقه، حتى ينصرف راضيا . ولو لم يأت بفائدة إلا قوله :

يقول في قومس(٤) صحبي وقد أخذت منا السرى وخطا المهرية(٥) القود(٦)
أمطلع الشمس تبغي أن تؤم بنا ؟ فقلت : كلا ولكن مطلع الجود

فقال له عبد الله : لقد نبهت فأحسنت ، وعاتبت فأوجعت ، ولك ولأبي تمام العتبي (٧) . ادعه يا غلام فدعاه . فنادمه يومه ، وأمر له بألفي دينار وما يحمله من الظهر ، وخلع عليه خلعة تامة من ثيابه ، وأمر ببذرقته(٨) إلى آخر عمله .

وقال أبو السمراء : خرجنا مع الأمير عبد الله بن طاهر متوجهين إلى مصر ، حتى إذا كنا بين الرملة (٩) ودمشق ، إذا نحن بأعرابي قد اعترض ، فإذا شيخ فيه

---

(١) الأغاني ص ١٠٢ ج ١٥ (٢) وجد عليه غضب
(٣) السمل : الثوب الخلق (٤) قومس : إقليم في طبرستان
(٥) الأبل المهرية : تنسب إلى مهرة : حي في العرب
(٦) القود : جمع أقود وهو الطويل العنق
(٧) أعتبه : سره بعد ما ساءه والاسم العتبى
(٨) البذرقة : الخفارة
(٩) الرملة : خمسة مواضع أشهرها بلد بالشام

بقية ، على بعير له أورق(١) ، فسلم علينا فرددنا عليه السلام ، وكان معنا إسحق ابن إبراهيم الرافقي ، وإسحاق بن أبي ربعي ، ونحن نساير الأمير . وكنا يومئذ أفره من الأمير دواب ، وأجود منه كسا(٢) . فجعل الأعرابي ينظر في وجوهنا ، فقلت : يا شيخ ، قد ألححت في النظر ! أعرفت شيئاً أم أنكرته ؟ قال : لا والله ما عرفتكم قبل يومي هذا ، ولا أنكرتكم لسوء أراه فيكم ؛ ولكني رجل حسن الفراسة في الناس ، جيد المعرفة بهم ؛ فأشرت له إلى إسحاق بن أبي ربعي ، فقلت : ما تقول في هذا ؟ فقال :

أرى كاتباً : داهي الكتابة بين ... عليه وتأديب العراق منير
له حركات قد يشاهدن انه ... عليم بتقسيط الخراج بصير

ونظر إلى إسحاق بن ابراهيم الرافقي ، فقال :

ومظهر نسك ما عليه ضميره ... يحب الهدايا بالرجال مكور
إخال به جبنا وبخلا وشيمة ... تخبر عنه انه لوزير

ثم نظر إلي ، وأنشأ يقول :

وهذا نديم الأمير ومؤنس ... يكون له بالقرب منه سرور
وأحسبه للشعر والعلم راوياً ... فبعض نديم مرة وسمير

ثم نظر إلى الأمير ، وأنشأ يقول :

وهذا الأمير المرتجى سيب كفه ... فما إن له فيمن رأيت نظير
عليه رداء من جمال وهيبة ... ووجه بإدراك النجاح بشير
لقد عصم الاسلام منه بذائد ... به عاش معروف ومات نكير
ألا إنما عبد الاله بن طاهر ... لنا والد بر بنا وأمير

فوقع ذلك من عبد الله أحسن موقع ، وأعجبه ما قال الشيخ ؛ فأمر له بخمسمائة دينار ، وأمره أن يصحبه .

وقال محمد(٣) بن الفضل الخراساني : لما قال عبد الله بن طاهر قصيدته التي يفخر

---

(١) الأورق من الابل : ما في لونه بياض إلى سواد ، وهو من أطيب الابل لحماً لاسيراً . (٢) جمع كسوة

(٣) الأغاني ص ١١ ج ١٢ ، وكان محمد بن الفضل الخراساني من وجوه قواد طاهر وابنه عبد الله، وكان أديبا عاقلا فاضلا .

فيها بمآثر أبيه وأهله ويفخر بقتلهم المخلوع(١) ،عارضه محمد بن يزيد الأموى الحصنى (٢) ، فأفرط فى السب ، وتجاوز الحد فى قبح الرد . فلما ولى عبد الله مصر ورد إليه تدبير أمر الشام علم الحصنى أنه لا يفلت منه إن هرب ، ولا ينجو من يده حيث حل ، فثبت فى موضعه ، وترك أمواله ودوابه ، وكل ما كان يملكه فى موضعه ، وفتح باب حصنه وجلس عليه ، ونحن نتوقع من عبد الله بن طاهر أن يوقع به .

فلما شارفنا بلده ، وكنا على أن نصبحه ، دعانى عبد الله فى الليل ، فقال لى : بت عندى الليلة وليكن فرسك معدا عندك . ففعلت ، فلما كان السحر أمر غلمانه وأصحابه ألا يرحلوا حتى تطلع الشمس ، وركب وركبت معه أنا وخمسة من خواص غلمانه . فسار حتى صبح الحصنى ، فرأى بابه مفتوحاً ، ورآه جالساً ، فقصد ، وسلم عليه ونزل عنده ، وقال له : ماأجلسك هاهنا وحملك على أن فتحت بابك ، ولم تتحصن من هذا الجيش المقبل ، ولم تتنح عن عبدالله بن طاهر ، مع مافى نفسه عليك وما بلغه عنك ؟ فقال : إن ماقلت لم يذهب عنى ،ولكنى تأملت أمرى ، وعلمت أنى أخطأت خطيئة حملنى عليها نزق الشباب وغرة الحداثة ، وأنى إن هربت منه لم أفته ، فباعدت البنات والحرم ، واستسلمت بنفسى وكل ما أملك ، وإنى أثق بأن الرجل إذا قتلنى ، وأخذ مالى شفى غيظه ، ولم يتجاوز ذلك إلى الحرم ، ولا يوجب جرمى أكثر مما بذلته . قال : فوالله ما اتقاه عبد الله إلا بدموعه تجرى على لحيته . ثم قال له : أتعرفنى ؟ قال : لاوالله ، قال : أنا عبد الله بن طاهر ، وقد أمن الله تعالى روعتك ، وحقن دمك وصان حرمك ، وحرس نعمتك ، وعفا عن ذنبك ، وما تعجلت إليك وحدى إلا لتأمن هجوم الجيش ، ولئلا يخالط عفوى عنك روعة تلحقك ، فبكى الحصنى وقام فقبل رأسه ، وضمه عبد الله وأدناه ، ثم قال له : أما بعد فلا بد من عتاب : ياأخى ـ جعلنى الله فداك ـ قلت شعراً فى قومى أفخر بهم لم أطعن فيه على حسبك ، ولا ادعيت فضلا عليك ، وفخرت بقتل رجل ـ وإن كان من قومك ـ فهم القوم الذين ثأرك عندهم ، فكان يسعك السكوت !

فقال : أيها الأمير ، قد عفوت فاجعله العفو الذى لايخالطه تثريب ، ولا يكدر صفوه تأنيب . قال : قد فعلت ، فقم بنا ندخل إلى منزلك حتى نوجب عليك حقاً

(١) المخلوع : الأمين (٢) من ولد مسلمة بن عبد الملك

بالضيافة . فقام مسرورا ، فأدخلنا فأتى بطعام كان قد أعده ، فأكلنا وجلسنا نشرب فى مستشرف له. وأقبل الجيش، فأمرنى عبدالله أن أتلقاهم فأرحلهم، ولا ينزل أحد منهم إلا فى المنزل ، وهو على ثلاثة فراسخ ، ثم دعا بدواة فكتب له بتسويغه خراجه ثلاث سنين ، وقال له : إن نشطت لنا فالحق بنا ، وإلا فأقم بمكانك ، فقال: فأنا أتجهز وألحق بالأمير ، ففعل فلحق بنا بمصر، ولم يزل مع عبد الله لا يفارقه ،حتى رحل إلى العراق فودعه ، وأقام ببلده !

سليمان بن وهب

هو أخو الحسن بن وهب ، كان أخوه الحسن بن وهب ينتمى إلى بنى الحارث ابن كعب ، استوزر سليمان المهتدى ولقبه الوزير حقا ، لأن من كان قبله كان غير مستحق للوزارة ولا مستقل بها ، ولما ولاه قام إليه رجل من ذوى حرفته فقال : أعز الله الوزير ، خادمك المؤمل دولتك ، السعيد من أيامك ، المطوى القلب على ودك ، المنشور اللسان بمدحك ، المرتهن بشكر نعمتك ، وقد قال الشاعر :

وفيت كل أديب ودنى ثمنا   إلا المؤمل دولاتى وأيامى
فاننى ضامن ألا أكافئه   إلا بتسويغه فضلى وإنعامى

وإنى لكما قال القيسى : مازلت أمتطى النهار إليك ، واستدل بفضلك عليك ، حتى إذا جننى الليل، فقبض البصر، ومحا الأثر ، أقام بدنى، وسافر أملى ، وإذ بلغتك فهو مرادى فقط . فقال له سليمان : لا عليك فانى عارف بوسيلتك ، محتاج إلى كفايتك ، ولست أؤخر عن أمرى النظر فى أمرك، وتوليتك ما يحسن أثره عليك .

ولما استوزر سليمان جلس للناس ، فدخل إليه شاعر يقال له هارون بن محمد البسالسى فذكر مظلمة له ببلده ، ثم أنشده :

زيد فى قدرك العلى علو   يابن وهب من كاتب ووزير
أسفر الشرق منك والغرب عن ضو   ء من العدل فاق ضوء البدور
أنشر الناس غيثكم بعدما كا   نوا رفاتاً من قبل يوم النشور
شرد الجور عدلكم فسرحنا   بينكم بين روضة وسرور

فوقع فى ظلامته ، ووصله بمائة دينار . قال أحمد بن الخصيب : لعهدى بيزيد ابن محمد المهلبى عند سليمان بن وهب بعدما استوزره المهدى ، وقد أجلسه إلى جانبه وهو ينشد قوله :

وهبتم لنا يا آل وهب مودة فأبقت لنا جاها ومجدا يؤثل (١)
فمن كان للآثام والذل أرضه فأرضكم للأجر والعز منزل
رأى الناس فوق المجد مقدار مجدكم فقد سألوكم فوق ما كان يسأل
يقصر عن مسعاكم كل آخر وما فاتكم ممن تقدم أول
بلغت الذى قد كنت أملته لكم وإن كنت لم أبلغ بكم ما أؤمل

فقطع عليه سليمان الانشاد، وقال له : يا أبا خالد فأنت والله عندى كما قال عمارة ابن عقيل لابنه :

أقهقه مسروراً اذا أبت سالما وأبكى من الاشفاق حين تغيب

فقال له يزيد : فيسمع منى الوزير آخر الشعر لا أوله ، وتمم فقال :

ومالى حق واجب غير أننى بجودكم فى حاجتى أتوسل
وأنكم أفضلتم وبررتم وقد يستتم النعمة المتفضل
وأوليتم فعلا جميلا مقدما فعودوا فان العود بالحر أجمل
وكم ملحف قد نال ماراح منكم ويمنعنا من مثل ذاك التجمل
وعودتمونا قبل أن نسأل الغنى ولا بذل للمعروف والوجه يبذل

فقال له سليمان : لا تبرح والله إلا بقضاء حوائجك كائنة ما كانت ، ولو لم أستفد من كتبة أمير المؤمنين إلا شكرك ، لرأيت جنابى بذلك ممرعا ، وغرسى مثمراً ، ثم وقع له فى رقاع كثيرة .

ومن قوله وقد نكبه الواثق :

نوائب الدهر أدبتنى وإنما يوعظ الأديب
قد ذقت حلواً وذقت مراً كذاك عيش الفتى ضروب
ما مر بؤس ولا نعيم إلا ولى فيهما نصيب

ومن قوله يرثى أخاه الحسن :

مضى مذ مضى عز الليالى وأصبحت لآلى الحجى والقول ليس لها نظم
وأضحى نجى الفكر بعد فراقه إذا هم بالافصاح منطقه كظم (٢)

---

(١) يؤثل : يتأصل ويثبت .

(٢) كظم : سكت وصبر .

ومن قوله وفيه غناء :

أمين الخالق البارى وراعى كل مخلوق
أدر راحك فى المعشو(١) ق من راحة معشوق

ولما قبض الموفق على سليمان بن وهب وابنه عبد الله تذاكر جماعة أنه إنما استكتبهما ليقف منهما على ذخائر موسى بن بغا وودائعه ؛ فلما استقصى ذلك نكبهما لكثرة مالهما ، فقال ابن الرومى وكان حاضراً :

ألم تر أن المال يتلف ربه إذا جم(٢) آتيه وسد طريقه
ومن جاور الماء الغزير مجمه وسد مغيض الماء فهو غريقه

ومات سليمان فى محبسه وهو مطالب :

أبو العيناء

١٧١ — ٢٨٣ هـ

يقول الرواة أن أبا العيناء ولد فى آخر المائة الثانية وتوفى سنة ٢٨٢ ، أو سنة ٢٨٣ هـ ؛ فمن ثم يكون قد أظلته خلافة المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل والمنتصر والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد ، وصدر من خلافة المعتضد بالله الذى تولى سنة ٢٧٩ وتوفى سنة ٢٨٩ هـ . ولقد كانت الحياة فى عصر أبى العيناء كلها ترف ولذة ، يسودها المجون والخلاعة ، ويروج فيها العبث واللهو ، وقد روى لنا المؤلفون كثيراً من مجالس لهوهم ومنادمتهم ، ومساجلات الشعراء فى خلواتهم .

اتصل أبو العيناء بالمتوكل اتصالا شديداً ، وسنعلم إلى أى حد أثر فيه هذا الاتصال ، ولم يقتصر اتصاله بالخلفاء على المتوكل ، وإنما اتصل بغيره كما اتصل به ، ولكن المتوكل هو الذى رفع له الحجاب ، وجعل يصغى لأحاديثه ، ولقد بهره

---

(١) المعشوق : قصر عظيم بالجانب الغربى من دجلة قبالة سامراء فى وسط البرية ، عمره المعتمد على الله .

(٢) جم الماء كنصر وضرب : كثر واجتمع .

منه تلك البديهة الحاضرة ، وذاك الذكاء الوقاد ، حتى رأيناه يمزح معه فى كثير من مجالسه ، ويرفع الكلفة بينه وبينه .

ويظهر من أقوال الرواة أن أبا العيناء حينما ارتحل إلى بغداد كان الخليفة المأمون على رأس الدولة ، فاتصل به ، وعرف وزيره الحسن بن سهل ، وأخذ منهما الصلات والعطايا ، ولقد أثر ذلك المعروف فى نفسه ، حتى قال لما بلغه موت الحسن بن سهل : والله لئن أتعب المادحين ، لقد أطال بكاء الباكين ، والله لقد أصيب بموتـــه الأنام ، وخرست لفقـــده الأقلام . قال أبو العيناء : حصلت لى ضيقة شديدة فدخلت يوما على يحي بن أكثم فقال : إن أمير المؤمنين المأمون جلس للمظالم وأخذ القصاص، فهل لك فى الحضور ؟ قلت نعم ومضيت معه، فلما دخلنا أجلسه وأجلسنى ، ثم قال يا أبا العيناء: بالألفة والمحبة ما الذى جاء بك فى هذه الساعة ؟ فأنشدته :

لقد رجوتك دون النـاس كلهم   وللرجاء حقوق كلهـا تجب
إن لم تـكن لى أسباب أعيش بها   فنى العلا لك أخلاق هى السبب

فقال لغلامه : انظر أى شىء فى بيت مالنا دون مال المسلمين ، فقال بقية من مال، قال فادفع له منها مائة ألف، وابعث له بمثلها فى كل شهر . فلما كان بعد أحد عشر شهراً مات المـأمون ، فبكى عليه أبو العيناء حتى تقرحت أجفانه ، فقال له بعض أولاده : يا أبتاه بعد ذهاب العين ماذا ينفع البكاء . فقال :

شيئان لو بكت الدماء عليهما   عيناى حتى يؤذنا بذهاب
لم يبلغا المعشار من حقيهما   فقد الشباب وفرقة الأحباب

وبرواية أخرى: قال أبو العيناء: (١) حصلت لى ضيقة شديدة، فكتمتها عن أصدقائى، فدخلت يوماً على يحي (٢) بن أكثم ، فقال : إن أمير المؤمنين المأمون جلس للمظالم فهل لك فى الحضور ؟ قلت : نعم ! فمضيت معه إلى دار أمير المؤمنين ، فلما دخلنـا عليه أجلسه وأجلسنى ، ثم قال : يا أبا العيناء ، ما الذى جاء بك فى هذه الساعة ؟ فأنشدته :

لقد رجوتك دون الناس كلهم   وللرجاء حقوق كلهـا تجب
إن لم تـكن لى أسباب أعيش بها   فنى العلا لك أخلاق هى السبب

---

(١) ثمرات الأوراق للحموى ص ٢٤٥ ج ٢ .   (٢) ابن يحي أكثم : قاض رفيع القدر ، عالى الشهرة ؛ مات سنة ٢٤٢ هـ

فقال : لخازنه ، انظر أى شىء فى بيت مالنا دون مال المسلمين ؟ فقال : بقية من مال! قال : فادفع إليه مائة ألف درهم ، وابعث له بمثلها فى كل شهر ! فلما كان بعد أحد عشر شهراً مات المأمون ، فبكى عليه أبو العيناء حتى تقرحت أجفانه ، فدخل عليه بعض اولاده ، فقال : يا أبتاه ! بعد ذهاب العين ، ماذ ينفع البكاء ؟

ولأبى العيناء شعر ورسائل مشهورة فى البلاغة

المبرد

٢١٠ — ٢٨٥ هـ

المبرد عالم جليل من أعلام اللغة العربية ، عاش فى القرن الثالث (٢١٠-٢٨٥هـ)، يخدم اللغة والثقافة ، ويدرس مذهبه فى النحو وآراءه فيه لتلامذته ، ويبحث ويكتب ويؤلف ويعلم ، حتى أصبح بحق شيخ العلماء والنحاة وإمام العربية وقطبها.. وأهم مؤلفات المبرد هو كتابه الكامل ، الذى يعد من أهم مصادر الأدب العربى ، وضمنه آراءه فى الأدب والنقد والبيان ، وأشار فيه إلى بعض آرائه فى النحو العربى ودراسته ، وكتاب الكامل مجموعة كبيرة من الأدب العربى، شعره ونثره ؛ فى العصر الجاهلى والاسلامى والأموى وصدر عصر المحدثين ، ساقها المبرد على غير نظام ولا ترتيب، وأضاف اليها شروحا وتعليقات وتفسيرات وتوجيهات قيمة فى دراسة الأدب العربى ، ونحن يعنينا هنا أن ندرس كل ما يتصل بالبلاغة والبيان فى كتاب « الكامل للمبرد » لنتبين أثره فى هذا الميدان . . والبيان العربى أو قل البلاغة العربية دراسة خطيرة لأصول التعبير والأداء والذوق الأدبى فى اللغة العربية ، وقد ساعد على إنضاج هذه الدراسات مجهود العلماء المتواصل إلى آخر القرن الثالث الهجرى ، فى كشف أسرار البلاغة العربية ، ودراسة أصولها وعناصرها وألوانها ، ولكن مجهود هؤلاء كان مفرقا موزعا على المناسبات ، يأتى عرضا حين تحليل بيت أو ذكر قصيدة ، وأهم العلماء الذين كان لهم أثرهم فى بدء نواة هذه البحوث البيانية هو الجاحظ صاحب البيان والتبيين ، ثم جاء المبرد ، وألف كتابه « الكامل » فجاء فيه كثير من الآراء فى البيان والبلاغة : بعضها استنبطه وابتكره ، وبعضها

الآخر تابع فيه الباحثين قبله: كالجاحظ وابن قتيبة وسواهما ، هذا فضلا عن أنه ألف كتاب «قواعد الشعر» وكتاب «البلاغة (١)» ، مما لا شك فى أثره واتصاله بالبيان ودراسات البلاغة فى مرحلة نشأتها الأولى . ونحن نشير هنا إلى أهم هذه الاراء التى وردت فى «الكامل» :

أشار المبرد إلى أسلوب القلب (٢) فى كامله ، وذهب إلى جوازه فى الكلام للاختصار إذا لم يدخله لبس (٢) ، وعلى نهج المبرد فى ذلك سار ابن فارس فى الصاحبى (٣) ، ويسمى قدامة هذا الأسلوب (المقلوب) ، ويجعله من عيوب ائتلاف المعنى والوزن معا (٤) .

وأشار المبرد فى « الكامل » إلى أسلوب « الالتفات (٥) » ، قال : والعرب تترك مخاطبة الغائب إلى مخاطبة الشاهد ومخاطبة الشاهد إلى مخاطبة الغائب .

وقد سبق أبو زيد فى « جمهرة أشعار العرب » المبرد إلى ذكر هذا الأسلوب(٦) ، وسار على نهجه ابن فارس (٧) .

وعرف المبرد السجع بأنه ائتلاف أواخر الكلام على نسق ، كما تأتلف القوافى (٨) . وهو روح كلام الجاحظ الذى عرف السجع بأنه الكلام المزدوج على غير وزن(٩) . والسجع يذكره أرسطو فى خطابته ، ويوجب أن « يكون كل واحد من المصاريع مسوقا إلى المصراع الذى يليه والذى إنما يتم به المعنى (١٠) » ، ويذكر الجاحظ آراء رجال البيان فى السجع وآثر المطبوع منه(١١) ، كما أشار الجاحظ إلى الازدواج(١٢) . ويذكر قدامة فى نقد النثر أن « من أوصاف البلاغة

---

(١) ٨٨ فهرست ابن النديم .

(٢) ٢١٧ / ١ الكامل للمبرد ، وص٣٨ من كتاب ما اتفق لفظه واختلف معناه من القرآن الكريم للمبرد .

(٣) ص ١٧٢ / الصاحبى فى فقه اللغة العربية .

(٤) ١٣٠ نقد الشعر .

(٥) ١٧١ / ١ و٣٠ / ٢ الكامل المبرد .

(٦) ص ٣ الجمهرة ط ١٩٢٦ (٧) ١٧٢ الصاحبى (٨) ١/٣٨٢ الكامل

(٩) ١/١٣٣ البيان والتبيين ط ١٩٢٧ (١٠) الخطابة من كتاب الشفاء لابن سينا (١١) ١/١٩٤ وما بعدها من البيان والتبيين (١٢) ٢/٩٦ و ٣/١٦ البيان

السجع فى موضعه وعند سماح القريحة به ، وأن يكون فى بعض الكلام لا فى جميعه (١) .

وقسم المبرد فى « كامله » الكلام إلى الاختصار المفهم والأطناب المفخم ، وقال : « وقد يقع الايماء إلى الشيء فيغنى عند ذوى الألباب .. وان قيل: بل الكلام القبيح فى الحسن اظهر ، كان ذلك ، ولكن يغتفر السيء للحسن ، والبعيد للقريب .

ويشير المبرد إلى التعقيد اللفظى فى بيت الفرزدق :

وما مثله فى الناس إلا مملكا　　أبو أمه حى أبوه يقاربه

ويشرح البيت وينقده . ويشير إلى أسلوب الاستعارة التمثيلية فى قولك « فلان عليه دين أو ركبه دين » تريد أن الدين علاه وقهره ، ويذكر مثلا للتمثيل كقوله تعالى « والسموات مطويات بيمينه » وسواه . ويشير إلى مثل للاستعارة ويحللها ، ويشير أيضا إلى الاستعارة ويقول : « والعرب تستعير من بعض لبعض» ، وقد سبقه الجاحظ بتعريف الاستعارة(٢) الذى هو روح تعريف المبرد ،

ويحلل المبرد فى الكامل مثلا من أمثلة التجريد . . ويشير إلى أسلوب اللف والنشر ، فيقول : « والعرب تلف الخبرين المختلفين ثم ترمى بتفسيرهما جملة ، ثقة بأن السامع يرد إلى كل خبره الخ » ، وسار على نهجه الصاحبي(٣) ، وقدامة يسمى ذلك صحة التفسير (٤) . . ويشير المبرد إلى مثل للكناية الاصطلاحية (٥) ، ويسميها ابن فارس فى الصاحبي الايماء (٦) ، ويقسم الكلام إلى مصرح وما يكنى عنه بغيره وما يقع مثلا فيكون أبلغ فى الوصف ، ويذكر أقسام الكناية (٧) وإن كان المبرد يقصد الكناية اللغوية لا الاصطلاحية ، وكذلك فعل ابن فارس فى الصاحبي (٨) . ويشير المبرد إلى أسلوب التغليب : كالقمرين للشمس والقمر ، والعمرين لأبى بكر وعمر . . إلى ما سوى ذلك من الاراء البيانية التى تضمنها الكتاب .

وبعد فلاشك أن هذه الآراء كلها وردت مبثوثة مفرقة فى الكامل ، وخالية من الاصطلاحات العلمية ، وحينما يقف عند أسلوب من أساليب البيان ويحلله ويعجب

(١) ١٠٧ نقد النثر　　(٢) ١١٤ ج ١ البيان والتبيين .

(٣) ٣٠٦ الصاحبي .

(٤) ٨١ نقد الشعر .　　(٥) ٧٧ و ١٦٦ / ٢٩٢،١ و ١٨١ / ٢ الكامل

(٦) ٢١٠ الصاحبي　　(٧) ٦٥ و ٦٦ ج ٢ الكامل　　(٨) ٢١٨ و ٢١٩ الصاحبي

به ولا يسميه ، لأن علماء البيان والأدب لم يكونوا قد وضعوا له اسما ، وإنما بلاغته وسحره لا يخفيان على متذوق .

أبو العباس ثعلب

٢٠٠ — ٢٩١ هـ

إمام الكوفيين فى النحو واللغة ، أبو العباس أحمد بن يحي بن زيد بن يسار الشيبانى ، المعروف بثعلب(١) ، الامام النحوى اللغوى المشهور .

ولد فى الكوفه عام ٢٠٠ هـ ونشأ بهـا ، والكوفة يومئذ مدرسة جامعة من مدارس العربية والشعر والأدب والنحو ، وعلماؤها لهم منزلتهم العلمية عند العلماء ، ومكانتهم الكبيرة فى قصور الأمراء والخلفاء والوزراء . وأخذ حب العربية يغلب عليه ، فعكف على دراستها وتفرغ لها وهو فى سن السادسة عشرة ، وما بلغ سن الخامسة والعشرين حتى طار صيته فى النحو والعربية ، وذاع ذكره ، واختلف الناس إليه (٢) . أخذ عن ابن الأعرابى م ٢٣١ هـ اللغة . وعن سلمة بن عاصم م ٢٣٧ هـ النحو ، وروى عن ابن نجدة كتب أبى زيد الانصارى ، وعن الاشرم كتب أبى عبيدة ، وعن أبى نصر كتب الأصمعى ، وعن عمر بن ابى عمرو كتب أبيه أبى عمرو بن العلاء ، وحفظ كتب القراء كلها وسنة لم تتجاوز الخامسة والعشرين ، وكان ثعلب يدرس كتب الفراء م ٢٠٧ هـ والكسائى .. وثعلب من أعلام الكوفيين فى النحو (٣)؛ وكان يعاصر ثعلبا من أئمة النحويين : أبو عبيدة م ٢١٣ هـ والاصمعى م٢١٥هـ وأبو زيد الانصارى م ٢١٥ هـ وابن سلام الجمحى م ٢٣١ هـ والأخفش الأوسط م ٢١٨ هـ ، والجرمى م ٢٢٥ هـ ، والتوزى م ٢٣٨ هـ ، والمازنى م ٢٤٩ هـ والزيادى م ٢٤٩ هـ ، وأبو حاتم السجستانى م ٢٥٥ هـ ، والرياشى م ٢٥٧ هـ

---

(١) راجع ترجمته فى : ص ١١٠ — ١١١ فهرست ابن النديم ، و ٢٩٣ نزهة الالبا فى طبقات الادبا ، و ١٣٣ — ١٥٤ / ٢ معجم الادباء نشر مرجليوث ، و ١٠٢ — ١٤٦ / ٥ معجم الادباء نشر فريد رفاعى ، و ٥١٢ / ١ وفيات الاعيان لابن خلكان ، و ١٨٠ /٢ تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ، و ٢١٦/٤ وما بعدها مروج الذهب للمسعودى ، و ١/٨٤ كتاب الأعلام و ٤١ كتاب طبقات المفسرين ، و ٤٥ كتاب غاية النهاية و ١٧٢ بغية الوعاة للسيوطى .

(٢) ١٤٠/ ٥ معجم الأدباء . (٣) راجع ١٤٣/٥ المرجع نفسه .

والمبرد م ٢٨٥ هـ . كما كان يعاصره من أئمة النحويين الكوفيين : ابن حازم المعروف باللحيانى م ٢٢٠ هـ ، وأبو عبيد القاسم ابن سلام م ٢٢٣ هـ ، وابن الأعرابي م ٢٣١ هـ ، وابن سعدان م ٢٣١ هـ ، والطوال م ٢٤٣ هـ ، وابن السكيت م ٢٤٤ هـ ، وأبو جعفر محمد بن قادم م ٢٥١ هـ . كما عاصره : ابن دريد (٢٢٣ — ٣٢١)، وسواه من العلماء . وكان من أساتذته : محمد بن زياد الأعرابي ولزمه بضع عشرة سنة (١) ، وسلمة ابن عاصم ، ومحمد بن سلام الجمحى ، والزبير بن بكار م ٢٥٦ هـ ، وغيرهم ؛ وكان يعنى بالنحو أكثر من عنايته بغيره ، فلما أتقنه أكب على الشعر والمعانى والغريب ، وقدم الرياشى البصرى بغداد عام ٢٣٠ ، فأخذ عنه ثعلب أيام الناس والأخبار والأشعار (٢) . وكان ثعلب ثقة ديناً ، مشهورا بصدق اللهجة ، والمعرفة بالغريب ورواية الشعر القديم ، مقدماً بذ الشيوخ وهو حدث ، ثقة بعلمه وحفظه ، أصدق أهل العربية لساناً ، وأعظمهم شأناً ، وأبعدهم ذكراً ، وأرفعهم قدراً، وأوضحهم علماً ، وأرفعهم مقاماً ، وأثبتهم حفظاً ، وأوفرهم حظاً فى الدين والدنيا(٣) ، وكان ثقة متقنا حجة ، كما يقول أبو الطيب فى مراتب النحويين(٤) ، وتبحر فى مذهب البصريين(٥) ، فوق إمامته فى النحو على المذهب الكوفى . وكان مشهوراً بغزارة حفظه ، ومع ذلك لم يكن موصوفا بالبلاغة ؛ وإذا كتب إلى بعض إخوانه من أصحاب السلطان لا يخرج عن طبع العامة ، فإذا أخذ فى الغريب والشعر ومذهب الفراء والكسائى رأيت من لا يفى به أحد ، وكان هو والمبرد عالمين ختم بهما تاريخ الأدب(٦) ؛ وإليه وإلى المبرد انتهى الاجتهاد فى النحو(٧) ؛ كما انتهى علم الكوفيين إلى ابن السكيت وثعلب وكانا ثقتين ، كما يقول أبو الطيب فى مراتب النحويين(٨) . وتتلمذ عليه كثير من العلماء وفى مقدمتهم : الأخفش م ٣١٨ هـ ، وابن عرفة نفطويه م ٣٢٣ هـ ، والزجاجى البغدادى النحوى م ٣٠٧ هـ ، والزجاج م ٣١١ ، وابن الأنبارى . كما تتلمذ عليه ابن المعتز(٩)

---

(١) ١٠٩/٥ معجم الأدباء (٢) ١٣٢/٥ المرجع
(٣) ١٩٣ وما بعدها نزهة الألبا (٤) ١١٩/٥ معجم الأدباء
(٥) ١٢٠/٥ المرجع (٦) ١٢٢/٥ المرجع
(٧) نشأة النحو للشيخ محمد طنطاوى (٨) راجع ١٢٧/٥ معجم الأدباء
(٩) ٣٠١ نزهة الألبا ، ٣٤١ فوات الوفيات ، ١٤٠/٥ التمدن الاسلامى، =

م ٢٩٦ ه، وقدامة م ٣٣٧ ه، والصولى م ٣٣٦ ه، وسواهم من الأدباء والعلماء والشعراء والأمراء. وكان على بن محمد الكوفى أحد أعيان تلاميذه(١)؛ وكان أبو على أحمد بن جعفر النحوى ختنه زوج ابنته.. ومع ذلك كان يختلف إلى المبرد ويأخذ منه(٢).

وكان بين المبرد وثعلب الكثير من المناظرات؛ وتعصب لكل منهما كثير من العلماء. واختلف الناس فى تفضيل أحدهما على الآخر؛ والمنصفون من العلماء ينوهون بالرجلين ويرفعون من شأنهما. وسئل أبو بكر بن السراج تلميذ المبرد م ٣١٦ ه عنهما أيهما أعلم؟ فقال: ما أقول فى رجلين العالم بينهما(٣).

عاصر ثعلب المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل والمستعين والمعتز والمهتدى والمعتمد والمعتضد والمكتفى، وعاش مبجلا عند الأمراء والخلفاء والعلماء وعامة الناس، وجمع ثروة كبيرة، وكان مع ذلك مقترا على نفسه، ولم يرزق غير بنت واحدة، وتوفى ليلة السبت لثلاث عشرة بقيت من جمادى الأولى عام ٢٩١ ه فى خلافة المكتفى، ودفن بمقابر باب الشام، وقبره هناك معروف(٤).. ولشاعر فى رثائه:

مات ابن يحيى فماتت دولة الأدب ... ومات أحمد أنحى العجم والعرب

فإن تولى أبو العباس مفتقداً ... فلم يمت ذكره فى الناس والكتب

وترك ثعلب ثروة علمية كبيرة وكتبا مشهورة متداولة بين الناس فى عصره، منها:

١ — شرح ديوان زهير، ومنه نسخة خطية فى الاسكوريال.

٢ — « « الأعشى « « « « «

٣ — كتاب الأمالى ذكره صاحب المزهر وصاحب خزانة الأدب، ومنه نسخة خطية فى مكتبة برلين(٥)، وفى المكتبة الخديوية نسخه منه(٦) باسم «مجالس

= ٩٥/١٠ تاريخ بغداد، ١٠٧ و ١١٤ و ١١٦ الأوراق للصولى قسم أشعار أولاد الخلفاء، ١٧٢ أدب الكتاب الصولى. (١) ١٢٧/٥ معجم الأدباء

(٢) ١٢٠/٥ المرجع (٣) ١٣٨ ج ٥ المرجع (٤) ١٠٥ ج ٥ معجم الأدباء

(٥) ١٨٠ ج ٢ تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان

(٦) بنمرة ٢٣ ش لأبى مقسم النحوى، وهى مجموعة مجالس يروى أكثرها عن أستاذه ثعلب. مجلد مخطوط

ثعلب » فى ١٣٢ صفحة ، وسننشره إن شاء الله .

٤ — كتاب الفصيح ؛ ويعرف بفصيح ثعلب ، وقد نشرناه عام ١٩٤٨ .

٥ — قواعد الشعر، وقد نشرناه من مدة قريبة ، وقد طبع بليدن عام ١٨٩٠م طبعة سقيمة محرفة فيها الكثير من الأخطاء . وفيه آراء كثيرة فى النقد والبيان .

٦ — ومن كتبه أيضا : حد النحو ، غريب القرآن ، معانى الشعر ، المصون فى النحو ، اختلاف النحويين ؛ وغيرها من نفائس المؤلفات التى بددتها الأيام .

وبعد ؛ فثعلب إمام من أئمة العربية ، مقدم عند العلماء . وله مع ذلك كله روايات كثيرة فى الأدب ، تجد بعضها فى الموشح لمرزبانى ؛ كما أن له ذوقا فى فهم الشعر ونقده ، عاب قول قيس بن الخطيم : « كأنها عود بانة قصف » :
لأن المرأة تشبه بالعود المتثنى لا المتقصف(١) . وكان يفضل جريراً على الفرزدق(٢) ، وكان هو وابن الأعرابى يتعصبان على أبى تمام(٣) . ويشرح ثعلب بيت العباس بن الأحنف :

سأطلب بعد الدار عنكم لتقربوا ‌ ‌ ‌ ‌ وتسكب عيناى الدموع لتجمدا

بأن الانسان قد يفارق محبوبه رجاء أن يغنم فى سفره فيعود إلى محبوبه مستغنياً عن التصرف ، فيطول اجتماعه معه(٤).
وهكذا كان ثعلب بحق إماما جليلا ، وشيخا معدودا من شيوخ اللغة والأدب والشعر والعربية ؛ فرحمه الله وأجزل مثوبته كفاء خدمته للعلم والدين ولغة الكتاب الحكيم .

ولثعلب كتاب قواعد الشعر .. و قواعد الشعر أحد مؤلفات هذا العالم الكبير ، وللمبرد كتاب اسمه : « قواعد الشعر » أيضا ، لا ندرى عنه ولا عن موضوعه شيئا ، ولا نعلم من منهما الذى سبق بتأليف كتابه ، وإن كان يغلب على ظنى أن ثعلبا هو السابق بتأليف كتابه لتقدمه فى السن ، والكتاب جديد فى شتى نواحيه :

---

(١) ٣٤٧ الموشح للمرزبانى . ‌ ‌ ‌ ‌ (٢) ١١٧ الموشح للمرزبانى .
(٣) ٣٢٩ الموشح للمرزبانى . ‌ ‌ ‌ ‌ (٤) راجع ١٣٤/٥ معجم الأدباء .

أما من حيث موضوعه فقد درس ثعلب فى الكتاب هيكل الشعر العربى دراسة عامة جيدة جميلة مبتكرة ؛ فتكلم على قواعد الشعر العامة وأنها أربع : أمر ونهى وخبر واستخبار ، ولا شك أن ذلك لا يختص بالشعر وحده ، بل النثر مثله فيه ؛ كما عرض لفنون الشعر وقسمها إلى : مدح وهجاء ومرثية واعتذار وتشبيه وتشبيب واقتصاص أخبار . وذكر شواهد التشبيه الجيد ، وشواهد لرائع المديح . ثم تحدث عن : المبالغة (الافراط فى المعنى) ، وذكر شواهد لها من الشعر العربى ؛ وعن لطافة المعنى (التعريض والكناية بدل التصريح) وشواهدها ؛ والاستعارة ومثلها ؛ وحسن الخروج أو التخلص كما يقول البلاغيون ، ومجاورة الأضداد أو الطباق كما يسميه البلاغيون ؛ والمطابق وهو نوع من الجناس مع ذكر نماذج لكل باب من هذه الأبواب من جيد الشعر الجاهلى والاسلامى والأموى ، دون أن يتخطى ذلك فى الاستشهاد إلى شعر المحدثين ؛ ثم عرف الجزالة فى الشعر ؛ وتكلم على اتساق النظم ومحترزاته . وأخيراً تجده يقسم الشعر خمسة أقسام ، ويتحدث عن كل قسم ويحدده ويوضحه ، ويذكر شواهد كثيرة له . . وبذلك ينتهى الكتاب .

والكتاب أولى أثر علمى لعالم من علماء القرن الثالث يتحدث فيه مؤلفه عن الشعر بهذا اللون من الدقة والتحديد والوضوح والفهم للشعر والأدب والتذوق لهما ، والوقوف على أثر بلاغتهما . و « والبديع لابن المعتز » م ٢٩٦ هـ لايشارك كتابنا « قواعد الشعر » فى هذا ، لابن المعتز ألف « البديع » ليتحدث فيه عن ألوان البديع العامة كما كان يعرفها هو ويعرفها عصره ، لا ليتحدث عن الشعر بمثل هذا الحديث الجيد النقدى . و « الرسالة العذراء » لابن المدبر م ٢٧٩ هـ لا تشارك « قواعد الشعر » فى ذلك أيضا ، لأنها إلى البلاغة أقرب منها إلى الحديث عن الشعر ، و « الكامل » للمبرد م ٢٨٥ هـ ليس فيه أثر للتخصص فى دراسة الشعر أو البديع أو البلاغة بوجه عام . و « البيان » للجاحظ وما فيه من دراسات عن الشعر أو النقد أو البيان هى دراسات عامة لا تخصص فيها ، والكتاب لم يؤلف لها ، وأحكامه الأدبية والبيانية أحكام مقاربة ، ليس فيها مثل هذا الوضوح ولا مثل تلك الدقة .

وأما أثر الكتاب فى البيان فهو ولا شك أثر كبير ، فنحن نجد أنفسنا لأول مرة أمام عالم يؤلف ويكتب ويتحدث عن كثير من ألوان البديع والبيان : كالتشبيه ، والاستعارة ، ولطافة المعنى ، أو التعريض والكناية كما نقول نحن ، وكالإفراط فى المعنى (المبالغة) ، وحسن الخروج ومجاورة الأضداد (الطباق) ؛

والمطابق (لون من أول الجناس) . والثلاثة الأنواع الأولى هى أصل علم البيان وباقى الأنواع هى أبرز ما فى البديع من فنون . وابن المعتز من غير شك أفاد من أستاذه ثعلب فى هذه الدراسة ، ونحن نكاد نجزم بأن ثعلباً الف هذا الكتاب قبل أن يؤلف ابن المعتز كتابه « البديع » عام ٢٧٤ ﻫ لأن ثعلباً عالم معمر ، ولأنه لو كان ابن المعتز قد سبقه بالتأليف لما أمكن ثعلباً أن يقف عند هذا الحد فى عرض ألوان البيان والبديع الساحرة فى الشعر العربى والتى ألم بها ابن المعتز ، مثل الالتفات والاعتراض وتجاهل العارف والهزل يراد به الجد وحسن الابتداء وحسن التضمين وتأكيد المدح بما يشبه الذم والمذهب الكلامى وغيرها . إذ كان ثعلب ولاشك سيستفيد من دراسات ابن المعتز — لو كان ابن المعتز قد ألف كتابه « البديع » قبل أن يؤلف أستاذه « قواعد الشعر » — وسيحاول أن يقتبس منها بعض الاقتباس فى كتابه.. ومن الغريب أن لا يشير ابن المعتز فى «البديع» إلى كتاب «قواعد الشعر » ، مع أنه ساق بعض الشواهد الواردة فى « قواعدالشعر »، ومع أنه قريب فى تحديد الاستعارة وغيرها من أستاذه ثعلب . بل ومن الغريب ايضا أن يخالفه فى تسمية « المطابق » الذى سماه ثعلب « مجاورة الأضداد » ، وفى تسمية « الجناس » الذى سمى ثعلب نوعا منه «المطابق » ، ولكن لا ضير فى اختلاف الاصطلاحات ، فلكل مؤلف أو مفكر الحق فى تسمية مايشاء بما يشاء ، ومن قبل ذكر أرسطو أنه مطلق لكل أحد احتاج إلى تسمية شيء ليعرفه به أن يسميه بما شاء من الأسماء (١) . ولكن الغريب حقاً أن يقول ابن المعتز عن نفسه « وماجمع فنون البديع ولا سبقنى إليه أحد (٢) » ، فلا شك أن لثعلب الفضل فى أنه جمع فى «قواعد الشعر» بعض ألوان البديع التى ذكرها ابن المعتز فى كتابه مثل : التشبيه والاستعارة ولطافة المعنى والتعريض ومجاورة الأضداد والمطابق .. وهذه الانواع هى أهم ما فى كتاب « البديع » لابن المعتز من ألوان البديع ، و « قواعد الشعر » يمتاز بأنه يعرض لأصل هام فى البلاغة العربية بتقسيمه الشعر : إلى خبر واستخبار وأمر ونهى .

وأما أثر الكتاب فى الأدب والشعر فلا شك فيه لوضوحه ، فهذا الحديث عن الشعر بهذا الأسلوب قد أفاد دراسات الأدب جميعاً ، فوق ما فى الكتاب من شواهد كثيرة من جيد الشعر العربى تبلغ نحو المائتين ، فوق هذا العرض الجميل

(١) ٧٤ نقد النثر ط ١٩٣٧ . (٢) ١٠٦ البديع .

لفنون الشعر وألوانه العامة . وأما أثره فى النقد الادبى بمعناه العام ، فالكتاب نراه يتحدث عن الجزالة فى الشعر ، وعن اتساق النظم ، وعن أقسام أخرى للشعر، فى أسلوب جيد ، وعرض هو إلى النقد أقرب منه إلى الشعر أو البلاغة : مما لاشك فى قيمته فى النقد، فوق قيمته فى دراسات الشعر .

نقد النثر وقـــدامة

— ١ —

« نقد النثر » كتاب رائع فى البيان وأساليبه وفنونه ، من نثر وشعر وخطابة وجدل ومحادثة ، وفى البلاغة وحقيقتها وأوصافها ومظاهر الجمال فيها . والكتاب ينطق عن ثقافة مؤلفه الواسعة ، والمامه البعيد بالكثير من علوم الدين والعربية وعلوم الفلسفة والكلام . وقد تأثر مؤلفه فيه أكثر ما تأثر بكتاب الخطابة لارسطو ، وكتاب البيان للجاحظ ، وهو أول مؤلف كامل فى البيان يطلعنا على التطور التأليفى فى هذا العلم، وقد تولت كلية الاداب نشره فى عام ١٩٣٢، وكتب أستاذان من أساتذتها مقدمتين له ، وقد اعتمدا فى نشره على صورة فتوغرافية للنسخة الوحيدة المخطوطة والمحفوظة بمكتبة الاسكوريال تحت رقم ٢٤٢ ، وقد ثارت ضجة كبيرة حول مؤلف هذا الكتاب ، واختلف فى ذلك العلماء اختلافا كبيراً ، فالمرحوم الاستاذ الشنقيطى (١) والاستاذ العبادى (٢) يتابعان بعض المستشرقين فى أن الكتاب لقدامة بن جعفر م سنة ٣٣٧ ﻫ ، ولكن بروكلمان ودر نبورغ(٣) يريان أن الكتاب لتلميذ لقدامة ورد اسمه على الصفحة الاولى من النسخة الخطية للكتاب ، وهو أبو عبد الله بن أيوب ، ويتابعهما فى ذلك هيوار.. اما الاستاذان لنى دلا فيدا وكرتشوفسكى فيريان أن ابن ايوب رجل اندلسى عاش بعد قدامة بعهد طويل ،وانه استمد نقد النثر من مؤلفات قدامة : ولكن بعض المستشرقين يقفون فى بحثهم موقف الشك ، ويتابعهم فى ذلك الدكتور طه حسين . وبين هذا الاختلاف الكثير ، يجد الباحث مشقة عسيرة فى الوصول إلى نتيجة حاسمة فى ذلك المجال الغامض العسير ، ولكن متابعة البحث والافادة من البحوث التى كتبها الأستاذ الكبير الشيخ محمد عرفة ، والتى اتجه فيها إلى نفى نسبة الكتاب لقدامة ، ودمغ ذلك بحجج قوية ، كل ذلك يؤدى بنا إلى ثلاث نتائج

---

(١) تقرير رقم ٣٤٣ مكتبات بدار الكتب المصريه .
(٢) ص ٤٢ مقدمة نقد النثر للاستاذ العبادى . الطبعة الثانية .
(٣) دائرة المعارف الاسلامية مادة قدامة .

أولا ؛ أن الكتاب ليس لقدامة ، ولا يمكن أن يكون له ، وأدلتنا على ذلك :

(ا) لم يذكر عن قدامة فيما وصل الينا من كتبه أن له كتابا بهذا الاسم ولا فى ذلك الموضوع نفسه ، وقد أرخ لقدامة علماء كثيرون كابن النديم — وهو أقربهم عهدا به وكالخطيب البغدادي وابن خلكان وسواهم ، ولم يذكر أحد منهم أن له كتابا بهذا العنوان ، مع أنهم ذكروا كتابه « نقد الشعر » ، وعنوا به ، وحفزوا بهذه العناية بعض العلماء لشرحه والتعليق عليه .

(ب) ومن العسير أن يؤلف مؤلف كتابين فى موضوع واحد كالنقد ، ثم لا يحيل القارىء فى أحد كتابيه على الآخر ، مع أن مؤلف « نقد النثر » يحيل على كتبه الأخرى كثيراً .

(ج) على أن شك العلماء والباحثين فى نسبة الكتاب لقدامة ، وجزم بعضهم جزماً يعتمد على الدليل بأن الكتاب ليس له ، كل ذلك ينفى أن يكون الكتاب لقدامة .

(د) وشخصية قدامة شخصية المستقل فى آرائه ، المجدد فى بحوثه ، كما نعرفه فى كتابه « نقد الشعر » الثابتة نسبته له ، أما شخصية مؤلف نقد النثر كما تبدو من الكتاب فهى شخصية المحتذى لغيره ، يظهر ذلك فى احتذائه للجاحظ وكتابه « البيان والتبيين » وأخذه الكثير عنه فى كل فصل وباب ، كما يظهر ذلك فى احتجاجه بآراء أرسطو واقتباسه من كتاب « الخطابة » .

(ه) والاتجاه السياسى والدينى لمؤلف نقد النثر هو الاتجاه الشيعى فهو يشيد بعلى وذريته كالحسن والحسين والباقر والصادق والرضا . وقدامة بعيد كل البعد عن ذلك الاتجاه ومظهر ذلك كتابته التأليفية فى « نقد الشعر » ، على أن مكانته البارزة فى الدولة العباسية ومهامه الادارية فى ديوانها كانت تحول بينه وبين الانضمام إلى أعداء الدولة من الشيعيين ، وليس من المعقول أن يكون ذلك جديدا على قدامة ، قد اضطرته اليه الأحداث السياسية التى حدثت فى آخر حياته باستبداد بنى بويه بالخلافة العباسية سنة ٣٣٤ ه ، فخلق قدامة وقصر المدة بين وفاته وقيام الدولة الجديدة مما كان يحول بينه وبين هذا الانقلاب .

(و) وثقافة قدامة ثقافة عقلية صبغت بصبغة الأدب ؛ وهو فى نقد الشعر أعمق بحثا وأكثر فهما للشعر وعناصره ، وهو فيما وضع من موازين للنقد متأثر باتجاهه العقلى الفلسفى ، وكثيرا ما يخطىء فى تطبيقه الموازين العقلية الجامدة على الشعر ،

كما يظهر ذلك فى كتاب « نقد الشعر » . أما ثقافة مؤلف نقد النثر ، فهى ثقافة أدبية علمية صبغت بصبغة الفلسفة ، واتجاهه العقلى أكثر تأثرا بثقافة المتكلمين منه بثقافة الفلاسفة ، وثقافته الدينية واسعة فهو مؤلف فى أكثر علومها ، حتى لقد حاول الاستفادة من وراثها فى فهم البيان ودراسته ، وهذه ناحية جديدة بعيدة عن قدامة كل البعد .

(ز) ومنهج قدامة فى النقد ـ كما تراه فى « نقد الشعر » ـ منهج تفصيلى طريف ، فقد عنى فيه أولا باحصاء مظاهر الأداء البيانى التى تمس الفكرة وترضى العقل وتتجه إلى سلامة المعنى ، مما تأثر به ابن سنان الخفاجى من بعده فى بحثه البيانى فى البلاغة والمعانى . ولكن منهج مؤلف « نقد النثر » فى نقد البيان منهج إجمالى خصب ، اتجه فيه صاحبه إلى بحث ألوان البيان وفنونه عامة ، وإلى بحث البلاغة وعناصرها ، وإلى تطبيق نظرية المطابقة لمقتضى الحال على الشاعر والناثر والخطيب ، وهو فى هذا الاتجاه الاجمالى لايجيد البحث التفصيلى فى مظاهر الجمال .

(ح) وأسلوب قدامة أسلوب مرسل بعيد عن السجع والازدواج . أما أسلوب مؤلف « نقد النثر » فأسلوب أديب حريص على السجع ، فان لم يواته السجع واتاه الازدواج (١) . والتفاوت بين أسلوبين دليل قوى على أن الكتابين لشخصيتين مختلفين ، وشتان بين أسلوب رجلين : فيلسوف يتأدب ، وأديب يتفلسف ، والموازنة بين البحوث المشتركة فى الكتابين تؤدى إلى ما نذهب اليه ـ وإن قل ما بينهما من اشتراك ـ : فبين كل من الكتابين تباين كثير فى الموضوعات المشتركة : فى الاتجاه والروح وفى العرض والتحليل ، فبحث كالتشبيه فى نقد الشعر مباين لنفس هذا البحث فى نقد النثر (٢) ، والاستعارة عند مؤلف نقد الشعر غيرها عند مؤلف نقد النثر (٣) ، وجمال الشعر عند قدامة غيره مؤلف نقد النثر ، ومن العسير على الباحث أن يأخذ هذا الاتفاق فى الموضوعات على علاته كدليل على أن الكتابين لمؤلف واحد ، فالدراسة المقارنة لهذه البحوث المشتركة ، هى وحدها الحكم فى شخصية المؤلفين ، ومصدر الكتابين .

---

(١) راجع مثلا ص ٥ نقد النثر .

(٢) ٦٥ نقد الشعر ، ٥٨ نقد النثر (٣) ١٠٤ — ١٠٦ نقد الشعر ، ٧٠ نقد النثر

ثانيـا

ا ـ أبو عبد الله محمد بن أيوب بن محمد الذى ورد اسمه فى الصفحة الأولى من النسخة الخطية للكتاب ، والذى لم يهتد لشخصيته الكثير من الباحثين ، والذى زعم بعض المستشرقين أنه مؤلف الكتاب ، هـو فقيه وقاض أندلسى عاش ما بين ٥٣٠ — ٦٠٨ هـ (١) : فليس هو تلميذا لقدامة كما ذهب إليه بروكلمان وسواه .

ب ـ وليس ابن أيوب هذا هو مؤلف الكتاب كما ذهب إليه درنبورغ : وهيوار ولفى دلافيدا وكرتشو فسكى وسواهم . ودليلنا على ذلك :

١ ـ ثقافة الكتاب وروحه واتجاهه وبحوثه والأعلام الواردة فيه تؤكد لنا تأكيدا جازما بأن الكتاب من إنتاج أول القرن الرابع على أقصى تقريب

وقد ورد فيه أعلام كابن دريد وكتابه « الملاحن » (٢)، وابن دريد علم لغوى عاش من ٢٢٣ — ٣٢١ ، وكابن التسترى (٣) وهو قريب العهد من صنائع بنى الفرات(٤) . وكان أديبا يلتزم السجع ويستعمل الغريب ويتقعر فى منطقه (٥) . وعاش فى أواخر القرن الثالث (٦) ، ولعله أبو سهل عبد الله التسترى المتوفى عام ٢٨٢هـ . وليس فى ذكر المؤلف لابن دريد ولا لابن التسترى ومشاهدته إياهما تناقض مع نقول .

٢ ـ يأخذ ابن سنان الخفاجى فى كتابه سر الفصاحة وعبد القاهر الجرجانى فى كتابيه الأسـرار والدلائل بعضا من الآراء المبسوطة فى الكتاب ، فنهج عبد القاهر فى الدفاع عن الشعر (٧) وفى تقسيم التشبيه (٨) هو منهج مؤلف نقد النثر (٩) . والرأى الذى ناقشه ابن سنان ـ من أن للايجاز مواضع وللاطناب مواضع هو الرأى الذى بسطه مؤلف نقد النثر (١٠) . . ولا يعقل أن يأخذ هذان العالمان من ابن أيوب وهما فى القرن الخامس وهو فى السادس والسابع

٣ ـ وليس لابن أيوب صلة بالكتاب سوى أن هذا الكتاب قد نسخ له فى آخر القرن السادس الهجرى وكتب الناسخ اسمه على النسخة التى كتبها ، كما ترشدنا إلى ذلك العبارة فى عنوان هذه النسخة الخطية التى حيرت فى فهمها الباحثين ؛ وهى

(١) تكملة الصلة لابن الأبار ج ١ ص ٢٩٧ — ٢٩٩
(٢) ٦٩ نقد النثر (٣) ١٠٨ نقد النثر (٤) ١٩٣ فهرست (٥) ١٠٨ نقد النثر (٦) هامش ١٠٨ نقد النثر (٧) ص ١٣ وما بعدها دلائل الاعجاز (٨) ٧٠ وما بعدها اسـرار البلاغة (٩) ٥٨ و٧٧ و ٧٩ - نقد النثر
(١٠) ٩٧ نقد النثر

كتاب «نقد النثر» مما عني به أبو الفرج «قدامة بن جعفر» الكاتب العراقي رضي الله عنه وأرضاه للفقيه المكرم أبي عبد الله محمد بن أيوب بن محمد نفعه الله به ، وهو الكتاب المعروف بكتاب البيان

ثالثاً : وإذا كان الكتاب ليس لقدامة ، ولا لابن ايوب فلمن هو إذاً من العلماء؟ لقد واليت البحث في ذلك ، وخلت أن الكتاب قد يكون لتلميذ لقدامة تأثر فيه بآراء أستاذه في النقد والبيان ، فحمل بعد عصره على أن الكتاب لاستاذه ، وسمي «نقد النثر» ، وإن كان اسمه في الحقيقة «البيان» ، ولكن البحوث التي قمت بها أثبتت خطأ هذا الظن ، وقد يكون الكتاب لوالد قدامة : «جعفر بن قدامة بن زياد» المتوفى سنة ٣١٩هـ ، وليس لابنه قدامة . وجعفر هذا هو أحد مشايخ الكتاب وعلمائهم وافر الادب حسن المعرفة ، وله مصنفات في صنعة الكتابة وغيرها (١) ، والادلة التي تؤكد هذا الرأي هي :

١ — ثقافة الكتاب العلمية لا تدل على أنه من معين ثقافة القرن الرابع الواسعة وإنما تدل على أنه قد ألف بعد عصر الجاحظ سنة ٢٥٥ هـ وفي أواخر القرن الثالث الهجري ، والاعلام الواردة في الكتاب والتي لا تتجاوز ذلك التاريخ أصدق شاهد على ما نقول ، وتأليفه في معارضة كتاب البيان للجاحظ (٢) مما يزيد ذلك قوة .

٢ — وكثير من مؤلفات جعفر قد نسب لابنه قدامة خطأ (٣) ، كما أن بعض الباحثين قد شك في نسبة بعض كتب قدامة له ، ورأى انها لأبيه ، كالمطرزي شارح المقامات المتوفى سنة ٦١٠ هـ

٣ — وصنعة الكتابة التي قال الخطيب البغدادي إن لجعفر مؤلفات فيها ترادف كلمة نقد النثر وكلمة البيان ، وهي اصطلاحات كانت تدل في ذلك العصر على قواعد البيان التي يضعها العلماء للكتاب ، يفصلون لهم فيها مشكلات البيان العربي وبلاغته ، ويرسمون فيها المذاهب الأدبية التي يجب على الكتاب احتذاؤها ، وذلك كله ما نراه مبسوطا في « نقد النثر » مما يدل على أنه من مؤلفات جعفر في صنعة الكتابة

٤ — وظاهرة التشيع التي نراها في نقد النثر لا تنبع إلا من قلب رجل لم يخلص للدولة إخلاص قدامة ، وعاش بعيداً عن مناصبها كما عاش جعفر

---

(١) جـ ٧ ص ٢٠٥ تاريخ بغداد (٢) ص ١ نقد النثر

(٣) ٤٠ نقد النثر ـ مقدمة العبادي

— ٢ —

فنحن لا نشك ـ ولا يستطيع باحث أن يشك ـ فى أن الكتاب ليس لابن أيوب ، بعد ما بسطناه من أدلة دامغة . أما نفى نسبة الكتاب لقدامة فهو ما أيدناه بالحجج الكثيرة القوية ، رغم أن كثيراً من الباحثين يرون غير ما رأيناه ، وقد قرأت أخيراً فى الجزء الثانى من الامتاع والمؤانسة تأليف أبى حيان التوحيدى الذى ظهر من حين ـ نصاً جديداً أراه حرياً بالفهم والبحث والتحقيق (١) : قال أبو حيان ـ فى أثناء كلامه على بلاغة الشعر وبلاغة النثر ـ ما نصه : « وما رايت أحداً تناهى فى وصف النثر بجميع ما فيه وعليه غير قدامة بن جعفر فى المنزلة الثالثة من كتابه . قال لنا على بن عيسى الوزير : عرض على قدامة كتابه سنة عشرين وثلثمائة ، وخبرته فوجدته قد بالغ وأحسن ، وتفرد فى وصف فنون البلاغة فى المنزلة الثالثة، بما لم يشركه فيه أحد من طريق اللفظ والمعنى ، مما يدل على المختار المجتبى والمعيب المجتنب ، ولقد شاكه فيه الخليل بن أحمد فى وضع العروض ، ولكنى وجدته هجين اللفظ ركيك البلاغة فى وصف البلاغة ، حتى كأن ما يصفه ليس مايعرفه وكأن ما يدل به غير ما يدل عليه ... وهذا لا يكون إلا من غزارة العلم وحسن التصور » . . . فأبو حيان على لسانه حينا ، وعلى لسان ابن عيسى الوزير حينا آخر يقرر :

١ ــ أن قدامة بذ سابقيه فى وصف النثر وفنون البلاغة من طريق اللفظ والمعنى فى المنزلة الثالثة من كتابه .

٢ ــ أنه بتأليفه هذا الكتاب وابتكاره لبحوثه يضارع الخليل بن أحمد فى سمو مكانته وابتكاره لعلم العروض .

٣ ــ أن كتابه هذا عرض على على بن عيسى الوزير سنة ٣٢٠ هـ .

٤ ــ أن أسلوب قدامة فى كتابه هجين اللفظ ركيك البلاغة فى وصف البلاغة، واعتذار الوزير عنه فى ذلك رائع ممتع دال على مدى مكانة قدامة عند معاصريه من المفكرين ، ولكن ما هو هذا الكتاب استحق هذا التقدير والإعجاب من رجلين يعدان من أعظم رجال الفكر الإسلامى فى القرن الرابع الهجرى : أهو نقد النثر

(١) « ص ١٤٥ و ١٤٦ ج ٢ الامتاع والمؤانسة ـ طبع لجنة التأليف

أم سواء ؟ أجزم جزماً قاطعاً بأنه ليس هو « نقد النثر » ، إنما هو كتاب آخر سأذكر اسمه بعد قليل :

١ — ذلك أن كتاب نقد النثر — من ناحيته التأليفية — لم يرتب منازل، وليس فيه منزلة ثالثة فى وصف فنون البلاغة من طريق اللفظ والمعنى مما يدل على الجيد أو الردىء من الكلام ، كما يقول الوزير ، إنما هو فى البيان الذى يقسمه إلى بيان بالحال ، وبيان بالاعتقاد وبيان بالكتابة وبيان باللسان . والبيان باللسان عنونه المؤلف بهذا العنوان : « البيان الرابع العبارة(١) ، وتكلم فيه على خصائص الأسلوب العربى التى تتفق العربية واللغات الأخرى فيها ، وعلى الخصائص الأخرى التى تنفرد بها العربية،من : اشتقاق وتشبيه ولحن واستعارة ولغز ووحى ومبالغة وحذف وتقديم وتأخير واختراع ، كما تكلم فيه على تأليف العبارة(٢) ، بالتحدث عن أوصاف الشعر ، وأوصاف النثر بسائر ألوانه : من خطابة وترسل ومجادلة وحديث ... أما ما ذكره الوزير فموضوع نجده مفصلا فى « نقد الشعر » ، وقد يكون فى كتب أخرى لقدامة . فأما نقد النثر فليس له بذلك صلة ، وليس فيه وصف لفنون البلاغة من طريق اللفظ أو المعنى كما يقول ، وليس فيه تحليل لمذهب قدامة فى النقد كما يرى .

٢ — على أن التوحيدى يرى أن قدامة قد استبد بكتابه — الذى لم يسمه أبو حيان — بشرف ،يسامى الشرف الذى ناله الخليل بابتكاره علم العروض ، فهل يبوىء قدامة هذه المنزلة : « نقد النثر » إن كان هو الذى يريده أبو حيان أو الوزير ؟ لا ، فإن نقد النثر ليس من الابتكار الفكرى فى شىء ،كما كان كتاب الخليل فى العروض، وكما نرى قدامة فى « نقد الشعر » ، إنما هو لون من الاحتذاء الفكرى لأرسطو والجاحظ ، وتدوين لعناصر البيان الأولى التى أثيرت فى عصر قدامة وقبل عصره بقليل .

٣ — على أن الأسلوب الذى ذمه الوزير هو الأسلوب المنطقى المأثور عن قدامة، الذى يرشدنا إليه كتابه نقد الشعر»، أما أسلوب نقد النثر فأسلوب بليغ ممتع فيه إشراق البيان . وعليه رونق البلاغة : فلو كان « نقد النثر » هو الذى عناه الوزير

---

(١) ٤٣ نقد النثر .

(٢) ٨٤ المرجع السابق

لما نقد أسلوبه هذا النقد اللاذع المرير . . . وإذا فليس « نقد النثر » هو الكتاب الذى عناه أبو حيان والوزير ... ويحق لنا إذا أن نتطلع لمعرفته ، حتى يبعد اللبس ، وتستبين السبيل ، ويخلص لنا الدليل .

رأى أنه كتاب آخر — ولا شك — غير « نقد النثر » الذى لا يمت إلى قدامة بصلة وغير نقد الشعر ، الثابت النسبة إليه والذى نقده الآمدى وشرحه عبد اللطيف ابن يوسف .. وقدامة له — غير « نقد الشعر — كتاب فى صنعة الكتابة(١) وهو غير «نقد النثر »، لأن هذا المرجع قد ذكر نقد النثر ، وجعله مؤلفا آخر سواه(٢)، وإن كان قد نسبه إلى قدامة ، ويذكر صاحب كشف الظنون أن لقدامة كتاباً اسمه « سر البلاغة فى الكتابة » (٣) ، وكذلك يذكر اليزدادى فى كمال البلاغة أن لقدامة تأليفاً فى الكتابة (ص ١٦ كمال البلاغة) ... فليس من المستبعد إذا أن يكون التوحيدى وعلى بن عيسى الوزير قد قصدا كتابا من هذين الكتابين : صنعة الكتابة وسر البلاغة فى الكتابة ، وقد يكون هذا الاسمان عنوانا لكتاب واحد لقدامة فى بلاغة الكتابة ، وعلى كل حال فالذى نراه ونجزم به أن نقد النثر لا يمت إلى أحد هذين الكتابين بصلة ، وليس هو أيضاً من مؤلفات قدامة فى البيان ، ومما يؤيد ذلك وصف اليزدادى لكتاب قدامة ، وأنه « فصول مستخرجة من رسائل الكتاب الخ » (١٦ و١٩ كمال البلاغة)

ولكن ما مدى صحة نسبة الكتاب لجعفر والد قدامة ؟ من الواجب على أن أقرر أن هذه الفكرة لا تجد إلى الآن الدليل المادى الملموس الذى يؤيدها بقوة الحجة ، إنما هى استنتاج رأيته ، ووجدت من وثاقة أسبابه فى نظرى ما يكفى لأن أومن به وأذهب إليه ، ولم أجد — للأسف — شيئا من مؤلفات جعفر التى قال عنها الخطيب البغدادى : إن له مؤلفات فى صنعة الكتابة(٤) — أتخذه موضوعا لدراسة نقدية بينه وبين كتاب نقد النثر لمعرفة شخصية المؤلف ، والاستدلال عليها بدلالة الأسلوب وثقافة التأليف ، واتجاه المؤلف فيه . وقد يقال إن جعفر عاش

---

(١) راجع ٢٠٢ جـ ٢ كتاب الأدب العربى لجورجى زيدان

(٢) راجع ١٧٣ جـ ٢ نفس المرجع

(٣) راجع ٤٧٠ جـ ١ كشف الظنون

(٤) ٢٠٥ جـ ٧ تاريخ بغداد ، ٤١٢ جـ ٢ معجم الأدباء طبعة مرجليوث

نصرانيا ، فمن الغريب أن يتشيع — مع نصرانيته — لآل على ، ومن الغريب أن يكون له مؤلفات مثل : الايضاح أو التعبد أو الحجة ، ولكن من الواجب أن نعرف أن كثيراً من النصارى فى العراق وإيران ، كانوا يتشيعون لأغراض شخصية أو سياسية ، يريدونها ويعملون لها ، على أن الروايات التاريخية الصحيحة لا تثبت لنا أن جعفراً عاش على نصرانيته .

وبعد كتابة كل ما تقدم نشر الأستاذ الدكتور على حسن عبد القادر مقالة فى الرسالة عدد ٨ — ١١ — ١٩٤٨ ، ذكر فيها ما يلى :

١ — كتاب البرهان فى وجوه البيان ، لأبى الحسين إسحق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب ، طبع جزء منه قدر ثلثه باسم « نقد النثر » ، حرره وأخرجه الدكتور طه حسين ، والأستاذ عبد الحميد العبادى ، منسوباً إلى أبى الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادى المتوفى سنة ٣٣٧ هـ . وقد اعتمد مخرجا « نقد النثر » على مخطوطة بمكتبة الأسكوريال رقم ٢٤٣ . وقد عثرنا على مخطوطة لهذا الكتاب بمكتبة تشستربيتى رقم ٧٦٧ تحت عنوان « كتاب البرهان فى وجوه البيان » ، وعند المقابلة بينها وبين كتاب « نقد النثر » المطبوع وجدناهما يتفقان فى القدر المطبوع ، وتزيد المخطوطة التى بأيدينا على المطبوعة بمقدار ثلثى الكتاب تقريبا . ولم نشك فى ان هذا القدر الزائد إنما هو جزء أصلى من الكتاب قد سقط منه فى المخطوطة الأسكوريالية ، ذلك أن المؤلف قد بنى كتابه على أربعة وجوه البيان : البيان بالاعتبار ، البيان بالاعتقاد ، البيان بالعبارة ، البيان الرابع بالكتاب ، وهو غير موجود فى النسخة المطبوعة ، وقد علل محقق هذه النسخة المبتورة هذا النقص بادعائه أن المؤلف قد ضمن الباب الثالث (وهو العبارة) الكلام على الوجه الرابع وهو الكتاب . وفى النسخة المخطوطة التى بأيدينا ، جاء فيها ذكر البيان الرابع وهو الكتاب ، واستغرق من أصل الكتاب جزءاً كبيراً ، كما جاء فيها الكلام على باب المعمى وذكر العروض والقافية بتفصيل كامل . وكذلك جاء فيها ما بقى من وجوه الحديث وجهاً وجهاً ، وكذلك مراتب المستمعين له مرتبة مرتبة ، فكانت مخطوطتنا بهذا التحقيق هى النسخة الكاملة للكتاب .

٢ — وأهمية مخطوطتنا لا تنحصر فى أنها النص الكامل للكتاب كما كتبه مؤلفه ، بل إن لها أهمية أخرى أكبر ، وهى معرفة مؤلف هذا الكتاب على التحقيق .

وهو أبو الحسين إسحق بن إبرهيم بن سليمان بن وهب الكاتب ، مما يبطل نسبة الكتاب إلى قدامة بن جعفر ، كما أن مخطوطتنا تحمل الاسم الصحيح للكتاب ، وهو « البرهان فى وجوه البيان » . ويؤيد ذلك أيضا أدلة أخرى منها :

أولا : نسب إلى قدامة كتاب فى الكتابة ، وليس هو « البرهان » أو « نقد النثر » وإنما اسمه « كتاب الخراج وصناعة الكتابة » ، وتوجد مخطوطة منه بمكتبة كوبرلى بالآستانة ، وقد استخرج دى غويه نبذا منها وطبعها تحت عنوان « كتاب الخراج » ، وهذه النبذ هى الأبواب الثانى والثالث والرابع والخامس والحادى عشر من المنزلة الخامسة ، والبابان السادس والسابع من المنزلة السادسة . وقد وصف ياقوت هذا الكتاب فى ترجمة قدامة بقوله : « وله كتاب فى الخراج وصناعة الكتابة » ، رتبه مراتب وأتى فيه بكل ما يحتاج الكاتب إليه ، على تسع منازل ، وكان ثمانية فأضاف إليه تاسعاً ، ويقول المطرزى فى كتاب الايضاح شرح مقامات الحريرى — مخطوطة المتحف البريطانى — : « وله تصانيف كثيرة منها كتاب « الالفاظ » وكتاب « نقد الشعر » ، وهو حسن للغاية طالعته ونقلت منه أشياء ، وقيل هو لوالده جعفر . ومنها كتاب صناعة الكتابة ظفرت به وعثرت فيه على ضوال منشودة ، وهو كتاب يشتمل على سبع منازل ، وكل منزلة منها تحتوى على أبواب مختلفة ضمنها خصائص الكتاب والبلغاء : وقال ابن الجوزى فى المنتظم فى حوادث سنة ٣٣٧ بمناسبة موت قدامة مانصه . « وله كتاب حسن فى الخراج وصناعة الكتابة » . وهذا الوصف لا يتفق مع تبويب كتاب « البرهان » أو « نقد النثر » ، إذ أنه على أربعة أبواب تناولت كل ما قصد المؤلف كتابته عن الخراج وصناعة الكتابة ، وفضلا عن هذا فنحن إذا وزنا الجزء المطبوع من كتاب قدامة الخاص بالخراج ألفيناه مختلفاً عن القسم الخاص بالخراج فى كتابنا « البرهان » ، والنتيجة البديهية هى أن قدامة وابا الحسين كتب كل منهما كتابا فى الموضوع ، ولكن كلا منهما سلك مسلكه الخاص فى علاج الموضوع . وقد ألف قدامة كتابه قبل سنة ٣٢٠ ، أما أبو الحسين فألف كتابه بعد سنة ٣٣٥ حسب ما جاء من نصوص تاريخية فى ثنايا الكتاب .

ثانيا : من الكتب المعروفة على وجه التحقيق لقدامة (نقد الشعر) ، وقد عالج فيه الشعر وفنونه بوجه خاص : وقد عالج صاحب « البرهان » فى كتابه الشعر أيضا ،

فلو أنه كان لقدامة لما احتاج إلى معالجة هذه الموضوعات مرة أخرى بمثل هذا البيان الكافى ، وفضلا عن ذلك فان معالجة الشعر فى (البرهان) تختلف اختلافا جوهريا عنها فى كتاب (نقد الشعر) من الناحية الفنية والموضوعية .

ثالثا : وصاحب كتاب (البرهان) يصر فى كل مناسبة على ذكر الرجال المشهورين من آل وهب، معظما لهم فخورا بهم، كأن يقول : « وقد كان شيخنا أبو على الحسن بن وهب رحمه الله .. وقال أبو أيوب رضى الله عنه . وكان أبو أيوب رحمه الله رجلا مشهورا بالبلاغة .. ولو لم نتقدم من ذكر البلاغة إلا بهذا القول من شيخنا رحمه الله لكفى وأجزى .. » ، وأبو أيوب هذا هو سليمان بن وهب عميد آل وهب وجد المؤلف .

رابعاً : وهناك أمر يجب التنويه به وهو أن البطليوسى فى كتابه (الاقتضاب شرح أدب الكتاب) قد كتب فصولا طويلة بنى عليها مقدمته فى شرح الكتاب (ص ٦٦ — ٩٠)، وهذه الفصول تتفق فى لفظها مع بعض فصول كتاب البرهان، ولكن البطليوسى لم ينسبها إلى أبى الحسين ولا إلى قدامة ، وإنما أشعر بنسبتها إلى على بن مقلة (م ٣٢٧ ﻫ) ، ولا يمكن أن يقال إن هذا الكتاب (البرهان) هو لابن مقلة لأنه ألف بعد سنة ٣٣٥ وبعد وفاة ابن مقلة بنحو ثمانى سنين ، والقدر المتيقن أن البطليوسى لم يحتسب على أى حال قدامة بن جعفر مؤلفا للكتاب الذى نقل عنه على فرض أنه نقل فصوله من كتابنا هذا . ومن المحتمل أن يكون البرهان قد نسب مرة إلى على بن مقلة كما نسب إلى قدامة بن جعفر وجهل أمر صاحبه، ومن المحتمل أيضا أن يكون البطليوسى ومؤلف كتابنا هذا كلاهما نقل نقولا من كتاب لابن مقلة فى هذا الموضوع ، وهو أمر لم تساعدنا الظروف على تحقيقه ، ومن غريب الأمر أن هذا الكتاب قد نسب إلى قدامة بن جعفر فى طرة المخطوطة الاسكوريالية ، وكذلك فى طرة المخطوطة التى بأيدينا مع ورود اسم المؤلف فى أثناء الكتاب ، وهو أمر غفل عنه الناسخ ، وتفسير هذا التناقض يسير ، فان الوراقين كانوا يعرفون قيمة قدامة الأدبية ويعرفون شهرة كتابه فى الادب، فلا يستبعد عليهم أن يضعوا اسمه على هذا الكتاب ، لتسهيل بيعه وتداوله ، وهذه طريقة معروفة عند النساخ والوراقين ، لا تخفى على المحققين

أبو بكر محمد بن دريد

٢٢٣ — ٣٢١هـ

هو أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد ، بن عتاهية بن حنتم بن الحسن بن حمامى ابن جرو بن واسع بن وهب بن سلمة بن حاضر بن حنتم بن ظالم بن فراهيد بن مالك ابن فهم بن غنيم بن دوس بن عدنان بن عبد الله بن زهران ، الأزدى العمانى .

إمام عصره فى اللغة والأدب والشعر الفائق ، تقف عند كلامه الفحول ، وتستمير آيات بلاغته الفصحاء ، وتستمد من كلامه الخطباء ، وترجع إلى حقائق علمه الأدباء ، قال المسعودى : كان ابن دريد ببغداد ممن برع فى زماننا هذا فى الشعر وانتهى فى اللغة وقام مقام الخليل فيها ، وأورد أشياء فى اللغة لم توجد فى كتب المتقدمين ، وكان يذهب بالشعر كل مذهب ، وشعره أكثر من أن نحصيه أو نأتى على أكثره . ولقد كان ابن دريد منذ شهرته صاحب منزلة كبيرة بين فحول العلم وقد ترجم له غير واحد ، فأظهروا علو مقامه وطول باعه فى العلوم العربية ، حتى فاق سائر أقرانه ، إلا أنهم لم يعتنوا فيما رأيت بذكر أرومته ونبعته كما ينبغى .

كان أبو بكر بن دريد علما من أعلام اللغة والأدب والرواية والشعر . ومقصورته التى قالها فى مدح الشاه ابن ميكال تعد من غرر الشعر العربى وعيونه ، وهو من الشخصيات التى تستحق الدراسة والتقدير فى الأدب العربى .

وقد اتفق جميع مؤرخى ابن دريد أن ولادته كانت فى مدينة البصرة سنة ٢٢٣ هجرية فى خلافة المعتصم بالله العباسى ، ونقل الخطيب البغدادى فى كتابه تاريخ بغداد : « أخبرنى محمد بن على الأصبهانى قال : نبأنا الحسن بن عبد الله بن سعيد اللغوى قال : سمعت ابن دريد يقول : مولدى بالبصرة بسكة صالح سنة ٢٢٣ ، واسمه محمد بن الحسن بن دريد بن عتاهية الأزدى .

يتفق مؤرخو ابن دريد على أنه نشأ فى البصرة وتأدب فيها ، وتعلم اللغة وأشعار العرب ، وقرأ على علمائها ، ثم صار بعد ذلك إلى عمان . ولكن ابن الأنبارى والخطيب البغدادى يشذان عن هذا الاجماع ، ويذكران أنه نشأ بعمان ... وبقى ابن دريد فى البصرة يتأدب على كبار المشايخ فيها مثل الرياشى والسجستانى ، فلما وقعت فتنة الزنج فى البصرة سنة ٢٥٧ هـ ودخلها على بن محمد صاحب الزنج واكتسحها وخربها

خرج منها ابن دريد مع عمه الحسين بن دريد .

ويقول معظم المؤرخين لابن دريد أن انتقاله من البصرة فى فتنة الزنج كان إلى عمان ، وينفرد ابن خلكان بالقول بأنه انتقل إلى بغداد أولا مع عمه ، ثم إلى عمان بعد ذلك .

بقى ابن دريد فى عمان اثنى عشرة سنة ، ثم عاد إلى البصرة فسكنها زمنا ، ثم خرج منها فتنقل زمنا فى جزائر البحر ، ثم عاد إلى البصرة . وفى أثناء إقامته الثانية هذه بالبصرة تقلد عبد الله بن محمد بن ميكال ولاية الأهواز من قبل الخليفة المقتدر بالله . وكان ابنه أبو العباس إسماعيل صبيا ، فاستدعى ابن دريد لتأديبه فأجابه وخرج إلى فارس يؤدب إسماعيل بن ميكال ويخدم أباه الشاه ابن ميكال . وهناك ألف لهم كتاب الجمهرة فى سنة ٢٩٧ ، وقال فى مدحهم مقصورته الفريدة ، وبقى معهم حتى صرفوا عن ولاية فارس ، فذهب هو إلى بغداد ودخلها فى سنة ٣٠٨ ، وبقى فيها يدرس الأدب والشعر والرواية ، ويحدث فى ذلك أكبر علمائها، ويجلسون إليه إلى آخر عمره، حيث أصابه فالج وهو فى حدود التسعين ، وعاش مع الفالج عامين ثم استشفى منه بالترياق فشفى وصح وعاد إلى أفضل أحواله ، ثم تناول ـ بعد عام ـ غذاءاً ضاراً فعاوده الداء . وبقى يتمرض حتى مات بعد عذاب ومرض طويل ، وكانت وفاته فى يوم الأربعاء الثامن عشر من شهر شعبان سنة ٣٢١ ﻫ ببغداد ، ودفن فى مقبرة الخيزران ـ وهى مقبرة أم الرشيد ، ودفن فيها جمهور عظيم من علماء بغداد .

وياقوت فى معجم الادباء والسيوطى فى بغية الوعاة يخالفان هؤلاء المؤرخين ويحددان زمن وفاته بيوم الاربعاء الثامن عشر من رمضان فى نفس السنة، أما أبو الفداء فيذكر فى تاريخه وفاة ابن دريد فى حوادث سنة ٣٢١ وأنها كانت فى شعبان من غير أن يحدد يوما .

ويتفق هؤلاء المؤرخون على أنه دفن فى مقبرة الخيزران ، أم الرشيد : ولكن ابن خلكان يقول إنه « دفن بالمقبرة المعروفة بالعباسية من الجانب الشرقى ظهر سوق السلاح بالقرب من الشارع الأعظم » . وينقل ياقوت ذلك منسوبا بصيغة التضعيف إلى المرزبانى ، وينفرد الجلال السيوطى بالقول بأنه مات بعمان، قال: « ثم صار إلى عمان فأقام بها إلى أن مات » .

والذى نرجحه أن وفاته كانت فى الثامن عشر من شهر شعبان سنة ٣٢١ ﻫ . وأنه دفن فى مقبرة الخيزران ، لأن الخطيب البغدادى يروى قصة دفنه عمن شهد جنازة ابن دريد ومشى فيها إلى المقبرة . وهو ينص على أنه دفن فى الخيزرانية ، فكأن ابن دريد مات عن ثمان وتسعين سنة ، ولكن البستانى يقول فى دائرة المعارف : « وقيل بل عاش ثلاثا وتسعين سنة لا غير » .

هذه خلاصة لحياة ابن دريد وتقلبه فى البلاد وقد نشأ ابن دريد كما مر فى البصرة أول القرن الثالث . وتلقى العلم على كبار المشايخ فيها ، ثم انتقل إلى عمان فبقى يسمع اللغة من الاعراب اثنتى عشرة سنة ثم انتقل إلى جزائر البحر وفارس وبغداد ، وهذا التنقل له ولاشك أثر فى تكوين شخصيته ، ونجد فى أساتذة ابن دريد طائفة من أعظم الرجال فى اللغة والأدب والرواية ، فقد سمع وحدث عن أبى حاتم السجستانى ، وأبى الفضل الرياشى وعبدالرحمن بن قريب — ابن أخى الأصمعى — وأبى عثمان الاشناندانى .. وقد ولد هو ونشأ فى أسرة شريفة فيها رئاسة كما رأينا ، وكان عمه الحسين بن دريد عالما جليلا وهو الذى تولى تربيته كما ذكر ابن دريد نفسه ، وكذلك روت عن ابن دريد وسمعت عليه طائفة عظيمة جليلة ، وكان ابن دريد قوى الحافظة جيدها ، يقول ياقوت : قال الخطيب عمن رأى ابن دريد أنه قال : كان واسع الحفظ جداً ، ما رأيت أحفظ منه وما رأيته قط قرىء عليه ديوان شاعر إلا وهو يسابق إلى روايته لحفظه له » ، ويقول أبو الطيب اللغوى عنه فى كتابه « مراتب النحويين » : وكأن أحفظ الناس .. ويروى الخطيب البغدادى عن حدة حفظه فى صباه هذه القصة العجيبة : « حدثنى على بن الحسن بن يوسف الأزرق قال : حدثنى جماعة أن ابن دريد قال : كان أبو عثمان الاشناندانى معلمى وكان عمى الحسين بن دريد يتولى تربيتى ، فكان إذا أراد الأكل استدعى أبا عثمان يأكل معه ، فدخل يوما عمى وأبو عثمان يروينى قصيدة الحرث بن حلزة التى أولها « آذنتنا ببينها أسماء » ، فقال لى عمى : إذا حفظت هذه القصيدة وهبت لك كذا وكذا ثم دعا المعلم ليأكل معه فدخل اليه فأكلا وتحدثا بعد الاكل ساعة ، فالى أن رجع المعلم حفظت ديوان الحرث بن حلزة بأسره . فخرج المعلم فعرفته ذلك فاستعظمه وأخذ يعتبره على فوجدنى قد حفظته ، فدخل إلى عمى فأخبره ، فاعطانى ما كان وعدنى به » ، وهذه القصة بعينها يرويها ياقوت

يقول الخطيب البغدادي : « حدثني علي بن محمد بن نصر . قال سمعت أبا بكر الأبهري المالكي يقول : جلست إلى جنب ابن دريد وهو يحدث ومعه جزء فيه ما قال الأصمعي . فكان يقول في واحد : حدثنا الرياشي . وفي آخر : حدثنا ابن أخي الأصمعي ؛ يقول كما يجيء في قلبـه » ، وقال غيره : كان ابن دريد قد أملى الجمهرة في فارس ثم أملاها في البصرة وبغداد من حفظه » — ياقوت — « وقال بعضهم : أملى ابن دريد الجمهرة من حفظه سنة ٢٩٧ فما استعان عليها بالنظر في شيء من الكتب إلا في الهمزة والألف » ، « وذكر أبو علي البيهقي في كتاب النتف والطرف أنه صنف كتاب الجمهرة للأمير أبي العباس أيام مقامه بفارس ، فأملاه عليه إملاء . ثم قال : حدثني أبو العباس الميكالي قال : أملى علي أبو بكر الدريدي كتاب الجمهرة من أوله إلى آخره حفظا في ٢٩٧ فما رأيته استعان عليه بالنظر في شيء من الكتب إلا في باب الهمزة واللفيف — لعله الألف — فإنه طالع له بعض الكتب ثم قال : وكفاك بها فضيلة وعجيبة أن يتمكن الرجل من علمه كل التمكن ثم لا يسلم — مع ذلك — من الألسن » ... وقال ابن دريد الشعر في مبتدأ شبابه في حدود العشرين ، يقول الخطيب البغدادي : أخبرنا أحمد بن علي المحتسب ، قال أنبأنا اسماعيل بن سعيد المعدل ، قال أنشدنا أبو بكر بن دريد ، وقال هذا أول شيء قلته من الشعر :

ثوب الشباب على اليوم بهجته   فسوف تنزعه عني يد الكبر

وكان ابن دريد حجة في اللغة ، بارعا في الشعر ، وكانت له الصدارة في عصره ، فاعترف له معاصروه بالتقديم ، يقول المسعودي(١) : وكان ابن دريد ببغداد ممن برع في زماننا هذا في الشعر وانتهى في اللغة وقام مقام الخليل بن احمد » ، ويقول ابن خلكان : « إمام في عصره في اللغة والأدب والشعر الفائق » ، ويقول الخطيب البغدادي : « وكان رأس هذا العلم والمقدم في حفظ اللغة والانساب وأشعار العرب » ، ويقول ياقوت : « كان رأس هذا العلم » ، وقال أبو الطيب اللغوي عنه في كتاب مراتب النحويين : انتهت إليه لغة البصريين . وكان أوسع الناس علما ربما ازدحم العلم والشعر في صدر أحد ازدحامهما في صدر خلف الأحمر وابن دريد » ، ويقول عنه ابن تغري بردي : « طلب الأدب واللغة حتى صار رأسا فيهما وفي أشعار العرب » ، ويقول ابن الانباري : « وكان من أكابر علماء العربية مقدما في

(١) مروج الذهب جـ ٢ ص ٥١٨ .

اللغة وأشعار العرب وأنسابهم » ، ووصف ابن دريد بالتقديم والأستاذية والرياسة مما أجمع عليه كل مؤرخيه ، حتى هو نفسه كان يعتز بعلمه وصدارته ، ويرى أنه كان نسيج وحده ، ووحيد دهره ، وأنه وارث علم الأصمعي ، « وقال أبو الحسن الدريدي(١) ، حضرت وقد قرأ أبو علي بن مقلة وأبو حفص كتاب المفضل ابن سلمة — الذي يرد فيه على الخليل بن أحمد — على أبي بكر بن دريد ، فكان يقول : « صدق أبو طالب » في شيء إذا مر به ، و « كذب أبو طالب » في شيء آخر ؛ ثم رأيت هذا الكلام وقد جمعه أبو حفص في نحو مائة ورقة فابن دريد هنـــا ينصب نفسه في منصب الميزان والحكم بين العلمـــاء ، ولا يحجم حتى عن تخطىء الخليل .. وقال تلميذه أبو علي القالي : قال لي مرة وقد سألته عن بيت الشعر : لئن طفئت شحمتا عيني ، لم تجد من يشفيك من العلم ؛ هكذا قال لي أبو حاتم . وكذلك قال لي الأصمعي وقد سألته .

وليس ابن دريد لغويا وراوية فقط ، بل هو شاعر مكثر بارع مبتكر في طريقته الشعرية . كان يقال عنه إنه أعلم الشعراء وأشعر العلماء ، وله شعر كثير منه الجزل ومنه الرقيق ، يقول ابن خلكان عن شعره : وله نظم رائق جدا ؛ وكذلك يقول البغدادي في خزانة الأدب ، ويقول عنه المسعودي في مروج الذهب : وكان يذهب في الشعر كل مذهب فطورا يجزل وطورا يرق . وشعره أكثر من أن نحصيه ، أو نأتي على أكثره ، أو يأتي عليه كتابنا هذا ، ولكن الدكتور زكي مبارك يقول : إنه كان شاعرا مقلا .

ونال ابن دريد في حياته مكانة كبيرة عند معاصريه من العلماء والوزراء والملوك ، وقد رأينا طرفا من ذلك ، ويدل عليه ما قدمناه من أن الشاه ابن ميكال اختاره لتأديب ولده اسماعيل . وقد نال عندهما حظوة حتى قلداه ديوان فارس ، فكانت الكتب لا تكتب إلا عن رأيه ولا ينفذ أمر إلا بعد توقيعه .. وقد بلغ من تبريز ابن دريد في عصره وتقدمه ، بل سطوته على جيله ، أنه أخمل طائفة من العلماء المعاصرين له ، قال ابن خالويه في شرح المقصورة : كان ببغداد عباد بن عمر ابن الحليس الكرماني صاحب لغة ، وكان يطعن على ابن دريد وينقض عليه الجمهرة ، فجاء غلام لابن دريد فقال : « اكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم ، قال أبو بكر ابن دريد أعزه الله تعالى : عننت الفرس إذا حبسه بعنانه ، فإن حبسته بمقوده فليس

(١) كان وراق ابن دريد وإليه صارت كتبه بعد موته .

بعمن ، قال الكرمانى الجاهل : أخطأ ابن دريد لأنه إن كان من عننت فيجب أن يكون معنونا - وإن كان من أعننت يجب أن يكون معننا ، وأخطأ لكذا وكذا ، فوقف شاعر على الحلقة فقال : اكتبوا :

أذللت كرمان وعرضتها ... لجحفل مثل عديد الحصى
وابن دريد غرة فيهم ... فى بحره مثلك كم غوصا
جثا على الركبة حتى إذا ... أحس نزرا قعد القرفصا
والله إن عاد إلى مثلها ... لأصفعن هامته بالعصا

فلم يلتفت إليه الكرمانى بعد ذلك ، ولما دخل ابن دريد بغداد احتفى به أهلها ، وأنزله الوزير على بن محمد فى جواره وأفضل عليه ، وعرف الخليفة المقتدر مكانه من العلم ، فأجرى عليه فى كل شهر خمسين دينارا لم تزل جارية عليه إلى أن مات ، ويقول أبو الطيب اللغوى : تصدر ابن دريد فى العلم ستين سنة ، روى فيها عنه وتعلم طائفة عظيمة وجليلة من كبار العلماء ، منهم أبو سعيد السيرافى وأبو بكر ابن شاذان وأبو عبد الله المرزبانى وعمر بن محمد بن سيف وأبو الفرج صاحب الاغانى وأبو على القالى .. ويكاد يكون كتاب « الامالى » كله من أحاديث ابن دريد وروايته .

وقد ذكر أبو إسحاق الحصرى فى زهر الآداب أن ابن دريد أغرب بأربعين حديثا استنبطها من ينابيع صدره واستنتجها من معادن فكره الخ.. وهذه الاحاديث الاربعون غير معروفة ، وقد التفت إليها الدكتور زكى مبارك ، وذهب إلى أنها البذرة الاولى لفن المقامات ، وأن ابن دريد سبق بها بديع الزمان ، فهو يقلده فيها ، فإن صح ما يراه الدكتور - وهو غير بعيد - فإن فضلا جديدا يضاف إلى ابن دريد ، ويثبت له تبريز جديد فى الادب فوق ما قاله فيه من تفوق وتبريز ، وكان ابن دريد بصرى المذهب فى النحو ، بل رأينا فيما سبق أن أبا الطيب اللغوى يقول عنه . وانتهت اليه لغة البصريين ، وقد ولد هو فى البصرة ونشأ بها وتعلم على مدرستها وسمع من كبار لغوييها كما تقدم , وبين مدرستى البصرة والكوفة معارك حامية فى اللغة

وكما نال ابن دريد الصدارة فى حياته ، كذلك بقى اسمه مذكورا ، وذكره معروفا ، ومنزلته فائقة فى جميع العصور بعد ذلك ، فمقصورته يعتنى بها خلق كثير من المتقدمين والمتأخرين بالشرح ، وبالكلام عن ألفاظها ، ويعارضه بمثلها كثير من الشعراء .

والمعرى يذكره فى رسالة الغفران ويلقبه بشيخ الازد ويجعله نديما من ندامى الادباء فى الفردوس، وفى كتاب المعجب فى تلخيص أخبار المغرب إشارة فى خبر، تدل على أنه كان معروفا ومذكورا بالصدارة فى بلاد الاندلس للقرن الرابع والخامس، وقل أن نجد كتابا من الكتب المعتبرة فى الادب مما ألف فى حياته أو بعد موته لم يرد فيه اسمه — بكثرة مفسرا أو راوية أو شاعرا

وألف ابن دريد طائفة كبيرة من الكتب يذكرها الجـلال السيوطى ويذكر بعضها ابن تغرى بردى، وبعضها صاحب خزانة الادب، وبعضها ياقوت، وهى: الجمهرة فى اللغة، ويقول عنه المسعودى وهو من الكتب المعتبرة فى اللغة — الامالى — اشتقاق أسماء القبائل - المجتبى - الملاحن - الوشاح - على حذو المحبر لابن حبيب - المقتبس — المقصور والممـدود — الخيل الكبير — الخيل الصغير — غريب القرآن «لم يتم» — الانواء — فعلت وأفعل — السلاح — المطر أدب الكاتب. على مثال كتاب ابن قتيبة، «ولم يجرده من المسودة فلم يخرج منه شىء» — زوار العرب — السرج واللجام — تقويم اللسان — المقصورة

وكتاباه المجتبى والوشاح يقول عنهما ابن خلكان: إنهما «صغيران كثيرا الفائدة مفيدان»، ولم يبق معروفا لنا من كتب ابن دريد هـذه الا شىء يسير أشهره المقصورة وكتاب الملاحن وهما مطبوعان، وفى دار الكتب المصرية بعض كتب مخطوطـة لابن دريد، وقد ذكر عبد القادر المغربى كتب الجمهرة والسرج واللجام وكتاب الانواء والمجتبى، ثم قال: «وهذه الكتب عندى والحمد لله والمنة».. وهذا يدل على أن هذه الكتب كانت معروفة متداولة وأنها بقيت موجودة إلى عصر عبد القادر البغدادى — ١٠٣٠هـ — ويذكر عبد القادر هذه الجملة عند ذكر بقية كتب ابن دريد

ومع هذه المنزلة الكريمة التى نالها ابن دريد عند معاصريه وعند من خلفهم لم يكن بثقة عند طائفة من معاصريه لها خطرها فى الحكم والتقدير، قال أبو منصور الازهرى فى مقدمة كتاب التهذيب: «وممن ألف فى زماننا الكتب فرمى بافتعال العربية وتوليد الالفاظ وادخال ما ليس من كلام العرب فى كلامها، أبو بكر محمد ابن دريد صاحب كتاب الجمهرة وكتاب اشتقاق الاسماء والملاحن، وسألت عنه ابراهيم بن عرفة، فلم يعبأ به ولم يوثقه فى روايته، وقد تصفحت أنا كتابه الذى أعاره اسم الجمهرة فلم أقف، على معرفة ثاقبة، ولا قريحة جيدة» ويقول ابن خلكان:

« سئل عنه الدارقطني سأله حمزة بن يوسف فقال : تكلموا فيه ، وقيل كان يتسامح فى الرواية فيسند إلى كل واحد ما يخطر له » ويقول المسعودى فى مروج الذهب : « وأورد أشياء فى كتب اللغة لم توجد فى كتب المتقدمين » ، وكما طعن فيه بالانتحال والوضع : كذلك رمى بالسرقة فى شعره وفى تأليفه ، قال فيه شاعر معاصر له :

ابن دريد بقره وفيه عى وشره
ويدعى من حمقه وضع كتاب الجمهره
وهو كتاب العين إلا أنه قد غيره ..

وقائل هذه الابيات الثلاثة هو أبو عبد الله إبراهيم بن عرفة المحدث النحوى المشهور بنفطويه ، ولابن دريد عليهم جواب ظريف سنذكره ، ويقول أبو الفرج أنشدنى عمى رحمه الله أبياتا لابن دريد يمدح بها رجلا من أهل البصرة :

يامن يقبل كف كل مخرق هذا ابن يحيى ليس بالمخراق
قبل أنامله فلسن أناملا لكنهن مفاتح الارزاق

فقال: يا بنى هذا سرقه هو وابن الرومى جميعاً من إبراهيم بن العباس يمدح الفضل ابن سهل :

لفضل بن سهل يد تقاصر عنها الأمل
فباطنها للندى .. وظاهرها للقبل
وبسطتها للغنى .. وسطوتها للاجل

وسرقها ابن الرومى .. الخ » ،

ويصف ابن دريد فى مقصورته مسيره إلى فارس ويتشوق إلى البصرة ، ويمدح الشاه ابن ميكال ، وعدد أبياتها ٢٢٩ بيتا . وأجود شروحها شرح السبتى المعروف بابن هشام اللخمى المتوفى بعد سنة ٥٥٧ هـ ، وممن شرحها القزاز ، وابن خالويه النحوى المتوفى عام ٣٧٠ هـ ، والسيرافى المتوفى عام ٣٦٨ هـ ، وابن الصائغ الدمشقى م ٧٢٠ هـ ، والتبريزى م ٥٠٢ هـ ، والصغانى م ٦٥٠ هـ ، والسخاوى المتوفى بعد سنة ١٠٢٥ هـ .

وفى كتاب الانساب للعلامة الصحارى العتبى أن لابن دريد قصائد فى وقعة الروضة(١) المشهورة بعمان فى عهد الامام راشد بن النضر والعلامة موسى بن موسى

---

(١) الروضة موضع قرب بلد تنوف من جهة الغرب بين نزوى عاصمة الامامة ــ

ابن على مرجع هذا الامام ورئيس الحل والعقد لديه — تبين تلك القصائد مقدار صلة ابن دريد بقومه والتعلق بأمورهم ، مما يدلنا على أنه لم يكن بعيد النشأة عنهم ، ولا مباين النزعة لهم ، وما مبارحته لبلاد عمان إلا فى سبيل العلم ، حيث كان من صفات العلماء الفحول الخاصة الشغف ببث العلم والدخول فى ميادينه، ولا سيما ما هم ممتازون به متفوقون على الأقران فيه .

وفى الانساب قصيدتان من قصائد ابن دريد ، وهما على جانب من التحريف عظيم، نقتطف من واحدة منهما بعض أبيات لبيان اتصاله بقومه وارتباطه بارومته الازدية العمانية .. مطلعها :

نبه نابه وخطب جليل ... بل رزايا لهن عبء ثقيل
يا بنى مالك بن فهم قتيلا ... لايباريه فى الانام قتيل
أى طرف سما إليكم بكيد ... لم تردوه وهو عنكم كليل
أقليل عزيزكم فتقولوا ... إننا فى الوغى نفير قليل
أم ضعاف عن ثأركم فتلذوا ... مشرب الذل والمضيف ذليل
أم عبيد لراشد ولموسى ... أى هذى الأضياف أنتم فقولوا(١)
ليس يسعى لها امرؤ وسدته ... معصميها الوهانة العطبول
وفراهيد الذى على الرو ... ضة من خيلهم دماء تسيل
وحماة الزمان من آل ده ... نان إذا يبرز البرى والحجول
وبنو العم من جديد خصوصا ... وعمادى فى الشدة المأمول
وبنو ظالم يدى ولسانى ... وحسامى المهند المصقول
يا بنى مالك بن فهم قتيلا ... بدهاريس غرهن الليول
أى يوم لبأس موسى بن موسى ... ذاك يوم لو يعلمون طويل
يوم لاينفع اتصال بقربى ... يوم لا العذر عنده مقبول
فلحا الله مانع الروع منا ... حيث يستصحب الضليل الضليل

= الجبل الاخضر بجبوحة عمان، وكانت الوقعة بين العتيك واليحمد وفراهيد وبنى فهم وبين غيرها من قبائل عمان

(١) راشد هو الامام راشد بن النضر ، وموسى هو العلامة موسى بن موسى ابن على .

ومكانته فى الشعر يومئذ لا تقل عن مكانته العلمية ، فله المقصورة المشهورة التى مطلعها :

أما ترى رأسي حاكى لونه طرة صبح تحت أذيال الدجى

تبارى شرحها أكابر العلماء وسارت بها الركبان فى سائر النوادى العلمية .. قيل إنها احتوت على أكثر المقصور فى اللغة العربية . وكان مدح بها الشاه بن ميكائيل وولديه من أمراء فارس ، وكان ذا منزلة لديهم حتى تقلد ديوان فارس ، وكانت الكتب منه تصدر عن رأيه ، ولا ينفذ أمر إلا بعد توقيعه ، ونال ثروة عظيمة من ابن مكائيل ، وانتقل إلى بغداد بعد عزلهما عن ولاية فارس وانتقالهما إلى خراسان، وكان انتقال ابن دريد إلى بغداد فى عهد المقتدر بالله، ونزل على على بن محمد الخوارى فأكرم جواره ورفع مكانه ، وعرف خبره لامام المقتدر ومكانته من العلم فأجرى عليه خمسين دينارا مرتبا شهريا ، ولم تزل جارية عليه إلى أن مات . عرف بالسخاء والكرم حتى لا يمسك درهما مع كثرة استفادته .. ولابن دريد خاصة امتازبها وهى قوة الحفظ حتى لم يدانه أحدفيها ، وكان يقرأ عليه دواوين العرب فيسابق إلى إتمامها من حفظه ، وكان واسع الرواية ، قال بعض العلماء : ابن دريد أعلم الشعراء وأشهر العلماء . . وتآليفه كثيرة والمشهور منها بضعة عشر كتاباً سبق ذكرها وهى:

أدب الكاتب ، والاشتقاق فى تفسير الأعلام وأسماء القبائل ، والأنواء ، والجمهرة من الكتب المعتبرة فى اللغة ، والخيل الكبير ، والخيل الصغير ، وزوار العرب ، والسرج واللجام ، والسلاح ، وغريب القرآن لم يكمله ، وكتاب اللغات ، والمجتنى فى شرح أحاديث المصطفى ، والمقتبس ، والمقتنى ، والملاحن ، والوشاح صغير وهو مفيد جدا .

وقد أخذ عن أبى حاتم السجستانى ، والرياشى ، وعبد الرحمن بن عبد الله المعروف بابن أخى الأصمعى ، وأبى عثمان سعيد بن هارون الأشناندانى صاحب كتاب المعانى، وغيرهم .. وأخذ عنه كثير منهم أبو سعيد السيرافى ، وأبو عبيد الله المرزبانى ، وأبو على القالى صاحب كتاب الأمالى ، وروى أبو على أن ابن دريد أصيب بالفالج فى آخر عمره فتداوى منه فشفاه الله ثم عاوده ، ومع ذلك كان ثابت الذهن كامل العقل يرد فيما يسأل عنه رداً صحيحا ، قال : وكنت أسأله شكوكى فى اللغة وهو بهذه الحال ، فيرد بأسرع من النفس بالصواب ، قال : وآخر شيء سألته عنه جاوبنى

بأن قال لى : يا بنى حال الجريض دون القريض ، وكان هذا الكلام آخر ما سمعته منه، وكان كثيرا ما يتمثل بقوله :

فواحزنى أن لا حياة لذيذة ولا عمل يرضى به الله صالح

ذكر العتبى عن العتكى أنه قال : دخلت على ابن دريد قبل موته فسمعته يقول : ولدت ليلة الجمعة فى أحد الربيعين سنة خمس وعشرين ومائتين .. ومات يوم الأربعاء لثمان عشرة ليلة خلت من شعبان سنة ثلاثمائة واحدى وعشرين ـ وهى السنة التى خلع فيها القاهر بالله أبو منصور محمد المعتضد ، وبويع فيها الراضى بالله أبو العباس ابن المقتدر بالله ـ وكان موت ابن دريد وموت أبى هاشم عبد السلام بن أبى على الجبائى متكلم المعتزلة فى يوم واحد ، فقال الناس : اليوم مات علم اللغة وعلم الكلام، ويكون عمره سبعة وتسعين سنة ، وقيل عاش ثمانيا وتسعين ، وموته ببغداد ودفن بمقبرة العباسية من الجانب الشرقى فى ظهر سوق السلاح بالقرب من الشارع الأعظم او بسواها . . ورثاه البرمكى . .

وقد جمع لابن دريد علامة اللغة الشيخ محمود الشنقيطى كثيراً من مفردات المسائل اللغوية وطرائفها ، وسماها : « أخبار ابن دريد » ، وهى موجودة فى مكتبته بالكتبخانة السلطانية . سئل الدارقطنى عن ابن دريد أثقة هو أم لا ؟ فقال : تكلموا فيه ، وزعم بعض أنه كان يتسامح فى الرواية يسند إلى كل واحد ما يخطر له ، واتهموه باللهو والخمر ، حتى رووا عنه فى هذا أشياء ، الله أعلم بصحتها ، ولم أر لمن ذكره من أصحابنا أنه نسب له شيئا من تلك التهم .

أبو القاسم الآمدى

المتوفى عام ٣٧١ هـ

— ١ —

هو أبو القاسم الحسن بن بشر بن يحيى الامدى الأصل ، البصرى المنشأ ، ولد بالبصرة فلما بلغ سن الشباب توجه إلى بغداد واختلف إلى مجالس العلماء يتلقى عنهم اللغة والنحو والأدب ، ثم عاد بعد حين إلى البصرة كاتبا للقضاة من بنى عبد الواحد ، ثم برز فى الأدب وطارت له شهرة واسعة فيه ، وانتهت إليه رواية الشعر القديم والأخبار فى آخر عمره ، وقد ألف كتبا كثيرة فى اللغة والنقد ذكرها ياقوت فى

الترجمة التى عقدها له ، وكان فوق ذلك شاعرا مجيدا رويت له مقطعات شعرية كثيرة ، وتوفى أخيرا بالبصرة سنة ٣٧١هـ (ص ٧٥-٩٣ جـ ٨ معجم الأدباء - بغية الوعاة) .

ومن مؤلفات الآمدى : كتاب المختلف والمؤتلف فى أسماء الشعراء ، وكتاب تفضيل امرىء القيس على الجاهليين ، وكتاب معانى شعر البحترى ، وكتاب الرد على ابن عمار فيما خطأ فيه أبا تمام ، وكتاب فرق بين الخاص والمشترك من معانى الشعر ، وكتاب تبيين غلط قدامة بن جعفر فى كتابه نقد الشعر ، وكتاب مافى عيار الشعر لابن طباطبا من الخطأ . على أن أهم كتبه هو كتاب الموازنة بين أبى تمام والبحترى ، وهو موضوع دراستنا :

ظهر الآمدى فى القرن الرابع والدولة الاسلامية واسعة الرقعة ، والثقافة العربية بعيدة المدى ، قد هضمت شتى الثقافات وأحالتها غذاء عقليا سائغا ، فدرس الآمدى وبحث وثقف عقله وهذب نفسه بهذه الثقافة العربية فى روحها ، المتنوعة فى ألوانها .. والآمدى كما نراه فى موازنته ذوعقل بعيد وفكر ناضج وثقافة واسعة ، وهو لايسير وراء العلماء والأدباء ، وإنما يجىء فى الطليعة مجددا لامقلدا ، ومتبوعا لاتابعا ، سواء فى اللغة أم الأدب أم النقد .

وهو من الذين يؤثرون فى الأدب الروح الشعرية المطبوعة التى تميل إلى إيثار اللفظ والأسلوب ، فهو لايرى الشعر إلاصحة تأليف وعذوبة لفظ وجمال نظم ، وهو لايرى هذا الرأى فى الشعر وحده ، بل يجعل البلاغة كذلك قاصرة على جمال اللفظ والاسلوب وحدهما وموافقتهما للنهج العربى فى صحة التأليف وجودته ، أما المعانى وسموها والحكمة الانسانية وروعتها ، والخيال وإغراقه ، فذلك الترف الزائد عن الحاجة ، والذى إن ألم به الشاعر أو الخطيب فقد زاد فى حسن صنعته وبهائها ، وإلا فالصنعة باقية قائمة بنفسها ومستغنية عماسواها (١) .

وهو فى هذا الاتجاه الأدبى تابع للجاحظ وأضرابه ممن يؤثرون الروح الشعرية المطبوعة على المعانى الشعرية المبتدعة ، ويقولون «عليك أن تجتنب السوقى والوحشى، ولا تجعل همك فى تهذيب الالفاظ وشغلك فى التخلص إلى غرائب المعانى ، وفى الاقتصاد بلاغ » (٢) ، ولكنه يباين قدامة الذى ينادى بضرورة العناية بالمعنى كالعنى باللفظ ، ويجاهر بأن البلاغة فى شيئين . معنى مبتدع ، ونظم ساحر ، وهو

(١) ١٨٢ و ١٨٣ موازنة - (٢) ١٧٦ جـ ١ بيان .

لذلك يجعل مادة الشعر المعانى (ص ١٤ س ١٦ نقد الشعر) . أما الآمدى فقد جعل مادته هى الالفاظ (ص ١٨٣ س ٧ موازنة) .

وقد كان هذا الاتجاه الأدبى الذى اتجهه الآمدى سببا فيما نراه فى موازنته من مظاهر إيثار البحترى وتفضيله والاشادة بشعره بما سنقص عليك نبأه .

ونقد الآمدى لشعر الطائيين ليس نقدا للروح الشعرية بمافيها من جوانب شتى ومظاهر متنوعة وآراء ذهب اليها الشاعر ، وشخصية فرضت نفسها على إنتاجه ، وحياة تلون هذا الانتاج بلونها ، وعقلية نبع ذلك الشعر من ينابيعها ، واتجاهات جديدة اتجه اليها فنه ، ونغمات جديدة أضافها إلى التراث الشعرى ، وإنما هو نقد للفكرة الشعرية المجردة ، ولأسلوبها الشعرى الذى ظهرت فيه ، إذا كانتا بعيدتين عن النهج العربى ، فهو تحكيم للنهج العربى فى أسلوب الشاعرين وألفاظهما ومعانيهما ، فيرد منها مايرده الطبع العربى ، ويقبل مايقبله ، مع عناية باستقصاء سرقاتهما الشعرية الكثيرة . فهو نقد عقلى ولغوى أكثر منه نقداً أدبيا شعريا . على أن الآمدى لا يكتفى فى النقد بالناحية السلبية فقط ، بل كثيرا مايتجه اتجاها إيجابيا جميلا ، فيأتى بالأبيات التى وقع فيها الخطأ ـ أيا كان نوعه ـ مصححة أبدع تصحيح .

— ٢ —

وتعطينا الصورة السابقة التى رسمناها للآمدى فكرة عن كتابه «الموازنة» ، ولكن لا ضير علينا أن ننتقل من هذا الإجمال إلى البحث التفصيلى التحليلى للكتاب من جميع نواحيه .

ألفت الموازنة فى فترات متقطعة ، يدلنا على ذلك عدم تساوق كل جزء من أجزائها فى التأليف مع الذى يليه ، وأن روح الآمدى مختلفة فى ثناياه ، فهو يذكر فى آخر كل فصل من كتابه أنه سيضيف إلى البحث ماسيعثر عليه من أخطاء أو سرقات ، وسيلحقه بما كتب . وهو حين يقرر فى أول كتابه (ص ٢٣ موازنة) أنه سيوازن بين شعر الشاعرين فيما يتفقان فيه فى الموضوع والوزن والقافية وإعرابها ، يعود فيجعل الموضوع فقط هو أساس الموازنة (ص ١٨٤ موازنة) . وهو يكرر كثيرا من آرائه ونقده ، فبيت ذى الرمة :

أنخت بها الوجناء لا من سآمة   لثنتين بين اثنين : جاء وذاهب

يشرحه فى ص ١٦٣و١٨٦ . وبيت البحترى :

يخفى الزجاجة لونها فكأنها   فى الكف قائمة بغير إناء

ينقده فى ص ١٤ و ١٦٤ ، وبيت أبى تمام : طلل الجميع لقد عفوت حميدا . ينقده فى ص ٩٦ و ١٩١ ، الى غير ذلك من التكرار الكثير : فشخصية الآمدى العلمية لم تستطع جعل الموازنة وحدة تأليفية بارزة فى روحها التأليفية ، ويصح لنا أن نقول : لقد جاء على ذلك أغلب التآليف العربية ، فلا داعى للوم الآمدى وحده.

والنسخة التى بين أيدينا والتى طبعت فى مصر ناقصة ، فليس فيها من الموازنة بين الشاعرين إلا الموازنة فى معنى واحد من معانيهما ، وهو بكاء الديار وما يتبعه ، وليس فيها ذكر لما انفرد به كل من الشاعرين من المعانى ، ولا ذكر لما وقع فى شعرهما من التشبيه والأمثال ، مع أن الآمدى نفسه ذكر فى موازنته أنه سيلم بجميع ذلك (ص ٢٣ موازنة) على أن عبد القاهر الجرجانى أورد فى أسرار بلاغته جملا من الموازنة لانراها فى النسخة المطبوعة (ص ٣٢٩ أسرار) ، وعلى أن ياقوت ذكر أن الكتاب فى عشرة أجزاء ، وليس الذى بين أيدينا يبلغ هذا المقدار (ص ٨٧ ج ٨ معجم الأدباء) .

والموازنة معما أخذنا عليه من هنات ضئيلة فى التأليف من أجل الكتب التى ظهرت فى النقد والموازنة : ولقد وضع هذا الكتاب أساس نقد الشعر والموازنة بين الشعراء ، وهو بحق من أمهات كتب النقد الأدبى وأصوله : وهو أيضا مصدر من مصادر البيان العربى ومرجع من مراجعه ، وقد اعتمد عليه علماء البيان كما سنفصل ذلك إن شاء الله . ونحن حين نقول إنه مرجع من مراجع علم البيان لا نقول إنه كتاب بيان وبلاغة كما زعم ابن الأثير فى مثله السائر فأخطأ فى ذلك ثم بنى على هذا الخطأ نقده الموازنة بأن صاحبها أهمل كثيرا من مباحث علم البيان لم يستوف بحثا أو لم يذكرها أصلا (ص ٢ مثل سائر) ، فالموازنة إنما هو نقد أدبى ، وموازنة بين شاعرين ، وليس بحثا فى البيان العربى وبلاغته . .

والكتاب مقسم الى خمسة أقسام ، وكل قسم يسميه المؤلف جزءا :

١ — فالجزء الأول (من ١ - ٦٠) ، ويورد فيه الآمدى آراء النقاد فى شعر أبى تمام والبحترى ، ويستقصى رأى المتعصبين لهذا أو ذاك ، ويطلق لهذا الفريق الحرية فى مجادلة ذلك الفريق ، ثم يحصى فيه فى إفاضة سرقات أبى تمام الشعرية :

٢ — والجزء الثانى من (٦٠ - ١١١) ، وقد ذكر فيه أخطاء أبى تمام فى المعانى والألفاظ والأساليب :

٣ — والجزء الثالث يذكر فيه قبيح استعاراته ومستهجن جناسه ومستكره طباقه ،

وما ورد فى شعره من سوء النظم وتعقيد التركيب ووحشى الألفاظ مما خلا من بهاء الرونق وعذوبة المسمع ، ومما حمل التعسف على ديباجته ، وظهرت فجاجة التصنع فى أعطافه ، ويذكر ما وقع فيه من كثرة الزحافات التى ضيعت موسيقى أوزانه الشعرية ، حتى قال فيه دعبل : إن كلامه بالخطب والكلام المنثور أشبه منه بالشعر الموزون (ص ١١١ — ١٣١) .

٤ — والجزء الرابع يحلل فيه بإيجاز عيوب شعر البحترى مكتفيا من ذلك ببيان بعض سرقاته مع نفى الكثير منها عنه بدعوى أن الاحتذاء كان فى معان عامية لاخاصية حتى ينسب إليه السرقة فيها ، ويذكر قليلا من أخطائه فى المعانى مزيفا بعضها ، وبيتا واحدا مما تعسف فيه النظم وعقد فيه التركيب ، قائلا إنه لايعرف له سواه ، وقليلا مما جاء له من ردىء التجنيس أو من اضطراب الوزن واختلاله (ص ١٣١ — ١٧٦) :

٥ - والجزء الخامس يوازن فيه بين الطائيين فى المعانى التى اتفق موضوعها فى شعرهما ، ويبدأ تلك الموازنة بكلمة يبين فيها صعوبة نقد الشعر ، وأن لهذا الميدان أبطاله ممن عنوا بكثرة النظر فى الشعر والارتياض فيه وطول الملابسة له مع الطبع المطيع والملكات المواتية ، وأنه يجب أن يكون الى هؤلاء المرجع فى نقد الشعر وصناعته وهو متأثر فى هذا الرأى بابن سلام الجمحى ومقتبس منه (راجع طبقات الشعراء لابن سلام ص ٣ والعمدة ج ١ ص ٩٩ ، والموازنة ص ١٧٨ س ٥) ، ثم يبين الآمدى اتجاهه الأدبى الذى تأثر به فى الموازنة وهو الاتجاه الذى جعله لايرى بلاغة الشعر إلافى نظمه وأسلوبه وصحة طبعه ، ذاكراً أن الذين قدموا البحترى إنما قدموه لأن له من ذلك ماليس لسواه وإن كانوا لاينكرون على أبى تمام إجادته فى المعانى وكثرة استنباطه لها وإغرابه فيها ولا مكانه البارز فى حومتها ، ولكنهم يقولون إن اهتمامه بمعانيه أكثر من اهتمامه بتقديم ألفاظه مع كثرة غرامه بالجناس والطباق والاستعارة والمقابلة وسواها من ألوان البديع مما ذهب بماء شعره فصار غير متشابه الاطراف ولا متآلف الروح الشعرية ، فهم يسلمون له — كما يسلم له أنصاره — ضالة الشعراء جميعا من لطف المعانى وعمقها ، وتنوعها ، وبديع الوصف وجودة التشبيه والتمثيل ، وسمو الحكمة وإغراق الخيال ، وهى التى قدم بها امرؤ القيس فى الجاهلية : ألا ترى عمارة بن عقيل ينشد رائيته فى الواثق :

عرف الديار رسومها قفر لعبت بها الأرواح والقطر

فلما أتمها قيل له : ماسمعنا أحسن من هـذه الرائية ، فقال : والله لقـد عصفت رائية طائيكم بكل شعر فى لحنها ، أفلا تسمعون :

الحق أبلج والسيوف عوارى   فحذار من أسد العرين حذار

وأنشدها رجل فى المجلس فلما أتمها قال عمارة : « لله دره لقد وجـد ما أضلته الشعراء حتى كأنه كان مخبوءاً له » : ولكن خصوم أبى تمام يستكثرون عليه من أجل ذلك أن يسمى شاعرا ويقولون له : فلتكن إن شئت حكيما، ولندعك إن أردت فيلسوفا ، أما الشاعر فالبحترى : ويفيض الآمدى فى الاشادة بمذهب البحترى وأنه الشعر وأنه السحر وأنه روعـــة البلاغة وسحر البيان ، ويقر أن ليس الشعر ولا البلاغة إلا نظما وأسلوبا ، وأن أبرز عناصرها النظم والاسلوب . ثم ينتقل بعد ذلك الى الموازنة بين الشاعرين فى بكاء الديار و الوقوف عليها ووصف الدمن والاطلال وما إليها وما تبعثه من جوى فى صدور الواقفين بها والمسلمين عليها ، وفى الحنين الى الربوع والبكاء لفراقها ، ويستمر فى هذه الموازنة مفضلا هذا أو ذاك مكافئا بينهما حسب جودة كل شاعر ، ويشرح كل ذلك فى إفاضة بيان وقوة عارضة وحسن نقد وعدالةحكومة .. والى هنا ينتهى الكـتاب . وهذا الجزء من ١٧٦ — ٢٠٨ :

والآمدى فى معظم ماكتب كان ناقدا محيطا بأسرار اللغة ودقائق البيان ، فهو يقف فى نقده عند البيت فى دقة ملاحظة وسعة اطلاع ، إذا وجد فيه خطأ فى لفظ أو فسادا فى تركيب أو إحالة فى معنى أو بعدا عن النهج المألوف ،مما سنفصله بعد حين ، وإن كان قد ذلل له هذه الابحاث من سبقه من النقاد والعلماء .

رأى ياقوت فى الموازنة ونقده لها : يقول ياقوت فى معجم الأدباء ما نصه : كتاب الموازنة بين الطائيين فى عشرة أجزاء وهو كتاب حسن وإن كان قد عيب عليه فى مواضع منه ونسبه إلى الميل مع البحترى فيما أورده والتعصب على أبى تمام فيما ذكره ، والناس بعد فيه على فريقين : فرقة قالت برأيه حسب رأيهم فى البحترى وغلبة حبهم لشعره ، وطائفة أسرفت فى التقبيح لتعصبه وأنه جد واجتهد فى طمس محاسن أبى تمام وتزيين مرذول البحترى ، ولعمرى إن الأمر كذلك وحسبك أنه بلغ فى كتابه إلى قول أبى تمام ـ أصم بك الناعى وإن كان أسمعا ـ فشرع فى إقامة البراهين على تزييف هذا الجوهر الثمين (١) ، ولو أنصف وقال فى كل واحد بقدر فضائله لـكان فى محاسن البحترى كـفاية عن التعصب بالوضع من أبى تمام (٢)

(١) لا يوجد هذا بالنسخة المطبوعة   (٢) ٨٧ و ٨٨ معجم ج ٨

ونحن نرى أن ياقوت مصيب فى ذلك إلى حدما ، وسنفصل ذلك فى كلامنا .

بعض مآخذنا على الموازنة :

١ ـ انتصاره لعلماء الأدب ، المتعصبين للقديم المنكرين فضل المحدثين ، ودفاعه عنهم ، كما فعل مع الأصمعى فيما روى عنه من أن إسحاق الموصلى أنشده :

هل إلى نظرة اليك سبيل فيروى الصدا ويشفى الغليل
إن ما قل منك يكثر عندى وكثير ممن تحب القليل

فقال لمن تنشدنى ، فقال لبعض الأعراب ، فقال هذا والله هو الديباج الحسروانى ، فقال اسحاق إنهما لليلتهما فقال الأصمعى لاجرم والله إن أثر الصفة والتكلف بين عليهما .

ودفاع الامدى عنه دفاع ضعيف متكلف ، وهل يسوغ لمنصف أن يقول إن ذلك غير منكر من الأصمعى وابن الاعرابى لأن « الذى يورده الاعرابى وهو محتذ على غير مثال أجلى فى النفوس وأشهى إلى الأسماع وأحق بالزيادة والاستجادة مما يورد سواه على الأمثلة » كما يحاول الامدى أن يلقى ذلك فى روعنا ، ولو أنه اعتذر لهما ولأمثالهما بأنهم كانوا جلة الرواة وشيوخ اللغة والحفاظ على العربية وأنه لا يجدر بهم وهم فى منزلتهم العلمية الكبيرة أن ينزلوا عن شممهم وكبريائهم ويرووا شعر المحدثين الناشئين أو يسيروا بشعرهم فى مناهج البحث العلمى، نعم لو قال الآمدى ذلك وذهب اليه لوجد ناله عذراً مقبولا معقولا . ولقد عرض الصولى لهذه الخصومة فى كتابه (١٧٥ و ١٧٦ أخبار أبى تمام) ، وقال ابن المعتز : إنها عيب قبيح ومن فعل ذلك فإنما غض من نفسه ثم جعل هذا ناشئا عن جهل بنقد الشعر وتمييزه . ولكن صاحب الوساطة عرض لهذا التحامل الظاهر ورده إلى سببه الصحيح وهو تعصب علماء اللغة ورواتها للشعر القديم وإنكارهم لفضل المحدثين وشعرهم (٤٩و٥٠ وساطة)

٢ ـ . إيثاره للبحترى وجنوحه إلى تقديمه وانتصاره له ويتجلى ذلك فى ثنايا كتابه فى مظاهر شتى، فهو حينا يذهب إلى أن جيد البحترى أكثر من جيد أبى تمام، وكلما أمعنت النظر فى ديوان البحترى تنبهت إلى كثير من جيده الذى غاب عنك قبل حسنه ، بينما لا تظفر إذا أمعنت النظر فى ديوان أبى تمام من جيد إلا بالقليل (٢٢ موازنة) ، وهو حين ينقد البحترى يمسه برفق ويقف فى كثير من الأحيان موقف المدافع دونه ، أما إذا تعرض لأبى تمام قبض على أخطائه بيد لا تلين ،

يزيف كثيرا من معانيه ويظهر مجافاتها للذوق العربى القديم، ويبهرج كثيراً من أساليبه التى لا يسيغها النهج العربى القويم، ثم هو يظهر نصرته للذين رأوا البلاغة سحر نظم وجمال سبك ويرى بعد ذلك أن الشاعر البحترى، أما أبو تمام وأضرابه مثل المتنبى فهم حكماء، وهو يدفع كثيرا من سرقات البحترى التى أخذها من أبى تمام، وينكر أن تكون سرقة بحجة أن معانيها عامية لا خاصية.

ونحن لا يمكننا - ولو سلمنا بأن هذه معان عامية - أن ننكر احتذاء البحترى الظاهر - فى هذه المثل وسواها مما يكثر تعداده - لأبى تمام؛ ولا نستسيغ أن نقول إنه لم ينهل من المنهل الذى شرعه أبو تمام ولم يشرب من عبابه ولا أن نقول إنه لم يكن فى ذلك عيالا على أبى تمام وتابعاً له، ثم ما للآمدى رضى الله عنه - لا يترك مؤاخذة أبى تمام على سرقاته فى المعانى العامية - كما فعل مع البحترى - مع أن أبا تمام فى كثير مما أخذ يستبد بشرف المعنى لجودة نظمه وحسن تأتيه وارتفاعه بالزيادة على ما أخذه والتأنق فى صوغه.. أفليس قول أبى تمام:

أحلى الرجال من النساء مواقعاً .. من كان أشبههم بهن خدودا - الذى زعم أنه مأخوذ من قول الأعشى: وأرى الغوانى لا يواصلن امرأ: فقد الشباب وقد يصلن الأمردا.

أليس هذا اشتراكا فى معنى عام فلم يعده سرقة؟. وأليس قوله: «ما الحب إلا للحبيب الأول» الذى قال الآمدى إنه مأخوذ من قول كثير: «إذا وصلتنا خلة كى نزيلها.. أبينا وقلنا الحاجبية أول». أليس هذا معنى عاميا مشتركا وهذا يدفع أن يكون سرقة. وهكذا شأن كثير مما أخذه الآمدى على أبى تمام فيما يأخذه من المعانى؟

وكيف وقد جرى حكم نقاد الشعر وجهابذة المعانى على أن الشاعر إذا سرق معنى فأداه بأبلغ مما أداه به صاحبه انفرد به ولم يعد ذلك عليه عيبا، وكان صاحب هذه الزيادة بالتفضيل أحق وبالتزكية أولى (١٥١ وساطة). ولعمرى لقد كان دعبل يضع من شأن أبى تمام فقال مرة فى مجلس: إنه كان يتبع معانى فيأخذها فطلب منه رجل فى المجلس أن يذكر مثالا لذلك: فقال دعبل لقد قلت: شفيقك فاشكر فى الحوائج إنه.. يصونك عن مكروهها وهو يخلق»، فأخذه أبو تمام وقال: «إذا امرؤ أسدى اليك صنيعة. من جاهه فكأنها من ماله». فقال الرجل أحسن والله، فقال دعبل كذبت قبحك الله. فقال الرجل: والله لئن كان أخذ هذا المعنى وتبعته فما أحسنت وإن كان أخذه منك فلقد أجاده فصار به أولى منك؛ فغضب دعبل وقام.

٣ — تحامل الآمدى فى كتابه على أبى تمام ، وذلك ظاهر كما أسلفنا من روح الموازنة واتجاهها ، وقد خضع الرجل فى ذلك لحكم ثقافته الأدبية القديمة العربية الخالصة.. على أن ذلك ليس تعصبا أعمى على أبى تمام كما يرى كثير من الناس ، وكما ذهب إليه صاحب معجم الأدباء وسواه ، إنما هو رأى رآه الآمدى ، ومذهب ذهب إليه فأيده ودافع عنه للحق لا للعصبية ، وكان عادلا فى مواضع كثيرة من حكومته.. منصفا أكثر من كثير ممن سواه ، مقراً بفضل أبى تمام غير منكر له .

٤ — يقبل الآمدى ما وضعه دعبل على أبى تمام ، مع معرفته بحقيقة موقفه منه ، ومع ظهور تحامله عليه ، فهو مثلا يتبع دعبلا فى أن قصيدة أبى تمام :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

مأخوذة من قول أبى سلمى المزنى فى رثاء ذفافة :

أبعد أبى العباس يستعتب الدهر وما بعده للدهر عتبى ولا عذر
ألا أيها الناعى ذفافة ذا الندى تعست وشلت من أناملك العشر
ولا مطرت أرضا سماء ولا جرت نجوم ولا لذت لشاربها الخمر
كأن بنى القعقاع يوم وفاته نجوم سماء خر من بينها البدر
توفيت الآمال بعد ذفافة وأصبح فى شغل عن السفر السفر
وما كان إلا مال من قل ماله وذخراً لمن أمسى وليس له ذخر

إلى آخر هذه الأبيات ، مع ظهور التفاوت فى خيال هذه الأبيات ، والتباين بين معانيها القريبة والبعيدة ، والحضرية والبدوية ، مما ينبئ عن وضع واختلاق أو جمع وتلفيق . ونحن لن نذهب إلا أن دعبلا قد اختلق هذه الرواية ليغض من شأن أبى تمام ، ولكننا نرى ما رأى الحسن بن وهب من قبل من أن لأبى سلمى مرثية رائية من الطويل ، ولكن دعبلا خلط أبياتها بأبيات من قصيدة الطائى لينفى عن الرجل أن يكون هو المستبد بهذا الإحسان ، والظافر بشرف تلك الروعة ، وفضيلة ذلك السحر الساحر والشعر الشاعر .

٥ — يحكم الآمدى فى النقد عاطفته الدينية تارة وعقله تارة أخرى ، تاركا ذوقه الأدبى يتأثر بهذه الحكومة الجائرة ، وعقله يفسد على ذوقه حكمه . ويتجلى أثر عاطفته الدينية فى كتابه فى نقده بيت أبى تمام :

سأحمد نصراً ما حييت وإننى لأعلم أن قد جل نصر عن الحمد

حيث أخذ على البيت (١) أن الشاعر رفع فيه ممدوحه عن الحمد الذى ندب الله عباده إليه بأن يذكروه به وينسبوه إليه . كما يتجلى جور عقله على ذوقه فى نقده بيت أبى تمام :

من حرقة أطلقتها فرقة أسرت قلبا ، ومن عذل فى نحره غزل

فهو لا يستسيغ هذا البيت لا لظهور أثر كلفة الصنعة عليه وإضاعة البديع ماءه ورونقه ، ولكن لأن الفرقة لا تأسر القلب إنما يأسره الشوق . وعقل الآمدى البعيد الأفق يجور فى حكومته على العاطفة الشعرية والمعنى الشعرى بهذا النقد العقلى البعيد ، أفينكر الآمدى أن الفرقة تدع القلب الوفى فى حبه أشد لوعة وأكثر هلعا من الشوق والحبيب حاضر والخليل مقيم ؟ وهل يجدر بذلك المعنى شىء سوى كلمة الأسر وأن يقع القلب فى إسار الفراق وفى لظى الحزن وسعير الذكرى ووثاق اليأس والرجاء ؟ وكذلك ينقد الآمدى بيت أبى تمام :

ورحب صدر لو ان الأرض واسعة كوسعه لم تضق عن أهلها بلد

نقدا ضئيلا ، ومن ناحية غير أدبية بل عقلية محضة ، يقول الآمدى ما خلاصته : « إن كل بلد يضيق بأهله وليس ضيقه من جهة ضيق الأرض ، إنما ذلك على حسب ما أدى إليه الاجتهاد والاختيار ممن أسس كل بلدة ومصر كل مصر . وأيضا فإن الجزء من الأرض هو ما يكون فيه من الحيوان والنبات ، ومقداره على ما يقول علماء الهندسة الربع من الأرض وأقل من الربع ، والمسكون من جملة ذلك لعله لا يكون جزءا من ألف جزء من ذلك ، فما معنى جعله ضيق البلدان الضيقة إنما هو من أجل ضيق الأرض ؟ ! » .

ولعمرى لقد أسرف الآمدى فى إخراج البيت من دنيا الأدب ، إلى عالم الجغرافيا والهندسة ، وعذره فى ذلك غير مقبول .

٦ — ينقد الآمدى بيت أبى تمام :

إلى المفدى أبى يزيد الذى يضل غمر الملوك فى ثمده

وهو من المنسرح ، فيقول : إن أبا تمام أفسد البيت بكثرة الزحاف . والصواب أن الذى يؤخذ على البيت شىء آخر هو عدم طى عروض هذا البيت مع وجوب

---

(١) ٩١ موازنة .

ذلك فى المنسرح ، لا كثرة الزحاف لعدم وجوده فى البيت(١) .

هذه هى بعض المـآخذ التى نأخذها على الآمدى .

ولا شك فى تأثر الآمدى بآراء النقاد قبله ، فهو يعتمد على آرائهم ويستدل بحكومتهم فى النقد ، وهو يروى الكثير عنهم فى كل صفحة من صفحات الكتاب وكل موضوع من موضوعاته ؛ نقل عن الأصمعى وعن ابن الأعرابى وأستاذهما أبى عمرو بن العلاء ، ونقل عن ابن سلام وابن قتيبة وسواهما من أئمة الأدب وعلماء اللغة ، وهل هذه الانتقادات الكثيرة التى شحن بها الكتاب إلا صورة لآراء كثير من النقاد التى جمعها الآمدى فى موازنته ؟ فأصول كتاب الموازنة ترجع إلى نقاد القرن الثالث(٢) ومؤلفيه ، وقد صرح الآمدى بما يدل على ذلك فى أكثر من موضع من كتابه ؛ وفضل الآمدى إنما هو فى تدوينها وتنسيقها وإضافة آراء معاصريه إليها ، وتدبيجها بكثير من آرائه هو ، وتعليل ما لم يعلل ، فقد هضمت عقلية الرجل كل ذلك فرتبته وأحسنت جمعه والاستدلال به ، والزيادة عليه فى التحليل والتعليل ، ولذلك قيمة كبيرة ، لا سيما أن كتب النقد فى القرن الثالث قد فقد أكثرها .

ولا شك أيضا فى أن الآمدى فيما سار عليه من مناهج فى النقد والموازنة قد تأثر باتجاهات النقاد قبله ومناهجهم فيما ينقدون ، وهل كان نقد النقاد قبل الآمدى إلا تحكيما للنهج العربى فى نثر الأديب ونظم الشاعر ؟ وهل كان ابن العلاء وخلف وحماد والأصمعى وابن الأعرابى وسواهم من الأدباء والنقاد يميزون جيد الشعر من رديئه إلا بعرضه على ميزان الطبع العربى وتحكيم الأسلوب العربى فيما ينقدون ؟ وكذلك فعل الآمدى ، فقد رجع إلى اللغة العربية فجعلها كل شىء أو أهم شىء فى النقد ، فهو ينقد شعر أبى تمام وينقد البحترى بتحكيم النهج العربى فى شعر الشاعرين ، وتحكيم الذوق العربى فى كلامهما ، والأساليب العربية فى أساليبهما الشعرية ، فيرد ما ترده ويقبل ما تقبله ، فللعرب طريق خاص فيما ينطقون به من أساليب وتراكيب ونظم ، وفيما يتكلمون به من أفكار ومعان ، وخيالات ، وفيما ينظمون فيه شعرهم من أوزان ، ولهم نهج خاص فى مجازاتهم وتشبيهاتهم واستعاراتهم وتمثيلاتهم ، وفيما يتفننون فيه من مقابلة أو طباق أو جناس أو سجع إلى غير ذلك ، وذلك النهج

---

(١) راجع ص ١٣٠ موازنة (٢) النقد الأدبى لطه ابراهيم

العربي الخاص هو ما يجب على الشاعر أن يلتفت إليه ويسترشد به ويحتذى حذوه وينظم شعره على مثاله ، ثم هو ميزان النقد وأساسه ، والناقد يحكم ذلك النهج الخاص فيما ينقد من شعر ، فيفطن لما فيه من جمال وما فيه من قبح ، ثم هو يدرك ذلك بطبعه وذوقه ، وقد لا يجد إلى تصوير ما فى نفسه من شعور بالقبح أو الجمال سبيلا .

وكذلك رأى الآمدى النقد ، وعلى هذا الضوء سار فى نقد الطائيين ؛ فقد عرض شعرهما هذا العرض ، وفلاه هذه التفلية ، وأخذ يظهر ما فيه من عيوب وأخطاء ، ثم وازن بينهما فيما لهما من روائع وحسنات ، حريصا على وحدة الموضوع إذا تعسر عليه مع ذلك مراعاة وحدة الوزن والقافية وإعرابها .

وقد سار نقاد الشعر العربى بعد عهد الآمدى فى النقد على هذه الطريقة وذلك المذهب ، وصار ذلك الاتجاه خطة علمية مقررة ، وأصبح هو النهج الفنى لنقاد العرب جميعاً ؛ ومن الواضح أن هذا المنهج بعيد الصلة عن منهج قدامة بن جعفر سنة ٣٣٧ م الذى فصله فى كتابه «نقد الشعر» ، والذى بناه على أساس عقلى بعيد مع عناية بجمع مظاهر الترف الأدبى فى التعبير والبيان وجملها مظهر البلاغة وسر سحر الأداء ؛ نعم لقد حكم قدامة قواعد العقل والمنطق فصدر عن حكمها فى النقد ، أما الآمدى فقد حكم الذوق الأدبى وحده والروح العربية والاتجاهات الخاصة بالعرب وبلغتهم العربية .

أما تأثر الآمدى بقدامة فى بحوث البيان ونظرياته فقليل : لاختلاف ثقافة الرجلين واتجاههما ، فالآمدى أديب لغوى وقدامة أديب متفلسف ، والآمدى يقف من قدامة موقف الند للند ، فهو مؤلف كتاب ينقد فيه قدامة ويبين غلطه فى كتابه « نقد الشعر (١) » ، وهو ينقد رأى قدامة فى الطباق وحقيقته وتسميته نقدا لاذعا (٢) تبعه فيه ابن الأثير (٣) ، والآمدى يذهب إلى أن البلاغة للفظ وقدامة يجعلها للفظ والمعنى معا ، ويجعل الآمدى مادة الشعر هى الألفاظ ويجعلها قدامة هى المعنى (٤). ولكن الآمدى على كل حال أفاد من نقد الشعر لقدامة واقتبس منه:

فهو يجعل الشعر صناعة ككل الصناعات كما فعل قدامة ومن قبلهما ابن سلام (٥) .

---

(١) ١٢٥ موازنة (٢) موازنة ١٢٤ (٣) ٢٨٣ مثل سائر

(٤) ١٨٣ موازنة و ١٤ نقد الشعر (٥) ١٧٧ - ١٧٩ موازنة و ١٤ نقد الشعر

ويعرف الامدى الحوشى من الكلام بما عرفه به قدامة (١) .

ورأى الامدى فى أن الاستعارة إنما تحسن بقربها من الحقيقة وتبعد ببعدها عنها هو رأى قدامة (٢)

وكتاب الموزانة سجل حافل لشتى مناهج النقد ومذاهب النقاد فى تحليل شاعرية أبى تمام والبحترى ، وإن كان الآمدى ينتصر للبحترى فى مواقف كثيرة .

والصلة بين الآمدى والقاضى أبى الحسن الجرجانى صاحب الوساطة م ٣٩٢ ﻫ لم يتكلم عنها باحث ، وبمتابعة البحث وجدت بين الرجلين اتفاقا فى كثير من الآراء فى النقد والأدب والبيان ، وكثيرا ما نرى أسلوبهما فى شرح بعض الابيات واحدا أومتقاربا ، على أن اتجاه الرجلين فى النقد واحد أيضا ، فاتجاه الجرجانى فى نقد شعر المتنبى هواتجاه الآمدى فى نقد شعر الطائيين، فهويحصى مأخذ على المتنبى من سرقات ، وما أخذ عليه من أخطاء ترجع إلى التكلف والتعقيد ، أو إلى الافراط فى المبالغة ، أو إلى بعد الاستعارة وعدم وضوحها ، أو غموض المعنى والتعثر فى أدائه أو إلى اللحن فى الأداء والخطأ فى التركيب , وهذا هو الاتجاه الذى اتجهه الآمدى فى موازنته مع فوارق ضئيلة ، وهو رجوع بالنقد إلى النهج العربى والذوق الأدبى دون ما عداهما ، وكل ذلك يدلنا على وجود صلة أدبية بين الرجلين رغم تباين موطنيهما (البصرة وجرجان) . ومن المرجح عندى أن صاحب الوساطة قد تأثر بالموازنة دون العكس ، وأن الموازنة كانت خطوة أولى فى النقد الأدبى كعلم ، ثم تلتها الوساطة كخطوة ثانية فى مضماره ، يرشدنا إلى ذلك دراسة فن التأليف فى كلا الكتابين فالرقى التأليفى فى كتاب الوساطةالمتجلى فى جمال عرضها وتهذيب تأليفها وحسن أسلوبها أكبر دليل على ما أذهب إليه ، ويصعب علينا أن نفسر ما بين الرجلين من تقارب كثير بأنهما عاشا فى عصر واحد وتثقفا بثقافةعصرهما المتحدة ، فاناختلاف بيئة الرجلين وحياتهما مما لا يجعل لذلك التفسير قوته ولا وجاهته .

---

(١) ١٢٥ موازنة و ١٠٢ نقد الشعر (٢) ١١٤ موازنة و ١٠٤ — ١٠٦ نقد الشعر .

القاضى الجرجانى

المتوفى عام ٣٩٢ هـ

حياته وثقافته :

إذا كان للمتنبي ولأدبه عاصفة من الثورة السياسية فى بلاط ملوك الشرق الإسلامى على عهده ، وكان له دويه فى حلقات العلم ونوادى الأدب فى شتى أرجاء العالم العربى حينذاك ، فإن هناك شخصية جليلة لعبت دوراً خطيرا فى تطور النقد الأدبى فى القرن الرابع . وفى إنصاف المتنبي من ثورة خصومه الناقدين والحاقدين، تلك هى شخصية القاضى أبى الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى صاحب كتاب « الوساطة بين المتنبي وخصومه » ، الذى يعد سجلا أدبيا هاما للنقد فى القرن الرابع ولا يزال كما كان عنصراً من عناصر الثقافة الأدبية .

ولد الجرجانى فى أوائل القرن الرابع بجرجان ، وهى موطن خالد من مواطن الثقافة الاسلامية فى بلاد فارس إذ ذاك ، وسلك أبو الحسن السبيل التى كان يسلكها الطامحون من الشباب فى هذه البيئة العلمية الحافلة ، فأخذ فى دراسة علوم الدين واللغة والأدب ، وانتقل فى سبيل دراسته بين جرجان وبغداد والشام حتى صار ناضج الثقافة والعقلية ، ناضجا فى روحه الأدبى نضجه فى ثقافته الدينية ، ووطدت الصلات الثقافية والأدبية صلات الصداقة بينه وبين الصاحب بن عباد ، فاشتد اختصاصه به ، وحل منه محلا بعيدا فى رفعته كما يقول الثعالبى (١) ، ومدح الجرجانى صديقه الصاحب بقصائد ساحرة ، وقلده الصاحب قضاء جرجان ، وبعد حين رفعه إلى منصب قاضى القضاة بالرى عاصمة الملك الذى يسوسه ابن عباد ، واستمر فى القيام بأعبائه حتى بعد وفاة الصاحب ، إلى أن توفى سنة ٣٩٢ .

وثقافة الجرجانى الدينية يدل عليها ثقة الصاحب به ، وتوليته إياه مناصب دينية خطيرة ، فوق مؤلفاته فى الفقه التى ذكرها الشيرازى فى طبقات الشافعية .

وثقافته الأدبية تتجلى فى الآثار الباقية من شعره ، التى حفظها الثعالبى فى يتيمته ، كما تتجلى فى الوساطة بأجلى مظاهرها ، وفى كتابته الجيدة فيها عن الشعر

---

(١) اليتيمة ٢٨٣ ج ٣ .

ومذاهبه .

وشعر الجرجاني صورة صادقة لشخصيته التي بالغ الرجل في الاعتزاز بها ، وفي الاعتداد بكل فضائل الحياة الاجتماعية ، والنفور من رذائلها . كره الملق والرياء والزلفى :

وقالوا توصل بالخضوع إلى الغنى   وما علموا أن الخضوع هو الفقر
وبيني وبين المال بابان حرما   على الغنى : نفسي الأبية والدهر
إذا قيل هـذا اليسر عاينت دونه   مواقف خير من وقوفي بها العسر
إذا قدموا بالخير قدمت دونهم   بنفس فقير كل أخلاقه وفر

وكذلك كان صورة صادقة للمثل العليا التي لا يحرص عليها إلا القليلون ، كما كان صورة لنبل عواطفه وجمال طبعه وسعة ثقافته في الأدب ، وهو ينبع من نفس غذيت بنعيم الحضارة وعاشت في ألوان من المدنية ، فتركت البداوة التقليدية في الشعر ، وأنست إلى رقة الأسلوب الذي يفيض قوة وشعورا ، ويسرى فيه روح قوى وعاطفة شاعرة، ترسم كل ما يحيط بنفس الشاعر من مؤثرات وذكريات ؛ وله ديوان ، ذكره الشيرازي في طبقاته ، وابن خلكان في وفياته ، وضاع مع ما ضاع من تراثنا الأدبي القديم .

والجرجاني الذي يقول فيه الثعالبي : إنه « كان يجمع خط ابن مقلة إلى نثر الجاحظ ونظم البحتري » ، قد ضاع نثره الادبي ، ولكن كتابه : « الوساطة » يرشدنا إلى خصائص فنه الادبي : من دقة التعبير ، وتمثيل الاسلوب لثقافته الأدبية التي ترتفع إلى ثقافة الخاصة من الادباء في عصره ، كما يتجلى فيها الجنوح إلى إيثار الالفاظ والصيغ الرقيقة ، والبعد عن ترف البيان المتكلف في شتى صوره وألوانه البديعية ، وعدم إيثاره من السجع إلا ما ساوق الطبع واستدعاه المعنى . ولذلك تردد أسلوبه بين السجع والازدواج ، والارسال ، والتساوق بينه وبين طبعه وعقله الزاخر بشتى الفكر والآراء الدقيقة ، وتركه أسلوب الرسائل الأدبية التي تنحو نحو الإطناب والتفصيل والمبالغة . ثم أسلوبه كذلك صورة لاستقلاله الفكري وجنوحه إلى الحجاج :

شاهد الجرجاني آثار الخصومة الأدبية بين المتنبي وخصومه من النقاد ، وسمع وقرأ الكثير مما يجه يراع علماء الأدب في نقده ، كما سمع حجاج أنصار المتنبي وآراءهم في شعره ، ولما ظهرت رسالة الصاحب بن عباد قرأها الجرجاني ، فرأى فيها جورا

على الحق ، وإسرافا فى الخصومة . وشططا فى النقد ، ففكر وقدر ، ثم ألف بعد حين كتابه « الوساطة » ينصف فيه المتنبي من خصومه ، ويعرض آراءهم نقد شعره ، ويحللها ثم يناقشها ، ويعرض بجانب الصورة الباهتة التى رسمها هؤلاء لابى الطيب صورة مشرقة فيها تقدير وإنصاف ، وذلك مثل جديد فى سمو نزعات القاضى الخلقية واستقلاله فى الرأى ، وعدم نزوعه إلى الايمان التقليدى برأى سواه ، ولو كان من أشد من يؤثرهم ويحفظ لهم أو فى الذكريات .

والوساطة من أصول كتب الأدب ، وأسلوبها البيانى مثل يحتذى ، وكان لظهورها دوى بعيد فى عالم الأدب والأدباء ، وحسبنا رأى الثعالبي وابن خلكان (١) إشادة بها ، ورجل الأدب المثقف فى العصر الحديث بحاجة ماسة إلى الوساطة ليعرف مناهج الكتابة ، ووزن الأساليب . وقد عرضت الوساطة كثيرا من المشكلات الأدبية عرضا ساحرا ، أملاه الذوق والطبع والوجدان . . وللوساطة أثرها الكبير فى النقد ، ويعدها الباحثون من القدامى والمعاصرين ، من أروع مؤلفاته (٢) ، وصاحبها يفهم الشعر فهما جيدا يتجلى فى كتابته عنه وعن مذاهبه .

وترسم الوساطة المنهج الحق فى النقد ، بعرض ما أحسن أو زل فيه الشاعر ، ثم الموازنة والمفاضلة . مع الرجوع فى أحكام النقد الأدبى إلى الذوق المطبوع ، الذى هذبته الفطرة الأدبية السليمة وثقفه المران والبحث (٣) ، وذلك ما سار عليه أئمة نقاد الأدب والبيان (٤) ، فالنقد عند ثقات النقاد إلا دراسة الأشياء وتفسيرها وتحليلها وموازنتها بما يشابهها أو يقابلها ، ثم الحكم عليها ببيان درجتها وقيمتها ، والنقد الادبى عند المحدثين هو التقدير الصحيح لاى أثر أدبى وبيان قيمته ودرجته بالنسبة إلى سواه (٥) ، وذلك هو مافهمه الجرجانى ، وسار عليه فى وساطته .

والجرجانى حين يجعل الذوق الأدبى هو الحكم فى مشكلات النقد والبيان يرجع إلى مذهب العرب فى بيانها ، وماتسير عليه من مناهج فى الاداء والتعبير ، ليقوم بذلك ذوق الناقد ، ويوسع جوانب ثقافته فى النقد ، ويقول صاحب الوساطة: وإنما تفاضل العرب بين الشعراء فى الجودة والحسن ، بشرف المعنى وصحته ، وجزالة

---

(١) ص د و ه مقدمة الوساطة طبعة صبيح .

(٢) ١٧١ مقدمة لدراسة بلاغة العرب . (٣) ١٢ الوساطة .

(٤) ٩٠ - ١٠٠ لدراسة بلاغة العرب (٥) راجع أصول النقد الادبى للشايب

اللفظ واستقامته ، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب وشبه فقارب ، وبده فأغزر ، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته .. فعناصر الشعر - التي يدور حولها النقد في نظره هي : المعنى وصحته ، والغرض وإصابته ، واللفظ واستقامته ، والانتاج وكثرته وجودته ، وهذه العناصر هي التي يجب أن تجعل الحكم في الحكم على الشعراء والجرجاني فيما عرضه إجمالا من موازين النقد يتحدث بفطرته الادبية الخالصة التي لم تستفد من البحوث القوية التي فصلها قدامة في « نقد الشعر » . وأكثر تأثر القاضي على العموم إنما هو بعلماء اللغة والأدب من أولى الثقافات العربية المحضة كالآمدي وسواه .

أبو هـــلال العسكرى

عاش أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكرى في القرن الرابع ، وتوفى في آخره ، وامتاز بحبه الفضائل الخلقية ، وإيثاره المثل العليا في الحياة ، فعاش مجاهدا يعمل بساعده ليتمكن من الحياة ، مؤثراً ذلك على زخرف الجاه والمنصب ، متصلا برجال النهضة الفكرية والأدبية والسياسية في عهده اتصال صداقة وأخوة ، وكان ممن اتصل بهم الصاحب بن عباد الوزير المتوفى عام ٣٨٥ ﻫ ، وقد قنع أبو هلال بصداقته ، ولم يتطلع إلى ما في يده من مجد وجاه ومال ، واتصال أبي هلال به جعله من مؤيدى مذهبه الفكرى والأدبي ، وبتأثيره ساء رأى أبي هلال في أبي الطيب المتنبي الشاعر ، وقد عرض بذمه في مواضع كثيرة من كتابه الصناعتين .. وأبو هلال في كتابه كثير الاشادة بالصاحب وأدبه من شعر ونثر ، فكثيراً ما يستشهد بأدبه كلما عن له موضع استشهاد ، ويذكره حينا بالصاحب ، وحينا بكافي الكفاة ، وحينا بالأستاذ ، وله قصائد كثيرة في مدحه (١) ، وتراه يمدح البحترى باختيار القوافى المناسبة لموضوع القصيدة كما مدحه الصاحب من قبل (٢)

وقد نشأ أبو هلال في عصر نضوج الثقافة الأدبية والفكرية في الشرق فاغترف من ينابيعها المتدفقة ، وتتلمذ على كثير من رجال الفكر والأدب ، وكان أظهر أساتذته خاله ابو أحمد الحسن بن عبد الله بن سعيد العسكرى المتوفى عام ٣٨٢ ﻫ صاحب كتاب التصحيف والتحريف الذى ينقل عنه كثيراً من شتى

---

(١) تجد آثارا منها في ص ٤٤٤ و ٤٤٥ الصناعتين .

(٢) ١٤٢ صناعتين ، ١٠ رسالة الصاحب في الكشف عن مساوىء المتنبي

الروايات فى الأدب والبيان.. وأدب أبو هلال أدب أوحت به اليه عقليته الناضجة التى وعت دقائق الحضارة فى عهده، وجمعت شتى ألوان الثقافات المعروفة فى عصره، وتأثرت بألوان كثيرة من المدنية والعمران والترف العقلى والمادى جميعاً . . فهو أدب عميق الفكرة، دقيق المعنى والخيال، ساحر فى أسلوبه العذب الرقيق الساحر الموشى بألوان البيان وفنون الأداء، سواء فى ذلك نثره وشعره، وكثيراً ما ينقل أبو هلال منه فى كتابه، ونثره الأدبى تستطيع أن تعرف خصائصه من القطع التى ذكرها فى كتابه (١) . . ونثره العلمى يدلك عليه أسلوبه فى كتاب « الصناعتين »، وقد نجد فروقا بين النثرين : فالأول نثر فيه كثير من دقة الفكرة وجمال الاداء وسحر البيان وترف التعبير، والثانى يترك فيه صاحبه كثيراً من التعبير العاطفى والخيالى ويلجأ إلى أسلوب يعبر عن الحقائق تعبيراً يظهرها لك ممثلة واضحة . . وشعره يفيض بكثير من المعانى والأخيلة، وفيه دقة وبعد، وله روعة وسحر، وينقل منه كثيراً فى كتابه أيضاً وعلى العموم فهو شعر شاعر ذى ثقافة عقلية كبيرة.. وثقافته ثقافة متكلم أجاد اللغة والأدب وكثيرا من العلوم العقلية، أما أنه متكلم فيدلك عليه أنه كثيراً ما ينقل فى كتابه مثلا لبلاغة المتكلمين، ولا ينسى أن يذكر فى أول كتابه أنه سلك به مذهب علماء الأدب لا المتكلمين . وأما إجادته للأدب واللغة والبيان فذلك ما ليس للشك فيه سبيل، وتجده ينقل فى الصناعتين من جميع مصادر الأدب والنقد والبيان شارحاً وناقداً ودارسا، حتى كليلة ودمنة فقد نقل منه مثلا للتشبيه الجيد . (٢) . . وأبو هلال متأثر بالجاحظ كثير الإفادة منه ومن كتابه « البيان والتبيين »، وكتابه يسير فى السبيل الذى عبده الجاحظ (٣)، كما تجد كثيراً من آرائه فى البلاغة والبيان مأخوذة منه، وله ميزة شرحها والتعليق عليها وقد ينقلها، وقد يستدل بها، فالأصول الأولى لعلم البيان التى ذكرها أبو هلال وأضاف إليها ماجد بعد عهد الجاحظ من آراء فى الأدب والنقد والبيان هى الأصول التى دونها الجاحظ من قبل، ويقول باحث محدث : « ليس أبو هلال إلا شارحا للجاحظ فى كتاب الصناعتين، جامعا للمتفرق منه، وقد تحدث عن

---

(١) ٣٥٨ و ٣٨٧ صناعتين

(٢) ٢٣١ - ٢٣٣

(٣) ٦ و ٧ صناعتين .

كتاب البيان والتبيين بعد أن أورد طرفا من تخليط بعض المتحدثين فى البلاغة ، فقال : ووقفت على موقع هذا العلم من الفضل ، ومكانه من الشرف والنبل ؛ ووجدت الحاجة اليه ماسة ، والكتب المصنفة فيه قليلة ، وكان أكبرها وأشهرها كتاب « البيان والتبيين » لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، وهو لعمرى كثير الفوائد ، جم المنافع ؛ إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة فى تضاعيفه ، ومنتشرة فى أثنائه ، فهى ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل ، والتصفح الكثير ، فرأيت أن أعمل كتابى هذا مشتملا على جميع ما يحتاج اليه فى صنعة الكلام : نثره ونظمه ، ويستعمل فى محلوله ومعقوده ، من غير تقصير وإخلال . وهذا لون من ألوان التأثير الايجابى للجاحظ (١)

وكتاب الصناعتين ألفه أبو هلال وانتهى من تأليفه عام ٣٩٤ (٢) ، فاذا يكون من المحقق أن أبا هلال قد ألف كتابه بعد ظهور الوساطة بزمن يسمح له بالتأثر بها واتخاذها مصدراً من مصادر كتابه ، إن أراد ، ولكن هل فعل ذلك أبو هلال . وهل اتخذ الوساطة من مراجع كتابه الحافل ؟ الجواب لا ، فقد كان بين الرجلين فوارق كثيرة :

(ا) فاتجاهما العقلى والثقافى مختلف ، فالجرجانى أديب يستمد أدبه من ثقافة عربية خالصة ، وأبو هلال أديب يستمد أدبه من ثقافته العربية وثقافته العقلية التى يحذر فيها حذو قدامة وابن العميد والصاحب .

(ب) ومشكلات المنافسة بين الرجلين كانت عاملا فى عدم انتفاع أبى هلال بوساطة الجرجانى ، بل كانت سببا فى إظهار السخرية بها وبمؤلفها ، وإن كان ذلك لم يخف على أحكام ذوقه الأدبى فى تقدير ما يستحق التقدير من شعر القاضى ، كما نرى فى ديوان المعانى (٣) ، حيث روى أبياتا للجرجانى واستحسنها . ولكنك تجد فى الصناعتين (٤) نصا غريبا يستوقف النظر :

قال أبو هلال وهو يعدد أنواع البديع : « فهذه أنواع البديع التى ادعى من رواية له ولا دراية عنده أن المحدثين ابتكروها ، وأن القدماء لم يعرفوها ، وذلك لما أراد أن يفخم أمر المحدثين » . فمن هو هذا الرجل الذى يعرض به أبو هلال ؟

---

(١) ١٧٣ البلاغة العربية فى دور نشأتها ـ سيد نوفل ـ طبع النهضة ١٩٤٨

(٢) الصناعتين ط صبيح ص ٤٤٥ (٣) ١٦٨ ج ١ (٤) ٢٨٥

هو القاضى الجرجانى أبو الحسن صاحب الوساطة ، وليس فى ذلك ريب عندى :

(ا) فالجرجانى هو الذى نوه فى وساطته بالمحدثين ، وهتف باسمهم وأشاد بمكانتهم ، فذهب إلى أن وقوعهم فى الخطأ لا يحط من منزلتهم ، لأنه قد وقع فيه الجاهليون والإسلاميون ، كما ذهب إلى أن يسيرهم أحق بالاستكثار ، وصغيرهم أولى بالاكبار .

(ب) والجرجانى هو الذى يرى أن المحدثين فطنوا لجمال ألوان البديع التى ألم بها القدامى إلماما فتكلفوا الاحتذاء عليها (٢٧ الوساطة طبع صبيح) ، وتكلم على شتى ألوان البديع وذكر أن المحدثين هم الذين مهدوا سبيلها ، وغيروا اتجاهها الأدبى ، كما ترى مثلا فى كلامه على السرقة ودقة المحدثين فى إخفاء الأخذ ، وفى كلامه على الإفراط وأنه مذهب عام فى المحدثين (١) ، وفى الاستعارة وإبعاد مرماها على يد المحدثين (٢) ، إلى غير ذلك من ألوان الاشادة بالمحدثين فى كتابه .

(ح) وثقافة القاضى دينية ، وأدبية مستمدة من الذوق والطبع أكثر من استمدادها من العقل أو النقل كما يقول أبو هلال .

على أن أبا هلال قد تحامل فى كلمته على القاضى ، فأسرف فى رميه إياه بأنه لا رواية ولا دراية عنده ، وفهم من إعجاب الجرجانى بالمحدثين أن ذلك تعصب لهم ، كما فهم من كلام الجرجانى عن أبواب البديع وفضل المحدثين فى الفطنة اليها أنه يرى أن القدماء لم يعرفوها بأى شكل من أشكال المعرفة ، مع أنه رأى أن القدماء عرفوا بعضها معرفة فن وأدب ، وأن المحدثين قد عرفوها معرفة علم وفن ومذهب ، ولهم الفضل فى تطور صورها وألوانها ، ودقة أخذها وروعة سحرها

فابو هلال كان يتتبع حياة القاضى وانتاجه ، وينظر اليه بعين المنافسة ، وقرأ الوساطة ، ولكنه لم يعول عليها ، ولذلك لاتجد ظلا لتأثر أبى هلال بها فى الصناعتين مع أنه تأثر بالجاحظ وبيانه ، وقدامة وكتابه « نقد الشعر » وبالآمدى وموازنته ، والبحوث المشتركة فى الكتابين نرى فى اتجاه الرجلين فى بحثها بونا كبيرا ، فميزان النقد عند الجرجانى (٣) مباين له عند أبى هلال (٤) ، وآراء أبى هلال فى الاستعارة والتشبيه ليس فيها أى أثر لوساطة القاضى ، وكذلك بحوثه فى السرقات الأدبية (٥)

(١) ٣١١ الوساطة . (٢) ص ٣١٧ المرجع .

(٣) ٢٧ الوساطة . (٤) ٥٤ صناعتين (٥) صناعتين ١٨٩ — ٢٢٥

ليس فيها أى أثر خاص لآراء الجرجانى ، وخفاء السرقة عند الجرجانى بالنقل أو القلب أو تغيير النهج والترتيب ، وهو عند العسكرى بجعل النثر نظما والنظم نثرا وبتغيير الموضوع (١) . وإذا كان تعليق أبى هلال (٢) على البيت :

كنتم كمن أدخل فى جحر يدا فأخطأ الأفعى ولاقى الأسودا

هو تعليق صاحب الوساطة (٣) فى نقده له ، فليس ذلك مظهرا لتأثر ، أو دليلا على احتذاء .

كتاب الصناعتين وأثره الأدبى :

وكتاب « الصناعتين » كتاب مفيد جدا فى الأدب والنقد والبيان : فأسلوبه أنيق جميل ، وعرضه منظم ، مما يدل على عقلية صاحبه الكبيرة . والثقافة التى يمثلها ثقافة عميقة ، تدل على علم غزير وإحاطة واسعة .

وهو كتاب تطبيقى على قواعد البيان ، يمتاز بكثرة شواهده ومثله كثرة فائقة ، مع حرص على جودة الاختيار ، وسلامة الطبع ، مما يرشدنا إلى لون من ثقافة أبى هلال وعقليته ، حتى لقد حار بعض الأدباء فى تسمية الصناعتين كتاب أدب أو كتاب نقد أو كتاب بلاغة وبيان . والآراء التى جمعت فيه فى النقد هى خلاصة ثقافات علماء الأدب والشعر حتى وسط القرن الرابع ، وتمتاز بأنها صادرة عن ذوق وطبع وشعور أدبى ، وعن حكم العقل والفكر أيضا . ولذلك كان الكتاب مادة غزيرة ينتفع بها كل باحث ودارس الأدب والنقد والبيان .

وإن كانت الصيغة الأولى للكتاب ، والهدف الأول من تأليفه ، أن يكون كتابا فى أصول قواعد البيان العربى ، فقد نحا أبو هلال فيه نحوا جديدا فى التأليف فتكلم على البلاغة ، وما يحتاج إليه الأديب والكاتب والشاعر ، ورسم المذاهب الأدبية والمناهج البيانية التى تسمو بالأديب إلى ذروة البلاغة .. ونلاحظ أن علماء الادب فى القرن الرابع امتازوا فى مطلع هذا القرن بالكتابة عن الادب والنقد كما فعل قدامة فى نقد الشعر ، والصولى فى كتاب أخبار أبى تمام ، وأبو الفرج فى

---

(١) ١٩٢ صناعتين طبع صبيح (٢) ١٩ صناعتين .

(٣) ص ١٠

الاغانى ، والقالى فى كتابه الامالى ، ثم مزجوا بحوث النقد والادب بالبيان ، كما فعل الآمدى فى الموازنة ، والقاضى الجرجانى فى كتاب الوساطة ، ثم أفادوا من دراسات النقد فى بحوث البيان ، فظهر أول كتاب كامل فى موضوع البيان ، وواف بجميع بحوث البلاغة ، مع الايجاز وقرب الفكرة وقلة التحليل وهو « الصناعتين »

وخلاصة ما نقول ان كتاب الصناعتين صورة كاملة للبيان العربى حتى آخر القرن الرابع الهجرى ، وأن هذه الصورة اشترك فى تلوينها علماء الادب والنقد والبيان قبل أبى هلال وفى عصره من شتى الطبقات والثقافات والعناصر..

وان ماوصل اليه فن البيان حتى آخر القرن الربع إنما هو بحوث موجزة تتصل بملكات البيان والأدب والنقد ، ويكثر فيها الاستشهاد والتمثيل ، ويعوزها السير فى البحث إلى خاتمة المطاف ونهاية الشوط ، ففن البيان فى القرن الرابع كان يشمل ألوان البديع أيضاً ، ومع ذلك فقد حاول أبو هلال أن يرسم منهجا جديدا فى نقد الشعر بعد المنهج الذى رسمه قدامة فى كتابه نقد الشعر ، ولكنه لم يظفر بما ظفر به قدامة من نجاح كامل وتوفيق كبير ، فى هذه الغاية العسيرة ، بل لقد كان عالة على قدامة وكتابه وعلى كل حال فللعسكرى الفضل كل الفضل فى إفراد صناعة الكلام بالتأليف والبحث ، مع العناية بالجمع والشرح والاستقصاء فى المثل والشواهد ، ومع إجادة فى العرض ، وتنسيق فى الدراسة ، وحسن الإبانة عن غرضه . .

بديع الزمان الهمذانى

القرن الرابع الهجرى عصر الدول المستقلة فى العالم الاسلامى : من أمثال البويهيين ، والسامانيين ، والدولة الغزنوية ، والزيارية ، والصفارية . وقد عاش البديع فى ظلال أربعة ملوك من ملوك السامانيين وفى عهد جماعة من ملوك بنى بويه: عضد الدولة (٣٦٧ — ٣٧٢ هـ) ، وفخر الدولة ، ومجد الدولة ، وشمس الدولة ، وكان لهم سلطان على همذان والبلاد التى أقام بها البديع . وكانت هذه الدول تتنافس فى تشجيع العلم والأدب تنافسا كبيرا ، ولمع فى هذا العصر اسم ابن العميد والصاحب ابن عباد والخوارزمى والميكالى والثعالبى والبيرونى والصابى والعتبى والقاضى الجرجانى وأبى هلال العسكرى وشمس المعالى قابوس وابن نباتة السعدى الخطيب

والحسن بن على التنوخى .. كالمع اسم المتنبى والمعرى وأبى فراس الحمدانى والرضى ومهيار والبستى والنامى والناشى والزاهى والسرى والببغا وسواهم

ومدينة همذان يشرف عليها جبل أورند فى سهل خصب ، وهى شديدة البرد ، ظاهرة الخصب .

وكان البديع من أسرة ذات مكانة فى همذان ، وقد ولد فى ١٣ من جمادى الثانية سنه ٣٥٨ هـ ، من أسرة عربية ، وكثيراً مايقول البديع فى رسائله : «ومضر المحتد » ، أو : «تغلبى النجار» .. وقد عاش أبواه إلى أن كبر وترك همذان ، وكان له أخ أصغر منه هو أبو سعيد وكان أبو سعيد مفتى همذان ، وكان له كذلك ابن صغير اسمه أبو طالب ، وقد غاب البديع عن أبيه أحد عشر عاما .

نشأ أحمد بن الحسين فى هذه البيئة ، يدرس الدين واللغة وعلوم الأدب ، حتى نبغ فيها .

وهاجر من همذان سنة ٣٨٠ هـ إلى حضرة الصاحب ، وكان زاره قبل ذلك وعرف به نفسه ، قدم جرجان إذا وأقام بها مدة يتصل بالاسماعيلية ويعيش فى رعايتهم ، ثم قصد نيسابور عام ٣٨٢ هـ وفى الطريق خرج عليه الأعراب وسلبوه كل مامعه

ورد نيسابور فكتب إلى أبى بكر الخوارزمى ، وهو شيخ أدبائها وأحد أغنيائها : « أنا لقرب الاستاذ أطال الله بقاءه كما طرب النشوان مالت به الخمر ومن الارتياح للقائه ، كما انتفض العصفور بلله القطر ومن الامتزاج بولائه ، كما التقت الصهباء والبارد العذب ومن الابتهاج بمرآه كما اهتز تحت البارح الغصن الرطب ، فكيف نشاط الأستاذ لصديق طوى اليه ما بين قصبتى العراق وخراسان ، بل ما بين عتبتى نيسابور وجرجان ، وكيف اهتزازه لضيف فى بردة جمال وجلدة حمال :

رث الشمائل منهج الأثواب بكرت عليه مغيرة الأعراب

وهو أيده الله ولى إنعامه ، بانفاذ غلامه ، إلى مستقرى ، لافضى اليه بسرى ، إن شاء الله تعالى » . ويؤخذ من كلام البديع أنه ذهب إلى دار الخوارزمى فلم يحسن لقاءه ، أولم ترض نفس الهمذانى بهذا اللقاء ، فكتب اليه فرد الخوارزمى رداً حسنا وسعا سعاة السوء بين الرجلين . ثم جمع بينهما الشيخ أبو الطيب فلم يحمد ذلك الاجتماع . ثم كانت بينهما المناظرة الاولى فى دار السيد ابى على أحد الكبراء فى نيسابور ، فتناظرا فى ارتجال الشعر مناظرة ظهر فيها غلب البديع وقد غضب من قطع الخوارزمى إنشاده عليه فصمت برهة .. يقول الهمذانى : « ثم عطفت عليه

وقلت يا أبابكر : ان الحاضرين قد عجبوا من حلمي أضعاف ماعجبوا من علمي ، وتعجبوا من عقلي ، أكثر مماتعجبوا من فضلي ، وبقي الآن أن يعلموا أن هذا السكوت ليس عن عي ، وان تكلفي للسفه أشد استمرارا من طبعك ، وغربي في السخف أمتن عودا من نبعك ، وسنقرع باب السخف معك ، ونفترع من ظهر السفه مفترعك ، فتكلم الان . فقال لي أنا قد كسبت بهذا العقل دية أهل همذان مع قلته ، فما الذي أفدت أنت بعقلك مع غزارته ، فقلت : أماقولك دية أهل همذان فماأولاني ان لاأجيب عنه ، لكن هذا الذي تتمدح به وتتبجح وتتشرف وتتصلف، من أنك شحذت فأخذت ، وسألت فحصلت ، واجتديت فاقتنيت ، فهذا عندنا صفة ذم ياعافاك الله» . ذهب البديع إلى بيت الخوارزمي واصطلحا . ثم شاع بين الناس أن البديع غلب ، فكتب اليه الخوارزمي يتهمه بأنه أشاع هذا الكلام ، ويقترح مناظرة أخرى ، فكانت المناظرة الثانية في بيت الشيخ أبي القاسم الوزير . وحضرها عظماء نيسابور ، وكانت مباراة في الارتجال والترسل والنحو واللغة ، وقضي بالفلج للهمذاني، فلماخرج لقيه الناس بالتقبيل ولم يستطع الخوارزمي الخروج حتى جنه الليل.. وفي رسائل الهمذاني تفصيل المناظرة التي قضت له بالفلج . وينبغي الا ينسى القارىء أن هذا أحد الخصمين ، ولست أتهم الهمذاني بالكذب الصراح ، ولكني لاأبرئه من محاباة نفسه . ثم نتذكر أن الخصمين ليسا سواء : أحدهما شيخ طائر الصيت يخشى أن يؤخذ عليه ماينقص من قدره ، والاخر شاب طامح إلى الصيت يريد أن يبني مجده على هزيمة قرنه ، وهو لايخسر كثيرا إن غلب ، وهذا مظنة أن يستعظم الحاضرون ظفر البديع ولوكان قليلا وهفوة الخوارزمي ولوكانت ممايغتفر أمثالها . ثم أظن أن بعض النيسابوريين كانوا يحسدون الخوارزمي ، ويودون أن يذهب بمجده ذلك الضيف الشاب الجميل الطلعة ، الخفيف الروح .

لم تكن المناظرة في صميم الأدب من الشعر والترسل ، بل كانت في البديهة والارتجال والحفظ . قال الهمذاني وهو يتحدى خصمه : « ومثال ذلك أن اقول لك اكتب كتابا يقرأ منه جوابه ؟ أو اقول لك اكتب كتاباً على المعنى الذي أقترح لك ، وانظم شعراً في المعنى الذي اقترح ، وافرغ منهما فراغا واحداً هل كنت تمدله ساعداً ؟ وأقول لك اكتب كتاباً في المعنى الذي أقول وأنص عليه ، وأنشد من القصائد ماأريده من غير تثاقل ولا تغافل ، حتى اذا كتبت ذلك قرىء من آخره إلى أوله ، وانتظمت معانيه اذا قرىء من أسفله، هل كنت تفوق لهذا الغرض سهما

او تجيل قدحا أو تصيب نجحا ، أو قلت لك اكتب كتابا اذا قرىء من أوله الى آخره كان كتاباً ، فان عكست سطوره مخالفة كان جوابا الخ » .. وقد أجاب الخوارزمى على هذا كله بقوله : « هذه الابواب شعبذة ، وهى ان لم تكن شعبذة فهى ليست من الادب ، وان دلت على توقد الذكاء وسرعة البديهة .. اغتبط بديع الزمان بنيسابور ، ولقى من سراتها حفاوة واكراما ، يقول فى رسالة الى أبيه عن صديق كان قد وعده اللحاق به : « وكان سألنى أن أرود له منزلا ماؤه روى ، ومرعاه غذى ، وأكاتبه لينهض اليه راحلته . فهاك نيسابور ضالته التى نشدتها ، وقد وجدتها ، وخراسان منيته التى طلبتها ، وقد أصبتها : وهذه الدولة بغيته التى أردتها ، فقد وردتها ، فان صدقنى رائداً ، فليأتنى قاصدا . . وأما أنا وأخبارى بهذه الناحية فمتقلب فى ثوب العافية ، موقر بهذه الحضرة ، مرموق بعين القبول . . وقد كتب كثيرا من رسائله الى جماعة من رؤساء نيسابور وهى تدل على ما كان بينه وبينهم من مودة : وفى نيسابور لقى بنى ميكال ومدحهم ، وفى رسائله واحدة الى أبى جعفر الميكالى يشكو فيها تقصيره فى تعظيمه .. ونجد الهمذانى فى نيسابور يكتب الى الشيخ العميد مستنجزا وعده فى توليته بعض الأعمال : « فهل للشيخ أن يلطف بصنيعته لطفا يحط عنه درن العار ، وسمة التكسب والافتقار ، ليخف على القلوب ظله ، ويرتفع عن الاحرار كله ، ولا يثقل على الاجفان شخصه ، باتمام ما كان عرضه عليه من أشغاله ، ليعلق بأذياله ، وليستفيد من خلاله ، فيكون قد صان الفضل عن ابتذاله ، والأدب عن إذلاله ، واشترى حسن الثناء بجاهه كما يشتريه بماله » . .

وفى نيسابور أملى المقامات سار التى ذكرها على وجه الزمان ثم فارق البديع نيسابور سنة ٣٨٣ ﻫ الى مرو ثم سرخس ، ولم يسم الامير الذى نزل بحضرته فى سرخس ، والظاهر أنه أحد أمراء السامانية ، وقد أكرم الأمير مثواه كما قال فى آخر الرسالة نفسها عن الخوارزمى : « وأما مسالة الأمير ألا يخرطنى فى سلكه ولا يمكننى من بساط ملكه ، فقد شملتنى على رغمه أطراف النعم ، وبلتنى سحائب الهمم ، وللراغم التراب ، وللحاسد الحائط والباب » .. وفى سنة ثلاثمائة وثلاث وثمانين مات الخوارزمى ! يقول الثعالبى : « واجاب الخوارزمى داعى ربه فخلا الجو للهمذانى ، وتصرفت به أحوال جميلة ، وأسفار كثيرة »

وأكثر البديع أسفاره بعد مفارقة نيسابور : يقول الثعالبى : « ولم يبق من بلاد خراسان وسجستان وغزنة بلدة الا دخلها وجنى ثمرتها ، واستفاء خيرها

وميرها ، ولا ملك ولا أمير ولا وزير ولا رئيس الا استمطر منه بنوء ، وسرى معه فى ضوء ، ففاز برغائب النعم ، وحصل على غرائب القسم » .. ويقول الهمذانى فى رسالته الى القاسم الكرجى . « فانى وان كنت فى مقتبل السن والعمر ، قد حلبت شطري الدهر ، وركبت ظهري البر والبحر ، ولقيت وفدى الخير والشر ، وصافحت يدي النفع والضر » ، وفى رسالة أخرى : « وانى أيد الله القاضى ، على قرب العهد بالمهن قطعت عرض الارض وعاشرت أجناس الناس . » (١) .. وليس يمكن بما عندنا من الرسائل غير المرتبة ان نتتبع أسفاره فى خراسان وسجستان وغزنة وبوشنج ، وهراة التى مات فيها

لقى بديع الزمان عصا التسيار فى هراة ، واتخذها موطنا وأمضى بها بقية عمره .. يقول الثعالبي : « وما زال يرتاد للوصلة بيتا يجمع الأصل والفضل ، والطهارة والستر القديم والحديث ، حتى وفق التوفيق كله ، وخار الله له فى مصاهرة أبى على الحسين بن محمد الخشنامى ، وهو الفاضل الكريم الأصيل، الذى لا يزداد اختبارا إلا زيد اختيارا . فانتظمت أحوال أبى الفضل بصهره ، وتعرفت القرة فى عينه » .

ويقول الثعالبى : « حين بلغ أشده ، واربى على الأربعين سنة ناداه الله ، فلباه وفارق دنياه سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة . » .. ويقول جامع الرسائل فى عنوان رسالة له فى تهنئة فتح الجابية بباب بلخ : وهذا آخر كتاب أنشأه . ومات يوم الجمعة الحادي عشر من جمادى الأولى سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة . »

وهكذا مات البديع ، بعد أن عاش أبو الفضل أحمد بن الحسين الهمذانى أربعين عاما ، أمضى شطرها نائيا عن بلده وعشيرته فى طلب المجد والغنى ، فبلغ ما اراد . نبه ذكره واتصل بمعظم الأمراء والوزاء فى الشرق : شمس المعالى قابوس بن وشمكير ، وخلف بن أحمد ، وبنى فريغون ، وبنى ميكال ، والسلطان محمود ، والصاحب بن عباد ، والفضل بن أحمد ، وأبى نصر من وزراء الدولة الغزنوية .. وعرف كثيراً من رؤساء نيسابور ، وطوس ، وسرخس ، ونسا ، وبلخ ، وهراة . وصار مطمح أصحاب الحاجات يتوسلون به إلى أولى السلطان والجاه ، يتبين ذلك فى كثير من رسائله .

وكان سنى الاعتقاد يكره المعتزلة ويلعنهم (٢) .. قال فى الديوان متغزلا :

ذات جفون ضعفت كمذهب المعتزلة

---

(١) الرسائل ص ٤٨ ، ١٦٣ (٢) ص ١٦١ المرجع

وله قصيدة يردفيها على الخوارزمى قوله فى الصحابة ؛ ومن أجل ذلك اتهم فى نيسابور بميله عن العلويين ، فبرأ نفسه وروى لهم من شعره فى رثاء الحسين ، فهو على حبه آل البيت لا يذهب مذهب الشيعة فى الخلافة وما يتصل بها .. يقول فى الديوان :

يقولون لى لاتحب الوصى فقلت الثرى بفم الكاذب
أحب النبى وأهل النبى واختص آل أبى طالب
وأعطى الصحابة حق الولاء وأجرى على السنن الواجب
فان كان نصبا ولاء الجميع فانى كما زعموا ناصبى
وان كان رفضا ولاء الوصى فلا يبرح الرفض من جانبى . إلخ

وفى رسائله واحدة كتبها إلى بعض الوزراء يشكو من ظهور التشيع فى هراة ، ويحذر أن يصيبها ما أصاب نيسابور وقم والكوفة ..

وكان أحمد بن الحسين الهمذانى أعجوبة فى ذكائه وحفظه ، فتيسر له علم واسع باللغة والأدب . وهو يقول فى حديثه عما شجر بينه وبين أبى بكر الخوارزمى : « فقلت يا أبابكر : هذه اللغة التى هددتنا بها وحدثتنا عنها ، وهذه كتبها وتلك مؤلفاتها ، فخذ غريب المصنف ان شئت ، وإصلاح المنطق إن أردت ، وألفاظ ابن السكيت ان نشطت ، ومجمل اللغة ان اخترت ، فهو الف ورقة ، وأدب الكاتب إن أردت ، واقترح على أى باب شئت من هذه الكتب حتى أجعله لك نقداً ، وأسرده عليك سرداً .. وقد أعجب الناس بذكائه وبديهته ، وتحدى هو الناس بهما ، فجاء كثير من منشآته عفو البديهة ، ولو روى فيه لجاء خيرا من ذلك . قال الثعالبى فى اليتيمة : « ولم يرو أن أحداً بلغ مبلغه من لب الأدب وسره ، وجاء بمثل إعجازه وسحره ، فانه كان صاحب عجائب ، وبدائع وغرائب ، فمنها أنه كان ينشد القصيدة التى لم يسمعها قط ، وهى أكثر من خمسين بيتا ، فيحفظها كلها ويؤديها من أولها إلى آخرها ، لايخرم حرفا ولايخل معنى ، وينظر فى الأربعة والخمسة أوراق من كتاب لم يعرفه ولم يره نظرة واحدة خفيفة ثم يهد بها من ظهر قلبه هداً، ويسردها سرداً . وهذه حاله فى الكتب الواردة عليه وغيرها . وكان يقترح عليه عمل قصيدة أو إنشاء رسالة فى معنى بديع ، وباب غريب ، فيفرغ منها فى الوقت والساعة والجواب عنها فيها . وكان ربما يكتب الكتاب المقترح عليه فيبتدىء بآخر سطر منه ثم هلم جراً إلى الأول ، ويخرجه كأحسن شىء وأملحه ، ويوشح القصيدة الفريدة من قوله بالرسالة

الشريفة من إنشائه ، فيقرأ من النظم والنثر ، ويروى من النثر والنظم ، ويعطى القوافى الكثيرة فيصل بها الأبيات الرشيقة ، ويقترح عليه كل عويص وعسير من النظم والنثر فيرتجله فى أسرع من الطرف ، على ريق لا يبلعه ، ونفس لا يقطعه ؛ وكلامه كله عفو الساعة . . وكان يترجم مايقترح عليه من الأبيات الفارسية المشتملة على المعانى الغريبة بالأبيات العربية ، فيجمع فيها بين الابداع والاسراع . . إلى عجائب لاتحصى ، ولطائف تطول أن تستقصى » . ويبق من آثار الهمذانى ديوانه ورسائله ومقاماته . فأما الديوان فيتضمن زهاء ثلاثمائة وألف بيت ، منها ست وثلاثون قصيدة وقطعة فى المدح ، مدح بها من الملوك والأمراء : شمس المعالى قابوس بن وشمكير ، والسلطان محموداً الغزنوى ، وبنى فريغون ، وخلف بن أحمد ، وبنى ميكال ، ومن الوزراء الصاحب بن عباد ، وأبا نصر بن زيد . . ومدح جماعة من رؤساء جرجان ونيسابور ونسا وهراة . وهو يجرى فى المدح على السنن المعروف ، ولكنه لا يلتزم الغزل فى أول المدائح ، ولا يطيل فى معظمها . ومن جيد شعره فى المدح القصيدة التى أولها :

على ألا أريح العيس والقتبا   وألبس البيد والظلماء واليلبا

وقوله فى بنى فريغون :

ألم تر أنى فى نهضتى   لقيت الغنى والمنى والأميرا
ولما التقينا شممت التراب   وكنت امرأ لا أشم العبيرا
لقيت أمرأ ملء عين الزما   ن يعلو سجايا ويرسو ثبيرا
لآل فريغون فى المكرمات   يد أولا واعتذار أخـــيرا
إذا ما حللت بمغناهم   رأيت نعيما وملكا كبيرا

وأما الغزل فله فيه غير مافى قصائد المدح ست قطع تحوى واحداً وعشرين بيتا ، والبديع ليس غزلا ، ولكنه حاكى الشعراء فى ضرب ألفوه وافتنوا فيه وعدوه من فروض الشعر ، وله قطع فى وصف : الأسد ، والليل . وقطعته فى وصف الليل نموذج من شعره المرتجل . ارتجلها حين اقترح عليه الموضوع والقافية :

أنعت ليلا ذا سواد كالسبج   مخدر الصبح خدارى الدعج
لو أدرج العالم فيه لاندرج   أو نسج الحرمان منه لانتسج
ليلا حرون النجم قارى النهج   العمر فيه نقطة لو انفرج
والدهر من أجزائه ولا حرج   أيسر مافيه الشهور والحجج ـ الخ

ويجود شعر الهمذانى فى الرثاء والمواعظ . وفى ديوانه ست ؟ ويقول فى قصيدة يمدح فيها أباجعفر الميكالى :

نستبيح الدهر ، والأيـ ام منـــا تستبيح
ضاع ما نحميه من أنـ فسنا ، وهو يبيح
نحن لاهون وآجال المنى لا تستريح
ياغلام الكاس فاليا س من الناس مريح
أنـا يا دهر بأبنا ئك شق وسطيح

وللهمذانى قطع كثيرة فى الألغاز والمعميات ، وكان الرجل نادرة فى الذكاء والبديهة، فكان يختبر الناس ويختبرونه بهذا الضرب، وفى الديوان منه اثنان وعشرون.. ويكثر فى شعره الترجمة عن الفارسية وفى الديوان ثلاث عشرة قطعة مترجمة عن هذه اللغة ، وكانت الترجمة بين العربية والفارسية سنة شائعة بين متأدبى المسلمين فى إيران وما يجاورها ، إذ كان الشعر الفارسى قد بلغ أشده ، وكانت العربية لا تزال لغة العلم والأدب.. وكثير من شعراء هذا العصر وما بعده نظم باللغتين ، ولقب لذلك بذى اللسانين ، وفى يتيمة الثعالبى أمثلة من هذا ، وهذه الترجمة تهم دارس الأدبين العربى والفارسى ، ولكن يقلل خطرها أننا نجد الترجمة ولا نجد أصلها ، ولا يعرف من الشعر الفارسى الذى ترجمه البديع الا قطعة أثبتها محمد عوفى فى كتاب لباب الألباب فى ترجمة المسطقى الشاعر الفارسى ، ويقول عوفى: ان الصاحب بن عباد أمر البديع بترجمتها ، فقال على أية قافية ؟ فقال الطاء، قال ومن أى بحر؟ قال أسرع يا بديع ، فى البحر السريع ، فترجمها ارتجالا :

سرقت من طرته شعرة حين غدا يمشطها بالمشاط
ثم تدلحت بها متقلا تدلح النمل بحب الحناط
قال أبى من ولدى منكما كلا كما يدخل سم الخياط

ويرى أنه تصرف فى ترجمة البيت الثالث . وأصله : ذهبت إلى الدار بالشعرة فقال أبى : منصور أى الاثنين ؟ . وفى الديوان بيتان قبل هذه الثلاثة . ومن الترجمة التى يتجلى فيها أسلوب الفارسية هذان البيتان :

فؤادك أين ؟ سباه بماذا بمقلته ، من ؟ غزال ربيب
سلابا . نعم . أين ؟ وسط الطريق متى ؟ اليوم هذا سلاب غريب

وهى تذكر دارس الأدب الفارسى بمطلع قصيدة محتشم من شعراء الدولة الصفوية فى رثاء آل البيت

وفى الديوان قطعة فيها كلمات وشطرات فارسية ، والشعر المنظوم بلغتين أو أكثر يسمى الملمع فى عرف أدباء الفرس أو الترك وهو كثير عندهم . . ويكثر فى شعره المجزوء ، ولا سيما الهزج والكامل . وسنعود إلى هذا حين الكلام فى سجعه .

ويبدو أن بديع الزمان نظم معظم شعره فى أوائل حياته . ففى الديوان أبيات نظمها وهو فى الثانية عشرة ، وهو يذكر سن العشرين فى بعض شعره :

إنى بعشرين تصاريف ما بعد الثمانين تعرفتها

ويذكر الخامسة والعشرين وهو يمدح خلف بن أحمد :

ألم يك فى خمس وعشرين حجة تسنمتها هاد لمثلى الطرائق

ثم هو يلعن النظم فى كلامه عن الخوارزمى فى بعض رسائله ، وذلك دليل على أنه مال عن الشعر : « هو خوارزمى ، ولست من خوارزم ، وهو شاعر ولعن الله النظم »

ويلحق بالديوان شعره فى الرسائل والمقامات وذلك فى معظمه قطع قصيرة جيدة . وشعر البديع عامة سهل جيد المعانى منقح الالفاظ ، يتجلى فيه تهذيب الكتاب ، إذا استثنينا الشعر المرتجل وشعر الألغاز ونحوه مما لا يقام له فى الأدب وزن ، ولكنه لا يبلغ الدرجة العليا إلا قليلا ، وبديع الزمان عند نفسه وعند الناس كاتب يقول الشعر ، ولكنه يرى أن البليغ من أجاد الصناعتين . يقول فى المقامة الجاحظية : « إن الجاحظ فى أحد شقى البلاغة يقطف . وفى الآخر يقف . والبليغ من لم يقصر نظمه عن نثره ، ولم يزر كلامه بشعره ، فهل ترون للجاحظ شعراً رائعاً . .

كتابة الهمذانى :

فى القرن الرابع الهجرى بلغت الكتابة العربية درجة من الصناعة والتأنق لم تخل بسلامتها ولم تذهب بمعانيها – تولاها كتاب قادرون صرفوها فى أغراض شتى واختاروا من الألفاظ والاساليب الجميل المحلى ، دون إغرب ولا إخلال بالمعانى ، وتناولت الكتابة كثيراً من فنون الشعر كالمدح والهجاء والغزل والوصف : إلى ما كان لها قبلا من الموضوعات ، فاتسع المجال لذوى الفكر الثاقب والقلب الشاعر ، لم يقيدهم فى النثر ما قيد الشعراء من الأوزان والقوافى والاصطلاحات . وكان كثير من الكتاب يلتزم السجع ، ومنهم من يكتفى بالازدواج ، وقليل منهم يرسل الكلام إرسالا ، وفى هذا العصر نبغ أئمة الكتابة كابن العميد والصاحب والصابى

والمهلبي وقابوس ، والخوارزمى ، وبديع الزمان . ولم يكن بديع الزمان كمعظم هؤلاء وزيرا أو ذا منصب ، فلم تستغرق كتابته أمور الدولة ، وكثرت فى رسائله الموضوعات الخاصة والعامة . واستبانت نواح من عصره فى السياسة والاخلاق ، والآداب وغيرها . والبديع يلتزم السجع الا قليلا . وهو فى الرسائل أسجع منه فى المقامات ، وجمله قصيرة وسجعه متقارب . وذلك أحسبه نتاج الطبع الذكى الحساس ، الذى يود أن يسمع الانغام متتابعة رنانة . وذلك ماجعله يؤثر فى كثير من شعره الأوزان المجزوءة . وهو فى الرسائل يترك السجع أحيانا إلى المزاوجة أو الإرسال كقوله فى رسالته إلى أبى الطيب عن الأمير خلف بن أحمد : « فلما أيفع وارتفع ، طالبته الهمة العلياء برفض الدنيا ، حتى يؤدى فرض الله فى الحج ، فقام عن سرير الملك ، إلى سبيل النسك ، لحج البيت ، ودرس العلم حتى علم ناسخ الكتاب ومنسوخه ، ومباحه ومحظوره الخ » وكذلك فى المقامات يترك السجع أحيانا ولا سيما فى رواية عيسى بن هشام . وقد يأتى بثلاث سجعات متواليات أو أربع ، بل يتابع فى الرسائل عشر سجعات أحيانا كقوله : « ونادمته والمنادمة رضاع ثان ، وطاعمته والمواكلة نسب دان ، سافرت معه والسفر والأخوة رضيعا لبان ، وقمت بين يديه والقيام والصلاة شريكا عنان ، وأثنيت عليه ، والثناء من الله تعالى بكل لسان ، وأخلصت له والاخلاص محمود من كل إنسان » . ثم أربع سجعات أخرى على هذا الروى(١) ، وقد يجعل السجع مركبا على رويين فى اربع فواصل أو ست كقوله فى رسالة خلف بن أحمد : « وكأن هذا العالم قد أحسن عملا فجعل هذا الملك ثوابه ، وكأن هذا الملك قد أساء مثلا فجعل هذا العالم عقابه » ، وقوله : فكان ما أضعناه ، كأنا زرعناه ، فأنبت سبع سنابل ، وكان ما فقدناه ، كأنا أقرضناه هذا الملك العادل ... وقد يسجع فى أثناء الجملة قبل تمام المعنى كقوله : « حقا أقول إن التمرة ، بالبصرة ، أقل خطرا من البدرة ، بهذه الحضرة ، وأنى أيد الله القاضى على قرب العهد ، بالمهد ، قطعت عرض الأرض ، وعاشرت أجناس الناس »(٢) ، ومما يكثر فى نثر البديع تحليته بالشعر ، وقد قال الثعالبى فى ذلك : « ويوشح القصيدة الفريدة من قوله ، بالرسالة الشريفة من إنشائه ، فيقرأ من

---

(١) الرسائل ص ١٣٠ .

(٢) الرسائل ص ١٦٣ و ١٦٤ .

النثر والنظم ، وهو لا يكتفى بتفصيل نثره بابيات من الشعر ، بل يصل النثر بالشعر حتى يتوقف معنى كل منهما على الثانى ، كرسالته إلى الخوارزمى التى ذكرناها فيما تقدم ، وكقوله فى مدح أبى جعفر الميكالى :

ولو نظمت الـثريا والشـعريين قريضـا
وكامل الأرض ضربا وشعب رضوى عروضا
وصغت للدر ضـدا أو للهـواء نقيضا
بل لو جلوت عليه سود النوائب بيضا
أو ادعيت الـثريا لأخمصـيه حضيضا
والبحر عبـد لهاه عنـد العطاء مغيضا

لما كنت إلا فى ذمة القصور ، وجانب التقصير(١) . ومن أحسن افتنانه فى ذلك المقامة الوعظية التى لاءم فيها بين المنثور والمنظوم أحسن ملاءمة ، ويجد قارىء الرسائل والمقامات قطعا من إحداها فى الأخرى ؛ فمقامة الوصية التى يوصى فيها تاجر ابنه معظمها فى إحدى رسائله(٢) ، وبعض المقامة النيسابورية ومعظم العلمية ، فى رسالة إلى أبى القاسم الكرجى التى وصف فيها بعض القضاة . وبعض المقامة الملوكية التى مدح بها خلف بن أحمد فى رسالة يمدح فيها الملك نفسه ، وكذلك نجد فى الديوان والرسائل والمقامات وصف وقائع واحدة ، كلقاء الأسد فى الديوان والمقامة الأسدية ، وقطع الأعراب طريقه فى هذه المقامة والرسائل . وذلك يثبت أن المقامات تمثل كثيرا من حوادث زمانه .

نشأ البديع فى عصر بلغ فيه الأدب العربى أوجه ، وازدهر فيه الأدب الفارسى ، وقد عرفنا أنه ترجم كثيرا من الابيات الفارسية فى ديوانه . فهل ظهر أثر الفارسية فى معانيه وألفاظه ؟ أثر قليل ؛ فمن المعانى الشائعة فى الأدب الفارسى قوله : « أو لم يكفنا الجرح ، حتى ذرعليه الملح » ، وقوله : « أنا العبد قرطك فى أذنه مطيعا ، وطوقك فى عنقه » ، فهى عبارة فارسية شاعت حتى كنى عن العبودية بالحلقة فى الأذن ، وقوله : « هيفاء لا تسع العيون جمالا » ، فتسع هنا تشبه كنجد بالفارسية ، ومن الالفاظ الفارسية أو العربية المستعملة على الأسلوب الفارسى قوله فى مدح السلطان محمود :

---

(١) الرسائل ص ٤٣ . (٢) الرسائل ص ١٧١ .

إذا ماركب الفيل لحرب أو لميدان
رأت عيناك سلطانا على كاهل شيطان

ويجمع نثر بديع الزمان الرسائل والمقامات . . اما رسائله فهي ثلاث وثلاثون ومائتا رسالة تناول فيها أغراضا كثيرة . والبديع مخترع هذه القصص الخيالية التي عرفت في الأدب العربي باسم المقامات ، وأما روايات اللغويين فقد رويت على انها حقائق وأريد بها رواية اللغة قبل أي شيء آخر ، وحديث الراوي فيها مرسل لاصناعة فيه ، ولا يقصد في الرواية، على حين يستوي في المقامة أو يتقارب من حيث البلاغة والفصاحة حديث عيسى بن هشام وكلام أبي الفتح الاسكندري . وأما تسمية هذه القصص بالمقامات ، فلأن أبا الفتح يقوم فيها واعظا او مستجديا أو محتالا وهلم جرا ، وفي القرآن « عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا » . وفي شعر لبيد :

ومقام ضيق فرجته بلسان وبيان وجدل

وقد استعملت كلمة « مقامة » في معنى مقام . وفي رسائل الخوارزمي « ولكل مقامة مقالة » (١) . وفي شرح الشريشي لمقامات الحريري « والمقامات : المجالس واحدتها مقامة . والحديث يجمع له ويجلس لاستماعه يسمي مقامة ومجلسا ، لأن المستمعين للمحدث ما بين قائم وجالس ، ولأن المحدث يقوم ببعضه تارة ويجلس ببعضه أخرى ، قال الأعلم : المقامة المجلس يقوم فيه الخطيب يحض على فعل الخير . » والهمذاني نفسه يبين ذلك بقوله في المقامة الوعظية « قال عيسى ابن هشام فقلت لبعض الحاضرين من هذا ؟ قال شخص قد طرأ لا أعرفه . فاصبر عليه الى آخر مقامته ، لعله ينبيء عن علامته » يقول الثعالبي إن بديع الزمان أملى المقامات في نيسابور ، ويظهر أنه أملى معظمها هناك ، وأنه أملى بعد مقامات أخرى كالمقامات الست التي مدح بها خلف بن أحمد أمير سجستان . والحصري يدلنا على تاريخ المقامة الحمدانية، يقول: إن البديع أملاها في شهور سنة خمس وثمانين وثلاثمائة : وأظنه أملى معظم المقامات قبل هذا . ويروى الشريشي عن بعض أشياخه أن البديع ارتجل المقامات ، وأنه كان يقول لأصحابه اقترحوا غرضا نبني عليه مقامة فيقترحون ماشاءوا فيملي عليهم المقامة ارتجالا . ولا أحسب هذا حقا ، فبديع الزمان نفسه لم يدع هذا ، وقد فخر بالمقامات على الخوارزمي وتحداه أن يأتي بمثلها ، ولم يتحد بذكر الارتجال ، بل قال إنه أملاها والاملاء لا يقتضي ارتجالا . وأراد البديع بمقاماته أن يدل على

(١) ص ٨٠ ط القاهرة

تمكنه فى اللغة ومكانته من البلاغة ، وقدرته على تصريف القول فى فنون شتى - هذا غرضه الأول ، وقد سلك الى هذا الغرض موضوعات كثيرة . وليست الكدية موضوع المقامات كلها ، بل كثير منها لا كدية فيه ، وفى كثير منها لا يقف أبو الفتح موقف المستجدى ، وأما عيسى بن هشام وأبو الفتح الاسكندرى فيقول الحريرى فى مقدماته : « وكلاهما مجهول لا يعرف ، ونكرة لا تتعرف . » وكأنه يريد أن يقول انهما ليسا كأبى زيد السروجى ، عيسى بن هشام لا ينتسب الى بلد ، وفى بعض المقامات كلام يمكن أن يؤخذ منه أنه ينتسب الى الازد ، وأبو الفتح انتسب فى المقامة العراقية الى عيسى ، وهو منسوب الى الاسكندرية من الثغور الأموية وهى نسبة غريبة . ماذا يريد بالثغور الأموية ؟ . يرى شارحو المقامات أنها ثغور الاندلس ، وكانت بها إذذاك دولة بنى أمية . وهذا غريب كذلك فما عرف فى كتب التاريخ أو تقويم البلدان اسم الثغور الأموية ، ولا الظن بالبديع أنه ينسب صاحبه الى الاندلس ويسميها الثغور الاموية ، وهو رجل يكره الأمويين كما يؤخذ من شعره . نرى فى المسألة وجها آخر لا أجزم به ؛ ولكنى أرجحه . ذلك أن تقرأ (الثغور الآموية) . نسبة الى مدينة آمو أو أموية وهى مدينة آمل الشط على نهر جيحون أو نسبة الى جيحون وهو يسمى آمودريا اى نهر آمو . ويقول ياقوت فى معجم البلدان . وهو يعدد المدن التى سميت الأسكندرية : « ومنها الأسكندرية التى على شاطىء النهر الاعظم . » هذا الا أن يكون البديع نسب صاحبه الذى لا يستقر فى مكان نسبة لا يعرفها أحد . وبعض المقامات لا يسمى فيها أبو الفتح ، وان عرف بصفاته كالأهوازية والبصرية ، وبعضها يخلو من أبى الفتح اسما وفعلا كالمقامة البغدادية والنهدية . وأحيانا يأتى أبو الفتح فى آخر المقامة بعد مضى معظم حوادثها كالمقامة الأسدية التى تصف لقاء عيسى بن هشام وأصحابه الأسد ، ثم قاطع طريق ثم لقاء ابى الفتح بعد ورودهم حمص .

ويقول باحث معاصر عن نشأة المقامات : ويظن أن (الحريرى) هو أول من تحدث عن المنشىء الأول للمقامة ، فقد كتب فى مقدمة مقاماته : « وبعد فانه قد جرى ببعض أندية الأدب الذى ركدت فى هذا العصر ريحه ، وخبت مصابيحه ، ذكر المقامات التى ابتدعها بديع الزمان ، وعلامة همذان ، رحمه الله ؛ وعزا إلى أبى الفتح الاسكندرى نشأتها ، وإلى عيسى بن هشام روايتها ؛ وكلاهما مجهول لا يعرف ، ونكرة لا يتعرف ، إلى أن قال : هذا مع اعترافى بأن البديع سباق

غايات ، وصاحب آيات ، وأن المتصدى بعده لانشاء مقامة ، ولو أوتى بلاغة قدامة ، لايغترف إلا من فضالته ، ولا يسرى ذلك المسرى إلا بدلالته ولله در القائل

فلو قبل مبكاها بكيت صبابة   بسعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلى فهاج لى البكاء   بكاها فقلت : الفضل للمتقدم »

هذا ماقاله الحريرى ، وجرى عليه كثير من المؤلفين ، غير أن هذا الرأى لايثبت للنظرة الأولى ، فان ابن فارس صاحب كتاب المجمل ، وأستاذ البديع ، كان قد وضع مقامات ، ولا تزال منها المقامة الفقهية المتضمنة نحو المائة مسألة ، وبدهى أن التلميذ يترسم خطا أستاذه وينسج على منواله . لكن الباحثين لم يقفوا عند هذا الحد، فذهبوا يفتشون فى بطون الكتب علهم يجدون من هو أسبق من البديع ومن أستاذه ، وقد كان نص الحصرى فى زهر الآداب مصباحا اهتدى به بعض الباحثين ، فأسند نشأة المقامة الى أبى بكر بن دريد صاحب الجمهرة ، وهذا هو النص « ولما رأى — يعنى البديع — أبا بكر محمد بن الحسن بن دريد أغرب بأربعين حديثاً وذكر أنه استنبطها من ينابيع صدره ، واستنخبها من معادن فكره ، وأبداها للأبصار والبصائر ، وأهداها للافكار والضمائر ، فى معارض عجمية ، وألفاظ حوشية ،اخ »

وقال الدكتور زكى مبارك معلقا على هذا : «مؤدى هذا الكلام أن بديع الزمان ليس مبتكر فن المقامات ، وأنه حاكى ابن دريد فى أحاديثه » . ورأى الدكتور طه حسين : أن مقامات ابن دريد قد تكون هى هذه الأحاديث الصغيرة المروية عنه فى كتاب الأمالى لأبى على القالى . ولا نقف طويلا عند هذا الرأى أو ذاك ، فقد كفانا الحصرى نفسه مؤونة هذه الوقفة حين قال : « ولا مناسبة بين المقامتين لفظا ولا معنى » وإذن فلم يبق إلا أن ابن دريد تخيل بعض الأحاديث على ألسنة الأعراب وهكذا فعل البديع ، وما نظن أن هذا كاف فى سلب البديع فضل السبق فى هذا ، على أنى أظن أن هذه المقالة وقعت للحصرى من بعض أعداء البديع الذين كانوا يكرهونه ، ولا يقدرون على نقده ولا مجابهته ، فدسوا هذه الكلمة ليغضوا من شأن مقاماته ، وهذا جهد الحاسد العاجز . على أننا نرجع إلى عصر ابن دريد فنجد رجلا يشبه البديع والبديع يشبهه إلى حد بعيد ، ذلك الرجل هو أبو المطهر الأزدى مؤلف (حكاية أبى القاسم البغدادى) التى يقول فيها : ولعهدى بهذا الحديث سنة ست وثلثمائة » وقد طبعها المسيو ميتس الألمانى . نطالع هذه القصة ثم نطالع بعدها

مقامات البديع وآثاره الأدبية فلا يخالجنا شك فى أن الثانى أخذ من الاول وحذا حذوه لعدة أسباب :

١ — نظن أن الازدى أول من أطلق كلمة مقامة على مايحكى فى مجلس من المجالس ، وقد وردت هذه الكلمة فى مقدمة رسالته قال « هذا الذى أحصله من أدب غيرى وأقتنيه ، وأتحلى به وأدعيه وأرويه ، من ملح ماتنفسوا به وتنافسوا فيه ، ويصدق شاهدى عليه أشعار لنفسى دونتها ، ورسائل سيرتها ، ومقامات حضرتها . ثم إن هذه حكاية رجل بغدادى كنت أعاشره برهة من الدهر ، فيتفق منه ألفاظ مستحسنة ومستقبحة ، وعبارات عن أهل بلده مستفصحة ومستفضحة ، فأثبتها خاطرى لتكون كالتذكرة ، فى معرفة أخلاق البغداديين على تباين طبقاتهم ، وكالأنموذج المأخوذ من عاداتهم » .

٢ — شخصية أبى القاسم البغدادى ، وشخصية أبى الفتح الاسكندرى ، وهما الراويتان فى القصتين متشابهتان حتى فى التسمية ، وهما خرافيتان ، وكل منهما جمع أدوات النصب والاحتيال والنفاق ، فترى الواحد منهما يدارى أهل المجلس وينافقهم ، فيلبس ثوب التقى والصلاح ، حتى إذا رآهم على استعداد للهزل انقلب لاعبا متمردا عارفا بغرائب الخلاعة والمجون .

٣ — ولعلنا نضع يد القارىء على أقوى دليل حين ننقل له كلمة لكل من الرجلين بينهما مشابهة قوية ترى فيهما كيف يسرد كل منهما الشتائم المستغربة والمستملحة ، وكيف يتفقان أحيانا على المعنى الواحد ، وقد وصفا ثقيلا فقال البغدادى : « ياأول ليلة الغريب إذا بعد عن الحبيب ، ياطلعة الرقيب ، يايوم الاربعاء فى آخر صفر ، يالقاء الكابوس فى وقت السحر ! إلى آخر ماقال على هذا النمط . ويقول البديع : ياأم حنين ، ياغداة البين ، يارمد العين ، يافراق المحبين ، ياساعة الحين ، ياثقل الدين .

٤ — والناظر فى أسلوب الرجلين يجد الطريقة واحدة ؛ فكلاهما رقيق الاسلوب عذب العبارة ، يكاد يلتزم السجع والازدواج ، حتى عدد الفقرات يكاد يتساوى عندهما ، كما أن سجع كل منهما قصير الفقرات .

٥ — وصف كل منهما الحياة الاجتماعية فى عصره ؛ فحكاية أبى القاسم وصف لحياة بغداد وما فيها من خلاعة ولهو ، وتدوين لكثير من عادات أهلها ، وقد دون مظاهر الحضارة فى عصره ، وكذلك فعل البديع فى مقاماته ، وكما دونا كثيرا

من العادات ، دونا كثيرا من الالفاظ الجارية على الالسنة ، ولها صور فنية رائعة قصدا اليها رغبة فى الدعابة .

٦ — ينتقل أبو المطهر من فن إلى فن فى دعابة وظرف والحكاية كلها مجلس واحد، ولكنها فنون شتى ، وكذلك نرى البديع ينتقل من حال إلى حال .

ويروى كتاب التراجم وعلماء الأدب الذين كتبوا عن بديع الزمان الهمذانى المتوفى سنة ٣٩٨ أن مقاماته تبلغ أربعمائة مقامة ، ومن بين هؤلاء الثعالبى م ٤٢٩(١) ، وياقوت م ٦٢٦(٢) ، وابن خلكان م ٦٨١(٣) .. ولكن الدكتور زكى مبارك يرجح أنها خمسون مقامة فقط ، بدعوى أنه لم يحفظ له سواها ، وأن الحريرى حين عارض البديع لم ينشىء فى معارضته غير خمسين مقامة ، وأن البديع قد عارض ابن دريد بأحاديثه الاربعين ، والمعارضة تتقارب(٤) . ولكن شكوك الدكتور لا تعتمد على دليل حسن مقبول ولا تنتهى إلى نتيجة حاسمة . وقد آن أن نصحح رأى علماء الأدب بأدلة دامغة تجعلنا نقبل روايتهم ونثق بها ، وأهم هذه الأدلة أن هذا الاجماع الأدبى والتاريخى على أن مقامات البديع أربعمائة مقامة ينفى كل شبهة وظن ؛ ثم إن البديع نفسه يروى لنا أن مقاماته أربعمائة مقامة ، وإن شئت فراجع رسالة البديع إلى أبى المظفر يحذره من إسراف والده فى التعصب عليه ، واقرأ الفقرة الأخيرة من هذه الرسالة :

« ومن أملى من مقامات الكدية أربعمائة مقامة لامناسبة بين المقامتين لفظا ، ولا معنى ، حقيق الانهاج لكشف عيوبه(٥) » ، فسنزداد بعد ذلك يقينا على يقين بأن المقامات أربعمائة لا خمسون .

وهذه مقامة منها ، هى المقامة القريضية للبديع :

حدثنا عيسى بن هشام ، قال : « طرحتنى النوى مطارحها ، حتى إذا وطئت جرجان الأقصى ، فاستظهرت على الأيام بضياع ، أجلت فيها يد العمارة ، وأموال وقفتها على التجارة ، وحانوت جعلته مثابة ، ورفقة اتخذتها صحابة . وجعلت للدار

---

(١) جـ ٤ ص ١٦٧ يتيمة الدهر . (٢) جـ ١ ص ٩٤ معجم الأدباء .
(٣) جـ ١ ص ٣٩ ابن خلكان . (٤) ٢٠٦ جـ ١ النثر الفنى .
(٥) ٢٢٧ رسائل البديع .

حاشيتى النهار ، وللحانوت ماينهما ، فجلسنا يوما نتذاكر القريض وأهله ، وتلقاءنا شاب قد جلس غير بعيد ، وكأنه لايفهم ، ويسكت وكأنه لا يعلم . حتى إذا مال الكلام بنا ميله ، وجر الجدال فينا ذيله . قال : « قد أصبتم عذيقه ، ووافيتم جذيله ، ولو شئت للفظت وأفضت ، ولو قلت لأصدرت واوردت ، ولجلوت الحق فى معرض بيان ، يسمع الصم ، وينزل العصم » ، فقلت : « يا فاضل ، أدن فقد منيت ، وهات فقد أثنيت » . فدنا ، وقال : « سلونى أجبكم ، واسمعوا أعجبكم ».. فقلنا : « ما تقول فى امرئ القيس ؟ » قال : « هوأول من وقف بالديار وعرصاتها ، واغتدى والطير فى وكاناتها ، ووصف الخيل بصفاتها ، لم يقل الشعر كاسباً ، ولم يجد القول راغباً — ففضل من تفتق للحيلة لسانه ، وانتجع للرغبة بنانه » قلنا : « فما تقول فى النابغة ؟ » قال : ينسب إذا عشق ، ويثلب إذا حنق ويمدح إذا رغب ، ويعتذر إذا رهب ، ولا يرمى إلا صائباً » قلنا : « فما تقول فى زهير ؟ » قال : « يذيب الشعر والشعر يذيبه ، ويدعو القول والسحر يجيبه » قلنا : « فما تقول فى طرفة ؟ » قال : « هو ماء الأشعار وطينتها ، وكنز القوافى ومدينتها ، مات ولم تظهر أسرار دفائنه ، ولم تفتح أغلاق خزائنه » قلنا : « فما تقول فى جرير والفرزدق ؟ وأيهما أسبق ؟ » فقال : « جرير أرق شعراً ، وأغزر غزراً ، والفرزدق أمتن صخراً ، وأكثر فخراً ، وأشرف يوما ، والفرزدق أكثر روماً ، وأكرم قوماً ، وجرير إذا نسب أشجى ، وإذا ثلب أردى ، وإذا مدح أسنى ، والفرزدق إن افتخر أجزى ، وإذا احتقر أزرى ، وإذا وصف أوفى » قلنا : « فما تقول فى المحدثين من الشعراء والمتقدمين منهم ؟ » قال : المتقدمون أشرف لفظاً ، وأكثر من المعانى حظا ، والمتأخرون ألطف صنعاً ، وأرق نسجاً » قلنا : « فلو أريت من أشعارك ، ورويت لنا من أخبارك » قال : « خذهما فى معرض واحد » وقال :

« إما ترونى أتغشى طمرا ممتطياً فى الضر أمراً مرا
مضطبناً على الليالى غمرا ملاقياً منها صروفاً حمرا
أقصى أمانى طلوع الشعرى فقد غنينا بالأمانى دهرا
وكان هذا الحر أعلى قدرا وماء هذا الوجه أغلى سعرا
ضربت للسرا قباباً خضرا فى دار «دارا» وإوان «كسرى»
فانقلب الدهر لبطن ظهراً وعاد عرف العيش عندى نكرا

لم يبق من وفرى إلا ذكرا ثم إلى اليوم هلم جـــرا
لولا عجوز لى بسر من را وأفرخ دون جبال بصرى
قد جلب الدهر عليهم ضرا قتلت ، يا سادة ، نفسى صبرا

قال عيسى بن هشام : « فأنلته ما تاح ، وأعرض عنا فراح . فجعلت أنفيه وأثبته ، وأنكره وكأنى أعرفه ، ثم دلتني عليه ثناياه ، فقلت : الإسكندرى والله . فقدكان فارقنا خشفاً ، ووافنا جلفاً . ونهضت على إثره ، ثم قبضت على خصره ، وقلت : ألست أبا الفتح ؟ ألم نربك فينا وليدا ، ولبثت فينا من عمرك سنين ؟ فأى عجوز لك بسر من را » . فضحك إلى ، وقال :

ويحك هذا الزمان زور فلا يغرنك الغـــرور
لا تلتزم حالة ولكن در بالليـــالى كما تدور

ألوان من شعره :

قال يمدح أحد امراء :

طرباً لقد رق الظلا م ورق أنفاس الصباح
وسرى الى القلب العليل عليل أنفاس الرياح
ومليحـــة ترنو بنر جسة وتبسم عن أقاح
قامت وقد برد الحلى تميس فى ثنى الوشاح
تشدو وكل غنائهـا برد على كبد الوشاح
ياليل هل لك من صبا ح أم لنجمك من براح
سأريق ماء شبيبتى ما بين ريحان وراح
فيم العتاب ولا لهم غيرى ولا لهم صلاحى
ولعاذلاتى فى المليـ حة عاذ لاتك فى السماح
وهواى للبيض الصبا ح هواك للبيض الصفاح
وولوع كفى بالقدا ح ولوع كفك بالرماح
وعليك إدمان الندى وعلى إدمان امتداحى
فليعل رأيك إنه يلوى يد القدر المتاح
وافخر فانك فى الملو ك لك المعلى فى القداح

وقال يمدح السلطان محمود بن سبكتكين الغزنوى صاحب السند وخراسان ، المتوفى سنة ٤٢١ . وقد كان بديع الزمان يتتبع خطواته ، ويتعرف حركاته وسكناته ،

ويهنئه بفتوحاته.. ومما قال فى مدحه قصيدة شهيرة هى :

تعالى الله ما شاء ... وزاد الله إيمانى
أأفريدون فى التاج ... أم الاسكندر الثانى
أم الرجعة قد عادت ... إلينا بسليمان
أظلت شمس محمود ... على أنجم سامان
وأمسى أهل بهرام ... عبيداً لابن خاقان
إذا ماركب الفيل ... لحرب أو لميدان
رأت عيناك سلطاناً ... على منكب شيطان
فمن واسطة الهند ... إلى ساحة جرجان
ومن قاصية السند ... إلى أقصى خراسان
على مقتبل العمر ... وفى مفتتح الشان
فيوما رسل الشاه ... ويوما رسل الخان
فما يغرب بالمغرب ... عن طاعتك اثنان
لك السرج إذا شئت ... على كاهل كيوان
أيا والى بغداد ... ويا صاحب غمدان
تأمل ماتى فيل ... على سبعة (١) أركان
يقلبن أساطين ... ويلعبن بثعبان (٢)

وقال يمدح ابن فريغون من الأمراء :

ألم تر أنى فى نهضتى ... لقيت المنى والغنى والأميرا
ولما التقينا شممت الترا ... ب وكنت امرأ لا أشم العبيرا
لقيت امرأ ملء عين الزما ... ن يعلو سحاباً ويرسو ثبيرا
لآل فريغون فى المكرما ... ت يد أولا واعتذار أخيرا
إذا ما حللت بمغناهم ... رأيت نعيما وملكا كبيرا

ومما قاله فى مدح بنى ميكال الفضلاء :

ياغلام الكأس فاليأ ... س من الناس مريح

---

(١) أراد بالسبعة أركان الجيش وهى القلب والميمنة والميسرة والجناحان والساقة والمقدمة .

(٢) الغرض من الثعبان هو خرطوم الفيلة لأنه يشبه الثعبان فى طوله وتلويه .

يابنى ميكال والجو　　لعـــــلاتى مريح
شرفا إن مجال الفضل　　فيـكم لفسيح
وعلى قدر سنا الممدو　　ح يأتيك المديح
فهناك الشرف الأر　　فع والطرف الطموح

ومن جيد مدحه قوله :

وكان يحكيك صوب الغيث منسكباً　　لوكان طلق المحيا يمطر الذهبا
والدهر لولم يخن والشمس لو نطقت　　والليث لو لم يصد والبحر لو عذبا

أبو القاسم الحريرى البصرى

٤٤٦ — ٥١٦ هـ

كان اديبا فاضلا نحويا منشئا، ومن مصنفاته درة الغواص فى اوهام الخواص، وملحة الاعراب وشرحها والمقامات المشهورة، وجاء بها الى بغداد وادعاها فلم يصدقه أدباؤها . وهذه المصنفات مطبوعة ومشهورة ، وكان يقول نقلا عن شيخه: اذا قلت مااسود زيدا وما اسمر عمرا وما اصفر هذا الطائر وماابيض هـذه الحمامة وما احمر هذه الفرس فسدت كل مسألة منها من وجه وصحت من وجه، فيفسد جميعها اذا اردت التعجب من الالوان ، وتصح جميعها اذا اردت التعجب من سودد زيد وسمر عمرو وهو الحديث بالليل خاصة، ومن صفير الطائر وكثرة بيض الحمامة ومن حمر الفرس وهو ان ينتن فوها .. ومن شعره :

ولما تعامى الدهر وهو أبو الورى　　عن الرشد فى انحائه ومقاصده
تعاميت حتى قيل انى اخو العمى　　ولاغرو أن يحذو الفتى حذو والده

وتوفى سنة ٥١٦ ببنى حرام من البصرة ، وقد شرح الشريشى المتوفى عام ٦٥٢ هـ مقامات الحريرى شرحا واسعا وترجم ابن خلكان للحريرى ، فقال : هو أبو محمد القاسم بن على بن محمد بن عثمان الحريرى البصر الحرامى ، كان أحد أئمة عصره ، ورزق الحظوة التامة فى عمله المقامات ، وقد اشتملت على كثير من بلاغات العرب فى لغاتها وأمثالها ورموز أسرار كلامها ، ومن عرفها حق معرفتها استدل بها على فضل هذا الرجل وكثرة اطلاعه وغزارة مادته . . وكان سبب وضعه لها ماحكاه ولده أبو القاسم عبد الله قال : كان أبى جالسا فى مسجد بنى حرام فدخل شيخ ذوطمرين عليه أهبة السفر رث الحال فصيح الكلام حسن العبارة ، فسألته الجماعة من أين الشيخ ؟

فقال : من سروج ، فاستخبروه عن كنيته ، فقال : أبو زيد ، فعمل أبي المقامة الثامنة والأربعين المعروفة بالحرامية ، وعزاها إلى أبي زيد المذكور ، واشتهرت ، فبلغ خبرها الوزير شرف الدين أبا نصر أنوشروان بن خالد بن محمد الفاشاني وزير الامام المسترشد بالله ، فلما وقف عليها أعجبته ، فأشار على والدي أن يضم اليها غيرها فأتمها خمسين مقامة ، وإلى الوزير المذكور أشار الحريري في خطبة المقامات بقوله : «فأشار من إشارته حكم ، وطاعته غنم ، الى أن أنشىء مقامات أتلو فيها تلو البديع ، وان لم يدرك الظالع شأو الضليع» . هكذا وجدته في عدة تواريخ ، ثم رأيت في بعض شهور سنة ست وثمانين وستمائة بالقاهرة المحروسة نسخة مقامات ، وجميعها بخط مصنفها الحريري ، وقد كتب أيضا بخطه على ظهرها أنه صنفها للوزير جلال الدين عميد الدولة أبي الحسن على بن أبي العز على بن صدقة وزير المسترشد أيضا ، ولا شك أن هذا أصح من الرواية الأولى لكونه بخط المصنف ، والله أعلم ، وتوفي الوزير المذكور في رجب سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ، فهذا كان مستنده في نسبته الى أبي زيد السروجي . وذكر القاضي الأكرم كمال الدين أبو الحسن على بن يوسف الشيباني القفطي وزير حلب في كتابه الذي سماه «إنباه الرواة على أنباه النحاة» أن أبا زيد المذكور اسمه المطهر بن سلار ، وكان بصريا نحويا لغويا ، وصحب الحريري واشتغل عليه بالبصرة وتخرج به . وروى عنه القاضي أبو الفتح محمد بن أحمد بن المنداري «ملحة الأعراب» للحريري وذكر أنه سمعها منه عن الحريري ، وقال قدم علينا واسط في سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ، فسمعتها منه وتوجه منها مصعدا الى بغداد فوصلها ، وأقام بها مدة يسيرة وتوفي بها رحمه الله تعالى ، كذا ذكره السمعاني في الذيل ، والعماد في الخريدة وقال : لقبه فخر الدين وتولى صدرية المشان ، ومات بها بعد عام أربعين وخمسمائة ، وأما تسمية الراوي لها بالحرث بن همام ، فانما عنى به نفسه ، هكذا وقفت عليه في بعض شروح المقامات ، وهو مأخوذ من قول النبي صلى الله عليه وسلم : «كلكم حارث وكلكم همام» ، فالحارث الكاسب ، والهمام الكثير الاهتمام ، وما من شخص الا وهو حارث وهمام ، لأن كل واحد كاسب ومهتم بأموره .

وقد اعتنى بشرحها خلق كثير ، فمنهم من طول ومنهم من اختصر ، ورأيت في بعض المجاميع أن الحريري لما عمل المقامات كان قد عملها أربعين مقامة ، حملها من البصرة الى بغداد ، وأبداها ، فلم يصدقه في ذلك جماعة من أدباء بغداد وقالوا : إنها ليست من تصانيفه ، بل هي لرجل مغربي من أهل البلاغة مات بالبصرة ووقعت

أوراقه اليه فادعاها ، فاستدعاه الوزير الى الديوان وسأله عن صناعته ، فقال أنا رجل منشىء ، فاقترح عليه إنشاء رسالة فى واقعة عينها ، فاخذ الدواة والورقة وانفرد فى ناحية من الديوان ومكث زمانا كثيرا فلم يفتح الله عليه بشىء من ذلك فقام وهو خجلان ، وكان فى جملة من أنكر دعواه فى عملها أبو القاسم على بن أفلح الشاعر ، فلما لم يعمل الحريرى الرسالة التى اقترحها عليه الوزير أنشد هذين البيتين ، وقيل إنهما لأبى محمد بن أحمد المعروف بابن جكينا الحريمى البغدادى الشاعر وهما

شيخ لنا من ربيعة الفرس ... ينتف عثنونه من الهوس
أنطقه الله بالمشان كما ... رماه وسط الديوان بالخرس

وللحريرى تآليف حسان ، منها درة الغواص فى أوهام الخواص ، ومنها ملحة الإعراب المنظومة فى النحو ، وله أيضا شرحها ، وله ديوان رسائل ، وشعر كثير غير شعره الذى فى المقامات ، فمن ذلك قوله وهو معنى حسن :

قال العواذل ما هذا الغرام به ... أما ترى الشعر فى خديه قد نبتا
فقلت والله لو أن المفند لى ... تأمل الرشد فى عينيه ما ثبتا
ومن أقام بأرض وهى مجدبة ... فكيف يرحل عنها والربيع أتى

ومنه ما ذكره عماد الدين الأصبهانى فى كتاب الخريدة :

كم ظباء بحاجر ... فتنت بالمحاجر
ونفوس نفائس ... حدرت بالمحادر
وتثنى الخاطر ... هاج وجد الخاطر
وعذار لأجله ... عاذلى عاد عاذرى

وشجون تضافرت عند كشف الضفائر

وله قصائد استعمل فيها التجنيس كثيرا ، ويحكى أنه كان دميما قبيح المنظر ، فجاءه شخص غريب يزوره ويأخذ عنه شيئا ، فلما رآه استزرى شكله ففهم الحريرى ذلك ، فلما التمس منه أن يملى عليه قال له اكتب :

ما أنت أول سار غره قمر ... ورائد أعجبته خضرة الدمن
فاختر لنفسك غيرى إننى رجل ... مثل المعيدى فاسمع بى ولا ترنى

فخجل الرجل وانصرف . وكانت ولادة الحريرى فى سنة ست وأربعين وأربعمائة ، وتوفى سنة عشر وقيل خمس أو ست عشرة وخمسمائة بالبصرة .

ألوان جديدة من الأدب

فى العصر العباسى

ظهر فى العصر العباسى الكبير كثير من الألوان والفنون الادبية الجديدة ؛ وفى مقدمتها :

١ — أدب المقامة .

٢ — الادب الصوفى .

٣ — أدب الزهد .

٤ — أدب السخرية كما نراه فى : « رسالة التربيع والتدوير » للجاحظ ؛ وفى قصائد ابن الرومى وغيره من الشعراء .

٥ — أدب القصة الخيالية ؛ كما فى رسالة الغفران وغيرها .

٦ — أدب الحكمة المزدوجة بألوان عميقة من الفلسفة والتفكير العقلى .

٧ — أدب النقد والموازنة الادبية .

٨ — النقد الاجتماعى .

٩ — أدب الطبيعة .

١٠ — أدب السمر والقصة .

١١ — أدب الخطابة الدينية .

١٢ — أدب الغلمان بما يشتمل عليه من غزل بالمذكر وسواه .

وهذه الألوان العديدة ، قد عرضنا لها فى ثنايا فصول هذا الكتاب ، والذى لم نتعرض له منها فلانه موضوع بحوث مستقلة ، ستنشر فى كتب أخرى غير هذا الكتاب .

وإنى فى غنى عن أن أقول : إن العصر العباسى قد أحدث آثارا عميقة فى الأدب ، ووجهه توجيها جديدا ، ودراسة ذلك كله هى التى حفزتنى إلى إخراج هذا الكتاب ، وسيحفزنى لاخراج كتب أخرى مكملة لبحوثه ، ومتممة لدراساته ، إذا وفق الله ، وسدد الخطى ، وأرشدنا إلى سواء السبيل

صور من الأدب العباسى

— ١ —

دخل رجل بدوى (١) عليه شعث السفر ، على داود (٢) المهلبى — وكان إذا حضر الطعام يتقدم بصرف البوابين ، ولا يمنع من الوصول إلى طعامه — فلما فرغ من الطعام وثب قائما وأومى إليه ، وقال : من أنت يافتى ؟ قال : شاعر ، قصدتك بأبيات من الشعر . قال داود : مهلا قليلا ، ثم دعا بقوس فأوترها (٣) ، وأومى إليه وقال له : قل ، فان أنت أحسنت خلعت وأجزلت ، وإن أخطأت رميتك بهذا السهم يقع فى أى موضع يقع فيه ، فتبسم البدوى ، وقال :

أمنت بداود وجود يمينه ... من الحدث المرهوب والبؤس والفقر
وأصبحت لا أخشى بداود نبوة ... ولا حدثانا إن شددت به أزرى
له حكم لقمان وصورة يوسف ... وملك سليمان وصدق أبى ذر
فتى تهرب الأموال من جود كفه ... كما يهرب الشيطان من ليلة القدر
فقوسك قوس الجود والوتر الندى ... وسهمك فيه الموت فاقتل به فقرى

فضحك داود ورمى بسهمه مع القوس من يده ، وقال : يافتى العرب ، بالله هل كان ذكر القوس فى الأبيات ؟ فقال : لا والله ! ففرح بذلك ، وقال ؟ يافتى عرب بالله أيهما أحب اليك : أعطيك على قدرك أم على قدرى ؟ قال : بل على قدرى قال : كم على قدرك ؟ قال : مائة ألف درهم ، فأمر له بها ، ثم قال : مامنعك أن تقول على قدرى ؟ فقال : أيها الأمير ، أردت أن أقول ذلك ، فاذا الأرض لم تساو قدر الأمير ، فطلبت على قدرى ! فقال : لله درك ! والله ان نثرك لأحسن من نظمك ! وأمر له بمائة ألف ثانية ، وأمره ألا ينقطع عنه .

— ٢ —

وقال العتابى : كنا بباب الفضل بن يحى البرمكى أربعة آلاف ما بين شاعر وزائر ، وفينا فتى (٤) يحدثنا ونجتمع إليه ؛ فبينما هو ذات يوم قاعد إذ أقبل إليه غلام له ! فقال له : يامولاى ؛ أخرجتنى من بين أبوى ، وزعمت أن لك صلة بالملوك ، فقد

(١) المختار من نوادر الأخبار — مخطوط .

(٢) هو داود بن زيد بن حاتم المهلبى ، كان واليا على إفريقية ، ثم ولاه الرشيد السند ، فاتسقت له أمورها ، واستمر بها إلى أن توفى سنة ٢٠٥ هـ

(٣) أوتر قوسه : جعل لها وترا . (٤) الأوراق للصولى ص ٤

صرنا إلى أسوأ ما يكون من الحال . فان رأيت أن تاذن لى فأنصرف إلى أبوى فعلت ! فاغرورقت عينا الفتى ، ثم قال : ائتنى بدواة وقرطاس ، فأتاه بهما فقعد ، فكتب رقعة ، ثم قام إلى مجلسه ، ثم قال للغلام : انصرف إلى وقت رجوعى اليك . فبينما نحن كذلك إذ جاء رجل يستأذن على الفضل ، فقام اليه الفتى ، فقال : توصل رقعتى هذه إلى الأمير ؟ قال : ومافى رقعتك ؟ قال : أمدح نفسى ، وأحث الأمير على قبولى ، قال : هذه حاجة لك دون الأمير ، فان رأيت ان تعفينى فعلت ! قال : قد فعلت . فعاد إلى مجلسه ، فخرج الحاجب فقام اليه ، فقال له مثل مقالته الأولى . فاستظرفه الحاجب ، وقال : إن رجلا يمدح نفسه ولا يمدح الفضل عجيب ! فأخذمنه الرقعة فلوحها للفضل ، فقرأ منها سطرين ، وهو مستلق على فراشه ، ثم استوى قاعداً ، وتناول الرقعة ، فقرأها ، فلما فرغ قال للحاجب : أين صاحب الرقعة ؟ قال : أعز الله الأمير . والله لا أعرفه لكثرة من بالباب ، فقال الفضل أنا أنبذه لك الساعة . ياغلام ! اصعد القصر : فناد أين مادح نفسه ؟ فقام الغلام فصاح ، فقام الفتى من بيننا بغير رداء ولاحذاء ! فلما مثل بين يدى الفضل ، قال له : أنت القائل مافيها ؟ قال : نعم قال : أنشدنى ، فأنشأ الفتى يقول :

أنا من بغية (١) الأمير وكنز ... من كنوز الامير ذو أرباح
كاتب حاسب خطيب أديب ... ناصح زائد على النصاح
شاعر مفلق أخف من الريـ ... ـشة مما يكون تحت الجناح (٢)
لى فى النحو فطنة وانقاد ... أنا فيه قلادة بوشاح
ثم أروى من ابن سيرين للعلـ ... ـم بقول منور الافصاح
ثم أروى من ابن سيرين للشعـ ... ـر وقول النسيب والأمداح
وظريف الحديث فى كل فن ... وبصير بترهات الملاح
كم وكم قد خبأت عندى حديثا ... هو عند الملوك كالتفاح
فبمثلى تخلو الملوك وتلهو ... وتناجى فى المشكل الفداح
أيمن الناس طائرا يوم صيد ... لغدو دعيت أو لرواح
أبصر الناس بالجواهر والخيـ ... ـل وبالخرد الحسان الصباح

---

(١) من بغيته مطالبه ، يريد أن الامير لو اصطنعه واصطفاه لرأى فيه خيرا كثيرا ، وقد عدد مزايا نفسه فى البيتين بعده (٢) الشاعر المفلق : المبدع ، وأخف الريش وأدقه ما يكون تحت الجناح ، وأراد بالخفة خفة الروح .

كل ذا قد جمعت والحمد لله على أنى ظريف المزاح
لست بالناسك المشمر ثوبيه ولا الماجن الخليع الوقاح
إن رمى بى الأمير أصلحه الله رماحا ثلمت حد الرماح
ماأنا واهن ولا مستكين لسوى أمر سيدى ذى السماح

حتى أتى على آخرها . فقال له الفضل :

كاتب ، حاسب ، خطيب ، أديب ، ناصح زائد على النصاح ؟!

قال : نعم ! أصلح الله الأمير ، فقال الفضل : ياغلام ، الكتب التى وردت من فارس ! فأتى بها ، فقال للفتى : خذها فاقرأها وأجب عنها ، فجلس بين يدى الفضل يكتب ، فقال له الحاجب : اعتزل يكن خيرا لك ! فقال : ههنا الرأى أجمع بحيث الرغبة والرهبة . فلما فرغ من الكتب عرضها على الفضل ، فكأنما شق عن قلبه ، فقال الفضل : ياغلام ، بدرة ، بدرة ، فقال الفتى للغلام : أعز الله الأمير ، دنانير أو دراهم ، قال : دراهم ! قال : دنانير ياغلام ! فلما وضعت البدرة بين يديه قال الفضل : احملها بارك اللهلك فيها . قال الفتى : والله — أيها الأمير — ما أنا بحمال وما للحمل خلقت ! فإن رأى الأمير أن يأمر بعض غلمانه بحملها على أن الغلام لى ! فأشار الفضل إلى بعض الغلمان ، فأشار الفتى إليه : مكانك ! ثم قال: إن رأى الامير — أيده الله أن يجعل الخيار إلى فى الغلمان كما فعل بين البدرتين فعل . فقال: اختر ! فاختار من أحسنهم غلاما ، فقال : احمل ، فلما صارت البدرة على منكب الغلام بكى الفتى ، فاستفظع الفضل ذلك ، وقال : ويلك ! أستقلالا ؟ قال : لا — والله — أيدك الله ولقد أكثرت ، ولكن أسفا أن الارض توارى مثلك ! قال الفضل : هذا أجود من الاول ، ياغلام ، زده كسوة !

— ٣ —

كان داود بن يزيد (١) بن حاتم المهلبى يجلس للشعراء فى السنة مجلسا واحدا ، فيقصدونه لذلك اليوم وينشدونه ، فوجه إليه مسلم راويته بقصيدته التى أولها :

لا تدع بى الشوق إنى غير معمود نهى النهى عن هوى الهيف الرعاديد(٢)

(١) أمير من الشجعان العقلاء ولاه الرشيد السند وتوفى فيها سنة ٢٠٥ ﻫ
(٢) أى لا تدعنى مشتاقا ، وسأله دعبل عن معنى ذلك ، فقال لا تدعنى صريع الغوانى ، فلست كذلك ، وكان لهذا اللقب كارها ، والمعمود : المشغوف عشقا . والهيف الضامرات الخصور ، وامرأة رعديدة : يترجرج لحمها من نعمتها وكذلك الرخصة الناعمة .

فقدم عليه يوم جلوسه للشعراء ولحقهم عقب خروجهم عنه ، فتقدم إلى الحاجب وحسر لثامه عن وجهه ، ثم قال : استأذن لى على الأمير ؛ قال : ومن أنت ؟ قال شاعر ، قال : قد انصرم وقتك وانصرف الشعراء وهو على القيام ، فقال له : ويحك ! إنى قد وفدت على الأمير بشعر ما قالت العرب مثله ، وكان مع الحاجب أدب يفهم به ما يسمع ، فقال : هات حتى أسمع ، فإن كان الأمر كما ذكرت أوصلتك إليه ؛ فأنشده بعض القصيدة ، فسمع شيئا يقصر عنه الوصف ، فدخل على داود فقال له : قدم على الأمير شاعر بشعر ما قالت العرب مثله ، فقال : أدخل قائله ! فلما مثل بين يديه سلم ، وقال : قدمت على الأمير - أعزه الله - بمدح يسمعه ، فيعلم تقدمى على غيري ممن امتدحه ؛ فقال : هات ! فلما افتتح القصيدة وقال : « لا تدع بى الشوق » استوى جالسا ، وأطرق حتى أتى الرجل على آخر الشعر ، ثم رفع رأسه إليه ، فقال : أهذا شعرك ؟ قال : نعم أيها الامير ! قال : فى كم قلته يا فتى ؟ قال : فى أربعة أشهر أبقاك الله ، قال : لو قلته فى ثمانية أشهر لكنت محسنا ، وقد اتهمتك ؛ لجودة شعرك وخمول ذكرك ، فإن كنت قائل هذا الشعر فقد أنظرتك أربعة أشهر فى مثله ، وأمرت بالاجراء عليك فان جئتنا بمثل هذا الشعر وهبت لك مائة ألف درهم وإلا حرمتك ، فقال : أو الاقالة - أعز الله الامير - قال : قد أقلتك ؛ قال : الشعر لمسلم بن الوليد وأنا راويته والوافد عليك بشعره ، فقال : أنا ابن حاتم ! إنك لما افتتحت شعره فقلت : لا تدع بى الشوق إلى غير معمود(١) سمعت كلام مسلم ينادبنى ، فأجبت نداءه واستويت جالسا ؛ ثم قال : يا غلام . أعطه عشرة آلاف درهم ، واحمل الساعة إلى مسلم مائة ألف درهم !

— ٤ —

خرج مسلم(٢) بن الوليد ذات يوم ، فلقى يزيد بن منصور الحميرى بباب الرشيد ، فسلم ؛ فرد عليه السلام ، ورحب به ، وسأله عن شأنه نخبره ، وسأله أن يقربه من الخليفة ، وأن يحتال حتى يعد فى ممازحيه ، ومن يجرى عليه أرزاقه ! فقال له الحميرى . سأتأنى لوصولك إلى أمير المؤمنين !

فدخل الحميرى فأصاب أمير المؤمنين لقس(٣) النفس ، قد اشتمل عليه الفكر فى سرعة تقضى أمور الدنيا ، وأنه لا يتشبث منها بشىء إلا كان كالظل الزائل ،

(١) انظر القصيدة فى عصر المأمون ص ٢٨٢ ج ٢ .
(٢) المحاسن والمساوئ ص ٢٥٣ طبع ليبزج .
(٣) لقس النفس : لقست نفسه من الشىء : غثت وخبثت :

والسراب الخادع ! فقال له جعفر بن يحيى : يا أمير المؤمنين أفتظن أن هذا الفكر يحبس عليك الايام ، ويمنعك مما لا تستمتع به ، إنما هذا الذى أنت فيه عارض عرض لك ، وقد كان ملك من الملوك حكيما ، يقول : الهم مفسدة للنفس ، ومضلة للفهم ، ومدهشة للقلب ؛ ومن أعظم الخطأ التشاغل بما لا يمكن دفعه !

وقال له سليمان بن أبى جعفر : يا أمير المؤمنين ، قد قال لقمان الحكيم : من ملك يستأثر ، ومن لايستشر يندم ، والهم نصف الهرم ؛ والفقر الموت الاكبر . فكأن الرشيد نشط ، واندفع عنه ما اعتراه من ذلك الفكر ، فتقدم إليه الحميرى ، وقال : يا أمير المؤمنين ، خلفت بالباب آنفا رجلا من أخوالك الانصار متقدما فى شعره وأدبه وظرفه ، أنشدنى قصيدة يذكر فيها أنسه ولهوه ولعبه ومحادثته إخوانه ، ويذكر مجالس اتصلت له ، بأبلغ قول وأحسن وصف وأقرب رصف ، يبعث والله على الصبابة والفرح ، ويباعد عن الهم والترح ، وكأنه قد وفق — بيمن أمير المؤمنين ، وسعادة جده — لان يكون مبرئا من هذه الشكوى ، زائدا فى سرور أمير المؤمنين ، مستدعيا له صلة رحمه ، والتشرف بخدمته .

فاستفزه السرور والقلق إلى دخوله ، واستماع قصيدته ، وجعل يتابع الرسل بعضهم فى إثر بعض ، حتى دخل ، وكان حلو الشمائل ، فوصل إليه فى وقت قد كان خرج فيه من رسم الشباب وشرته ، ولم يكن فى عداد من قد اضطرب سنا ،وكان — ناهيك من رجل — معه فهم وتجربة وتمييز ومعرفة ، فأمهل حتى سكن ، ثم أذن له فى الجلوس ، فانبرى مسلم ينشد قصيدته التى يقول فيها :

أديرا على الكأس لاتشربا قبلى ... ولاتطلبا من عند قاتلتى ذحلى (١)
فما جزعى أنى أموت صبابة ... ولكن على من لايحل لها قتلى
أحب التى صدت وقالت لتربها : ... دعيه ، الثريا منه أقرب من وصلى !
بلى ربما وكلت عينى بنظرة ... إليها تزيد القلب خبلا على خبل
كتمت تباريح الصبابة عاذلى ... فلم يدرما بى ، واسترحت من العذل

إلى ان قال :

---

(١) الذحل : الثأر .

إذا ماعلت منا ذؤابة واحد　　تمشت به مشى المقيد فى الوحل
فلا نحن متنا موتة الدهر بغتة　　ولاهى عادت بعد عل (١) ولانهل
سأنقاد للذات متبع الهوى　　لأمضى هما أو أصيب فتى مثلى
هل العيش إلا أن تروح مع الصبا　　وتغدو صريع الكأس والاعين النجل؟

فجعل الرشيد يتطاول لها ، ويستحسن ما حكاه من وصف شراب ولهو وغزل وسهولة ألفاظ ، فأمر له بمال ، وأمر أن يتخذ له مجلس يتحول إليه ، وجعل الرشيد وأصحابه يتناشدون قصيدته ، فسماه يومئذ — بآخر بيت من شعره — صريع الغوانى !

— ٥ —

كان هارون الرشيد(٢) يقتل أولاد فاطمة وشيعتهم ، وكان مسلم بن الوليد ـ صريع الغوانى ـ قد رمى عنده بالتشيع ، فأمر بطلبه ، فهرب منه ، ثم أمر بطلب أنس بن أبى شيخ كاتب البرامكة ، فهرب منه ، ثم وجد هو ومسلم بن الوليد عند قينة ببغداد، فلما أتى بهما ، قيل له : ياأمير المؤمنين ؛ قد أتى بالرجلين ! قال : أى الرجلين ؟ قيل أنس بن أبى شيخ ، ومسلم بن الوليد . فقال الحمد لله الذى أظفرنى بهما ، ياغلام أحضرهما ، فلما دخلا عليه نظر إلى مسلم ، وقد تغير لونه ، فرق له ، وقال : إيه يامسلم ، أنت القائل :

أنس الهوى ببنى على فى الحشا　　وأراه يطمح عن بنى العباس

قال : بل أنا الذى أقول ـ ياأمير المؤمنين :

أنس الهوى ببنى العمومة فى الحشا　　مستوحشا من سائر الأناس(٣)
وإذا تكاملت الفضائل كنتم　　أولى بذلك يا بنى العباس

فعجب هارون الرشيد من سرعة بديهته ، وقال له بعض جلسائه : استبقه ياأمير المؤمنين ، فانه من أشعر الناس ، وامتحنه فسترى منه عجباً ! فقال له : قل شيئاً فى أنس فقال : ياأمير المؤمنين ؛ أفرخ (٤) روعى أفرخ الله روعك يوم الحاجة إلى ذلك ، فانى لم أدخل على خليفه قط ، ثم أنشأ يقول :

(١) العل : الشرب بعد الشرب تباعا ، أو الشربة الثانية ، والنهل محركة أول الشرب
(٢) العقد الفريد ص ٤٢٩ ج ١
(٣) الأناس : الناس
(٤) أذهب روعى وفزعى

تلمظ(١) السيف من شوق إلى انس فالموت يلحظ والأقدار تنتظر
فليس يبلغ منـه ما يؤمله حتى يؤامر فيه رأيك القدر
أمضى من الموت ، يعفو عند قدرته وليس للموت عفو حين يقتدر

فأجلسه هارون وراء ظهره ، لئلا يرى ما هم به ، حتى إذا فرغ من قتل أنس قال له : أنشدنى أشعر شعر لك ، فكلما فرغ من قصيدة قال : التى تقول فيها « الوحل » فانى رويتها وأنا صغير ، فأنشده شعره الذى أوله :

أديرا على الراح لا تشربا قبلى ولا تطلبا من عند قاتلتى ذحلى (٢)

حتى انتهى إلى قوله :

إذا ما علت منا ذؤابة شارب تمشت بنا مشى المقيد فى الوحل

فضحك هارون ، وقال : عليك ! أما رضيت أن قيدته حتى يمشى فى الوحل : ثم أمر له بجائزة وخلى سبيله .

— ٦ —

قال على بن جبلة فى القاسم بن عيسى

المنايا فى مقانبه (١) والعطايا فى ذرا حجره
ملك تندى أنامله كانبلاج النوء عن مطره
مستهل عن مواهبه كابتسام الروض عن زهره
جبل عزت مناكبه أمنت عدنان فى نفره
إنما الدنيا أبو دلف بين مبداه ومحتضره
فإذا ولى أبو دلف ولت الدنيا على أثره
كل من فى الأرض من عرب بين باديه إلى حضره
مستعير منه مكرمة يكتسيها يوم مفتخره

فغضب المأمون واغتاظ ، وقال : لست لأبى إن لم أقطع لسانه أو أسفك دمه ، ثم قال : اطلبوه حيث كان ، فطلب فلم يقدر عليه ، ولما اتصل به الخبر هرب إلى الجزيرة ، فكتب إلى الآفاق فى طلبه ، فهرب من الجزيرة إلى الشام ، وظفروا به هناك ، فأخذ وحمل إلى المأمون ، ولما وصل إليه سبه وقال له : أنت القائل للقاسم بن عيسى :

كل من فى الأرض من عرب بين باديه إلى حضره

---

(١) أصل التلمظ تحريك اللسان فى الفم كأنه يتتبع بقية الطعام بين أسنانه . ويقال تلمظت الحية : إذا أخرجت لسانها لتلمظ الآكل (٢) الذحل : الثأر .

(١) المقانب ، جمع مقنب وهو جماعة الخيل تغير

مستعير منك مكرمة يكتسيها يوم مفتخره

جعلتنا ممن يستعير المكارم منه ! فقال له : ياأمير المؤمنين ، أنتم أهل بيت لايقاس بكم أحد ، لأن الله جل وعز فضلكم على خلقه ، واختاركم لنفسه ، وإنما عنيت بقولى فى القاسم أشكال القاسم وأقرانه ، فقال : والله مااستثنيت أحداً ، ولست استحل دمك لذاك ، ولكنى أستحله بقولك وكفرك فى شعرك ، حيث تقول القول الذى أشركت فيه :

أنت الذى تنزل الأيام منزلها وتنقل الدهر من حال إلى حال
وما مددت مدى طرف إلى أحد إلا قضيت بأرزاق وآجال

كذبت ، ومايقدر على ذلك أحد إلا الله عز وجل ، الملك الواحد القهار ، ثم أمر بعقابه !

— ٧ —

وقال الكسائى (١) دخلت على الرشيد ، فلما قضيت حق التسليم والدعاء ، وثبت للقيام ، فقال : اقعد ، فلم أزل عنده حتى خف عامة من كان فى مجلسه ، ولم يبق إلا خاصته ، فقال لى : ياعلى ، ألا تحب أن ترى محمداًوعبد الله (٢) ؟قلت : ماأشوقنى إليهما ياأمير المؤمنين ، وأسرنى بمعاينة نعمة الله على أميرالمؤمنين ! فأمر بإحضارهما فلم ألبث أن أقبلا ككوكبى أفق ، يزينهما هدوء ووقار ، وقد غضا أبصارهما ، وقاربا خطوهما ، حتى وقفا على باب المجلس ، فسلماً على أبيهما بالخلافة ، ثم قالا تمم الله على أمير المؤمنين نعمه ، وشفعها بشكره ، وجعل ماقلده من هذا الامر أحمد عاقبة ، ولا كدر عليه منه ماصفا ، فقد صرت للسلمين ثقة ، إليك يفزعون فى أمورهم ، ويقصدون فى حوائجهم ، فأمرهما بالدنو منه ، فصير محمداً عن يمينه وعبد الله عن يساره ، ثم التفت إلى فقال : ياعلى ، مازلت ساهرا مفكرا فى معانى أبيات قد خفيت على.. قلت : إن رأى أمير المؤمنين أن ينشدنيها فأنشدنى :

قد قلت قولا للغراب إذ حجل عليك بالقود المسانيف الاول
تغد ماشئت على غير عجل

---

(١) المسعودى ص ٢٧١ ج ٢ ، معجم الادباء ص ١٧٣ ج ١٣ ، المحاسن والمساوىء ص ٤٤٠ ، والكسائى اسمه على بن حمزة وأصله من فارس ، أشهر نحاة الكوفه وأحد القراء السبعة ، استقدمه الخلفاء العباسيون ليعلم أبناءهم ، وألف كثيرا من الكتب فى النحو والقراءات والادب والنوادر ، وتوفى سنة ١٨٩ ﻫ

(٢) محمد الامين وعبد الله المأمون ابنا الرشيد

فقلت : نعم ياأمير المؤمنين ، إن العير إذا فصلت من خيبر ، وعليها التمر ، يقع الغراب على آخر العير ، فيطردها السواق ، يقول هذا : تقدم إلى أوائل العير ، فكل على غير عجل ، والقود ، الطوال الاعناق والمسانيف ، المقدمة ... ثم أنشدنى :

لعمرى لئن عشرت من خشية الردى نهاق الحمار إننى لجهول

قلت : نعم ياأمير المؤمنين ، كان الرجل من العرب إذا دخل خيبر أكب على أربع وعشر تعشير الحمار ، وهو أن ينهق عشر نهقات متتابعات ، يفعل ذلك ليدفع عن نفسه حمى خيبر ... ثم أنشدنى قول الآخر :

أجاعل أنت بيقورا (١) مضرمة ذريعة لك بين الله والمطر

قلت : نعم ، كانت العرب إذا أبطأ المطر شدت العشر (٢) والسلع ، وهما ضربان من النبت ، فى أذناب البقر وألهبوا فيه النار ، وشردوا البقر تفاؤلا بالبرق والمطر

ثم أنشدنى لرجل آخر :

وسرب ملاح قد رأيت وجوههم إناث أدانيه ، ذكور أواخره

قلت : إنه يعن الأضراس . . . ثم أنشدنى لآخر :

فإنى إذن كالثور يضرب جنبه إذا لم يعف شربا وعافت صواحبه

قلت : نعم ، كانت العرب إذا أوردت البقر الماء ، فشربت الثيران وأبت البقر ضربت الثيران حتى تشرب البقر ، وهو كما قال : كالثور يضرب لما عافت البقر

ثم أنشدنى :

ومنحدر من رأس برقاء حطه مخافة بين أو حبيب مزايل

قلت : نعم ، يعنى الدموع ، والبرقاء : العين ، لأن فيها سوادا وبياضا ، وحطه : أساله ، وحبيب : محبوب ، ومزايل : مفارق ، فوثب الرشيد فجذبنى إلى صدره ، وقال : لله در أهل الأدب ! ثم دعا بجارية ، فقال لها : احملى إلى منزل الكسائى خمس بدر على أعناق خمسه أعبد يلزمون خدمته ، ثم قال لى : استنشدهما — يعنى ابنيه — فأنشدنى محمد الأمين :

وإنى لعف الفقر مشترك الغنى وتارك شكل لا يوافقه شكلى
وشكلى شكل لا يقوم بمثله من الناس إلا كل ذى نيقة (٣) مثلى
ولى نيقة فى المجد والبذل لم يكن تأنقها فيما مضى أحد قبلى
وأجعل مالى دون عرضى جنة لنفسى وأستغنى بما كان من فضلى

---

(١) اسم جمع لبقرة (٢) شجر لم يقتدح الناس فى أجود منه

(٣) النيقة : اسم من تنوق فى الأمر : تجود وتأنق فيه .

وأنشدنى عبد الله المأمون :

بكرت تلومك مطلع الفجر ولقد تلوم بغير ما تدرى
ما إن ملكت مصيبة نزلت إذ لا يحكم(١) طائعا أمرى
ملك الملوك على مقتدر يعطى إذا ما شاء من يسر
فلرب مغتبط بمرزئة ومفجع بنوائب الدهر
ومكاشح لى قد مددت له نحراً بلا ضرع(٢) ولا غمر
حتى يقول لنفسه لهفاً : فى أى مذهب غاية أجرى
وترى قناتى حين يغمزها غمز الثقاف بطيئة الكسر

ثم أمرنى أن أسألهما ، ففعلت ، فما سألتهما عن شىء إلا أحسنا الجواب فيه والخروج منه ، فسر بذلك الرشيد ، حتى تبينته فيه ، ثم قال : يا على ، كيف ترى مذهبهما وجوابهما ؟ فقلت ، يا أمير المؤمنين هما كما قال الشاعر :

أرى قمرى مجد وفرعى خلافة يزينهما عرق كريم ومحتد
يسدان آفاق السماء بشيمة يؤيدها حزم وعضب مهند
سليلى أمير المؤمنين وحائزى مواريث ما أبقى النبى محمد

يا أمير المؤمنين ، هما فرع زكا أصله ، وطاب مغرسه ، وتمكنت فى الثرى عروقه ، وعذبت مشاربه ، أبوهما ملك أغر نافذ الأمر ، واسع العلم ، عظيم الحلم ، فهما يستضيئان بنوره ، وينطقان بلسانه ، ويتقلبان فى سعادته ، فأمتع الله أمير المؤمنين بهما ، وآنس جميع الأمة ببقائه وبقائهما ، فما رأيت أحدا من أولاد الخلفاء ، وأغصان هذه الشجرة المباركة أذرب(٣) منهما لسانا ، ولا أعذب كلاما ، ولا أحسن ألفاظا ، ولا أشد اقتدارا على تأدية ماحفظا ورويا ، ودعوت لهما دعاء كثيرا ، وأمن الرشيد على دعائى . . ثم ضمهما إليه ، وجمع يديه عليهما فلم يبسطهما حتى رأيت الدموع تنحدر على صدره ، رقة عليهما وإشفاقا ، ثم أمرهما بالخروج . فلما خرجا أقبل على ، فقال : كأنك بهما ـ وقد حم القضاء ،

---

(١) حكم الأمر: أحكمه .

(٢) الضرع : من ضرع ، إذا ذل وخضع ، والغمر ، من لم يجرب الأمور وبالتحريك الحقد .

(٣) الذرب : الحديد اللسان .

ونزلت مقادير السماء ، وبلغ الكتاب أجله وانتهى الأمر إلى وقته المحدود، وحينه المسطور الذى لا يدفعه دافع ، ولا يمنع منه مانع - قد تشتت أمرهما ، وافترقت كلمتهما ، وظهر تعاديهما ، ثم لم يبرح ذلك بهما حتى تسفك الدماء ، وتكثر القتلى، وتهتك ستور النساء .

— ٨ —

حكى أبو حامد أحمد بن محمد الاسفرايني الفقيه الشافعى(١) ، قال : كنت يوما عند فخر الملك أبى غالب محمد بن خلف وزير بهاء الدولة وابنه سلطان الدولة ، فدخل عليه الرضى أبو الحسن(٢) ، فأعظمه وأجله ، ورفع من منزلته ، وخلى ما كان بيده من القصص والرقاع ، وأقبل عليه يحادثه إلى أن انصرف ، ثم دخل بعد ذلك المرتضى أبو القاسم ، فلم يعظمه ذلك التعظيم ، ولا أكرمه ذلك الاكرام، وتشاغل عنه برقاع يقرؤها وتوقيعات يوقع بها ، فجلس قليلا ، وسأله أمراً فقضاه ، ثم انصرف . قال أبو حامد : فتقدمت إليه ، وقلت له : أصلح الله الوزير! هذا المرتضى هو الفقيه المتكلم صاحب الفنون ، وهو الأمثل(٣) الأفضل منهما ، وإنما أبو الحسن شاعر ، فقال لى : إذا انصرف الناس ، وخلا المجلس أجبتك عن هذه المسألة ، قال : وكنت مجمعا على الانصراف ، فجاءنى أمر لم يكن فى الحسبان فدعت الضرورة لملازمة المجلس إلى أن تقوض الناس واحدا فواحدا ، فلما لم يبق إلا غلمانه وحجابه دعا بالطعام ، فلما أكلنا وغسل يده وانصرف عنه أكثر غلمانه ، ولم يبق عنده غيرى ، قال لخادم له :

هات الكتابين اللذين دفعتهما اليك منذ أيام ، وأمرتك أن تجعلهما فى السفط (٤) الفلانى ، فأحضرهما فقال : هذا كتاب الرضى ، اتصل بى أنه قد ولد له ولد فأنفذت اليه ألف دينار ، وقلت : هذه للقابلة — فقد جرت العادة أن يحمل الأصدقاء إلى أخلائهم ، وذوى مودتهم مثل هذا فى هذه الحال ، فردها ، وكتب إلى

(١) ابن أبى الحديد ص ١٣ ج ١ .

(٢) هو أبو الحسن محمد بن الطاهر ، كان أبوه نقيب الطالبين ، وصارت إليه النقابة وأبوه حى ، أجمع النقاد على أنه أشعر قريش ، وكان عالما بعلوم القرآن واللغة والنحو ، وله فيها المؤلفات النافعة - ٣٥٩ - ٤٠٦ هـ .

(٣) فلان أمثل بنى فلان : أى أدناهم للخير .

(٤) السفط : الجوالق ، أو كالقفة .

هذا الكتاب ، فاقرأه . قال : فقرأته ، وهو اعتذار عن الرد ، وفى جملته : إننا — أهل بيت — لايطلع على أحوالنا قابلة غريبة ، وإنما عجائزنا يتولين هذا الأمر من نسائنا ، ولسن ممن يأخذن أجرة . ولا يقبلن صلة . قال : فهذا ، هذا ، وأما المرتضى فاننا كنا قد وزعنا وقسطنا (١) على الأملاك تقسيطاً نصرفه فى حفر فوهة النهر المعروفة بنهر عيسى ، فأصاب ملكا للشريف المرتضى عشرون درهما . وقد كتب إلى منذ أيام فى هذا المعنى هذا الكتاب فاقرأه ، فقرأته ، وهو أكثر من مائة سطر يتضمن من الخضوع والخشوع والاستمالة والطلب والسؤال فى إسقاط هذه الدراهم على أملاكه المشار اليها مايطول شرحه . قال فخر الملك : فأيهما ترى أولى بالتعظيم والتبجيل : هذا العالم المتكلم الفقيه الأوحد ، ونفسه هذه النفس ، أم ذلك الذى لم يشتهر إلا بالشعر خاصة ونفسه تلك النفس ؟ فقلت : وفق الله الوزير ، فمازال موفقاً وماوضع الأمر إلا فى موضعه ، ولا أحله إلا فى محله .

— ٩ —

للطغرائى فى وصف غدير :

عجنا إلى الجزع الذى مد فى	أرجائه الغيم بساط الزهر
حول غدير ماؤه المنتمى	إلى نبات المزن يشكو الخصر
لو لاذت الريح سموما به	لانقلبت وهى نسيم السحر
حصباؤه در ، ورضراضه	سحالة العسجد حول الدرر
وقد كسته الريح من نسجها	درعا بها يلقى نبال المطر
وألبسته الشمس من صبغها	نورا به يخطف نور البصر
كأنه المرآة مجلوة	على بساط أخضر قد نشر

— ١٠ —

ولابن النبيه المصرى :

أفديه ان حفظ الهوى أوضيعا	ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا
من لم يذق ظلم الحبيب كظلمه	حلوا فقد جهل المحبة وادعى
يا أيها الوجه الجميل تدارك الصبـ	ـر الجميل فقد عفا وتضعضعا
هل فى فؤادك رحمة لمتيم	ضمت جوانحه فؤادا موجعا ؟
هل من سبيل أن أبث صبابتى	أو أشتكى بلواى أو أتوجعا ؟
إنى لأستحيى كما عودتنى	بسوى رضاك إليك أن أتشفعا

(١) قسط الشىء : فرقه

خاتمـــة الـكتاب

هذه الدراسات المستفيضية للأدب العباسى ، وأصوله ، وألوانه ، ومذاهبه ، وأعلامه ، التى يتضمنها هذا الـكتاب ، أجد نفسى فى غنى عن أن أبين للقارىء الواعى المثقف جدتها وأهميتها معا ، فإن فى إدراك القارىء الفطن ويقظته ما يغنينى عن ذلك كله .

ولم تقتصر هذه الدراسة على عرض الأدب العباسى وفق المنهج التاريخى فى دراسة الادب ، بل إن المنهج النقدى أظهرعلى الـكتاب: بما يشتمل عليه من نقد وموازنة ، وتحليل ، وشرح وتوجيه ، وبيان لخصائص أدب المحدثين وميزاته ومذاهبه .

والأعلام العديدة التى ترجمنا لها فى هذا الـكتاب ، لم نقتصر فى دراستها على عرض جوانب من حياتها ، بل درسناها كقطعة حية من صميم الادب العباسى المزدهر الحى ، المشرق بالاصالة والابتداع .

وكذلك أصول الثقافات التى كونت الأدب العباسى ، والعناصر المختلفة التى لونت هـذا الأدب ، تجد لها إيضاحا وافيا فى هذه الدراسات الواسعة . . مع توخى الدقة ، والاشارة إلى جميع المصادر ، وإلى أصول هذا البحث العديدة .

ولاأجد ما أقوله للقارىءإلا أن هذا الـكتاب هوالنواة ، التى ستنبعمنها بحوث جديدة أخرى حول الأدب العباسى ، أرجو أن تظهر فى دراسات منوعة فى القريب ، بين أيدى القراء ، بعون الله .

ولا أملك شيئا من الأمر إلا أن أكرر ما قلته من أنى لا أعتمد على شىء ، إلاعلىذوقالقارىء المثقف الواعى ، ويقظته وعطفه . وبالله التوفيق ،ومنه السداد، وهو عونى ، نعم المولى ، ونعمالنصير . . .

المؤلف

فهرست الكتاب

مؤلف:

١ — قصص من التاريخ	—	٣٥٠ صفحة
٢ — الأزهر فى ألف عام	—	٤٠٠ «
٣ — أعلام الأدب فى عصر بنى أمية	—	٣٥٠ «